

9.3.2016

رحلة في أقاصي الليل



تأليف: لويس فرديناند سيلين
ترجمة: حسن عودة

قصص وروايات 3

لويس فرديناند سيلين

رحلة في أقاصي الليل

ترجمة

حسن عودة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٧

رحلة في أقاصي الليل

Louis - Ferdinand Céline

Voyage au bout de la nuit

رحلة في أقاصي الليل = Voyage au bout de la nuit / لويس
فرديناند سيلين ؛ ترجمة حسن عودة . - دمشق : وزارة الثقافة، ٢٠٠٦
- ٦٥٦ ص ؛ ٢٤ سم . - (قصص وروايات ؛ ٣) .

١- ٨٤٣ ف س ي ل ر ٢- العنوان ٣- سيلين
٤- عودة ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٣»

عن الكاتب والرواية

مات "سيلين في عزلته دون أن يحظى في حياته بشهرة أو بمال. مات كاتباً ملعوناً بسبب التهمة التي التصقت به بأنه معاد للسامية، وما تزال بعض كتبه مثل "مدرسة الجثث" و"لا شيء من أجل مجزرة" و"البيارق الجميلة" خاضعة للمنع والرقابة في بلد ديمقراطي مثل فرنسا، وما يزال صدور طبعة جديدة من أحد كتبه يشكّل حدثاً ثقافياً وسجالياً في كثير من البلدان. فقد أثار صدور ترجمة عبرية لروايته "رحلة في أقاصي الليل" قبل سنوات سجالاتاً حاداً في الكنيست الإسرائيلي بدعوى أن هذا الكاتب الراحل كان من غلاة المعادين للسامية وللإهود. ومنذ حوالي شهرين تقريباً صدرت الترجمة الكاملة لـ"رحلة في أقاصي الليل" باللغة الألمانية، بعد أن كانت الترجمة الوحيدة لهذه الرواية منقحة ومختصرة بسبب تعقّد أسلوب سيلين وبسبب المفردات التي ابتكرها أو التي قام بنحتها.

غير أن هذا الكاتب المعذب الروح، المسافر أبداً في أعماق الليل يركض خلفه الجميع اليوم، لعلهم يقتنصون خيطاً واحداً من ضوءه ليتطهروا به من ذنب الجحود، وها هو الضوء يغمره في كل مكان، وينفض الغبار عن

رواياته، وتصدر حوله مئات المقالات والتحقيقات والدراسات، ويتخطى تأثيره حدود فرنسا وأوروبا حيث يعترف أحد كبار كتّاب اليابان هو كنزا بورو أوي بتأثير سيلين على أدبه وعلى أدب كتّاب يابانيين آخرين، ويشهد له أحد أعظم كتّاب أمريكا اللاتينية هو ماريو بارغاس يوسا بأنه أحد معلمي الرواية العظام في القرن العشرين.

يرجع سوء الفهم وروح العداء تجاه سيلين وحملات التشهير التي تعرض لها من كافة الاتجاهات السياسية في فرنسا، من اليسار ومن اليمين إلى أنه كتب في عام ١٩٣٦ مجموعة من المقالات، انتقد فيها الدور اليهودي في إشعال فتيل الحرب الفرنسية الألمانية وهو ما أثار حفيظة يهود فرنسا، كما أنه كتب في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالي روايتين تضمنتا نقداً مريباً لتطرف اليهود ولنشاطهم المشبوه في فرنسا وألمانيا وقد جرّت عليه هاتان الروايتان مشكلات واتهامات جعلته يعيش على الهامش منبوذاً من معظم أصدقائه، ومنهم سارتر الذي كان معجباً بسيلين أشد الإعجاب والروايتان هما "لا شيء من أجل مجزرة" و"مدرسة الجثث"، ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يذكر سيلين إلا من خلال هذه الأعمال.

ولد سيلين في ضواحي باريس في كوربفوا في ٢٢ أيار عام ١٨٩٤، وقاتل أثناء الحرب العالمية الأولى في الفلاندر، وجرح جرحاً بليغاً في ذراعه. وبعد إنهائه الخدمة العسكرية درس الطب في عام ١٩١٨، وأصبح

طبيباً في الثلاثين من عمره، وقام برحلات عديدة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٥ وإلى أفريقيا عام ١٩٢٦، ثم عمل طبيباً في باريس بمستشفى "كلشي" البلدي حيث بدأ الكتابة هناك. وفي عام ١٩٣٢ ظهرت روايته الأولى "رحلة في أقاصي الليل" فأحرزت نجاحاً ساحقاً وترددت أصداؤها في سائر أنحاء أوروبا وفي أمريكا. وفي عام ١٩٣٦ صدرت روايته الثانية "موت بالتقسيت"، أما روايته الثالثة "البيارق الجميلة" فقد كتبها بعد اندحار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

ولكونه مصنفاً مع المتعاملين مع العدو الألماني ومن المعادين للسامية فقد غادر سيلين فرنسا عام ١٩٤٤ متجهاً إلى الدانمارك ترافقه زوجته لوسيت، وكان آنذاك في الخمسين من عمره. ولكنهما احتجزا في ألمانيا بعد أن طلبا تأشيرة لدخول الدانمارك، وفي ٢٢ آذار عام ١٩٤٥ حصل على تأشيرة ودخلا الأراضي الدانماركية، وهناك أُلقي القبض عليهما بطلب من مدير المفوضية الفرنسية في الدانمارك والذي طالب بطرد الكاتب وتسليمه إلى فرنسا، وقد أخلي سبيل زوجته بعد أيام بينما ظل هو في السجن.

كانت عمليات التطهير قد بدأت في فرنسا عام ١٩٤٥، وقد أعدم عدد من الكتاب من أصدقاء سيلين وعدد من قادة المتعاونين مع الاحتلال الألماني، كما اغتيل ناشر سيلين روبير دونويل في أحد شوارع باريس من قبل مجهول. كانت الدعوى المقدمة من مدير المفوضية الفرنسية تتضمن تهم

الخيانة والتعامل مع العدو ومعاداة السامية وكل واحدة منها كافية لإعدامه، ولكن السلطات الدانماركية رفضت تسليمه واحتجزته في السجن حتى عام ١٩٤٧، حيث أطلق سراحه. واستقر في الدانمارك حتى عام ١٩٥١، وحين أصدرت المحاكم الفرنسية عفواً عنه عاد إلى فرنسا واستقر في ضاحية ميدون القريبة من باريس، وكتب رواياته الأخرى "نورمانس" عام ١٩٤٥، و"من قصر إلى آخر" عام ١٩٥٧، و"شمال" عام ١٩٦٠ أما روايته الأخيرة "ريكودون" فقد انتهى منها في ٣٠ حزيران عام ١٩٦١، ومات في اليوم التالي في عزلة خانقة.

صدم سيلين الجميع قراء وكتّاباً، ليس بمواقفه وحسب، بل بخروجه على كافة المقاييس والاعتبارات التي كانت تحكم الأدب الفرنسي آنذاك والتي لم تكن غالبيتها نابعة بالضرورة من الأدب ذاته.

وقد جاءت روايته الأولى "رحلة في أقاصي الليل" لتقدم الدليل على أن من الممكن كتابة رواية مختلفة كلياً، وأهم ما يميز هذه الرواية، مثل رواياته الأخرى تلك الروح الهجائية اللاذعة والمرة التي تخللتها إزاء المجتمع الفرنسي وإزاء المتحكمين بمصيره.

تحدث سيلين في عدد من مقابلاته الصحفية عن تجربته في الكتابة قائلاً "عندما دخلت عالم الكتابة بدأت بإهمال مهنة الطب، وقد كلفني دخولي في هذا

العالم كثيراً من المشكلات والمتاعب. ابتدأت المشاكل بكل بساطة عام ١٩٢٧ عندما فكرت في شراء شقة كي لا أطلب بدفع الإيجار شهرياً، ولم أكن أملك في ذلك الحين فلساً واحداً. كنت أعتقد بأنني إذا بعث كتاباً فسأحصل على المال اللازم لشراء شقة. وهكذا ذهبت إلى الناشر دينويل وتركت لديه مخطوطة رواية "رحلة في أقاصي الليل" لكن المخطوطة ضاعت، ثم وجدتها امرأة مجهولة. أما اسم سيلين فهو اسم جدتي، كنت أرغب في أن يمر هذا الاسم دون أن أثير ضجة حولي، لأن من الصعوبة الجمع بين مهنتي الطب والكتابة، وهكذا صرت سيلين متسمىاً باسم امرأة. وقد كلفني ذلك غالباً، ولكنني واصلت الكتابة. وبما أنني كنت محتاجاً إلى المال فقد اضطررت إلى العمل في أحد مستشفيات البلدية، فكانوا ينظرون إليّ نظرة مريبة عندما يكتشفون بأنني سيلين الكاتب. إنهم، بصورة عامة لا يحبون هذا النمط من الأطباء، ووظيفة الكاتب تبدو لهم سخيفة. ذلك الرجل الذي يجلس إلى الطاولة وأمامه أكوام من الورق الأبيض لكي يكتب لهم أفكاراً جميلة، ومن أجل ماذا؟ هل لأنه يعرف الأشياء أكثر من غيره؟ كان هدفي تجارياً محضاً، ولم أكتب كتاباً واحداً إلا بنية الحصول على المال، ولو توفر لدي المال لما دخلت مغامرة الكتابة، ولكن طورت مهنتي في الطب، وربما برعت فيها، ولحصلت على راتب تقاعدي يساعدي على العيش. حين بدأت الكتب تباع، قلت حسناً، ولكن الحياة أصبحت معقدة، وهكذا تحول شأن الكتابة بالنسبة إلي

إلى نوع من اللعنة. ولولا دخولي عالم الكتابة لكنت أنعم الآن بالهدوء والسكينة، ولكنني مضيت في مهنة الانفعالات الحسية والتي سببت لي الكثير من المتاعب، كثير من الناس يجهلون بأن الريشة الغنائية الانفعالية الساحرة تنتج قصصاً فظيعة".

وعن أسلوبه في الكتابة يقول سيلين:

يقلد الكتاب الآخرون نموذجاً مسبقاً ويتمسكون له، فهم يتحمسون لبورجيه وفولتير وأنا تولي فرانس، ولكن هذا النموذج المثالي يعيق التعبير عن رؤيتهم الشخصية. تعرفت على أستاذ للغناء في جنيف، وقال لي بأن جميع الناس يمتلكون صوتاً، ليس هناك صوت جيد، كل شخص بإمكانه أن يغني، وأنا أقول أن أي شخص أيضاً بإمكانه أن يكتب كتاباً ويكون لنفسه أسلوباً، شريطة أن لا يحاول الظهور بمظهر الكاتب الكبير، فهذا التظاهر مرض خطير، وهو لا يليق إلا بامرأة تظهر على المسرح أو برجل سياسي أو محام، ونحن لا نتحمله عند كاتب له أسلوبه لأنه ببساطة ليس بحاجة إلى الحديث عن نفسه. لقد انتهى الدور الوثائقي أو البسيكولوجي للرواية، هذا هو انطباعي، فما الذي تبقى للرواية إذن. لم يبق لها سوى الأسلوب.

يرى سيلين بأن الأسلوب يكمن في إرغام الجمل على الخروج بخفة من معناها المعتاد، إخراجها عن طورها، ونقلها من مكانها، وإرغام القارئ على

تغيير المعنى، لكن بخفة كبيرة، غير أن هذا يتطلب كثيراً من الحساسية، وهو أمر صعب، لأنه يقتضي الدوران حول العواطف والانفعالات، تقول الكتب السماوية "في البدء كانت الكلمة" ولكنني أقول في البدء كانت العاطفة، ثم جاءت الكلمة بعد ذلك لتأخذ مكان العاطفة. لقد جرى طرد البشر من مملكة الشعر العاطفي والوجداني لإدخالهم في الديالكتيك، في الأفكار. والواقع أنه لا شيء أكثر سوقية وبذاءة من الأفكار. أنا لست رجل فكر ولكنني رجل أسلوب. يعجب الناس جميعاً بالأسلوب، ولكن أحداً منهم لا يجرؤ على دخول هذه اللعبة لأنها عمل شاق جداً. الناس لا يحفرون أبداً بنحو عميق ليجدوا ما يبحثون عنه، إنهم يظلون على السطح، أما أنا فأعمل بصعوبة بالغة وأبدل جهوداً كبيرة دون أن يرى ذلك بوضوح، وأنا حين أكتب لا أرغب في الدخول في تفاصيل لا تفيد القارئ. يكفي أن يفتح القارئ الكتاب ويقع في سحره، وحينئذ يقول: "آه يا فرديناند، آه يا ديستوش (وهم اسم الكاتب الحقيقي)، أنت خنزير لأن كل ما أردته هو أن تجعلنا ننفعل معك" في حين أنه حين يقرأ الكتاب الآخرين يصاب بالضجر والاشمئزاز لأنهم يتبعون بعضهم بعضاً كالخرفان، يقلدون بعضهم بعضاً دون علم، في حين أن الأصالة غالباً ما تكون نادرة وهذا ما ينطبق على الرسامين، فما يميزهم على ما أعتقد، هو أسلوب كل واحد منهم، أما ما يبعث على الضجر فيعود إلى الروح الأكاديمية والسطحية والامتثالية.

إنني أكتب للناس الجالسين في بيوتهم والذين يريدون القراءة. وعلي أن أقوم بالعمل على أكمل وجه. وحين يقرؤني الآخرون بصوت خافت يشعرون بأن أحداً يكلمهم، أي أن أحداً يتحدث إلى أعصابهم وليس إلى مجرد آذانهم. ومن خلال البصر تعتمل الكيمياء في رؤوسهم مباشرة، إنهم ليسوا بحاجة للقراءة بصوت عال، لأنني أكتب بحميمية فائقة. يقال بأن الموسيقى هي رسالة مباشرة إلى الجهاز العصبي، وأعترف بأنه لو أتيح لي خيار لأصبحت موسيقياً أو شاعراً لأن لغة الشاعر أكثر انفعالية من غيرها.

كتب سيلين أكثر من مئتي رسالة خلال العامين اللذين قضاهما في السجن، كتبها إلى زوجته ومحاميته. وقد جمعت حديثاً في كتاب بعنوان "رسائل من السجن إلى لوسيت ديستوش والمحامية" ويعتبر نشر هذه الرسائل حدثاً أدبياً بالغ الأهمية. لم يكتب سيلين هذه الرسائل سعياً إلى المجد والشهرة بل من أجل الاستمرار في الحياة، بكل بساطة. فهو يشجع محاميته مدام ميكلسين على متابعة قضيته ويستذكر قطعه "بيير" ويناغي زوجته لوسيت بعبارات رقيقة "قلبي الصغير"، "ظريفتي الصغيرة" وغيرها من عبارات الحب التي استخدمها سيلين لأول مرة، كما يحاول التخفيف من وطأة ظروف سجنه، بعد أن فقد أربعين كيلو غراماً من وزنه، ولم ينس الضحايا الذين كان يشعر بالانتماء إليهم من أمثال فيلون وشينييه، وشاتوبريان وهوغو ورامبو وآخرون. ويدافع سيلين فيها عن نفسه بأنه لم يتعاون مع المحتل الألماني

لامن قريد ، ولا من بعيد. ويقول بأن العدا للسامية قديم قدم العالم، أما عدائي للسامية بشكله المبالغ به فهو أنبي صرف، فأنا لم الألق أحداً. وعلى أية حال ففي فرنسا لم يمارس أي اضطهاد لليهود، وفي أثناء الاحتلال كان الوكلاء النشطاء للغستابو يهوداً أو نصف يهود.

بعد مرور خمسين عاماً على موت الكاتب يبقى لهذه الرسائل وقع وأثر عظيمين، فهل يمكن القول بأن شبح سيلين ما زال يسيطر على الأدب الفرنسي بعد أن حيرَ الكتاب والقراء بروايته العظيمة "رحلة في أفاصي الليل".

نقلًا عن كتاب سيلين الفضيحة لهنري غودار

وعن بعض الصحف والمجلات

رحلة في أقاصي الليل

إيكم كيف بدأت الأمور. لم أكن قد قلت شيئاً على الإطلاق، أي شيء كان أرتور غانار هو من دفعني إلى الكلام. وأرتور طالب في كلية الطب مثلي، وصديق لي. التقينا إذن. في ميدان كليشي، بعد الغداء، كان راغباً في الحديث إلي. وكنت أصغي إليه. «علينا ألا نبقى في الخارج، قال أرتور، فلنعد أدراجنا!» وعدت معه. «هذا الرصيف يصلح لسلق البيض، هكذا بدأ أرتور حديثه، تعال من هنا»، ولاحظنا آنذاك أن الشوارع قد خلت من المارة، بسبب القيظ، وما من سيارات أيضاً، لا شيء. الأمر هكذا! وحين تشتد برودة الجو كذلك، تقفر الشوارع تماماً. كان هو من ذكرني بذلك، حين قال: «يبدو على الباريسيين الانهماك دوماً، رغم أنهم ينتزهون من الصباح وحتى المساء. والدليل، أن أحداً لا يشاهدهم قط حين يتعكر الجو، ولا يعود ملائماً للنزهة، بسبب شدة البرد أو الحر. ويلوذ الجميع ببيوتهم يحتسون القهوة بالكريما وأكواب الجعة. ذلك هو ديدنهم! يقولون إنه عصر السرعة! ولكن أين هي السرعة؟، عصر التغيرات الكبرى، ولكن كيف؟ لا شيء تغير في الحقيقة، ومع ذلك فهم ما برحوا معجبين بأنفسهم! هذا كل شيء. وليس هذا جديداً أيضاً. فحتى الكلمات التي يتداولونها في أحاديثهم لم تتغير كثيراً أيضاً، كلمتان أو ثلاث، من هنا وهناك...» كان أرتور فخوراً وهو يطنطن بهذه الحقائق المفيدة، فيما مكثنا جالسين، مفتونين بالنظر إلى سيدات المقهى.

ثم تحول الحديث إلى الرئيس بوانكاريه الذي كان قد ذهب في ذلك الصباح بالذات لافتتاح معرض للكلاب الصغيرة. ثم تطرق أرتور إلى صحيفة الزمن التي أوردت خبر الرئيس:

«ألا ترى معي أن «الزمن» نموذج يحتذى في الصحافة» لقد بدأ أرتور غانار يغيظني الآن. «ليس لدينا صحيفة أخرى مثلها للدفاع عن العرق الفرنسي». «إنه بحاجة إلى ذلك، العرق الفرنسي، نظراً إلى أنه غير موجود!» أجبته بلباقة كي أظهر له بأنني لم أكن بالمقابل أقل اطلاعاً ومصداقيةً منه.

«بلى! هناك عرق فرنسي، وعرق أصيل، أصر أرتور على موقفه، وتابع بل إنه السلالة الأكثر أصالة في العالم، ومن ينكر ذلك فهو مخدوع بالتأكيد!». ها هو ذا يسترسل في مضايقتي، ولكنني تمسكت بموقفي.

«هذا ليس صحيحاً. إن ما تسميه أنت بالعرق ليس سوى هذه النفاية من الزريرين من أمثالي، المرمدين المبرغثين الهلعين الذين جنحوا إلى هذه البقعة من الأرض، يطاردهم الجوع، والطاعون والدمامل والبرد، جاؤوا مهزومين من أربعة أقطار الأرض، ولم يكن بمقدورهم الذهاب أبعد من ذلك بسبب البحر. تلك هي فرنسا بالضبط، وأولئك هم الفرنسيون.

— باردامو، رد علي بوقار وبشيء من الحزن، ليس آباؤنا بأقل قدر منا، فلا تأت على ذكرهم بسوء..

— أنت على حق، يا أرتور، بخصوص ذلك، أنت على حق. أولئك الحقودون والطيعون، المغتصبون المسلوبون، الجوف والبلهاء على الدوام، ليسوا أقل قدراً منا! يمكنك قول ذلك. نحن لم نغير لا جواربنا، ولا أولياء أمورنا ولا أفكارنا، أو أننا سنغير بعد أمد طويل حين لا يعود لذلك أية أهمية. لقد ولدنا أوفياء، وسنهلك نحن أيضاً! مثلما هلكوا، جنوداً بالمجان، أبطالاً للعالم أجمع، وقردة ناطقة.

كلمات وجيعة، نحن الطرفاء المملون في بلاط الملك، ملك البؤس، الملك المتوج الذي يهيمن علينا، وحين لا نكون عاقلين يشد على خناقنا، تلتف أصابعه دوماً حول أعناقنا. حتى نعجز عن النطق، ينبغي أن نتبّه جيداً إذا ما أردنا تناول الطعام.. إنه يخنقك مجاناً وبلا ثمن. هذا غير محتمل..

— ولكن، هناك الحب يا باردامو!

— الحب اللانهائي موجود عند الكلاب يا أرتور، وأنا لذي كرامتي. أجبتة:

— فلنتحدث عنك أنت إذن، لست إلا فوضوي، وهذا كل شيء.

ياله من ماكر صغير، وأنتم ترون ذلك في رده الآن، وفي اعتماده على

كل ما كان هناك من أفكار مسبقة.

«أنت قلت ذلك، مزهواً متشدقاً، بأنني فوضوي، وأنا أقدم لك أفضل

دليل على فوضويتي. لقد ألّفت نوعاً من صلاة انتقامية — اجتماعية، سنقول

لي على الفور بأنني فوضوي فعلاً: الأجنحة الذهبية، ذلك هو عنوانها»،

وتلوتها له حينئذ:

إله يعد الدقائق والقروش، إله قانط، شبق، ينخر مثل خنزير، خنزير

بأجنحة ذهبية ترفرف في كل مكان، وبيطن مشرّع في الفضاء، يتوق

للمداعبة. ذلكم هو، سيدنا، فلنعانقه!

— «قطعتك الصغيرة هذه لا تصمد أمام الحياة، لقد توصلت أنا إلى

تأييد النظام القائم، ولست معنياً بالسياسة، ومع ذلك، فحين يدعوني الوطن إلى

التضحية من أجله فلن يجدي متقاعساً بالتأكيد، بل مستعداً لتقديمه له» ذلك ما

أجابني به.

كانت الحرب تقترب منا كلينا، دون أن نعي شيئاً عنها. لم أعد أعاند أرتور

كثيراً. فقد كانت هذه المناقشة القصيرة ولكن النزقة قد أتعبتني. كنت منزعجاً،

أيضاً، لأن عامل المقهى عاملني بنوع من الفظاظة بسبب البخشيش. وفي النهاية تصالحنا أنا وأرتور تماماً، وافقت آراؤنا حول كافة الأمور تقريباً.

«هذا صحيح، أنت محق بوجه الإجمال، وافقت أرتور مصالحاً. ولكننا جميعاً في النهاية، جالسون، على ظهر سفينة، نجدف بملء أذرعنا، لا نستطيع أن نقول لي خلاف ذلك.. جالسون فوق مسامير تشدنا جميعاً. وما الذي نجنيه من ذلك؟ لا شيء، ضربات بالهراوة حسب، ضحك شديد، أكاذيب، ضروب من الأذى أيضاً. ثم نقول، ها نحن نعمل! ولكن عملنا هذا أقطع من كل ما تبقى من العمل في السفينة. إننا في قاع السفينة ننتفس بجهد من أشداقنا، متعفين، ننضح بالعرق والهباب. وفي الأعلى، على سطح السفينة، في الهواء الطلق هناك السادة الذين لا يقومون بأي عمل من تلك الأعمال، بصحبتهم نساء جميلات متوردات، عابقات بالعطور تفوح من ركبهن، يطلبون منا الصعود إلى سطح السفينة، وحينذاك، يعتمرون قبعاتهم بكثير من الأبهة، وبصيحون بنا بأعلى صوتهم هكذا: «أيتها العصابة القذرة من قطاع الطرق! إنها الحرب، وحين نقرب منهم، نحن القذرون الذين نقيم في الوطن رقم ٢، يفتحون لنا الصناديق. هيا، هيا، كل ما يلزمكم موجود على ظهر السفينة: الجميع بصوت واحد. لتطلقوا في البداية صيحة واحدة مدوية: يعيش الوطن رقم ١! وتُسمع الصيحة من بعيد! ومن يصرخ بصوت أعلى سينال الميدالية وبركة المسيح..، ومن لا يريد الهلاك في البحر، فيمكنه دوماً أن يختار الهلاك على اليابسة، وسيكون هلاكه هنا أسرع من هناك "الأمر هكذا تماماً" وافقني أرتور. وقد غدا بالإمكان إقناعه بسهولة .

في تلك اللحظة بالضبط، مر أمام المقهى، حيث كنا نجلس، فوج عسكري يتقدمه كولونيل على صهوة جواده تبدو على محياها علائم النبيل والبسالة الفاتفة. فما كان مني إلا أن وثبت من مقعدي وثبة ملؤها الحماس.

«سأرى إن كان الأمر يسير على هذا النحو» صحت بأرتور. ها أنا ذاهب للتطوع، ودون تأخير أيضاً.

«أنت غير..... يا فردناند» صاح بي أرتور، مغتاضاً بلا ريب من الأثر الذي أحدثته حركتي في الجمع المحتشد حولنا. شعرت بالاستياء قليلاً، لأنه أخذ الأمر على هذا النحو. ولكن ذلك لم يثنني، كنت قد عقدت العزم «أنا على استعداد، لن أراجع!» قلت لنفسى.

«سترى، يالفت!» كان ما يزال لدي الوقت لأصرخ في وجهه قبل أن ينعطف الشارع. وينعطف الفوج خلف الكولونيل وموسيقاه. هكذا حدثت الأمور بالضبط.

مشينا مسافةً طويلةً بعد ذلك، كان ما يزال هناك المزيد من الشوارع احتشد فيها مدنيون ونساؤهم يهتفون لنا هتافات التشجيع ويرشقوننا بالزهور، من الأرصفة، وأمام المحطات، ومن الكنائس المكتظة بالمصلين، كان هناك الكثير من الوطنيين!.. ثم بدأ عددهم يتناقص بعد أن هطل المطر، وصار يقل أكثر فأكثر.. ولم تعد تسمع قط صيحة تشجيع، على الطريق.

لم يتطوع إذن سوانا من بين الوطنيين؟ بعضنا وراء البعض الآخر؟ ثم توقفت الموسيقى عن العزف. «باختصار، قلت لنفسى حينذاك حينما رأيت ما آلت إليه الأمور. لم يعد هذا مسلياً! لا بد من إعادة النظر في الأمر. وكنت سأهم بالانصراف، ولكن الأوان قد فات، كانوا قد أغلقوا الباب بهدوء خلفنا، نحن المدنيون، كنا قد فعلنا، مثلما تفعل الفران حينما تقع في المصيدة.



حينما تمّ الأمر. تمّ على أحسن وجه. أركبونا على حصان، وبعد مضي شهرين فوق ظهره، أعادونا راجلين، ربما لأن كلفة الخيول كانت باهظة جداً. وذات صباح بحث الكولونيل عن حصانه فلم يجده، كان تابعه قد ذهب به لايدري أحد إلى أين، والأرجح أنه قاده إلى مكان صغير لا ينفذ إليه الرصاص بسهولة مثلما كان ينفذ إلى وسط الطريق، ذلك لأننا كنا قد انتهينا إلى الوقوف هناك بالضبط، أنا والكولونيل، في عرض الطريق تماماً، وكنت أنا أحمل سجله الذي كان يدوّن فيه أوامره.

على مسافة بعيدة منا، فوق الطريق المعبد، بقدر ما كان بوسعنا النظر، كان ثمة نقطتان سوداوان في وسط الطريق، مثلنا تماماً، كانتا شبحي جنديين ألمانين منهمكين في الرمي منذ ربع ساعة.

ربما كان، كولونيلنا، يعلم لماذا كان هذان الألمانيان يطلقان النار، ولعل الألمانيين أيضاً كانوا يعلمان، أما أنا، فلم أكن على علم في الحقيقة. كنت أنقب في أعماق ذاكرتي، لم أكن قد فعلت شيئاً سيئاً للألمان، كنت دائماً لطيفاً جداً ومهذباً معهم، وكانت لدي بعض المعرفة بهم، فقد تعلمت وأنا صغير في إحدى مدارسهم، في ضواحي هانوفر، وتكلمت لغتهم، كنا حينذاك مجموعة من الصغار البلهاء الصخابين، بعيون شاحبة زائغة كعيون الذئب، كنا نذهب معاً، بعد الانصراف من المدرسة، إلى الغابة المجاورة لنتحسس أجساد الفتيات، ولنرمي بالمقاليع الصغيرة والمسدسات التي نشترها بأربعة ماركات، ونشرب البيرة المحلاة بالسكر. ولكن بين هذا وبين أن نطلق النار على بعضنا الآن وفي وسط

الطريق، حتى من دون أن نتحدث فيما بيننا في أول الأمر، كان هناك مسافة، بل هوة عميقة. ما أفدح الفرق!

كانت الحرب بوجه الإجمال تمثل بالنسبة إليّ كل ما كنت أعجز عن فهمه ولا أستطيع الاستمرار به.

هل حدث إذن بين هؤلاء الناس شيء ما غير مألوف؟ لم أكن أستشعره أنا على الإطلاق. وما كنت خليقاً أن أدركه؟

لم تكن مشاعري قد تغيرت قط تجاه الألمان. كانت تراودني رغم كل شيء، رغبة في محاولة فهم شراستهم، ولكن كانت لدي رغبة أكبر أيضاً بالذهاب بعيداً جداً بالتأكيد، لفرط ما بدا لي كل ما كان يدور، نتيجة لخطأ فادح.

«في مثل هذا الوضع، ليس هناك ما يمكن فعله، ليس ثمة سوى الفرار» كنت أحدث نفسي، في نهاية المطاف.

على بعد ميلمتين فوق رؤوسنا. أو ميلتر واحد ربما من صدوغنا كانت تلك الخطوط الفولاذية الطويلة المغوية تقبل مرتجة، واحداً بعد الآخر، تخطها الرصاصات التي تبغي قتلك. في غمرة قيظ الصيف.

ما شعرت قط في يوم من الأيام بهذا القدر من العبث وأنا وسط كل تلك الطلقات، وتحت أشعة هذه الشمس، يا لها من سخرية مريرة شاملة.

لم يكن لي من العمر آنذاك، سوى عشرين عاماً. على البعد كانت تلوح للنظر مزارع مهجورة، وكنائس خاوية أو مفتوحة على مصاريحها، كما لو كان الفلاحون قد غادروا جميعاً تلك القرى للاحتفال بأحد الأعياد في الطرف الآخر من المقاطعة، وعهدوا إلينا بكل ما كانوا يملكون، قراهم، وعرباتهم، وعرائشهم المعلقة، وحقولهم، وحدائقهم المسيجة، والطريق والأشجار وحتى الأبقار، وكلب مربوط بسلسلته، وكل شيء، كي نجد أنفسنا مطمئنين كل الاطمئنان، لأن نفعل ما

نشأ أثناء غيابهم. كان ذلك يبدو لطفاً منهم. «على أي حال، لو لم يكونوا في مكان آخر — قلت لنفسي — لو كان ما يزال منهم أناس هنا فلن نتصرف، بالتأكيد، بهذه الطريقة الشائنة، بهذا القدر من الإساءة، لن نتجرأ على ذلك أمامهم. غير أن أحداً لم يعد موجوداً ليراقبنا. ما من أحد سوانا، على غرار الأزواج الذين يقتربون أشنع المواقف. حينما يغيب بعضهم عن بعض».

كنت أفكر أيضاً (خلف شجرة) بأنني لو استطعت أن أرى ديرونيدي^(١) هنا، ذلك الشاعر الذي حدثوني عنه كثيراً، وشرحوا لي أشعاره، ترى ما الذي كان سيفعله، لو أنه تلقى رصاصة في وسط كرشه.

كان ذاك الألمانيان جاثيين فوق الطريق، عنيدتين، يطلقان النار خبط عشواء، ولكنهما كما يبدو يملكان من الرصاص مخازن مملوءة، من دون شك، لم يكن للحرب نهاية بالتأكيد. كان كولونيلنا، لابد من قول ذلك، يبدي بسالة مذهلة، كان يتجول وسط الطريق المعبد، طويلاً وعرضاً بين خطوط الرصاص المتجهة صوبه، بالبساطة، التي ينتظر فيها صديقاً على رصيف المحطة، فاقد الصبر حسب..

فيما يتعلق بي، لابد لي، من القول، منذ البداية، بأنني كنت أمقت الريف مقتاً شديداً. لقد وجدته على الدوام غارقاً في الكآبة، بأحواله التي لا نهاية لها، وبيوته التي لا يقيم فيها أصحابها قط، ودروبه التي لا تقضي إلى مكان، وحين تضاف الحرب إلى كل ذلك، فإنه لا يطاق. هبت ريح عاصفة، من جوانب المنحدرات، واختلط حفيف أوراق الحور بأصوات الأزيز الصماء القادمة نحونا من هناك.. كان أولئك الجنود الذين لا نعرف عنهم شيئاً،

(١) بول ديرويد: باريس ١٨٤٦ — ١٩١٤ كاتب وسياسي فرنسي، ومؤلف أغان وطنية (أغنيات الجندي).

يخطئوننا باستمرار، ولكننا ونحن محاطون بألف موت، كنا نجد أنفسنا مستعدين لاستقباله. ولم أعد أجروء على الإتيان بحركة.

كان الكولونيل، إذن، وحشاً، كنت متأكداً من ذلك، أسوأ من كلب. لم تكن ميته تخطر له على بال. كنت أتصور في الوقت نفسه بأن هناك العديد من أمثاله بلا شك، من الشجعان في صفوف جيشنا، ومثلهم أيضاً في صفوف الجيش المقابل. منذ الذي يعرف عددهم؟ واحد، اثنان، عدة ملايين ربما، في كلا الجيشين. وتحول خوفي إلى هلع، فمع مثل هذه الكائنات كان يمكن لهذا الغباء الجهمي أن يستمر إلى ما لا نهاية، ولماذا يتوقفون؟ لم أشعر في يوم من الأيام بأن قرار البشر والأشياء كان أشد قسوة مما هو عليه الآن.

هل سأكون إذن، الجبان الوحيد على سطح الأرض؟ خطر لي ذلك، وبأي فزع!.. كنت ضائعاً بين مليونين من المجانين البطوليين الهائجين والمدججين حتى شعرهم بالسلاح؟. بخوذات ودون خوذات، بخيول، بدراجات نارية هادرة، بسيارات. صافرين، قانصين، متأمرين، طائرين في الجو، جاثمين على ركبهم حافرين في التراب، متسللين، واثبين في الدروب والمعابر، مفرعين، محبوسين فوق الأرض كأنما داخل كوخ، لكي يدمروا كل شيء، ألمانيا وفرنسا والقارات، وكل من يتنفس، أشد سعاراً من الكلاب، يعشقون سعارهم (وهو ما لا تفعله الكلاب) أشد سعاراً بمئة مرة، ألف مرة، من ألف كلب، وأكثر فساداً وفجوراً! ما كان أجملنا! لقد انخرطت بالتأكيد في حملة صليبية قيامية، ذلك ما كنت أتصوره.

كنت ما أزال غراً أمام الأهوال مثلما أمام المذات. كيف كان بمقدوري أن أتخيل كل هذا الهول حينما غادرت ميدان كليشي؟ منذ الذي كان يستطيع أن يتكهن بكل ما كانت تحويه الروح القذرة البطولية للبشر، قبل الدخول فعلاً

في أتون الحرب؟ وما إني أفعل الآن في فخ هذا الانفلات الجماعي، باتجاه القتل بالجملة، باتجاه النار.. كان ذلك صادراً عن الأعماق السحيقة. وما قد انفلت الآن.

لم يتعثر الكولونيل في سيره قط، كنت أشاهده فوق التلعة يتسلم رسائل صغيرة من الجنرال، ثم يمزقها نتقاً بعد أن يقرأها بكل تمهل بين زخات الرصاص. ألم يكن هناك إذن في أي من هذه الرسائل أمر بإيقاف شامل لهذه الفظاعة؟ ألم يقولوا له، إذن، في القيادة العليا بأن في الأمر خطأ ما؟ خطأ شنيعاً، سوء تفاهم؟ وأنا كنا مخدوعين؟ وأن هذا كله ليس سوى مناورات أرادوا القيام بها من أجل الضحك والمزاح، وليس مجزرة. ولكن لا، لا شيء من هذا، بل: «تابع أيها الكولونيل! أنت على الطريق الصحيح!» ذلكم من دون شك ما كان يكتبه له الجنرال انتراي، قائد الفرقة، قائدنا جميعاً والذي كان يرسل إلى كولونيلنا كل خمس دقائق رسالة، يسلمها له جندي ارتباط، كان الخوف في كل مرة يجعل لون هذا الجندي أشد اخضراراً، ويصيب معدته بالإسهال، كنت سأجعل من هذا الفتى أماً لي في الرعب، غير أنه لم يكن ثمة وقت للتأخي.

ما من خطأ إذن، وما كنا نقوم به من التراشق بالنار على هذا النحو، من دون حتى أن نرى بعضنا لم يكن ممنوعاً، كان هذا يُعد من الأمور التي يمكن أن يقوم بها المرء دون أن يستحق اللوم والتأنيب، لا بل إنه كان مقرراً، يحوز على التشجيع من دون ريب من قبل أصحاب الشأن، مثله مثل الليانصيب، ومثل الخطوبة، والصيد بالكلاب.. كان أمراً مسلماً به. كنت أكتشف الحرب بكل أهوالها دفعة واحدة.. لقد أزيلت بكارتي. ينبغي أن يقف المرء أمامها وحيداً تقريباً مثلما كنت في تلك اللحظة حتى يرى فظاعتها، مواجهة وجانبياً، لقد أشعلوا الحرب بيننا وبين أولئك الذين يواجهوننا وحمي

وطيسها الآن، على غرار التيار الكهربائي الذي يسري بين قطبين من الكربون داخل المصباح الكهربائي، دون أن يكون الكربون موشكاً على الانطفاء، وهو سيصعق الجميع، الكولونيل والآخرين، وكل ماكر مهما بلغ به المكر، وسيشوي لحمه ليس أقل مما سيشوي لحمي حينما سيمر القطب المقابل بين كتفيه.

هناك طرق عديدة للحكم على المرء بالموت. آه. كم كنت سأعطي في تلك اللحظة بالذات لكي أكون بين جدران السجن بدلاً من أن أكون هنا، أنا الأبله القميء، لو كنت قد سرقت شيئاً ما من مكان ما، حينما كان ذلك سهلاً جداً، مدركاً عواقب ذلك، أيام كان الوقت ما يزال مناسباً. هناك في السجن لا يفكر المرء بأي شيء، وهو يخرج منه حياً، فليس ثمة حرب. وما تبقى كلام في كلام.

لو كان ما يزال لدى الوقت، ولكن لم يعد لدي، لم يعد ثمة شيء أسرقه! كنت أحدث نفسي، كم سيكون الجو رائعاً داخل سجن هادئ، لا ينفذ إليه الرصاص، لا ينفذ أبداً، كنت أعرف سجنًا مجهزاً أفضل تجهيز، ضد الشمس وضد الحر! عبرت ذكراه كما لو في حلم، إنه سجن سانت جيرمين، القريب جداً من الغابة، كنت أعرفه جيداً وكنت أمر به غالباً فيما مضى، لكم يتغير المرء! كنت طفلاً آنذاك وكان ذلك السجن يثير مخاوفي لأنني لم أكن أعرف البشر بعد، لم أعد أصدق ما يقولونه على الإطلاق، ولا ما يفكرون به. من البشر، من البشر وحدهم، ينبغي أن يخاف المرء على الدوام. ترى كم من الوقت ينبغي أن يستمر جنونهم حتى يتوقفوا مستنفدين أخيراً، هؤلاء الوحوش؟ أشهر، سنوات، كم؟ ربما إلى أن يموت البشر جميعهم، أن يموت المجانين كافة؟ حتى آخر مجنون؟

لما أخذت الأحداث هذا المظهر المؤس. قررت المجازفة بالكل من أجل الكل، القيام بالمسعى الأخير، واليائس، أن أحاول، أنا وحدي إيقاف هذه الحرب! في الجانب الذي كنت فيه، على الأقل.

كان الكولونيل يتسكع على بعد خطوات مني. اتجهت نحوه لأكلمه. لم أكن قط قد فعلت ذلك من قبل، هذا أوان الجراءة. فهنا حيث نحن، لم يعد ثمة ما يخسره المرء تقريباً. «ماذا تريد؟» سألني، وقد فوجئ بلا شك من جرأتي على مقاطعته، كنت سأشرح له الأمور حينئذ، مثلما كنت أتصورها، وسأرى ما الذي كان يفكر به، المهم هو أن نتفاهم ونحن في الحياة، لأن من الممكن لشخصين اثنين، التوصل إلى رأي صائب أفضل من شخص بمفرده.

كنت على وشك القيام بهذا المسعى الحاسم حين وصل إلينا في تلك اللحظة بالضبط، وبخطوات سريعة جداً، منهوكاً ومخلع الحركات، خيال راجل (هكذا كنا نسمي آنذاك جنود الخيالة الذين لا خيول تحتمهم) حاملاً بيده خوذته مقلوبة على غرار بيليزير (جنرال بيزنطي) مرتعداً وملطخاً بالوحد ووجهه أشد اخضراراً، أيضاً، من وجه جندي الارتباط الآخر الذي كان يحمل الرسائل إلى الكولونيل، كان لا يفتأ يغمغم وقد بدا عليه كما لو أنه مصاب بمرض غريب، أو كمن خرج من القبر، كأن أماً شديداً يعتصر قلبه، لم يكن هذا الشبح إذن يحب الرصاص هو أيضاً؟ ويتوقع خطره مثلي؟

«ما هذا؟» أوقفه الكولونيل على الفور، بخشونة، منزعجاً، مسلطاً على هذا الشبح نظرة فولاذية.

حين رأى الكولونيل هذا الخيال الزري، بزيه الغريب والبعيد عن الزبي النظامي، وقد استحوذ عليه به الانفعال والهلع، استبد به السخط، فهو لم يكن يحب الخوف إطلاقاً، ذلك بديهي، كما أن تلك الخوذة على الأخص، التي

يحملها بيده، على غرار قبعة ميلون الدائرية كانت قد أحدثت أثراً مثبطاً في فوجنا المهاجم، وهو فوج كان يندفع بقوة في الحرب. كان يبدو على هذا الخيال الراجل وهو يدخل كما لو أنه يحيي الحرب بخودته.

تحت تلك النظرة القاسية كان الرسول المترنح يقف وقفة «استعداد» وأصابه الصغيرة فوق درزة بنطاله. مثلما ينبغي للجندي أن يفعل في مثل تلك المواقف، كان يرتجف، على هذا النحو، متصلباً فوق التلعة، متصبياً عرقاً على امتداد أوداجه، وكان فكاه يصطكان بقوة بالغة مطلقاً صرخات قصيرة مخنوقة. على غرار كلب صغير يحلم. لم يكن بمقدور أحد أن يتبين ما إذا كان يتكلم أم أنه كان يبكي.

كان ألماننا الجاثمون في الطرف الأقصى من الطريق قد استبدلوا آلة رميهم، وواصلوا حماقاتهم برشاش، كانوا يمزقون الجو بطلقاته مثل رزم من عيدان الكبريت، وكان الرصاص الغاضب من حولنا يتطاير مثل أسراب النحل. مديباً مثل إبره.

أفلح الرجل، رغم كل شيء، في أن يخرج من فمه شيئاً ما واضحاً «الماريشال باروس لقي مصرعه سيدي الكولونيل» قالها دفعة واحدة.

— وإذا؟

— قتل وهو ذاهب للبحث عن مقطورة الخبز على طريق ايتراب سيدي

الكولونيل!

— وإذا؟

— تطايرت أشلاؤه بقذيفة مدفع!

— وإذا؟ اللعنة

— هذا كل شيء، سيدي الكولونيل

— هذا كل شيء؟

— نعم هذا كل شيء. سيدي الكولونيل

— والخبز؟ سأل الكولونيل

بهذه العبارة انتهت تلك المحاورّة، لأنني أذكر جيداً بأن الكولونيل وجد الوقت ليقول: «والخبز؟»، وكان هذا كل شيء. وبعندئذ لا شيء سوى النار ومعها الدوي، ولكنه من ذلك النوع الذي لا يصدق المرء بأنه قد سمع مثله في يوم من الأيام. فقد امتلأت به، في الحال مآقينا وآداننا وأتوفنا وأفواهنا، حتى بت أحس، على الرغم من أنه قد انتهى، بأنني غدوت أنا نفسي من النار والدوي.

وبعد ذلك، لا! انقشعت النار أخيراً، ولكن الدوي لبث زمناً طويلاً داخل رأسي، وفي ذراعيّ وساقيّ، والتي كانت ترتجف كما لو أن أحداً كان يهزها بقوة. وبدت أطرافي كأنما ستنفصل عني، ولكنها بقيت مع ذلك معلقة بجسمي. ووسط الدخان الذي لفح عيوننا زمناً طويلاً ظلت رائحة البارود والكبريت عالقة بنا كأنما لتقتل كل ما في الأرض من البق والبراغيث.

فكرت على الفور، بعد ذلك، بالماريشال باروس الذي تطاير أشلاء كما أخبرنا بذلك الجندي الآخر. كان هذا خبراً سعيداً، نعم ما حل به! كنت أفكر حينئذ على هذا النحو: «كان بالتأكيد وغداً كبيراً، داخل الفوج، على الأقل» لقد أراد أن يحيلني إلى مجلس التأديب من أجل علبة محفوظات. «لكل إنسان حربته!». قلت لنفسي. من هذا الناحية، لا بد من الاعتراف بين وقت وآخر، بأن للحرب، كما يبدو، فائدة ما، كنت أعرف أيضاً ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الأوغاد الذين كنت سأساعد، بكل طيبة خاطر، في البحث لهم عن قنابل مثل باروس..

أما الكولونيل، فما كنت أتمنى له السوء، غير أنه مات مع ذلك. ما عدت أراه في بادئ الأمر، كان الانفجار قد طوح به من فوق التلعة، كان ممدداً على الأرض طريحاً بين ذراعي المراسل جندي الخيالة الراجل. الذي لفظ أنفاسه هو أيضاً. كان الاثنان متعانقين في تلك اللحظة وحتى الأبد. ولكن جندي الخيالة كان بلا رأس، لا شيء سوى فتحة فوق العنق يفور داخلها الدم، مبققاً مثل المربي داخل القدر. كان بطن الكولونيل مفتوحاً، وقد رسم على وجهه تكشيرة قدرة، لاشك أن هذه الضربة قد أزهقت روحه في اللحظة التي حدثت فيها. وأسفاً له! كانت تلك غلظته فلو أنه ذهب بعد الرصاصات الأولى لما أصابه سوء.

كل ذلك اللحم كان ينزف معاً بغزارة مريعة.

كانت ثمة قنابل ما تزال تنفجر ذات اليمين وذات الشمال فوق الميدان

الفسيح.

غادرت تلك الأمكنة دون إبطاء، سعيداً كل السعادة لأن لدي حجة مقنعة أتذرع بها، كنت أذندن كذلك وأنا أسير مترنحاً، مثل من انتهى للتو من مباراة للتجديف، وصارت ساقاه رخوتين قليلاً. «قنبلة واحدة! لقد سويت الأمور مع ذلك بقنبلة واحدة» كنت أحدث نفسي. «آه! ما قولك يا فرديناند: كنت أكرر طوال الوقت، آه! ما قولك يا فرديناند!...».

لم يكن ثمة شخص في نهاية الطريق. كان الألمان قد رحلوا، ومع ذلك فقد علمتني تلك الضربة، بسرعة فائقة، ألا أسير بعد الآن إلا إلى جانب الأشجار. كنت أتعجل الوصول إلى المعسكر لأعرف ما إذا كان ثمة آخرون قد اختطفهم الموت في مواقع الاستطلاع الأمامية، كنت أحدث نفسي، لا بد أن هناك وسائل ناجعة، لكي يقع الإنسان في الأسر. كانت سحب الدخان برائحتها

النفاذة ما تزال تتصاعد من جثث القتلى «لعلمهم ماتوا جميعاً الآن؟ رحمت أتساءل، فما داموا لا يريدون أن يفهموا أي شيء، سيكون مفيداً وعملياً أن تزهق أرواحهم جميعاً، وبأقصى سرعة.. هكذا سأتخلص من كل شيء، وعلى الفور.. سأرجع إلى بيتي.. وسأمر، ربما من جديد في ميدان كليشي مظفراً، سينجو واحد أو اثنان فقط ربما.. كنت أتمنى ذلك.. فتیان لطفاء مفعمون بالقوة، يمشون خلف الجنرال. سيكون الآخرون جميعاً قد ماتوا، مثل الكولونيل.. مثل باروس.. مثل فاناي (ضابط شديد القسوة أيضاً).. الخ. سيغمروننا بالأوسمة والزهور. ونحن نمر تحت قوس النصر. وحين ندخل إلى المطعم. سيقدّمون لنا الطعام دون أن يطلبوا الثمن. لن ندفع بعد الآن شيئاً. لن ندفع في أي يوم من الأيام. سنقول عند دفع الحساب، نحن الأبطال!... المدافعون عن باريس! يكفي ذلك! سندفع بدل المال أعلاماً فرنسية صغيرة.. سترفض موظفة الصندوق أيضاً، أن تأخذ نقوداً من الأبطال، بل إنها ستقدمه لنا، مع القبلات، حين نمر أمام الصندوق. ألا أن كل هذا يستحق عناء العيش من أجله».

لاحظت، أثناء هروبي، أنني كنت أنزف من ذراعي، غير أن ذلك لم يكن سوى خدوش بسيطة، لا بد من الإمعان في الفرار.

عاد المطر ينهمر من جديد، كانت حقول الفلاندر تغرق في ماء كدر، ومر وقت طويل، لم أصادف فيه أحداً، لا شيء سوى الريح، وبعد الريح الشمس، كنت أتربق بين وقت وآخر رصاصة لا أندري من أين، تبحث عني عبر الشمس والفضاء، طائشة، مصممة على قتلي وسط تلك العزلة، قتلي أنا. لماذا؟ لن أظأ أرض الريف أبداً، بعد الآن حتى لو عشت مئة سنة، أقسم على ذلك.

فيما كنت أحدث السير، تذكرت احتفال فوجنا في الليلة الماضية، والذي أقمنه في أحد المروج، خلف الرابية. كان الكولونيل بصوته الجهوري يخطب

بالفوج مردداً: «البسالة! مزيداً من البسالة! – تحيا فرنسا!» حين لا يملك المرء خيلاً، فإن موته لا يساوي شيئاً بالنسبة إليه، أما إذا كان يتمتع بالخيال فإن موته أمر مهول إلى أبعد حد، ذلكم هو رأيي، لم أدرك في حياتي أموراً متعددة كهذه ودفعة واحدة.

لم يكن لدى الكولونيل خيال على الإطلاق. كل تعاسة هذا الرجل ناجمة عن ذلك، وتعاستنا على الأخص. هل كنت إذن الشخص الوحيد في الفوج الذي يتخيل الموت؟ كنت أفضل أن يتأخر تخيلي لمييتي، عشرين سنة، ثلاثين سنة، وأكثر ربما، على الموت الذي يريدونه لي الآن تَوّاً، كنت أفضل أن ألتهم وحل الفلاندر بفمي الملائن على أن ينشق فمي ذاته حتى أذني بشظية قنبلة.

للمرء كل الحق في أن يكون له رأي حول مييته. ولكن إلى أين سأمضي الآن؟ هل أمضي مباشرة إلى الأمام؟ وظهري للعدو.

إذا ما وقعت في يد دورية من دوريات الدرك، فلن يساورني الشك بأن مصيري قد تقرر. سيحاكموني في المساء ذاته بسرعة فائقة، وبمنتهى البساطة، داخل صف من صفوف مدرسة خلت من تلاميذها. سيكون هناك صفوف عديدة فارغة، في كل مكان، حيثما نمر، ستكون عدالتهم معي أشبه بعدالة التلاميذ حين يخرج المعلم، أصحاب الرتب فوق المنصة، وأنا واقف أمام المقاعد الصغيرة مكبل اليدين، وحين يطلع الصباح، سيرمونني بالرصاص، اثنتا عشرة رصاصة زائد رصاصة.

عدت إلى التفكير في الكولونيل، كان رجلاً شجاعاً حقاً، كان يبدو بدرعه وخوذته وشاربييه، وهو يتجول تحت وابل الرصاص والقنابل، مثلما كنت أراه، كأنه يتجول في مسرح منوعات: كان المشهد خليقاً بقصر الحمراء في أيام مجده، سيكشف ربما شمس فراغسون أيام كان فارساً لا يشق له

غبار، ومع ذلك، فقد كانت تلح علي فكرة واحدة: «مزيداً من الجبن». ذلك ما كنت أفكر به.

بعد ساعات وساعات من السير متخفياً، وحرراً، وقعت أخيراً على جنودنا بالقرب من ضيعة صغيرة محفوفة بالبساتين، كانت عبارة عن موقع متقدم لقواتنا، تمركزت فيه إحدى السرايا، لم يكن بينهم قتلى، مثلما أخبروني. كان الجميع أحياء. أما أنا، الذي كنت أحمل الخبر العظيم «الكولونيل مات»، فقد هتفت به بصوت مرتفع ما أن شارفت على الموقع. «ليس الكولونيلات هم من ينقصنا». رد العريف بستيل سريعاً، كان هو أيضاً يقوم بالحراسة حينئذ، وبمهمات السخرة كذلك.

«ريثما يعينون خلفاً للكولونيل، عليك إذن أيها الجزيرة أن تتوجه حالاً إلى موقع توزيع اللحوم مع «امبوي وكيردونكيف». ليحمل كل منكم حقيبتين اثنتين.. يجري توزيع اللحوم خلف الكنيسة التي ترونها هناك، حاذروا أن تعودوا لنا بالعظام فقط، كما حدث البارحة.. وحاولوا أن تتدبروا أمر العودة إلى الفصيلة قبل هبوط الليل. أوغاد!»...

استأنفنا ثلاثتنا الطريق إذن، إلى مركز توزيع اللحوم.

«لن أخبرهم بعد الآن بأي شيء!» كنت أحدث نفسي، وقد تملكني الغيظ. كنت أرى بأنه لا حاجة إلى إخبار هؤلاء الناس بشيء، فالمأساة التي شهدتها ضاعت، بكل بساطة لدى هؤلاء الأوغاد! كذلك فإن الأوان كان قد فات على أن يثير ذلك اهتمام أحد. والقول بأن أربعة أعمدة في الصحف حول موت الكولونيل، مثلما شهدته أنا، كانت ستظهر قبل ثمانية أيام مضت، ومعها صورتي، هو مجرد بلاهة.

كانت كافة اللحوم المخصصة للفوج توزع إذن في أحد مروج آب، تظله أشجار كرز، ويلتهب بحرارة أواخر الصيف. كان هناك كيلوغرامات وكيلو

غرامات من الأحشاء المكشوفة، مفروشة فوق أكياس الخيش وقماش الخيم، وفوق العشب أيضاً، بينها كتل مصفرة من الدهن باهتة اللون، وأعداد من الخرفان المبقورة، بكامل أعضائها، تسح دماً على شكل سواق سريعة الحركة، فوق الخضرة المحيطة بها، وثور بأكمله مقسوم إلى نصفين، معلق على شجرة، كان جزارو الفوج الأربعة منهمكين بتقطيع أجزاء كبيرة من جذعه، وهم يجدفون. كان أفراد الفصائل المختلفة يتبادلون الشتائم المقذعة، ويتنازعون على الشحوم الدسمة، وعلى الكلى بوجه الخصوص. وسط أسراب الذباب التي كانت تبدو للناظر في تلك اللحظات، لكثرتها وموسيقاها، كأنها طيور صغيرة.

إضافة إلى ذلك، كانت الدماء المنتشرة في كل مكان تشكل بقعاً رخوة، وسواقي جارية تبحث عن منحدر لتلتقي فيه، وقد نُحر آخر خنزير على بعد خطوات، واشتبك أربعة رجال مع أحد الجزارين في نزاع على أحشائه قبل إخراجها.

«أنت أيها المرتشي! من الذي أخفى بالأمس. حقوي الخروف»؟ كان ما يزال لدي الوقت لألقي نظرة أو نظرتين على تلك النزاعات اللحومية وأنا مستند إلى شجرة، كان علي أن أستسلم إلى نوبة إقياء وظللت أقيء حتى أغمي علي.

أعادوني إلى الموقع محمولاً على نقالة، ولكن ليس من دون أن يغتتموا هذه الفرصة ليسرقوا كيسيّ الكتانين الأصفرين اللون كليهما. ثم استيقظت على صوت شتيمة أخرى من العريف. كانت المعارك ما تزال مستمرة.



كل شيء يمكن أن يحدث في هذه الدنيا. وها أنذا أصبحت بدوري، عريفاً في نهاية شهر آب ذاته، كانوا يرسلونني غالباً مع خمسة من جنود الارتباط إلى المواقع الأخرى، لتبليغ أوامر الجنرال دي انتراي. كان هذا القائد ضئيلاً، صموتاً، ولم يكن يبدو للوهلة الأولى قاسياً ولا بطولياً، ولكن ينبغي الحذر، فقد كان، كما يبدو يفضل قبل كل شيء سائر ألوان الرفاهية، كان يفكر دون انقطاع برفاهيته، على الرغم من أننا كنا ملتحمين في القتال، ونحن نتراجع القهقري، منذ أكثر من شهر، كان يشتم الجميع حينما لا يكون وصيفه قد وجد له، في كل موقع جديد سريراً نظيفاً جداً ومطبخاً عسرياً.

كان ذلك الشاغل الترفيهي يحمل رئيس أركان الفوج، بشرائطه الأربع مشقة كبيرة. فالمتطلبات المنزلية للجنرال دي انتراي كانت تسبب له الضيق الشديد، لا سيما أنه كان مصفراً وممعدداً إلى حد بعيد، ومصاباً بالإمساك، لذا فهو لم يكن قط ميالاً إلى الطعام. كان يتوجب عليه مع ذلك أن يأكل حصته من البيض البرشت على طاولة الجنرال، وأن يستمع في تلك المناسبة إلى شكاواه، وسواء أكان عسكرياً حقيقياً أم لا، غير أنني لم أكن متعاطفاً معه، لأنه كان وغداً كبيراً كضابط. لا بد من قول ذلك. هكذا كنا إذن نجرجر أقدامنا حتى المساء من الطرقات إلى التلال، ومن حقول البرسيم إلى حقول الجزر. كنا نتوقف مع ذلك، كي نجد مكاناً آمناً، يتمكن جنرالنا من النوم فيه، كنا نبحث طويلاً كي نعثر له على قرية هادئة، تتعم بالأمان، لم تكن قد نزلت بها بعد أية قطعات عسكرية. وإذا ما وجدت قطعاً داخل القرية فإنها سرعان ما

ترحل، لتخيم خارج القرية بكل بساطة، في الأرض العراء، حتى ولو كانت قد أعدت خرائط الرمي لبطاريات مدافعها.

..كانت القرية حكراً على الجنرال، وحده، وعلى خيوله، ومطاعمه، وحقائبه، ومع ذلك المقدم السافل أيضاً. كان ذلك الوغد يدعى بينسون، المقدم بينسون، كم أتمنى الآن أن يكون قد هلك (ولم يمت ميتة هادئة)، ولكن ذلك البينسون في الوقت الذي أتكلم عنه كان حياً يرزق بكل قذارة. كان يجمعنا كل مساء، نحن جنود الارتباط، ويوجه إلينا شتيمة قاسية كي يجعلنا منضبطين، محاولاً أن يوقظ فينا الحماسة، ثم يطردنا بحنق شديد، نحن الذين كنا قد تجررنا طيلة النهار خلف الجنرال، راجلين وفوق الخيول، ثم راجلين من جديد، لننقل له أوامره، إلى كل مكان. كانوا سيفعلون خيراً، مع ذلك، لو أغرقونا، كي نخلص من كل ذلك، وهو ما كان أفضل لنا جميعاً.

«الجميع! هيا! اذهبوا إلى الأفواج، كان يصيح بنا..»

— أين موقع الفوج، سيدي المقدم، كنا نسأله:

— في باربانييه

— وأين تقع باربانييه؟

— إنها هناك!«.

هناك، حيث كان يشير، ما من شيء سوى الليل، مثلما في كل مكان، ليل بهيم يبتلع الطريق على بعد خطوة منا، ولا يظهر من وسط ظلمته الحالكة سوى طرف صغير من طريق طويل أشبه بلسان.

هيا إذن لنبحث له عن باربانييه في نهاية العالم، سيتطلب الأمر التضحية بسرية كاملة من أجل العثور على باربانييه، سرية من الشجعان أيضاً، وأنا الذي لم أكن قط شجاعاً ولم أكن أفهم لماذا سأكون شجاعاً، كنت

بلا ريب أقل رغبة من أي شخص آخر في العثور على «باربانييه» ذلك الوغد. والتي كان يذكرها هو نفسه بمحض الصدفة، كان وهو يقذفني بالشتائم المريرة يسعى إلى أن يخلق لدي الرغبة بالانتحار. ولكن هذه الرغبة إما أن تكون لدى المرء أو لا تكون.

وسط كل هذه الظلمة الكثيفة جداً، والتي يبدو لك فيها بأنك لن ترى قط ذراعك ما إن تمده أبعد من كتفك قليلاً، لم أكن أعرف إلا شيئاً واحداً، وكنت متيقناً منه حينئذ، ألا وهو أن هذه الظلمة كانت تكن في أعماقها نوايا إجرامية هائلة لا حصر لها.

لم يكن يتوانى قط ذلك الشدق الفظيع، رئيس أركان الفوج، عن إرسالنا كل مساء إلى المنية، كانت هذه الرغبة تتآبه في الأغلب عند غروب الشمس، وكنا نقاومه قليلاً بحجة الإنهاك والشلل الذي كان يعترينا ونتلكأ في فهم ما يقوله، ومنتشبت بألف طريقة وطريقة بالمعسكر الهادئ ما وسعنا ذلك.. ولكننا أخيراً حين لا نعود نميز الأشجار بعد أن يعمي الليل صور الأشياء كنا نضطر في النهاية إلى أن نذعن مع ذلك للذهاب إلى الموت، حين يكون عشاء الجنرال جاهزاً.

منذ تلك اللحظة، كان كل شيء يجري حسب مشيئة الصدفة. كنا نهتدي إلى الفوج وإلى باربانييه أحياناً، ولا نهتدي إليهما أحياناً أخرى، وحين نعثر عليهما فعن طريق الخطأ على الأخص، لأن جنود فصيلة الحرس كانوا يطلقون علينا النار ما إن نقترّب منهم، فنتعرف بالتالي على بعضنا، بتلك الصورة، ثم مضى الليل بطوله تقريباً في مهمات السخرة من كل صنف ولون، ننقل أحمالاً هائلة من حزم الشوفان، وسطولاً من الماء بالجملة، أو نتلقى سيلاً من الشتائم إلى أن يتمكن منا التعب، والنعاس أيضاً.

ما إن يطلع الصباح حتى نعود من جديد، جنود الارتباط الخمسة باتجاه موقع الجنرال دي انتراي، كي تستمر الحرب.

غير أننا في أغلب الأحيان لم نكن نعرثر على أثر للفوج. كنا ننتظر فحسب، طلوع النهار، ونحن نلف ونذور حول القرى، فوق دروب مجهولة وعلى تخوم ضيع خلت من سكانها، وأحراج مراوغة.. كنا نتحاشى الاقتراب منها قدر ما نستطيع، خوفاً من الدوريات الألمانية. كان علينا أن نكون في مكان ما مع ذلك، بانتظار الصباح، في مكان ما من الليل، لم يكن ممكناً، تجنب كل شيء. ومنذ ذلك الحين، عرفت ما كان ينبغي للأرانب البرية أن تستشعره في أماكن صيدها.

كنا في وضع يثير الشفقة. فإن قلنا للمقدم بينسون بأنه كان قاتلاً قذراً وجباناً فسندخل إلى قلبه سروراً أيما سرور، لأنه سيعدمنا رمياً بالرصاص فوراً، على يد ملازم الدرك الذي يلازمه كظله، والذي لم يكن يحلم بكل تأكيد سوى بذلك. لم يكن الألمان هم الذين نكن لهم الضغينة، وإنما ملازم الدرك.

كان علينا إذن أن نطوف بين الكمائن طيلة ليلال وليال، نتتالي غبية بلهاء، لا يحدونا سوى أمل واحد كان يغدو أقل فأقل معقولة، هو أن نعود إلى الفوج. نعود حسب، وإذا ما عدنا، فليس علينا أن ننسى أبداً، ولو للحظة بأننا كنا قد اكتشفنا فوق الأرض رجلاً قد يكون مثلك ومثلي، ولكنه لا يعيش إلا على الجثث والمصائب، على نحو أكثر هولاً من التماسيح وأسماك القرش التي تفتح شذقها الفاجر في الماء حول القوارب المحملة بالأفذار واللحوم المنتنة حين تسكب لها في عرض البحر، في هافانا.

الإخفاق الكبير، في النهاية هو النسيان، وعلى الأخص نسيان ما يوذي بك إلى الهلاك أن لا تكون مدركاً إلى أي حد تبلغ قسوة البشر. وحين نكون

على شفا القبر. ينبغي ألا نتظاهر بالذكاء، ينبغي ألا ننسى كذلك، ينبغي أن نروي دون تبديل كلمة واحدة ما رأيناه لدى البشر من العيوب الأشد شناعة ثم نموت بعدها، وننزل في الحفرة، وهذا لعمرى عمل، يكفي لحياة بأكملها.

لكم تمنيت أن تتاح لي الفرصة لأقدم لأسماك القرش، المقدم بينسون ومعه ضابط دركه لكي أعلمهم كيف ينبغي عليهم أن يعيشوا، وأن تلتهم هذه الأسماك حصاني في الوقت ذاته حتى لا يعود يتألم، لأنه لم يعد له ظهر، ذلك الشقي الكبير. فلشدة ما ألم به من أذى لم يبق له من ظهره سوى صفيحتين عضليتين تحت السرج، بعرض كفي فقط، تنزان بنحو ظاهر سيولاً من القيح، يسح من حواف سرجه حتى ركبتيه، كان علينا مع ذلك أن نعدو به خبيماً، واحد، اثنان.. كان جذعه يلتوي وهو يخب، ولكن الخيول ما تزال أكثر صبراً من البشر. كان يتموج أثناء عدوه، لم يعد بإمكاننا أن نتركه إلا في الهواء الطلق، أو في مخازن الصيد بسبب الرائحة المنبعثة من جراحه. كانت تلك الرائحة تفوح بشدة حتى تكاد تخنقنا، وحين كنا نمتطي ظهره، فإن ذلك كان يسبب له ألماً، كان ينحني مطأطئاً كأنما عن تهذيب حتى ليبلغ بطنه حينذاك ركبتيه، كأننا كنا نمتطي حماراً. كان ذلك أسهل علينا، لابد من الاعتراف بذلك، وكنا نحن أنفسنا منهكين أشد الإنهاك، بسبب ما نكابده من أثقال الحديد فوق رؤوسنا، وعلى أكتافنا.

كان الجنرال دي انتراي في المنزل الذي حجز له ينتظر عشاءه. كانت طاولته قد أعدت ووضع المصباح في مكانه:

«أغربوا جميعاً عن وجهي، تباً لكم! كان بينسون يأمرنا مرة أخرى بالرحيل، ويؤرجح مصباحه بالقرب من أنفه، سأتناول الطعام الآن، ولن أعود إلى تكرار ذلك، ألن تغرب عن وجهي هذه الجيف» كان يعوي أيضاً، وقد

استبد به الغيظ، وقد عاوده الكلب لإرسالنا إلى الهلاك من جديد، ذلك الأفعى!.. وظهرت على وجنتيه بعض الألوان.

كان طاهي الجنرال يقدم لنا أحياناً قبل الذهاب قليلاً من الطعام، كان لدى الجنرال أكثر مما يحتاجه من الطعام، ما دام أنه كان يصيب منه، كما تتص القواعد العسكرية أربعين حصّة، له وحده. لم يعد شاباً ذلك الرجل، ينبغي أن يكون على عتبة التقاعد. فقد كان يحني ركبتيه حين يمشي. وكان يصبغ شاربيه بالتأكد..

كانت شرابين صدغيه مرئية بوضوح على ضوء المصباح لحظة خروجنا، ترسم تعرجات أشبه بنهر السين لدى خروجه من باريس. كانت بناته كما يشاع قد تقدمن في السن، ولم يتزوجن، لافتقارهن إلى المال أسوة بوالدهن. ربما بسبب تلك الذكريات كان يبدو هراً ومتمزراً على الدوام. على غرار كلب عجوز عكروا عليه عادته التي ألفها. فراح يحاول العثور على سلة فراشه في أي مكان حينما فتحوا له الباب.

كان يهوى الحقائق الجميلة والزهور، ولم يحرم نفسه فرصة أن يكون له حديقة ورد، في كل مكان نمر فيه. ليس ثمة من يحب حدائق الورد مثل الجنرالات، لا أحد يجهل ذلك.

بدأنا طريقنا في نهاية المطاف، كان الأمر يقضي بإخراج الفوج بهدوء من ذلك المكان على إيقاع قوائم الأرانب. كانوا خائفين من التحرك بسبب الجرحى أولاً، ثم إنهم كانوا خائفين منا ومن الليل أيضاً، كانوا خائفين من كل شيء، فكيف بنا نحن؟ الذين كنا نسير في المقدمة؟ كنا نلتفت عشر مرات إلى الخلف لنسأل المقدم عن الطريق، وكان ينعتنا عشر مرات بأننا أغبياء

ومتقاعسون قدرون، وأخيراً حثثنا الخيل واجتزنا آخر مراكز الحراسة. أبلغنا جنود الموقع الرسالة لينقلوها إلى فصيل المراسلة، ثم غصنا فجأة في مغامرة قدرة في غياهب تلك البلاد! التي لم يكن يسيطر عليها أحد..

لفرط ما طفنا بين الظلال المتشابكة، من أقصى الظل إلى أقصاه، التبس علينا الأمر بعض الالتباس، أو هكذا اعتقدنا على أي حال، فحين كانت تتبدى لنا غيمة بوضوح يخيل إلينا بأننا كنا نرى في غيمة أخرى شيئاً ما من الأشياء.. غير أنه لم يكن أمامنا ما هو مؤكد سوى الصدى ذاهباً آيماً، صدى ضجة هائلة، لفرط ما كنا نتجنبها آنئذ. كانت الخيول تبدو وكأنها تخب حتى السماء، وتستدعي كل ما على الأرض من خيول، من أجل الفتك بنا، ولن يكون ذلك مستحيلاً، فبيد واحدة، وبمدفع رشاش، كان يكفي فتح النار من كمين ينتظرنا عند ضلع شجرة، كنت أحدث نفسي باستمرار بأن الضوء الأول الذي سأراه في هذا الليل لن يكون سوى طلقة بندقية حين تخرج من فوهتها.

أربعة أسابيع مرت على الحرب أشرفنا فيها على الإنهاك وانتابتنا تعاسة لا حد لها، حتى اني فقدت، من فرط التعب، بعضاً من خوفي ونحن نسير على الطريق، وانتهى بنا العذاب الناجم عن القلق والاضطراب، نهراً وليلاً بسبب هؤلاء الأشخاص، من ذوي الرتب العسكرية، والصغار منهم على الأخص، الأشد خبلاً، والأكثر حقارة والأعظم حقداً، من كل ما هو مألوف، انتهى بأشدنا صلابة وعناداً إلى الإحجام عن الرغبة بالعيش.

آه، يا للهفة الجارفة في الذهاب! والغرق في النوم! قبل كل شيء. وعندما لا تعود هناك وسيلة للذهاب إلى النوم، فإن الرغبة في العيش تتلاشى حينئذ من تلقاء ذاتها، غير أننا ما دمنا أحياء فسيكون علينا الانشغال بالبحث عن الفوج..

كي تجول الأفكار في دماغ أحد المغفلين ينبغي أن يتعرض لكثير من الأشياء والتجارب البالغة القسوة. أما ذلك الذي جعلني أفكر لأول مرة في حياتي، أفكر حقاً، وبأفكار عملية، تخصصني، فقد كان المقدم بينسون بلا ريب، شوق التعذيب ذاك! كنت أفكر به بإلحاح ودون انقطاع، وأنا أترنح، مدججاً بالسلاح، مثقلاً بعنادي الحديدي الثقيل، تابعاً ثانوياً، في هذه القضية العالمية التي انخرطت فيها مدفوعاً بالحماس، أعتزف بذلك.

كل متر في الظل الممتد أمامنا كان يحمل لنا وعداً جديداً بالهلاك، ولكن بأية طريقة؟ لم يكن ثمة ما هو غير متوقع في هذه الحكاية سوى زي الذي سيجهز علينا، أيكون زياً من عندنا أم زياً من الطرف المقابل.

لم أكن قد فعلت، أنا نفسي، ما يسيء إلى هذا البيinson، لا له ولا للألمان في الجهة الأخرى، برأسه الشبيه بدراقة متعفنة، وبشرائط رتبته الأربع التي كانت تتلامع في كل مكان فيه، من رأسه وحتى سرتيه، وبشاربيه الخشنيين، وركبتيه المدببتين ومناظيره المعلقة على عنقه مثل جرس البقرة. وخارطته ذات المقياس ١/١٠٠٠، وإذن؟ كنت أسأل نفسي، ترى أي سعار كان يتملكه كي يرسل الآخرين إلى الهلاك، أولئك الذين لم يكن لديهم خرائط يسترشدون بها.

كنا نحن الفرسان الأربعة نصدر جلبية على الطريق تعادل جلبية نصف فوج، كان لا بد أن يسمعا الألمان، ونحن قادمون نحوهم، من مسافة أربع ساعات، أو ربما كانوا لا يريدون أن يسمعوننا. كان هذا محتملاً، لعل الألمان كانوا خائفين منا؟ من يدري؟

شهر من النعاس فوق كل جفن من أجفاننا، ذلك ما كنا نحمله، ومثله خلف رؤوسنا، بالإضافة إلى تلك الكيلوغرامات من الحديد.

كان فرساني المرافقين لي لا يجيدون التعبير عن أنفسهم، ولا يكادون يتفوهون بكلمة، كانوا فتيناً قدموا من أعماق بريثانيي لتأدية خدمتهم العسكرية، وكل ما كانوا يعرفونه لم يتعلموه في المدرسة. بل من الفوج. حاولت في ذلك المساء أن أتحدث. قليلاً عن قرية باربانييه مع الفارس الذي كان إلى جانبي وكان اسمه كيرسوزون.

«قل لي إذن، يا كيرسوزون، قلت له، هذه هي مقاطعة الأردن أنت تعلم، ألا ترى أنت أي شيء بعيد أمأمانا؟ فأنا لا أرى شيئاً على الإطلاق.»

«هذا مظلم جداً مثل مؤخرة أحدهم» أجابني كيرسوزون، وكان ذلك كافياً «قل لي إذن، ألم تسمع أحداً يتحدث عن باربانييه أثناء النهار؟ في أي مكان هي؟ سألته أيضاً:

- كلا

وهكذا انتهى الحديث

لم نعتز أبداً على باربانييه، كنا ندور حول أنفسنا وحسب، حتى الصباح، وساقطنا أقدامنا إلى قرية أخرى كان ينتظرنا فيها مقدمنا نو المناظير. كان جنراله يرتشف بعض القهوة تحت أحد العرائش، أمام منزل العمدة، حينما وصلنا.

« آه، ما أروع الشباب، يابينسون!» هتف الجنرال العجوز بصوت عال جداً لافتاً أنظار رئيس أركانه حينما رأنا نمر، قال ذلك ثم نهض ومضى ليبول، ويقوم بجولة، عاقداً يديه وراء ظهره، محنياً إلى الأمام. كان الجنرال مرهقاً جداً ذلك الصباح، مثلما همس لي تابعه، وقد نام نوماً سيئاً، شيء ما في مثنائه كان يقلقه، كما كان يشاع.

كان كيرسوزون يجيبني على الدوام جواباً مشابهاً حينما كنت أسأله عن الليل، وقد سلاني ذلك التكرار الذي كان يشبه عادة عصبية متحكمة، فقد كان يكرر ذلك مرتين أو ثلاث بخصوص الظلام والطيّز، وبعد ذلك مات كيرسوزون، مات مقتولاً. في وقت متأخر، لدى خروجه من إحدى القرى، وأذكر ذلك جيداً، كنا قد توهمناها قرية أخرى، مات على يد فرنسيين توهمونا أشخاصاً آخرين.

بعد موت كيرسوزون ببضعة أيام فكرنا كثيراً، وعثرنا على وسيلة بسيطة سررنا بها أيما سرور، كي لا نتوه مرة أخرى في دياجير الظلام كانوا يخرجوننا، إذن، خارج المعسكر. حسناً، لم نكن نتقوه قط بأي كلمة، ولم نعد نحتج.

«هيا انصرفوا، كان يقول لنا، جرياً على عادته الشدق المنقاري
«أمرك سيدي المقدم»

وها نحن أولاء ننتقل خمستنا معاً نحو نيران المدافع، دونما تلكؤ، كنا نفكر في التوجه نحو بساتين الكرز التي كانت منتشرة في ناحية من الأرض كثيرة الأودية، هي منطقة اللاموز، ذات الهضاب المغطاة بالكروم، والأعناّب التي لم تتضج بعد، والخريف، والقرى المبنية من الأخشاب التي جففتها ثلاثة أشهر الصيف والتي كانت تشتعل بسهولة.

في ليلة من الليالي التي لم نعد نعرف فيها أين نولي وجوهنا، وقعت أنظارنا على قرية كانت تلتهمها النيران من جهة مدافع الألمان، لم ندن منها كثيراً، أكثر مما يلزمنا، كنا ننظر إليها فقط، كمرقبين، بعيدين بما يكفي، إن أمكن القول، على مسافة عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً على وجه التقريب. وفي كل الأمسيات التي تلت، وفي الوقت ذاته تقريباً بدأ عدد من القرى يتوهج

في الأفق، وجعل ذلك يتكرر حتى بتنا كما لو أننا محاطون بحلقة عظيمة جداً من الاحتفالات الغريبة في سائر تلك القرى التي كانت تحترق أمام أبصارنا، من جهتين اثنتين، بألسنة من النار تتصاعد نحو السماء وتلحس الغيوم. كنا نرى من مكاننا السنة اللهب تأتي على كل شيء، الكنائس والأهرات، بعضها في إثر بعض، وأكداش القش التي كانت تصدر لهيباً أشد اضطراباً، وأعلى من سواها، ثم العوارض الخشبية وهي تنتصب باستقامة، في قلب الليل، يتطاير منها شرر أشبه باللحى، ما تلبث أن تبتلعها أضواء اللهب.

كان مشهد النيران وهي تأتي على قرية من القرى يلوح للأنظار حتى على بعد عشرين كيلومتراً، وكان ذلك يبعث في نفوسنا الأوس، فحين نتدلع النيران خلال الليل في أحد الضيع المجهولة، والتي لا يكاد أحد يتبينها في وضوح النهار، فما من أحد يتصور الأثر الذي يمكن أن يحدثه ذلك، حتى يخيل إليك أنك أمام نوتردام، ولكن ذلك اللهب كان يدوم الليل بطوله حينما يلتهم قرية مهما كانت صغيرة. ويتبدى المشهد في النهاية على هيئة زهرة عظيمة، ثم على هيئة بثرة صغيرة، ثم لا يعود هناك أي شيء..

كان الدخان يتصاعد من القرية، ثم ما يلبث أن يطلع الصباح. كانت الخيول التي أطلقنا سبيلها، في الحقول، على مقربة منا، دون أن نرفع عنها السروج، جامدة دون حراك، أما نحن فكنا نستلقي على العشب ونسلم أنفسنا لطائر النوم ماعداً واحداً منا كان يقوم بحراستنا خلال نوبته، غير أننا حين يكون ثمة نيران حولنا، فقد كان الليل يمضي على نحو أفضل، إذ لم يعد ثمة ما نعانیه، لم يعد هناك شعور بالوحشة.

تعيسة تلك القرى التي زال أثرها من الوجود.. فبعد مرور شهر لم يبق منها قرية واحدة في تلك الناحية. كانت الغابات طعمة لنيران مدافعهم أيضاً،

وبعد ثمانية أيام لم يعد للغابات أثر. كانت نار الغابات جميلة أيضاً، ولكنها لم تكن تدوم طويلاً. وما أن انقضت تلك الأيام حتى شرعت أرتال المدفعية تصب حممها فوق جميع الطرقات من جهة، وفوق رؤوس المدنيين الفارين من الجهة الأخرى.

لم يعد بإمكاننا، في المحصلة لا الذهاب، ولا العودة. كان علينا البقاء حيث نحن.

كنا نذهب صفوفاً إلى الهلاك. ولم يعد الجنرال أيضاً يجد معسكرات خاوية من غير جنود. وانتهى بنا الأمر إلى النوم في أحضان الحقول، وبدءاً من تلك الأشهر جرى البدء بإعدام جنود رمية بالرصاص على يد زمر مكلفة بذلك، وصار الدرك الآن يذكرون ضمن جدول الأعمال بصدد الطريقة التي كانوا يخوضون بها حربهم الخاصة. الحرب الأعماق غوراً، حقيقة الحقيقة.



بعد استراحة دامت بضعة أسابيع، امتطينا خيولنا وتابعنا السير نحو الشمال، كان البرد يرافقتنا أيضاً، ولم تفارقنا نيران المدافع قط. أتى توجهنا، غير أننا نادراً ما كنا نلتقي بالألمان إلا بمحض الصدفة، نلتقي بجندي من الخيالة أحياناً أو بفصيل من رماة المدفعية، هنا وهناك، بزي أصفر أو بزي أخضر، كانت تلك ألواناً جميلة، كان يبدو علينا أننا نسعى في طلبهم. ولكننا كنا نمضي بعيداً عنهم ما إن نلاحظ وجودهم. وفي كل لقاء بيننا وبينهم كان فارسان أو ثلاثة يظلون هناك، أحياناً منهم، وأحياناً منا، كانت خيولهم المتحررة من أثقاليها تعدو، وركاب سروجها يطير متأرجحاً في الفضاء، مصلصلاً، مقبلة نحونا من بعيد، بسروجها ذات الظهور الغريبة، وبجلودها الندية على غرار جلود محافظ عيد الميلاد. كانت خيولنا هي التي تلحق بنا على الفور. لحسن الحظ! ولسنا نحن الذي نستطيع فعل ذلك.

ذات صباح، وفيما كنا عائدين من الاستطلاع، كان الملازم دوسانت إنجانس يدعو الضباط الآخرين بأن ينجسوا إليه ولا يأخذوا روايته على محمل الهزل: «طعنت بسيفي اثنين» كان يؤكد حلقة الضباط من حوله، عارضاً عليهم. في الوقت ذاته سيفه الذي كانت دماء الجنديين الألمانين المتخثرة، وكان صادقاً فعلاً، تملأ أخدود السيف، المصنوع من أجل هذه الغاية.

«كان مدهشاً، برافو، سانت انجانس.. لو كنتم رأيتموه أيها السادة،

هجوم وأي هجوم!» أيده النقيب أورتولان.

كان هذا قد حدث في سرية أورتولان.

«لم أضع أي وقت في المعركة. لم أكن بعيداً عنهما! طعنة واحدة بسنان السيف في العنق. إلى الأمام، ثم إلى اليمين! توك، وسقط الأول.. طعنة أخرى في وسط الصدر.. إلى اليسار، اختراق! عرض حقيقي للمبارزة بالسيوف أيها السادة، مرة أخرى، برافو سانت انجانس، جنديان رماحان! إنهما على بعد كيلومتر واحد من هنا. ما يزال ذلك الجسوران هناك، فوق الأرض المحروثة، لقد انتهت الحرب بالنسبة إليهما، ماذا يا سانت انجانس؟ يا لها من طعنة مزدوجة لا بد أنهما قد فرغا من دمائهما مثل أرنبين!

كان الملازم دوسانت انجانس، الذي عدا حصانه طويلاً، يتلقى التقدير والإطراء من زملائه بتواضع. لقد ضمن أورتولان الحظوة الآن، كان مطمئناً واثقاً. مضى فجأة، مصطحباً فرسه إلى المعلف دائراً بها ببطء في حلقة دائرية حول السرية المجتمعة كما لو كان يقوم بمباراة في سباق التتابع.

«ينبغي أن نرسل إلى هناك حالاً دورية استطلاع أخرى، ودونما تأخير، انهمك النقيب أورتولان حقاً وفعلاً وقد غلبه الانفعال. لا شك أن هذين الجنديين قد تاهوا في ذلك المكان، من المحتم أن هناك آخرون خلفهم. ألا ترون ذلك؟ أنت يا عريف باردامو، اذهب إذن مع رجالك الأربعة.»
إليّ أنا توجه النقيب أورتولان.

«وحين يطلقون النار عليكم، إيه، حاولوا جهدكم أن تحددوا مكانهم، وعودوا حالاً لتخبروني عن مكانهم، لا ريب أنهم برندبوريون^(١).»

بيروي المتطوعون في الجيش العامل أن النقيب أورتولان لم يكن يظهر قط تقريباً أيام السلم، في التكنة. في حين أنه الآن، في الحرب يعوض عن تلك الفترة بحزم: كان أورتولان في الحقيقة لا يقر له قرار، وكانت حماسه،

(١) برندبوريون: الذين يرتدون زياً مزخرف العرى على طريقة برندبور في ألمانيا.

حتى بين عدد من المعروفين بطيشهم، تغدو يوماً بعد يوم أشد إثارة للانتباه، كان يشاع عنه أيضاً بأنه يستنشق الكوكابين. كان بادي الشحوب، تحيط بعينيه هالات زرقاء، مهتاجاً على الدوام فوق ساقيه الهشتين، وحين يضع ساقيه على الأرض يترنح في البداية، ثم يتمالك نفسه، ثم ينزع الحقول المحروقة بنزق شديد باحثاً عن مشروع بسالة، إنه يريد الآن أن يرسلنا لتتلقى النار من أفواه المدافع، وجهاً لوجه، كان يساعد الموت، بل يمكن القسم بأعظ الإيمان بأن الموت أبرم عقداً مع النقيب أورتولان.

أمضى أورتولان القسم الأول من حياته (متلماً علمت) في سباقات الخيول، ولم يكن يمر عليه عام دون أن تنتهشم أضلاعه بضغ مرّات. ولفرط ما تكسرت ساقاه أيضاً، لم يعد يستخدمهما في المشي، لفقدتهما ليونتتهما. لم يعد أورتولان يمشي إلا بخطوات عصبية وبأقدام مدببة حتى لكأنه يمشي على عصوين، كان يخيل لمن يراه فوق الأرض بدثاره الفضفاض أنه يرى الشبح الخلفي لحصان سباق.

كنا في بداية هذا المشروع الوحشي، أي في شهر آب، وحتى أيلول، نستطيع أحياناً خلال بضغ ساعات، أو طيلة أيام بكاملها، نقضيها فوق دروب قصية، وفي ثنايا الغابات التي تظل ملاذاً ملائماً للمحكومين بالموت أن نتوهم بأننا ننعّم ببعض الأمن بحيث يتاح لنا مثلاً، أن نأكل علبه من المحفوظات مع حصتنا من الخبز، حتى آخر لقمة دون أن يعذبنا الإحساس بأن تلك اللحظات هي الأخيرة. غير أن تلك الهداءات الصغيرة انتهت بدءاً من شهر تشرين الأول. وغدت حبات البرد أثقل وأكثف وأكثر امتلاء، محشوة بالقنابل والرصاص. ووما قريب سيدهمنا الإعصار، وما كنا حريصين على أن لاتراه أعيننا سيصبح ماثلاً أمامنا، ولن يعود بوسعنا أن نرى سواه: موتنا.

أما الليل الذي كان يملأ جوانحنا بالخوف، بادئ الأمر فقد غدا بالقياس إلى تلك الفترة بالغ العذوبة، وانتهينا فيما بعد إلى انتظار قدومه، إلى اشتهاؤه، لأن الرماية كانت أصعب على الألمان مما في النهار، ولم يعد ثمة ما يهمننا سوى هذا الفارق.

من الصعب الوصول إلى ما هو جوهرى، وحتى فيما يخص الحرب. فالفانتازيا تقاوم أمداً طويلاً.

كانت القبط التي يحدث بها خطر النيران المميت تلجأ مع ذلك إلى إلقاء نفسها في الماء.

كنا نخرج في الليل من جحورنا، هنا وهناك، طيلة أربع ساعات تشبه، كثيراً زمن السلام المعبود، تلك الأوقات التي غدت نادرة الوجود، حيث كان كل شيء رحيماً، وحيث لم يكن أحد في الواقع يطلق النار وحيث يتم إنجاز جملة من الأمور الأخرى، تغدو كلها ممتعة على نحو خارق. قطيفة مخملية حية، زمن السلام الليلي ذاك.

ولكن سرعان ما صارت الليالي، هي أيضاً مطاردة دون رحمة، كان علينا باستمرار تقريباً أن نبذل جهوداً شاقة، وأن نعاني مزيداً من العذاب من أجل الطعام حسب، ومن أجل بضع لحظات إضافية من النوم خلال الليل، كان الطعام يصل إلى مقدمة الأرتال زاحفاً بخزي، بطيء الحركة ضمن موكب متعثر من العربات المتقلقلة والمكتظة باللحوم، والأسرى والجرحى، والشوفان، والرز، والدرك والخمر أيضاً، كان الخمر معبأً في زجاجات مرتجة منتفخة البطن، تثير في النفس حسّ المجون. وعلى الأقدام خلف ورش الحديد وعربات الخبز كان الأسرى من الفرنسيين ومن الألمان أيضاً، يجرون أقدامهم، مكبلين بالحديد، محكومين بالموت، تارة هؤلاء وتارة أولئك، وقد

اختلط بعضهم ببعض، وشدت معاصمهم إلى ركاب الدرك، لم يكن البعض من هؤلاء ممن كانوا سيعدمون في الغد، بأشد حزنًا من غيرهم، كان هؤلاء يأكلون أيضاً حصتهم من ذلك الطون الذي يعسر هضمه، عند حافة الطريق (لن يتاح لهم الوقت لهضمه) بانتظار أن ينطلق الموكب من جديد، ويزددون الخبز الأخير ذاته مع مدني فرنسي مشدود الوثاق إليهم، يزعمون بأنه كان جاسوساً، لم يكن هو نفسه يدري شيئاً عن ذلك، ولا نحن كنا ندري أيضاً.

كان عذاب الفوج متواصلاً آنذاك في شكله الليلي، كنا نتخبّط خبط عشواء في دروب القرى المتعرجة، دونما ضوء ودونما وجه، محنيي الظهر تحت أكياس أنقل وزناً من الرجال، كنا ننقلها من مخزن حصيد مجهول إلى مخزن آخر، تطاردنا الشتائم والتهديدات، تائهين دونما أمل في الخلاص، بطريقة أخرى غير التهديد والوعيد وماء المزابل والتفزز، معذبين حتى النخاع على يد زمرة من المجانين الفاجرين الذين أضحوا عاجزين فجأة عن فعل شيء آخر، سوى القتل وانتزاع الأمعاء.

ما أن نتمرغ قليلاً بالأرض، بين كومين من الزبل وتحت لسع الشتائم وركلات الأباط، حتى نجد أنفسنا وقد نهضنا عن الأرض بأوامر من الرتب العسكرية، مدفوعين بوحشية إلى القيام بنقل أحمال أخرى خاصة بالموكب.

كانت القرية تسيل بالأطعمة، وزمر الجنود خلال الليالي المنتفخة بالشحم والتفاح والشوفان والسكر والتي كان ينبغي حملها، وبيعها أحياناً كيفما اتفق على الطريق، ودون تمييز من قبل تلك الزمر، كان الموكب يصطحب معه كل شيء عدا الفرار.

كان المكلفون بالسخرة ينطرحون منهارين حول العربة، بعد أن يهدم التعب، وفي تلك اللحظة يظهر فجأة مسؤول الإمداد والتموين رافعاً فانوسه

فوق تلك اليرقات. كان يتوجب على هذا القرد ذي الذقنين أن يكتشف مورداً للماء، في أي فج من فجاج الأرض، كي تستقي منه الخيل، وقد رأيت بعيني أربعة رجال كانوا يغطون في نومهم وسط الماء، مغشياً عليهم من النعاس، وقد بلغ الماء أعناقهم.

كان علينا بعد أن ترتوي الخيل أن نهتدي إلى الطريق التي جننا منها، وإلى الموقع الذي نعتقد أننا تركنا جماعتنا فيه، فإذا لم نعثر على ذلك الموقع، نكون بريئنا الذمة كي ننطرح منهكين مرة أخرى عند أسفل جدار، خلال ساعة أخرى، إن كان ما يزال لدينا من العمر ساعة ننام فيها، ففي تلك الحرفة، حرفة القتل والموت خليق بك أن تكون شديد المراس، عليك أن تعمل كما لو أنك تعيش أبداً، وتلكم هي الكذبة الأقسى.

انطلقت العربات من جديد متقهقرة، واستأنف الموكب طريقه عند الفجر مولياً الأدبار، مطلقاً صريراً حاداً من جميع عجلاته الملتوية، مصحوباً بأمنية تمنيتها، بأن يفاجئه الألمان ويمزقوه شر ممزق، ويغدو طعاماً للنيران في النهاية في ذلك اليوم بالذات، على غرار ما نشاهده في النقوش الحربية، وأن يُسلب إلى الأبد. كل عتاد غيلانه الدرك، وحذوات خيوله، ومنتطوعوه المجهزون بالمصاييح وكل ما كان يضمه من سخرة ومن عدس أيضاً ومن أطحنة أخرى حتى لا يعود بإمكاننا أبداً طبخها، وحتى لا نراها قط إلى الأبد لأن الهلاك من أجل الهلاك يكون بالتعب وبغير التعب، ولكن الطريقة الأشد قسوة هي أن يدركك الهلاك وأنت تحمل أكياساً كي تملأ الليل بها.

في اليوم الذي سيبدأ فيه هؤلاء الأوغاد عن بكرة أبيهم سننعم بالراحة على الأقل، كنت أفكر على هذا النحو، وسيكون بمقدورنا، على الأقل أن ننام جميعاً مرة واحدة، جسداً وروحاً.

لم يكن هذا التموين سوى كابوس، بالإضافة إلى ذلك، غول صغير يقض المضاجع يضاف إلى ويلات الحرب.. وحوش في الأمام وفي الجوار وفي الخلف كانوا ينتشرون في كل مكان. ومحكومين بموت مؤجل لم نعد نخرج من أسوار الرغبة الحارقة بالنوم، كان كل شيء يغدو وجعاً مع تلك الرغبة. وقت الأكل والجهد المبذول لأجله. مجرى ماء صغير أو شقة جدار في تلك الأنحاء، يساورنا الظن بأننا كنا نعرفها سابقاً.. كنا نستعين بالروائح للعثور على المزرعة التي تركنا فيها جماعتنا، غدونا كالكلاب في ليل حرب القرى المهجورة، وما كان يرشدنا بنحو أفضل هو رائحة البراز؟.

المساعد الأول المسؤول عن التموين، وحارس أحقاد الفوج، سيد العالم للحظة من الزمن، ذلك الذي يتحدث عن المستقبل كان وغداً زنياً. لأن الزمن الراهن هو المهم، أما التذرع بالسلالة والأعقاب، فكلام يقال ليرقات الذباب. في ذلك الليل من ليالي قرى الحرب، كان المساعد الأول يرعى الحيوانات الأدمية من أجل المسالخ الكبرى التي فتحت أبوابها على مصاريعها. كان المساعد الأول، كريتل، هو الملك المتوج، ملك الموت، فعلاً وقولاً، لم يكن ثمة من هو أقوى منه. لم يكن ثمة من يماثله قوة سوى المساعد الأول لدى أولئك الآخرين الذين كانوا في مواجهتنا.

لم يبق من القرية شيء حي سوى قطط مذعورة، أما الأثاث الذي تحطم منذ البداية فكان يذهب لإيقاد النار من أجل الطبخ، الكراسي والمقاعد وصوانات الموائد، من أخفها إلى أثقلها وزناً. كل ما كان يسهل حمله على الظهر كان رفاقي يحملونه معهم. أمشاط ومصابيح صغيرة وطاسات، وأشياء صغيرة تافهة.. وحتى أكاليل الزواج حُملت كلها عن آخرها، كما لو كان ما يزال أمامهم سنوات وسنوات يعيشونها. كانوا يسرقون على سبيل التسلية، أو حتى يظهروا كمن سيعمر أمداً مديداً. رغبات أزلية

كانت المدافع تمثل بالنسبة إليهم ضجيجاً لا أكثر، بسبب ذلك أمكن للحروب أن تستمر، حتى أولئك الذين يشعلونها، أو الذين هم بسبيل إشعالها، لا يتخيلونها على حقيقتها. تستقر الرصاصة في البطن، ورغم ذلك يواصل الجريح لم النعال القديمة عن الطريق والتي ما يزال من الممكن استخدامها.

هكذا هو الخروف، يكون في النزع الأخير، جاثياً على بطنه في الحظيرة أو في الحقل، ولا يتوقف عن رم العشب، أغلب الناس لا يموتون إلا حين تحين لحظتهم الأخيرة. وثمة آخرون يشرعون في الموت ويحسون به قبل عشرين سنة من نهايتهم وربما أكثر من ذلك، أولئك هم التعساء على وجه الأرض.

لم أكن قط حكيماً فيما يتعلق بشؤوني، غير أنني غدوت مع ذلك شخصاً عملياً بما يكفي لكي أكون رخواً رعيدياً على نحو قاطع، وبفضل هذا القرار كنت بالتأكيد أعطي الانطباع بأنني هادئ كل الهدوء، ولكنني كنت أوشي، هكذا، بثقة متناقضة لنقيبنا أورتولان، هو ذاته، والذي قرر في تلك الليلة بأن يعهد إلي بمهمة خطيرة، كان الأمر يتعلق، مثلما شرح لي سراً بالذهاب سريعاً، وقبل طلوع النهار إلى نوارسو— سور لاليس، وهي مدينة تشتهر بنساجيها المهرة، تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً من القرية التي كنا نقيم فيها. كان علي أن أتأكد، في ذلك المكان، من وجود العدو، لأن الذين أرسلوا منذ الصباح لاستطلاع ذلك الموقع لم يتوصلوا إلا إلى مناقضة بعضهم بعضاً. وكان الجنرال انتراي نافد الصبر. وقد سمح لي بمناسبة هذه المهمة الاستطلاعية باختيار حصان من بين أقل الأحصنة تقيحاً في الكتبية. لقد مر زمن طويل لم أكن فيه وحدي، وبدا لي على حين فجأة بأنني ذاهب في رحلة، غير أن الانعقاد كان أشبه بالوهم.

منذ أن بدأت رحلتي، لم أفلح، رغم كل محاولاتني في أن أتخيل مصري بقدر كافٍ من الدقة والتفصيل، كنت أتقدم من شجرة إلى شجرة مصحوباً بقفحة عتادي، كانت صلصلة سيفي الجميل وحده تعادل صوت بيانو. ربما كنت خليقاً بالشفقة ولكنني، في كل حال كنت مثيراً للسخرية بلا ريب.

ما الذي كان يفكر به الجنرال انتراي حينما أرسلني، على هذا النحو، في هذا السكون الشامل، مدججاً بالصنوج؟ لم يكن يفكر بي قطعاً.

كان الأزتيك، مثلما يروون عنهم، يشقون، بطون ثمانين ألفاً من المؤمنين، كل أسبوع، في معابدهم التي يعبدون فيها الشمس. ويقدمونها قرايين إلى إله الغيوم كي يرسل لهم المطر، تلك أمور يصعب على المرء تصديقها قبل أن يذهب إلى الحرب، ولكنه حينما يكون هناك، يتضح له كل شيء، فاستهانة الأزتيك بأجساد الآخرين، هي نفسها التي كان ينبغي أن تكون لدى جنرالنا سيلدون دي انتراي تجاه أحشائي الوضيعة، فبعد منحه أرفع الألقاب غداً بفعل هذه الترقيات نوعاً من إله متميز، هو أيضاً، نوعاً من شمس صغيرة متطلبة بنحو فظيع.

لم يبق لي سوى أمل ضئيل جداً هو أن أقع أسيراً في يد الألمان، كان هزياً ذلك الأمل، خيطاً، خيطاً وسط عتمة الليل. لأن الظروف لم تكن ملائمة على الإطلاق كي يبادرني الألمان بالمجاملات، لحظة اقترابي منهم. طلبة بندقية تصل إليك بأسرع من البرق في تلك اللحظات. وفوق ذلك، ماذا كان بوسعي أن أقول لذلك العسكري المعادي في الأصل، والذي جاء قاصداً سفح دمي من الطرف الآخر لأوروبا؟ وإذا ما ترددت ثانية واحدة (وهي كافية لي) فما الذي سأقوله له؟ ما الذي سيكونه في الحقيقة هذا العسكري أصلاً؟ موظف في مخزن؟ متطوع؟ أم لعله حفار؟ أم في السلك المدني أم طاه؟... للخيل قدر

وافر من الحظ، لأنها وإن كانت تقاسي من الحرب أيضاً مثلما تقاسي نحن، لا يطلب منها أن توقع بامضائها كي تدخل الحرب، ولا أن تكون مؤمنة بها متحمسة لها. ولكنها تعيسة، خيولي الحرة. الحماسة، واحسرتاه، مختصة بنا، تلك البغيّ.

كنت أتبين الطريق بوضوح شديد، فقد قامت على جانبيها، فوق الطمي، تشكيلات كثيرة من البيوت، بيوت مربعة كبيرة، كتل ضخمة من البيوت ذات جدران بيض مغسولة بضوء القمر، كأنها قطع ثلجية ضخمة متباينة الأحجام، يلفها الصمت والشحوب. أتكون هنا نهاية كل شيء؟ كم سأمضي من الزمن في هذه العزلة الموحشة بعد أن يزهقوا روحي؟ أو قبل أن ألفظ أنفاسي؟ في أية حفرة؟ بمحاذاة هذه الجدران؟ سيجهزون علي ربما؟ بطعنة سكين؟ إنهم يبترون الأيدي أحياناً، ويقتلعون العيون ويقطعون الرؤوس.. كثير من الأشياء كانت تروى حول ذلك، وليس هزلاً! من يدري؟ خطوة يخطوها الحصان.. خطوة أخرى أيضاً، هل تكفيان؟ هذه البهائم يثير كل منها من الضجيج ما يعادل رجلين ينتعلان نعالاً من حديد، ملتصقة ببعضها، بخطوات غريبة ذات إيقاعات منفصلة.

قلبي يتقلب على الجمر، ذلك الأرنب، خلف شبكة أضلاعه الصغيرة مضطرباً، متكوراً، أرعن.

حينما يلقي المرء بنفسه، بقفزة واحدة، من فوق برج إيفل لابد أنه يحس بمثل ما كنت أحس به، وفيما هو يهوي في الفضاء يود لو يستدرك فعلته الحمقاء.

احتفظت لي تلك القرية بتهديدها الخفي الصامت، ولكن ليس كلياً مع ذلك، كان ثمة مجرى ماء صغير ينبس في أحد ربوعها يقرقر لي وحدي.

كنت أملك كل شيء، أنا وحدي، في ذلك المساء، كنت المالك في النهاية، للقمر، وللقرية ولخوف عظيم. هممت أن أخب بحصاني. كانت نوارسو سيرلاليس ما تزال بعيدة بالتأكيد، على بعد ساعة في أقل تقدير، حين لمحت وميض ضوء يتسلل من فوق أحد الأبواب، توجهت مباشرة نحو ذلك الضوء، واكتشفت في نفسي وأنا أقترّب منه نوعاً من الشجاعة. شجاعة هاربة ولكنها أكيدة. اختفى الضوء بسرعة، ولكنني كنت قد رأيته، طرقت الباب. وألححت بالطرق، ثم طرقت من جديد كنت أسأل بصوت عال جداً بالألمانية تارة وبالفرنسية تارة أخرى، تحسباً لجميع الحالات، متوجهاً إلى أولئك المجهولين القابعين في أعماق ذلك الظلام.

انفتح الباب أخيراً نصف انفتاح، مصراع واحد..

«من أنت!» نطق صوت من الداخل، لقد نجوت!

«أنا جندي من كتيبة الخيالة..»

— جندي فرنسي؟« كانت المرأة هي التي تتكلم، أمكنني ملاحظة ذلك:

«نعم، أنا فرنسي..»

— لقد مر من هنا، منذ وقت قريب خيالة ألمان... كانوا يتكلمون

الفرنسية هم أيضاً..»

«نعم، ولكنني أنا فرنسي فعلاً..»

— آه..»

كانت تبدو بهيئة المتشكك

«أين هم الآن؟ سألتها

— لقد رحلوا نحو نوارسير في الساعة الثامنة تقريباً..»

وأشارت لي نحو الشمال بأصبعها

ومن قلب العثم خرجت الآن أيضاً، فتاة شابة، بشال وصدار أبيض،
ووقفت لدى الباب..

«ما الذي فعلوه بكم؟ الألمان؟ سألت الفتاة.

— أحرقوا منزلاً قرب دار العمدة، وبعد ذلك جاؤوا إلى هنا وقتلوا أخي
الصغير بطعنة حربة في بطنه، حينما كان يلعب عند جسر روج، فقد رأهم
يمرون.. انظر، وأشارت لي.. إنه هناك»..

لم تكن تبكي، وأعدت إشعال تلك الشمعة التي كان قد فاجأني ضوءها.
ولمحت في العمق — وكان ذلك صحيحاً — الجثة الصغيرة ممددة فوق حشية
مرتدية بدلة بحار، كان العنق والرأس يبدوان كلبين بمقدار ما كان ضوء الشمعة
ذاتها يعبر فوق ياقة مربعة كبيرة زرقاء اللون، انطوى الصبي على نفسه وقد
انتشى ذراعاه وساقاه وظهره. كانت طعنة الحربة قد شكلت ما يشبه محوراً للموت
في وسط البطن، كانت الأم تبكي بحرقة، بالقرب منه، جاثية على ركبتها، وكذلك
الأب، ثم جعل الاثنان يئنان معاً، ولكنني كنت ظامناً جداً.

«أليس عندكم زجاجة من الخمر تبيعونها لي؟ سألت الفتاة — عليك أن
تسأل أمي، فهي تعرف ربما، إن كان ما يزال عندنا شيء منها.. لقد سلب
الألمان منا كمية كبيرة منها منذ وقت قريب..»

حينذاك بدأت الفتاة وأما تتحدثان معاً على إثر سؤالي، وبصوت
خفيض جداً.

«لم يعد لدينا منها، عادت الفتاة لتعلن لي ذلك، لقد أخذ الألمان كل ما
كان لدينا من الخمر.. ومع ذلك فقد أعطيناهم الكثير منه، من تلقاء أنفسنا».

— آه، نعم، لقد شربوا آنذاك كثيراً من الخمر، همست الأم، التي كانت
تتوقف عن الكلام ثم تبكي فجأة... كانوا يستمتعون بذلك..

— أكثر من مائة زجاجة، بالتأكيد، أضاف الأب، الذي كان جاثياً على ركبتيه باستمرار.

— ألم يعد لديكم زجاجة واحدة إذن، ألححت بالطلب، وأنا ما أزال آملاً إطفاء ظمئي. وكان قد بلغ مبلغاً كبيراً، وخاصة من الخمر الأبيض الذي تشوبه مرارة. والذي يعيد إلي بعض الصحو. أريد أن أدفع لكم فعلاً..

— لم يعد لدينا سوى من النوع الجيد جداً، وثمان الزجاجة الواحدة خمسة فرنكات.. وافقت الأم عندئذ..

— حسناً وأخرجت فرنكاتي الخمسة من جيبي، قطعة واحدة كبيرة.

«أذهبي وابحثي له عن زجاجة» طلبت الأم ذلك من ابنتها بتمهل.

حملت الفتاة الشمعة، وعادت بلتر من المخبأ، بعد لحظة

شربت من الزجاجة حتى اكتفيت، ولم يعد علي سوى الذهاب.

«هل سيعودون؟ سألت، فلقاً من جديد.

— ربما، قالوا كلهم معاً، ولكنهم حينئذ سيحرقون كل شيء، لقد هددوا

بذلك، وهم يغادرون..

— سأذهب لأرى ذلك.

— أنت شجاع حقاً.. إنهم هناك» أشار لي الأب، باتجاه نوارسير،

وخرج كذلك إلى الطريق لينظر إلي وأنا أذهب، فيما ظلت الفتاة والأم

فزعتين، إلى جانب الجثة الصغيرة.

«هيا، عد، كانتا تصيحان به من الداخل، عد يا جوزيف، ليس لديك ما

تفعله على الطريق»،

«أنت شجاع حقاً» قال لي الأب مرة أخرى، وهو يضغط على يدي

مودعاً.. وتابعت الطريق، خيباً، صوب الشمال.

«لا نقل لهم بأننا ما نزال هنا، في كل الأحوال» — كانت الفتاة هي التي خرجت لكي تهتف لي بذلك.

«سيرون ذلك بأعينهم، غداً، أحببتها، إن كنتم هنا»، كنت ساخطاً لأنهم أخذوا مني قروشي المئة. كان هناك تلك المئة قرش بيننا، يكفي هذا كي أكرههم، مئة قرش، بل وأتمنى أن يهلكوا جميعاً بسببها. لا حباً نضيعه في هذا العالم، ما دام هناك مئة قرش.

«غداً، رددوا جميعاً وقد ساورهم الشك..»

غداً، كان بالنسبة إليهم أيضاً، زمناً بعيداً. لم يكن ثمة معنى كبير لكلمة غداً على هذا النحو، كان ذلك يعني، في الواقع، العيش ساعة إضافية بالنسبة لنا جميعاً، وساعة واحدة في عالم يُختزل كل شيء فيه إلى القتل، ظاهرة غريبة! لم يعد الموت بعيداً جداً بالنسبة إلي. كنت أخب من شجرة إلى شجرة وأنا أنتظر أن يبادرني أحد بالسؤال أو بالرصاص بين لحظة وأخرى. ثم ماذا؟ لا شيء من ذلك!

كنت خليقاً أن أصل إلى هناك، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لأكثر، حين بلغت قمة رابية صغيرة مطلة على المدينة. ومن هناك لمحت فجأة في الأسفل صفوفاً وصفوفاً من قناديل غاز مضاءة. كان في مقدمة المشهد محطة تغمرها الأنوار بقاطراتها، ومطعمها. لم يكن يصدر عنها، مع ذلك، أية جلبة. شوارع، وجادات، ومصابيح وأيضاً مصابيح أخرى تنتشر الضياء، وتغمر أحياء بكاملها. لم يكن يحيط بذلك المشهد أي شيء سوى الظلام والفراغ، كان ذلك المحيط المحدق بالمدينة متعطشاً للسلام والسكينة، فيما كانت المدينة تنفرش أمامي كما لو كان أهلها قد تركوها مضاءة تماماً، مستلقية، وسط الليل البهي. ترجلت عن حصاني وتمددت فوق رقعة صغيرة من الأرض لأشاهد كل ذلك، برهة من الزمن.

لم ينبئني ذلك المشهد على الإطلاق ما إذا كان الألمان قد دخلوا إلى نوراسير، أم لا، ولكنني كنت أعلم أن الألمان في مثل هذه الحالات كانوا يضرمون النار، في العادة، وأنهم إذا دخلوا، ولم يضرموا النار على الفور، فهذا يعني من دون ريب بأن لديهم أفكاراً ومشاريع غير عادية. لم يكن ثمة مدافع أيضاً، كان الوضع مريباً.

كان حصاني يرغب في النوم أيضاً، وراح يجذب عنانه من يدي مما جعلني التفت نحوه. وحينما عدت بنظري من جديد إلى جهة المدينة بدا لي أن شيئاً ما قد تغير في مشهد الأرض أمامي، ليس شيئاً ذا بال بالتأكيد، ولكنه مع ذلك كان كافياً لكي أنادي: «هيه، هناك، من هناك؟» كان هذا التبدل في هيئة الظل قد حدث على بعد بضعة خطوات مني، لا ريب أن هذا كان شخصاً ما.. «لا تصرخ عالياً، أجبني صوت رجل، قوي وأبح، صوت يبدو بوضوح أنه فرنسي.

— هل أنت متخلف عن فصيك أيضاً؟ سألني كذلك، صار بإمكانني أن أراه الآن، كان جندياً من جنود المشاة، بواقية خوذته المهشمة تماماً. بعد أعوام وأعوام سأذكر بوضوح هذه اللحظة، سأذكر طيفه المنبثق من بين الأعشاب، مثلما كانت تنبثق أهداف الرمي التي يجري التسديد عليها أيام الأعياد، الجنود الخشبية.

اقتربنا من بعضنا، كان المسدس في يدي، ظللت متأهباً لإطلاق النار دون أن أعرف لماذا.

«اسمع، سألني، هل رأيتهم أنت؟

— لا، ولكنني أتيت إلى هنا لكي أراهم

— هل أنت من فوج الخيالة ١٤٥؟

— نعم، وأنت؟

— أنا جندي احتياط

— آه» قلت ذلك، وقد شعرت بالدهشة، جندي احتياط، لقد كان أول جندي احتياط ألتقيه في الحرب، كنا دوماً مع جنود من الجيش العامل. لم أكن أرى وجهه، ولكن صوته كان مختلفاً عن أصواتنا. كما لو كان أشد حزناً، وأخف على السمع من أصواتنا، لم أستطع أن أمنع نفسي، بسبب ذلك، من إيلائه بعض الثقة، كان شيئاً ما صغيراً.

«حسبي من هذه الحرب، كان لا ينفك يكرر، سأذهب لأسلم نفسي إلى

الألمان...».

لم يكن يخفي شيئاً.

«كيف ستفعل ذلك؟»

أثار ذلك اهتمامي فجأة، أكثر من أي شيء آخر، مشروعه هذا، ترى، كيف سيتصرف كي يوقع نفسه بأيدي الألمان؟
«لا أعرف بعد..»

— ماذا ستفعل؟.. ليس من السهل إيقاع نفسك بأيديهم.

— الأمر سيان عندي. سأذهب إليهم وأسلم نفسي.

— ألسنت خائفاً، إذن؟

— بلى! أنا خائف، وارى أن ذلك حماقة غبية، إذا أردت رأيي، لست

أبالي بالألمان، إنهم لم يفعلوا معي أي سوء..

— اصمت، قلت له، ربما كانوا ينصبون إلينا...».

كنت أود أن أكون مهذباً مع الألمان، وقد رغبت بقوة في أن يفسر لي

هذا الجندي الاحتياطي، في تلك اللحظة من الزمن التي سيقدم فيها على

الاستسلام، لماذا لم أكن أنا أيضاً، أملك الشجاعة كي أخوض الحرب مثملاً يخوضها الآخرون جميعهم. ولكنه لم يفسر لي أي شيء، كان يكرر فقط، بأنه لم يعد يطبق الاستمرار في الحرب.

روى لي بعد ذلك كيف تشتت فوجه في تلك الليلة عند طلوع الشمس، بعد أن فتح قناصة من مشاة جيشنا نيران رشاشاتهم خطأ على رفاقه عبر الحقول، لم يكن جنود القناصة يتوقعون وصولهم في تلك اللحظة وكان هؤلاء قد وصلوا في وقت مبكر جداً. قبل ثلاث ساعات من الموعد المحدد، وهكذا فإن القناصة المنهوكين من التعب، والمتفاجئين غربلوهم بالرصاص حينئذ، كنت أعرف هذه المعزوفة. فقد عزفها لي جنود الحرس مراراً.

«أنا، أنا متأكد، مما أقول، رأيت بعيني كثيراً مما جرى» أضاف: «قلت لنفسي: يا روبنسون، أنا ادعى روبنسون، روبنسون ليون – إما أن تلقي سلاحك الآن، أو أنك لن تلقيه أبداً في يوم من الأيام. ذلك ما قلته لنفسي، أليس صحيحاً؟ لجأت إلى غيضة صغيرة، وماذا وجدت هناك، احزر، التقيت بنقيبنا.. كان مستنداً إلى شجرة مثخناً بالجراح، على شفا الهلاك.. كان يمسك بنطاله بكتا يديه، ويبصق دماً، كان الدم يسيل من كل أنحاء جسمه وهو يجيل عينيه في كل اتجاه.. لم يكن ثمة أحد بجانبه، لقد نال حسابه.. «ماما، ماما» كان يئن باكياً، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويبول دماً أيضاً.

«كف عن هذا، قلت له، ماما، لقد مللت منك» ما قولك! كان يصيح، دون توقف، ومن طرف فمه، كأن ذلك كان خليقاً، أن يمتعه، الخبيث، ألا ترى يا عزيزي، لا يتاح لك غالباً، أليس كذلك، أن تقول لنقيبك ما تفكر به.. ينبغي أن نتغتم للفرصة، إنها نادرة.. ولكي أفرّ بسرعة، ألقيت بعنادي ومن ثم بأسلحتي أيضاً. في قاع مستنقع اللبظ قريب من تلك الناحية. هل تتصور أنني، كما تراني

أمامك. أرغب في قتل أي إنسان؟.. لم أتعلم.. أبدأ في ما مضى، أمور العراق والمشاجرات. في السابق في زمن السلم.. كنت أذهب.. أنت تفهم؟ كنت أحاول الذهاب إلى المصنع بانتظام، يوم كنت مدنياً.. كنت نقاشاً متديباً. ولكنني لم أكن أحب ذلك العمل، بسبب كثرة المشاجرات.. كنت أفضل أكثر بيع الصحف المسائية في حي هادي، غدت فيه معروفاً، حول بنك فرنسا.. في ساحة النصر، إن شئت أن تعرف.. شارع بوتيت شامب، تلك كانت منطقتي.. لم أكن أجتاز قط شارع اللوفر والباليه رويال القريب منه، أنت ترى، كنت أؤدي خدمات للتجار، تسليم بضاعة ما بعد الظهر، من وقت إلى آخر. عملت في حرف عديدة، كعامل يدوي.. ولكنني لا أحب السلاح.. إذا رأك الألمان مع أسلحتك، فأنت في وضع صعب، أما إذا رأوك منطلقاً على هواك مثلي الآن.. لا شيء في يدك. هل تفهم؟ إنهم يعرفون خصمهم.. لو أستطيع أن أصل عارياً إلى الألمان فسيكون ذلك أفضل أيضاً، مثل حصان، لن يستطيعوا أن يعرفوا حينئذ في أي جيش كنت؟

— هذا صحيح!

أدركت بأن العمر له شأنه بالنسبة إلى الأفكار، فهو يجعل صاحبه شخصاً عملياً.

«إنهم هناك، هيه؟» أنعمنا النظر، قدرنا معاً حظوظنا. واستكشفتنا مستقبلاً كما لو بورق اللعب، وسط تلك الخريطة المضيئة الضخمة التي كانت تقدمها لنا المدينة بصمت.

«هل نذهب؟»

كان هذا يعني اجتياز خط السكة الحديدية في البداية، فإذا كان ثمة حراس فسنكون في مرمى أنظارهم، وربما ليس هناك أحد بعد.. لا بد من التأكد، علينا المرور بعد ذلك من فوق النفق أو من تحته..

«ينبغي أن نسرع أضاف ذلك الروبنسون.. علينا أن نفعل هذا تحت جنح الظلام، في النهار لا يعود ثمة أصدقاء، الجميع منهمكون بالعرض، خلال النهار، أنت ترى، حتى الحرب ليست سوى استعراض.. هل ستصطحب هذه البطة معك؟

قدت حصاني أو بطتي، وسرنا متوخيين أقصى الحذر كي ننسحب بأقصى سرعة فيما لو أسيء استقبلنا. بلغنا مزلقان السكة الحديدية، وقد ارتفعت أزرعه الضخمة الحمراء والبيضاء. لم أكن رأيت قط حواجز بهذا الشكل. لم يكن هناك مثلها حتى في ضواحي باريس.

«هل تعتقد بأنهم دخلوا المدينة؟

— هذا مؤكد، قال لي.. لنتقدم دون توقف..»

كنا مضطرين إلى أن نكون شجعاناً مثلما يكون الشجعان، بسبب الحصان الذي كان يسير خلفنا بهدوء واطمئنان كما لو أنه كان يدفعنا دفعاً بالجلبة التي يثيرها. لم نكن نسمع سواه، توك، توك وهو يقرع بحديد حوافره بقوة، مردداً صدى عالياً، كأنما لم يكن ثمة شيء غير عادي.

كان ذلك الروبنسون يعتمد إذن على الليل للخروج من تلك الورطة؟ كنا نتقدم وسط الشارع الخاوي، دون أن نتعمد أي خدعة على الإطلاق، وبخطوات موقّعة أيضاً كما في التدريب.

كان روبنسون على حق، فالنهار عديم الرحمة، من الأرض حتى السماء، وحيث أننا كنا نمشي فوق الطريق المعبد، كان خليقاً أن نبدو كلانا، مسالمين مأموني الجانب إلى أبعد حد، بل وساذجين للغاية، كما لو كنا عاندين من إجازة «هل سمعت ما يقال عن فوج الخيالة الأول الذي وقع بكامله في

الأسر؟ في مدينة ليل؟ لقد دخلوا المدينة، مثلما قيل، لم يكونوا يعلمون، عجباً!
كان الكولونيل في المقدمة، كانوا يسيرون في شارع رئيسي يا صديقي! ثم
أغلق الشارع.. من الأمام ومن الخلف. كان الألمان في كل مكان، على نوافذ
البيوت.. في كل مكان. وانتهى الأمر، لقد علقوا مثل الفئران.. مثل الفئران!
لعمرى إنها لنهاية مريحة!

— آه! الأوغادا!

— آه، ما قولك بذلك،» لم يصدمننا أنا وروبينسون، ذلك الأسر الرائع،
النظيف جداً والحاسم جداً، فقد كان لعابنا يسيل من أجله، كانت المخازن
موصدة الأبواب، والدور أيضاً بحدائقها الأمامية الصغيرة. كل ذلك كان بالغ
النظافة. ولكننا رأينا بعد مكتب البريد، واحداً من تلك البيوت، جدرانها أنصع
ببياً من البيوت الأخرى يتلألأ بكافة الأضواء من كل نوافذه، في طابقه
الأول مثلما في الطابق الأرضي. قرعنا الباب، والحصان وراعنا باستمرار،
فتح لنا. رجل بدين وملتح «أنا عمدة نوارسير — أعلن ذلك توأ، دون أن
نسأله — أنا أنتظر الألمان!» وخرج إلى ضوء القمر كي نتعرف عليه وحين
لاحظ بأننا لم نكن من الألمان وإنما فرنسيون بالتأكيد، لم يعد استقباله احتفالياً،
بل ودياً وحسب. مع شيء من الضيق أيضاً، لم يكن يتوقعنا قط بالتأكيد، فقد
اعترضنا نحن بمجيبنا الترتيبات التي كان عليه أن يقوم بها، والقرارات التي
كان قد اتخذها، كان مقرراً أن يدخل الألمان إلى نوارسير تلك الليلة وقد
أخطروه بذلك، فنظم كافة الأمور مع حاكم المقاطعة.. كولونيلهم يقيم هنا
ومستوصفهم المتنقل هناك.. الخ.. وإذا دخلوا الآن؟ ورأونا هنا؟ فسيخلق ذلك
مناعب من دون شك، وسيؤدي بالتأكيد إلى تعقيدات.. كل ذلك لم يقله لنا
صراحة، ولكننا أدركنا تماماً أنه كان يفكر به.

بدأ يحدثنا إذن عن المصلحة العامة، في قلب ذلك الليل، ووسط ذلك السكون الذي كنا نأثيين فيه. عن المصلحة العامة لاغير.. عن الثروات المادية للمجتمع.. وعن الميراث الفني لنوارسير الذي يحمل مسؤوليته على كاهله، وهي مسؤولية مقدسة، عن الكنيسة التي يعود عهدها إلى القرن الخامس عشر، على الأخص.. فيما لو قاموا بإحراق كنيسة القرن الخامس عشر، وماذا تُعد كنيسة كوندي سير ايزير إلى جانبها، هكذا إذن، بمزاحه المعتكر فقط، وبالقدر الذي أثاره وجودنا هناك، جعلنا العمدة نشعر بعظم المسؤولية التي كنا نتحملها.. نحن اللذين كنا جنديين شابيين غير واعيين.. لم يكن الألمان يحبون المدن المريبة والتي ما يزال يتسكع فيه جنود معادون. كان ذلك معروفاً للجميع..

بينما كان يكلمنا على هذا النحو، بصوت خفيض كانت زوجته وابنتاه البدينتان والشقراوان اليانعتان يصدّقن بقوة على كلامه بكلمة هنا وكلمة هناك.. لقد رفضونا في المحصلة. وفاضت حولنا جميع القيم العاطفية والآثارية. وقد دبت فيها الحياة فجأة، ما دام أنه لم يكن هناك أي شخص في نوارسير، وسط ذلك الليل يعارض كلامهم.. وطنيون، أخلاقيون، مسوقون بكلمات كالأشباح، كان العمدة يحاول التقاطها، ولكنها كانت تتلاشى حالاً مدحورة أمام خوفنا وحبنا لأنانا، وأمام الحقيقة العارية والبسيطة أيضاً، لقد بذل عمدة نوارسير. جهوداً جبارة، بحمية فائقة ليقنعا بان واجبنا يحتم علينا أن نذهب حالاً من هذا المكان. لقد فعل ذلك بخشونة أقل ولكن بتصميم كبير لا يقل، في نوعه عن تصميم قائدنا بنسون.

من المؤكد أنه لم يكن ثمة ما نعارض به، كل أولئك الأقوياء سوى رغبتنا الصغيرة نحن الاثنيين بالأنا نموت وأن لا نحترق..

لم يكن ذلك بالكثير، خاصة وأن تلك الرغبة لا يجوز إعلانها خلال الحرب. انعطفنا إذن نحو شوارع أخرى خاوية. لا ريب في أن جميع الأشخاص الذين التقيتهم سحابة ذلك النهار، قد كشفوا لي عن روحهم.

«ذلك هو حظي فعلاً، علّق روبنسون فيما كنا نذهب.. ها أنت ترى! فلو كنت أنت ألمانياً، وكنت فتى طيباً أيضاً، لكنت أسرتني، وكان ذلك شيئاً طيباً تفعله.. لقد تعبت من محاولة التخلص من ذاتي في هذه الحرب. — وأنت، لو كنت أنت ألمانياً، ألا تأسرني أيضاً؟ ستحصل ربما حينذاك على ميدالية عسكرية، أليس كذلك؟».

لما لم يكن هناك البتة أي شخص في طريقنا يرغب فينا كأسرى فقد انتهى بنا المطاف إلى الجلوس على مقعد في حديقة صغيرة، وتناولنا حينذاك علبه التون التي كان روبنسون ليون يحملها ويدفئها في جيبه منذ الصباح. ومن بعيد جداً، كنا نسمع نوي مدافع، ولكنها كانت قصية جداً. أه! لو كان ممكناً أن يبقى كل طرف في مكانه. ويتركنا الأعداء وادعين في ذلك المكان. بعد ذلك، اجتزنا رصيفاً، وبمحاذاة قوارب أفرغت نصف حمولتها، تبولنا في الماء، برشقات بعيدة. كنا نقود الحصان من عنانه ورائنا، مثل كلب ضخم جداً، غير أنه بالقرب من الجسر داخل بيت القسّ ذي الحجرة الوحيدة كان ما يزال متمدداً فوق حشية شخص ميت، وحيداً. كان نقيباً فرنسياً من وحدة القناصة في فوج الخيالة، يشبه رأسه قليلاً رأس ذلك الروبنسون.

«أنا على يقين من أنه كان كريهاً، لفت روبنسون نظري.. أنا لا أحب الموتى.

— الأمر الأكثر غرابية، أجب روبنسون، هو أنه يشبهك قليلاً، له أنف طويل. مثل أنفك. كما أنك لست أصغر منه سنّاً بكثير.

- ما تراه، ليس إلا بسبب التعب، نحن نشبه بعضنا بالضرورة بعض الشبه في كل شيء، ولكنك لو رأيتني سابقاً، حينما كنت أقود دراجتي أيام الأحاد.. كنت فتى وسيماً. كان لدي ساقان قويتان، يا عزيزي! بسبب الرياضة، أنت تعلم! فذلك يقوي الفخذين أيضاً».

خرجنا من بيت القس، بعد أن انطفأ عود النقاب الذي أشعلناه كي نرى أمامنا.

«أنت ترى، لقد فات الأوان تماماً، أنت ترى..»

كان ثمة خط رمادي وأخضر يرسم من بعيد قمة الرابية على تخوم المدينة وسط الليل. إنه النهار، نهار أكثر، نهار أقل، كان علينا أن نجتازه مثلما اجتزنا النهارات الأخرى، والتي غدت نوعاً من الأطواق التي تضيق أكثر فأكثر. والتي كانت كلها مملوءة بانفجارات القذائف ولعلة الرشاشات.

«أنت لن تعود إلى هنا، قل، في الليلة القادمة؟ سألني فيما كان يغادرني.

- ليس هناك ليلة قادمة يا عزيزي! هل تظن نفسك، جنراً إلا إن؟

- لم أعد أفكر في أي شيء، قال لي. وإلى الأبد، في أي شيء.. اسمع، أنا أفكر في أن لا أفتس.. هذا يكفي.. أقول لنفسى. كل يوم أعيشه هو يوم يضاف إلى حياتي.

- أنت على حق، إلى اللقاء، يا عزيزي، وحظاً سعيداً..

- حظاً سعيداً لك أيضاً. ربما نرى بعضنا ذات يوم».

عاد كل منا إلى الحرب، وبعدئذ حدثت أشياء وأشياء، ليس من السهل روايتها الآن. لأن الذين يعيشون اليوم لن يفهموها قط.



إن شئت أن تنال الخطوة والاعتبار حقاً، فعليك أن تغدو حالاً وسريعاً رقيقاً أثيراً للمدنيين.. لأن هؤلاء الذين هم في المؤخرة، كانوا يغدون كلما امتد أمد الحرب أشد فساداً وفجوراً، أدركت ذلك على الفور حين عدت إلى باريس، أما نساؤهم فقد لذن بالفرار، وبقي المسنون ذوو الأفواه العريضة، والأيدي الممتدة إلى كل مكان، إلى المؤخرات، وإلى الجيوب..

ورثت باريس محاربي المؤخرة، وتعلم الجميع فيها سريعاً المجد والطرائق المثلى في احتماله بشجاعة، ودون آلام.

الأمهات، الممرضات حيناً، والشهيدات حيناً آخر، لم يعدن يتركن خمرهن الطويلة السوداء، ولا كذلك شهادة التفوق التي مهرها الوزير بختمه، وطلب من موظف العمدية توزيعها عليهن في الموعد المحدد، لقد انتظمت الأمور، في المحصلة، أيما انتظام.

أثناء مواكب الجنازات المحكمة الإتيان، يبدو الجميع محزونين أيضاً، ولكنهم يفكرون مع ذلك بميراث الفقيد، وبالشواغر المقبلة، بالأرملة الظريفة التي تعاني من الحمى، وبأن يعيشوا هم أيضاً، بالمقابل، عمراً مديداً، وبأن لا يموتوا أبداً، ربما.. من يدري؟

حينما تسير خلف موكب الجنازة على هذا النحو، فإن جميع الناس يحيونك تحية كبيرة بقبعاتهم. وهو ما يبعث السرور في قلبك، تلك هي اللحظة التي ينبغي أن تتمالك فيها نفسك جيداً وأن تأخذ سمناً مناسباً، وتتجنب المزاح بملء صوتك، وتغتبط في داخلك حسب. ذلك مباح.. ففي داخل المرء كل شيء مباح.

تبدلت الأحوال أيام الحرب، فبدل أن يرقصوا في الطابق الأرضي، صاروا يرقصون في القبو، لقد تسامح المقاتلون بذلك، وعلى أفضل نحو: أيضاً. كانوا يحبون الرقص، ويطلبونه ما إن يصلوا، ما من أحد كان يجد تلك التصرفات مريبة، ليس ثمة ما هو مريب في الواقع سوى الشجاعة، وهل يكون المرء شجاعاً مع جسده، اطلبوا إذن من سرفة الذباب أن تكون شجاعة، إنها وردية وشاحبة ورخوة، مثلنا تماماً.

فيما يتعلق بي، لم يعد ثمة ما أشكو منه. كنت أيضاً على طريق الانعتاق.. بسبب الميدالية العسكرية التي حصلت عليها تقديراً للجرح الذي أصبت به، ولكل ما قمت به.. قدموها لي في المستشفى ذاته الذي أمضيت فيه نقاهتي، وفي ذلك اليوم أيضاً ذهبت إلى المسرح لأعرضها أمام المدنيين أثناء فترات الاستراحة. يا للأثر العظيم الذي ستحدثه، إنها من أوائل الميداليات التي تقع عليها العين في باريس، شأن وأي شأن!...

في ذلك اليوم بالذات، وفي صالة الاستراحة الملحقة بمسرح الأوبرا كوميك التقيت بالأمريكية الصغيرة "لولا"، وفقدت بسببها براءتي كلياً، ثمة أيام عظيمة، كهذا اليوم لا يعد المرء غيرها بين عدد من الشهور التي يمكن أن يستغني عن العيش فيها.. ويوم الميدالية ذاك في الأوبرا كوميك كان، بالنسبة إلي، حاسماً.

بسبب "لولا" غدوت شديد الفضول للتعرف على الولايات المتحدة، بسبب الأسئلة التي كنت أطرحها عليها والتي لم تكن تجيب عليها إلا لماماً. حينما ينطلق المرء في الأسفار على طريقة "لولا"، فإنه لا يرجع بذاكرته إلى موطنه إلا حينما يتمكن، وكيفما يتمكن.

في ذلك الوقت الذي أتكلم عنه. كان جميع الناس في باريس يريدون أن يكون لهم زيهم الخاص.. لم يكن هناك من لا يملك زياً سوى المحايدون والجواسيس وكان هؤلاء صنفاً واحداً. كان "لولاً" زيهما الرسمي، كان زياً بالغ الظرف، تعلوه في كل مكان صلبان صغيرة حمر، فوق الأكمام، وفوق القبعة الصغيرة التي تحاكي قبعات البوليس، والموضوعة دائماً بنحو مائل، وبشيء من الغنج فوق شعرها المتموج، جاءت "لولاً" لمساعدتنا على إنقاذ فرنسا، مثلما قالت لمدير المستشفى، في حدود قدراتها البسيطة، ولكن بكل قلبها، تفاهنا في الحال أنا و"لولاً"، ولكن ليس كلياً مع ذلك، لأن اندفاعات قلبها لم تكن تسرنى على الإطلاق، كنت أفضل اندفاعات جسدها، بكل بساطة. لقد علموني ذلك، في الحرب! لو تعلمون كيف! وما كنت لأنساه أبداً..

كان قلب "لولاً" رقيقاً، ليناً ومفعماً بالحماس. وكان جسدها لطيفاً، شهياً، إلى أبعد حد. خليق بي الآن أن أنظر إليها بنحو شامل مثلما هي.. كانت فتاة لطيفة في المحصلة! ولكن كانت هناك الحرب تقف بيننا. ذلك السعار الهائل البشع الذي كان يدفع، نصف البشر، رضوا ذلك أم لم يرضوا إلى أن يرسلوا النصف الآخر إلى المجزرة. كان هذا الهوس إذن يفسد العلاقة فيما بيننا بالضرورة. أما أنا الذي كنت أتمائل للشفاء ما استطعت ذلك، ولم أكن قط حريصاً على مواصلة دوري في مقبرة المعارك الضارية، فقد بدت لي مذبحتنا المثيرة للجزء بريقاً خادعاً، في كل خطوة كنت أخطوها في المدينة، مكرراً شريراً هائل الأبعاد، يشيع في كل مكان.

غير أن حظوظي كانت ضعيفة للإفلات منها، لم يكن لدي أية علاقة ضرورية للنأي بنفسي عن لهيبها، لم أكن أعرف سوى فقراء، أعني أشخاصاً لا يهتم لموتهم أحد، بالنسبة إلى "لولاً" لم يكن يحق لي الاعتماد عليها من أجل

إرسالي إلى المؤخرة، لم تكن "لولا" سوى ممرضة، ولا سبيل إلى اللحم بالخلاص إلا عن طريق شخص مثل أورتولان ربما، شخص أشد قتالية من هذه الطفلة الفاتنة. قبل العبور في محرقة البطولات الموحلة، كان مظهرها الصغير الشبيه بجان دارك، ربما سيحرضني، يحولني إلى مقاتل حقيقي. ولكنني الآن، وبعد تجندي في ساحة كليشي غدوت متقزراً برعب إزاء كل بطولة، لقد شفيت، شفيت تماماً.

من أجل راحة سيدات البعثة الأمريكية، أقام فريق الممرضات الذي كانت "لولا" تعمل في عداه في فندق بارتيز، وبغية جعل الأمور أكثر جاذبية بالنسبة إلى "لولا" بوجه خاص عهد إليها (كان لها علاقات) بمسؤولية الإشراف على خدمة خاصة، داخل الفندق نفسه، هي عبارة عن إعداد فطائر بالتفاح لمستشفيات باريس، كان يوزع منها كل صباح آلاف الدزينات، وكانت "لولا" تتجز هذه المهمة العظوفة بشيء من الحماسة، ولكن هذه الحماسة ما لبثت أن انقلبت كلياً إلى وبال.

لم تتقن "لولا" طيلة حياتها، لابد من قول ذلك، صنع الفطائر، شغلت إذن عدداً من الطاهيات بالأجرة، وبعد إجراء بعض التجارب كانت الفطائر جاهزة لتسليمها بدقة وانتظام مترعة بالعصير، مذهبة ومحلاة بالسكر على نحو باهر، لم يكن على "لولا"، في المحصلة، إلا أن تتذوقها قبل أن ترسلها إلى مختلف دوائر الخدمة في المستشفيات، وفي كل صباح كانت "لولا" تنهض في الساعة العاشرة، وتنزل بعد أن تستحم، إلى المطابخ الواقعة في أعماق الأقبية. مرتدية فقط كيمونو يابانياً، أسود وأصفر، أهداه لها صديق من فرانسيسكو عشية سفرها.

كانت الأمور تسير سيراً حسناً بوجه الإجمال، وكنا على وشك كسب الحرب، حينما وجدتُ "لولا" ذات صباح ساعة الإفطار في حال من الاضطراب، ورفضت أن تمس صحناً واحداً من صحن المائدة، فانتابني الخوف من بلاء ألمّ بها أو مرض مفاجئ قد داهمها، وتوسلت إليها أن تعتمد على عنايتي الساهرة.

كانت "لولا" قد سمنت، وزاد وزنها كيلوغرامين اثنين، بسبب تدنوقها الدائم والمنتظم لفظائر التفاح، وكشف لها زنارها الصغير، بعد أن زاد فرضة واحدة، عن كارثة. ثم ما لبثت الدموع أن انهمرت بغزارة، وحاولت التسرية عنها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، طففت معها، مدفوعاً بالتأثر في سيارة تاكسي، على صيدليات عديدة متباعدة المواقع. وقد أيدت كافة الموازين بعناد وبمحض الصدفة، زيادة وزنها كيلوغرامين فعلاً، وبنحو قاطع، اقترحت عليها حينئذ بأن تترك مهمتها لزميلة من زميلاتها تسعى، على النقيض من "لولا"، إلى زيادة وزنها، فرفضت "لولا" أن تصغي إلى أية كلمة من هذه التسوية المقترحة التي تعتبرها عاراً وفراراً حقيقياً لا يليق بها، وأخبرتني في تلك المناسبة أن أحد أقاربها المتقدمين كان هو أيضاً واحداً من طاقم سفينة مايلغوير الظافرين الذين نزلوا في بوسطن عام ١٧٦٦، وبالنظر إلى هذه الذكرى فإنه لم يكن بمقدور "لولا" التفكير في التهرب من واجب الفطائر، المتواضع بالتأكيد، ولكن المقدس مع ذلك.

على أن "لولا" ما عادت منذ ذلك اليوم، إلى تدنوق الفطائر إلا بأطراف أسنانها المصفوفة بانتظام فائق، والظريفة غاية الظرف. وقد بلغ خوفها من السمنة مبلغاً أفسد عليها كل متعة، وعراها الذبول، كان خوفها من الفطائر في ذلك الوقت لا يقل عن خوفي من القنابل، وصرنا الآن في أغلب الأوقات

نتمشى كما تنص القواعد الصحية، بسبب تلك الفطائر، طولاً و عرضاً، على الأرصفة وفي الشوارع، ولكننا لم نكن ندخل إلى النابوليتين بسبب البوطة التي كانت هي أيضاً تسمّن السيدات.

ما حلمت قط في يوم من الأيام بمسكن يحتوي على مثل هذا الرغد الذي وجدته في حجرتها. زرقة شاحبة تبهر العين، وصالة استحمام إلى جانب الحجرة. صور أصدقائها في كل مكان، كلمات إهداء، قليل من النساء وكثير من الرجال، فتیان بهيو الطلعة، سمر مجعدو الشعر، من طرازها، كانت تحدثني عن لون عيونهم، ومن ثم عن تلك الإهداءات الرقيقة الاحتفالية بأجمعها. في البداية. كان ذلك يزعجني وأنا أقف بتهديب وسط كل تلك الصور، ثم ما لبثت أن اعتدت على ذلك.

ما إن كنت أتوقف عن احتضانها، حتى تعود إلى الحديث، دون أن أقاطعها، حول مواضيع الحرب أو الفطائر، كانت فرنسا حاضرة دوماً في أحاديثنا. بالنسبة إلى "لولا"، ظلت فرنسا نوعاً من جوهر فروسي غير محدد تماماً داخل المكان والزمان، غير أنها الآن جريحة على نحو خطير.. وبسبب ذلك فهي أقوى على التحريض. أما أنا، فحين كانت تحدثني عن فرنسا، كنت أفكر، على نحو لا يقاوم بأحشائي. كنت حينئذ، بالضرورة أكثر تحفظاً بكثير فيما يتعلق بالحماسة والحمية.. لكل رهابه. غير أنها حينما كانت تتسامح معي في الوصال. كنت أصغي إليها دون أن أعارضها على الإطلاق. ولكنني قلما كنت أرضيها أو أروق لها في مسألة الروح، كانت تريدني مرتعشاً بالوطنية حتى أعماقي، متوهجاً بقوة، ولم أكن أتصور، أنا بدوري، لماذا يتوجب علي أن أكون على تلك الحال من التسامي، كنت أرى، على العكس من ذلك، ألف سبب، يتعذر دحضه، كيما أظل في مزاج نقيض تماماً.

لم تكن "لولا" على أي حال، تفعل شيئاً، سوى الهذيان بالسعادة والتفاؤل، على غرار جميع الأشخاص الذين يكونون في الجانب الرخي للحياة، جانب المزايا والحظوظ، مزايا الصحة والأمن، والذين ما يزال لديهم فسحة مديدة للعيش.

كانت تربكني بأمور الروح، تتحدث عنها دون انقطاع. الروح! إنها باطل الأباطيل، إنها لذات الجسد حينما يكون معاقى. ولكنها أيضاً الرغبة في الخلاص من الجسد حين يكون مريضاً أو حين تسوء الأمور والأحوال. وأنت تأخذ من الوضعين ذلك الذي يقدم لك راحة أكثر في البرهة التي تكون فيها، وهذا كل شيء، وما دمت تستطيع الاختيار بين الوضعين، فأنت بخير. أما أنا فلم يعد باستطاعتي الاختيار. لقد انتهت لعبتي. كنت داخل الحقيقة حتى النخاع، وكانت منيتي تطاردني خطوة خطوة، كان من العسير جداً علي التفكير بشيء آخر سوى بمصيري كصريع مؤجل إلى حين، وأن العالم بأسره. فوق ذلك كان يجد مصرعي طبيعياً تماماً.

وسط هذا النوع من الاحتضار المؤجل، الصاحي، الحاد، يستحيل فهم شيء آخر سوى الحقائق المطلقة. ولا بد للمرء من مكابدة ذلك الاحتضار كي يدرك دوماً كل ما يقال عنه.

توصلت إلى نتيجة مؤداها أن الألمان كان بوسعهم الوصول إلى هنا، وأن يذبحوا ويدمروا، ويحرقوا كل شيء، الفندق والفتائر و"لولا"، والتويللري، والوزراء، وأصدقائهم الصغار، والكوبول والووفر والمخازن الكبرى، وأن ينقضوا على المدينة، ويطلقوا فيها رعود الإله، ونيران الجحيم، وسط هذا المعرض العفن الذي لم يعد من الممكن حقاً إضافة أي شيء إليه مما هو أكثر قذارة ونتاجاً، وأنتي لم أكن أملك مع ذلك، ما أخسره، أبداً على الإطلاق، بل سأكسب كل شيء.

لن يخسر المالك شيئاً ذا بال حينما يحترق بيته، فسيأتي مالك آخر، إن لم يكن هو نفسه دائماً، ألمانيا كان أم فرنسياً أم إنكليزياً أم صينياً ليبرز إيصاله عند الحاجة.. بالمارك أم بالفرنك؟ ما دام سيُفَع له بالضرورة.

كانت معنوياتي، بوجه الإجمال، سيئةً بقذارة. ولو أنني قلت "لولا" كل ما كان يجول في خاطري عن الحرب لاعتبرتني وحشاً قبيحاً ولحرمتني من آخر نفحات مودتها، تجنبت إذن بحرص أن أبوح لها بهذه الاعترافات، وكنت أشعر، من جهة أخرى ببعض الصعوبات والمنافسات أيضاً. كان بعض الضباط يحاولون اختطافها مني. كانت منافستهم تثير مخاوفي. كانوا مسلحين باغواءات وسام الشرف، الذي حصلوا عليه، وقد ضجت الصحف الأميركية في الحديث عن ذلك الوسام الشهير.. كنت أعتقد كذلك أنني إن وقعت مرتين أو ثلاث في دور الزوج المخدوع فإن علاقتنا ستكون مهددة بالخطر الشديد إذا لم تجد لدي هذه الطائشة فجأة فائدة فائقة القيمة. تلك التي تتكون من تذوق الفطائر كل صباح بدلاً عنها.

ذلك التخصص الذي ولد في اللحظة الأخيرة أنقذني. قبلت "لولا" أن أحل محلها، ألم أكن أنا أيضاً مقاتلاً مقداماً، جديراً إذن، بتلك المهمة المفعمة بالثقة، ومن يومها لم نعد عاشقين وحسب بل وشريكين. على هذا النحو بدأت الأزمنة الحديثة.

كان جسدها بالنسبة لي غبطة لا نهائية، كنت أجوب ذلك الجسد الأميركي دون كلال. والحق أنني كنت خنزيراً حقيراً، وظللت كذلك. لقد تشكل لدي أيضاً ذلك اليقين السار والمنعش. بأن بلداً قادراً على إنتاج أجساد لها مثل هذه الجسارة في رهاقتها، بتخليق روعي له هذا القدر من الإغواء خليق أن يقدم تجليات أخرى عظيمة بالمعنى البيولوجي، ذلك مفهوم.

قررت، لفرط ما علقت "بلولا" القيام برحلة إلى الولايات المتحدة بمثابة حج حقيقي، ما أن أجد إلى ذلك سبيلاً. والواقع أنني ما عرفت راحة ولا سكيناً (خلال حياة ملوها التتغيب والاضطراب بنحو لا راد له) قبل أن أعيش هذه المغامرة العميقة الغور، صوفياً وتشريحياً.

تلقيت، على هذا النحو، بالقرب من أكفال "لولا" رسالة عالم جديد، لم يكن "لولا" سوى جسد، هذا أكيد، كان يزينه رأس صغير ظريف يشي ببعض القسوة، بسبب عينيها الزرقاوين الرماديتين اللتين تصعدان قليلاً فيه نحو الزوايا، على غرار عيون القطط الوحشية.

كانت رؤيتها فقط قبالتني تجعل اللعاب يفيض في فمي كما لو بتأثير طعم رشفة من خمر غير مشوبة بالماء أو بفعل طعم حجر صوان. عينان قاسيتان باختصار، متوهجتان بتلك الحيوية التجارية الملائمة، الشرقية الفراغوناردية⁽¹⁾ التي تمتلكها كل العيون في تلك الأمكنة.

كنا نلتقي في أغلب الأوقات في مقهى قريب، كان الجرحى الذين يتزايد عددهم أكثر فأكثر يظلمون عبر الطرقات مختلي الهدام. غالباً، وقد نظمت من أجلهم تبرعات أو «أيام لجمع الصدقات» لهؤلاء وأولئك، وعلى الأخص للقائمين على تنظيم تلك «الأيام»، كذب، تقبيل، موت. صار محظوراً القيام بشيء آخر. كان الكذب يجري على السنة الجميع حتى بلغ حد الهوس وتجاوز الخيال، تجاوز حدود المضحك واللامعقول، على صفحات الصحف، وفي الإعلانات، على الأرجل، وفوق الحصان، وفي السيارة. انخرط الجميع في الكذب، وتباروا فيه، ورد بعضهم على بعض بما هو أعظم وأفدح من الأكاذيب، وسرعان ما خلت المدينة من الحقيقة خلواً تاماً.

(1) نسبة إلى الرسام والنحات الفرنسي فراغونارد.

النزر اليسير من الأكانيب الذي كنا نعثر عليه عام ١٩١٤ صار مضحكاً الآن، كل ما نلمسه صار مزيفاً، السكر والطائرات، والنعال والمربيات والصور، كل ما نقرأه، ما نبتلعه، ما نعجب به، ما نعلنه، ما ننكره، ما ندافع عنه لم يكن سوى أشباح حقودة، تفتيات. مساخر. الخونة أنفسهم كانوا مزيفين، كانت حمى الكذب والتصديق تنشر عدواها مثل الجرب.. أما الصغيرة "لولا" فلم تكن تعرف من اللغة الفرنسية سوى بضع جمل ولكنها كانت جملاً وطنية: «سننتصر عليهم» «هلمي إينا، يا مادلين».. كان ذلك يدعو إلى البكاء.

كانت "لولا" تتحني على موتنا بعناد ووقاحة، على غرار جميع النساء في كل مكان، حينما تصبح الشجاعة هي نمط الوجود لدى الآخرين، أما أنا الذي تعرفت تماماً على طعم جميع الأشياء التي تتأى بي عن الحرب، فكنت أطلب منها مرات ومرات معلومات عن أمريكا ولكنها لم تكن تجيبني حينئذ إلا بتعليقات مبهمة كلياً، مزعومة وغير أكيدة، قاصدة إلى أن تترك في نفسي انطباعاً براقاً.

غير أنني صرت أشك الآن بالانطباعات، لقد خدعتني الانطباعات ذات مرة، ولن يملكني بعد أحد بالكلام المعسول.

كنت أو من بجسم "لولا"، ولم أكن أو من بعقلها، كنت أنظر إليها كجنديّة فاتتة من جنود المؤخرة، في الوجه الخلفي للحرب، في الوجه الخلفي للحياة. كانت تخترق قلقي بذهنية البوتيت جورنال (الصحف الصغيرة). خصل من الريش، وأبواق صاخبة وقفازات بيض.. وبانتظار أن ينحف جسمها كنت أظهر لها آيات من التهذيب والود، تزداد يوماً بعد يوم، كنت أؤكد لها بأن ذلك سيجعلها تتحف، ولكنها كانت تعتمد بالأحرى، على نزهاتنا الطويلة لتخفيف وزنها، أما أنا فكنت أمقت هذه النزهاات، ولكنها كانت تصر عليها.

كنا نتردد على هذا النحو، على سبيل التريض إلى غابة بولونيا، خلال بضع ساعات بعد الظهر، عند «برج البحيرات».

الطبيعة شيء مريع، وحتى حين تكون مستأنسة، كما في غابة بولونيا، إنها ما تزال تثير نوعاً من القلق لدى أبناء المدن الحقيقيين، لذا فهم يستسلمون بسهولة كبيرة للذبح بأسرارهم، لا شيء تستحقه غابة بولونيا، رطوبة متفشية، سخونة دبقة، أجواء دهنية، أشجار عارية الأغصان والأوراق كي تجعل سيل الذكريات يجري متدفقاً دون أن يتخثر لدى أناس المدينة المتزهين بين الأشجار. لم تكن "لولا" تفلت من تلك الكآبة والقلق الحميم، كانت تروي لي فيما نحن ننتزه، ألفاً من الأشياء الصادقة، حول حياتها في نيويورك وحول أصدقائها الصغار هناك.

لم أكن لأتوصل إلى الكشف عما هو حقيقي في ذلك النسيج المعقد من الدولارات وحفلات الخطوبة، والطلاقات، وشراء الفساتين والحلي الذي كان يعج بها عالمها كما كان يبدو لي.

ذهبنا في ذلك اليوم إلى ميدان السباق، كنا ما نزال نلتقي في تلك الأنحاء عربات تجرها الجياد، وأطفالاً يمتطون الحمير، وأطفالاً آخرين يثيرون الغبار. وسيارات مكتظة بالجنود المجازين الذين لا يكفون عن البحث اللاهث عن نساء شاغرات عبر الممرات الضيقة، أو بين قطارين، مثيرين مزيداً من الغبار أيضاً، متعجلين للذهاب إلى الغداء، وممارسة الحب، هائجين، دبقين، مترصدين، مضطربين بسبب الوقت الذي يستعجلهم، ورغبات الحياة التي تغور في أعماقهم، تسح من أجسادهم الشهوة والحرارة كذلك.

كانت الغابة أقل تناسقاً من سابق عهدها، مهملة من قبل السلطات الإدارية دونما عناية.

«ينبغي أن يكون هذا المكان جميلاً جداً قبل الحرب؟ يزدان بالأناقة؟ حدثني يا فرديناند.. سباقات الخيل هنا؟ .. هل هي شبيهة بما يجري عندنا في نيويورك؟».

لم أكن، والحق يقال، قد ذهبت قط إلى سباقات الخيل قبل الحرب ولكنني رحت أبتدع على الفور من أجل تسليتها مئة تفصيل ملون حول هذا الموضوع، مستعيناً بحكايات كنت قد سمعتها عنه، ذات اليمين وذات الشمال، الفساتين.. الأنيقة، العربات التي يتطاير منها الشرر.. الانطلاق.. الأبواق الجذلي والصادحة طوعاً، القفز فوق النهر، رئيس الجمهورية، حمى المراهقات الحامية الوطيس.. الخ.

أعجبت "لولا" إعجاباً شديداً بوصفي المثالي الذي قرب المسافة ما بيننا، واعتقدت هي، منذ تلك اللحظة بأن لدينا، على أي حال، ميلاً مشتركاً، رغم أنه كامن عندي، ألا وهو الاحتفال بالمظاهر الاجتماعية، وعانقتني بعفوية مدفوعة بالانفعال، وهو ما لم يكن يحدث لها، إلا نادراً. لا بد لي من قول ذلك، ثم ما لبثت أن اجتاحتها كآبة الأشياء التي ولت موضوعها. كل بيكي بطريقته على الزمان الذي مضى، أما "لولا" فكان بكاؤها على الموضوعات الميتة التي كانت تتراءى لها عبر كر السنين.

«فرديناند، سألتني، هل تعتقد بأنه سيكون هناك، أيضاً سباقات في هذا الميدان؟

— حينما ستنتهي الحرب، من دون ريب، يا "لولا"

— ليس هذا أكيداً، أليس كذلك؟

— لا، ليس أكيداً.

هذا الاحتمال، بأنه لن يكون بعد سباقات على الإطلاق في لونغشامب
آثار البلبلة في نفسها. كآبة الكون تمسك بتلابيب الكائنات ما أمكنها ذلك،
ولكنها بإمسакها بهم تبدو وكأنها تداهمهم في كل آن..

«هب يا فرديناند أن الحرب استمرت زمناً طويلاً، سنوات مثلاً..
سيكون قد فات الأوان حينئذ بالنسبة إلي، لكي أعود إلى هنا، هل تفهمني
يا فرديناند؟.. أحب كثيراً، أنت تعلم، الأماكن الجميلة مثل هذا المكان الذي
أماننا، إنها اجتماعية جداً.. أنيقة جداً. ولكن سيكون قد فات الأوان.. وإلى
الأبد.. ربما. سأكون عجوزاً حينذاك يا فرديناند.. حينما تعود الاحتفالات
والسباقات.. سأكون عجوزاً! سترى يا فرديناند، سيكون الأوان قد فات.. لدي
إحساس بأنه سيكون الأوان قد فات..»

ها هي ذي تنكفي إلى قنوطها، أغدقتُ عليها، كي أهدئ من روعها،
كل الآمال التي أمكنني التفكير بها، بأنها في واقع الأمر. ما تزال في الثالثة
والعشرين من عمرها.. وأن الحرب ستنتهي بسرعة، وأن الأيام الجميلة
ستعود.. مثلما في السابق، بل وأجمل من السابق، بالنسبة إليها على كل
حال.. كم كانت لطيفة "لولا".. لقد عوضتني عن الزمن الضائع دونما
خسارة.. لن تتلاشى مشاعر الاحترام والإعجاب تجاهي عما قريب.
وتظاهرت بأن الكرب قد زایلها لكي ترضيني.

«هل ينبغي أن نمشي أيضاً؟ سألتني "لولا"»

— من أجل التحيف

— آه، هذا صحيح، لقد نسيت ذلك..»

غادرنا لو نغشامب، كان الأولاد قد رحلوا من الجوار ولم يعد ثمة
غبار، وما زال الجنود المجازون يطاردون السعادة، ولكن خارج الغابة الآن.
كان عليهم مطاردة السعادة بين أرصفة بورت ميتو.

كنا نحاذي حواف النهر نحو سانت كلود، كانت الحواف مكللة بهالة راقصة من الضباب الذي أطلقه الخريف. وقرب الجسر كانت بضعة قوارب تلامس أنف السفن التي غطست بقسوة في الماء حتى حوافها بسبب حملتها من الفحم.

كانت المروحة الهائلة لخضرة المنتزه تنتشر فوق الحواجز المشبكة، وامتلكت الأشجار المدى العذب، والقوة اللذين تمتلكهما الأحلام العظيمة. أشجار فقط، كنت أخشى الاقتراب منها، حينما كنت أمر بكمائتها.

ثمة موت خلف كل شجرة، كان الممر الكبير يصعد بين صفيين ورديين من الأشجار صوب الينابيع وإلى جانب الكشك كانت السيدة العجوز بائعة الصودا تبدو وكأنها تجمع بهدوء كافة ظلال المساء حول تنورتها، وأبعد من ذلك كانت الدروب تموج بأكواخ ممتدة على هيئة مكعبات ومستطيلات من نسيج الكتان الأسود، إنها أكواخ العيد التي فاجأتها الحرب هناك وغمرتها بالصمت على حين فجأة.

«ها قد مرت سنة على رحيلهم، ذكرتنا العجوز بائعة الصودا، والآن، لا يمر شخصان اثنان في اليوم بهذه الناحية. أما أنا فما أزال أجيء إلى هذا المكان بحكم العادة. كان العديد من الناس يأتون إلى هنا».

لم تكن العجوز تدرك مع ذلك أي شيء مما حدث، لا شيء سوى ذلك.. رغبت "لولا" في أن نمر بهذه الخيام الفارغة، كانت تحركها رغبة حزينة غريبة.

عدنا من تلك الخيم نحو عشرين خيمة كبيرة مجهزة بنوافذ زجاجية.. كانت الخيم الصغيرة أكثر عدداً، متاجر حلويات، محلات لبيع الياصيص ومسرح صغير كذلك، تخترقها جميعاً تيارات هوائية. وبين كل شجرة وأخرى

ينتصب كوخ منها، أكواخ في كل مكان، وصوب الممر الكبير، كان أحدها قد انتزعت ستائره، وغدا مرتعاً للريح، مثل سر قديم.

كانت الخيام تحني هاماتها نحو الأوراق، والوحد، توقفا عند الخيمة الأخيرة، تلك التي كانت راکعة أكثر من غيرها، وهي تهتز فوق أعمدتها بفعل الريح، على غرار مركب جنّت أشرعته، يوشك أن ينقطع حبله الأخير، كانت ترتعش، وبترجح فماشها في الوسط. مع الريح الصاعدة، يترجح نحو السماء، فوق السقف، وعلى جبهة الكوخ. كان ما يزال يقرأ اسمه القديم باللونين الأخضر والأحمر. كان كوخاً للرمي بالبنادق الصغيرة، «مركز الأمم».

لم يكن هناك أي شخص لحراسته أيضاً.. لعل مالكة كان يمارس هواية الرمي فيه الآن مع بعض الزبائن.

كم من أهداف الرمي الصغيرة في داخل المخزن كانت قد تلقت زخات الرصاص. كانت جميعها مثقبة بنقاط صغيرة بيض، كان المشهد يعرض عرساً حافلاً بالدعابة، في الصف الأول، تقف العروس مع زهورها وابن العم والعسكري، والعريس ببوزه الضخم الأحمر، وكلهم من الزنك، وبعدهم، في الصف الثاني يقف المدعوون أيضاً، والذين كان ينبغي قتلهم عدة مرات خلال سير الاحتفال.

«أنا متأكدة من أنك ترمي بصورة جيدة يا فرديناند، حتى لو كان ذلك في الحفل أيضاً.. سأدخل في مباراة معك. ألسنت ترمي بصورة جيدة يا فرديناند؟»

— لا، أنا لا أرمي بصورة جيدة»

في الصف الأخير، خلف العرس، ثمة نسق آخر ملطخ بالألوان، دار العمدة يعلوها العلم، خلف تلك الدار كان ينبغي إطلاق النار أيضاً حالما

يتحرك المشهد، صوب النوافذ التي تنفتح بقرعة جرس حادة، وعلى العلم الصغير المصنوع من الزنك أيضاً، ومن ثم على الفوج الذي كان يتقاطر على منحدر بالقرب من الدار على غرار فوجي في ساحة كليشي، سائراً بين البراميل والزوارق الصغيرة. كل هذا كان عرضة لإطلاق النار، بقدر ما كان ممكناً ذلك، وها أنا الآن تطلق عليّ النار، وبالأمس وغداً.

«عليّ أيضاً كانت تطلق النار يا "لولا"، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أصرخ بها.

— هيا، قالت "لولا" حينئذ، أنت تتفوه بحماقات يا فرديناند، وسيصيبنا البرد».

نزلنا صوب سانت كلو عبر الممر الكبير، متحاشين الوحل. كانت "لولا" تمسك ببدي، كانت يدها صغيرة جداً، ولكنني لم أعد أستطيع التفكير في شيء آخر سوى بالعرس المصنوع من الزنك، في مركز الأمم ذاك والذي خلفناه وسط ظلال الممر. نسيت أيضاً أن أعانق "لولا". كانت أكثر قوة مني، كنت أشعر بأنني غريب الأطوار تماماً اعتقدت منذ تلك اللحظة بأن رأسي غدا من العسير تهدئته مع الأفكار التي تمور في داخله.

حينما بلغنا جسر سانت كلود كان الظلام يلف بردائه كل شيء
«فرديناند، هل ترغب بالعشاء في دوفال، أنت تحب دوفال كثيراً.
سيغير ذلك من أفكارك، يصادف المرء فيه دائماً العديد من الأشخاص.. إلا
إذا كنت تفضل العشاء في غرفتي؟» لقد كانت "لولا"، بوجه الإجمال، ودودة جداً، في ذلك المساء.

قررنا أخيراً الذهاب إلى دوفال. ولكننا ما كدنا نتخذ أماكننا على الطاولة حتى بدا لي المكان غريباً كل الغرابة.. جميع أولئك الأشخاص

الجالسين صفوفاً حولنا خلقوا لدي انطباعاً بأنهم ينتظرون هم أيضاً أن ينهمر عليهم الرصاص من كل مكان، وهم يأكلون:

«ليذهب الجميع، صرخت بهم محذراً، اهربوا سيطلق عليكم الرصاص، سيقتلونكم، سيقتلوننا جميعاً».

أعادتني "لولا" إلى فندقها بسرعة كنت أرى الأمر نفسه في كل مكان، كان يخيل إلي أن جميع الأشخاص الذين يسيرون أرتالاً في ممرات بارتييز، سيتعرضون لإطلاق الرصاص، وكذلك الموظفون خلف الصندوق الكبير، كانوا يستعدون أيضاً لذلك، والشخص الواقف عند مدخل بارتييز بزيه الأزرق مثل السماء والمذهب مثل الشمس، والذي يسمونه البواب. وعسكريون، ضباط متجولون وجنرالات، أقل جمالاً من البواب بالتأكيد، ولكنهم كانوا في زيهم العسكري مع ذلك، إطلاق نار غزير لن يخرج منه أحد سالماً، لا هؤلاء ولا أولئك، كان الأمر في غاية الجد، ولم يكن هزلاً.

«سيطلق عليكم الرصاص، صرخت بهم، ما وسعني الصراخ، وسط الصلاة الكبيرة، سيطلق عليكم الرصاص، ليهرب الجميع إذن...». تملكنتي تلك الحالة، ولم أعد أستطيع منها فكاكاً. فضيحة حقيقية. «يا للجندي المسكين»، كانوا يقولون، وقادني البواب بهدوء إلى البار، بكل رقة، وقدم لي الشراب، فشربت كثيراً، وأخيراً جاء الدرك يبحثون عني، كانوا أشد فظاظة من الجميع، في مركز الأمم ذاك كان هناك درك أيضاً. رأيتهم بعيني، عانقتني "لولا"، وساعدت الدرك على اقتيادي مكبلاً بقيودهم.

سقطت إذن مريضاً محموماً، واعتبرت مجنوناً مثلما فسروا حالتي في المستشفى، مجنوناً بالخوف، كان هذا ممكناً. أفضل ما يفعله المرء حينما يكون في هذا العالم هو الخروج منه! مجنوناً أم لا، بالخوف أم بعدمه.



« أثارت حالتى قصصاً وحكايات، قال البعض: «إن هذا الفتى ليس سوى فوضوي، لابد إذن من إعدامه رمياً بالرصاص، هذه هي اللحظة المناسبة، وفوراً، ليس ثمة مجال للتردد، لا ضرورة لإضاعة الوقت طالما أنها الحرب..» ولكن هناك آخرون أكثر صبراً، كانوا يريدون أن أكون مصاباً بالسفلس فقط، ومجنوناً بحق، وأن أسجن بالتالي حتى تنتهي الحرب ويحل السلام، أو على الأقل، لبضعة شهور، لأنهم، وهم غير المجانين الذين يملكون كامل عقلم كما يزعمون، يريدون أن يعتتوا بي، بينما يتفرغون وحدهم لإدارة الحرب. هذا يثبت أنه لكي يصدق الناس بأنك عاقل فليس عليك إلا أن تملك فقط وقاحة كبيرة. وحين تمتلك هذه الوقاحة فذلك يكفي، ويكون كل شيء تقريباً مباح لك، كل شيء قطعاً. وستكون معك الأغلبية، والأغلبية هي التي تقرر من الذي يكون مجنوناً، ومن الذي لا يكون.

غير أن تشخيص حالتى ظل غير مؤكد بالمرّة. قررت السلطات إذن وضعي تحت المراقبة إلى حين، وقد حصلت صديقتي الصغيرة "لولا" على إذن بزيارتي بضع مرات، وكذلك أمي، كان هذا كل شيء.

جرت استضافتنا نحن، مرضى الاضطرابات العصبية في ثانوية اسي لي مولينو، التي أعدت خصيصاً. لتلقي ومطاردة الاعترافات طوعاً أو كرهاً، بحسب الحالة، اعترافات أولئك الجنود، على شاكلتي الذين كان مثلهم الأعلى الوطني، بكل بساطة، مشبوهاً أو معتلاً كل الاعتلال، لم يكونوا يعاملوننا معاملة سيئة بالتأكيد، ولكننا كنا نحس في كل وقت، مع ذلك، بأننا مراقبون من أفراد طاقم الممرضين الصامتين والمسلحين بأذان ضخمة.

بعد فترة من الخضوع لهذه المراقبة كان المريض يخرج من تلك المدرسة، ليذهب إما إلى مستشفى المجانين، وإما إلى جبهة القتال، وإما أيضاً وهو الغالب إلى الإعدام بالرصاص.

من بين الزملاء المجتمعين في تلك الأمكنة المريبة. كنت أسأل نفسي دائماً، ونحن في غرفة الطعام نتحدث همساً، من الذي كان على وشك أن يغدو شبحاً.

قريباً من السور المشبك عند المدخل كانت حاجبة المبنى تظل في شقتها الصغيرة، كانت تبيعنا السكر والبرتقال وكل ما كان يلزم في الوقت ذاته، من أجل خياطة الأزرار، وكانت تبيعنا أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، المتعة. بالنسبة إلى ضباط الصف كانت تلك المتعة تكلف عشرة فرنكات. كان يمكن، للجميع أن يقضوا وطهرهم منها، ولكن فقط مع الحذر من البوح لها بالأسرار، وهو ما كان يحدث بسهولة كبيرة جداً في تلك اللحظات، كان من الممكن لهذا البوح أن يكلف ثمناً غالياً. فكل ما كان يباح به أمامها من أسرار كانت تنقله بدقة متناهية إلى رئيس الأطباء، وكان هذا ينقلك إلى ملفات المجلس الحربي، كان يبدو من المؤكد بأنها قد دفعت إلى منصة الإعدام، من خلال ذلك البوح بالأسرار عريفاً من خيالة السباهي، لم يكن قد جاوز العشرين من عمره بالإضافة إلى جندي احتياط كان قد ابتلع مسامير كي يتلف معدته، وآخر أيضاً مصاباً بالهستيريا، روى لها كيف كان يصطنع نوبات الشلل في الجبهة.. أما أنا، فقد اقترحت علي ذات مساء، لكي تسبر نواياي، كتيباً يتحدث عن جندي أب لستة أطفال، مات قبل وقت، كما قالت لي، يمكنه أن يفيدني من أجل نقلي إلى المؤخرة. لقد كانت بوجه الإجمال، امرأة فاجرة، ففي السرير مثلاً كان الأمر يبلغ ذروة الروعة، وكنا نعاوده، وكانت تهينا الكثير من الاستمتاع،

وتظهر الكثير من ضروب الغنج الحقيقي وغير المصطنع، وكان هذا ضرورياً لإثارة مزيد من اللذة. ففي ذلك المطبخ الخلفي كان الغنج في نهاية المطاف أشبه بالبحار فوق الصلصة، وكان ذلك ضرورياً، وكان يشد وثاقنا إليها.

كانت أبنية المدرسة تطل على شرفة فسيحة مذهبة بألق الصيف تظللها الأشجار، وكانت معالم باريس تلوح من تلك الشرفة رائعة جليلة بنوع من منظور بهي. في أيام الخميس كان زائرنا ينتظروننا فيها، وكانت "لولا" بينهم، تجيء بانتظام حاملة لي غاتو وصفائح وسكاثر.

كنا نلتقي بأطبائنا كل صباح... فيسألوننا عن أحوالنا برفق، ولكننا لم نكن نعرف على الإطلاق بماذا يفكرون بالضبط، كانوا يجوسون حولنا بطلعات بشوشة دوماً، تخفي خلفها الحكم علينا بالموت.

العديد من هؤلاء المرضى الذين كانوا تحت المراقبة، وكانوا أشد انفعالية من الآخرين وسط ذلك الجو المشبع بالملق واللفظ المصطنع وصلوا إلى حالة من القلق المتفاقم صاروا ينهضون معها في الليل بدل أن يناموا، ويدرعون عنبر النوم طويلاً وعرضاً، محتجين بأعلى أصواتهم تجاه قلقهم الخاص، متشجنين ما بين الرجاء واليأس، كما لو كانوا على شفير هار، كانوا يقيسون من الإعياء أياماً وأياماً، ثم ينهارون فجأة ذات مساء، ويذهبون للاعتراف بما أخفوا من أمرهم إلى رئيس الأطباء، ثم ما يلبث هؤلاء أن يختفي أثرهم، ولا نعود إلى رؤيتهم أبداً. وأنا كذلك، لم أكن اشعر بالطمأنينة، ولكن حين يكون المرء ضعيفاً، فإن ذلك يمنحه القوة، القوة على تجريد الناس الذين يخشاهم أكثر من غيرهم، من أدنى هيبة كان ما يزال يميل إلى إعطائها لهم. ينبغي أن يتعلم المرء النظر إلى هؤلاء مثلما هم، بل وأسوأ مما هم عليه،

أعني من كافة الزوايا ووجهات النظر، فهذا يخلصك، هذا يحركك، ويحميك أكثر من كل ما يمكنك تخيله، إنه يمنحك أنا آخر، تصير اثنين.

حينئذ، لن يعود لأفعالهم عندك تلك الجاذبية الصوفية القذرة التي توهن من عزيمتك، وتجعلك تضع الوقت هباء، ولن تكون كوميدياهم أكثر إمتاعاً وأجزل نفعاً لرفيقك الداخلي من كوميديا أحقر خنزير.

بالقرب مني، بجوار السرير كان ينام عريف تطوع في الجيش بإرادته أيضاً، كان أستاذاً قبل شهر آب في ثانوية تورين، يعلم التاريخ والجغرافيا، مثلما أخبرني. وبعد بضعة شهور من الحرب تكشف هذا الأستاذ عن سارق لا يضاويه أحد، لم يعد من الممكن منعه من اختلاس معلبات من تموين فوجه، ومن شاحنات الإدارة العسكرية ومن مستودع السرية، ومن كل مكان آخر تطوله يده.

لقد جنح معنا ذلك العريف إلى هذا المكان بانتظار أن يبيت المجلس الحربي بوضعه الملتبس، ولما كانت عائلته قد استبسلت في إثبات أن القنابل هي التي خبلته وأفسدت أخلاقه فقد أجل قسم التحقيق الحكم عليه شهراً بعد شهر، لم يكن يكلمني كثيراً، كان يقضي ساعات في تمشيط لحيته، ولكنه حين كان يكلمني فإن كلامه كان يدور بشكل دائم تقريباً حول موضوع واحد، حول الطريقة التي كان قد اكتشفها من أجل أن لا ينجب أطفالاً من زوجته، هل كان مجنوناً حقاً. حين تأتي اللحظة التي ينقلب فيها العالم رأساً على عقب، ويكون من الجنون أن تسأل لماذا يقتلونك يغدو بديهياً أن توصم بالجنون بسهولة. هل يمكن تصديق ذلك، ولكن حين يتعلق الأمر بتجنب التمزق إلى أشلاء يحدث في بعض الأدمغة جهد في الخيال يثير الدهشة.

برينشار، كان اسم ذلك الأستاذ، ماذا كان بوسع برينشار أن يفعل كي ينقذ شرايينه، ورتتيه وأعصابه البصرية؟ ذلك هو السؤال الجوهرى.. السؤال الذي ينبغي أن نطرحه فيما بيننا، نحن البشر كي نظل آدميين وعمليين، ولكننا كنا بعيدين عن ذلك، مترنحين داخل مثال من السخافات المنافية للعقل، محاطين بنزاعات مبتذلة وجنونية، جرداناً مسودة بالدخان، نسعى بجنون، إلى الخروج من سفينة تلتهمها النيران، ولكن لأنه لم يكن بحوزتنا أي خطة مشتركة، أي ثقة، بعضنا بالبعض الآخر، مذهولين بسبب الحرب، غدونا مجانين بنوع آخر من الجنون، الخوف، قفا الحرب ووجهها.

خصني ريتشارد، مع ذلك، عبر هذا الهديان المشترك، بنوع من الود والتعاطف، مع بقائه حذراً مني بالتأكيد.

وحيث أننا وجدنا أنفسنا في الهم سواء داخل ذلك المحيط كان من المستحيل وجود صداقة أو ثقة. لا يتكلم أحدنا أمام الآخرين إلا بما يعتقد أنه مناسب للنجاة بجلده، لا أكثر، ما دام أن كل ما يقوله أو يكاد، كان ينقل حرفياً على لسان الجواسيس المتربصين

بين وقت وآخر كان واحد منا يختفي عن الأنظار، وهذا يعني أن أمره قد انتهى، وجرى حسمه في المجلس الحربي، إما على ساحة الإعدام أو إلى الجبهة، أما بالنسبة إلى المحظوظين أكثر فإلى مشفى الأمراض العقلية في كلامار

محاربون آخرون مشبهون كانوا يصلون باستمرار. من كافة الأسلحة، فتية في مقتبل العمر، ومتقدمون في السن، ممن استبد بهم الهلع أو ممن يدعون ذلك، كان أبائهم وزوجاتهم يأتون لزيارتهم أيام الخميس، وأطفالهم أيضاً، جاحظي العيون.

كل هذا العالم كان يبكي بغزارة، في ردهة الاستقبال، عند المساء على الأخص. كان عجز العالم في الحرب يأتي ليبيكي هنا، وحين تنتهي الزيارة، وتتصرف الزوجات والأطفال عبر الممر الشاحب بسبب الغاز، كانوا يجرون أقدامهم جراً مشكلين قطعاً من الباكين الباعثين على التقزز، لا شيء غير ذلك.

بالنسبة إلى "لولا"، كانت تأتي لزيارتي في هذا النوع من السجن، كان ذلك ما يزال مغامرة، كلانا، لم نكن نبكي، لم يكن لدينا أي مكان نستقي منه الدموع.

«هل صحيح يا فرديناند أنك صرت مجنوناً فعلاً، سألتني "لولا"، ذات

خميس»

– أجل، صرت كذلك. اعترفت لها.

– إذن، سيعتنون بك هنا؟

– لا يعتني أحد بالخوف، يا "لولا"

– أنت خائف بهذا القدر؟

– وأكثر من ذلك أيضاً، يا "لولا"، خوف لا حد له. لاحظني أنني إذا ما مت مئة طبيعية، حين تحين ساعتني.. فأنا لا أريد على الأخص أن يحرقوني، أريد أن يتركوا جسدي على الأرض، يتعفن بهدوء في المقبرة، مستعداً لأن أبعث إلى الحياة ربما.. لا أحد يعلم على الإطلاق، في حين أنهم إذا أحرقوني وحولوني إلى رماد، يا "لولا"، هل تفهميني، سينتهي كل شيء، سينتهي فعلاً... هيكل عظمي، مع ذلك، ما زال يشبه بعض الشبه إنساناً. وهو مهياً للانبعاث للحياة من جديد أكثر من الرماد. الرماد يعني أن كل شيء قد انتهى، ماذا تقولين في ذلك؟ إذن، الحرب...

— أوه. أنت إذن جبان كلياً، يا فرديناند.. أنت منفر مثل جرد.

— أجل، جبان كلياً، يا "لولا"، أنا أرفض الحرب، أرفض كل ما في داخلها، أنا لا أشتكي منها، ولست خاضعاً مستسلاً... لست أبكي على نفسي، ولكنني أرفض الحرب رفضاً تاماً، وأرفض جميع الذين يواصلونها، لا أريد قط أن أكون مرغماً على العمل معهم، أو معها وحتى لو كان عددهم ٩٩٥ مليوناً وكنت وحدي فإنهم هم الذين على باطل يا لولا، وأنا وحدي على حق. أنا الوحيد الذي يعرف ما يريد أنا لا أريد الموت أبداً.

— ولكن من المستحيل رفض الحرب يا فرديناند، ليس هناك سوى المجانين، والجبناء من يرفض الحرب، حينما يكون الوطن في خطر.

— إذن، فليعيش المجانين والجبناء، أو بالأحرى، لينج من الموت المجانين والجبناء. هل تتذكرين اسماً واحداً مثلاً، يا "لولا" اسماً واحداً من أسماء أولئك الجنود الذين قتلوا خلال حرب المئة عام؟ هل سعت في يوم من الأيام لمعرفة واحد من هذه الأسماء؟ لا، أليس كذلك؟ أنت لم تحاولي على الإطلاق؟ إنهم مجهولون تماماً بالنسبة إليك، لا شأن لهم أبداً، مجهولون أكثر من آخر ذرة من ذرات ثقالة الورق هذه التي أمامنا، أكثر من بعرك الذي تتبعرينه صباحاً، لاحظي إذن جيداً بأنهم ماتوا بلا ثمن يا "لولا"، بلا أي ثمن على الإطلاق، هؤلاء الأغبياء. أوكد لك ذلك، والدليل جاهز لدي، ليس ثمة أي شيء يمتلك قيمة سوى الحياة، أراهنك الآن بأن هذه الحرب التي تبدو لنا اليوم غاية في الأهمية، ستكون بعد عشرة آلاف سنة نسياً منسياً، لا يكاد يذكرها سوى دزينة من المتبحرين يتخاصمون هنا وهناك حول سبب نشوبها، وحول تواريخ مجازرها الرئيسية التي اشتهرت بها! ذلك كل ما أفصح البشر في العثور عليه حتى الآن، مما يستحق الذكر، بشأن بعضهم بعضاً خلال

بضع قرون، بضعه سنوات أو حتى بضعه ساعات من الزمن. أنا لا أومن بالمستقبل يا "لولا".

حينما اكتشفت لولا إلى أي حد غدوت متبجحاً بوضعي المخزي كفت عن أن ترى فيّ إنساناً يستحق الشفقة، بل وأقل إنسان في العالم، واعتبرتني شخصاً جديراً بالاحتقار، بنحو قاطع.

قررت أن تغادرني على الفور، كان ذلك أكثر من أن تحتمل، ولدى مرافقتي لها ذلك المساء إلى بوابة المصح لم تعانقني.

كان من المستحيل، بالطبع، أن تقبل حقيقة أن محكوماً بالموت لا يقرّ بقدرة في الوقت نفسه، وحينما سألتها عن أخبار فطائرنا لم تجب كذلك.

حينما عدت إلى مرقيدي وجدت برينشار أمام النافذة يمسح نظارتيه على ضوء الغاز، وسط حلقة من الجنود، كانت تلك فكرة خطرت له، كما أوضح لنا، عند شاطئ البحر، خلال العطلة، وما دمنا الآن في فصل الصيف فقد نوى أن يضعهما على عينيّه خلال النهار، حينما يكون في الحديقة. كانت فسيحة الأرجاء تلك الحديقة. ومراقبة أيضاً من قبل زمر من الممرضات. في اليوم التالي إذن، ألح علي برينشار بأن أرافقه حتى الرصيف كي يجرب نظارتيه الجميلتين. كانت شمس ما بعد الظهر تسطع متألقة فوق برينشار الذي كان يحمي عينيّه بزجاج نظارته الكتيمة. لاحظت بأن أنفه شفاف تقريباً عند منخريه وأنه كان يتنفس بسرعة.¹

«يا صديقي، باح لي برينشار، الوقت يمر، ولا يعمل لصالحه، ضميري خالٍ من الندم. لقد تحررت، والحمد لله، من تلك الوضاعات. إنها ليست بالجرائم الخطيرة في هذا العالم. ولكنني أقلعت عنها منذ زمن طويل، تلك الحماقات، وأنا أعتقد بأنني ارتكبت واحدة منها يتعذر إصلاحها كلياً.

— سرقتك للمعلبات؟

— نعم، كنت أعتقد ذلك عملاً نكياً كي أنجو بنفسى من المعركة، بتلك الطريقة المشينة، لأعود إلى السلم بعد الحرب مثلما يعود الغاطس إلى سطح البحر منهكاً بعد غطسة طويلة. كنت أفلح في ذلك... ولكن الحرب طالت كثيراً في الحقيقة، ومع امتدادها لم أعد أتصور أن هناك أفراداً منفريين إلى درجة كافية كي يتغرز الوطن. بدأ الوطن، يقبل كل الأضاحى من أي جهة جاؤوا، كل اللحوم. غدا متساهلاً إلى أبعد حد في اختيار شهدائه. لم يعد هناك حالياً جنود غير مؤهلين لحمل السلاح، ولا سيما للموت تحت السلاح، وبواسطة السلاح. إنهم يمثلون على الآن دور الأبطال... ينبغي أن تبلغ لوثة المذابح نروتها القصوى كي يبدؤوا بالصفح عن سرقة علة محفوظات. ماذا أقول؟ لنسيان ذلك. من المؤكد بأننا قد اعتدنا على الإعجاب في كل زمان بعصابات شديدة الجبروت من قطاع الطرق، يمدد العالم كله ونحن أيضاً، ثراءها الفاحش ولكننا ما أن نتفحص عن قرب حياتهم في هذا الوجود حتى يتأكد لنا مع ذلك بأن تلك الحياة جريمة متواصلة، تتجدد كل يوم تقريباً. غير أن أولئك الأشخاص يتمتعون بالمجد والشرف والقوة. تكرر القوانين جرائمهم. ولكنها بعيدة جداً عن أن تدون في سجلات التاريخ — أنت تعلم بأننى أتقاضى راتباً لقاء معرفتي بالتاريخ — في حين يتكشف لنا أن سرقة زهيدة، قوتاً على الأخص، رقاقة خبز، أو فخذ خنزير أو قطعة جبن، تجلب على صاحبها بنحو لا راد له، العار المشين، وللنذب الصريح من المجتمع، والعقاب الأعظم، والفضح الفوري والخزي الذي لا يحى. وكل ذلك لسببين اثنين، أولاً لأن صاحب مثل هذه الخطايا هو على الأغلب بائس فقير. وأن هذه الحال تتضمن بحد ذاتها دناءة كبرى، وثانياً لأن فعلته تشتمل على نوع من تعنيف ضمنى للمجتمع. سرقة الفقير تغدو استيلاء فريداً ماکراً، هل تفهمنى؟ أين سنذهب؟ كذلك فإن قمع السرقات الطفيفة يمارس، كما تلاحظ، في

كل الظروف، بقسوة متناهية، ليس فقط كوسيلة دفاعية اجتماعية فقط، بل وأيضاً، وبوجه خاص كمنصحة قاسية لكل التعساء بأن يلزموا حدهم وطبقتهم، قريري العين، خاضعين بكل سرور للهلاك على امتداد قرون، وإلى الأبد، من البؤس ومن الجوع... ومع ذلك، فقد ظل للصمصان حتى الآن مزية في جمهوريتنا، مزية الحرمان من شرف حمل السلاح الوطني. ولكن هذا الوضع، سيتغير منذ الغد، وسأذهب لأستعيد منذ الغد، أنا السارق الصغير، موقعي في الجيش، تلك هي الأوامر... لقد قررت المراجع العليا أن تمحو بمحادثها ما كانوا يسمونه «لحظة متعتي» وذلك، كما تلاحظ، مراعاة لما يسمونه أيضاً «شرف عائلتي» يا للدماثة.. أسألك أيها الرفيق، هل إن عائلتي إن هي التي ستذهب للقيام بفرز الرصاص الفرنسي عن الرصاص الألماني المختلطين معاً؟ سأكون أنا وحدي من دون شك من يقوم بذلك، أليس كذلك، وحينما ستزهق روحي، هل سيكون شرف عائلتي هو من يعينني إلى الحياة من جديد؟ عجباً! إنني أراها من هنا! أرى عائلتي. فما إن تنتهي أوزار الحرب، مثلما ينتهي كل شيء، حتى تقفز بمرح حينذاك فوق عشب الصيف العائد. إنني أراها من هنا، خلال أيام الأحاد الجميلة... غير أنني أكون على مسافة ثلاثة أقدام تحتهم، أنا، بابا، تسبح فوق يرقات الدود: أشد ننانة من ثلاثة كيلوغرامات من براز ١٤ تموز، أتعفن بشدة، بكل لحمي الخائب... سمد لأتلام حراث مجهول، ذلك هو المستقبل الحقيقي للجندي الحقيقي. أه! يا رفيق، أؤكد لك، بأن هذا العالم ليس سوى مشروع هائل للسخرية من العالم. أنت شاب في مقتبل العمر، وهذه اللحظات الدقيقة تهلك لسنوات، أصغ إلي جيداً، يا رفيق، ولا تدع قط هذه العلامة تمر دون أن تترك أهميتها، هذه العلامة الجوهرية التي يسطع فيها كل الرياء المميت لمجتمعنا: «الحنو على مصير وشروط حياة البائسين»، أقول لكم أيها الصغار الطيبون. حمقى الحياة، المغلوبون، الخاضعون للابتزاز، الناضحون عرقاً

على الدوام. أنبهكم إلى أن كبار هذا العالم حينما يبدؤون بمحبتكم فإنما ليحولوكم إلى سجن للحرب. تلك هي العلامة، وهي أكيدة لا يأتيتها الباطل. فمن خلال محبتهم يبدأ كل ذلك، لويس ١٤ لم يكن نبالي على الإطلاق بسحق شعبه الطيب حتى العظام، أما لويس ١٥ فقد مسح به محيط شرجه. لم يكن الفقراء يعيشون في ذلك الزمن، هم لم يعيشوا على الإطلاق، ولكنهم لم ينتزعوا منهما الصلف والقسوة اللذين ما نزال نجدهما لدى طغائنا اليوم. ليس هناك راحة للصغار، أقول لك، إلا بازديادهم للكبار الذين لا يستطيعون التفكير في الشعب إلا من خلال مصلحتهم أو ساديتهم... كان الفلاسفة، لاحظ أيضاً هم الذين بدؤوا برواية حكايات للشعب الطيب... ذلك الذي لم يكن يعرف سوى كتاب التعليم الديني. لقد بدؤوا بتربيته. كان لديهم حقائق يكشفونها له. حقائق جميلة، وجديدة، تشع بالأنوار، ظل الشعب منها، مبهوراً! ذلك ما هو مطلوب! بدأ الشعب بالكلام، الشعب الطيب. ذلك ما هو مطلوب فعلاً! ذلك ما هو مطلوب كلياً! لنمت جميعاً في سبيل هذه الحقائق، هكذا قال الشعب. لم يطلب الشعب أي شيء سوى أن يموت. «يعيش ديرو» هتفوا بملء صوتهم «برافو فولتير» يا لهم من فلاسفة، ويعيش أيضاً كارنو الذي هيا بنحو جيد جداً للانتصارات. يعيش كل البشر، إنهم في المحصلة، فتية لم يتركوا الشعب الطيب يعمه في الضلال والصنمية. لقد وضعوه على طريق الحرية، أعقوه من أغلاله، ولم يتأخر ذلك. كل الناس في البداية صاروا يقرؤون الصحف! لقد قرب الخلاص! للجنة! وبسرعة، لم يعد هناك أميون، لم يعد ثمة ضرورة لهم. جنود مواطنون فقط، ينتخبون، يقرؤون، يصارعون، يسيرون ويرسلون القبلات، وفي قلب ذلك النظام، نضج الشعب الطيب أيما نضوج، أليست الحماسة من أجل التحرر هي الخلاص بالضرورة. لم يكن دانتون "فصيحاً عبثاً: فما أن أطلق بضع صيحات صريحة وصادقة، ما زال صداها يتردد، حتى عبأ ذلك الشعب الطيب بلمح البصر، وكانت تلك هي الانطلاقة الأولى

للجحافل الأولى من العقاء الهائجين، أما المقترعون الأوائل البلهاء الذين قادهم دومورييه فقد أطلق عليهم الرصاص في الفلاندر. ولكن "دومورييه" نفسه الذي جاء متأخراً إلى هذه اللعبة المثالية الصغيرة الحديثة كلياً وفضل المال في النتيجة، ولى الأديار هارباً. وكان هو آخر مرتزق عندنا... وعاد الجندي المتطوع الجديد، الجديد كلياً إلى الظهور، إلى درجة أن غوته، وكل غوته أياً كان، حين وصل إلى فالمي بهره مشهد الكتاب الرثة للثياب والمفعمة بالحماس التي تحررت من نير ملك بروسيا للدفاع عن الفكرة الوطنية المستحدثة. شعر غوته بأنه مازال لديه الكثير من الأشياء ليتعلمها «منذ هذا اليوم، صاح غوته صيحته الرائعة، مثلما هو مألوف من عبقريته، يبدأ عصر جديد». صدقني! وبعد ذلك حل نظام، وأي نظام! بدؤوا بصنع أبطال بوفرة، كانوا يكلفون أقل فأقل، بسبب مهارة النظام، وجدوا في ذلك النظام فرصة طيبة لهم، بسمارك والناپليونان، وباري، وكذلك الفارسة إلزا. وحلت عبادة الفرد محل عبادة السماء، كان الإصلاح قد وهن بسبب غيمة شائخة تكثفت منذ أمد بعيد في حصالات نقود انجليكانية. كانت صيغة التعصب، فيما سبق هي «يحيا المسيح» إلى المحرقة أيها الهراطقة» ولكن الهراطقة كانوا في نهاية المطاف نادريين في حين أننا الآن، وحيثما نحن فإن حشوداً هائلة تصرخ «إلى المشنقة بكل البقلبات دون ليف! بكل الليمونيات دون عصير! بكل القراء السانجين! إلى الأمام أيها الملايين» تستثير الغرائز الداخلية، تحرض البشر الذين لا يرغبون بقتل إنسان، المسالمين المتعفين الذين تمت السيطرة عليهم وتمزيق صفوفهم، تحض على القتل أيضاً بثلاث عشرة طريقة مسيخة.. لقد انتزعت أحشاء هؤلاء من أجسادهم في البداية ليتعلموا كيف يعيشون، انتزعت عيونهم من محارها وانتزعت سنوات من أعمارهم القدرة البائسة. شكلوا منهم أفواجاً وأفواجاً أيضاً.. يسبرون إلى الهلاك، يتحولون إلى زمارات مصوتة، ينزفون، يتصاعد منهم الدخان وسط الأحماض،

وكل هذا من أجل الوطن الذي غدا محبوباً أكثر، سعيداً أكثر، ولطيفاً أكثر، وإذا كان هناك داخل الوطن أنجاس يرفضون أن يفهموا تلك الأمور السامية، فليس عليهم إلا أن يدفنوا مع الآخرين، ليس دفناً لائقاً، مع ذلك، ولكن في الطرف الأقصى للمقبرة وتحت شاهدة قبر تفضح الجبناء المتخائلين الذين ليس لهم مثل أعلى، ذلك لأن هؤلاء الأنجاس سيفقدون حقهم في بعض الظل الذي سيغطي تلك النصب التكريزية الشامخة، المشيدة بطريق الالتزام والمخصصة للموتى من نوي الشأن وسط الممرات الظليلية، ويفقدون أيضاً حقهم باستقبال أصداء كلمة الوزير الذي سيذهب يوم الأحد ليبول عند حاكم المقاطعة ويرتجف شذقه فوق القبور بعد الإفطار...».

ولكنهم استدعوا برينشارد من قلب الحديقة، أرسل رئيس الأطباء في طلبه ممرضة الخدمة لتستدعيه على عجل.

«سأذهب» أجابها برينشارد، لم يعد له من الوقت سوى تلك اللحظات التي نقل إليّ فيها كلامه المشوش على غرار ممثل مبتدئ.

لم أر برينشارد مرة أخرى. كان لديه رذيلة المتقنين. كان هذا الفتى يعرف الكثير من الأشياء وكانت تلك الأشياء تشوشه، لقد كان بحاجة إلى كومة من الأشياء كي يتحرك، ويقرر.

ذلك المساء الذي غاب فيه برينشارد، حينما أفكر فيه، أتذكر جيداً، مساكن القرية المحيطة بحديقتنا وهي تلوح عن بعد، وما تزال صورتها ترسم أمام ناظري، واضحة تمام الوضوح، مثلما تكون كافة الأشياء قبل أن يبتلعها المساء كانت الأشجار تتعاضم وسط الظلال وتشهق نحو السماء لتلتحق بالليل. لم أفعل أي شيء إطلاقاً لمعرفة ماذا حل بذلك البرينشار، وما إذا كان قد «اختفى» حقاً، مثلما كان يتردد، غير أنه كان من الأفضل أن يختفي.



« داخل أتون الحرب كان سلامنا الفظ يضع بذوره.

كان من الممكن تخمين ما ستؤول إليه عليه تلك الهستريا، يكفي رؤيتها فقط وهي تضطرب داخل حانة أوليمبيا. في أسفل الحانة حيث يقع قبو الرقص المريب الواسع الأرجاء، كانت تلك الهستريا تخبط وسط الغبار والقنوط المرير، بصحبة موسيقى زنجية - يهودية - ساكسونية. بريطانيون وزنوج، اختلط بعضهم ببعض. شرق أوسطيون، وروس، منتشرون في كل مكان، مدخنين زاعقين، سوداويين، وعسكريين على امتداد الأرائك القرمزية. تلك الأزياء التي لم يعد يذكرها أحد إلا بمزيد من الألم. كانت بذور يومنا الذي نحن فيه، ما تزال تنمو وتتمو ولن تطلق أدخنتها إلا فيما بعد. ومع مرور الأيام كانت الرغبات الدفينة تجتذبنا إلى الأوليمبيا كل أسبوع، نقضي فيها بضع ساعات. كنا نمضي مجموعة من نزلاء المصح لزيارة بائعة الملابس الداخلية، والقفازات والكتب. مدام هيروت في زقاق بيريناس خلف الفولي بيرجيز الذي اختفى من الوجود الآن، حيث الكلاب الصغيرة تأتي مع فتياتها الصغيرات اللواتي يقدنها، لقضاء حاجتها.

كنا نمضي إلى هناك، نبحث عن متعتنا، نلمسها نلمساً، في وقت كان العالم بأسره يرغي ويزبد متوعداً. كان الخجل من تلك الرغبة يعترينا، ولكن كان لا بد من تلبيتها في النهاية. لأن العزوف عن الحب أشق من العزوف عن الحياة، ففي هذا العالم يمضي المرء وقته في القتل أو في العشق، وفي كليهما معاً، «أنا أكرهك، أنا أعبدك!». يدافع المرء عن نفسه، يحافظ عليها، يعبر

بحياته إلى القرن القادم، بحماس جامح وبأي ثمن، كما لو كان من المستحب للغاية الاستمرار في الحياة، كما لو كان ذلك يجعلنا في نهاية المطاف خالدين. كانت أحوالي الذهنية تتحسن باطراد، ولكن وضعي العسكري ظل ملتبساً، حصلنا على إذن بالخروج إلى المدينة من وقت إلى آخر. كانت بائعتنا إذن تسمى مدام هيروت. كان جبين تلك المرأة منخفضاً وضيقاً جداً بحيث يشعر الواقف أمامها. للوهلة الأولى، بأنه على غير ما يرام. ولكن شفيتها المنفرجتين عن ابتسامة عريضة، والممثلتين، تجعله بالمقابل، يحار كيف يتصرف فيما بعد للإفلات منها. وبغض النظر عن ذلاقة لسانها الهائلة، وعن مزاجها الذي لا ينسى، فقد كانت تنطوي على نوايا بسيطة، جشعة، وتجارية بنحو وورع.

جمعت مدام هيروت ثروة في بضعة أشهر، بمساعدة حلفائها وبطنها على الأخص، كانت قد حررت من مبايضه، إن صح القول، بعد إجراء عملية على أثر التهاب النفير، في السنة المنصرمة. هذا الخصاص المحرر هو الذي صنع لها ثروتها، ثمة أمراض نسائية تتكشف عن نعمة مرسله من العناية الإلهية. ذلك أن امرأة تمضي وقتها في الخوف من الحمل ليست سوى نوع من امرأة مقعدة، وهي لن تقطع شوطاً بعيداً في النجاح.

كان الرجال الكبار في السن والفتيان أيضاً يعتقدون، مثلما كنت أعتقد أنا أيضاً بأن ثمة فرصة لممارسة الحب بسهولة وبكلفة ليست غالية في خلفية بعض محلات بيع الكتب والملابس الداخلية. وما يزال هذا صحيحاً منذ عشرين سنة. ولكن منذ ذلك الوقت، ثمة أشياء كثيرة لم تعد متاحة، تلك التي كانت الأكثر امتاعاً وإبهاجاً. فالبيوريتانيون الانكلو سكسون يجفون عروقنا كل شهر مزيداً من الجفاف، وقد تقلصت إلى اللاشيء تقريباً المداعبات

الجنسية المرتجلة في خلفيات المخازن. وتحول الجميع إلى الزواج وإلى إصلاح السلوك.

استطاعت مدام هيروت أن تستفيد كثيراً من الرخص الأخيرة التي كان ما يزال ممكناً فيها المضاجعة على الواقف، وبسعر رخيص، كان ثمة دلال عاطل عن العمل مر من أمام مخزنها ذات أحد، دخل المخزن، وبقي فيه على الدوام. كان خرفاً بعض الشيء، وظل كذلك، لا أقل ولا أكثر، لم تكن متعتهما تثير أية ضجة، ففي غمرة ضجيج الصحف المحمومة التي تزعق بالدعوة إلى التضحيات النهائية والوطنية واصلت الحياة سيرها المتزن تماماً. مفعمة بالذكاء والتبصر، بل وأكثر ذكاء وفطنة من أي وقت مضى. ذانكما هما القفا والوجه، على غرار الضوء والظل، للميدالية ذاتها.

كان دلال مدام هيروت يودع في هولندا مبالغ من المال لأصدقائه الأكثر إطلاعاً على الأوضاع، ولمدام هيروت بدورها. منذ أن أصبحت صديقين حميمين، كانت ربطات العنق، وحمالات الصدر، وأشباه القمصان، على النحو الذي كانت تبيعها فيه، تجتذب إليها زبائن وزبائن، وتحفزهم على الأخص، على العودة غالباً.

عدد كبير من اللقاءات الأجنبية والوطنية كان يجري في ظل السجف الوردية ووسط العبارات المتواصلة للمعلمة، بحيث أن جوهر شخصها الأساسي الثرثار والعايق بالعمود إلى حد الإغماء يمكنه أن يجعل أكثر المكبودين زناخة، ممراحاً وماجناً. ضمن هذا الخليط، ودون أن تفقد صفاء ذهنها كانت مدام هيروت تنظم حساباتها، من النقود أولاً، لأنها كانت تقنتع لحسابها العشر من أثمان مبيعاتها، بحساسية عالية، ثم لأنها كانت تصنع كثيراً من الحب حولها. كانت تجمع الأزواج من الرجال والنساء، ثم تفرق بينهم بفرح مماثل. عن طريق الوشائيات والتلميحات والخيانات.

كانت تبتكر السعادة والمأساة دون توقف، وترعى حياة الشهوات والأهواء، وكانت تجارتها تسير من حسن إلى أحسن.

تاه بروست، الذي كان هو نفسه نصف شبح، في اللانهائي، بشغف بالغ، في الأباطيل الزاهية للطقوس والمساعي التي تلتف حول أناس العالم، أناس الفراغ، أشباح الهذيان والبحران، الفاسقين الغامضين الذين ينتظرون على الدوام والتو^(١) ليرسمهم، والباحثين بفتور عن سيتيرات^(٢) غير موجودة. غير أن مدام هيروت، ذات الشعبية، وذات الأصل العريق كانت تثبت أقدامها على الأرض، عبر شهوات متأثرة، بلهاء، ومتجددة باستمرار.

إذا كان الناس أشراراً وجبناءً، فربما لأنهم يعانون الأوجاع تحديداً، ولكن الزمن الذين يفصل بين اللحظة التي تتوقف فيها آلامهم وبين اللحظة التي يصبحون فيها أفضل قليلاً، وأقل خبثاً وشرّاً، زمن طويل. والنجاح المادي الباهر والمثير لمدام هيروت لم يأخذ بعد وقته الكافي كي يلطف من تدبيراتها الماكرة والأسرة.

لم تكن مدام هيروت حقودة أكثر من أغلب البائعات الصغيرات اللواتي يجاورنها، ولكنها كانت تحمل نفسها الكثير من العناء كي تثبت لك العكس. لم يكن حانوتها سوى مكان للمواعيد، كما كان أيضاً نوعاً من دخول عابر إلى عالم من الثراء والترّف، لم أكن قط قد دخلته حتى ذلك الوقت على الرغم من رغبتني الشديدة، وفوق ذلك فقد أقصيت عنه بسرعة وبنحو مكرر، على إثر دخول عابر، كان الأول والوحيد.

(١) walto: رسام فرنسي.

(٢) cythere جزيرة يونانية.

الناس الأثرياء في باريس يقطنون معاً، تشكل أحياءهم بمجموعها قطعة غاتو يلامس رأسها اللوفر، بينما ينتهي محيطها الدائري عند الأشجار، بين بونت دويتى وبورت دي تيرن.. تلكم هي القطعة الجيدة من باريس، وكل ما تبقى ليس سوى شقاء وزبل.

حينما تمر بالقرب من حي الأغنياء، لا تلاحظ في البداية فوارق كبيرة بينه وبين الأحياء الأخرى، سوى أن الشوارع فيه أكثر نظافة. وهذا كل شيء. أما إذا أردت القيام بجولة في داخل بيوت أولئك الناس والأشياء فلا بد لك من الاعتماد على الصدفة. أو على الصداقة الحميمة من خلال مخزن مدام هيروت. كان بإمكانى الدخول إلى ذلك الحي بسبب الأرجنتيين الذين كانوا ينزلون من الأحياء الراقية ليتزودوا من مخزنها بالسراويل الداخلية والقمصان ويشاكسوا نخبة جميلة من صديقاتهم الطموحات، من ممثلات المسرح، والموسيقيات، ذوات القدود الرشيفة واللواتي كانت مدام هيروت تجتذبهن إلى حانوتها عن قصد.

أما أنا الذي لم يكن لدي ما أقدمه لواحدة من أولئك الأرجنتينيات سوى شبابي، كما يقال فقد بدأت أتعلق بها كثيراً. بالصغيرة ميزين كما كانوا يسمونها في ذلك المحيط.

في ممر بيرزينا الضيق كان الجميع يعرفون بعضهم، من حانوت إلى حانوت على غرار مقاطعة صغيرة حقيقية محصورة منذ سنوات بين شارعين من شوارع باريس، وكان هذا يعني أنهم يترصدون بعضهم بعضاً، ويتبادلون الوشاية والنميمة إلى درجة الحمى والهذيان.

بصدد الأمور المادية، قبل الحرب، كان التجار يتحدثون عن حياة شحيحة مؤسفة. ينقرون فيها رزقهم نقراً على غرار الطيور. كان ثمة هم

يومي يضاف إلى الهموم الثقيلة الأخرى التي تزرع تحتها تلك الحوانيت، هو أن أصحابها كانوا مضطرين بسبب عتمة زقاقهم الضيق إلى اللجوء لفوانيس الغاز منذ الساعة الرابعة من مساء كل يوم لإضاءة واجهات بضائعهم. ولكنهم كانوا يوفرون على هذا النحو، في المقابل، جواً ملائماً لمعروضاتهم.

كان العديد من تلك الحوانيت، على الرغم من كل شيء، على طريق الانهيار من جراء الحرب، في حين كان حانوت مدام هيروت، بسبب التردد الدائم للشباب الأرجنتيين، والضباط من ذوي الجيوب المحشوة بالمال، وبفضل نصائح الصديق الدلال يندفع بقفزات إلى الأمام، بحيث أن كل أصحاب الحوانيت المجاورة كانوا يعلقون على نجاحه بعبارات نابية.

لنلاحظ، مثلاً بأن حانوت الحلوى الشهير ذا الرقم ١١٢ فقد في تلك الفترة ذاتها، وعلى حين فجأة زبواناته الجميلات على إثر التعبئة العامة، فلفرط ما صودرت الخيول من أجل الحرب، اضطرت الذواقات الشهيرات إلى السير على أقدامهن، ثم انقطعن عن المجيء إلى المحل، لم يعد لهن أثر إطلاقاً. أما سامبانيه، مجلد الكتب، فقد أصبح عرضة للخراب، فجأة بسبب تلك الرغبة التي كانت تتملكه باستمرار في أن يكون شاذاً، وقد جرّت عليه إحدى محاولاته الجريئة الفاشلة ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه، من قبل بعض الوطنيين الذين اتهموه بالتجسس، مما اضطره إلى أن يغلق محله.

في المقابل، فإن مدام هيروت، في حانوتها ذي الرقم ٢٦، والتي كانت تتخصص فيه حتى ذلك الحين بصنف الكاوتشوك، سواء أكان مسموحاً به أم لا، فستتدبر أمرها على أحسن وجه، بفضل الظروف.. على الرغم من أنها كانت تعاني بالتأكيد من كافة الصعوبات التي لا تخطر على بال في التزود بـ «الأكياس الواقية» التي كانت تتلقاها من ألمانيا.

والخلاصة، فإن مدام هيروت، وحدها، وعلى عتبة حقة جديدة وديمقراطية للملابس الداخلية الناعمة، دخلت بسهولة في عهد من الازدهار. كان أصحاب الحوانيت يكتبون رسائل إلى بعضهم، مغفلة من التوقيع، حافلة بالفحش والبذاءة. كانت مدام هيروت، تفضل، من أجل تسليتها أن تبعث برسائل إلى الشخصيات الرفيعة. تعبر فيها عن رغبات دفيئة. تشكل جوهر طباعها بالذات، فإلى رئيس الجمعية الوطنية مثلاً بعثت برسالة، لتؤكد له فقط بأنه زوج مخدوع. وإلى الماريشال بيتان بعثت برسالة مغفلة التوقيع، كتبتها بالإنكليزية، مستعينة بالقاموس كي تثير حنقه، دوش فوق الريش، وكانت هي بدورها تتلقى كل يوم رزمة صغيرة من تلك الرسائل غير الموقعة، والتي لم تكن تفوح برائحة طيبة. فكانت تظل بسببها عشر دقائق، مطرقة، متأملة، مدهولة عن نفسها، ولكنها سرعان ما كانت تستعيد اتزانها ورباطة جأشها، ليس مهماً كيف، وليس مهماً بأي وسيلة، ولكنها كانت تعود إلى هدونها دائماً وبقوة أيضاً. إذ لم يكن لديها في حياتها الداخلية أي مكان للشك، وأقل أيضاً بالنسبة إلى الحقيقة.

كان من بين زبوناتا ومحبياتها عدد من الفنانات الصغيرات يأتين إليها وعليهن من الديون أكثر مما عليهن من الثياب، كانت مدام هيروت تتصحهن، وتهدي من روعهن، كانت "ميزين" من بينهن جميعاً هي الأكثر ظرفاً كما بدت لي، ملاك موسيقي حقيقي صغير. عشق للكمان، لا تشوبه شائبة، كما أثبتت لي. وبرغبة جارفة في النجاح على هذه الأرض، وليس في السماء، كانت تندبر أمرها لحظة تعرفي عليها، خلال فاصل موسيقي قصير عزفت فيه أبداع ما في المنوعات الموسيقية من ألحان باريسية جداً، منسية منذ عهد بعيد.

كانت تظهر على المسرح مع كمانها في نوع من مقدمة مرتجلة، منظومة، رخيمة. لون من الموسيقى سهل المأخذ ولكنه على جانب من التعقيد.

بهذا الشعور الذي ملك علي نفسي ووقتي غدوت مفتوناً بها، كنت أعدو بقفزات من المستشفى إلى باب مسرحها، ولم أكن، مع ذلك الوحيد في انتظارها على الإطلاق، ثمة عسكريون من سلاح المشاة كانوا يختطفونها عنوة، وطيaron أيضاً، وبسهولة أكبر، ولكن الذين كانوا أشد إغواء لها هم الأرجنتينيون. كانت تجارتهم باللحوم الباردة قد أخذت أبعاداً هائلة بسبب تزايد عدد الوحدات العسكرية الجديدة. وقد استفادت "ميزين" الصغيرة من تلك الأيام الماركنتيلية، فعملت بنشاط واستقلت بنفسها.

لم أكن أفهم شيئاً، كنت أشبه بالزوج المخدوع مع كل الأشياء وكل البشر، مع النساء والمال والأفكار، مخدوع وغير سعيد، في ذلك الوقت كنت ما أزال التقي صدفة، "ميزين"، خلال سنتين أو يكاد، وكذلك بأغلب من كنت أعرفهم جيداً، كانت تلك هي المهلة التي تلزمنا، سنتان اثنتان لكي نكشف بنظرة واحدة. لا تخطئ، كما لو أنها بوحى العريزة مدى القبح الذي يحمله وجه من الوجوه التي اعتدنا النظر إليها حتى في لحظاته السعيدة.

نظل مترددين في البداية إزاء ذلك الوجه، ثم ننتهي، إلى قبوله مثلما هو، بعدم تناسق ملامحه المتزايد، بقبحه.. علينا أن نقول نعم لذلك الكاريكاتير المتقن والبطيء الذي حفرتة سنتان اثنتان، أن نقبل الزمن، أن نقبل لوحتنا تلك، يمكن القول حينئذ بأننا تعرفنا عليها تماماً، بأننا لم نضل الطريق، بأننا سلطنا الطريق الصحيح، الطريق المحتموم خلال سنتين على الأكثر، طريق التعفن، وهذا كل شيء.

حينما كانت ميزين تلتقي بي مصادفة كنت أثير فزعها كلياً برأسي الضخم، كانت تبدو راغبة في الفرار مني قطعاً، في أن تتحاشاني، أن تحيد عن طريقي بطريقة ما.. كنت أشعرها بالنتانة، كان ذلك بديهياً بسبب ماض بكامله، ولكنها كانت تحاول عبثاً الإفلات مني، لم يكن بوسعها الخلاص مني قطعاً. كانت تظل متضايقة خلال وجودي كما لو أنها أمام وحش، كانت تظن، وهي الرقيقة جداً، بأنها ملزمة بأن تطرح علي أسئلة بلهاء غبية. ولكنها كانت ربما تتخيل فقط هذا الاشمنزاز أكثر مما تشعر به، هذا النوع من العزاء هو الذي بقي لي، كنت ربما أوحى لها فقط بأنني قدر، ولعلني كنت فناناً في هذا النوع من القبح.. وأياً كان الحال فلماذا لا يكون هناك فن في القبح مثلما في الجمال؟ ذلك نوع من الفن ينبغي تعلمه وهذا كل شيء.

دخلني الاعتقاد زمناً طويلاً بأن "ميزين" الصغيرة كانت حمقاء. على أن ذلك لم يكن سوى رأي شخص مفعم بالغرور، مرفوض من الآخرين. قبل الحرب، كنا جميعاً، وهذا ليس بغريب، ما نزال أكثر جهلاً بكثير، وأشد غروراً مما نحن عليه اليوم. لم نكن نعرف أي شيء تقريباً عن أمور هذا العالم عموماً. كنا لا واعين في النهاية، والأشخاص الصغار من أمثالي كانوا ما يزالون ينظرون إلى الأباطيل على أنها مصابيح منيرة، بسهولة أكثر مما هم عليه اليوم. كنت أعتقد بأن عشقي "لميزين" الفائقة الظرف سيهيني كل أسباب القوة، وأولها، على الأخص، الشجاعة التي كنت أفتقدها، ذلك لأن صديقتي الصغيرة كانت جميلة للغاية وموسيقية بارعة جداً. مثل الحب كمثل الكحول، كلما كان شاربه ضعيفاً وثملاً. كلما ساوره الاعتقاد بأنه قوي وماكر، ووثق من حقوقه.

لم تعد مدام هيروت التي كانت تربطها علاقة قريبي بالعديد من الأبطال الراحلين، لم تعد تخرج من زقاقها إلا لجنائز مهمة، ولم تكن تذهب أيضاً إلا نادراً إلى المدينة، كان صديقها الدلال يظهر غيرة شديدة عليها. كنا نجتمع في صالة الطعام الواقعة خلف الحانوت، والتي ما إن حل الازدهار حتى اتخذت كليا شكل صالة صغيرة، كنا نتسامر هناك، ونتسلى على نحو مهذب ولائق تحت ضوء مصباح الغاز، كانت الصغيرة "ميزين" تجلس إلى البيانو، تسحرنا بمعزوفات كلاسيكية، كلاسيكية فقط، بسبب ملاءمتها لتلك الأوقات العصبية. كنا نظل هناك فترة ما بعد الظهر، جنبا إلى جنب. الدلال في الوسط، نهدهد معاً أسرارنا ومخاوفنا وآمالنا.

كانت خادمة مدام هيروت التي بدأت العمل منذ وقت قريب، تحرص حرصاً شديداً على معرفة متى سيقدر هؤلاء أخيراً الزواج من أولئك، ففي قريتها لم يكن الناس يعرفون العلاقات الحرة بين الرجال والنساء. كان كل هؤلاء الأرجنتينيون، وهؤلاء الضباط، وهؤلاء الزبائن المتصيدين يسببون لها قلقاً حيوانياً تقريباً.

كانت ميزين تجد نفسها غالباً، محتكرة أكثر فأكثر من قبل الزبائن الأميركيين الجنوبيين. وانتهيت على هذا النحو إلى التعرف تماماً على جميع مطابخ وخدم هؤلاء السادة، لفرط ما كنت أذهب لانتظار صديقتي في حجرة الخدمة، وقد ظن خدم هؤلاء السادة بأنني قوادها، ثم انتهى الجميع إلى النظر إلي كقواد، بمن فيهم "ميزين" نفسها، بالإضافة إلى جميع الزوار المترددين إلى حانوت مدام هيروت، كما كنت أعتقد، لم أكن أملك شيئاً حيال ذلك، لابد على أي حال من أن يحين اليوم الذي يصنفك الناس فيه عاجلاً أم آجلاً.

حصلت من السلطات العسكرية على نقاهة جديدة لمدة شهرين اثنين، كما جرى الحديث أيضاً عن تسريحى من الخدمة، قررت أنا و"ميزين" أن نسكن معاً في ميلانكور، كان ذلك في الواقع من أجل أن أبتلع تلك الذريعة التي ستتذرع بها، لأنها استفادت من سكننا بعيداً كي لا تعود إلى المنزل إلا نادراً، كانت تجد على الدوام أعذاراً جديدة كي تبقى في باريس.

كانت ليالي بيلانكور رخيّة عذبة، ينعشها بين حين وآخر ذلك الخوف الصبباني من الطائرات والمناطيد، والتي كان سكان المدينة يجدون بفضلها، وسيلة لمعاناة رعشات لها ما يبررها.. وفيما كنت أنتظر معشوقتي كنت أتسكع، والليل قد أرخى سدوله، صوب جسر غرينيل، حيث تصعد الظلال من النهر لتلامس سطح المترو، المتمدد في لجة العتمة. بقعقعتة الهائلة التي كانت تغوص راعدة في خاصرة الأبنية الضخمة الواقعة على رصيف باسي. ثمة في المدن بعض الأماكن الشبيهة بهذا المكان بالغة القبح، يشعر المرء دوماً فيها على أنه وحيد تقريباً.

لم تعد "ميزين" ترجع إلى ما كنا نسميه منزلنا إلا مرة كل أسبوع. كانت تصطحب معها غالباً مغنيات من بيوت الأرجنتينيين. كان بوسع "ميزين" أن تمارس العزف في دور السينما وتكسب رزقها حيث كان من الأسهل علي الذهاب للبحث عنها. ولكن الأرجنتينيين الممراحين كانوا يدفعون لها الكثير من المال، في حين تخيم الكآبة في دور السينما، ولا يدفع أصحابها إلا القليل، والحق أن الحياة كلها ليست سوى تلك الأفضليات.

لكي يكتمل تعسى وسوء طالعي ظهر إلى الوجود فجأة مسرح الجنود. وسرعان ما أقامت "ميزين" مئة علاقة مع عسكري الوزارة، وصارت ترحل غالباً إلى الجبهة لتسلية جنودنا الصغار، وتظل هناك أسابيع بكاملها.. كانت

تعرف السوناتا والأداجيو أمام مستمعيها من ضباط الأركان الذين كثيراً
يجلسون في مواقع تمكنهم من رؤية ساقياها، أما الجنود المحصورون في
مدارج، خلف القادة فلم يكونوا يستمتعون إلا بالأصداة الشجية، كانت "ميزين"
تمضي ليالي مربية في الفنادق الواقعة في مناطق القوات. وقد عادت إلي ذات
يوم من مواقع القوات تختال طرباً. وهي تحمل شهادة بطولة موقعة من أحد
كبار جنرالينا. كانت تلك الشهادة سبباً في نجاحها الحاسم.

داخل الجالية الأرجنتينية حققت "ميزين" شعبية طاغية، وأقاموا لها
الاحتفالات، شغف الجميع "بميزينتي" عازفة الحرب المحببة جداً، والغضة جداً
والمجعدة الشعر، والبطلة فوق كل ذلك. هؤلاء الأرجنتينيون، كان لديهم تقدير
عميق، وإعجاب يفوق الحد بقادتنا الكبار، وحين عادت إليهم "ميزينتي"
بشهادتها المصدقة، وبوجهها الطفلي الجميل، وأناملها الرشيقة والمحببة
تنافسوا على حبها واحتضانها بل وزايدوا فيما بينهم على ذلك. يملك الشعر
البطولي، دون أي مقاومة قلوب أولئك الذين لا يذهبون إلى الحرب، ويملك
أكثر أيضاً قلوب أولئك الذين يثرون عن طريق الحرب ثراءً فاحشاً. ذلك أمر
مألوف.

أه: أيتها البطولة المتمردة..

قدم عشاق ريو ألقابهم وإعجابهم إلى الجميلة "ميزين" التي أنثت على
نحو بالغ الجمال البسالة الفرنسية والحربية، استطاعت ميزين أن تبدع، ينبغي
الاعتراف بذلك، لائحة صغيرة مغناجة جداً لأحداث الحرب بلغت حد الإبهار.
كانت تدهشني أنا نفسي غالباً بحساسيتها المرهفة، وعلي أن أعترف بأنني لم
أكن حيال ما يدور حولها من إشاعات سوى مدع فظ بالقياس إليها. كانت
تملك موهبة صنع خلفية درامية لكل ما تقوم به وتبدعه، بحيث يغدو كل

شيء، ويظل نفسياً ومدهشاً، كنا نظل في عراك دائم بصدد الإشاعات واللغو الفارغ، وأدركت فجأة أن تلك الإشاعات طارئة ومؤقتة. كانت جميلتي تركز على ما هو خالد وأزلي، ينبغي أن نصدق كلودلورين^(١): فالمستويات الأمامية الأولى لأي لوحة، تكون منفردة دائماً، والفن يقتضي، أن توضع أهمية العمل في خلفياته البعيدة، فيما لا يطال ولا يدرك، هناك حيث تلتجئ الكذبة، يلتجئ ذلك الحلم الذي يؤخذ على أنه الواقع، الحب الوحيد للبشر. إن المرأة التي تستطيع أن تحسب حساباً لطبيعتنا البائسة تغدو حبيبتنا بسهولة، ضرورتنا التي لا غنى عنها، أملنا الأسمى، ونحن ننتظر منها أن تصون مبرر وجودنا الكاذب، ولكن فيما نحن ننتظر ذلك، تستطيع هي مع ممارستها لتلك الوظيفة السحرية أن تكسب قوتها وتعيش حياتها بكل أبعادها. و"ميزين" لم يكن ينقصها الغريزة من أجل ذلك.

كان أولئك الأرجنتينيون يقيمون "بجوار" تيرن، وعلى الأخص على تخوم غابة بولونيا، وفي فنادق صغيرة خاصة، مغلقة بإحكام، متألثة بالأضواء، يشيع داخلها في تلك الأوقات من الشتاء دفء لذيذ جداً، وما إن تدخل إليهم من الشارع حتى يغدو مجرى أفكارك تفاؤلياً فجأة، رغباً عنك.

في ظل قنوطي، المترنح، كنت، زيادة في الحمافة، أواظب، على الذهاب ما وسعني ذلك، لانتظار رفيقتي في غرفة الخدم، كنت أنتظرها حتى الصباح أحياناً. كان النعاس يستحوذ علي، ولكن الغيرة كانت تبقيني مع ذلك صاحبياً، والخمر الأبيض كذلك، والذي كان الخدم يقدمونه لي بوفرة. أما السادة الأرجنتينيون فلم أكن أراهم إلا نادراً جداً، كنت أسمع أغانيهم، وكلماتهم الإسبانية المشوشة، وصوت البيانو الذي لم يكن يتوقف، ولكن العزف عليه

(١) كلودلورين: رسام فرنسي.

كان يتم غالباً جداً بأنامل أخرى غير أنامل "ميزين"، ما الذي كانت تفعله إذن بيديها، تلك الصبية، في غضون ذلك.

حينما كنا نعثر على بعضنا صباحاً أمام الباب، كانت تقطب وجهها، وتبدي استياءً، حينما تراني. كنت ما أزال كائناً طبيعياً مثل حيوان، في ذلك الوقت، لم أكن أريد التخلي عن جميلتي، وهذا كل شيء، مثل عظمة.

يضيع المرء القسم الأعظم من شبابه بسبب خراقاته. كان من الجلي بأن محبوبتي ستهجرتني كلياً، وفي أقرب وقت، لم أكن قد تعلمت بعد أن هناك إنسانيتين مختلفتين أيما اختلاف، إنسانية الأغنياء وإنسانية الفقراء، كان يلزمني، مثل كثيرين آخرين، عشرون عاماً من العمر، بالإضافة إلى الحرب كي أتعلم الوقوف في صفوف طبقتي، وأن أسأل عن ثمن الأشياء والكائنات قبل أن ألمسها، وعلى الأخص قبل أن أتعلق بها.

فيما كنت أندفأ إذن، في غرفة الخدمة مع رفاقي الخدم، لم أكن أدرك أن فوق رأسي تماماً كان يرقص الآلهة الأرجنتينيون، أو لعلهم ألمان أو فرنسيون أو صينيون، ليس لذلك أدنى أهمية، ولكنهم آلهة، أثرياء، هذا ما كان علي أن أدركه، كانوا هم فوق مع "ميزين"، وكنت أنا تحت مع اللاشيء. كانت "ميزين" تفكر بنحو جدي في مستقبلها، وإذن فقد كانت تفضل أن تصنعه مع إله، وكنت أنا أيضاً، بالتأكيد، أفكر في مستقبلي، ولكن بنوع من الهديان، لأنني كنت أحمل طوال الوقت، على نحو، متكتّم خوفاً من أن أقتل أثناء الحرب، وخوفاً أيضاً من أن أهلك من الجوع أثناء السلم، كنت ميتاً مع وقف التنفيذ، وعاشقاً. لم يكن ذلك سوى كابوس. كان على بعد مئة كيلو متر منا ملايين من الرجال الشجعان، المدججين بالسلاح، والمتقنين جيداً ينتظرونني لكي يقرروا مصيري، وفرنسيون أيضاً ينتظرونني لكي يخلصوني من جلدي،

إذا لم أرغب في جعله يتمزق إرباً دامية على يد أولئك الذين يقفون في الخندق المقابل.

للفقير في هذا العالم طريقتان اثنتان للهلاك لا ثالث لهما، إما باللامبالاة المطلقة من أقرانك من البشر أثناء السلم، وإما بهوس القتل الإجرامي من أقرانك أنفسهم أثناء الحرب القادمة.. وإذا ما بدؤوا يفكرون بك، فإنهم يفكرون بتعذيبك. ولا شيء غير ذلك. أنت لا تعنيهم إلا حين تتزف الدماء منك. لقد كان برينشار على حق، فحين تدهم المذبحة الكبرى، فأنت لا تفكر على الإطلاق بأمر مستقبلك. إنك لا تفكر إلا في الحب خلال الأيام المتبقية من حياتك ما دام ذلك هو الوسيلة الوحيدة لنسيان جسدك بعض الشيء، قبيل أن يسلخوه لك من أعلاه إلى أسفله.

لما كانت "ميزين" تفر مني فقد رحمت أعتبر نفسي مثالياً، على هذا النحو يجري تسمية الغرائز الشخصية الصغيرة المكسوة بالكلمات الكبيرة. كانت إجازتي قد شارفت على الانتهاء، وكانت الصحف تعلن النفير لحشد ما يمكن حشده من المقاتلين، وقبل كل شيء، من أولئك الذين لا يملكون أية علاقات، كان من المطلوب رسمياً بأن لا يفكر الجميع مطلقاً إلا بكسب الحرب.

كانت ميزين ترغب بقوة أيضاً، مثلها مثل "لولا"، في أن أعود إلى الجبهة سريعاً، وأن أظل هناك.. ولما بدا لها بأنني تأخرت في الالتحاق، قررت أن تستعجل الأمور، وهو ما لم يكن مع ذلك، من عاداتها. ذات مساء عدنا معاً، بنحو استثنائي، إلى بيلانكور، وفجأة انطلقت أبواق الإنذار، فاندفع جميع سكان عمارتنا إلى القبو، إكراماً، لا أدري لأي منطاد.

كان هذا الهلع الشديد الذي يجعل جميع سكان الحي يهرعون بثياب النوم خلف شمعة، ليتواروا في الأعماق وهم يقرقون مثل الدجاج هرباً من خطر متخيل كلياً تقريباً، يكشف عن التقاهة المغنّية لهذه الكائنات التي هي دجاج فزع أحياناً، وخرقان مزهوة راضية عن نفسها أحياناً أخرى. ما من شك في أن مثل هذه الرخاوة الفظيعة تثير إلى الأبد اشمئزاز أشد الناس صبراً وأكثرهم دأباً من محبي الشر.

ما إن انطلق بوق الإنذار الأول حتى نسيت "ميزين" نعوت البطولة التي أهيلت عليها في مسرح الجيوش، وألحت علي بأن ننطلق بسرعة إلى جوف الأرض، إلى المترو، إلى المجاري إلى أي مكان تحت الأرض، ولكن في مأمن، في الأعماق النهائية، وعلى الأخص، فوراً ودون تأخير. ولكنني حين رأيتهم يهبطون جميعاً على هذا النحو، كباراً وصغاراً، مستأجري البيوت، حقراؤهم وكبراؤهم، أربعة أربعة، إلى الجحر المنقذ، حملني ذلك على اللجوء إلى حالة من اللامبالاة، جبان أو شجاع هذا لا يحمل كبير معنى، فكرت بميزين، أرنب هنا، وبطل هناك، إنه الإنسان نفسه، وهو لا يفكر هنا أكثر مما يفكر هناك، كل ما لا يكون كسباً للمال يتجاوزه قطعاً، بنحو كلي، كل ما يكون حياة أو موتاً يفلت منه، وحتى موته بالذات، يفكر فيه بنحو سيئ، ومنحرف. لم تكن ميزين تفهم إذن سوى المال والمسرح.

راحت ميزين "تتباكى" إزاء معارضتي. كان ثمة مستأجرون آخرون يحثوننا على مرافقتهم. ولم ألبث أن استسلمت للضغوط، كان السكان قد أبلغوا بصدد اختيار القبو بعروض مختلفة، ولكن قبو اللحم ضم أغلبية الهاربين، فقد زعموا أنه أعمق غوراً من أي قبو آخر في المبنى. ولكن ما إن بلغنا عتبهته

حتى صدمتنا هبات من رائحة واخزة، كنت أعرفها جيداً من قبل سببت لي على الفور شعوراً لا يطاق.

«هل ستدخلين إلى هذا القبو يا "ميزين"، بكل ما فيه من اللحم المعلق على الكلابات؟ سألت "ميزين".

— لم لا، أجابتنى، مندهشة.

— وأنا، كما تعلمين، لدي ذكريات عنه، قلت لها: وأفضل الصعود إلى أعلى.

— هل ستذهب إذن؟

— ستجدينني في الأعلى، ما إن ينتهي كل هذا؟

— ولكن ذلك قد يستمر طويلاً..

— أفضل انتظارك في الأعلى، قلت لها: أنا لا أحب اللحم وسينتهي هذا سريعاً».

أثناء فترة الإنذار، كان المستأجرون اللائذون إلى خلواتهم البعيدة تحت الأرض يتبادلون عبارات التهذيب المرححة والماجنة، بعض السيدات اللواتي وصلن أخيراً بثياب الحمام دخلن برشاقة ورزانة إلى تلك القبة العبقة بالرائحة، يستقبلهن الجزار وزوجته بغبطة، وهما يعتذران لهن، بسبب البرد الصناعي الضروري لحفظ البضاعة بصورة جيدة.

اختفت "ميزين" مع الآخرين، انتظرتها في منزلنا، في الأعلى، نهراً كاملاً، سنة.. ولم تعد قط للبحث عني.

منذ ذلك الوقت غدوت برماً أكثر فأكثر، وضافت عليّ الأرض بما رحبت، ولم يعد يدور في خلدي سوى فكرتين، النجاة بجلدي، والسفر إلى

أمريكا، ولكن الإفلات من رحى الحرب، يشكل أولوية كانت تبقيني مبهوراً
لاهت الأنفاس طوال شهور وشهور.

«مدافع، رجال، عتاد» كان الوطنيون يطالبون بذلك دون أن يبدو عليهم
الكلل إطلاقاً، لم يكن بمقدورهم أن يناموا لحظة واحدة كما يبدو ما دامت
بلجيكا البائسة، والألزاس الصغيرة البريئة تزرح تحت النير الجرمانى.. كان
ذلك وسواساً، استحوذ على عقول أفضل الرجال من بيننا، يمنعهم من التنفس،
مثلما يؤكدون، ومن الأكل، والنوم مع زوجاتهم ولم يكن يبدو، مع ذلك بأنه
يمنعهم من عقد صفقات وصفقات، كانت الأخلاق في الخلف دائماً، يمكننا قول
ذلك.

كان ينبغي أن أنضم إلى أفواجنا بسرعة، ولكن معنوياتي، ومنذ أول
جولة في المشفى بدت لهم أقل من المتوسط بكثير، وكان هذا يقتضي بالضبط
تحويلني إلى مستشفى آخر، كان مخصصاً لمرضى العظام ومرضى
الأعصاب، خرجنا في الساعة السادسة صباحاً، من ذلك المستودع الذي كنا
فيه، ثلاثة من المدفيعين، وثلاثة من الخيالة، جرحى ومرضى للبحث عن ذلك
المكان الذي يجري فيه ترميم البسالة المفقودة، والانعكاسات المتعطلة والأذرع
المبتورة. مررنا في البداية، مثل كل الجرحى في ذلك الزمن من أجل الفحص
والتدقيق، على قلعة فال دوغراس، وهي حصن متكرش وملتح بالأشجار. ما
يزال محتفظاً بالنبالة العريقة. تعج أروقتة وممراته برائحة ثقيلة من العربات
الدائبة على الحركة. رائحة نفوح اليوم ولن تخنفي بلا شك في أي يوم من
الأيام. خليط من الأقدام، والقش، ومصابيح الزيت. لم يطل بنا المقام في فال
دو غراس، فما كدنا نضع أقدامنا حتى صاح في وجوهنا، وكما ينبغي،
ضابطان إداريان، متقشري الجلد ومنهوكين. مهديدين بالطرد من قبل ضباط

المجلس الحربي، وسيرميان في الشارع من جديد من قبل إداريين آخرين في القلعة. لم يكن لديهم مكان لنا، كما قالوا، وأشاروا لنا نحو مكان غامض: قلعة، في مكان ما، في المناطق المحيطة بالمدينة.

من قلعة إلى قلعة، ومن خمرة ربيئة إلى قهوة بالحليب. رحنا نحن الستة نخطب خطب عشواء في اتجاهات شتى بحثاً عن الملجأ الجديد والذي كان مخصصاً كما يبدو، لمعالجة الأبطال العاجزين من أمثالي.

كان واحد منا يملك بعض عناصر الترفيه الأولية، يحتفظ بها بدقة داخل علبة بسكويت صغيرة من الزنك. من ماركة بيرو الشهيرة آنذاك، والتي لم أعد أسمع شيئاً عنها. كان رفيقنا يخبئ فيها سجائر، وفرشاة أسنان بحيث رحنا جميعاً نمازحه، ساخرين من تلك العناية بأسنانه، والتي لم تكن شائعة حينذاك وعاملناه، بسبب هذا التأنق الغريب على أنه «لوطي».

وصلنا أخيراً، عند منتصف الليل، وبعد الكثير من التيه والتردد إلى كتلة الردم الهائلة المغشاة بالظلام لحصن بيسير (الثالث والأربعين)، كما كان يسمى، كان ذلك موقعاً جيداً.

كانوا قد أعادوا ترميمه، لاستقبال العرج والمسنين وكانت حديقته ما تزال في طور الإعداد.

حين وصلنا إليه لم يكن قد وطئ أرضه بعد أحد من العسكريين، لم يكن هناك سوى موظفة المدخل. كان المطر يهطل بغزارة، فخافت منا لدى سماعها وقع أقدامنا، ولكننا جعلناها تضحك حين وضعنا أيدينا توأ على المكان الجيد من جسمها «كنت أظنكم من الألمان»، قالت لنا

— إنهم بعيدون، أجبناها — ما الذي تشكون منه؟ عبرت عن قلقها..

— من كل شيء ما عدا حمامتنا!« رد عليها أحد المدفعيين، هكذا إذن! يمكن القول بأنها كانت غاية في الظرف، وأنها كانت تتحلى بحس التقدير، علاوة على ذلك أقام معنا في المركز ذاته، فيما بعد مسنون تابعون للإسعاف الحكومي، شيدت لهم على وجه السرعة أبنية جديدة مجهزة بكيلومترات من الواجهات الزجاجية، احتجزوا داخلها حتى آخر قطرة من ضغائنهم، مثل حشرات.. وفوق الأكمات المحيطة بالمركز طفحت مساكن صغيرة تتنازع فيما بينها على أكوام الوحل المنحدر بقوة، والمنفلت بين سلسلة من الأكوخ الطارئة. وبعيداً عن هذه الأكوخ نبتت شتلات من الخس والفجل لا يدري أحد على الإطلاق لماذا رضيت بزاقات مقرزة على إزجاج الاحترام لمالك ذلك المشتل.

كان مشفانا نظيفاً، مثلما تقتضي العادة في الإسراع برؤية ذلك، لبضعة أسابيع. كل شيء في بدايته، أما ما يتعلق بصيانة تلك الأشياء فقد كنا نفتقر لأي ذوق، بل كنا، على هذا الصعيد مقرزين تماماً. نمنا في تلك الليلة، أقول إذن، في نعيم أسرة معدنية، وعلى ضوء القمر، كانت تلك الأماكن جديدة ولم تصلها بعد أنوار الكهرباء.

حين استيقظنا صباحاً، جاء رئيس أطبائنا الجديد للتعرف علينا، مستبشراً برويتنا، مبدياً. كل حفاوة ظاهرة. كان لديه أسبابه الخاصة ليكون سعيداً، فقد جرى ترفيعه للتو ليحمل على كتفه نجمة رابعة. كان هذا الرجل، بالإضافة إلى ذلك يملك أجمل عينين في العالم، عينان مخمليتان خارقتان للطبيعة. كان يستخدمهما كثيراً ليثير انفعال أربع ممرضات فانتات، يعملن متطوعات، كن يحطنه بكل ضروب المودة والإيماءات. ولا يفلتن شيئاً من حركات رئيس أطبائهن. منذ الاحتكاك الأول، أحاط بوضعنا، كما أخطرنا

بذلك، وبألفة متناهية أمسك بكتف واحد منا، دونما كلفة وهزه بأبوية، ثم حدد لنا بصوته المشجع القواعد والطرق الأقصر للانطلاق بحزم، وبأقصى سرعة نحو الشفاء، ودحر العدو.

من هنا كانوا ينطلقون، بالتأكيد، لم يكونوا يفكرون سوى بذلك. سيقولون ربما بأن هذا سيفيدنا. كانت تلك هي الرذيلة الجديدة «فرنسا، يا أصدقائي، وضعت ثقتها بكم. فرنسا امرأة، بل هي أجمل النساء، كان يصب كلامه صباً، إنها تعتمد على بطولتكم، ولأنها ضحية لأجبن وأشنع عدو فإن لها الحق بأن تطلب من أبنائها بقوة أن يثاروا لها ويحرروا سائر أرضها، مضحين بأعلى ما يملكون من أجلها. سنعمل جميعاً هنا لتأدية واجبنا، أيها الأصدقاء، فادوا أنتم واجبكم، سنضع كل علمنا تحت تصرفكم، إنه علمكم، وكل موارد فرنسا من أجل شفائكم، ساعدونا أنتم بدوركم بإرادتكم الطيبة، وعماً قريب سيكون بوسعكم استعادة موقعكم إلى جانب رفاقكم الأعداء في الخنادق، موقعكم المقدس من أجل الدفاع عن أرضنا الحبيبة، تحيا فرنسا، إلى الأمام» كان يعرف كيف يتحدث إلى الجنود.

كان كل منا يقف بالقرب من سريره في وضعية الاستعداد، ونحن نصغي إليه. وخلفه تماماً كانت سمراء فريق الممرضات الحسنات قد غلبها الانفعال، فسالت دموع من عينيها بنحو ظاهر، وهرعت نحوها رفيقاتها الممرضات الأخريات حالاً «عزيزتي، عزيزتي! أؤكد لك بأنه سيعود.. هيا». كانت الشقراء السمينة بعض السمنة، والتي تربطها بها قرابة، هي التي تعزيها بنحو أفضل، وفيما هي تمرّ، بالقرب منا، تسندها بذراعيها أخبرتني بأن قريبتها الجميلة قد خارت قواها على هذا النحو، لأن خطيبها كان قد رحل منذ وقت قريب مجدداً في البحرية. حاول المعلم المحتدم حمية، وقد تملكه البهت،

أن يلف من حدة الانفعال الجميل والمأساوي الذي أشاعه خطابه القصير والمؤثر، وقف مشوشاً تماماً ومتكديراً أمامها. يقظة قلق ممض للغاية في قلب نقي، وشجي بالتأكيد، حساسية ورقة متناهيان «لو كنا نعرف أيها المعلم، وشوشته القريبة الشفراء، لندناك، إنهما يحبان بعضهما بما يفوق الوصف». وتوارى فريق الممرضات والمعلم نفسه، وهم يثرثرون ويدمدمون، ولم يعودوا إلى الانشغال بنا البتة.

كنت أحاول أن أتذكر وأفهم معنى ذلك الخطاب الذي تفوه به الرجل ذو العينين المشرقتين. ولكن بعيداً عن أن تكدرني تلك الكلمات، بدت لي، وأنا أفكر فيها مصوغة بنحو خارق كي تثير تقززي إلى حد الموت. كان هذا أيضاً رأي زملائي الآخرين، ولكنهم لم يجدوا فيها مع ذلك، مثلما وجدت، نوعاً من التحدي والإهانة. هؤلاء الرفاق قلما كانوا يبحثون عن فهم ما يدور حولنا في الحياة. لقد تبين لهم فقط، وبصعوبة أيضاً، أن الهذيان المعتاد للعالم كان قد تعاضم منذ بضعة أشهر إلى حدود لم يعد من الممكن معها قطعاً دعم وجود هذا العالم على أساس راسخ.

في المشفى هنا، مثلما في ليل الفلاندر كان الموت يثير قلقنا، يهددنا الموت المحتوم هنا، مثلما يهددنا هناك، ولكنه يهددنا هنا فقط من مكان أبعد، هذا صحيح، حينما تطلقه على هيكلك الهش عناية الإدارة العسكرية. ما من أحد يشتمنا هنا، بالتأكيد، أنهم يكلموننا بلطف، يكلموننا طوال الوقت عن كل شيء عدا الموت. ولكن الحكم بالموت كان حاضراً مع ذلك، يطل علينا من زاوية كل ورقة يطلبون منا التوقيع عليها، من كل مراعاة يراعونها بها: ميداليات، رخصة جديدة، نصيحة صغيرة، كنا نحس بأننا معدودون، مراقبون، مرقمون ضمن الاحتياطي الكبير للراجلين غداً. كان كل

هذا العالم المدني والصحي المحيط بنا أكثر خفة، بالقياس إلينا. الممرضات، أولئك الصبايا، لم يكن يقاسمنا مصيرنا. هن لا يفكرن، بالمقابل، إلا في أن يعشن عمراً مديداً، وأن يحببن، هذا واضح، وان يتنزهن وأن يمارسن ويعاودن ممارسة الحب والوصال آفاقاً وآفاقاً من المرات. كل من هؤلاء الملائكيات كانت تحرص على خطتها الصغيرة لعجانها^(١)، في المستقبل. خطتها الصغيرة للحب، حين نكون نحن قد هلكنا في الوحول، في أي وحول لا على التعيين، والله وحده، هو الذي يعلم كيف.

ستسمع منهن حينذاك آهات تذكارية خاصة، مفعمة بالركة تجعلهن أكثر جاذبية أيضاً.. سيتذكرن بصمت مشحون بالانفعال الأزمان المأساوية للحرب، وأشباحها «هل تذكرن الصغير باردامو، يقلن لبعضهن، في ساعة غسقية، وهن يفكرن بي، ذاك الذي كنا نجد صعوبة في إيقاف سعاله؟ كانت معنوياته سيئة جداً، الصغير المسكين، ترى ماذا يمكن أن يكون قد حل به؟».

بعض مشاعر الأسف الشاعرية المستشارة في الوقت المناسب تلائم امرأة، على غرار شعر شفيف تحت ضوء القمر.

وبمعزل عن كل كلمة من كلماتهن اللطيفة وعن عنايتهن كان عليك أن تفهم منذ الآن: «سوف تهلك، أيها العسكري المهذب.. سوف تهلك.. إنها الحرب.. لكل منا حياته.. لكل منا دوره.. لكل منا موته.. نحن نقاسمك تعاستك كما ترى، ولكننا لا نقاسم أحداً موته.. كل ما في أرواحنا وفي أجسادنا ينبغي أن يكون سليماً معافى.. نوع من التسلية، كما ترى، لا أكثر ولا أقل، نحن فتيات قويات، جميلات، مرموقات، معافيات ومربيبات أحسن تربية.. كل شيء بالنسبة إلينا يتحول تلقائياً إلى بيولوجيا، إلى مشهد بهيج،

(١) العجان: ما بين الشرج وعضو التناسل.

وينقلب إلى فرح، ذلك ما تتطلبه صحتنا، وكل دواعي الحزن الشنيعة ممتعة عنا. يلزمنا دائماً مهيجات، لا شيء سوى مهيجات، أما أنتم فستكونون منسيين سريعاً، أيها الجنود الصغار، كونوا لطفاء. اهلكوا بسرعة، ولتنته الحرب، وليتح لنا الزواج بواحد من ضباطكم المحبيين، أسمر، على الأخص، ليحيا الوطن الذي يتحدث عنه بابا دائماً، كم سيكون الحب رائعاً حينما يعود من الحرب، زوجنا الصغير، مزيناً بالأوسمة.. سيغدو ولا شك متميزاً ومشهوراً، وسيكون بوسعك أن تمسح له حذاءه الجميل يوم زفافنا.. إن كنت ما تزال حياً حتى ذلك اليوم، أيها الجندي الصغير، ألن تكون سعيداً حينذاك لسعادتنا، أيها الجندي الصغير؟...».

في كل صباح كنا نرى، ونرى أيضاً رئيس الأطباء وخلفه ممرضاته. كان عالماً، كما أعلمونا. وحول صالاتنا المخصصة لنا، كان المسنون، من نزلاء المشفى ينطون غير بعيد نطات سقيمة ومفككة، ويذهبون لبيصقوا نيمتهم مع نخر أسنانهم من صالة إلى أخرى، حاملين نتفاً من وشايات واغتيابات مبتدلة! كان أولئك المسنون المعزولون هنا وسط بؤسهم الرسمي كما لو أنهم وسط أرض مسورة موحلة يرمون كل الذرق المتجمع حول أرواحهم، بعد سنين طويلة من العبودية. أحقاد عاجزة مترنحة وسط البطالة البولية للقاعات العامة. لم يكونوا يصلحون بما لديهم من طاقة أخيرة ومرتعشة، إلا ليلحقوا بأنفسهم نوعاً من الأذى، وليدمروا أنفسهم بما تبقى لديهم من متعة ونفس.

إنها المتعة النهائية! ففي هيكلم المتخشب لم يعد ثمة خلية واحدة خالية من الخبث والشر.

حين تقرر بأن نتقاسم، نحن الجنود، الرفاهيات الخاصة بالحصن مع هؤلاء المسنين، بدؤوا يمقتوننا بسبب ما يسود بيننا من وفاق، ليس من دون أن يأتوا مع ذلك، في الوقت ذاته، ليتسولوا باستمرار بقايا التبغ بالقرب من النوافذ، وكسرات الخبز اليابس المتناثرة تحت المقاعد. كانت وجوههم الشبيهة بالرق تنسحق على زجاج واجهة مطعمنا ساعة تناولنا لوجبات الطعام. كانوا يرسلون من بين ثنيات أنوفهم الوسخة نظرات جردان هرمة جشعة. كان واحد من هؤلاء العجّز، يبدو أجراً وأخبث من الآخرين، يأتي ليغنيينا أغنيات صغيرة من أيام زمانه كي يسلينا. كان يدعى الأب بيرويت، كان مستعداً لأن يقوم بكل ما نطلبه منه مقابل أن نعطيه بعض التبغ، كل ما نطلبه منه، ما عدا المرور من أمام مستودع الجثث في الحصن، والذي قلما كان يتعطل مع ذلك. إحدى مزحانتنا معه. كانت تتكون من اصطحابنا له إلى ذلك المكان. زاعمين بأننا نقوم بنزهة، وحين نصل أمام باب المستودع تماماً نسأله: «ألا تود الدخول؟» فما يلبث أن يولي الأدبار مدمماً، ولكن بسرعة شديدة، وبعيداً جداً، بحيث لا نعود نراه يومين على الأقل. كان الأب بيرويت يحدس بموته.

قام رئيس أطبائنا ذو العينين الجميلتين، البروفسور بيستومب من أجل أن ييبث فينا الروح، بتركيب جهاز معقد جداً يصدر شرارات كهربائية تفرغ شحناتها فينا، محدثة صدمات يزعم أنها منشطة لقوانا، كان علينا الخضوع لذلك العلاج تحت طائلة الطرد من المشفى، كان غنياً جداً، كما يبدو، طبيينا بيستومب، ولا بد أن يكون كذلك، حتى يشتري مثل هذا الجهاز الصاعق الباهظ الثمن. كان حموه سياسياً كبيراً، ضارب ببراعة في صفقات حكومية لشراء الأراضي. مما أتاح لصهره بيستومب هذا السخاء.

كان ينبغي الانتفاع من ذلك، كل شيء يسير بانتظام، الجرائم والعقوبات. وعلى هذا النحو، لم نكن نكرهه نحن، كان يتفحص جهازنا العصبي بعناية فائقة، ويسألنا بلهجة ملؤها الألفة والمودة. تلك الطيبة المركزة بعناية كانت تسلي بعذوبة الممرضات المتفانيات في خدمته. كن ينتظرن كل صباح، أولئك الظريفات، لحظة الاستمتاع بتجليات لطفه الغامر. كان ذلك بالنسبة إليهن أشبه بالحلوى اللذيذة. كنا، في النتيجة، نمثل مسرحية، اختار هو فيها دور العالم المحسن، والإنساني، بعمق ومحبة، وكان الجميع يرفلون في جو من التفاهم.

كان يشاركني الغرفة، في هذا المشفى الجديد الرقيب برانليدور، أحد الذين أعيد تجنيدهم، وهو ضيف قديم على المستشفيات، كان يجر معه أينما حل معياً مثقوباً منذ شهور عديدة.

تعلم برانليدور خلال إقاماته في المشافي اجتذاب التعاطف الحار من الممرضات والاحتفاظ به، كان يقىء ويبول ويُسهل دماً في أغلب الأوقات، ويعاني صعوبة في التنفس. ولكن هذا لن يكون كافياً تماماً ليحظى بالعناية الطبية الخاصة جداً من فريق العاملين الذين كانوا يعنون به وبغيره. وإذن، فبين كل نوبتين من نوبات خمود تنفسه، وحين يمر طبيب أو ممرضة بجواره، كان برانليدور يصيح بملء فيه «النصر، النصر! سيكون حليفنا النصر». أو أنه كان يتمم بذلك من طرف أو من كل رثتيه، حسب الحالة التي يكون فيها. وهكذا كان برانليدور قد جعل نفسه، متناغماً مع الأدب الحربي المحتدم آنذاك، ومن خلال الأثر المناسب الذي تحدثه كلماته، كان يبدو ممتعاً بنصيب أوفى من المعنويات، كان برانليدور على جانب كبير من الأربة والحدق.

لما كان المسرح منتشراً في كل مكان، فلا بد من التمثيل إذن. لقد كان برانليدور على حق، غير أنه ما من شيء يبدو أكثر حماقة وإثارة للغضب، من أن يصعد على خشبة المسرح، عن طريق الصدفة مشاهد حامل من جمهور النظارة.. فحين يعتلي أحد الخشبة، خليق به أن يتخذ النبرة الملائمة، أن يحتدم، أن يمتلئ، أن يصمم، وإلا فإن عليه أن يختفي. كانت النساء على الأخص تطالب بالمشهد المؤثر. ولم تكن الصبايا لترحم مغرميهن المبلبلين، كانت الحرب تضغط على مبيضهن فيطالبن بأبطال للحرب، أما أولئك الذين لم يكونوا أبطالاً على الإطلاق فلم يكن أمامهم سوى أن يتظاهروا بذلك، أو أن يتأهبوا ليلاقوا أكثر المصائر خزيًا وعاراً.

بعد أن أمضينا ثمانية أيام ننعيم فيها بهذه الخدمات الجديدة أدركنا بأنه كان ينبغي لنا، ونحن مستعجل تغيير قيافتنا، وبفضل برانليدور (الذي كان يعمل بائعاً للدانتيل في حياته المدنية) تحول أولئك الرجال المذعورون، الساعون دوماً إلى الاختباء في الظل، والذين تتملكهم ذكريات مشينة عن المجازر حين وصلوا إلى هذا المشفى، تحولوا إلى زمرة شيطانية جسورة، وعازمة على النصر، ومسلحة، وأكد لكم، بجاذبية، وبنوايا طيبة، غدت لغتنا ثرة وماجنة للغاية بحيث أن أولئك السيدات كانت وجوههن تحمر حياء في بعض الأحيان، ولكنهن لم يتسكين من ذلك على الإطلاق لأن من المفروض بأي جندي أن يكون شجاعاً بقدر ما يكون لا مبالياً. وأن يكون خشناً غالباً. وكلما كان أكثر خشونة كان أكثر شجاعة.

كنا نقلد برانليدور، في البداية، قدر ما نستطيع، لم يكن مظهرنا الوطني البسيط بعد مناسباً تماماً، ولا مقنعاً بما يكفي، كنا بحاجة إلى أسبوع كامل، وإلى بروفتين اثنتين مكثفتين حتى نكون قطعاً، في وضع لائق.

ما إن لاحظ طبيبنا، العالم العظيم والأستاذ اللامع، بيستومب، التقدم المدهش الذي طرأ على أوضاعنا المعنوية حتى قرر. على سبيل التشجيع السماح لنا ببعض الزيارات، بدءاً بزيارة أهلنا.

بعض الجنود الموهوبين جداً، فيما روي لي عنهم، كانوا حينما يدخلون ساحة المعركة، يشعرون بنوع من النشوة الجنسية، بالتلذذ الحسي العميق، أما فيما يتعلق بي، فحينما أتخيل لذة من هذا النوع الخاص، أغدو بسببها مريضاً طوال ثمانية أيام على الأقل. كنت أشعر بأنني عاجز تماماً عن قتل أي كان، وأنه كان من الأفضل لي قطعاً أن أتخلى عن ذلك، وأن أنتهي على الفور، ليس لأنني افتقر إلى التجربة. لقد تم فعل كل شيء لإكسابي هذا الميل، ولكن ما كان ينقصني هو القابلية والاستعداد للقتل. كان لا بد لي، ربما، من تلقين وتدريب أبطأ.

عزمت في أحد الأيام على أن أبلغ الأستاذ بيستومب بالصعوبات التي كنت أعانيها جسداً وروحاً كي أكون شجاعاً بالقدر الذي كنت أرغب به، والذي كانت تتطلبه الظروف الدقيقة بالتأكيد. كنت أحشى بعض الشيء من أن يعتبرني سفيهاً، ثرثاراً وقحاً.. ولكن لا شيء من هذا. على النقيض من ذلك، فقد أعرب المعلم عن سعادة فائقة بأنني بهذه النوبة من الصراحة كشفت له عن الاضطراب الروحي الذي كنت استشعره.

«أنت تتحسن يا باردامو، يا صديقي، أنت تتحسن بكل بساطة!» ذلك ما استخلصه بيستومب من هذه المكاشفة التي قمت بها أمامه، وعلى نحو تلقائي بالتأكيد. أنا أعتبرها، يا باردامو علامة مشجعة جداً على التحسن العظيم لحالتك المعنوية.. لقد أجمل فودوسكين، ذلك الملاحظ البسيط، ولكن، ما أشد ما كان ليبيباً، أجمل عام ١٨٠٢ حالات الخور المعنوي لدى جنود

الإمبراطورية، من خلال ملاحظته لمثل تلك الحالات، سجلها على مذكرة غدت الآن كلاسيكية، على الرغم من أنها أهملت ظلاماً من قبل طلابنا اليوم. لقد لاحظ بكثير من الصحة والدقة بأن النوبات المعروفة تحت اسم «اعترافات» ليست سوى علامة إيجابية مشجعة لدى المريض المعنوي.. وبعد عقود تقريباً، استطاع عالمنا العظيم دوبريه أن يضع للأعراض ذاتها مدونة مصطلحات تعتبر اليوم شهيرة، حيث أدرج تلك النوبة ذاتها تحت عنوان نوبة «حشد الذكريات». وهي نوبة، ينبغي حسب رأي المؤلف، أن تسبق بقليل، حين يسير العلاج سيراً حسناً. الانقشاع الهائل للتمثلات الذهنية المضطربة في مجرى الشفاء السيكلوجي، وضمن مجموعة مصطلحاته الغنية بالصور، أطلق دوبريه، من جهة أخرى اسم «الإسهال التألمي لتحرر الشعور» على تلك النوبة التي تترافق لدى الذات مع إحساس بالغبطة بالغ الحيوية، ومع استعادة متميزة جداً لحبوية العلاقات واستعادة أخرى بالغة الأهمية للنوم الذي يلاحظ أنه يمتد أياماً بكاملها. ثم تأتي مرحلة أخرى في النهاية، يظهر فيها فرط نشاط متميز جداً للوظائف الجنسية، إلى حد لا يكون من النادر معه أن نلاحظ لدى المرضى الخاملين جنسياً في السابق «هياجات شبقية» حقيقية، ومن هنا جاءت تلك الصيغة القائلة: «لا يدخل المريض هنا إلى الشفاء، بل إنه يندفع إليه اندفاعاً» تلك هي العبارة المعبرة بنحو رائع عن تلك النجاحات العلاجية التي وصف بها عالم آخر من علماء النفس الفرنسيين العظام في القرن الأخير هو فيليب مارجيتون، وصف بها الاستعادة الظاهرة حقاً لكافة النشاطات الطبيعية لدى الذات المتماثلة للشفاء للمريض بالخوف.. وفيما يخصك أنت يا باردامو، فأنا أعتبرك إذن، ومنذ الآن معافى.. هل يهملك أن تعلم يا باردامو، ما دمنا قد وصلنا بنحو مجمل إلى هذه النتيجة الطبيعية، بأنني سأقدم، في الغد، بالتحديد، إلى جمعية البسكيولوجيا العسكرية مذكرة

حول السمات الأساسية للذهن البشري؟ ستكون هذه المذكرة بالغة الأهمية كما أعتقد.

— بالتأكيد أيها المعلم هذه القضايا تستهويني جداً.

— حسناً، فلتعلم يا باردامو، وباختصار بأنني سأدافع عن هذه الأطروحة أمام الجمعية: فقبل الحرب ظل الإنسان بالنسبة إلى طبيب الأمراض العقلية. عالماً مجهولاً ومغلقاً وظلت قواه الذهنية لغزاً محيراً.

— هذا جيد أيضاً، حسب رأيي المتواضع جداً، أيها المعلم..

— الحرب، لاحظ يا باردامو، بوسائلها الفريدة التي وضعتها بين أيدينا، لاختبار الجهاز العصبي، تعمل على غرار كاشف عظيم للذهن البشري. ينبغي علينا لقرون، بأن نعكف، على هذه الكشوف المرضية الحديثة، قروناً كاملة من الدراسات المثيرة، لنعترف بصراحة، بأننا لم نفعل شيئاً حتى الآن سوى الارتياح بالثراء الانفعالي والروحي للإنسان، أما الآن، وبفضل الحرب فقد انجلت الأمور. لقد دخلنا، بعد رحلة من العذاب الأليم بالتأكيد، ولكن من أجل العلم، الحاسم والملهم، دخلنا إلى صميم هذا الثراء الانفعالي والروحي. ومنذ الكشوف الأولى لم يعد ثمة مجال للشك في الواجب الملقى على عاتق عالم النفس وعالم الأخلاق الحديثين. بالنسبة إلي أنا، بيستومب، فإن إصلاحاً جذرياً لتصوراتنا السيكولوجية، يفرض نفسه»

كان هذا هو رأيي أيضاً، أنا باردامو.

— «أعتقد، في الحقيقة، أيها المعلم، بأنكم ستقولون حسناً..

— «أه، أنت تعتقد ذلك يا باردامو، قلت ذلك لوحدك. لدى الإنسان،

لاحظ جيداً، يكون الخير والشر متوازنان، الأنانية، من جهة، والغيرية من

جهة أخرى. أما الأشخاص النخبة، فالغيرية لديهم تفوق الأنانية. أليس هذا صحيحاً؟ أليس ذلك كذلك؟

— هذا صحيح أيها المعلم. هو كذلك فعلاً..

— لدى إنسان النخبة أسألك يا باردامو، ماذا يمكن أن يكون الجوهر الأسمى الذي يمكنه أن يحفز غيريته، ويجبره على أن يظهر بالتأكيد تلك الغيرية؟

— إنه الوطنية أيها المعلم.

— آه.. لاحظ جيداً، قلتها لوحدها. أنت تفهمني تمام الفهم.. يا باردامو!

الوطنية ولازمتها المجد، بكل بساطة، دليلها

— هذا صحيح!

— آه، يا جنودنا الصغار. لاحظ ذلك، فمنذ اختبارات النار الأولى

استطاعوا أن يتحرروا تلقائياً من كافة المغالطات. والمفاهيم الثانوية.. ولا سيما من السفسطات الكلامية وانطلقوا غريزياً وباندفاع واحدة، ليدوبوا في مرر وجودنا الحقيقي، وطننا، وليقفوا إلى جانب تلك الحقيقة، ليس الذكاء فائضاً عن الحاجة فقط، يا باردامو، بل إنه مزعج، فتلك الحقيقة هي حقيقة القلب. الوطن، مثل جميع الحقائق الأساسية. الشعب لا يخطئ أبداً، وها هنا بالتحديد يتوه العالم الفاسد مهما بلغ علمه.

— هذا جميل، أيها المعلم، جميل إلى أقصى حد، هذا من الأدب

الكلاسيكي».

ضغط بيستومب على يدي بمحبة تقريباً.

وبصوت غداً أبويًا، أراد أن يضيف لصاحي أيضاً: «على هذا النحو

نويت معالجة مرضاي، يا باردامو، بكهربة أجسادهم وعقولهم بجرعات قوية

من الأخلاق الوطنية، بحقنات حقيقية من المعنويات التي تجددهم وتعيد تشكيلهم

— أنا أفهمك أيها المعلم

والواقع، أنني صرت أفهم، بصورة أفضل.

ما إن غادرته، حتى انطلقت دون أي تأخير، إلى القداس، مع رفاقي الذين أعيد تجديدهم، في كنيسة أنشأت حديثاً، لمحت برانليدور الذي كان يبدي معنويات عالية، واقفاً وراء باب الكنيسة، وهو يلقي درساً في الحمية والنشاط لابنة الحاجة، الصغيرة، ذهبت لألتحق به، بعد أن لمحته يدعوني.

بعد الظهر، جاء أقارب من باريس لأول مرة، منذ وصولنا إلى هنا، ثم صاروا يجيئون كل أسبوع.

كُتبت، أخيراً إلى أمي، كانت أمي سعيدة بعثورها علي، وجعلت تتباكي مثل كلبة أعادوا جرورها إليها، كانت تعتقد أيضاً، من دون شك بأنها تساعدني كثيراً باحتضانها لي، ولكنها ظلت، مع ذلك، أدنى من الكلبة، لأنها كانت تصدق الكلمات التي يقولونها لها من أجل انتشاري من وضعي. بينما الكلبة لاتصدق في أي حال إلا ما تحس به. قمنا سوياً بجولة طويلة في الشوارع القريبة من المشفى، طيلة ما بعد الظهر، نجرر أقدامنا فوق شوارع قيد الإنشاء في تلك الناحية.. ما تزال مصابيحها مضاءة، وبين واجهات طويلة تسح منها الرطوبة، نوافذها مرقشة بمئة من الخرق المعلقة، إنها شوارع الفقراء. كنا نسمع صوت جدجد، يصر ساعة الظهيرة. فيما تهب علينا عاصفة من روائح دهنية رديئة. في وسط ذلك الإهمال الكبير الرخو الذي يحيط بالمدينة، حيث ترشح أكذوبة بذخها وترفها مفضية إلى التعفن. تكشف المدينة لمن يريد أن يرى، عن مؤخرتها التي تشبه علبة قاذورات، كان ثمة

مصانع، يتحاشى المنتزهون المرور بها. تفوح بكل أنواع الروائح، يكاد بعضها لا يصدق، حتى ليرفض الجو المحيط أن يفوح بالناتنة أكثر مما كان يفوح. وغير بعيد، كان العيد السوقي الصغير، يتعفن بين مدخنتين، شاهقتين، إحداهما أعلى من الأخرى. خيوله الخشبية المدهونة كانت غالبية جداً على أولئك الأطفال الذين كانوا يرغبون في شرائها، طوال أسابيع بكاملها في الغالب. أطفال مخاطيون مقعدون. مجذوبون مطرودون ومترددون في آن. أصابعهم في أنوفهم جميعاً، بعفويتهم الخالصة، البؤس والموسيقى.

كل شيء يجري، بجهد وكد، لنفي الحقيقة عن هذه الأمكنة، الحقيقة التي كانت تبكي دونما توقف على سائر العالم، عبث كل ما يفعله المرء، عبث كل ما يشربه من النبيذ الأحمر أيضاً، الخثر كالحبر، فالسماء ظلت كما هي، موصدة فوق الرؤوس، كأنها بركة كبيرة لأبخرة الضاحية.

على الأرض، يعيبك الوحل، وتتغلق في وجهك أبواب الوجود، تغلقها في وجهك فنادق ومصانع أيضاً، والجدران أشبه بالتواييت. لقد رحلت "لولا"، ورحلت ميزين أيضاً، ولم يعد لي أحد في الوجود، ولهذا ارتأيت أن أكتب لأمي. لا بد لي من أن أرى أحداً ما. منذ عشرين عاماً، لم يعد لي سوى الماضي. جبنا أنا وأمي شوارع وشوارع يوم الأحد، روت لي أمي أشياء صغيرة عن تجارتها، و عما كان يقال حولها عن الحرب، في المدينة، بأن الحرب كانت محزنة «ومرعبة» أيضاً، لكننا بالكثير من الشجاعة سننتهي جميعاً إلى الخلاص منها. كان القتلى بالنسبة إلى أمي مجرد حوادث عارضة، مثلما في سباقات الخيول، ليس على المشاركين فيها سوى أن يتمالكوا أنفسهم، فلا يسقطون، أما فيما يخصها هي، فإنها لم تكن ترى في الحرب سوى كرب جديد تحاول أن لا يززعها كثيراً، كان هذا الكرب يخيفها، كان مفعماً بأشياء

مروعة لم تكن تفهمها . كانت تعتقد ، في الواقع . بأن الناس الصغار من نوعها خلقوا لكي يتألموا من كل شيء، وأن هذا هو دورهم فوق هذه الأرض، وأن الأمور إذا لم تكن تسير سيراً حسناً فلا ريب إن ذلك يعود، في جزء كبير منه إلى أن الناس الصغار اقتربوا خطايا كثيرة متراكمة، وقاموا بحماقات، دون إدراك لما يفعلونه بالتأكيد، ولكنهم، مع ذلك كانوا مذنبين، وكان من المفيد أن تتاح لهم الفرصة كي يتألموا بهذه الصورة، ليكفروا عن أفعالهم الشائنة، لقد كانت أمي شخصاً «لا يُمس أو يُنقد» من قريب أو من بعيد.

هذا التفاؤل الخانع والمأساوي كان يساعدها في إيمانها ويشكل قاع طبيعتها.

سلكنا أنا وأمي شوارع الأراضي المفرزة، نتهمر فوقنا قطرات المطر، كانت الأرصفة تغوص في الخضرة ثم تختفي، كانت نباتات الدردار على الحواف تحتفظ أيام الشتاء بقطرات مطر فوق أغصانها وقتاً طويلاً، مهتزة مع الريح، يا لها من فتنة رهيفة، كانت الطريق إلى المشفى تمر أمام العديد من الفنادق الحديثة. بعضها اتخذ له اسماً، وأخرى لم تصب بعد بهذا الداء.

كانت تلك الفنادق تعمل يوماً فيوماً، بكل بساطة، لقد أفرغتها الحرب بقسوة من عمالها. ولن يعود إليها المستأجرون كي يموتوا. كان ذلك عملاً لفظ أنفاسه أيضاً، ولكنهم كان يسددون قسطهم في أماكن أخرى.

رافقتني، أمي إلى المستشفى متباكية. كانت تتقبل حادث موتي، لم تكن تتقبله وحسب، بل كانت تتساءل فيما إذا لم يكن لدي أي قدر من الاستسلام مثل ما لديها. كانت تؤمن بالقضاء والقدر إيمانها بمرآة جميل من أعمال الزرركشة، التي حدثتني عنها دائماً باحترام، لأنها كانت قد تعلمتها في بداية

حياتها، حين كانت قطع القماش المزركشة التي تستخدمها في تجارتها للألبسة نسخة دقيقة عن النموذج الأصلي الرائع.

بين قطع الأرض المفرزة في تلك الضاحية الريفية الموحشة كانت ما تزال توجد بعض الحقول المحروثة. هنا وهناك، تشبث بتلك الفضلات بعض الفلاحين المسنين، المحصورين بين المساكن الجديدة. كنا نذهب أنا وأمي لمشاهدتهم، حين كان يتبقى لدينا بعض الوقت قبل حلول المساء، كان أولئك الفلاحون المضحكون مستبسلين في نقب الأرض الرخوة والخشنة بأدوات حديدية، حيثما كان الموتى يتعفنون وحيثما يأتي الخبز، مع ذلك، «لا شك أن هذه الأرض قاسية جداً» كانت أُمي تعلق حائرة، في كل مرة تشاهدهم. لم تكن تعرف في الواقع من الشقاء، إلا ما كان يشابه شقاءها، شقاء المدن. كانت تتخيل ما يمكن أن يكون عليه شقاء الريف. ذلك هو الفضول الوحيد الذي عرفته في أُمي في يوم من الأيام، وكان ذلك يكفيها كتسلية ليوم من أيام الأحاد، وكانت تعود به إلى المدينة.

لم أعد أتلقى قط أي خبر عن "لولا" ولا كذلك عن ميزين. لقد ظلنا بالتأكيد، تمثلان الوجه الجميل والطيب للأوضاع، حيث تسود تعليمات باسمه ولكنها مشددة باستبعادنا، نحن اللحوم المكرسة للتضحيات. لقد قادونا مرتين إلى الحظائر التي تزرع فيها الرهائن. مسألة وقت وانتظار حسب. كانت الرهانات قد حُسمت.



<< كان الرقيب برانليدور، جاري في المستشفى يتمتع، كما قلت، بنبات شعبيته لدى الممرضات. كان ملفوفاً بالضماد، يفيض بالتفاؤل. جميع من في المشفى كانوا يحسدونه، ويفقدون أساليبه، ولما أن غدونا لائقين وغير منفرين من الناحية المعنوية بدأنا، بدورنا، نتلقى زيارات أشخاص من ذوي الشأن في هذا العالم، ومن أصحاب المراتب العليا في الإدارة الباريسية. كان يتردد على الألسنة في الصالونات أن مركز طب الأعصاب الذي يشرف عليه الدكتور بيستومب أصبح الممثل الحقيقي لمشاعر الحماسة الوطنية الفياضة وبورتها المتوقدة تقريباً. صرنا نستقبل كل يوم. ليس فقط أساقفة بل ودوقة إيطالية، ومموناً كبيراً للجيش، والأوبرا ذاتها، وممثلي المسرح الفرنسي. كانوا يأتون إلينا ليبديوا إعجابهم بنا حيث نحن. طالبة جميلة متفرغة لدراسة المسرح الفرنسي كانت تتشد الأستعار كما لا ينشدها أحد. جاءت إلى سريري بالذات كي تتشدني أشعاراً بطولية على الأخص، شعرها الأشقر والمنفلت (لون البشرة متناغم معه) كان يتموج في تلك اللحظة، تموجات ساحرة كانت تصلني مباشرة فتجعلني أرتعش حتى العجان. وحينما سألتني عما فعلته في الحرب رويت لها شيئاً من التفاصيل المثيرة للغاية والمؤثرة بعمق، بحيث لم تعد عيناها تفارقني بعد ذلك، وبسبب انفعالها الدائم طلبت مني إذنأ تكليف شاعر من معجبيها، لينظم شعراً تلك المقاطع الأكثر حدة من روايتي. ووافقت أنا على الفور، وحين أطلع الأستاذ بيستومب على المشروع أعرب عن تشجيعه بوجه خاص، وأجرى مقابلة في تلك المناسبة، وفي اليوم ذاته؛ مع

مندوبي «مجلة وطنية مصورة» شهيرة، قاموا بتصويرنا معاً على درج مدخل المستشفى إلى جانب شريكنا الحساء. «ذلك هو الواجب الأسمى للشعراء، خلال الساعات العصبية التي نجتازها. صرح الأستاذ بيستومب. أن يمنحونا من جديد أسلوب الملاحم. لقد ولى زمن التركيبات الشعرية الصغيرة الدنيئة، وحن وقت الآداب الصلبة الخالية من الميوعة، لقد تفتحت فينا روح جديدة وسط الضجيج العظيم والذنبيل للمعارك، انطلاقة النهوض الوطني تتطلب ذلك الآن، الذرى الشامخة الموعودة لمجدنا. إننا نطالب بالإلهام العظيم للشعر الملحمي. وها إنني الآن أعبر عن ترحيبي الحار بأن يتشكل في هذا المشفى الذي أشرف عليه، وتحت أبصارنا وعلى نحو لا ينسى هذا التعاون الخلاق والسامي بين الشاعر وبين واحد من أبطالنا!».»

برانليدور، شريكي في الغرفة، والذي كانت مخيلته، في ذلك الطرف أبطاً من مخيلتي، ولم يظهر كذلك في الصورة التي التقطت لنا. شعر بحسد قوي ومرير. وجعل ينازعني بقسوة متناهية على وسام البطولة. كان يبتدع حكايات جديدة، حتى أفرط في ذلك أيما إفراط، ولم يعد بوسع أحد إيقافه، كانت انفجاراته قد بلغت حد الهذيان.

كان يصعب علي أن أبزه في هذا، أو أضيف شيئاً على مثل تلك المبالغات، ومع ذلك لم يستسلم أحد في المشفى، فقد راح كل واحد من بيننا، تحت ضغط المنافسة يختلق بنحو يفوق غيره، «صفحات حربية ناصعة»، يبرز فيها نفسه بنحو من الرفعة والسمو.. كنا نعيش رواية عظيمة من المآثر، داخل جلود شخصيات خيالية خارقة. وفي أعماق هذه الشخصيات الهزلية كنا نرتعد بكل لحمننا وعظمتنا.. كان لعابنا سيسيل لو فوجئنا بالحقيقة.. كانت الحرب في ذروة نضجها..

كان بيستومينا العظيم يتلقى أيضاً زيارات من العديد من الشخصيات الأجنبية البارزة. رجال علم، أشخاص حياديون أو متشككون أو فضوليون، كان الجنرالات من مفتشي الوزارة يمرون متقلبين سيوفهم، متأنقين داخل صالاتنا، حياتهم العسكرية، تُمدد حيناً بعد حين، وتتجدد، منتفخة بالمكافآت والتعويضات الجديدة، لم يكونوا قط يبخلون بالأوسمة وعبارات التفريط، كل شيء كان في أحسن حال، وغدا بيستومب ومرضاه الرائعون شرف الدوائر الصحية.

راعتي الحسنة في «الشعر الفرنسي» عادت إلي بعد وقت قصير مرة أخرى، لزيارتي، بوجه خاص، بينما كان شاعرها المقرب قد نظم قصة مآثري شعراً. التقيت هذا الشاب، أخيراً، في عطفة أحد الممرات كان شاحباً قلقاً. كانت أوتار قلبه من الهشاشة. كما أسرّ لي، وكما أخبره الأطباء، بحيث كان ينبض بمعجزة، وبسبب قلق هؤلاء الأطباء على الكائنات الهشة، أبقوه بعيداً عن السلاح، وكتعويض عن ذلك، بادر هذا الشاعر الغنائي الصغير، مجازفاً بصحته ذاتها وبجميع قواه الروحية السامية إلى نظم القصائد الوطنية، وقد نظم لنا «الفولاذ المعنوي لانتصارنا»، قصيدة رائعة لا تنسى، دون ريب، مثل بقية أشعاره.

لم أكن لأتذمر من الموقف الذي وضعت فيه، ما دام الشاعر قد اختارني من بين عدد من الشجعان الآخرين الذين لا يمكن إنكار شجاعتهم، لكي أغدو بطله. كنت بالإضافة إلى ذلك أعامل كملك. كان هذا رائعاً، والحق يقال: وفي مسرح الكوميدي فرانسيز بالذات جرى الاحتفال الشعري، خلال ما بعد ظهيرة سميت ما بعد ظهيرة شعرية، ودعي إلى الاحتفال جميع من في المستشفى. ولما أن ظهرت شقراي على خشبة المسرح، لتتشد مرتعشة، بحركة باذخة، وبقدّ مشيق، يميم بين طيات ثوب متعدد الألوان، غدا شهوانياً

في النهاية كان ظهورها إشارة داخل الصالة لهتاف من تلك الهتافات المدوية التي لا تتوقف، تطلقه حناجر جميع الحضور وهم وقوف متهللون. كنت متهيئاً لهذا الموقف بالتأكيد، ولكن دهشتي مع ذلك بلغت قصارها، لم أستطع أن أخفي ذهولي عن حولي وأنا أسمع تلك الصديقة الجميلة ترتج متحمسة بتلك الصورة الأخاذة، وتطلق كذلك أنا لتجعل الدراما الميثوثة في الحكاية التي ابتدعتها لها مؤثرة في النفوس. كان شاعرها من دون ريب قد خلع عليّ صفات من وحي الخيال، ومجد أيضاً، بمغلاة شديدة، مستعيناً بقواف رنانة متموجة، ما لدي من خصال على نحو احتفالي، وسط صمت مهيب مفعم بالإعجاب، وحين بلغت الفنانة ذروة الإلهام الأشد حرارة في القصيدة وجهت وجهها صوب المقصورة التي كنا نجلس فيها أنا وبرانليدور وبعض الجرحى الآخرين، ومدت ذراعيها الرائعين لتقدم نفسها كما بدا ذلك إلى أكثرنا بطولة. كان الشاعر. يصور بورع شديد، في تلك اللحظة ملمحاً خيالياً من ملامح البسالة التي نسبتها إلى نفسي، ثم لم أعد أدرك بوضوح ما الذي جرى بعد ذلك، لم يخفق الشاعر في تصويره لحسن الحظ، فما من شيء من صور البطولة كان بعيداً عن التصديق وقد أدرك الجمهور التصوير الفني، والتفتت القاعة بأسرها نحونا في تلك اللحظة، وماجت بهتاف مدوّ من الفرح، مهتاجة، مترنحة، مطالبة بالبطل.

كان برانليدور يحتكر مقدمة المقصورة بكاملها ويتخطانا جميعاً. بحيث كان بوسعه أن يحجبنا خلفه كلياً تقريباً بضماداته، وقد فعل الوغد ذلك متعمداً. غير أن اثنين من رفاقنا، تسلفا الكراسي خلفه، وحظيا مع ذلك بالإعجاب من فوق أكتاف برانليدور ورأسه، وصفق لهما الجمهور تصفيقاً حاداً.

«ولكنني كنت أنا المقصود، كدت أصرخ في تلك اللحظة، أنا وحدي»
كنت أعرف برانليدوري هذا، ربما كان سيتلقى الشتائم أمام الجميع، وربما سيضرب، ولكنه هو الذي حظي في النهاية بالطبق كله. لقد فرض نفسه، ظافراً، وظل وحيداً مثلما كان يرغب، يتلقى الإعجاب والاحترام بلا حدود. أما نحن المهزومين فلم يبق لنا إلا أن نندفع مسرعين نحو الكواليس، مما أتاح لنا لحسن الحظ، بعضاً من الحفاوة والترحيب، ومنحنا شيئاً من العزاء، لم تكن فنانتنا وملهمتنا في تلك الأثناء وحيدة في مقصورتها، كان يقف إلى جانبها الشاعر، شاعرها، شاعرنا. كان يحب أيضاً، مثلها، الجنود الصغار. بكل رقة، وقد عبرا لي عن حبهما بقوة، وكررا ذلك، ولكنني لم أكن أنتبه على الإطلاق لإشارتهما اللطيفة. وأسفاه، إنها غلطتي، لأن أموري كانت ستسوى بصورة أفضل، فقد كانا يتمتعان بكثير من النفوذ. استأذنت بالانصراف فجأة. مغتاضاً بنحو أحمق. كنت شاباً.

خلاصة الأمر، لقد سلب الطيارون مني "لولا".. وسلب الأرجنتينيون مني "ميزين"، واختطففت مني أخيراً هذه الهارمونيا الشعرية.. غادرت المسرح. مبلبلاً، فيما كانت تنطفئ المصابيح الأخيرة في المعابر، واتجهت وحيداً تحت رداء الليل، دون ترامواي، نحو مشفانا، المصيدة المنضوبة في أعماق الوحول العنيدة، والضواحي العصية.



« علي أن أقر، دون تفاخر، بأن رأسي لم يكن صلباً بما فيه الكفاية، غير أنني الآن، وبلا سبب وجيه، انتابتي حالات أشبه بالسكر والدوار. كنت أترنح وسط معمعان الحرب. لم أكن أعتمد، بصدد النقود، خلال إقامتي في المشفى، سوى على بعض الفرنكات التي كانت أمي تعطيها لي كل أسبوع بصعوبة بالغة، ثم بدأت، ما أن أتيح لي ذلك في البحث عن مصادر إضافية زهيدة، من هنا وهناك، حيثما كان بإمكانني تحيّن ذلك. وقد بدا لي أحد أرباب عملي القديمين ملائماً في هذا الصعيد، وقمت بزيارته على الفور.

تذكرت في اللحظة المناسبة بأنني كنت قد اشتغلت فترة مظلمة من الزمن لدى روجر بوتّا الصائغ، في شارع مادلين، كموظف إضافي، قبيل إعلان الحرب، كان عملي لدى هذا الصائغ الكريه يتألف من تنظيف فضيات المخزن العديدة، المتنوعة، خلال الأعياد التي يكثر فيها الطلب على الهدايا. بسبب التقليل المتواصل للقطع الفضية، وصيانتها الصعبة.

حينما كانت تغلق أبواب الكلية، التي كنت أتابع فيها دراساتي العسيرة واللامتناهية (لأنني كنت أفضل في امتحاناتها) كنت ألتحق، على جناح السرعة بخلفية مخزن السيد بوتّا، وأنكب طوال ساعتين أو ثلاث على غلايات الشوكولا «من الفضة الإسبانية» إلى أن يحين موعد الغداء.

بخصوص أجرة عملي، كنت أتناول طعامي في المطبخ بوفرة. وكان عملي يتألف أيضاً، من جهة أخرى، وقبل بدء المحاضرات في الكلية من اصطحاب كلاب حراسة المخزن إلى النزهة والتبول، وكل ذلك لقاء أربعين

فرنكاً في الشهر. كان مخزن فضيات بوتا المرصعة بألف ماسة يقع عند زاوية شارع فينيون، وكل ماسة منها تعادل قيمتها عشرات أضعاف راتبي، كانت تلك الحلبي تتألق هناك باستمرار.. حينما جرى فرز المعلم بوتا خلال التعبئة إلى إحدى الفرق المساعدة. انخرط في خدمة أحد الوزراء، بوجه خاص، حيث كان يقود سيارته من وقت إلى آخر، ومن ناحية ثانية، وبطريقة شبه رسمية تماماً هذه المرة غدا بوتا من بين أكثر الأشخاص نفعاً، بتزويده موظفي الوزارة بالمجوهرات.. كان الموظفون الكبار يضاربون بقوة لحسن حظه، على الصفقات المبرمة، والصفقات التي كانت ستبرم فيما بعد.. وكما تقدمت الحرب، كلما اشتد الطلب على الحلبي، حتى أن السيد بوتا كان يجد عنثاً في بعض الأحيان. وهو يواجه الطلبات التي كان يتلقاها بكثرة.

حين كان السيد بوتا يشعر بالإنهاك الشديد كانت ملامحه تشي ببعض الذكاء، بسبب الإرهاق الذي يكابده. و فقط في تلك اللحظات. أما حين كان يرتاح فإن وجهه، على الرغم من النعومة البادية بوضوح على محياه كان يشكل هارمونيًا من البلادة الهادئة والمسالمة التي كان من الصعب على من يراه أن لا يحتفظ دائماً بذكرى مزعجة عنها.

زوجته السيدة بوتا، لم تكن تفعل شيئاً سوى الاهتمام بصندوق المنزل الذي لم تكن تفارقه قط تقريباً. لقد رببت منذ صغرها كي تغدو زوجة لتاجر مجوهرات، كان ذلك طموح والديها. كانت تعرف واجبها حق المعرفة، كان الزوجان سعيدين في الوقت الذي كان فيه الصندوق مزدهراً. لم تكن مدام بوتا قبيحة على الإطلاق، كان بوسعها حتى أن تكون جميلة للغاية، مثل الكثير من الأخريات، كانت فقط حذرة جداً، ومتشككة جداً، بحيث توقفت على تخوم الجمال، مثلما على تخوم الحياة. بشعرها المسرّح بما يكفي، وبسمتها السهلة

والمفاجئة بما يكفي، وحركاتها السريعة المتكئة بما يكفي. حتى ليجد المرء عنناً في اكتناه ما يضمه هذا المخلوق من حسابات داخلية، وفي معرفة أسباب الكدر الذي يساوره على الرغم من كل شيء، لدى الاقتراب منه. كان ذلك النفور الغريزي الذي يوحيه التجار لأولئك الذين يقتربون منهم هو أحد أكثر العزائم ندره، والتي يشعر بها أولئك الذين لا يبيعون شيئاً لأحد. كانت الهموم الضيقة للتجارة إذن تمتلك السيدة بوتنا تملكاً كلياً تماماً، مثل مدام هيروت، ولكن من نوع آخر، مثلما يمتلك الله عباده المؤمنين، جسداً وروحاً.

من وقت إلى آخر، مع ذلك، كان يساور معلمتنا قلق يسير ناتج عن الظرف المحيط. على هذا النحو، كان يتفق لها أن تستسلم للتفكير في الآباء أثناء الحرب «أية تعاسة تجلبها هذه الحرب مع ذلك للأشخاص الذين لهم أبناء كبار»!.

– فكري إذن قبل أن تتكلمي!! كان يوبخها على الفور زوجها الذي كان متأهلاً وموطداً وعزمه على مواجهة هذه الحساسيات من زوجته، أليس من الواجب حماية فرنسا والدفاع عنها؟».

هكذا كانت القلوب الطيبة، والوطنيون الطيبون قبل كل شيء، رابطي الجأش، ينامون كل مساء من أماسي الحرب فوق ملايين مخزنهم، الثروة الفرنسية

في المواخير التي كان يتردد إليها السيد بوتنا، من وقت إلى آخر، كان يبدو متطلباً وراغباً في أن لا ينظر إليه على أنه سخي متلاف للمال: «أنا لست إنكليزياً، يا جميلتي، يستدرك منذ البداية، أنا أعرف العمل، لست سوى جندي فرنسي غير متعجل» هذا ما كان يصرح به مسبقاً. كانت النساء يقدرنه

كثيراً لهذه الطريقة المتعقّلة في اجتناء متعته، كان طلاباً للمتعة ولكنه ليس غراً، إنه رجل وحسب! كان يستفيد مما يعرفه عن عالمه كي يعقد بضع صفقات لبيع الحلبي مع المعلمة المشرفة على الماخور التي لم تكن تؤمن بإيداع المال في البورصة. كان السيد بوتنا يتقدم بطريقة مذهشة على الصعيد العسكري، ولكنه سرعان ما تحرر كلياً بعد عدد من الزيارات الطبية جاءت في الوقت المناسب، كان يعتبر الاستغراق في التأمل وملامسة ربلات السيقان الرخصة الناعمة إحدى أرفع متعه في الوجود. كانت تلك على كل حال لذة تخطى بها زوجته. التي نذرت نفسها للتجارة وحسب، أما بصدد السمات المشتركة بينهما، فكان ثمة على الدوام، كما يبدو، شعور بالقلق لدى الرجل أكثر مما لدى زوجته، ... كان بوتنا شخصاً محدوداً جداً، متعناً غاية التعفن، بدأ حياته بداية فنية متواضعة إجمالاً، والكثير من الرجال الذين يتصلون بالفن، يمتلكهم على الدوام على غرار بوتنا، هوس الربلات الجميلة الناعمة.. كانت السيدة بوتنا سعيدة جداً لأنها لم ترزق بأبناء، وكانت غالباً ما تبدي رضاها لكونها عاقراً، ولأن زوجها قد انتهى، بدوره، إلى نقل شعورها بالاكْتفاء والرضى إلى معلمة الماخور. «ينبغي مع ذلك أن ينعم أطفال أحد بالرعاية، كانت المعلمة تجيب بدورها، ما دام ذلك واجباً» من الصحيح أن الحرب تتضمن الكثير من الواجبات!

لم يكن للوزير الذي كان بوتنا يعمل لديه سائناً أطفالاً أيضاً، فالوزراء ليس لهم أطفال.

ثمة مستخدم آخر إضافي كان يعمل في الوقت ذاته، مثلي في أعمال المخزن الصغيرة عام ١٩١٣، كان يدعى جان فواروز، وهو «ممثل ثانوي» يعمل خلال المساء في المسارح الصغيرة، وبعد الظهر مسلماً للبضائع لدى

بوتا. كان يكتفي هو أيضاً بالحدود الدنيا للأجور، ولكنه كان يتدبر أمره بتوفير أجرة المترو. كان يذهب على رجليه بسرعة المترو ذاتها لتسليم البضائع للشارين، ويضع ثمن البطاقة في جيبه، يا لها من مدخرات إضافية. كانت قدماه تفوحان برائحة العرق، هذا صحيح، ولكنه لم يكن يجهل ذلك، كان يطلب مني أن أخطره حينما يكون المخزن خالياً من الزبائن كي يكون بوسعه الدخول إلى السيدة بوتا دون إضاعة للوقت، وتسوية حساباته المالية معها بهدوء، وما أن تودع النقود في الصندوق حتى ترسله السيدة بوتا على الفور كي يلتحق بي في خلفية المخزن. وقد أفادته قدماه أيضاً فائدة عظيمة خلال الحرب. فقد عرف في فوجه على أنه أسرع جندي ارتباط. جاء لزيارتي، خلال نقاهتي في مصح فورو دي بيسيتر. وفي تلك الزيارة ذاتها قررنا الذهاب معاً لقرع باب معلمنا القديم. ثم أتبعنا القول بالفعل. وفي اللحظة التي بلغنا فيها شارع مادلين كانوا قد انتهوا من عرض البضاعة...

«عجباً! آه! ها أنتم هنا، دهش السيد بوتا قليلاً لرؤيتنا. أنا مسرور جداً. مع ذلك، ادخلا، أنت يا فواروز تبدو بصحة جيدة! هذا جيد، ولكن أنت، باردامو، تبدو مريضاً يا فتاي، على كل حال أنت شاب، وستتعافى بسرعة، أنتما محظوظان، رغم كل شيء، أنتما! يمكنكما أن تقولاً ما تريدان، أنتما تعيشان ساعات رائعة أليس كذلك؟ هناك في الجبهة؟ هذا من التاريخ يا صديقي! وياله من تاريخ».

لم نجب بشيء على السيد بوتا... تركناه يقول كل ما كان يريد قوله قبل أن نطلب منه أي شيء... وإذن، فقد تابع.

«آه، إنها قاسية، أنا مقتنع بذلك، الخنادق!... هذا صحيح ولكن الوضع هنا بالغ القسوة أيضاً. أنتم تعلمون... لقد أصبتما بجراح، أليس كذلك؟ وأنا!

أنا منهك جداً. عملت في الخدمة الليلية داخل المدينة منذ سنتين: أنتم تدركون ذلك؟ تصوروا إذن! لقد أنهكت فعلاً، فطست! آه، شوارع باريس خلال الليل! من دون أضواء، يا صديقي الصغيرين، وأنا أقود فيها سيارة، وغالباً برفقة الوزير، وبسرعة أيضاً، لا يمكنكما أن تتصورا! ذلك أشبه بالانتحار، عشر مرات في ليلة واحدة.

— نعم، أكدت السيد بوتا، وأحياناً يوصل زوجة الوزير أيضاً...

— آه، نعم. وهذا لا ينتهي...

— شيء فظيع، رددنا نحن معاً.

— والكلاب؟ سأل فواروز كي يكون مهذباً. ماذا فعلتم بها؟ هل ما

تزالون تنزهونها في التويللري؟

— أمرت بقتلها. كانت تؤذيني، لقد ألحقت ضرراً بالغاً بالمخزن...

كلاب ألمانية.

— هذا مخزن! تأسفت زوجته، ولكن الكلاب الجديدة التي لدينا الآن

لطيفة فعلاً، إنها كلاب اسكتلندية... ولكنها ترسل بعض الرائحة... في حين

أن كلابنا الألمانية... هل تذكر يا فواروز؟ لم تكن تصدر على الإطلاق أية

رائحة.... كان من الممكن إبقاؤها حبيسة في المخزن، وحتى بعد هطول

المطر...

— آه، نعم! أضاف السيد بوتا، ليست مثل هذا الوغد فواروز برائحة

قدميه، هل ما تزال قدمك ترسلان رائحة يا جان؟ أيها الفتى فواروز.

— أعتقد أنها ما تزال تفوح قليلاً أجاب فواروز، وفي تلك اللحظة دخل

بعض الزبائن.

«لن أحتجزكم، يا صديقي، قال لنا السيد بوتّا، كان حريصاً على إقصائنا من المخزن بأسرع وقت... أتمنى لكم صحة جيدة على الأخص، ولكني لم أسألكم من أين جئتم؟ إيه لا، الدفاع الوطني قبل كل شيء. هذا هو رأيي.

عند هذه الكلمات حول الدفاع الوطني كان بوتّا بالغ الرصانة، مثمّا حين كان يسلمّ النقود... هكذا صرفنا بوتّا وزوجته من المخزن، وفيما نحن ذاهبان أعطت السيدة بوتّا عشرين فرنكاً لكل منا. كان المخزن نظيفاً ومتلائماً مثل يخت.. لم نعد نجرؤ على إعادة اجتيازه، لأنّ أحذيتنا كانت تبدو فظيعة فوق طرف السجادة.

«آه، انظر إليهما إذن يا روجيه، إليهما كليهما، كم هما مضحكان... لم يعودا معتادين... كأنهما يمشيان فوق شيء ما. هتفت السيدة بوتّا.

— «سيذكركم ذلك» رد السيد بوتّا، حاراً وطيباً، ومسروراً جداً لتخلصه منا بمثل هذه السرعة، وبكلفة قليلة جداً.

ما إن غدونا في الشارع، حتى فكرنا بأننا لن نذهب بعيداً جداً بفرنكاتنا العشرين لكل منا، ولكن فواروز كان لديه فكرة إضافية.

«تعال معي»، قال لي فواروز! إلى بيت والدة رفيق لي، قتل حينما كان في الموز. لقد ذهبت طيلة ثمانية أيام إلى بيت والديه كي أروي لهما كيف مات ابنهما. إنهم أناس أغنياء، وقد أعطتني أمه، مئة فرنك في كل مرة... هذا يسعدهم كما يقولون... أنت تفهم إذن...

— ما الذي سأفعله أنا عندهم، ما الذي سأقوله لأمه؟

— إيه، حسناً، ستقول لها بأنك رأيتها، أنت أيضاً، ستعطيك مئة فرنك

أيضاً. إنهم أغنياء فعلاً، أقول لك، وهم ليسوا مثل هذا اللفظ بوتّا.

— أريد ذلك فعلاً... ولكن هل أنت متأكد بأنها لن تسألني عن التفاصيل، لأنني لا أعرف شيئاً عن ابنهم. سأرتبك إذا ما سألتني عنه.

— لا، لا، هذا ليس مهماً البتة، ستقول لها مثلما أقول أنا تماماً. سوف تفعل ... نعم، نعم... لا تقلق... إنها حزينة، أنت تفهم، هذه المرأة. وحينما يحدثها أحد عن ابنها، فإنها تفرح.. إنها لا تطلب شيئاً سوى هذا... أي كلام... ليس هذا معجزة...».

كان من الصعب علي أن أقرر.. ولكنني كنت راغباً بشدة بالمئة فرنك التي بدا من السهل، بنحو استثنائي الحصول عليها، والتي كأنها هبة من السماء.

— حسناً، قررت الذهاب أخيراً... ولكن ينبغي إذن.. أن لا أخلق شيئاً، أنا أحذرك: هل تعديني. سأقول مثلما تقول أنت، هذا كل شيء... كيف مات الفتى أولاً؟

— لقد انفجرت قنبلة في وجهه تماماً، يا عزيزي! ثم لم يعد الصغير غارانس موجوداً، هكذا كان يسمى، قُتل في منطقة الموز، على شاطئ النهر... لم يعثروا على «أثر» للفتى، يا عزيزي، لم يبق منه سوى ذكرى، ومع ذلك، أنت تعلم، كان الفتى كبيراً، وقوياً جداً ورياضياً ولكن أمام قنبلة. ماذا؟ ليس ثمة مقاومة!

— هذا صحيح

— لقد تلاشى من الوجود دون أثر، أقول لك... ما يزال عسيراً على أمه أن تصدق ذلك، منذ موته وحتى الآن... قلت لها ذلك، وأعدت قوله مرات ومرات. إنها تريد فقط أن يكون قد اختفى، أية فكرة حمقاء، القول بأنه اختفى: ليست هذه غلطتها، إنها لم تر قط قنبلة، ليس بمقدورها أن تفهم بأنه طار في الفضاء، هكذا، مثل ضربة، ومن ثم فقد انتهى إلى الأبد، خاصة أنه ابنها.

— هذا مؤكد.

— أولاً، أنا لم أذهب إلى بيتهم منذ خمسة عشر يوماً، ولكنك سوف ترى حين أصل إليهم، تستقبلني الأم، على الفور في الصالون ومن ثم، أنت تعلم، كم هو جميل منزلهم! حتى لنقول بأنه مسرح، لكثرة ما فيه من ستائر، وبسط وزجاج في كل مكان... مئة فرنك، أنت تفهم: إنها ليست شيئاً بالتأكيد، بالنسبة إليهم... مثل مئة قرش بالنسبة إلي تقريباً... ولكنها ستعطينا اليوم مائتي فرنك. فهي لم ترني منذ خمسة عشر يوماً. سوف تشاهد الخدم بأزراهم المذهبة يا صديقي...»

عند جادة هنري مارتان، انعطفنا إلى اليسار، ثم تقدمنا قليلاً أيضاً، حتى وصلنا أخيراً أمام سور صغير مشبك يفتح على ممر صغير خاص محفوف بالأشجار.

«أنت ترى. علق فواروز، حينما كنا أمام السور تماماً. إنه نوع من قصر.. قلت لك ذلك... الأب موظف كبير متفد في السكك الحديدية، مثلما قيل لي، إنه من رجال السلطة...»

— أليس ناظر محطة؟ قلت ذلك على سبيل المزاح.

— لا تمزح... ها هو ذا ينزل، إنه قادم نحونا..»

ولكن الرجل المتقدم في السن الذي أشار إليه فواروز لم يأت إلينا حالاً كان يتمشى محني الظهر حول مرجة العشب، متحدثاً مع جندي. اقتربنا قليلاً، وتعرفت حينئذ على الجندي. لقد كان الجندي الاحتياطي ذاته الذي التقيت به ليلة نوارسور سير لا ليس، حينما كنت أقوم باستطلاع المدينة. وتذكرت أيضاً على الفور اسمه الذي ذكره لي حينذاك: « روبنسون... » .
«هل تعرف جندي المشاة ذاك؟» سألني فواروز:

— نعم أعرفه.

— يمكن أن يكون صديقاً لهم. لا بد أنهما يتكلمان عن الأم، لا أريد أن

يحوّلا دون ذهابنا إليها ورؤيتها لأنها بالأحرى هي التي تعطيني النقود...»

اقترب منا السيد العجوز، كان يتكلم وهو يرتعد.

«يا صديقي العزيز. قال لفواروز. يؤلمني جداً أن أخبرك بأن زوجتي

البائسة. بعد زيارتك الأخيرة، ناعتت تحت وطأة حزننا العظيم وفارقت

الحياة... يوم الخميس تركناها وحدها، لحظة، بعد أن طلبت منا ذلك... كانت

تبكي...»

لم يستطع أن ينهي جملته. استدار فجأة وغادرنا،

«أنا أعرفك جيداً»، قلت حينئذ لروبنسون، بعد أن ابتعد السيد العجوز

مسافة كافية عنا

— وأنا أيضاً أعرفك

— ما الذي حدث للمرأة العجوز؟ سألته حينئذ

— إيه، حسناً، لقد شنقت نفسها، قبل البارحة، هذا كل شيء، أجبني

روبنسون «ماذا أقول؟! تصور إذن، أضاف روبنسون... أنا الذي كانت لي

مثل إشبينه! إنه حظي المنكود، ماذا أقول؟! إنه حظي! لقد جئت إلى هنا لأول

مرة في إجازة! منذ عشرة أشهر وأنا أنتظر هذا اليوم...»

لم نستطع أن نمنع أنفسنا، أنا وفواروز من المزاح بسبب سوء الطالع

الذي أصاب روبنسون.. كانت تلك مفاجأة قاسية بالنسبة لنا، ليس لأن العجوز

كانت ميتة، ولكن فقط لأننا لم نحصل على المائتي فرنك، نحن اللذين كنا على

وشك نسج أكلوبة جديدة تناسب الطرف، وفجأة لم نعد مسرورين، لا نحن ولا

الآخرون.

«كنت تفاق، هيه! أيها الوغد الكبير؟ شرعت في مناكدة روبنسون، على سبيل المزاح، من أجل إثارتة «هل كنت تعتقد بأنك ستتناول وليمة فاخرة مع العجوزين؟ لعلك كنت تعتقد أيضاً بأنك كنت ستروي حكايات للإشبيبة؟ لقد اكتفيت! هيا!..»

لما لم يكن بإمكاننا البقاء هناك للتفرج على مرجة العشب ونحن نتضحك، فقد خرجنا نحن الثلاثة معاً من منطقة غرينيل، حسبنا نقودنا مجتمعة، لم تكن بالكثيرة. ولما كان علينا العودة في المساء ذاته إلى مستشفياتنا وسجوننا الخاصة، فقد كان معنا من النقود ما يكفي لوجبة عشاء لنا نحن الثلاثة، في حانة صغيرة، وربما بقي لدينا أيضاً شيء صغير من أجل قضاء وطرنا، غير أننا ذهبنا مع ذلك إلى بيت من بيوت المتعة ولكن من أجل تناول كأس فقط. وفي الطابق السفلي.

— «إنني سعيد برويتك ثانية، قال لي روبنسون، ولكن أم الفتى، صدقني! كانت رزمة من المال. وحين أفكر بها من جديد، وبأنها ستسئق نفسها في اليوم الذي أصل فيه، ماذا أقول إذن. كنت أحتفظ بها لهذا اليوم! هل أشنق نفسي، قل؟ من الحزن؟ سأمضي وقتي، وأنا أشنق نفسي إذن.. وأنت؟

— الناس الأغنياء، رد فواروز، أكثر حساسية من الآخرين... كان فواروز طيب القلب، أضاف أيضاً: «لو كنت أملك ستة فرنكات، لصعدت مع السمراء الصغيرة التي تراها هناك، بالقرب من آلة القروش.

— اذهب، قلنا له حينئذ، وستحكي لنا إن كانت تُمتع جيداً...».

ولكننا كنا نبحث عبثاً، لم يكن معنا ما يكفي مع النقود، كي نتمكن من أخذ الفتاة السمراء، كان معنا فقط ثمن فنان من القهوة لكل منا، مع حبتي مشمس، وحالما تجرنا قهوتنا، رحلنا على عجل، ورحنا نتسكع.

في ساحة الفاندوم غادرنا بعضنا، كل منا ذهب بسبيله. لم نعد ننظر إلى بعضنا ونحن نفترق. كنا نتكلم همساً لفرط ما كان هناك من أصداء، لم يكن ثمة ضوء، كان ذلك محظوراً.

أما جان فوازوز، فلم أراه بعد ذلك قط، وأما روبنسون فقد التقيته كثيراً فيما بعد. منابع الغاز، في منطقة السوم هي التي استحوذت على جان فوازوز، ثم انتهى به الأمر على شاطئ البحر في بريتانبيه، ومن أحد مصحات البحرية، كتب لي بعد سنتين مرتين، ثم لا شيء على الإطلاق: «ليس لديك فكرة كم هو جميل البحر، كتب لي، أنا أستحم فيه قليلاً. إنه مفيد لقدمي، ولكنني فقدت صوتي. كان ذلك يضايقه كثيراً، فقد كان طموحه في الحقيقة، أن يتمكن من العودة إلى جوقة المرثلين في المسرح. كان العمل في الجوقة أفضل أجراً، وأرقى فنياً من مجرد التمثيل. الصامت.



« رجال السلطة كفوا، أخيراً، عن الاهتمام بي، واستطعت أن أنجو بأحشائي، ولكني دمغت على جبيني بدمغة إلى الأبد، لا مرأى في ذلك: انصرف: أنت لم تعد تنفع لشيء!

«إلى أفريقيا، قلت لهم! كلما سيكون أبعد كلما سيكون أفضل!» كان المركب مثل غيره من المراكب التابعة لشركة كوارسير المتحدة، ذلك الذي أبحر بي نحو البلاد المدارية، محملاً بالأقمشة القطنية والضباط والموظفين كان قديماً جداً، عفت عليه السنون، وقد اقتلعوا لوحته النحاسية من فوق جسره الأعلى، والتي كان مكتوباً عليها فيما مضى عام ميلاده.. كان ميلاده يرقى إلى زمن موغل في البعد، بحيث كان يثير لدى المسافرين الخوف، والمزاح أيضاً.

أركبوني فوقه إذن، كي أحاول ترميم نفسي في المستعمرات. كان أولئك الذين يريدون لي الخير حريصين على أن أكون ثروة هناك. أما أنا فلم أكن أرغب إلا في الذهاب. ولكن بما أنه ينبغي على المرء أن يبدو نافعاً إن لم يكن غنياً، وبما أنني من جهة أخرى لم أكمل دراساتي في الجامعة، فإن سفري لا يمكن أن يستمر، ولم يكن لدي ما يكفي من المال أيضاً من أجل الذهاب إلى أمريكا.

«اذهب إلى أفريقيا» قلت لنفسي إذن، واستسلمت لنزوة الاندفاع نحو البلدان المدارية، حيث يكفي، مثلما أكدوا لي، بعض الزهد والسلوك القويم كي يصنع الإنسان لنفسه على الفور وضعاً طيباً.

تلك النبوءات جعلت مني حالماً! لم أكن أملك الكثير من الأشياء، ولكن كان لدي بالتأكيد شيء من حسن التدبير، يمكنني قول ذلك، وهيئة متواضعة، وعريكة لينة، وخوف دائم من أن لا أصل في الوقت المناسب، وقلق من أنني لن أسبق أبداً أي شخص في الحياة، وبعض الرقة أخيراً.

حين يستطيع المرء الإفلات حياً من مجزرة عالمية مجنونة، فثلك رغم كل شيء، شهادة على الحصافة والفتنة، ولكن لنعد إلى تلك الرحلة. حينما كنا ما نزال في المياه الأوروبية لم يكن يعكر صفونا شيء. كان المسافرون يتعفنون تحت ظلال جسري القارب، وفي المراحيض وفي غرفة التدخين على هيئة مجموعات صغيرة، مرتابة، خنآء، غائصين في مستنقع النائم والقيـل والقال. من الصباح وحتى المساء، يتجشؤون، ويهـومون، ويزعقون الفينة بعد الفينة. دون أن يبدو عليهم قط أي شعور بالأسف على أوروبا.

كان سفينتنا تسمى: الأميرال براغتون.. وهي لم تكن تتماسك فوق المياه الفاترة إلا بفضل دهان جدرانها. طبقات تراكمت فوق طبقات من قشور الدهان، شكلت في النهاية ما يشبه هيكلأ ثانياً للأميرال براغتون، على غرار بصلة. كنا نندفع صوب أفريقيا. الحقيقية، الكبرى. أفريقيا الغابات التي لا يسبر غورها، والأبخرة الوبيـلة المهلكة، والعزلة العصية على الانتهاك، صوب الزوج الطغاة المتمرغين عند تقاطع الأنهار التي لا تنتهي قط. والذين كنت سأبادلهم علبة من شفرات «بيليت» بقطع كبيرة من العاج الثمين، صوب الطيور المتوهجة الريش والعبيد، من الأطفال القاصرين.. تلك كانت أفريقيا الموعودة، أفريقيا الحياة الرغيدة، ولكن ما من جامع يجمعها بأفريقيا التي قشرت أرضها الوكالات التجارية وصروح الأبنية الشاهقة، وخطوط السكك الحديدية، وحلوى النوغا.

آه! لا! لقد كنا على وشك أن نرى أفريقيا الحقيقية، غارقة في عصيرها! نحن المسافرين السكارى على ظهر الأميرال براغتون.
ولكن، ما إن اجتزنا شواطئ البرتغال حتى تعكرت الأحوال واضطربت. فلدى استيقاظنا ذات صباح وجدنا أنفسنا على نحو لا يقاوم محاطين بجو متعرق، ساخن للغاية، ومثير للقلق. الماء في الكؤوس، البحر، الفضاء، الثياب، عرق الأجساد، كل ذلك فاتر، حار، ومنذ الآن، سواء في الليل، أو في النهار غدا من المستحيل أن نقع على نفحة من البرودة الندية، تحت أيدينا، وخلف ظهورنا، وفي حلقنا، باستثناء الثلج في البار مع أقذاح الويسكي. حينذاك، داهم يأس فظيع ركاب الأميرال براغتون الذين حكم عليهم بأن لا يبتعدوا عن البار قيد أنملة منجذبين، مقيدين إلى مراوح التهوية. ملتحمين بقطع الثلج، يتبادلون التهديدات عقب ألعاب الورق، وعبارات الأسف بإقاعات مشوشة ومتنافرة.

استمر الحال على هذا المنوال دون تغيير، وداخل هذه الاستمرارية المؤسفة للحرارة شرع المحتوى البشري للسفينة يتخثر داخل مستنقع هائل من الثمل الدائم، كنا نتحرك برخاوة بين الجسور، على غرار أخطبوطات في قاع حوض ماء مسيخ الطعم واللون. ومنذ هذه اللحظة تبدت للعيان على سطح جلودنا الطبيعة المقلقة للبيض، مستثارة مفلتة الزمام، وقحة للغاية، طبيعة البيض الحقيقية، تماماً مثلما تبدت في الحرب! فرن حراري مداري يحيط بحشرات، كالعلاجيم والأفاعي، والتي ما تلبث أن تزدهر أخيراً في شهر آب على حواف الشقوق في جدران السجون. وسط برد أوروبا، وفي ظل الاكفهار المحتشم للشمال لا يفعل البيض شيئاً خارج المذابح سوى الارتياب بالفظاظة الزاخرة لإخوانهم من الشعوب الأخرى. ولكن عفونتهم تطغى على

السطح حين تتعشهم الحمى الوييلة للبلاد المدارية، فيكشفون حينئذ عن مواطنهم بشغف، وتكتسحهم الدناعات وتغطيهم كلياً، ذلك اعتراف بيولوجي. ما أن تخف وطأة العمل والبرد عنا، نحن البيض ويرخيان قبضتهما لحظة من الزمن.. حتى يمكن رؤية البيض على حقيقتهم. ما نكتشفه حينئذ فوق ذلك الشط البهيج، بمجرد أن يجزر البحر، وتراجع أمواجه هو الحقيقة! مستقعات أسنة تفوح بالنتانة، تعوم فيها السرطانات والجثث، والبراز .

وهكذا، فما إن ابتعدنا عن شواطئ البرتغال حتى بدأ الجميع على السفينة بإفلات العنان لغرائزهم المسعورة، يساعدهم على ذلك الكحول. وذلك الشعور أيضاً بالغنطة الداخلية بسبب حصولهم على مجانية كاملة بالسفر على السفينة، وعلى الأخص منهم العسكريون والموظفون في القوات المسلحة العاملة. فالشعور بأنهم آكلون نائمون شاربون دون أن يدفعوا شيئاً مقابل ذلك طوال أربعة أسابيع متتابعة، يحلمون فيها، كان يكفي، بحد ذاته، كي يهزوا بالادخار والتوفير؟ كنت أنا الدافع الوحيد لأجرة الرحلة، وهو ما جعلهم ينظرون إلي بالتالي، حينما عرفوا هذه الخصوصية على أنني وقح بالغ الوقاحة، وشخص لا يطاق بالكامل.

لو كان لدي أي خبرة بالأوساط الكولونيالية منذ انطلاقنا من مرسيليا، لكنت في تلك الرحلة، غير جدير بالاهتمام، خائفاً، ملتصقاً بالصفح والعطف من ضابط المشاة الاستعماري الذي كنت ألتقيه في كل مكان على ظهر السفينة. والأرفع رتبة من بين الضباط. ولعني كنت أتصاغر وأذل نفسي أيضاً من أجل مزيد من الأمن عند أقدام الموظفين الأهم عهداً. ربما كان سيتحملني حينئذ هؤلاء المسافرون العجيبون فيما بينهم. غير أن جهلي بذلك وادعائي اللاشعوري بالحق في التنفس بالقرب منهم كاد يكلفني حياتي فعلاً.

لم أكن على الإطلاق هياباً إلى حد كاف، كما أنني لم أفقد، بفضل بعض الحنكة ما تبقى لدي من حس الكرامة واحترام الذات. وإليكم كيف جرت الأمور، فبعد أن اجتزنا جزر الكناري، أخبرني خادم القمرة بأن الركاب أجمعوا على اعتباري مدعياً، لا بل وقحاً ومتعظساً. كانوا يرتابون بكوني قواداً. وفي الوقت ذاته لوطياً.. وبأنني أتعاطى الكوكايين على الأرجح، ولكن ذلك بوصفه اتهاماً ملحقاً. ثم أخذت الفكرة طريقها بحيث كان ينبغي في رأيهم أن أكون فاراً من فرنسا من تبعات بعض أشنع الجرائم وأكثرها خطراً. لم أكن مع ذلك إلا في بدايات محنتي في تلك الرحلة. لقد أطلعت حينئذ على العرف المتبع بشأن هذا التقليد، والمتمثل في عدم تقبل الركاب الذين يدفعون أجرة، أي الذين لا يتمتعون بالمجانبة العسكرية، ولا بالترتيبات البيروقراطية داخل المستعمرات الفرنسية التابعة شخصياً، كما هو معلوم إلى نبالة الحوليات الاستعمارية إلا باحتراس شديد للغاية مترافقاً بمضايقات لا تطاق.

بالنسبة إلى مدني غير معروف مثلي، لم يكن هناك على أي حال، سوى القليل من الأسباب كي يخاطر بنفسه في تلك النواحي، جاسوس، مشبوه، ثمّة ألف سبب كي ينظر الضباط إلي شزراً ببياض عيونهم، وتتنظر إلي النساء مبتسمات بطريقة قد تعارفن عليها، ثم ما لبث الخدم أنفسهم أن تشجعوا وجعلوا يتبادلون خلف ظهري، تعليقات لاذعة، لم يعد لديهم شك بأنني كنت الشخص الأكثر فظاظاً، والأثقل حضوراً، على ظهر السفينة، بل الشخص الوحيد الذي لا يطاق تقريباً. وكان هذا يعد بالويل والثبور.

كنت أجلس إلى طاولة الطعام بجوار أربعة أشخاص يعملون في دائرة بريد الغابون، كانوا مكبودين، درداً، عاملوني بألفة في بداية الرحلة، ثم لم يعودوا يوجهون إلي كلمة واحدة فيما بعد. وهذا يعني أنني قد وضعت، باتفاق

ضمني، ضمن نظام من المراقبة العامة. لم أعد أخرج من مقصورتني إلا بأقصى درجات الحيطة والحذر. كان الجو الشبيه بجو الأفران يضغط على الجلد بقسوة بالغة، تعريت من ثيابي، وأرتجت باب المقصورة بالمتراس، ولم أعد أتحرك، كنت أحاول أن أتصور أية خطة قد أعدها هؤلاء المسافرون الجهنميون للقضاء علي. لم أكن أعرف أحداً على ظهر السفينة، ومع ذلك فقد بدا أن كل واحد منهم يعرفني. كانت أوصافي بالتأكيد قد غدت محددة وفورية في أذهانهم على غرار أوصاف المجرم المشهور بعد نشرها في الصحف.

أخذت دون أن أريد ذلك، دور «المخلوق الشائن والمقزز» الضروري للنوع الإنساني، والذي يشار إليه عبر القرون، ويلهج العالم بذكره. على غرار دور الشيطان، ولكنه يظل على الدوام مختلفاً جداً، نائياً جداً، بحيث يستعصي إبراكاه، في المحصلة. على الأرض وفي الحياة، كان من الضروري من أجل عزله في النهاية، ذلك «السافل»! من أجل التحقق منه، وإمساكه أن تتوفر هذه الظروف الاستثنائية التي تمت مصادفته فيها على متن هذه السفينة.

جدل حقيقي عام وأخلاقي، راح يشيع على متن الأميرال براغتون. فـ«النجس» لن يفلت من مصيره هذه المرة، كنت أنا ذلك النجس.

هذا الحدث وحده غطى على الرحلة بأكملها، وحيداً بين هؤلاء الأعداء الطوعيين، كنت أحاول كيفما اتفق التحقق من هويتهم دون أن يلاحظوا ذلك، ولكي أتوصل إلى هذا، كنت أراقبهم، دونما عقاب، من كوة مقصورتني، في الصباح، على الأخص، فيما هم يستنشقون الهواء في الخارج مشعرين من عانتهم حتى حوажب عيونهم، ومن شرجهم حتى أطراف أقدامهم، ينضحون عرقاً تحت الشمس، متمرغين على امتداد درابزين السفينة. كان أعدائي يتجشؤون هناك والأفداح في أيديهم، موشكين على التقيؤ حولهم، وخصوصاً،

القبطان ذو العينين الجاحظتين والمحقتنيتين والذي كان كبده يعمل بكد منذ الفجر. ولدى الاستيقاظ من نومه كان يستعلم بصورة منتظمة عن أخباري من أشخاص آخرين خليي البال، ويسألهم إن كانوا لم «يقذفوا بي في الماء بعد، من فوق ظهر السفينة». «مثل بصقة». ولكي يصور الموقف كان يبصق في الوقت ذاته في البحر المزبد الأمواج، يا له من مزاح!

قلما كانت الأميرال تتقدم، كانت تجرجر نفسها بالأحرى، وهي تخر خريراً صاخباً، مترنحة من جانب إلى جانب. لم تعد رحلتنا رحلة، كانت نوعاً من المرض. كان أعضاء ذلك المحفل الصباحي، يبدون لي وأنا أفتحصهم من زاويتي منحورين بالمرض حتى نخاعهم، بردائين، كحوليين سفلسيين، نونما شك. كان انحطاط قواهم المرئي من مسافة عشرة أمتار يعزيني قليلاً. وينسيني مشاعر القلق والارتباك الشخصية.. هؤلاء المتبجحون. كانوا، على أي حال، مهزومين مثلي مع ذلك، ولكنهم كانوا يتعاضمون فحسب، هذا كل شيء، إنه الفرق الوحيد! كان البعوض قد تكفل سابقاً بأن يمتص دمائهم ويبيت داخل عروقهم تلك السموم التي لاترول منها أبداً.. ونحت السفلس شرايينهم حينما علق بهم.. والتهم الكحول أكبادهم.. وفتنت الشمس كلاهم، والتصق قمل العانة بشعرهم، والأكزيما بجلد بطونهم، وأعطب الضوء الرمادي شبكيات عيونهم. فما الذي سيبقى منهم بعد أجل ليس بالبعيد؟ متقال نرة من الدماغ!!.. وما الذي سيفعلونه بها؟ أنا أسألكم؟ إلى أين كانوا ذاهبين؟ إلى الانتحار؟ لم يكن من الممكن أن ينفعهم دماغهم، هناك حيث يذهبون، إلا للانتحار، عبثاً كل ما يقولونه. ليس مسلياً أن يشيخ المرء في بلاد ليس فيها تسليات.. حيث يكون مرغماً، علي النظر إلى نفسه في مرآة، اخضرّ قصليرها، ليرى نفسه خائراً أكثر. فأكثر، قبيحاً أكثر فأكثر.. إنهم سيتعفنون سريعاً، وسط الخضرة الداكنة، وعلى الأخص حين يضربهم القيط بشواظه.

يصون الشمال، على الأقل، جلدك ولحمك، وفي أرض المستعمرات يعترى الشحوب أبناء الشمال، فما بين سويدي ميت في بلده، وشاب حرم من النوم ثمة فرق ضئيل. ولكن المستعمر ما إن يهبط من السفينة وتطأ أقدامه شواطئ المستعمرات حتى تملأه تماماً سرف الذباب. لم تكن تلك الشرعيات الدقيقة والدؤوبة إلى أبعد حد تنتظر شيئاً سوى أولئك القادمين من الشمال، وهي لا تتركهم قط إلا بعد أن يفارقوا الحياة، أكياساً من اليرقانات.

كان ما يزال أمامنا ثمانية أيام من الإبحار حتى نرسو على شواطئ براغامانس، أولى الأراضي الموعودة، كنت أشعر بأنني داخل صندوق من المتفجرات، لم أعد أكل تقريباً، كي أتحاشى الجلوس إلى طاولتهم والعبور من بينهم في وضح النهار. ولم أعد أنفوه بكلمة، ولا أتصور نفسي قط أقوم بنزهة، كان من الخطورة أن يظهر على ظهر السفينة واحد مثلي.

أسرّ لي خادم قمرتي، وهو أب لعائلة بأن ضباط المستعمرات الكبار أقسموا، والقدح في أيديهم على أن يوجهوا لي صفقة في أول مناسبة تسنح لهم، وأن يقذفوا بي إلى الماء من فوق ظهر السفينة، فيما بعد. وحين سألته لماذا، لم يكن لديه أي تفسير لذلك، وسألني بدوره عما أمكنني القيام به حتى وصل الأمر إلى هذا الحد. بقينا أنا وهو في شك مستغلق. كان من الممكن أن يستمر هذا الوضع طويلاً. لقد كان لي شفق قدر. هذا كل شيء.

لن أعود إلى السفر مرة ثانية مع أشخاص يصعب إرضائهم إلى هذا الحد. كانوا متبطلين كلياً منغلقيين على أنفسهم طوال ثلاثين يوماً. بحيث كان يلزمهم شيء زهيد جداً كي يفتهم وينكي حماسهم، لتتصور مع ذلك أن مئة شخص على الأقل، في حياتك اليومية، يرغبون بموتك البائس خلال يوم عادي واحد، أو أن جميع هؤلاء كانوا يقفون خلفك مستعجلين في صف لركوب المترو، أو أن جميع هؤلاء

أيضاً كانوا يمرون أمام شقتك التي تسكن فيها وليس لديهم شقق مثلها، أو أن جميع هؤلاء كانوا يريدون أن تنتهي من تبوك كي يتبولوا هم أيضاً، سواء أكانوا أولادك أم آخرين غيرهم، يحدث هذا كثيراً، أما على السفينة فإن هذه السرعة تميزت بحدة أكبر، ولذا فإنها كانت أشد بلاءً.

في ذلك الجو الفرنسي الذي يطبخ الأجساد تكثفت شحوم تلك الكائنات الغاطسة في ماء حار، وجعلتهم هواجس العزلة الاستعمارية الخائفة التي ستكفهم عما قريب، وتكفن مصيرهم، جعلتهم يئنون مثل محتضرين، يتشبثون، يعضون، يمزقون، ويسيل من أفواههم اللعاب، بسبب ذلك. كانت أهميتي على ظهر السفينة تتعاطم يوماً بعد يوم على نحو عجيب، أما المرات القليلة جداً التي جلست فيها إلى طاولة الطعام والتي حرصت على أن تكون متكئة وصامتة فقد اتخذت حجم أحداث حقيقية، فما أن كنت أدخل إلى صالة الطعام حتى ينتفض مئة وعشرون مسافراً، ويتبادلوا الهمسات.

كان ضباط المستعمرات المتكدسون، من جلسة شراب إلى أخرى حول طاولة القبطان، ومعهم محصولو ضرائب التبغ، والمعلمات الكونغولييات على الأخص اللواتي كانت الأميرال براغتون تحمل باقة منهن، قد انتهوا بافتراضاتهم السيئة النية واستنتاجاتهم الشنيعة، إلى تعظيم شأني حتى إنهم نسبوا إلي خطورة جهنمية.

حينما أبحرنا من مارسيليا لم أكن أكثر من شخص حالم لا يقيم له أحد شأنًا. ولكنني الآن بفعل ذلك التركيز الكحولي القلق، ومهابل الكونغولييات النافذة الصبر. وجدت نفسي، وقد حبيت، ولكن بمعالم أخرى، حظوة مثيرة.

قبطان السفينة مهرّب كبير ماكر، كثير التأليل كان يضغط على يدي بطيبة خاطر، في بداية الرحلة، في كل مرة كنا نلتقي فيها. أما الآن، فلم يعد

يبدو عليه أنه يعرفني، مثلما يتجنب الناس رجلاً مطلوباً بجريرة فاحشة. حينما لا ينطوي حقد البشر على أية مجازفة فإن حماقتهم سرعان ما تكون قناعات، ثم تأتي الأسباب بعد ذلك وحدها.

بحسب ما كنت أعتقد فقد لاح لي وسط تلك العدوانية المندمجة التي كنت أتخبط فيها، معلمة كونغولية كانت تهيج العنصر الأنثوي في ذلك التأمير والدرس. كانت عائدة إلى الكونغو لتهلك، كما أمل. تلك الفتاة لم تكن تفارق إلا لمأماً ضباط المستعمرات ذوي الجذوع المقتولة، والثياب الزاهية، والذين أقسموا، بالإضافة إلى ذلك، بأن يسحقوني، مثل حلزون مقرز، لا أكثر ولا أقل، وقبل الرسو القادم للسفينة بالتأكيد، كانوا يتساعلون من كل جهة إن كنت سأغدو مقرفاً مسطحاً مثل حلزون، كانوا يتسلون بي، باختصار. كانت تلك الأنسة توجج حميتهم، تستدعي العاصفة على متن الأميرال براغتون، لم تكن تعرف الراحة إلا بعد أن يلتقطوني أخيراً مختلج الأنفاس. ويصححوا إلى الأبد مخيلتي الوقحة. ويعاقبوني على اجترائي في أن أوجد في هذا الوجود، بوجه الإجمال. مضروباً بغضب مسعور، نازفاً، ممزقاً، متوسلاً الشفقة تحت بوط وقبضة واحد من أولئك الجسورين الذين كانت تذكي إعجابهم بالعمل العضلي، وغضبهم الساطع. مشهد لمذبحة سامية، كانت مبايضها الذاوية المجددة تستشعر حدوثها.

كانت تستحق الاغتصاب من قبل غول. كان الوقت يمضي، وبات من الخطورة انتظار مصارعة الثيران زمناً طويلاً. كنت أنا البهيمة، وكانت السفينة بكاملها تطالب بها، مرتعشة، من السطح وحتى عنابر الفحم. احتجزنا البحر داخل سيرك ثابت الأركان، كان عمال المكينات أنفسهم مطلعين على ما يجري، ولما لم يعد أماننا سوى ثلاثة أيام على الرسو، أيام حاسمة، فإن العديد من مصارعي الثيران قد تقدموا.

وكلما كنت أتجنب الكارثة كلما كانوا يصبحون عدوانيين، متحزين للهجوم. كان مقدمو القرابين يتمرنون، وقد حصروني على هذا النحو بين مقصورتين خلف سجن أحد الأبواب. فأقلت من قبضتهم بحنكة. ولكنهم أصبحوا يهددون باقتحام مقصورتى، دون تردد. ولما لم يبق أمامنا إذن سوى تلك الأيام الثلاثة في البحر، فقد اغتتمت الفرصة للإقلاع كلياً عن جميع حاجاتي الطبيعية، كانت الكرة كافية لي. كان كل ما حولي ينضح بالحق، بلا حدود، من السخرية قول ذلك. لقد غطى الحقد البحر، والسفينة والسماوات.. إلى حد أن أشخاصاً أقوياء سيغدون بسببه غريبي الأطوار، فكيف بهؤلاء المخبولين الحالمين الذين كان لديهم أسباب أقوى.

قربان، كنت على وشك أن أغدو قرباناً، ثم انجلت الأمور ذات مساء بعد الغداء، بعد أن ألجأني الجوع إلى الخروج رغم كل شيء من قمرتي. أبقيت أنفي فوق صحنى، دون أن أجرو حتى على إخراج منديلي من جيبي لأمسح فمي. لم يكن ثمرة أحد على الإطلاق ممن كانوا يأكلون أكثر احتشاماً وتحفظاً مني. مكنات تدور، كان يعلوك وأنت جالس في مؤخرة الطاولة،ذبذبات متصلة وخافتة، جيراني على الطاولة الذين كانوا بالتأكيد مطلعين على ما تقرر بشأنى، بدووا، وهذا ما أدهشني، يكلمونني بحرية ومراعاة عن المبارزات بالسيف، وعن السيوف، موجهين لي أسئلة.. وفي تلك اللحظة أيضاً توجهت المعلمة الكونجولية، تلك التي كانت ترتدي ثوباً من الغيبور المخرم بأبهة عظيمة، توجهت نحو البيانو بنوع من التعجل المتشجع كي تعزف، إن أمكن القول بعض الألحان التي كانت تخفي فيها غايتها النهائية.. وغدا كل ما حولي عصبياً ومتكتماً.

ما كان مني إلا أن قفزت من مكاني محاولاً اللجوء إلى مقصورتني. كنت على وشك بلوغها حينما اعترض طريقي واحد من الضباط الاستعماريين كان أكثر انتفاخاً وأشدّ عضلاً من الجميع. دون عنف، ولكن بثبات. «لنصعد إلى ظهر السفينة» قال لي أمراً. كنا على بعد خطوات من السطح. وأمكنتني ملاحظة قبعته العسكرية فوق رأسه مذهبة على أكمل وجه، وقد زرر سترته من العنق حتى فتحة البنطال، وهو ما لم يفعله منذ إقلاعنا، كنا إذن في غمرة احتفال دراماتيكي. وقد بلغت روحي التراقي، وراح قلبي يقفز داخل ضلوعي حتى سرتني.

تلك الفاتحة، تلك العصمة التي أبداها، جعلتني أنتبأ بمصرع بطيء ومؤلّم. بدا لي هذا الرجل قطعة من الحرب، كانت ستوضع فجأة في دربي، عنيدة، راسخة، قاتلة.

خلفه، كان يحتجزي الباب المفضي إلى ما بين جسري السفينة. وانتصب في الوقت ذاته أربعة ضباط تابعون له، في غاية اليقظة والاستعداد، كانوا يمثلون موكب القدر.

ما من وسيلة إلى الفرار، إذن! وهذا الاستجواب كان ينبغي أن يتم بدقة متناهية «أيها السيد، يقف أمامك الكابتن فريميزون قائد القوات الاستعمارية. باسم رفاقي وباسم ركاب هذه السفينة الساخطين من سلوكك الشائن، تحديداً.. لي الشرف أن أسألك عن السبب.. بعض المواقف التي اتخذتها تجاهنا منذ انطلاقنا من مرسيليا غير مقبولة. وهذه هي اللحظة، أيها السيد لتدلي بصوت عال باعترافاتك. ولتعلن لنا ما كنت ترويه بخزي همساً منذ واحد وعشرين يوماً. ولتخبرنا أخيراً بماذا تفكر..».

شعرت وأنا أسمع هذه الكلمات بانفراج عظيم، كنت مرتاعاً من قتل لا محيد عنه. ولكنهم قدموا لي، ما دام الكابتن كان يتكلم، طريقة للإفلات من قبضتهم، وانقضت على هذه النعمة.. كل إمكانية للجبن تغدو أملاً زاهياً لمن يكون خبيراً باستغلالها. نلكم هو رأيي. لا يجوز أبداً أن يكون المرء متردداً إزاء وسيلة تتقده من انتزاع أمعائه، ولا أن يضيع وقته أيضاً في البحث عن أسباب اضطهاد كان ضحية له، فالإنسان العاقل يكفيه أن ينجو منه.

«أيها الكابتن. أجبته بصوت مفعم بالثقة تماماً ما وسعني ذلك، أي خطأ فادح كنتم على وشك ارتكابه!، كيف تنسبون إلي مشاعر خوون غدار من هذا النوع. لعمر الحق، إن هذا لظلم فادح إلى أبعد حد! وسأكون متألماً جداً لذلك، كيف؟ أنا الذي كنت ما أزال حتى الأمس مدافعاً عن وطننا الغالي، أنا الذي امتزج دمي بدمكم طوال سنوات، في خضم معارك لا تتسى. أي ظلم كنتم ستنزلهون بي أيها الكابتن. ثم توجهت إلى الجمع بكامله

أي بهتان شنيع، أيها السادة، غدوتم ضحايا له؟ أن تذهبوا إلى حد التفكير بأنني أنا أخوكم، في النهاية، كنت مصراً على نشر افتراءات دنيئة بحق ضباط أبطال، هذا كثير! حقاً إنه كثير، في الوقت الذي يستعد فيه هؤلاء البواسل، هؤلاء الجسورون الذين لا مثيل لهم، وبحمية لا نظير لها، لمتابعة الحراسة المقدسة لإمبراطوريتنا الاستعمارية الخالدة! وتابعت. هناك، حيث يكلل المجد الأبدي أروع جنود عرقنا الفرنسي، أبناء مانجين وفيدهيرب وغالياني.. آه، أيها الكابتن. أنا؟ هكذا؟.

توقفت لحظة، أملاً أن يكون كلامي مؤثراً. ولحسن الحظ، كان كذلك فعلاً، ودون إبطاء، مستفيداً من تلك الهدنة التي علت فيها الغمغات، ذهبت مباشرة إليه وضغطت على يديه في عناق مؤثر.

كنت مطمئناً قليلاً وأنا أحتضن يديه بين يدي، وفيما أنا ممسك بهما، رحلت أتابع تبرير سلوكي بذلاقة لسان، وكنت أصوب رأيه ألف مرة مؤكداً له بأن كل ما بيننا سيلتئم، وبنجاح هذه المرة. وأن طبيعتي وخجلي هما السبب في سوء التفاهم المتوهم هذا، وأن سلوكي بالتأكيد كان من الممكن أن يفسر على أنه استخفاف غير مبرر من مثل هذه المجموعة من المسافرين، ومن المسافرين «الأبطال والفاتنين أيضاً».. هذا الجمع العظيم من الشخصيات العظيمة والمواهب.. دون أن أنسى السيدات الموسيقيات الفريديات واللواتي هن زينة السفينة..» باعترافي بالذنب والاعتذار منه جهاراً، كنت ألتمس أن أقبل دون تأخير، ودون قيد أو شرط في صفوف هذا الجمع السعيد، الوطني والأخوي!.. وسأحرص، منذ هذه اللحظة وإلى الأبد على أن أقدم صورة لائقة ومحبة جداً. كنت أضعاف فصاحتي أضعافاً دون أن أترك يدي الكابتن، بالطبع.

ما دام العسكري لا يقتل، فهو ليس أكثر من طفل. من الممكن خداعه والسخرية منه بسهولة، وبما أنه غير معتاد على التفكير، فإنه مضطر حينما تكلمه بأن يقرر بذل جهود مضمّنية كي يفهمك. لم يقتلني الكابتن فريميزون، ولم يكن يحمل قدحاً أيضاً، لم يكن يفعل أي شيء بيديه، ولا برجليه. كان يحاول التفكير حسب. كان هذا باهظاً جداً بالنسبة إليه، والواقع أنني كنت أمسكه من رأسه.

شيئاً فشيئاً، وخلال المدة التي انقضت في هذه التجربة من الإذلال كنت أشعر بأن كبريائي كان يفارقني ويتلاشى أكثر فأكثر أيضاً، ثم تخلى عني وغادرني كلياً، من الناحية الرسمية تقريباً، من العبث قول ذلك، لقد كانت تلك اللحظة سعيدة جداً. فمنذ هذا الحادث غدوت حراً طليقاً على الدوام من الناحية المعنوية، بالطبع. ربما نكون في أغلب الأحيان في حاجة إلى الخوف كي

نخلص أنفسنا من المآزق في الحياة، أما أنا، فلم أعد أريد منذ ذلك اليوم أسلحة أخرى، أو فضائل أخرى.

رفاق العسكري المترددين الذين جاؤوا هم أيضاً في تلك اللحظة كي يمسحوا دمي المسفوح، ويلعبوا الكعاب بأسناني المتناثرة، كانوا خليقين بأن يكتفوا من هذا الانتصار بالتقاط كلمات من الهواء. أما المدنيون الذين هرعوا مرتعشين ليشهدوا موتي فكانوا يبرزون سحنات قدرة، ولما كنت لا أدرك بالضبط ما الذي كنت أتفوه به، باستثناء أنني بقيت أحوم بكل قوة في الفضاء الوجداني، ممسكاً يدي الكابتن، فقد ثبتت نقطة مثالية في الضباب الناعم الذي كانت الأميرال براغتون تتهادى فيه، وهي تصفر وتقفز بمروحتها آن بعد آن. غامرت في النهاية كي أكمل دفاعي بأن ألوح بإحدى ذراعي فوق رأسي مقلناً إحدى يدي الكابتن، واندفعت إلى الخاتمة: «ما بين الشجعان أيها السادة الضباط ألا يجدر دوماً الوصول إلى التفاهم؟ عاشت فرنسا إذن! عاشت فرنسا». كانت تلك طريقة الرقيب برانليدور البارعة. فقد كان يفلح دوماً في مثل هذه الحالات. تلك هي المرة الوحيدة التي أنقذت فيها فرنسا حياتي. فحتى ذلك الوقت كان الأمر على العكس بالأحرى. لاحظت بين المستمعين لحظة صغيرة من التردد، ولكن كان من الصعب جداً، مع ذلك، على أي ضابط، مهما كان سيئ المزاج، أن يصفع علناً، مدنياً، في اللحظة التي يهتف فيها بقوة مثلما كنت أهتف: «عاشت فرنسا» هذا التردد أنقذ حياتي

أمسكت بذراعي لا على التعيين من بين مجموعة الضباط ودعوت جميع من في السفينة إلى البار ليشرّبوا نخبي ونخب مصالحتنا. لم يقاوم هؤلاء البواسل سوى دقيقة واحدة، وشرّبنا بعد ذلك طوال ساعتين كاملتين.

أما إناث السفينة فقد تابعنا فقط بأعينهن، صامتات، بعد أن خاب أملهن شيئاً فشيئاً، ولمحت من كوة البار المعلمة العنيدة، عازفة البيانو بين أخريات، كانت تروح وتجيء وسط حلقة من المسافرين، مثل ضبعة، كانت أولئك الفتيات يرتبن في أنني قد تخلصت من الفخ بالحيلة والخديعة، كن يأملن في أن يقبضن عليّ ثانية بطريقة غير مباشرة. وفي أثناء ذلك كنا نشرب بلا نهاية تحت مروحة عديمة الجدوى ولكنها مخبلة. بعد أن فقدت خلال دورانها منذ جزر الكناري القطن الفاتر المرطب للجو.

كنت ما أزال في حاجة مع ذلك إلى العثور على قريحة وعلى طلاقة لسان يمكنها أن تروق لأصحابي الجدد، ببسر وسهولة، ولم ينضب معيني، خوفاً من أن يساء الظن بي في موضوع إعجابي الوطني، كنت أطلب وأعود الطلب من هؤلاء الأبطال كل بدوره، قصصاً، وقصصاً أيضاً عن شجاعتهم الاستعمارية، لم تكن قصص البسالة تلك سوى كومة من القذارات، كانت تروق دوماً وأبداً لكل العسكريين في جميع البلدان، والحقيقة أن ما هو ضروري للحصول على نوع من سلام مع الناس، عسكريين أم غير عسكريين. على هذات هشة، هذا صحيح، ولكنها ثمينة مع ذلك، هو إتاحة الفرصة لهم في كل الظروف لأن يتفاخروا وأن يتمرغوا فوق ركام من التبعجات البليدة. ليس ثمة غرور ذكي. فالغرور غريزة من الغرائز. ما من إنسان أيضاً لا يكون قبل كل شيء مزهواً بنفسه. والدور الذي يؤديه المتزلف المعجب بكل من يطلب الإعجاب هو الدور الوحيد تقريباً الذي يتقبله آدمي من آدمي بسرور بالغ. مع هؤلاء الجنود لم يكن علي أن أذهب بعيداً في الخيال. كان يكفي أن لا أكف عن الظهور بمظهر المندهش. كان من السهل علي أن أطلب وأطلب من جديد قصصاً عن الحرب، كان هؤلاء الرفاق مدرعين بدروع من العجب والخيلاء،

وأمكنني أن أتخيل نفسي عائداً إلى أجمل الأيام التي قضيتها في المستشفى. بعد كل قصة من قصصهم، لم أكن أنسى أن أعبر عن تقديري الشديد مثلما تعلمت ذلك من برانليدور، من خلال عبارة قوية «حسن، يا لها من صفحة جميلة من صفحات التاريخ». لم يكن ثمة ما هو أبلغ وأشد تأثيراً من هذه العبارة. والحلقة التي انضمت إليها بخوف بالغ راحت تعتقد شيئاً فشيئاً بأنني غدوت شخصاً مثيراً للاهتمام. شرع هؤلاء الرجال يروون عن الحرب ركاماً من الهراء كنت قد سمعته من قبل. ثم رويته أنا نفسي فيما بعد، حينما كنت أتنافس مع رفاق المستشفى في اختلاق روايات من الخيال. كان الإطار الذي يحيط بهؤلاء فقط مختلفاً عن إطار رفاقي في المشفى، وأكاذيب هؤلاء كانت تجول عبر الغابات الكونغولية بدلاً من أراضي الفوج والفلاندر.

الكابتن فريميزون. الذي كان يتصدى قبل لحظة لمهمة تطهير السفينة من وجودي العفن، ما إن استحسن طريقي في الإصغاء بانتباه أكثر من أي شخص آخر، حتى بدأ يكشف لي عن ألف شميلة من شمائل التهذيب والدمائة. كان تدفق شرايينه كما لو أنه يخمد، بفعل عبارات التقريظ المبتكرة التي أسوقها له، وكانت نظرته. تصفو، وعيناه المخدذتان والحمراوان كالدب بسبب الإدمان على الكحول تتلألآن وسط مستنقع الخبل الذي يغرق فيه. أما بعض الشكوك المستقرة في أعماقه والتي يمكن أن يتصورها حول قيمته الشخصية والتي مازالت تنبجس داخله في لحظات اكتتابه الشديد، فكانت تمحي وتتلاشى بافتنان، فترة من الزمن، بالتأثير المدهش لتعليقاتي الذكية والملائمة.

كنت بالفعل مخلوقاً مرحاً.. أنقر على كل الدفوف، بخفة وبراعة. لم يكن ثمة أحد سواي يستطيع أن يجعل الحياة مقبولة، على الرغم من كل رطوبة الاحتضار الدبقة تلك: ألم أكن أصغي مع ذلك بصورة رائعة؟

بينما كنا نهذي على تلك الصورة، كانت الأميرال براغتون تتهادى بطيئة كل البطء، كانت تتعفن وسط عصيرها. لم يكن ثمة ذرة هواء تتحرك حولنا، كان علينا أن نحاذي الشاطئ على مهل، حتى لكاننا نتقدم وسط ثقل من قصب السكر.

كانت السماء فوق إزار السفينة ثقلاً من قصب السكر أيضاً، لاشيء سوى لصقة سوداء ذائبة، كنت أسترق النظر إليها بلهفة، كانت العودة إلى الليل أميني المفضلة، وحتى ناضحاً بالعرق ومتأوهاً، وفي أي حال مهما كان عسيراً، لم يكن فريميزون يكف عن رواية الحكايات عن نفسه. كان البر يبدو لي قريباً غاية القرب، ولكن خطة تلمصي من هؤلاء السفلة كانت توحى لي بألف قلق.. وشيئاً فشيئاً تحولنا عن الحديث في الشؤون العسكرية لنخوض في أحاديث مرحة ماجنة، تحولت بعدئذ إلى هجر مقذع صريح ثم تهافتت الأحاديث فلم نعد نعرف من أين نبدأ ولا كيف ننتهي.

وأخيراً توقف ضيوفي، واحداً بعد الآخر، عن الحديث وناموا نوماً مقرزاً يرهقهم الشخير ويكشط أعماق أنوفهم، لقد حانت اللحظة التي أختفي فيها عن أنظارهم، وإلا فلن تحين على الإطلاق. لا ينبغي أن نخلي السبيل لأحلام القسوة تلك، والتي فرضتها الطبيعة رغم كل شيء، على البنى العضوية الأعمق فساداً والأشد عدوانية في هذا العالم.

ألقينا المرساة الآن على مسافة صغيرة جداً من الشاطئ. لم تكن نلمح سوى بضعة مصابيح تهتز على امتداد الشاطئ.

وعلى طول السفينة تجمهرت مئة من الزوارق المصنوعة من الجذوع، جاءت بسرعة جداً مهتزة فوق الأمواج، محملة بزئوج عاري الصدر، اندفع هؤلاء السود إلى جميع الجسور يعرضون خدماتهم. وخلال ثوان قليلة هرعت

إلى جسر النزول حاملاً صرري القليلة التي جهزتها خلسة، وانسلت خلف واحد من أولئك النوتيين، متسربلاً بالظلمة، مخفياً ملامحي ومشيتي تماماً عن العيون. وفي أسفل الجسر، داخل الزورق، وعلى مستوى الماء الهادر بدأ القلق من المكان الذي أقصده يغزوني.

أين نحن؟ سألت أحد الظلال داخل الزورق.

— في بامبولا — فورت غونو، أجنبي الظل

شرعنا نعوم بحرية وبضربات مجاديف قوية. كنت أساعد في التجديف

كي نندفع بسرعة أكبر.

كان ما يزال لدي الوقت كي ألمح مرة أخرى، وأنا هارب، رفاق السفينة الخطرين، وعلى ضوء الفوانيس المعلقة على جسري السفينة رأيتهم يواصلون تخمرهم مسحوقين تحت ثقل البلادة والتهابات المعدة، ناخرين نخيراً عالياً خلال نومهم. وفيما هم شبعون مستغرقون كانوا متشابهين جميعاً في تلك اللحظة، ضباطاً وموظفين ومهندسين ونحاسين، متبثري الجلود، مخضوضرين، مختلطين، حتى كأنهم نسخ عن بعضهم تقريباً. فالكلاب خلال نومها، تشبه الذئاب.

وصلت إلى البر بعد لحظات، كان الليل أشد تلبداً تحت الأشجار.

وخلف الليل كمنت جميع تواطوات الصمت.



<< في تلك المستعمرة التي تدعى بامبولا – براغامانس، كان الحاكم سيد الجميع الأرواح وصاحب الأمر والنهي. لا يكاد عسكريوه وموظفوه يجروون على التنفس إذا ما تنازل وخفض أبصاره إلى شخصهم.

يلي هؤلاء الأعيان في الرتبة التجار الذين كانوا يسرقون كما يبدو، ويجمعون أرباحاً عظيمة، بسهولة أكبر مما في أوروبا. ما من جوزة هند واحدة، ما من فولة سودانية فوق سائر أرض الإقليم كانت تغلت من نهبهم، كان الموظفون يدركون أنهم كلما كانوا يصبحون أشد غباء وأكثر مرضاً بحيث لا يعود يكثرث بهم أحد، يُستقدمون إلى هنا كي لا يحصلوا إجمالاً إلا على الشارات والصياغات الكتابية التي يفرغونها على الورق، دون نقود تقريباً. كان هؤلاء ينظرون أيضاً إلى التجار بطمع، أما العنصر العسكري الأشد خبلاً من الفئتين الآخرين فكان ينتفخ بالأمجاد الاستعمارية، لكي يمرر مع هذا المجد الكثير من الكينين وكيلو مترات من النظم والقوانين.

كان الجميع يصبحون قساة عديمي الرحمة، هذا مفهوم. لطول انتظارهم انخفاض ميزان الحرارة الذي كان يزداد ارتفاعاً أكثر فأكثر، كانت الضغائن والعداوات الخاصة والعامة مستمرة دون انقطاع، غثة وخرقاء، بين العسكريين والإدارة، ثم بين هذه الأخيرة وبين التجار، ثم بين هؤلاء متحالفين، آنياً وبين أولئك، ثم بين جميع هؤلاء، وبين الزوج، وأخيراً بين الزوج، بعضهم مع بعض، وهكذا فإن الطاقات النادرة التي تغلت من قبضة الملاريا والعطش والشمس كانت تستهلك في الأحقاد المتأثرة بقوة، والمتأصلة بعمق، بحيث أن

كثيراً من المستوطنين كانوا يهلكون حيث هم، متسممين من تلقاء ذاتهم مثل العقارب.

غير أن هذه الفوضى البالغة السميّة كانت توجد كامنة داخل كادر البوليس المحكم الاغلاق، مثل سرطانات داخل سلة، كانوا يغتابون الموظفين عبثاً، وكان الحاكم يجند، من أجل إبقاء مستعمرته في طاعة رهبانية جميع الميليشيات التي هو بحاجة إليها، ومن ضمن أفرادها عدد من الزوج المتقلين بالديون، والذين ألجأهم البؤس بالآلاف إلى الشاطئ، مهزومين في التجارة مع البيض، قادمين للبحث عن صحن حساء. كانوا يعلمون هؤلاء المتطوعين قانون وطريقة الإعجاب بالحاكم، كان الحاكم يبدو وهو يتنزّه بزيه المرصع بالذهب بأكمله، والشمس تسطع فوقه كائنًا خارقاً، تكاد العين لا تصدق حين تراه. ناهيك عن الريش الذي يزينه.

كان الحاكم لا يشرب سوى الفيشي طوال العام، ولا يقرأ سوى الصحيفة الرسمية، وقد عاش عدد من الموظفين على أمل وحيد هو أن ينام هذا الحاكم ذات يوم مع زوجاتهم. ولكن الحاكم لم يكن يحب النساء، لم يكن يحب شيئاً، ومن خلال كل جائحة جديدة من جوائح الحمى الصفراء كان الحاكم ينجو من الموت، كما بفعل سحر، في حين أن عدداً من الذين يتمنون أن يدفنوه كانوا يهلكون مثل ذباب ما أن تبدأ الجائحة.

يذكرون هنا: أنه في أحد أعياد «الرابع عشر من تموز» بينما كان يمر أمام جنود مقر إقامته، يثب بفرسه وسط حراسه من الخيالة متقدماً وحده، حاملاً علماً كبيراً، إذا برقيب تهوسته الحمى، بلا ريب يلقي بنفسه أمام فرسه صائحاً بملء صوته «إلى الوراء يا ذا القرون الكبيرة» وقد بدا الحاكم متأثراً للغاية لهذا النوع من الاعتداء الذي ظل مع ذلك دون تفسير.

من الصعب رؤية الناس والأشياء بوضوح في البلدان المدارية، بسبب الألوان التي تتبجس منها. فالألوان والأشياء في فوران دائم. علبة سردين مفتوحة، لمقاة عند الظهر في عرض الطريق تصدر عدداً من الانعكاسات تبهر عين الناظر إليها وتخلب لبه، ولكن ينبغي الحذر هنا فليس في هذه البلدان سوى أشخاص مصابين بالهستريا، لذلك فإن الأشياء تتخذ صوراً عجبية أمام أعينهم. قلما تصبح الحياة محمولة إلا بعد هبوط الليل. ولكن الظلام أيضاً يحتكره البعوض على الفور تقريباً، على هيئة أسراب. ليس بعوضة أو اثنتين أو مئة ولكن بالبلايين، والخروج بسلام من هذه الشروط يعد عملاً أصيلاً من أعمال الحفاظ على الذات. النهار كرنفال، والليل غربال صغير. حرب سرية صامتة.

حينما يبدو لك الكوخ الذي تأوي إليه مؤتماً تقريباً، ويعم فيه الهدوء أخيراً، يباشر دود الخشب عمله، منهمكاً إلى الأبد بالتهام دعائم كوخك، وتهب الزوبعة حينذاك داخل تلك الدانتيل الغادرة، ويغمر الشوارع بكاملها سحب كثيف من الضباب.

كانت مدينة فورت - غونو التي جنحت إليها، وهي العاصمة المؤقتة لبراغامانس، تقع بين البحر والغابة، ولكنها مجهزة ومزينة مع ذلك بكل ما يلزم من بنوك، ومواخير، ومقاهٍ، وأرصفت، وحتى مكتب للتجنيد ليجعلوا منها متروبولاً صغيراً دون أن أنسى حديقة فيدهيرب، وشارع بيجو، موثلي النزهة وانتصبت وسط صخور شاطئية خشنة عمارات حمراء زاهية محشوة ببيرقانات الذباب والبعوض تغص بأجيال من التجار ورجال الإدارة المنزوعي الطحال.

عند الساعة الخامسة يبدأ العسكريون بالتذمر حول طاولات الشراب، فأسعار المشروبات الروحية، في الوقت الذي وصلت فيه كانت قد بلغت الذروة. ذهبت وفود من الزبائن إلى الحاكم تلتمس منه إصدار قرار يحظر على الحانات التحكم على هواها بأسعار الخمر والكشمش، وقد زعم بعض المدمنين أن استعمارنا قد غدا أكثر فأكثر صعب الاحتمال، بسبب ندرة قطع الثلج، فإدخال الثلج إلى المستعمرات صار ينظر إليه على أنه علامة على ضمور خصال الرجولة لدى المستوطن، وتعيّن منذ الآن على المستوطن الذي أدمن عادة تبريد شرابه بقطع الثلج أن يقلع عن هذه العادة، وأن يتغلب على قسوة المناخ برواقيته وحدها، لنلاحظ عرضاً أن روادنا العظام أمثال فيدهيرب وستانلي ومارشان لم يكونوا يفكرون إلا بالبيرة والخمر والماء الفاتر العكر التي ظلوا يشربونها طول سنين دون أي شكوى. كل شيء يكمن هنا. هاكم كيف أضعوا مستعمراتهم!

عرفت أيضاً أشربة أخرى تؤخذ من أشجار النخيل التي كان يسيل منها بوفرة، في المقابل، نسغ ذو طاقة مهيبة، انتصبت على امتداد الشوارع ذات البيوت المتداعية، كانت فجاجة هذه الخضرة المستجدة تحول دون أن يصبح المكان أشبه بالغارين – بيرزون.

ما أن يحل الليل حتى يبلغ الإغواء الجنسي المحلي ذروة نشاطه. وتنقض نحوك سحائب البعوض الصغيرة المجدة والمكتظة بالحمى الصفراء. طوفان من العناصر السوداء يقدم للمنتزه كل ما كان تحت الوزرة من ثروات. كان من الممكن أن تضاجع عائلة بأكملها خلال ساعة أو ساعتين بأسعار زهيدة. كنت أتوق إلى الانتقال من فرج إلى فرج، ولكنني كنت في حاجة إلى أن أسعى للبحث عن مكان أجد فيه عملاً، كان مدير شركة

بوردوريير للكونغو الصغرى يبحث كما أكدوا لي عن موظف مبتدئ كي يوكل إليه وظيفة من وظائف الشركة في قلب الأدغال. ذهبت دون إبطاء لأعرض عليه، لا كفاءاتي ولكن خدماتي المستعجلة. لم يكن استقبال المدير لي حسناً. كان ذلك المهوس – ينبغي تسميته باسمه – يقيم غير بعيد عن دار الحاكم، في جناح فسيح مبني من القصب والقش. طرح علي بعض أسئلة خشنة جداً عن ماضيّ حتى قبل أن ينظر إلي، ثم هدأ قليلاً بعد أن استمع إلى أجوبتي الساذجة تماماً، واتخذ استخفافه لي مظهراً متسامحاً، غير أنه لم ير من المناسب أن يأذن لي بالجلوس.

«حسب أوراك، لديك بعض الإلمام بالطب»؟ قال المدير. أحبته بأنني

في الحقيقة أكملت بعض الدراسات في هذا المجال

«ذلك سيفيدك إذن، قال: هل تريد بعض الويسكي»

لم أكن أشرب: «هل ترغب بالتدخين؟» رفضت أيضاً. فاجأه هذا الزهد ومط شفثيه مستغرباً.

«لا أحب كثيراً الموظفين الذين لا يشربون، والذين لا يدخنون» هل

أنت لوطني إذن؟.. لا.. هذا أسوأ! فهؤلاء الناس يسرقوننا أقل من غيرهم..

ذلك ما لاحظته بالتجربة.. إنهم يتعلقون..، أراد أن يتابع. ذلك بوجه عام

ما أدلى به، كما بدالي، بخصوص خصلة اللوطيين، تلك الميزة.. لعلك ستثبت

لي العكس..» ثم استرسل «أنت تشعر بالحر، أليس كذلك؟ ستشعر به، لا بد

أن تشعر به مع ذلك! ورحلتك إلى هذه البلاد؟

– كريهة جداً، أحبته

– إيه حسن، يا صديقي، لم تر شيئاً بعد، ستروي لي أخبار البلد، بعد

أن تمضي سنة في بيكو ميمبو، هناك حيث سأبعثك الآن لتحل محل ذلك

المهرج الآخر..»

كانت زنجيته مقعياً قرب الطاولة تقلب قدميها وتنظفهما بعود صغير من الخشب.

«انصرفي أيتها الفصيد، زجرها سيدها، اذهبي وابحثي لي عن الخادم، ثم عن الثلج أيضاً».

وصل الخادم المطلوب على مهل شديد، فنهض المدير حينذاك، محتدماً واستقبل الخادم بزوج رهيب من الصفعات، وبركلتين مدويتين في أسفل البطن.

«هؤلاء الناس سيقضون علي، ولاشك، هذا كل ما في الأمر». تنبأ المدير بذلك وهو يتأوه. ثم ألقى بنفسه على أريكته المغطاة بقماش أصفر قذر ومتهدل.

«هيا يا عزيزي. قال المدير: وقد غدا فجأة لطيفاً وأليفاً، كما لو أنه تخلى عن فظاظته التي أظهرها تجاهي، ضع لي سوطي إذن وحبات الكينين على الطاولة.. لا ينبغي أن نحتدم هكذا. من حماقة الانسياق وراء الغضب».

كنا نطل من منزله على الجسر النهري الذي كان يلتصق في الأسفل عبر غبار كثيف، كنا، لفرط تراص ذرات الغبار نسمع أصوات حركته الارتجاجية أكثر مما نميز التفاصيل، أرتال من الزوج، فوق الشاطئ يكدون، تحت لسع السياط، يفرغون، أنباراً بعد أنبار، من سفن لا تفرغ أبداً، يتسلقون عباتر مهتزة رقيقة، يحملون سلالهم الضخمة المملوءة فوق رؤوسهم، بتوازن بالغ تحت وابل من الشتائم، نوع من نمال عمودية.

كانوا في ذهاب وإياب متواصل، أشبه بحبات مسابح متقطعة، عبر بخار قرمزي، بعض تلك الأشكال الكادحة كان يحمل بالإضافة إلى ذلك نقطة سوداء صغيرة فوق ظهره، أولئك هن الأمهات اللواتي كن يتسكعن هن أيضاً،

حاملات سلالاً من النخيل الكرنبى، مع أولادهن، كأحمال إضافية، كنت أسأل نفسي إن كان النمل يستطيع أن يفعل مثل ذلك.

«ألا ترى بأن كل الأيام هنا يوم أحد؟ تابع المدير كلامه مازحاً، ذلك مبهج، ذلك متألق. الإناث دائماً عاريات، هل لاحظت؟ ويا لهن من إناث جميلات، أليس كذلك؟ يتسلى المرء. هنا حينما يأتي من باريس، أليس صحيحاً؟ ونحن الأوربيين إذن؟ دوماً، داخل نسيج أبيض محبك.. كأننا في حمامات البحر كما ترى.. لسنا جميلين هكذا؟ مثل مقدمي القربان. العيد متواصل هنا: أقول لك! ١٥ اب حقيقي! والحال ذاته حتى الصحراء الكبرى! تصور!»

ثم توقف عن الكلام تهتد، ودمدم، وكرر مرتين أو ثلاث مرات «خراء». ومسح عرقه، وواصل المحادثة.

«هناك في الريف حيث تذهب لاشيء سوى الغابة، لاشيء سوى الرطوبة.. على بعد عشرة أيام من هنا.. البحر في البداية... ثم النهر. نهر شديد الاحمرار كما سترى.. ومن الجهة الأخرى الاسبنيوليون.. أما ذاك الذي ستحلّ محله في مخزن الشركة فهو وغد كبير، لا تنس ذلك.. الكلام بيني وبينك.. أقول لك.. ليس هناك من سبيل لدفعه إلى أن يقدم لنا حساباته، ذلك النذل! ما من وسيلة، أرسلت له عبثاً دعوات ودعوات.. لا يبقى الإنسان شريفاً زمناً طويلاً حين يكون وحده، هيا! سترى! سترى ذلك أنت أيضاً!.. كتب لنا بأنه مريض.. أتمنى ذلك من كل قلبي! مريض! وأنا أيضاً مريض! ما الذي يعنيه بأنه مريض؟ نحن جميعاً مرضى! أنت أيضاً ستكون مريضاً. وليس بعد زمن طويل، قبل أن تبدأ البيع! ليس ذلك سبباً. لا أحد يكثرث إن كان مريضاً أو لم يكن... الريف أولاً! حين تصل إلى هناك ضع قائمة جرد

بالمواد الغذائية على الأخص. هناك مؤن لثلاثة أشهر في المخزن، وبضائع أخرى لسنة على الأقل.. لن ينقصك شيء.. لا ترحل في الليل، بوجه الخصوص.. وكن على حذر! لا تأمن لزوجه الذين سيرسلهم ليرافقوك من البحر، سيغرقونك ربما في الماء، لقد دربهم ولا شك.. إنهم أيضاً أنذال مثله، من المؤكد أنه ألقى في آذان زوجه كلمتين بشأنك!... احذر من الآن.. خذ الكينين أيضاً معك، كينينك، مخصصك من الكينين، قبل أن ترحل، فهو لايتورع عن أن يضع شيئاً ما في كينينه كي يقتلك!..»

مل المدير من إلقاء النصائح، ونهض كي يأذن لي بالانصراف. كان السقف الذي يظللنا، والمصنوع من صفائح فولاذية يزن كما بدا لي أكثر من ألفي طن على الأقل. كانت صفائحه تحفظ لنا بكل لهيب الحر، وارتسمت على وجهينا كلينا تقطبية، بسبب ما نالنا من الحر. كان الجو قاتلاً دون إمهال. أضاف المدير.

«ليس ثمة حاجة أن نرى بعضنا مرة أخرى قبل سفرك يا باردامو، اللقاء هنا متعب جداً. وأخيراً ربما سأشرف على أوضاعك، مع ذلك، في المستودعات، قبل سفرك. وسأكتب إليك حينما تكون هناك.. ثمة بريد كل شهر. ينطلق من هنا. هيا حظاً سعيداً..»

اختفى المدير في ظله بين قبعته وسترته. كنت أرى بوضوح أوتار عضلات رقبتة من الخلف محدبة مثل إصبعين يسندان رأسه، ثم عاد أيضاً مرة أخرى:

«هل لرقم اثنين أن ينزل إلى هنا بسرعة.. لدي كلمتان أقولهما له.. أن لا يضيع وقته على الطريق.. آه! الحصان العجوز. ينبغي أن لا يهلك في الطريق على الأخص.. سيكون ذلك خسارة.. خسارة كبيرة. آه، الوغد للكبير!..»

تقدمني أحد خدمه من الفتیان الزنوج بفانوسه الكبير، ليقودني إلى المكان الذي كان علي أن أبيت فيه قبل رحيلي إلى بيكوميمبو اللطيفة الموعودة تلك. سرنا في دروب صغيرة، بدا لي أن جميع من في المدينة قد نزلوا للنتزه فيها بعد الغسق. كان الليل يلف بظلامه كل شيء على إيقاع الصنوج، تقطعه بين الفينة والفينة أصوات أغنيات قصيرة مفككة أشبه بالفواق. كان ذلك هو الليل الحالك الهائل للبلاد الحارة، بقلبه الوحشي الذي يضج بقرع طبول التام تام المتلاحقة بسرعة هائلة.

كان دليلي ينسل بمرونة بين جماعات المتسكعين، بأقدامه العارية. كان ثمة أوروبيون قابعون بين أجسام الشجر، تنتهي إلي أصواتهم قادمة من هناك، وهي تجوب المكان. أصوات البيض المميزة العدوانية المزيفة.. كانت الوطاويط تحوم دون انقطاع، شاقة طريقها بين أسراب الحشرات التي كان ضوء فانوسنا يجتذبها إلينا. وتحت كل ورقة من أوراق الأشجار كان يختبئ دون ريب جدجد على الأقل حتى لتظن وأنت تسمع صريره المصم بأن جادج الكون نصر كلها مجتمعة.

عند تقاطع طريقين، في منتصف أكمة، أوقفنا مجموعة من الجنود المتطوعين الزنوج، كانوا يتناقشون بالقرب من نعش مسجى على الأرض، مغطى بعلم عريض متموج بالعديد من الألوان.

كان هذا واحداً من الذين ماتوا في المستشفى. لم يكونوا يعرفون أين يدفونه، كانت الأوامر غامضة. كان البعض منهم يريد أن يدفنه في أحد الحقول القريبة المنخفضة، بينما أصر آخرون على دفنه في أرض مسورة مرتفعة قريبة من الشاطئ. كان ينبغي أن يتفقوا. وهكذا تدخلنا أنا والخادم الزنجي في الأمر.

قرروا أخيراً أن يحملوه إلى المقبرة القريبة المنخفضة بدلاً من دفنه في أعلى الشاطئ، بسبب سهولة النزول. التقينا أيضاً في طريقنا بثلاثة من الفتیان البيض الیافعیین من عرق أولئك الذین یترددون أيام الآحاد على مباریات الركبى فى أوروبا، متفرجین مهووسین عدوانیین، شاحبى الوجوه. كانوا ینتمون هنا، بصفتهم موظفین مثلى، إلى شركة بوردورییر. وقد دلونى بلطف على طریق ذلك المنزل غیر المکتمل والذی یوجد فیہ، بنحو مؤقت سریری القابل بسهولة للفك والحمل.

ذهبنا إلى ذلك المنزل. كان مسکناً خاوياً من كل شىء، ما عدا بعض المواعین فى المطبخ، وذلك النوع من السریر الذی سأنام فیہ. ما إن استلقیت فوق ذلك الشىء الخیطى الشكل والمهتر حتى خرج عشرون وطواطاً من زواياه، واندفعت إلى الممرات ثم عادت مصوتة مثل عدد من صفقات المراوح فوق استراحتى المذعورة.

عاد الزنجى الصغیر إلى کى یقدم خدماته الشخصیة الحمیمة ولما أن رأنى فى وضع سئى ذلك المساء عرض على خائباً أن یقدم لى أخته، كان لى فضول لمعرفة کىف كان بوسعه أن یعثر على أخته فى مثل ذلك اللیل.

قرع طبول التام تام القریب جداً كان یفتتک على الفور، إلى قطع صغیره من الصبر. واستولت ألف بعوضة مثابرة على فخذى. ولم أعد أجرؤ مع ذلك على وضع إحدى قدمى على الأرض خوفاً من العقارب والأفاعى السامة التى كنت أفترض أنها قد بدأت صیدها الکریه. كانت الأفاعى تفضل الجرذان. كنت أسمعها وهى تقضم فرائسها من الجرذان، كنت أسمعها فى الجدار. وفوق الأرض الخشبیة المرتجة وداخل السقف.

طلع القمر أخيراً وشمل الغرفة بعض الهدوء. لم أكن الآن، بوجه الإجمال، في المستعمرات.

جاء الغد مع ذلك. أشبه بالمرجل، واستبدت بي رغبة جارفة بالعودة إلى أوروبا. استولت علي جسداً وروحاً. لم يكن ينقضي سوى النقود كي أولي الفرار. حسبي كل ما لاقيته. لم يكن قد بقي لي من جهة أخرى أكثر من أسبوع أقضيه في فورت غونو قبل الالتحاق بوظيفتي في بيكو ميمبو.

أكبر بناء في فورت غونو، بعد قصر الحاكم كان بناء المستشفى. كنت أعثر عليه أينما ذهبت، معترضاً طريقي. لم أكن أمشي مئة متر في المدينة دون أن اصطدم بجناح من أجنحته، تفوح منه إلى مسافة بعيدة، أبخرة حمض الفينيك. كنت أجازف بين وقت وآخر في الذهاب إلى أرصفة الشحن لرؤية زملائي الصغار المصابين بالأنيميا وهم يعملون هناك لصالح شركة بوردوير التي كانت تزود بهم من فرنسا تحت رعايتها الكاملة. كان ثمة تعجل نزق يملكهم، كما يبدو وهم يفرغون ويملؤون من جديد سفن شحن واحدة بعد الأخرى «ستخسر الشركة كثيراً ان تأخرت السفينة في المرسى» كانوا يرددون ذلك، حزينين بصدق، كما لو كان الأمر يتعلق بأموالهم هم.

كانوا يضايقون الحمالين السود بهياج مسعور، كانوا متحمسين دونما شك، ولكنهم كانوا جنباء أيضاً وخبيثين، بقدر ما كانوا متحمسين. موظفون من ذهب في المحصلة. منتقون بدقة، مولعون بأرباب عملهم مسلحون بلا شعور يصنع لهم الأحلام بحماسة. أبناء كانت أمي تهيم في أن يكون لها أبناء مثلهم. ابناً لها وحدها، وابتناً تستطيع أن تفخر به أمام العالم، وابتناً شرعياً بالكامل.

جاؤوا إلى أفريقيا المدارية، هؤلاء المستخدمون الصغار ليقدموا لها لحومهم، لأرباب عملهم، ليقدموا دمهم، وحياتهم وشبابهم، شهداء من أجل

اثنين وعشرين فرنكاً في اليوم (مع طرح الحسومات)، مسرورين، بالرغم من ذلك، مسرورين حتى آخر كرية حمراء، تترصدها البعوضة العشرة ملايين.

تجعلهم المستوطنة بدينين أو ضامرين، هؤلاء الموظفون الصغار، ولكنها تحتفظ بهم، ليس ثمة سوى طريقين للهلاك تحت الشمس، طريق البدانة أو طريق النحول، وما من طريق آخر إطلاقاً. يمكنك أن تختار، ولكن ذلك يتعلق بالطبائع. أن تغدو سميناً، أو أن ينشق جلدك عن عظامك.

مدير الشركة، هناك في الأعلى، فوق الصخور الشاطئية الحمراء، والذي يتحرك مثل شيطان مع زنجيته، تحت سقف من صفائح الحديد يعادل ستة عشر ألف كيلو غرام من الشمس، لم يفلت هو أيضاً من الاستحقاق. إنه من النوع الضامر. كان يتخبط حسب. ويبدو كما لو أنه يسيطر على المناخ ظاهرياً، ولكنه في الواقع، كان يتفقت أيضاً أكثر من الآخرين جميعهم.

يزعمون أنه كان يملك خطة رائعة لاختلاس الشركة، كي يجمع ثروة خلال سنتين، غير أنه لن يملك الوقت الكافي كي ينفذ خطته، حتى لو دأب على غش الشركة نهاراً وليلاً. اثنان وعشرون مديراً قبله، حاولوا أن يجمعوا ثروة، كل واحد منهم بخطته، مثلما في لعبة الروليت، ولكن ذلك كان معروفاً جيداً من المساهمين الذين كانوا يراقبونه من أسفل ومن أعلى المواقع أيضاً، في شارع مونسي في باريس، وكان يجعلهم يبتسمون، كل ذلك كان صبيانياً، كان المساهمون أيضاً، أكبر قطاع الطرق على الأرض يعلمون أن مديرهم كان مصاباً بالسفلس، وأنه يتقلب تحت شموسه المدارية، ويلتهم الكينيين والبيزموث. حتى يفجر طبليتي أذنيه، والزرنيخ حتى تتساقط لنته.

أثناء المحاسبة العامة للشركة كانت الشهور معدودة على المدير، ومعدودة مثل شهور خنزير.

لم يكن زملائي يتبادلون قط فيما بينهم أية أفكار. لاشيء سوى عبارات محددة مطبوخة ومعادة الطبخ، على غرار قوالب جامدة. «لا ضرورة للقلق» يقول زملائي «سننال منهم» «الوكيل العام زوج مخدوع..» «علينا أن نفصل من جلود الزوج أكياس تبغ».

عند المساء، كنا نجد أنفسنا على طاولة الشراب، عناصر السخرات الأخيرة، مع مساعد وكيل الإدارة الذي كان يدعى السيد تانديرو، وهو في الأصل من روشيل. إذا ما كان تانديرو هذا يختلط بالتجار، فذلك فقط كي يدفعوا عنه ثمن الشراب، من دون شك. سقوط مريع. لم يكن تانديرو يملك أية نقود، كان موقعه الوظيفي في أدنى سلم المراتب الاستعمارية. وقد تكوّن عمله من الإشراف على بناء الطرق في قلب الغابات، كان السكان المحليون يعملون معه في أعمال الطرق تحت هراوة ميليشياته بالطبع، ولكن لما كان أي واحد من البيض لا يسلك تلك الطرق الجديدة التي يشقها تانديرو، وكان للسود، من جهة أخرى يفضلون عليها مراتهم داخل الغابة، حتى لا تقع عليهم، أنظار البيض إلا بأقل حد ممكن، بسبب الضرائب التي يفرضونها عليهم وكانت طرق الإدارة في الواقع لا تقضي، في أي مكان إلى طرق تانديرو، فقد كانت هذه الطرق حينئذ تختفي تحت النباتات التي تنمو بسرعة عظيمة من شهر إلى آخر.

«فقدت من هذه الطرق، في العام الماضي ١٢٢ كم. كان هذا الرائد الخرافي يذكرنا بطيبة خاطر بموضوع طرقة، صدقوني إن شئتم!...»
لم أكن أصدق من تبجحاته، خلال إقامتي سوى واحد منها، يزهو به تانديرو بابتذال، وهو أنه كان الأوروبي الوحيد الذي يمكنه أن يلتقط الزكام في براغامانس في درجة حرارة تبلغ ٤٤ في الظل.. هذا التفرد كان يعزیه في كثير من الأشياء.. «لم أزل مزكوماً مثل بقرة، كان يصرح بذلك، بقدر

كبير من التباهي على طاولة الشراب.. ليس ثمة أحد سواي يصيبه مثل هذا!
— «هذا التانديرو، ياله من نمط مع ذلك!...» هكذا كان يهتف حينئذ أعضاء
مجموعتنا البائسة. مثل هذا التعويض كان أفضل من لاشيء، فأى شيء
يدغدغ الغرور، أفضل من عدمه.

ثمة تسلية أخرى تتسلى بها مجموعة الأجراء الصغار في شركة
بودوريير. تتكون من تنظيم مباريات للحمى، لم يكن ذلك صعباً، ولكنهم كانوا
يتحدّون بعضهم بعضاً في هذه المباريات طوال أيام، كانت المباريات تدوم
وقتاً لا بأس به، فحين يأتي المساء تأتي معه الحمى بصورة يومية تقريباً،
حينذاك كانوا يقيسون درجة حرارتهم: «عندي ثلاث وثلثون درجة!».

— هيا إذن، لا تقلق، عندي أنا أربعون درجة. كما أردت»

هذه النتائج، مع ذلك كانت مضبوطة ومنتظمة كلياً. كانوا يقارنون بين
موازين الحرارة على ضوء مصباح المناجم، وكان الفائز يغتبط وهو يرتعد
«لم يعد بإمكانني أن أتبول لفرط ما أتعرق» يعلق بصدق أكثرهم نحولاً، وهو
زميل رقيق العود، من منطقة الأريبيج، كان هو الفائز بين المحمومين، قدم
إلى هنا، كما أفضى لي، هرباً من المدرسة الاكليركية التي «لم يكن ينعم فيها
بحرية كافية»، ولكن الوقت كان يمضي، وما من أحد من هؤلاء الرفاق أو
أولئك كان بمقدوره أن يقول لي إلى أي نوع فريد كان ينتمي ذلك الشخص
الذي كنت على وشك أن أحلّ محله في بيكو ميمبو.

«إنه شخص غريب الأطوار» ذلك ما كانوا يخبرونني به، وهذا كل

شيء.

« في بداية وجودك في المستعمرة، نصحني الأريبيجي الصغير، وهو
يتقلب تحت وطأة حمى شديدة، عليك أن تظهر مزايك، إما أن تكون هذا أو

تكون ذاك، ستكون من الذهب الخالص بالنسبة إلى المدير أو من الزبل الخالص، وهو سيحكم بشأنك على الفور، انتبه إلى ذلك.

كنت أخشى كثيراً أن يصنفني المدير بين الذين هم من «الزبل الخالص» أو أسوأ أيضاً.

هؤلاء النخاسون الفتيان من رفاقي، اصطحبوني لزيارة زميل آخر في شركة بوردوربير يستحق أن أتى على ذكره بصورة خاصة في هذه القصة، مدير مكتب للصرافة في وسط الحي الأوروبي، متعفن من شدة الإعياء، مهدود مزيت. كان يرتاع من أي ضوء، بسبب عينيه، فقد جعلهما عامان من العمل المتواصل تحت صفائح السقوف المعدنية المتموجة بابستين، على نحو فظيع.

كان يفتحهما، كما يقول، نصف ساعة في الصباح، ويمضي نصف ساعة أخرى قبل أن يبصر بهما أي شيء، بقليل من الوضوح. كان أي شعاع ساطع يجرحهما. خلد ضخم أجرب تماماً.

الإختناق والتوجع أصبحا بالنسبة إليه طبيعة ثانية، والاختلاس أيضاً. كانوا يثيرون اضطرابه الشديد إذا ما حاولوا علاجه وتخفيف أوجاعه. ويتوسوس دفعة واحدة.. مقته الشديد للمدير ما يزال يبدو لي اليوم، وبعد مضي زمن طويل، واحداً من أشد الأهواء التي أتيح لي أن أراها، تأصلاً ورسوخاً لدى إنسان من البشر، حقد حاد مدهش كان يهز كيانه، عبر أوجاعه، ولدى أصغر مناسبة كان يهيج بشدة، حاكاً جلده بالإضافة إلى ذلك، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

لم يكن يتوقف عن الحك في كل أنحاء جسمه على نحو دوراني، من نهاية عموده الفقري حتى منبت رقبتة. كان يحرز بشرته وأدمته أيضاً حزوزاً عميقة

بأظافره الدامية، دون أن يتوقف لحظة، بسبب ذلك عن خدمة زبائنه العديدين الذين كانوا من الزنوج دائماً تقريباً، والعراة أكثر أو أقل، بيده الحرة، كان يغوص حينئذ بيده هذه بانهماك شديد في مخابئ شتى، ذات اليمين وذات اليسار، وسط دياجير حانوته، ويخرجها من المخبأ دون أن يتوه أو يخطئ على الإطلاق، مهتدياً بكل حذق وسرعة، وبدقة متناهية إلى ما كان يحتاجه الزبون من تبغ فاتحت عفوته عساليجه، وعلب نقاب رطب، وعلب سردين، ودبس شوندر بالمعلقة الكبيرة، وجعة مغرطة الكحول، في زجاجات مزيفة، كان يتركها تسقط فجأة إذا ما استحوذ عليه سعار الحك من جديد في الأعماق القصية من بنطاله مثلاً، فكان يغوص بكامل نراعه حينئذ، ثم يخرجها بعد وقت قليل من فتحة البنطال التي كان يتركها دائماً مفتوحة من قبيل الاحتياط.

هذا المرض الذي كان يقرض جلده، كان قد أعطاه هو اسماً محلياً «كوروو»، ذلك «الكوروو» اللعين.. «حينما أفكر بأن هذا المدير القدر لم يصب أيضاً بالكوروو، يقول محتدأً، فإن ذلك يزيد المغص في بطني أكثر فأكثر، إنه لن يتحمل الكوروو على الإطلاق!.. فهو متعفن إلى أقصى حد. ليس إنساناً ذلك القواد! إنه قذارة! إنه خراء حقيقي!..»

وينفجر الجمع من حوله في مزاح ضاحك، والزبائن الزنوج أيضاً، على سبيل المنافسة. كان يخافنا قليلاً ذلك الرفيق، كان له مع ذلك صديق، مخلوق صغير مبهور الأنفاس شاحب الوجه يقود شاحنة من شاحنات شركة بوردوير، وقد حمل إلينا قطعاً من الثلج مسروقة بالطبع، من هنا وهناك من المراكب الراسية على الرصيف.

دققنا أقداحنا نخب صحته، حول طاولة مكتبه، وسط الزبائن السود الذين كان يسيل لعابهم حسداً. كان هؤلاء زبائن بلديين وقحين بما يكفي

ليتجرؤوا ويقتربوا منا نحن البيض. إنه اصطفااء في المحصلة! أما الزوج الآخرون الأقل جرأة فقد فضلوا البقاء على مسافة منا. إنها الغريزة. غير أن الأكثر حذقاً من بينهم والأشد فساداً فقد غدوا موظفين في المخزن. كنا نميز الموظفين الزوج حينما كانوا يشتمون الزوج الآخرين بشغف بالغ، كان رفيقنا المصاب بالكوروكورو يشتري المطاط الخام المحتلب من الأشجار يحمله إليه الزوج من الأدغال في أكياس أو على شكل كرات لزجة.

بينما كنا جالسين عنده لا نمل من الاستماع اليه إذا بعائلة من جناة المطاط جاءت، ووقفت جافلة على عتبة الباب. الأب في المقدمة. متجعداً الوجه، ملتقاً بوزرة برتقالية صغيرة، وفأسه الطويل يصل إلى نهاية ذراعه.

لم يجرؤ الهمجي على الدخول، كان أحد الموظفين الزوج يدعو إلى الدخول، مع ذلك «تعال يا.... همجي تعال وانظر هنا، نحن لا نأكل الهمج هنا!» انتهت هذه الخطبة إلى إقناع العائلة، فدخلوا الكوخ اللاهب الذي كان رجلنا صاحب الكوروكورو يهوج ويموج داخله.

لم يكن هذا الأسود كما يبدو قد شاهد بعد مخزناً على الإطلاق، ولا رجالاً بيضاً ربما. كانت إحدى نسائه تتبعه خافضة أنظارها، وهي تحمل على قمة رأسها بتوازن فريد، السلة الضخمة المملوءة بالمطاط الخام.

من دون استشارة المرأة استولى الموظفون الزوج المجنون في المخزن على سلتها، كي يزنوا محتواها على الميزان. لم يكن المتوحش يفهم طريقة الميزان أكثر مما يفهم باقي الأمور، ولم تجرؤ المرأة قط على أن ترفع نظرها، كان بقية الزوج الآخرين من أفراد العائلة ينتظرون في الخارج. بعيون جاحظة، أدخلوهم أيضاً. بمن فيهم الأطفال، كي لا يضيعوا أي شيء من المشهد.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يجيئون فيها، على هذا النحو، من الغابة، كلهم مجتمعين، إلى البيض في المدينة. لا بد أنهم جميعاً قد بدؤوا الجني منذ زمن طويل جداً حتى جمعوا هذا القدر من الكاوتشوك. كانت ثمرة أتعابهم إذن، وبالضرورة تهمهم جميعاً. كان الكاوشوك الخام يسيل ببطء شديد في قواديس صغيرة، تعلق على جذوع الأشجار. حتى أن قدحاً صغيراً لم يكن يمتلئ في أقل من شهرين اثنين غالباً.

انتهى الوزن، وقاد صديقنا الحكاك الأب، مذهولاً، خلف مكتبه وأجرى له حسابه، ثم أغلق قبضة يده على بضع قطع من النقود، ثم: «هيا انصرف، قال له، هذا هو حسابك!..»

جميع الأصدقاء الصغار البيض كانوا يتلون من الضحك، لفرط نجاح صديقهم في إدارة عمله، بقي الزنجي جامداً أمام المكتب، مرتبكاً غاية الارتباك بوزرته البرتقالية الملفوفة حول عضوه.

«أنت! هيه! ألا تعرف النقود؟ همجي، إذن؟ سأله كي يوقظه من ذهوله واحد من موظفينا المحنكين المعتادين على هذه المواقف والمدربين جيداً، من دون شك على هذه الصفقات التجارية الحاسمة. أنت، ألا تتكلم الفرنسية، قل؟ أنت غول أيضاً، أليس كذلك؟ أي لغة تتكلم ماذا؟ الكوكو؟ المابيليا؟ أنت أبله، باهمان! أبله حقيقي!»

ولكن الهمجي ظل واقفاً أمامنا مغلقاً يده على قطع النقود. لاشك أنه كان سيولي الفرار لو جرؤ على ذلك. ولكنه لم يكن يجرؤ.

«هل تشتري إذن شيئاً بنقودك؟ تدخل «الحكاك» في الوقت المناسب. أنا لم أر قط مغفلاً مثله، منذ زمن طويل جداً. أراد الحكاك أن يدلي بملاحظاته أيضاً. لا بد أنه جاء من مكان بعيداً ما الذي تريد؟ أعطني النقود!».

استعاد المال منه بالقوة، وبدلاً من قطع النقود، دعك له في قعر يده منديلاً كبيراً فاقع الخضرة، سحبه بمهارة من أحد مخابئ الحانوت.

تردد الأب في الانصراف بهذا المنديل، وهنا تصرف الحكاك تصرفاً أكثر براعة أيضاً. كان يجيد قطعاً، كل الفنون للتجارية التي تغري أمثال هؤلاء الزبائن. حرك أمام عيني أصغر الأطفال السود سنأ القطعة الخضراء الكبيرة من الايتامين الرقيق: «ألا تجده جميلاً أنت، أيها الصبي؟ هل رأيت مثل هذا المنديل يا صغيري الظريف قل يا قنري الصغير، قل يا فصيدي الصغير؟» ثم عقده حول عنقه بالقوة، مسألة لباس.

كانت العائلة الهمجية تتأمل الآن للصغير المزين بهذا الشيء العظيم من النسيج للقطني الأخضر. لم يعد بوسعها أن تفعل أي شيء ما دام المنديل قد دخل العائلة. لم يعد عليها سوى أن تقبل به. أخذته وانصرفت.

بدأ الجميع إذن يتراجعون بهدوء، عبروا الباب، وفي اللحظة التي استدار فيها الأب إلى الخلف، ليقول شيئاً ما، حثه على السير الموظف للزنجي الأكثر تعهراً والذي كان لديه حذاء في قمه، بركلة قوية وسط البيت.

تجمع سائر أفراد العائلة الصغيرة، صامتتين في الجانب الآخر من شارع فيدهيرب، تحت شجرة منغوليا، ينظرون إلينا ونحن ننهي شراينا، كانوا يحاولون، كما يبدو أن يفهموا ما الذي كان قد حدث لهم:

نلكم كان رجل «الكوروكورو» الذي أولم لنا. كان قد شغل لنا فونوغرافه أيضاً، كل شيء كان موجوداً في مخزنه. وهو ما ذكرني بمواكب الحرب.



« في خدمة شركة بوردويرير في توغو الصغرى كان يعمل معي إذن، خلال ذلك الوقت. في عابرها، وداخل مزارعها عدد كبير من الزوج ومن البيض الصغار من أمثالي، أما الزوج فقلما كانوا يعملون، بوجه الإجمال، إلا تحت ضربات الهراوة. كانوا يحتفظون لأنفسهم بهذا الشرف، في حين كان البيض المهذبون والمتحضرون جداً، بفضل تعليمهم الرسمي، يعملون وحدهم دون تدخل من أحد.

تتعب الهراوة في النهاية من يستعملها، في حين أن الأمل الذي كان، يتزقه البيض، بأن يصبحوا أقوياء وأثرياء لا يكلف شيئاً، أي شيء. لم يعد بمقدور فراعنة مصر ولا طغاة التتار أن يباهوا علينا في شيء، لم يكن هؤلاء القدامى الهواة سوى مضاربين مدّعين في الفن الأعظم، فنّ جعل البهيمة المنتصبّة على قدمين تقدم جهدها الأقصى في العمل. لم يكن يعرف أولئك البدائيون، أن يخاطبوا العبد بكلمة «مسيو»، ولا أن يأخذه إلى صناديق الاقتراع، من وقت إلى آخر، ولا أن يدفعوا له أجراً يومياً، ولا أن يقحموه، على الأخص، في الحرب حتى يجعلوه ينفّس أهواءه وانفعالاته. إنّ مسيحياً، عمر مسيحيته عشرون قرناً، لا يتمالك نفسه قط حين يمر من أمامه فوج من الجنود، مثلما حدث لي في ساحة كليشي.. لأن ذلك يجعل كثيراً من الأفكار تنبجس في رأسه.

قررت، فيما يخصني، أن أحافظ على نفسي منذ الآن إلى أبعد حد، وأن ألوذ بالصمت والكتمان بكل دقة، وأن أخفي رغبتني بالفرار، وأن أفلح في

النهاية، ما وسعني ذلك، في تحسين أوضاعي، على الرغم من كل شيء خلال الخدمة في شركة بوردوربير. ما من دقيقة ينبغي أن تضيق. على امتداد مستودعاتنا، وعند مستوى الشواطئ الموحلة، كانت تقييم، مجموعات من التماسيح الماكرة والدائمة في مكامن لها، تستمتع بتلك الحرارة الهذيانية، ومثلها الزنوج أيضاً، كما يبدو.

في ذروة الظهيرة يتساءل المرء إن كان من الممكن حدوث كل هذا الهياج الذي تمر فيه تلك الجموع المكدة من الزنوج، على امتداد الأرصفة، هذا الاضطراب الذي يعيشه الزنوج المهتاجون الناعقون.

بصدد تدريبي على ترقيم الأكياس قبل أن أتوجه إلى الأدغال، كان علي أن أتدرب أيضاً على الاختناق بالتدرج داخل العنبر الرئيسي للشركة، مع الموظفين الآخرين بين ميزانين ضخمين، مثبتين وسط ذلك الحشد القاعدي من الزنوج، بأسمالهم الرثة، وجلودهم المغطاة بالبثور والدمامل، وغنائهم المتواصل. كل واحد منهم كان يجر وراءه سحابتة الصغيرة من الغبار، يهزها بابقاع، وفوق تلك الظهور الرائعة كانت تهوي هراوة مأموري النقل بضربات مكتومة الصوت، دون أن تثير أي احتجاج أو شكوى... سلبية بشر مذهولين عن أنفسهم، يتحملون الألم بالبساطة التي يتحملون بها القيظ اللاهب المنبعث من ذلك الفرن المعفر بالغبار.

كان المدير يمر على العنابر، من وقت إلى آخر، عدوانياً على الدوام، كي يتأكد بنفسه من أنني كنت أحرز تقدماً حقيقياً في آلية الترقيم وفي الوزنات المعشوشة.

كان يشق طريقه حتى الموازين عبر أمواج الزنوج الصاخبة بضربات قوية من هرواته: «باردامو، قال لي ذات صباح مفعماً بالحميا. هؤلاء الزنوج الذين

حولنا؟ أنت تراهم، أليس كذلك؟ إيه حسناً حينما وصلت إلى توغو الصغرى كان لي من العمر ثلاثون عاماً. كانوا ما يزالون يعيشون على صيد الحيوانات البرية وصيد السمك والمذابح فيما بينهم، هؤلاء السفلة... بدأت حياتي هنا، وكيلاً تجارياً صغيراً. كنت أراهم، مثلما أراك الآن، يعودون إلى قراهم بعد ظفرهم بأعدائهم، يحملون أكثر من مئة سلة من اللحم البشري النازف بغزارة كي يأكلوها بشرامة، أنت تسمعني يا باردامو! النازف بغزارة.. لحم أعدائهم، حتى لنقول إنها وليمة الميلاد.. أما الآن فلم يعد ثمة انتصارات. فنحن هنا، لم يعد ثمة قبائل، ولا بهارج أو تعاضمات. بل أيد عاملة وفول سوداني، هيا إلی العمل! لم يعد ثمة صيد، ولا بنادق، بل فول سوداني، وكوتشوك.. كي يسددوا الضرائب، ضرائب من أجل أن يجلبوا لنا مزيداً من الكوتشوك والفول السوداني. تلك هي الحياة يا باردامو فول سوداني، فول سوداني وكوتشوك، ومن ثم تبا، ها هو الجنرال تومبا قادم إلينا.»

كان هذا قلاماً في الواقع للقاتنا. عجوز متهم تحت وطأة الشمس الثقيلة. لم يعد الجنرال تومبا عسكرياً، ولا مدنياً أيضاً. كان يقدم خدماته، معتمداً من «بوردوير» كحلقة وصل بين الإدارة وبين القطاع التجاري، حلقة وصل ضرورية، على الرغم من أن هذين القطاعين كانا في تنافس دائم، وفي حالة من العداء المستمر. ولكن الجنرال تومبا كان يناور بنحو مثير للإعجاب. لقد خرج بجلده مع آخرين من عملية بيع قذرة حديثة العهد، لبضائع معادية، كان الجميع يعتقدون بأنها متعذرة الحل لدى السلطات العليا. في بداية الحرب شق الألمان برصاصة إذن الجنرال قليلاً، وهو ما كان يلزمه من أجل استيلاء مشرف، على إثر هزيمة الجيش الفرنسي أمام الألمان في شارلروا، وقد هيا له استيلاءه في الحال موقعاً في خدمة «فرنسا الكبرى». ولكن معركة فيردوم هذه التي انتهت منذ زمن بعيد، كانت ما تزال

تورقه، وهو ما كان يجعله يقلب راديو بين يديه قائلاً. «سيصمد جنودنا البواسل، إنهم صامدون» كان الجو حاراً في العنبر، وكان كل ذلك يحدث بعيداً جداً عنا، في فرنسا، حيث كانوا قد أعفوا الجنرال تومبا من التنبؤ أكثر بما يجري هناك وأخيراً رددنا معاً مع ذلك، بلطف ومجاملة والمدير معنا «إنهم رائعون جنودنا الفرنسيون» وغادرنا الجنرال مع هذه الكلمات.

شق المدير بعد بضع لحظات، طريقاً آخر عنيماً بين الجنود المتراصة، واختفى بدوره في الغبار المغفل.

عينان ملتهبتان فحميتان، رغبة حادة بامتلاك الشركة كانت تضني ذلك الرجل. كان يثير شيئاً من الخوف في نفسي، كان يصعب علي أن أكون وحدي في حضوره. ما كنت لأصدق قط بأن هناك في العالم هيكل بشري قادر على احتمال ذلك التوتر الأقصى من الطمع. لم يكن يكلمنا قط تقريباً بصوت مرتفع، بل بالتلميح حسب، حتى لنقول، بأنه لم يكن يعيش، ولم يكن يفكر إلا لكي يتأمر، يترصد، يغدر بشغف بالغ. كانوا يؤكدون بأنه يسرق، يزور، ينتزع لنفسه وحده أكثر من كل الموظفين الآخرين مجتمعين، رغم أنهم ليسوا كسولين بالتأكيد، وأنا أصدق ذلك بسهولة.

خلال فترة تدريبي في فورت غونو، كان لدي أيضاً بعض أوقات الفراغ، كي أنتزه في ذلك النوع من المدينة، ولم أكن أجد قطعاً سوى مكان واحد ترتاح إليه نفسي هو المستشفى.

حينما تصل إلى مكان ما تستيقظ في داخلك رغبات، أما أنا فكنت أرغب في أعماقي أن أكون مريضاً حسب، كل إنسان نسيج وحده. كنت أنتزه حول هذه الأجنحة المضيافة والواعدة، المنتحبة والمنعزلة والمقتصدة ولم أكن أغادرها إلا بأسف، هي وأثرها المطهر. ثمة مروج خضر كانت تحيط بذلك المثوى الهائئ،

سعيدة بعصافير صغيرة عابرة، وبسحالي قلقة متعددة الألوان، نوع من «جنة أرضية».

أما بصدد الزوج، فقد أفتهم واعتدت عليهم، واعتدت على تواتيهم المغتبط، على حركاتهم البالغة الطول، وعلى بطونهم البارزة، وعلى نساءهم. تفوح الزنوجة ببؤسها، بابتذالاتها التي لا تنتهي، بخضوعها المنفر، والمحصلة، أن كل شيء فيها يشبه الفقراء عندنا، ولكن مع أولاد أكثر، وثياب داخلية أقل قذارة، ونبذ أحمر أقل.

حينما انتهيت من استنشاق هواء المستشفى وزفره بعمق، انطلقت خلف حشد من الزوج، لأتوقف لحظة أمام ذلك النوع من الباغودا الصينية والذي أقيم على مقربة من فورت غونو على يد أحد ممولي الأطمعة من أجل تسلية ماجني المستعمرة الشهبانين الفكهين.

يجوس الأثرياء البيض في فورت غونو ذلك المكان ليلاً. يكبون فيه على طاولات القمار بشغف، متجرعين كميات وافرة من الخمر، متاولين على مهل، أطباق الشواء وهم يتتاعبون. وبمبلغ مائتي فرنك يضاجعون مديرة الفندق الجميلة. بناطيل هؤلاء الممرحين تسبب لهم إزعاجاً غريباً حينما يريدون أن يحكوا ما تحتها، ثم ما تلبث أن تفلت حمالات بناطيلهم.

في الليل كانت جموع غفيرة من سكان المدينة الزنجية تخرج من أكواخها، وتحشد أمام الباغودا كان هؤلاء الزوج لا يكلم ولا يملون أبداً من النظر والاستماع إلى البيض، وهم يتحركون حول البيانو الميكانيكي، ذي الحبال المتعطنة، وهو يتوجع بفالسات ناشرة. كانت مديرة الفندق لدى سماعها الموسيقى تتظاهر بالرغبة بالرقص وقد استخفها الحبور.

أفلحت بعد بضعة أيام من المحاولات إلى أن أتبادل معها أطراف الحديث، على نحو عابر. وقد أفضت لي بأن القواعد التي تسير عليها لا تتدمر أكثر من ثلاثة أسابيع، وهذا من تأثير المناطق الاستوائية. وأن زبائنها فضلاً عن ذلك، كانوا ينهكونها، ليس لأنهم يمارسون معها الحب غالباً، ولكن لأن الخمر الجيدة لما كانت متوفرة في فندقها فإن زبائنها كانوا يحاولون الحصول عليها خلسة ويقرصونها في الوقت نفسه، من إبتئها بشدة. ذلك على الأخص، ما كان سبب تعبها.

كانت تلك البائعة تحيط بكل ما كان يدور في المستعمرة، وبالغراميات اليائسة التي كانت تتعقد بين الضباط للذين كانت تعصف بهم الخمر، وزوجات الموظفين النادرات، الذائبات هن أيضاً تحت وطأة قواعد لانهاية لها، والكسيرات القلب، تحت ظلال للشرفات المغلقة في قاع أرلئك محنية حتى نهايتها.

كانت الممرات والمكاتب والمخازن في فورت غونو تسحّ برغبات مبهضة. أن يفعل هؤلاء البيض كل ما كانوا يفعلونه في أوروبا، ذلكم ما كان يبدو أنه يستحوذ عليهم بقوة. تلبية الرغبات، والتكشير مهما كلف الثمن، على الرغم من الحر الفظيع والترهل المتفاقم الذي لا يقاوم.

كانت النباتات المنتفخة في حدائق المنازل تقاوم بمشقه، وتبدو عدوانية وحشية بين حباكات القصب، المحيطة بالمنزل، منفجرة بأوراق خس على نحو هائج، بيضة صلبة بيضاء ضخمة متجمدة يتعفن داخلها أوربي مصفر. كانت هناك على هذا النحو أطباق من للسلطة الكاملة، بقدر ما كان هناك موظفون على امتداد جادة فاشودا الأشد حيوية والأكثر ارتياداً في فورت غونو.

كنت أعود كل مساء إلى مسكني، الخاوي من أي أثاث بلا شك، حيث أجد الهيكل الصغير لسريري قد أعده لي الخادم الفاسد. كان هذا الخادم

ينصب لي فخاخاً، كان شهوانياً مثل قطة، يريد بإلحاح أن يدخل في عائلتي غير أنني كنت مسكوناً بانشغالات أخرى أكثر إلحاحية، وعلى الأخص نيتي باللجوء بعض الوقت أيضاً إلى المستشفى، وهي الهدنة الوحيدة التي في متناول يدي داخل هذا الكرنفال الملتهب.

في السلم كما في الحرب، لم أكن مهياً على الإطلاق للسقوط في التفاهات الوضيعة. ثمة عروض أخرى كذلك عرضها علي طاهي المدير، داعرة للغاية كانت تبدو لي تافهة عديمة اللون.

قمت للمرة الأخيرة بجولة على أصدقائي الصغار في بورنوربير، محاولاً أن أستعلم منهم حول ذلك الموظف الخؤون الذي كان علي الذهاب للحلول محله في غابته، مهما كلف الأمر. تنفيذاً للأوامر. ثرثرت لا طائل منها.

مقهى فيدهيرب الواقع في نهاية شارع فاشادو والذي يضج ساعة الغسق بمئة غيبة ووشاية ونميمة لم يقدم لي أيضاً أي شيء جوهري، انطباعات لا أكثر. سلال قمامة مملوءة بالانطباعات، تتحطم في ذلك الغبش الموشى بقناديل ورقية متعددة الألوان، فيما كانت الريح تهز دانتيلا أشجار النخيل العملاقة طاردة سحائب بعوضها نحو الأطباق الصغيرة. من ذلك القيل والقال الذي يموج به جو المقهى كان الحاكم يأخذ نصيبه، بسبب مركزه الرفيع. كانت فظاظته التي لا تطاق تشكل جوهر الحديث الطويل الفاتح للشهية. حيث الكبد الاستعماري الكريه يرتاح قبل العشاء.

جميع سيارات فورت غونو وهي لا تزيد عن العشر، إجمالاً، كانت تمر وتعاود. المرور في ذلك الوقت أمام رصيف المقهى. لم يكن يبدو عليها على الإطلاق أنها تذهب بعيداً. كان لساحة فيدهيرب جوها المبهج الطلق وديكورها البديع وغزارتها النباتية والكلامية المحيطة بمقر وكيل الحاكم.

كانت السيارات العشر تغادر ساحة فيدهيرب، ثم ما تلبث أن تعود إليها بعد خمس دقائق منجزة مرة أخرى أيضاً الرحلة ذاتها، بحمولتها المكونة من أوروبيين مصابين بالانيميا، مرتخي الأجساد، ملفوفين بنسيج رمادي.. كائنات هشة قصيمة، أشبه بقطع من حلوى السوربيت.

يمر المستوطنون الأوروبيون بعضهم أمام بعض طوال أسابيع وسنوات، إلى أن تأتي اللحظة التي لا يعودون ينظرون فيها إلى بعضهم، لشدة ما كانوا قد تعبوا من كراهيتهم تجاه بعضهم، كان بعض الضباط ينتزهون مع أسرهم متهينين لتحيات العسكريين والمدنيين. الزوجة مضغوطة داخل فوطها الصحية الخاصة والأطفال نوع مكدر من سرف نباب أوربية ضخمة، يذوبون تحت لهيب الحر من جراء إسهال مزمن.

لا يكفي أن يكون للضابط قبعة عسكرية كي يقود، لا بد له أيضاً من قطعات عسكرية.. وفي مناخ فورت غونو كان الكادر العسكري الأوروبي يذوب على نحو أسوأ من الزبدة. الكتيبة الفرنسية التي جاءت إلى هنا غدت مثل قطعة السكر داخل القهوة، كلما دققت النظر فيها، كلما رأيتها تقل وتلاشى. كان أغلبية أفراد الوحدة في المستشفى دائماً، يتخمرون في برداتهم المحمومة، محشوين بطفيليات في كل شعرة منهم، في كل ثنية في أجسادهم، فصائل بكاملها منهم، يتمرغون بين السكائر والنباب، يستمنون فوق أغطية الأسرة المتعفنة، متقلبين على فراش الحمى، مستثارين متدللين، كان أولئك البؤساء الأوغاد، تلك الكوكبة الشائنة، يكابدون من ذلك أشد المكابدة. وسط الظلال الناعمة للنوافذ الخضراء مختلطين – كان المشفى مختلطاً – بموظفين في الحوانيت، فروا من الأدغال ومن أرباب عملهم مطاردين حتى الموت.

في بلدة قيلولات الملاريا الطويلة حينما كان الحر يبلغ أوجه يهدأ الذباب أيضاً. في طرف الأندرع المشعرة المنزوفة الإماء كانت تتكلى روايات ملطخة بالأفذار، من جانبي الأسرة. أجزاء كثيرة من الروايات كانت ناقصة دوماً. نصف أوراقها قد انتزع منها من قبل مرضى الذننتاريا الذين لا يملكون ما يكفي من الأوراق لاستعمالها عند قضاء الحاجة، ومن قبل الراهبات أيضاً نوات الأمزجة الفاسدة واللواتي كن يراقبن بطريقتن الكتب التي لا يكون الإله الطيب فيها معظماً. كان قمل العانة الذي يعيش في أجساد الجنود يثير الارتباك لدى الراهبات، مثلهن مثل غيرهن، كن يختبئن خلف الستائر ويرفعن أثوابهن ليحككن عاناتهن بنحو أفضل، حيث الموات الصباحي لم يكن قد تبرد، لفرط ما كان الصباح ما يزال ينفث الحر هو أيضاً.

كان المشفى كئيباً إلى أبعد حدود الكآبة، ومع ذلك فقد كان المكان الوحيد في المستعمرة الذي يمكن أن يحس المرء فيه بأنه منسي بعض النسيان، في مأمن من الرجال في الخارج، من المدراء، إجازة من العبودية، ذلكم ما هو جوهرى، في النتيجة، وهو السعادة الوحيدة المتاحة لي.

استعلمت عن شروط الدخول، عن عادات الأطباء، وعن أهوائهم الصغيرة. رحيلي إلى الأدغال لم أعد أرتقبه إلا بقنوط وتمرد، كنت أعول على أن أمرض بأسرع وقت، بكل الحميات التي كانت تبدو لي في متناول يدي كي أعود إلى فورت غونو مريضاً. عظماً دون لحم. مقرزاً إلى أبعد حد، بحيث سيكون عليهم أن يقرروا ليس فقط استقبالي، بل وإعادة تسفيرى خارج هذه البلاد. كنت ملماً ببعض الطرائق المشهورة للوقوع في برائن المرض، وقد تعلمت طرائق أخرى جديدة، أيضاً، خاصة بالمستعمرات.

كنت مستعداً لقهر ألف صعوبة، ذلك لأن ألف مدير لشركة بوردورير،
وألف قائد فوج لا يكولون بسهولة عن مطاردة فرائسهم الهزيلة المرتعشة حتى
النخاع فوق الأسرة التي تفوح برائحة البول.

سيجدوني مصمماً على التعفن، بكل ما يحتاجه التعفن، لم يكن المرضى
بوجه عام، فضلاً عن ذلك، يقيمون زمناً مديداً في المستشفى. إلا إذا ختموا
دربهم الاستعماري حتى نهايته. أكثر هؤلاء حنقاً وأشدهم مكرأ، وأفضلهم حزمأ
وجزمأ، كانوا يفلحون أحياناً في التسلل إلى سفينة نقل عائدة إلى البلد الأم. كانت
تلك هي المعجزة الخارقة، أما أغلبية المرضى المقيمين في المستشفى فكانوا
يعترفون بأن الحيل قد أعييتهم. كانوا يعودون إلى الأدغال. مهزومين أمام أنظمة
حديدية، كي يفقدوا آخر كيلوغرام من وزنهم. وإذا ما أسلمهم الكينين كلياً
لدعاميص البعوض فإن الواعظ كان يغلق أعينهم ببساطة في الساعة الثامنة
عشرة ما دام أنهم في رعاية نظام عطوف، ثم يأتي أربعة سنغاليين موظفين
ليحزموا تلك البقايا النازفة ويحملوها إلى المقبرة المسورة، عند الصخور
الشاطئية الحمراء بالقرب من كنيسة فورت غونو، تلك الكنيسة المتوهجة الحرارة
تحت صفائح سقفا المعدنية المتموجة، بحيث أن أحداً لا يدخلها مرتين على
التوالي. فقد كانت أكثر استوائية من البلدان الاستوائية. كان على من يقف داخل
الكنيسة أن يزفر مثل كلب.

على هذا النحو يمضي الرجال الذين كان عليهم قطعاً أن يعملوا كل ما
كان يطلب منهم، تحت وطأة عذاب مبرح. فراشة في فترة الشباب، وسرف
ذباب في النهاية.

كنت ما أزال. أسعى للحصول من هنا وهناك على بعض التفاصيل
والمعلومات كي أكوّن فكرة عما أنا مقدم عليه. فما قاله لي المدير عن بيكو

ميمبو كان يبدو لي بعيداً عن التصديق. كان الأمر يتعلق، في نهاية المطاف، بمركز بيع تحت التجربة، بمحاولة توغل، بعيداً عن الشاطئ، على مسافة عشرة أيام على الأقل. بمكان منعزل وسط السكان المحليين وسط غابتهم التي صورها لي المدير على أنها مستودع لتفريخ الحشرات والأمراض.

كنت أتساءل ما إذا ما كان زملائي الصغار، بكل بساطة يشعرون بالحسد تجاهي، زملائي الصغار في بوردويرير الذين كان يتناوبهم التلف والعدوانية. كانت حماقتهم (لم يكونوا يتصفون سوى بذلك) مرتبطة بكمية الكحول التي يدخلونها إلى معدتهم، بالرسائل التي كانوا يتلقونها، بالمقدار الأكثر أو الأقل من الأمل الذي كانوا قد فقدوه خلال النهار، والقاعدة العامة في حياتهم، هي أنهم كلما كانوا يتلفون أكثر، كلما كانوا يتغطرسون أكثر.. أشباح، على غرار أورتولان في الحرب، تلبستها كافة الوقاحات.

كنا نجلس إلى الشراب ثلاث ساعات كاملة نتحدث فيها دوماً عن الحاكم، محور كافة أحاديثنا، ثم عن سرقة الأشياء الممكنة والمستحيلة، وأخيراً عن الجنس: الألوان الثلاثة للعلم الاستعماري. كان الموظفون الحاليون يتهمون العسكريين صراحة، بأنهم غارقون في الاختلاس وإساءة السلطة، ولكن العسكريين كانوا يردون لهم التهمة. أما التجار فكانوا من جانبيهم يعتبرون كل هؤلاء النفعيين طغمة من الدجالين المخادعين والنهابين. أما بالنسبة إلى الحاكم، فإن الضجة حول استدعائه كانت تشيع في كل صباح منذ عشر سنين طويلة، ومع ذلك فإن البرقية المثيرة جداً للاهتمام التي تنص على تحيته لم تصل أبداً، على الرغم من أن رسالتين على الأقل، مغفلتي التوقيع كانتا تطيران كل أسبوع، ودون انقطاع إلى الوزارة، تنسبان إلى هذا الطاغية المحلي ألفاً من الفظاعات الواضحة وضوح الشمس.

الزنوج محظوظون، جلداهم له قشور فوق قشور على غرار البصل، أما الأبيض فلا يني يتسمم، محتجراً بين عصيره الحامضي، وقميصه القطني النخروي. تعيس من يقترب منه! ولكني تروضت على ذلك منذ الأميرال براغتون.

في غضون بضعة أيام علمت الكثير عن مديري، عن ماضيه الحافل بنذالات لا يتسع لها سجن في مرفأ حربي. كل ما في ماضيه قد اكتشفته لابل كنت قد افترضته. والحق أن رأسه كان ضده بلا مرأء. صورة مريضة لقاتل محترف، أو بالأحرى، لرجل متهور متعجل في تحقيق غايته والأمران سيان.

في ساعة القيلولة. كان يمكن ملاحظتهن منهارات داخل ظلال مقصوراتهن الكائنة في شارع فيدهرب، بضعة من النسوة البيض، من هنا وهناك. زوجات ضباط، ومستوطنين. كان ذلك الجو ينتزع منهن أكثر مما من الرجال أصواتاً صغيرة متلعثمة بلطف، ابتسامات متسامحة للغاية تخضب شحوبهن، على غرار محتضرات سعيدات، كانت أولئك البرجوازيات يبدن شجاعة وتبرجاً أقل مما كانت تبديه مديرة الباغودا، التي لم تكن تعتمد بالتأكيد إلا على نفسها. كانت شركة بوردويرير، من جانبها تستهلك الكثير من الموظفين الصغار البيض من أمثالي، كانت تفقد العشرات من أشباه الرجال هؤلاء في كل فصل، في مراكز بيعها داخل الأدغال، وفي جوار المستنقعات. لقد كان هؤلاء رواداً بحق!.

في كل صباح كان جيش التجارة يتباكي على أفراد وحداته حتى في مكتب مدير المستشفى ذاته. لم يكن ينقضي يوم إلا وينبري أحد النقباء ليتوعد وينزل صواعق الرب على رأس الإدارة، كي يرسلوا إليه على عجل ثلاثة من رقبائه المصابين بالمalaria، والعريفيين المصابين بالسفلس، من أجل تجهيز

حملة مستعجلة. فإذا جاءه الجواب بأن هؤلاء المقعدين قد ماتوا، أراح الإداريين في المشفى واستراح، ثم عاد إلى سيرته ليشرّب أكثر قليلاً من الخمر في الباغودا.

يكاد المرء هنا لا يجد من الوقت ما يكفي كي يرى البشر والأيام والأشياء وهي تختفي في أعماق تلك الخضرة، ذلك المناخ، مناخ الجراد والبعوض. كل شيء كان يضمحل. كان ذلك مقزراً. كانوا يتلاشون في الشمس، بأطرافهم، بأقوالهم، بأعضائهم، بحسراتهم، بكرياتهم، ينوبون داخل طوفان الضوء والألوان، ومعهم طعم الأشياء والزمن. كل شيء كان يتلاشى. لم يكن ثمة سوى قلق يتطاير كالشرر في الفضاء.

على شاطئ فورت غونو، رست أخيراً سفينة الشحن الصغيرة التي كان علي أن أساحل الشاطئ على متنها، كي أنزل على مقربة من موقع عملي، كانت تسمى بابوتاه. قوقعة صغيرة مسطحة، مصنوعة خصيصاً من أجل مصبات الأنهار. كانوا يزودون موقدها بالحطب، وقد خصص لي، أنا الأبيض الوحيد على سطحها ركناً بين المطبخ والمراحيض. كنا نسير الهوينا فوق الماء، حتى لقد ظننت في بداية الأمر أن الأمر يتعلّق باحتياطات من أجل الخروج من المرسى، ولكننا لم نكن نتقدم إطلاقاً بنحو أسرع. فقد كانت البابوتاه تفتقر إلى القوة على نحو لا يصدق. انطلقنا، على هذا النحو بمحاذاة الشاطئ. شريط لا نهائي. رمادي متلبد من الأشجار الدقيقة الحجم غارقة في بخار متراقص. يا لها من نزهة! كانت البابوتاه تشق عباب الماء، كما لو كانت تتضح به هي ذاتها بألم بالغ. كانت تفكك الموجات واحدة بعد الأخرى باحتراس من يضمّد الجراح. لا شك أن الربان، مثلما بدا لي من بعيد، كان خلاصياً. أقول: «بدا لي» لأنني لم أجد البتة، ما يكفي من النشاط كي أصعد

إلى الأعلى فوق الجسر، لتأكد بنفسى. بقيت منحسباً مع الزوج المسافرين تحت ظلال الممر، ما دام أن الشمس ستظل تسطع فوق الجسر حتى الساعة الخامسة. ولكى لا تحرق الشمس رأسك، من خلال عينيك، لابد من أن تطرف بهما مثل جرد. وبعد الساعة الخامسة يمكنك أن تكفى بنظرة سريعة شاملة. لم يكن ذلك الهدب الرمادي، ذلك المشهد المتلبد الرابض عند مستوى الماء، يقول لي أي شيء ذي أهمية. كان استنشاق الهواء يبعث على الغثيان، حتى في الليل، لفرط ما كان الجو ساخناً، عبقاً بروائح بحرية عفنة. كل ذلك الذبول الباهت اللون، كان يضغط على القلب ومعه رائحة أجهزة السفينة، يضاف إليه في النهار، مرأى الموجات الصلصالية اللون من جانب، والشديدة الزرقة من الجانب الآخر، كان الحال أسوأ مما على الأميرال براغتون، باستثناء العسكريين القتلة، بالطبع.

اقتربنا أخيراً من المرفأ القريب من المكان المقصود والذي سموه لي باسم «توبو»، وبعد أن سعلت «البابواتاه» وبصقت وترجفت، بما يعادل ثلاثة أمثال الزمن الذي تحتاجه وجباتنا الأربعة من المعلبات فوق هذا الماء الشبيه بماء غسيل الأواني المزيّت، أفلحت في الرسو أخيراً.

من فوق الضفة الوبرية لاحت لنا ثلاثة أكواخ مسقوفة بالقش. ومن بعيد كان المشهد أسراً من النظرة الأولى. مشهد مصب النهر. نهر عظيم كثير الرمال، نهري الذي كان علي أن أرتقيه في زورق صغير، كما أوضحوا لي، كي أصل إلى قلب غابتي. لم يكن ينبغي لي المكوث في توبو، ذلك المركز الصغير الجائم على ضفة النهر، سوى بضعة أيام. ذلك أمر مسلم به، هو الوقت اللازم لاتخاذ القرارات الاستعمارية السامية.

اتجهت البابوتاه نحو رصيف للنزول بالغ الهشاشة، وقبل أن تلامسه ببطنها الضخم رفعت حاجز الركاب، كان الرصيف مبنياً من قصب الخيزران. ما أزال أنكره جيداً. كان له حكاية طريفة، فقد كانوا يعيدون بناءه كل شهر، كما علمت، بسبب رخويات سريعة الحركة وبارعة كانت تنقض عليه بالآلاف لتلتهمه، أولاً بأول. كان ذلك الرصيف بالذات، ذلك الترميم اللانهائي لخيزرانه، أحد المشاغل المؤسّسة التي كان يعاني منها الملازم غرابا، قائد موقع توبو والمناطق المجاورة. لم تكن البابوتاه تحج إلى توبو سوى مرة واحدة كل شهر، ولكن الرخويات ليست محتاجة إلى أكثر من شهر كي تلتهم رصيفها.

استولى الملازم غرابا على أوراقي، حين وصلت، تحقق من صحتها، وأعاد نسخها في سجل نظيف، ثم قدم لي الشراب. كنت المسافر الأول، كما أفضى لي، الذي جاء إلى توغو منذ أكثر من سنتين، لم يكن أحد يأتي إلى توغو، لم يكن ثمة سبب للقدوم إليها، كان الرقيب آلسيد يعمل تحت إمرة الملازم غرابا، وفي عزلتهما تلك لم يكونا يحبان بعضهما قط «علي دائماً أن أكون حذراً من مرؤوسي، أفضى إلي الملازم غرابا، في أول حديث لنا، فقد كان لديه ميل لخلق جو من الألفة».

في مثل ذلك الجو الموحش القانط، لا يمكن لأحد أن يتخيل وقوع حوادث، كان ذلك مستبعداً كلياً. لم يكن الوسط يصلح لذلك. كان الرقيب آلسيد يجهز مسبقاً العديد من التقارير، تحمل عبارة «لاشيء»، يوقعها غرابا على الفور، وتعود بها البابوتاه إلى الحاكم العام.

ما بين البحيرات الشاطئية المجاورة، وبين الأعماق الغابية القصية كانت تتأسن بضع قبائل وسط عفونتها، يفتك بها ويخبلها المرض والبؤس المزمّن. كانت تلك القبائل مع ذلك، تدفع ضريبة صغيرة، تحت ضربات

الهرارة، بالطبع، ومن بين فتيانها اليافين كان يتم أيضاً تجنيد بعض الميليشيات، يوكل إليهم استخدام تلك الهرارة ذاتها، كان عدد أفراد هذه الميليشيا لا يتجاوز اثني عشر رجلاً.

يمكنني الحديث عن هؤلاء مطولاً، فقد اطلعت على أوضاعهم باهتمام، كان الملازم يجهز هؤلاء المحظوظين بطريقته، ويغذيهم بالرز على نحو منتظم. بندقية واحدة للاثني عشر، كان ذلك هو التدبير المتبع، وعلم صغير لجميع الميليشيات، والجميع دون أحذية. ولكن لما كان كل شيء نسبياً في هذا العالم، وخاضعاً للمقارنة، فإن هؤلاء المجندين البلديين كانوا يجدون أن غرابا يدير الأمور بطريقة سيئة جداً، كان يرفض كل يوم متطوعين، ومتطوعين متحمسين، من أبناء الأدغال الكارهين لها.

قلما كان الصيد حول القرية يقدم لهم ما يكفيهم من القوت. لم يكونوا يلتهمون أقل من جدة في الأسبوع، لعدم توفر الغزلان، كانت ميليشيا السيد تمضي إلى التدريب كل صباح، منذ الساعة السابعة، ولما كنت مقيماً في ركن من كوخه، كان قد خصني به، فقد أتيت لي أن أطلع عن كثب على ذلك العرض الفروسي. ما من جنود في أي جيش من جيوش العالم على الإطلاق يمكن أن يكونوا مطواعين مثلما كان أفراد هذه الميليشيا. فلدى أي إشارة من السيد كان هؤلاء البدائيون يذرعون الرمال إليه، أربعة منهم، ثمانية، ثم الاثنا عشر. كانوا يفرغون جهوداً جبارة، متخيلين أنهم يحملون حقائب، أو أحذية أو حتى حريات وأكثر من ذلك، متخذين هيئة من يستخدم تلك الأشياء. كل ذلك كان نابعاً بالتحديد من طبيعتهم القوية جداً والأليفة للغاية: لم يكونوا يرتدون سوى ما يبدو أنه سروال قصير من الخاكي، وكل ما عدا ذلك، ينبغي أن يكون متخيلاً منهم وموجوداً في نظرهم، وبإيعاز قاطع من السيد، كان

هؤلاء المحاربون البارعون يضعون حقائبهم المتخيلة على الأرض، ويعدون في الفراغ راشقين أعداء متخيلين بحراب وهمية، وبعد أن يتظاهروا بفك أزرارهم الوهمية يشكلون حزماً غير مرئية، ولدى إشارة أخرى من السيد كانوا يتحمسون بشغف لإطلاق رشقات من بنادق موهومة. حين كنت أراهم ينتثرون، ويقومون بحركات ايمائية، على هذا النحو، ويضيعون، بجنون في دانتيل من حركات لا انتظام فيها، ولا جدوى، كنت أشعر بتثبيط مضمّن إلى أبعد حد، لا سيما أن الحر اللاهب والاختناق في توغو، واللذين كان الرمل يزيد من كثافتهما، ما بين صفحتي ماء البحر والنهر، الصقيلتين المتعاقبتين. كانا يجعلانك تقسم بمؤخرتك بأنهم كانوا يجلسونك كرهاً فوق قطعة سقطت للتو من الشمس.

غير أن هذه الشروط القاسية لم تكن تمنع السيد من أن يزعم بكل ما أوتي من قوة، كانت عواءته تتردد مدوية فوق ساحة تدريبه المبتكر، وتصل أصداؤها حتى ذرى أشجار الأرز المهيبة على التخوم المدارية، وبعيداً جداً كانت تهدر أيضاً كالرعد، إيعازاته «استعداد».

في أثناء ذلك الوقت كان الملازم غرابا يقيم ميزان عدله، وسنعود إلى ذلك. ويشرف أيضاً من بعيد، دون انقطاع، وفي ظل كوخه على ترميم جسره الخيزراني المتآكل. ولدى كل قدوم للباتوتاه، كان ينتظر متفائلاً ومتشككاً أعدته لقواته. كان يطالب بمعدات كاملة منذ عامين في الحقيقة. ولكونه كورسيكياً، فقد كان غرابا يشعر ربما بالإذلال أكثر من الآخرين جميعاً، وهو يلاحظ أن ميليشياته كانت عارية تماماً.

في كوخوا، كوخ السيد، كان هذا يدير تجارة صغيرة، تكاد تكون سرية. أشياء صغيرة الحجم، وفضلات أطعمة مختلفة. وفضلاً عن ذلك فإن كل

تجارة التهريب في توبو كانت تمر من خلال السيد، لأنه كان الوحيد الذي يملك احتياطياً من البضائع، تبغ بعساليجه، داخل رزم، بضعه ليطرات من الكحول وبضعة أمتار من النسيج القطني.

كان الميليشيون الاثنا عشر يشعرون بتعاطف حقيقي تجاه السيد، كان ذلك مرئياً، على الرغم من أنه كان يكيل لهم الشنائم المقذعة، ويرفسهم ببوطه على مؤخراتهم ظلماً وعدواناً، ولكنهم كانوا يميزون لديه، هؤلاء الميليشيون العراة، عناصر أكيدة من القرابة الوشيحة، قرابة البؤس المدقع، الفطري. كان التبغ يقربهم إلى بعضهم، لقد كانوا بأجمعهم سوداً. ثمة الكثير من الأشياء المشتركة بينهم. كنت قد حملت معي بعض الصحف الأوربية، تصفحها السيد برغبة من يهتم بالأخبار، ولكنه على الرغم من أنه أعاد تصفحها ثلاث مرات كي يركز انتباهه على تلك الأعمدة المتنافرة، فإنه لم يفلح في ذلك: «أنا الآن، اعترف لي بعد محاولته غير المجدية، لا أبالي بالأخبار.. منذ ثلاث سنوات وأنا قابع هنا لا أريم» لم يكن ذلك يعني أن السيد كان حريصاً على إدها شي وهو يمثل دور الناسك المنعزل، ولكن اللامبالاة التي أظهرها العالم بأسره تجاهه، قد اضطرتة، هو، الرقيب المجند، إلى أن ينظر، هو بدوره، إلى العالم كله خارج توبو، على أنه نوع من عالم القمر.

كان السيد، فضلاً عن ذلك يتمتع بطبيعة خيرة، كان خدوماً كريماً. أدركت هذا بعد مضي قليل من الوقت، كان استسلامه الدليل يظنيه، هذه المزية الأساسية التي تجعل من السهل إزهاق أرواح جنود الجيش الفقراء، مثلما من السهل إيقاؤهم على قيد الحياة، لا يسأل الناس الصغار أبداً أو تقريباً، عن السبب في كل ما يقاسونه، إنهم يكرهون بعضهم بعضاً. وهذا يكفي.

في قلب بحيرة الرمل المحرق، العديم الرحمة، حول كوخنا. كانت تنبت على نحو متفرق زهور صغيرة نضرة، قصيرة العمر، خضراء، ووردية وقرمزية، لا نراها في أوروبا إلا مرسومة على بعض الأواني الخزفية.. نوع بدائي بالغ الحيوية من نبات الدودية الأرجوانية. كانت تتحمل فظاعة النهار الطويل مغلقة تويجاتها. وما أن يحل المساء حتى تتفتح مرتعشة بلطف مع أولى النسومات الفاترة.

رأني ألسيد، ذات يوم، منشغلاً بقطف باقة من هذه الزهور، فنبهني قائلاً: «اقطفها حينما تشاء ولكن لا تسق تلك العرائس الصغيرات، فالماء يقتلها. إنها هشة للغاية وليست مثل زهور «دوار الشمس» التي كنا نزرعها ونتعهدها في رامبوييه. لقد كان من الممكن التبول فوقها، تلك، لأنها تشرب كل شيء.. الزهور مثل البشر... كلما كانت ضخمة كانت خرقاء!» كان يلمح بذلك إلى الملازم غرابا بالتأكيد، والذي كان جسمه مفرط الضخامة، بنحو فاجع. كانت يدها قصيرتين، أرجوانيتين. مريعتين، كانتا من الغرابة بحيث لا يمكن فهمهما على الإطلاق، ولم يحاول غرابا أن يفهم شيئاً عنهما مع ذلك. أقمت أسبوعين في توغو، تقاسمت خلالهما مع ألسيد لا العيش والطعام فقط. وقمل السرير (كان له نوعان) والرمل بل والكينين أيضاً، وماء البئر القريب الفاتر بالطبع، والمسبب للإسهال.

دعاني غرابا بحرارة ذات يوم، وعلى نحو استثنائي، لتناول القهوة في كوخه. كان غرابا غيوراً، لم يكن يسمح لأي شخص بأن يرى خليلته الزنجية. كان قد اختار يوماً لدعوتي ذهبت زنجيته فيه لزيارة أهلها في القرية. كان ذلك اليوم أيضاً يوم انعقاد محكمته، لقد أراد أن يدهشني.

حول كوخه تجمع أصحاب الشكاوى بعد أن وصلوا باكراً. حشد متتافراً، ملون الوزرات، خليط من شهود مصاصئين، ومن متقاضين، ومن جمهور بسيط محتشد، اختلطوا في حلقة واحدة تفوح منهم رائحة الثوم والصنل والزبدة، والعرق الأصفر الزعفراني. وعلى غرار ميليشيي السيد، كانت تلك الكائنات قاطبة حريصة، قبل كل شيء كما يبدو، على أن تتحرك بهياج وسط دائرة الوهم والخيال، كانت تفرقع بلغة الصناجات، فيما هي تلوح، فوق رؤوسها، بأيدي متشنجة، وسط عاصفة من الحجج والأدلة.

كان الملازم غرابا غائصاً داخل أريكته من الأسل الهندي صارماً بأسنانه، متذمراً، مبتسماً أمام كل هذه الحشد المتتافراً. كان يعتمد في حكومته هذه على مترجم الموقع الذي كان يغمغم له، بالمقابل وبصوت عال، بالتماسات وطلبات لا تصدق.

كانت القضية الأولى تدور حول خروف أعور رفض والدا إحدى الفتيات إعادته إلى صاحبه، ذلك أن ابنتهما التي باعاها شرعاً بهذا الخروف لم تسلم إلى زوجها إطلاقاً بسبب أن أخت الزوج قتل في تلك الأثناء أخت والد الزوجة، وربما كانت حول تظلمات أخرى، أكثر تعقيداً.

مئة من الوجوه المشبوبة بالانفعال من جراء تلك المصالح المتضاربة، وما تتضمنه من مشكلات، كانت تكشف لمقامنا الرفيع عن أسنانها، وهي تطلق طقطقات صغيرة صماء، أو تتبقي بقفات عالية تمثل كلها لغات زنجية.

بلغ الحر ذروته، كانت العيون تتفحص السماء من زاوية السقف كي تتساعل إن لم يكن ثمة كارثة قادمة. ولكن لم يكن ثمة إعصار.

«سأوفق بينهم جميعاً، في الحال، صمم غرابا أخيراً بعد أن دفعته الحرارة والمماحكات إلى اتخاذ قرار. أين والد الزوجة؟ قاده إليه.

— ها هو، أجاب عشرون زنجياً غراباً، دافعين أمامهم زنجياً هراً
رخواً جداً، ملفوفاً بوزرة صفراء تغطيه بنحو لائق. على الطريقة الرومانية.
كان العجوز يؤكد بقبضة يده المغلقة على كل ما كان يقال حوله. لم يكن يبدو
عليه مطلقاً أنه جاء إلى هنا كي يشتكي، وإنما، بالأحرى، كي يمنح نفسه
بعض التسلية بمناسبة المحاكمة التي لم يعد ينتظر منذ زمن طويل. نتيجة
إيجابية منها

— هيا. أمر غراباً، عشرون جلدة، لنته من هذا، عشرون جلدة بالسوط
لهذا العجوز القواد، فذلك يعلمه أن يأتي ليزعجنا كل خميس، منذ عامين
بقضية خروفه الفارغة.

رأى العجوز أربعة ميليشيين مفتولي العضلات، يدنون منه. لم يكن
يدرك في البداية، ما كانوا يريدونه، ثم جعل يقلب عينيه اللتين احتقنتا بالدم
على غرار حيوان شائخ مذعور، لم يكن قط، قد تعرض للضرب من قبل. لم
يحاول أن يقاوم في الحقيقة، ولكنه لم يكن يعرف أيضاً كيف سيضع جسمه
كي يتحمل بأقل قدر ممكن من الألم، هذه الجولة من جولات العدل.

جره الميليشيون من قماش وزرته، أراد اثنان منهما أن يجثو على
ركبته، فيما أمره الآخرون، في المقابل أن يتمدد على بطنه، وأخيراً اتفقوا
جميعاً بأن يطرحوه أرضاً، ببساطة مثلما هو، ثم شمروا وزرته وانهالوا على
ظهره واليتيه الرخوتين، دفعة واحدة برشقة من عصا مرنة تجعل أتاناً قوية
تجأر طوال ثمانية أيام. كان العجوز يتلوى، فينبجس الرمل الناعم من حول
بطنه مبللاً بالدم. كان يبصق الرمل وهو يصيح، حتى ليقول من يراه بأنه
كلبة حامل من كلاب الصيد الضخمة القصيرة القوائم يتسلون بتعذيبها.

أطبق للصمت على شهود ذلك المجلس القضائي طوال فترة تنفيذه. لم يكن يُسمع سوى صرخات العجوز. نفذ الأمر إذن. كان العجوز الفاقد الوعي بسبب الضرب يحاول أن ينهض ويستجمع وزرته حوله على الطريقة الرومانية، كان ينزف بغزارة من فمه وأنفه، وخصوصاً من حول ظهره، ابتعد الحشد. مصطحبين العجوز مغمغمين بألف نميمة وتعليق، برنة جنازية فاجعة.

أشعل الملازم غراباً سيجارة، كان حريصاً أن يبقى على مسافة من هذه الأشياء. لم يكن يابيه بأن يذهب بي التفكير إلى أنه كان أكثر نيرونية من غيره، بل كان فقط لا يحب أن يضطره أحد إلى التفكير، كان ذلك يزعجه كثيراً. أما ما كان يثير نزقه في مهمته القضائية السامية تلك فهي القضايا التي كانوا يطرحونها عليه.

شهدنا أيضاً خلال اليوم ذاته تأديبين آخرين يستحقان الذكر، يتعلقان بقضايا أخرى مثيرة للبلبله. مهور مستردة، سموم مميته، وعود كاذبة، أبناء مشكوك ببنتوهم.

«آه، لو كانوا يعلمون جميعاً، كم أستخف بهم، وبخصوماتهم لما غادروا غابتهم، وجاؤوا إلى هنا ليقصوا علي بلاهاتهم ويزعجونني، هل أطلعهم على ما أفكر به؟ غير أنني، استأنف غراباً، بت مقتنعاً بأنهم يحبون محكمتي، هؤلاء الأوغاد. منذ سنتين وأنا أحاول تغييرهم منها، ومع ذلك فهم يعودون كل خميس.. صدقني أيها الشاب أن الذين يعودون هم أنفسهم دوماً على وجه التقريب. داعرين، سفلة..»

مضى بنا الحديث إلى تولوز حيث يمضي غراباً اجازاته بانتظام، وحيث كان يفكر أن يستقر بعد ستة أعوام، حين يحال على المعاش. وبينما كنا نتناول بكل تهذيب، شراب الكالفادوس إذا بزنجي يعكر هدوعنا من جديد،

كان مستحقاً لما لا أدري من قصاص، ومتأخراً عن تلقي هذا القصاص.. عاد من تلقاء نفسه متأخراً ساعتين عن الآخرين ليقدم نفسه كي يجلد بعضاً الأطموط، ولأنه قطع مسافة يومين وليلتين من قريته إلى هنا عبر الغابة، من أجل هذه الغاية، فقد كان عازماً أن لا يعود إلى قريته خائباً. غير أنه كان متأخراً، وكان غراباً متشدداً بشأن دقة نظامه الجزائري «للأسف، انها غلطته. لم يكن عليه أن يذهب إلى قريته في المرة الأخيرة، لقد أمرت بجلد هذا الوغد خمسين جلدة في خميس سابق».

احتج الزبون مع ذلك، فقد كان لديه عذر مقنع. كان عليه أن يعود إلى قريته بسرعة، لدفن أمه. كان لديه وحده ثلاث أمهات أو أربع، «سيتم جلده في الجلسة القادمة»

غير أن هذا الزبون لم يكن لديه الوقت للذهاب إلى قريته والعودة إلى هنا يوم الخميس القادم. كان يحتج، ويبيدي كثيراً من العناد. كان لا بد من دفع هذا المازوخي بعيداً بركلات قوية على البيتية. وقد أحدث لديه هذا سروراً مع ذلك ولكنه ليس كافياً.. وذهب أخيراً إلى السيد الذي استفاد من الوضع ببيع هذا المازوخي تشكيلة من عساليج التبغ في رزم صغيرة، ومسحوقاً للاستنشاق.

بعد أن تسليت كثيراً بهذه المشاهدات، استأذنت من غرابا الذي انسحب ليأخذ قيلولة في أعماق كوخه، حيث كانت ترتاح خليلته الزنجية التي عادت من قريتها. كان لديها زوج من الأثداء الرائعة تلك الزنجية. كانت قد تربت في كنف راهبات الغابون. لم تكن تلك الصبية الغضة تتكلم الفرنسية مثل الفرنسيين وحسب، بل إنها كانت تعرف أيضاً كيف تقدم الكينين داخل المري، وكيف تلاحق البراغيث الخاشفة الناخرة للجلد في أعماق باطن القدم،

كانت تعرف كيف تجعل نفسها محببة بمئة طريقة للضابط الاستعماري، دون أن تتعبه، أو حين تتعبه، وقتما يشاء.

كان آسيد ينتظرنى وقد بدا مغتاضاً بعض الشيء، كانت تلك الدعوة التي شرفني بها الملازم غرابا هي التي دفعته من دون شك ليُبوح لي بأسرار كبيرة. كانت قذرة تلك الأسرار، لقد صنع لي دون أن أطلب منه صورة لغرابا أشبه بالبراز الذي يفوح بالروائح. أجبته بأن ذلك كان هو رأيي في جميع الأحوال. كانت نقطة ضعف آسيد هي اتجاره سرّاً، على الرغم من الأنظمة العسكرية التي تحظر ذلك. مع زواج الغابة المجاورين، ومع الاثني عشر من المجندين الزنوج في ميليشياه أيضاً. كان يزود هذا العالم الصغير بالتبغ من خلال الكمبيالات، دون رحمة. فحينما كان ميليشيوه يتسلمون منه حصتهم من التبغ، لم يكن يتبقى لهم أي رصيد من رواتبهم. كانوا قد دخنوا به بأكمله. ثم إنهم كانوا يدخنون ديناً على رواتبهم. تلك الممارسة المحدودة كانت تسبب الضرر، كما يزعم غرابا، لعائدات الضرائب، نظراً إلى ندرة النقود العينية في المنطقة.

لم يكن للملازم غرابا يريد أن يثير في ظل سلطته قضية في توبو، ولكنه لستاء أخيراً ربما بسبب غيرته من آسيد، كان يريد أن تظل نقود هؤلاء البلديين للضرائب حصراً. لكل إنسان نسيجه، ومطامحه للصغيرة.

كان للدين على للراتب قد بدا في أول الأمر مدهشاً، بل وحتى قاسياً للمجندين السود الذين كانوا يعملون فقط من أجل أن يدخنوا تبغ آسيد.. ولكنهم ما لبثوا أن تعودوا على تلك برفسات القم على المؤخرة. لما الآن فلم يعودوا يذهبون حتى لقبض راتبهم، لأنهم كانوا قد دخنوا به سلفاً بكل طمأنينة، عند تخوم كوخ آسيد بين الأنهار الصغيرة المتدفقة، وبين تكريبين وهميين.

كانت مساحة توبو صغيرة جداً إجمالاً، وكان يسود فيها مع ذلك نظامان من نظم الحضارة، نظام الملازم غرابا، على الطريقة الرومانية بالأحرى، والذي كان يجلد الزنجي الخاضع لهذا النظام لينتزع منه الجزية والتي يقطع منها غرابا، بحسب تأكيد آسيد حصة شخصية شائنة، ومن ثم نظام آسيد بحصر المعنى، وهو أكثر تعقيداً، تتبدى فيه علامات الطور الثاني من أطوار الحضارة، ولادة زبون في كل مجند زنجي، تركيب تجاري - عسكري في المحصلة، أكثر حداثة بكثير، وأكثر خبثاً، إنه نظامنا.

فيما يتعلق بالجغرافيا، لم يكن الملازم غرابا يعتمد في تقديراته للأراضي المتاخمة لمركز إدارته إلا على بضع خرائط تقريبية جداً كان يمتلكها في الموقع، لم يكن لديه كذلك رغبة كبيرة في معرفة المزيد بشأن هذه الأراضي.. فالأشجار والغابة في نهاية المطاف، معروفة، ومرئية بوضوح كامل من بعيد.

كانت بعض القبائل المبعثرة للغاية، والمتوارية داخل الأوراق، وفي ثانياً ذلك المنقوع الهائل، تتعفن هنا وهناك ما بين براغيثها وذبابها، مخبولة بطواطمها، مكتظة بطونها دوماً بالمينهوت^(١). قبائل في طور البراءة الأولى، ما تزال تأكل اللحم البشري، قد خبلها البؤس المدقع ودمرتها ألف حائجة. ما من فائدة ترجى من الاقتراب منها، وما من شيء يبرر القيام بحملة إدارية مؤلمة ودون مردود. وحينما كان غرابا يعجز عن فرض قانونه، يلتفت بالأحرى صوت البحر متأملاً ذلك الأفق الذي جاء منه في أحد الأيام، والذي سيعود من خلاله ذات يوم. إذا ما سارت جميع الأحوال سيراً حسناً..

(١) المينهوت: جذور نباتية يستخرج منها دقيق نشوي.

تلك الأماكن غدت أليفة جداً ومحبة إلى نفسي في النهاية غير أنه كان يتوجب علي التفكير بمغادرة توبو أخيراً صوب المخزن الذي كنت في حاجة من أجل الوصول إليه إلى بضعة أيام من الملاحه النهريه، ومن الضرب في الغابات.

توصلنا أنا والسيد إلى حالة من الوئام والتفاهم العميق. كنا نحاول معاً صيد أسماك أبو منشار، ذلك النوع من أسماك القرش التي تبيض وتفرخ على مقربة من الكوخ، كان السيد أخرج في هذه اللعبة بقدر ما كنت كذلك. لذلك لم نكن نصيد أي شيء.

لم يكن كوخه يحتوي من الأثاث سوى على سريره القابل للتفكيك، وسريري، وبضعة صناديق فارغة ومملوءة، كان خليفاً، مثلما بدا لي، أن يكون قد خبأ مبلغاً جيداً من المال في مكان ما، من عوائد تجارته.

«أين وضعتها... سألته مرات عدة، أين تخبئ نقودك القنرة؟ كان هذا من أجل إثارته، هل ستفقها على اللهو والمجون حينما تعود؟» كنت أناكده..تخيلته، عشرين مرة، على الأقل، ونحن نتناول «معلبات البندورة» التي لا مفر منها، يخوض من أجل متعته في مغامرات عجيبة لدى عودته إلى بوربو، منتقلاً من ماخور إلى ماخور. لم يكن يجيبني بشيء، كان يضحك حسب، لم يكن ثمة أي موضوع آخر للحديث.

خطر لي، قبيل رحيلي أن أكتب إلى السيد بوتاكى أعلمه بأخباري، وتعد السيد بإرسال رسالتي في بريد البابواته القادم. كانت أدوات الكتابة الخاصة بالسيد محفوظة في علبة بسكويت صغيرة، تشبه العلبة التي رأيتها لدى برانليدور، شبيهاً تماماً. كان لدى جميع الرقباء الذين أعيد تجنيدهم العادات نفسها، ولكنه حينما رأني أفتح علبته، فاجأني بحركة سريعة ليمنعني من

فتحتها... استأت من تصرفه، لم أكن أعلم لماذا تصرف على هذا النحو، وضعت اللعبة على الطاولة. «آه. افتحها، هيا، قال لي أخيراً .. هيا ليس لذلك أية أهمية» لمحت للتو صورة فوتوغرافية لفتاة صغيرة كانت ملصقة على ظهر الغطاء.. لا يظهر فيها سوى وجهها، وجه صغير عذب للغاية، وأقراط طويلة مثلما كانوا يعلقونها في ذلك الوقت. أخذت الورقة والريشة، وأغلقت اللعبة بحركة سريعة، كنت منزعجاً من تطفلي، ولكنني تساءلت بيني وبين نفسي لماذا أثار لديه ذلك كل هذا الاضطراب.

تصورت على الفور، بأن الأمر يتعلق بابن له كان قد تحاشى الحديث عنه أمامي حتى ذلك الوقت. لم أسأله عن ذلك، ولكنني سمعته خلف ظهري يحاول أن يقول لي شيئاً بشأن تلك الصورة بصوت متهدج غريب، لم أكن قد سمعته منه سابقاً. كان يغمغم غمغمة. لم أعد أعرف أين أضع نفسي، كان خليقاً أن أساعده كي يبوح لي بما يكنه في صدره ولكنني لم أكن أعرف كيف أتصرف في تلك اللحظة، كنت متأكداً بأن ما سيبوح به يشق سماعه. لم أكن أحتمل ذلك، في الحقيقة.

«هذا لاشيء، سمعت السيد أخيراً، تلك هي ابنة أخي... لقد ماتا كلاهما».

— والداها؟

— نعم والداها!

— فمن يرببها الآن إذا؟ أمك؟ سألته، بهذا النحو، كي أظهر له

اهتمامي.

— أمي، لم يعد لي أم كذلك...

— من إذن؟

— ايه، حسناً، أنا»

كان آلسيد يضحك هازئاً، وقد اشتد احمراره، كما لو أنه كان قد فعل شيئاً ما غير لائق كلياً، ثم تابع بسرعة.

«هذا يعني، سأشرح لك... أنني عهدت بتربيتها إلى الراهبات... ولكن ليس إلى راهبات الفقراء، أنت تفهمني، أليس كذلك؟ إلى راهبات «راقيات». وما دمت أنا من يهتم بها، يمكنك إذن أن تكون مطمئناً. لا أحب أن ينقصها شيء. اسمها جينيت.. إنها فتاة صغيرة لطيفة، مثل أمها... تكتب لي... وهي تحرز تقدماً... المشكلة فقط، أنت تعلم، أن ذلك يكلف غالباً.. ولا سيما أنها الآن في العاشرة من عمرها... كنت أود أن تتعلم البيانو في الوقت ذاته... ما رأيك أنت بالبيانو؟ إنه جيد، أليس كذلك، من أجل الفتيات؟ هل تعتقد ذلك؟ واللغة الإنكليزية؟ إنها مفيدة أيضاً... هل تعرف الإنكليزية أنت...»

بدأت أنظر إلى آلسيد عن قرب أكثر، فيما كان يعترف بخطئه من أنه لم يكن كريماً كفاية مع شاربه الصغير المدهون ومع حاجبيه المنحرفين الغربيين، مع جلده المتكلس. لقد بدا آلسيد حياً. كان عليه أن يقوم بتوفيرات من راتبه الزهيد، من علاواته الضئيلة، ومن تجارته السرية المحدودة... طوال شهور وسنين في هذه التوبو الجهنمية... لم أكن أعرف بماذا أجيبه، لم أكن جديراً بذلك. ولكنه تجاوزني كلياً بقلبه الذي اكتشفت أنه بالغ الحمرة. كنت إلى جانب آلسيد مجرد شخص فظ عاجز، ومبتذل الحس، عبثاً وباطلاً كنت. لا نكران في ذلك. كل شيء كان واضحاً كل الوضوح. لم أعد أجرو على التحدث إليه... شعرت فجأة بأنني غير أهل على الاطلاق للتحدث معه، أنا الذي كنت بالأمس استخف به، وحتى أزدريه إلى حد ما.

«لست محظوظاً، تابع آلسيد، دون أن يدرك بأنه كان يبلبني بأسراره الحميمة. تخيل بأنها منذ عامين أصيبت بشلل الأطفال. تصور ذلك، أنت تعرف ما يعنيه شلل الأطفال؟».

شرح لي حينئذ بأن ساقها اليسرى قد ضمرت وأنها تتابع علاجاً بالكهرباء في بورودو عند طبيب أخصائي.

«هل تعتقد بأنها ستشفى؟ عبر عن قلقه

أكدت له بأنها ستعافى تماماً مع الزمن وبفضل العلاج الكهربائي. كان يتكلم عن أمه التي ماتت وعن مرض صغيرته بكثير من الحذر. كان خائفاً، وحتى من مسافة بعيدة، أن يسبب لها الأذى

«هل، رأيتها بعد مرضها؟

— لا.. كنت هنا

— هل ستذهب عما قريب؟

— أعتقد بأنني لن أتمكن من ذلك قبل ثلاث سنوات.. أنت تفهم، أنا هنا، أقوم بتجارة صغيرة، هذا إذن، يساعدها جيداً، إذا ذهبت في اجازة الآن، فإن موقعي هنا سيصبح مشغولاً، حينما أعود، خصوصاً مع ذلك الوحش، غرابا هكذا طلب آلسيد أن يضاعفوا له إقامته، وأن يجعلوها ست سنوات في توبو، بدلاً من ثلاث، من أجل ابنة أخيه الصغيرة التي لم يكن لديه منها سوى بضع رسائل، وتلك الصورة الفوتوغرافية. «ما يقض مضجعي، حينما أنام، هو أنه ليس لها أحد هناك في أيام العطل... هذا قاسٍ بالنسبة إلى طفل صغير...»

كان آلسيد، بالتأكيد، يعيش في نوع من التسامي بحرية، ويناغي الملائكة بألفة، ودونما كلفة تقريباً من خلال تلك الطفلة، لم يكن يبدو عليه ذلك

اطلاقاً. كان يقدم دونما تردد تقريباً لفتاة صغيرة، تربطها به قرابة غامضة سنوات من العذاب، إلغاء حياته البائسة وسط تلك الوحشة المهلكة، دون شرط، ودون مساومة، ودون مصلحة سوى مصلحة قلبه الطيب، كان يقدم لهذه الفتاة الصغيرة أيضاً من الحنوكي يعيد بناء عالم بأكمله، دون أن يلحظ أحد ذلك.

نام آلسيد فجأة، على ضوء الشمعة، نهضت لأتملى جيداً ملامحه على الضوء، كان ينام مثلما ينام كل الناس، مظهره عادي تماماً، ومع ذلك، فلن يكون من الحماقة لو كان ثمة شيء ما يميز الأبرار من الأشرار.



<< يمكن التصرف بطريقتين اثنتين من أجل اختراق الغابة، إما بعمل نفق فيها على منوال الجرذان داخل حزم العشب، وتلك هي الطريقة التي تخنق الأنفاس، وقد أعرضت عنها، وإما تجشم صعود النهر إذن، متكوماً في قاع زورق مقدود من جذع شجرة، مدفوعاً بالمجداف، ما بين تعرجات النهر وحرجاته المتلبدة، مترقباً، على هذا النحو نهاية نهارات ونهارات، متعرضاً خلالها، على نحو يائس، للهبب الأشعة الحارقة مندهلاً وسط هؤلاء الزوج الصخابين. لا بد من الوصول إلى حيث ينبغي بأفضل ما ينبغي من السبل.

كان المجدفون، في كل مرة يهيمون فيها بالانطلاق بحاجة إلى وقت طويل، كي يجدفوا معاً بإيقاع واحد منتظم، وقد ثار بينهم الجدل، تحركت لوحة مجداف واحدة في البداية، ثم اثنتان أو ثلاثة موزونة على إيقاع صيحات هادرة، وردت الغابة بدوامة من الأصوات. وانساب القارب. وتناغمت حركة المجداف. أمواج، غمغمت، ويرتد بصرك إلى الخلف، لترى البحر وهو ينبسط خلفك نائياً. وتمتد أمامك مساحات صقيلة تمخرها بجهد شديد. كان السيد، ما يزال فوق الرصيف. كنت ألمح من بعيد، ملفوفاً بضباب النهر، تحت قبعته الضخمة، ليس ثمة سوى قطعة من رأس، ووجه صغير كقرص من الجبن، أما ما تبقى منه أسفل ذلك فكان يتموج داخل قميص ضائع وسط ذكري غريبة لبنطال أبيض.

هل ستستطيع تلك القرية الملتهبة دوماً أن تحمي نفسها أمام المنجل الماكر للنهر ذي المياه السمراء، وهل ستمكن أكوأها الثلاثة المكتظة

بالبراغيت من أن تتمالك نفسها دوماً وتظل واقفة؟ هل هناك أيضاً غرابيات جدد (ج غرابا)، وآسيدات مجهولون (ج آسيد) يدربون مجندين حديثين على تلك المعارك العابثة؟ هل ينشرون فيها تلك العدالة بتواضع؟ والماء الذي يحاولون شربه هل هو بتلك الزناخة دوماً وبتلك السخونة، وهل سيتقزز منه فمك طوال ثمانية أيام بعد كل شربة منه؟ ولن تجد بعد، قطعة ثلج في أي وقت من الأوقات. وتلك المعارك التي تخوضها أذنك مع طنين الكينين المتواصل والذي يسلمها إلى طنين الذباب؟ والسوفات؟ والكلوريدات؟ ولكن، وفي البداية، هل ما يزال يعيش في هذا الجو الفرني زنوج لم تجف عروقهم بعد. ولم تأكل جلودهم البثور والدمامل؟ لعل أحداً لا يعود موجوداً قط. لعل شيئاً من كل هذا لا يبقى له أثر. لعل الكونغو الصغرى تلعق ذات مساء لعقة قوية من لسانها توبو، وتمسحها عن الوجود، بإعصار مدمر، تمسحها عن آخرها، ويخفي اسمها من الخرائط، ولا يبقى سواي في النهاية، كي أتذكر آسيد. لعل ابنة أخيه تتساه أيضاً. ولعل الملازم غرابا لا يرى تولوزه أبداً. لعل الغابة التي كانت ترصد على الدوام الكثيب الرملي عند رحيل فصل الأمطار تسترجعه كلياً، وتسحقه تماماً تحت ظلال أشجار أكاجو عملاقة. وحتى الزهور الصغيرة التي نبتت في الرمل على نحو ليس في الحسبان، والتي لم يكن آسيد يريد سقيها لا يعود لها وجود أبداً.

ماحدث في الأيام الثمانية من صعودي ذلك النهر، سيظل لأمد طويل عالقاً بذاكرتي. انقضت تلك الأيام في مراقبة درابير المياه الطمبية في جوف القارب، وفي اختيار ممر خفي إثر ممر، ما بين الأغصان الضخمة والمائلة التي كان القارب يتجنبها. محكومين بالأشغال الشاقة.

كنا نتوقف بعد كل غسق عند شناخ صخري نبيت ليلنا فوقه. وذات صباح غادرنا نهائياً ذلك القارب البدائي القدر، ودخلنا الغابة من ممر محتجب، ينسل داخل الغيش الأخضر الندي، مضاء فقط، من موضع إلى موضع بشعاع من الشمس ساقط من أعالي تلك الكاتدرائية اللانهائية من الأوراق. أشجار هائلة مقطوعة، كانت تضطر مجموعتنا إلى كثير من الالتفافات، كان يمكن لمترو بأكمله أن يتحرك داخل جوفها بكل حرية.

عاد إلينا النور الساطع في إحدى اللحظات، كنا قد وصلنا أمام فسحة مستصلحة من الغابة، كان علينا الآن أن نتسلق ربوة عالية، جهد جديد آخر. كانت تلك الربوة التي بلغنا قممتها أخيراً تتوج الغابة اللانهائية، لاحت فوقها ذرى صفراء وحمراء وخضراء. كانت مأهولة بالسكان، تعتصر كل ما في الجبال والوديان من ثروات. غنية غنى السماء والماء. كان الرجل الذي ذهب يبحث لنا عن بيوت السكان ما يزال بعيداً، هناك في واد صغير مثلما أشاروا لي. كان ينتظرنا.

بين صخرتين هائلتين، كان يقوم نوع من كوخ في مأمن، كما أعلموني، من الأعاصير الشرقية الأشد تدميراً، والأكثر هيجاناً. وفكرت بأن تلك كانت مزية حقيقية، غير أن الكوخ ذاته كان من دون ريب في الدرك الأسفل من التصدع والهليلة. مسكن نظري تقريباً، متداع بكل أركانه. كنت أتوقع فعلاً شيئاً من هذا القبيل، فيما يخص مساكن أولئك الأقوام، ولكن الواقع مع ذلك، كان يتجاوز كل توقعاتي

كان علي أن أبدو لزميلي هنا حزيناً للغاية، وبادرني بالحديث بخشونة بالغة كي يخرجني من أفكاري التي كنت غارقاً فيها. «هيا إذن، ستكون هنا في وضع أقل سوءاً مما كنت عليه في الحرب. يمكن للمرء هنا في النهاية أن

يتدبر أموره. إنه يأكل بصورة سيئة، هذا صحيح. أما بالنسبة إلى الشرب فهو وحل حقيقي! ولكنه ينام هنا كما يحلو له. ما من مدافع هنا يا صديقي ولا رصاص. وفي المحصلة، ذلك وضع في غاية الصعوبة» كان يتكلم بلهجة المدير العام تقريباً، ولكن عينيه كانتا شاحبتين مثل عيني السيد وفوجئت بحديثه عن الحرب والمدافع.

كان يقارب الثلاثين من العمر على الأرجح، ملتحياناً. لم أكن قد نظرت إليه ملياً حينما وصلت، لفرط ما كنت مبلبلاً في تلك اللحظة من بؤس الكوخ الذي كان يقيم فيه، والذي سيؤول إلي حتماً، ويصبح مأواي خلال سنين ربما. ولكنني حينما عاينته فيما بعد، وجدت في ملامح وجهه شخصاً مغامراً من دون ريب، وجه رسمت زواياه بحدة، ورأساً من تلك الرؤوس المتمردة التي تدخل إلى لب الوجود بدلاً من أن تتدرج على سطحه، بأنف ضخمة ومدور. ووجنات مملوءة بأخاديد أشبه بزوارق محفورة في الجذوع، هادرة في وجه القدر. كان ذلك الرجل تعيساً غاية التعاسة.

«هذا صحيح، تابعت الحديث، لا شيء أسوأ من الحرب» كان ذلك كافياً في تلك اللحظة كحوار فيما بيننا. لم يكن لدي رغبة بالتحدث عن الأوضاع أكثر من ذلك. ولكنه هو الذي استأنف الكلام حول الموضوع ذاته.

«الآن وقد أطالوا أمد الحرب على الأخص .. أضاف .. ستري أخيراً يا صديقي أن الحياة هنا ليست مسلية جداً.. هذا كل ما في الأمر!.. لا شيء تفعله البتة.. كما لو أنك في نوع من إجازة... إجازة فقط ... أليس كذلك. كل شيء يتعلق بالطباع، وأخيراً لا يسعني قول أي شيء.

والماء؟ سألته، بعد أن أثار قلقي منظر الماء في القدر وسكبت منه بنفسي، كان مشوباً بصفرة كدرة. وحين شربت منه جرعة أثارت في الغنيان، كان ساخناً مثل الماء في توبو .

«هل هذا هو الماء؟» كانت متاعب الماء على وشك أن تبدأ. «نعم! لا يوجد هنا غير هذا الماء. بالإضافة إلى المطر.. ولكن المشكلة فقط هي أن الكوخ لن يصمد طويلاً حينما تمطر، هل ترى في أي حال هو الكوخ؟» كنت أرى بالطبع.

«بالنسبة إلى الطعام، مامن شيء سوى المعلبات. منذ عام وأنا أكل منها، ولم أمت بسببها مع ذلك!.. إنها طعام يسهل تناوله، بمعنى ما، ولكنه لا يستقر في الجسم. أما الزوج فيأكلون المايتهوت المتعفن. ذلك شأنهم، إنهم يحبون ذلك... منذ ثلاثة شهور وأنا أستفرغ كل شيء. إنه الإسهال وربما هي الحمى أيضاً. لدي الإثتان معاً... منذ الساعة الخامسة لا أعود أرى الأشياء بوضوح، ولهذا عرفت بأنني مصاب بالحمى. أما بصدد الحر فأنت تعلم... من الصعب أن يكون هناك حر في أي مكان من العالم أقسى مما لدينا هنا في هذه البلاد... وبوجه الإجمال، فإن القشعريرة هي التي تتبهدك إلى أنك محموم... وتشعر حينئذ بالسأم أقل... ولكن ذلك مرهون بالطبائع أيضاً... يمكنك ربما أن تتجرع الكحول كي تشعر ببعض النشاط، ولكنني لا أحب الكحول.. لا اتحملة.. أبدأ»

كان يبدو أنه يولي كثيراً من الاعتبار لما يدعوه «الطبائع» فيما هو ماض في الحديث، قدم إلي بعض المعلومات المشوقة الأخرى «النهار، يعني الحر، أما الليل، فيعني الضجيج.. وهو الأصعب على الاحتمال... ضجيج لا يصدق.. ضجيج حيوانات المنطقة. يطارد بعضها بعضاً كي تتسافد أو تلتهم بعضها، لا أدري عن ذلك شيئاً. ولكن هذا ما قيل لي... أما الأشد صخباً بينها فهي الضباع. إنها تأتي إلى هنا، على مقربة من الكوخ... أنت لا تخطيء أصواتها، ليس ذلك على غرار طنين الكينين في

الأذن. من الممكن أن تخطيء أحياناً في التمييز بين أصوات العصافير، وأزيز الذباب الكبير، وطنين الكينين... هذا يحدث.. بينما الضباع.. إنها تمجن أيما مجون... نتشم لحمك، فيثير ذلك ضحكها. إنها تتعجل هلاكك، يمكنك حتى أن ترى عيونها وهي تتوهج، كما يزعمون... إنها تحب الجثث، ولكنني لم أرها بأمر عيني، وهذا يؤسفني بعض الأسف.

- هذا مسلٍ هيا، أجبته.

غير أن ذلك لم يكن كل شيء للترفيه خلال الليالي.

«هناك القرية أيضاً، أضاف زميلي... لا يوجد مئة زنجي فيها، ولكنهم يثيرون من الضجيج ما يعادل عشرة آلاف، أولئك اللواطيون.. ستروي عما قريب قصصاً كثيرة عنهم. آه! فإذا تحدثت عن التام تام فحدث ولا حرج، فأنت لن تضل عن المستوطنة. لأنهم هنا يطبلون للقمر حيناً، وقت طلوعه... ويطبلون له، حيناً آخر، وقت اكتماله... ويطبلون له وقت انتظاره.. يطبلون دائماً من أجل شيء ما، حتى لتقول بأن هؤلاء القذرين اتفقوا مع الحيوانات على أن يقضوا مضجعتك، على أن يهلكوك، أقول لك! كنت أضربهم بقسوة حينما لا أكون متعباً. ولكنني كنت أفضل أيضاً أن أسد أنفي بالقطن. في السابق، حينما كان ما يزال في صيدليتي بعض الفالزين. كنت أضعه في أنفي فوق القطن، أما الآن فأنا أضع شحم الموز بدلاً عنه. إنه جيد أيضاً، شحم الموز. فحين أضعه في أنفي، لا أبالي بعد ذلك إذا ما أطلقوا رعود الرب! جلود النقانق هؤلاء! سيان عندي حين أضع قطني مع الشحم. لأنني لا أعود أسمع شيئاً. هؤلاء الزنوج، أنت ستكتشفهم للتو. إنهم خائرو القوى تماماً. متعفنون حتى العظام... تراهم في النهار مقعين على مؤخراتهم. حتى لتظنهم غير قادرين على النهوض ليتبولوا فقط، عند جذع شجرة.. وحين يجن الليل..

يظهرون لك، وقد غدوا داعرين كلياً، هائجي الأعصاب للغاية، هيستيريين إلى أبعد حد. قطع من الليل منفلة بجنون... أولئك هم الزوج. أقول لك إنهم منحلون، مقززون، في المحصلة.

- هل يأتون إليك ليشتروا أحياناً؟

- يشترون؟ آه ضع هذا في حسابك... عليك أن تسرقهم قبل أن يسرقوك. تلك هي التجارة. هذا كل ما في الأمر. في أثناء الليل، لايزعجونني بالمرة، ما دمت قد وضعت، قطني المشحم في كل أن من أذني، ولكنهم سيخطئون إن سلخوا معي سلوكاً أحمق، وبعد ذلك.. أنت ترى. ليس لكوخي أبواب في حين أنهم يضعون أبواباً لأكوأخهم. يمكنك أن تقول في النهاية. تلك هي حياتهم هنا.

- ولكن، ما الذي سنفعله بشأن جرد المواد؟ سألته وأنا مذهول عن نفسي بسبب تلك المعلومات، لقد أوصاني المدير العام بأن أقوم بجرد كامل ودقيق للبضائع الموجودة، حال وصولي.

- فيما يتعلق بي. أجبني حينذاك بهدوء تام، لقد أضجرت المدير العام.. لي الشرف بأن أقول لك ذلك.

- ولكنك ستقابلة مع ذلك في فورت غونو. حينما ستعود إليها

- لن أرى على الإطلاق، لا فورت غونو ولا المدير... الغابة واسعة أيها الصديق الصغير.

- ولكن، إلى أين ستذهب، إذن؟

- إذا ما سألوك عن ذلك، فستجيب بأنك لا تعرف عني شيئاً، ولكن، ما دمت تبدو فضولياً فدعني أقدم لك، ما دام ما يزال لدينا فسحة من الوقت، نصيحة ثمينة ومفيدة.. لا تهتم إذن بشؤون «شركة بوردوربير» إلا بقدر ما

رحلة في أقاصي م-١٥

تهتم هي بشؤونك، وإذا ما جريت بسرعة لصالح الشركة. فيمكنني أن أقول لك منذ الآن بأنك ستنال، بالتأكيد «الجائزة الكبرى»! الهلاك. ولكن سعيداً إنني سأترك لك بعض النقود. فلا تطلب مني أكثر من ذلك. أما بصدد البضائع، إذا كان صحيحاً أن المدير أوصاك بأن تأخذ أمرها على عاتقك، فستقول له بأنه لم يكن هناك أية بضائع، هذا كل ما في الأمر... وإذا رفض أن يصدقك ايه، حسناً، فالأمر سيان، فهم ينظرون إلينا على أي حال، على أننا لصوص قطعاً. ولن يغير من الأمر شيئاً، إذا ما عاد علينا ذلك ولو لمرة واحدة ببعض الفائدة. فكن مطمئناً، لأن المدير، بالإضافة إلى ذلك خبير بالحيل أكثر من أي شخص، وما من فائدة ترجى من إقناعه، هذا هو رأيي.. فهل ترى رأياً آخر؟ أنت تعلم جيداً، بأن المرء حين يأتي إلى هنا، عليه أن يكون مستعداً لقتل أبيه وأمه، إذن؟..

لم أكن واثقاً تماماً، بأن كل ما رواه لي كان واقعياً، ولكن سلفي هذا ترك. لدي انطباعاً فورياً بأنه ابن آوى فريد من نوعه.

زليتني الطمأنينة تماماً. وقلت في نفسي «لقد وقعت في شر ورطة» وازداد قلقي أكثر فأكثر. كففت عن التحدث مع هذا القرصان، وفي إحدى الزوايا وقع نظري بشي من لفرحة على ركام من البضائع كان يريد، كما يبدو، تركها لي، لقمشة قطنية زهيدة للقيمة... إلى جانب وزرات وديزونات من اللنعال، وبهارات في علب، وفوانيس، ومحقنة، وبوجه خاص، كمية كبيرة من علب الليخنة مكسدة داخل برميل. وأخيراً، بطاقة بريدية بالألوان، «ساحة كليشي».

«إلى جانب العمود ستجد الكاونتشوك والعاج الذي اشتريته من الزوج، كنت في البداية، أرهق نفسي كثيراً، وبعد ذلك... إليك، خذ الثلاثمئة فرنك، هذا هو حسابك.

لم أكن أدري عن أي حساب كان يتكلم، ولكنني أمسكت عن سؤاله حول ذلك.

— «ربما سيتاح لك أيضاً القيام ببعض المبادلات بالبضائع، قال لي مذكراً، لأن الزوج كما تعلم، ليسوا بحاجة إلى النقود.. النقود هنا لا يمكن أن تصلح إلا للفرار».

شرح يمازحني ضاحكاً، ولأنني لم أكن راغباً في معاكسته في تلك اللحظة، فقد ضحكت أنا أيضاً، وبادلته المزاح كما لو كنت مسروراً فعلاً.

على الرغم من هذا الاملاق الشديد الذي كان يتخبط فيه منذ شهر، فقد كان يتمتع بخدمة منزلية بالغة التعقيد، مكونة من غلمان يافعين يسارعون إلى تقديم ملعقته الوحيدة له، أو طاسه الذي لا مثيل له، أو إلى انتزاع البراغيث الدووبة والكلاسيكية التي تتخر الجلد وتتوغل فيه. في باطن قدميه. وكان هو يكافئهم بالمقابل، بتمرير يده مجاناً، بين أفعالهم، في كل لحظة. أما الجهد الوحيد الذي رأيته يقوم به بنفسه، فهو أنه كان يحك جسمه بيده، ولكنه كان يخرط في الحك، على غرار صاحب المخزن في فورت غونو، برشاقة منقطعة النظير، لا تقع عليها العين قطعاً إلا في المستعمرات.

كشفت لي المنقولات التي أورثنيها، عن كل ما يمكن للمهارة أن تحققه، من صناديق صابون مفتت، ومن كراسي، وطاولات صغيرة وأرائك. وقد علمني هذا الرجل الغامض كيف كان يقذف بعيداً بضربة واحدة سريعة من رأس قدمه، من أجل التسلية، يسارع الفراش الثقيلة المجللة بأغلفتها، والتي كانت تقتحم دون توقف كوخنا الغابي، مرتعشة، مفرزة خيوطاً من اللعاب، ولكنك إذا سحقتها بقدمك بضربة غير موفقة، فالويل لك، وستكون عقوبتك ثمانية أيام متتالية من النتانة الشديدة، تتصاعد ببطء من سائلها المقرز الذي

لا يمكن نسيانه. كان قد قرأ في الكتب بأن هذه المخلوقات الفظيعة تمثل في الواقع أقدم ما وجد في الكون من حيوانات... كانت ترقى، كما يزعم، إلى الحقبة الجيولوجية الثانية «حينما سنرحل بعيداً مثلها، يا صاحبي، أفلا نتعفن؟» مثلها.

كانت أوقات الغسق في ذلك الجحيم الأفريقي تكشف عن عجب عجاب، لا يمكن الإفلات من سحره. مشهد مأساوي فاجع أشبه بمصرع الشمس في كل يوم. خداع هائل للنظر. كل ما في الأمر أنه كان ثمة فيض زاخر من الفتنة، بالنسبة إلى شخص واحد. كانت السماء خلال ساعة واحدة، تتضح من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر لوناً قرمزيًا هذيانياً، ثم ما يلبث اللون الأخضر أن ينفجر وسط الأشجار، ويتصاعد من الأرض على هيئة سحب متراقصة. حتى أوائل النجوم الذاريات... ثم يستعيد الرمادي الأفق ومعه الأحمر أيضاً، ولكن الأحمر ما يلبث أن يلفظ أنفاسه ويتلاشى، ليكتمل المشهد آنئذ. ثم تتساقط كافة الألوان مزقاً، بوهن شديد فوق الغابة على غرار طلاءات لماعة.. كان ذلك يحدث عند الساعة السادسة تماماً، من كل يوم.

وحينذاك، يدخل الليل بكل وحوشه في حلبة الرقص، بين ألف نقيق ونقيق من أشداق العلاجيم.

لم تكن الغابة تنتظر سوى إشارة من هذه العلاجيم حتى تشرع في الارتعاش، والصفير والعجيج بكل أعماقها. بؤرة شبق هائلة الأبعاد لا يتخللها الضوء، حافلة بقرعة لا نهائية، جميع الأشجار منتخبة بولائم حية، بانتعاضات مبتورة، برعب لا يوصف. وانتهى بنا الأمر إلى أننا لم نعد نسمع بعضنا أننا ورفيقي داخل الكوخ. كان علي أن أنعق من فوق الطاولة مثل بوم حتى يفهم رفيقي ما أقول. لقد أتخمت، أنا الذي كنت لا أطيق الأرياف.

«ما اسمك؟ أنت روبنسون، مثلما قلت لي» سألته، كان رفيقي يكرر على مسامعي بأن السكان الأصليين في هذه النواحي يعانون، حتى تضوى أجسادهم، من جميع الأمراض المعدية وغير المعدية. ولكن هؤلاء الرثين المهلهلين قادرون على الانخراط في كل أنواع التجارة، دون تمييز. وفيما نحن نتكلم عن الزنوج كانت أعداد هائلة من البعوض والحشرات الكبيرة جداً، تأتي لتسقط حول السراج، في زخات كثيفة جداً. حتى اضطررنا إلى إطفائه.

كان وجه روبنسون ما يزال يبدو لي قبل أن أطفأ السراج مغشى بشبكة من الحشرات، لذلك فقد انطبعت ملامحه بدقة أكبر في ذاكرتي، بينما لم تكن تذكرني تلك الملامح قبل ذلك بأي شيء محدد. كان يواصل الحديث، وسط العتمة بينما كنت أعود إلى الماضي على رنة صوته كما لو أنها نداء أمام أبواب السنين، ثم أبواب الشهور، ثم أمام أبواب أيام حياتي كي أسألها، ترى أين أمكنني فعلاً أن أقابل هذا المخلوق، ولكنني لم أهتد إلى شيء ولم تجبني بشيء. يمكن للمرء أن يتوه فيما هو يتلمس الطريق بين الأشكال التي عفا عليها الزمن. من المخيف أن يكون داخل ماضيها أشياء وأشخاص لم يعودوا يتحركون فيه، فالأحياء الذين نضيعهم وسط مدافن الزمن ينامون مع الأموات، بعد أن يتلبسهم ظل واحد.

حينما يشيخ المرء، لا يعود يعرف من يوقظ، الأحياء أم الأموات. كنت أسعى للتحقق من هوية هذا الروبنسون حينما طرق سمعي نوع من ضحك بالغ الغضاظة، غير بعيد في ذلك الليل، جعلني أنتفض ثم ما لبث أن خمد، كان رفيقي قد حذرني من قبل، تلك هي الضباع ولا شك.

بعد ذلك همد كل شيء، ولم يعد ثمة سوى زنوج القرية، وقرع طبولهم، ذلك القرع المجنون، بالخشب المجوف، مثل أرضات الريح.

اسم روينسون بالذات هو الذي كان يبلبني بوجه خاص، أكثر فأكثر. بدأنا نتحدث عن أوروبا وسط عتمة الكوخ. عن وجبات الطعام التي يمكن أن يتناولها المرء هناك حينما يكون لديه المال، وعن الشراب، المرطب جداً.. لم نتطرق في حديثنا إلى الغد، حيث سيتعين علي أن أظل وحدي هنا، لسنوات ربما، مع كل «بخنة الفاصوليا» تلك. هل كان ينبغي إذن أن أفضل الحرب؟ كانت الحرب أسوأ من دون ريب، كانت أسوأ. كان هو نفسه يوافقني على ذلك. لقد كان هو أيضاً في الحرب، غير أنه سيذهب من هنا. كان لديه من الغابة ما يكفي.. حاولت أن أجره إلى موضوع الحرب، ولكنه كان يتهرب من الحديث عنها.

أخيراً، وفي اللحظة التي نمنا فيها، كل واحد في ركن من ذلك الخراب من الأوراق والعوارض اعترف لي، دون مواربة، بأنه إذا ما وازن بين كافة الأمور، فإنه يفضل أن يجازف بالمثل أمام محكمة مدنية بتهمة الاختلاس على أن يتحمل الحياة مع «بخنة الفاصوليا» التي كان يعيش عليها هنا منذ سنة تقريباً. كنت خامداً تماماً.

«أليس لديك قطن من أجل أذنيك؟ سألني أيضاً.. إذا لم يكن بحوزتك، فاصنع سدادات من وبر اللحاف القطني ومن لب الموز. يمكنك أن تتجح هكذا في صنع سدادات صغيرة جيدة جداً! أنا لا أحب سماع صرخات هؤلاء المتوحشين.

أثارت انتباهي طريقة القطن فجأة، كان خليقاً أن يضمم فيها حيلة دنيئة، ما عاد بوسعي، أن أحول دون أن يتملكني خوف شديد، من أن يغتالني فوق سريري «النقال» قبل أن يذهب حاملاً معه ما تبقى من الصندوق. تلك الفكرة أقضت مضجعي. لكن، ما العمل؟ أنادي؟ من؟ أكلة لحوم البشر في القرية؟ أخفتي من الوجود إذن؟.. لقد كنت مختفياً، تقريباً، في الحقيقة، في

باريس، دون ثروة، ودون ميراث. لم أكد أكون موجوداً حينذاك، من الصعوبة أن لا يفتني المرء من الوجود في مثل هذه الشروط، إذن؟ من الذي سيجشم نفسه، عناء المجيء إلى بيكوميبدو من أجل أن يبصق في الماء فقط، ليس أكثر، تحية لذكراي، لا أحد قطعاً.

كانت الساعات تمر، يتناوبني فيها الاطمئنان والقلق. لم يكن يشخر. وكانت كل تلك الأصوات، والنداءات التي تأتيني من الغابة تحول دون أن أسمع أنفاسه. ما من ضرورة للقطن. غير أن ذلك الاسم روبنسون انتهى أخيراً، لفرط ما قلبته في ذاكرتي، إلى أن يكشف لي عن جسد، عن هيئة، عن صوت كنت قد عرفته فيما مضى. وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك أن استسلم للرقاد، انتصب الشخص بلحمه ودمه أمام سريري، ليس هو بالتأكيد، وإنما ذكراه بالتحديد. ذكرى ذلك الروبنسون. رجل نوارسير سور لا لي، هناك في الفلاندر، والذي رافقته في غضون تلك الليلة، حين كنا نبحث معاً عن جحر كي نخلص من الحرب، وهو أيضاً الذي التقيته في باريس فيما بعد، كل شيء عاد الآن.. سنوات مرت بلمحة عين... كان الصداق قد ألم برأسي، واستولى علي كرب شديد... لم يكن بإمكانني الآن بعد أن عرفته، وميزته بوضوح إلا أن أشعر بخوف طاغ. هل عرفني؟ كان بإمكانه على أي حال أن يعتمد على صمتي، وعلى تواطؤي.

«روبنسون! روبنسون، ناديتّه، أيها الجسور، كأي أرف له خبراً جديداً. هيه يا صديقي، هيه روبنسون» ولكن ما من جواب.
كان قلبي يخفق بقوة، نهضت متهيئاً لتلقي ضربة قاتلة في معدتي ولكن لا شيء.. جازفت حينئذ، وقد دبّت فيّ الشجاعة، بالتحرك على غير هدى، نحو طرف الكوخ الآخر حيث كان ينام، كان قد رحل.

انتظرت طلوع النهار، وأنا أشعل عود تقاب بين وقت وآخر، ثم انبلج النهار في إحصار من النور. وجاء الخدم الزوج ليقدموا إلي بمرح لاجدواهم الهائلة، سوى أنهم كانوا جذلين، كانوا يريدون أن يعلموني اللامبالاة. حاولت عبثاً، عبر سلسلة من الحركات المدروسة أن أفهمهم مقدار القلق الذي سببه لي اختفاء روبنسون، ولكن ذلك، كما يبدو، لم يمنعهم من أن يظهروا لا مبالاة كاملة. ثمة الكثير من الجنون، حقاً، في الانشغال بشيء آخر غير ما يراه المرء أمامه. أما أنا، فلم أسف فيما جرى، على أي شيء سوى على الصندوق في النهاية، غير أنه من غير الشائع أن نرى مرة أخرى الأشخاص الذي يسرقون الصندوق، هذه الحال جعلتني أفترض بأن روبنسون تخلى عن العودة من أجل قلتي لا غير. كان ذلك بالنسبة إلي يعد مكسباً ثميناً.

لي وحدي إذن بقي المشهد، سيكون لدي الوقت بأكمله للعودة إلى سطح وإلى أعماق ذلك المدى الشاسع من الأوراق. إلى ذلك المحيط من اللون الأحمر، والمرمري الأصفر، والملحي المتألق، البالغ الروعة بالتأكيد لدى أولئك الذين يحبون الطبيعة، أما أنا فلم أكن أحب الطبيعة على الإطلاق. كانت شاعرية للمناطق الاستوائية تثير تقززي. كانت نظرتي إلى هذه المجاميع العضوية، وأفكاري حولها ترتد إليّ مثل أسماك التون. عبث كل ما يقال، فهذه البلاد ستكون يوماً بلاداً للبعوض وللنمور الرقطاء. لكل موطنه.

كنت أفضل العودة إلى كوشي، وإنهاضه من كبوته، ليقف بتوازن، تحسباً للإحصار الذي لا يمكن أن يتأخر. ولكن كان عليّ هنا، أيضاً، أن أتخلى سريعاً عن مشروعني في دعم الكوخ وتعزيز أركانه. فما كان قد عفا عليه الزمن في هذا الهيكل، آيل للانهييار في أية لحظة، وهو لن يعود إلى الوقوف ثانية. كان للقس الذي تفشت فيه الهوام الطفيلية قد تتسلل كلياً، ولن يكون بإمكانني بعد أن أصنع من مسكني مبولة مناسبة.

بعد أن تمليت بحيوية، بعضاً من مشاهد هذه الأدغال، كان علي أن أنطح خائراً وأنكفى إلى الصمت بسبب الشمس، ودائماً الشمس، كل شيء يصمت، كل شيء يعتربه الخوف من الاحتراق وقت الظهيرة... فالعشب والحيوانات والبشر تتلظى في تلك الساعة. إنها سكتة الهاجرة.

كان ديكي الصغير، وحيد في ذلك العالم، يخشى هو أيضاً، تلك الساعة. كان يروح ويغدو معي، إنه المخلوق، الوحيد، الذي تركه لي روبنسون... عاش إلى جانبي على هذا النحو طيلة ثلاثة أسابيع، يتبعني مثل كلب، قارقاً في كل لحظة، مكتشفاً الأفاعي في كل مكان. وفي ذات يوم، وقد أرهقني سأم شديد، ذبحته وأكلته. لم يكن له مذاق، لحمه الباهت اللون كان يبدو تحت الشمس مثل قماش الكاليكو الخشن. لعله هو الذي طرحني مريضاً، ففي اليوم التالي بعد تلك الوجبة تماماً لم أعد أقوى على النهوض. وعند الظهيرة جررت نفسي وأنا أهذي نحو علبة الأدوية الصغيرة، لم يكن في داخلها سوى صبغة يود. لم يكن ثمة زبائن من بين الذين كانوا يأتون إلى المخزن، سود فقط متسكعون، عدد لا يحصى من المومنين بإشارات غير مفهومة، يعضغون ورق الكولة، شهوانيين، وبردائيين. أما الآن وبعد أن سقطت مريضاً فقد أطبق علي الزوج، وشكلوا حلقة حولي، كانوا يتناقشون، كما يبدو، حول هيئتي الزرية. مريض، كنت مريضاً مدنفاً، وبدا واضحاً أنني لم أعد بحاجة إلى ساقى. كانتا متدليتين ببساطة من حافة سريري كشيئين فائضين عن الحاجة، ومضحكين إلى حد كبير.

ومرت أيام لم يكن يصلني فيها من فورت غونو، من مدير الشركة عبر البريد سوى رسائل، حافلة بالشتائم والحماقات المتوعدة أيضاً، كان التجار الذين يعتبرون أنفسهم جميعاً ضليعين كثيراً أو قليلاً في أسرار المهنة

يتكشفون، في الأعم الأغلب خلال الممارسة، عن حمقى من الطراز الأول. أمي في فرنسا، كانت تحثني في رسائلها على العناية بصحتي، مثلما كانت تفعل في الحرب. وحتى تحت شفرة المقصلة كانت أمي ستؤنّبني لأنني نسيت وشاحي. كانت ترتكب جميع حماقات الممكنة كي تقنعني بأن العالم كان رحيماً، وأنها فعلت خيراً بحملها بي. كانت تلك هي الذريعة الكبرى للإهمال الأمومي، الحمل والرعاية الأمومية المفترضة، كان من السهل علي جداً مع ذلك بأن لا أجيب على كل هذا الهذر من رب العمل ومن أمي، ولم أحب عليه أبداً. ولكن هذا الموقف وحده لم يكن يحسن شيئاً من وضعي.

كان روبنسون قد سرق تقريباً كل ما كانت تحويه تلك المنشأة الهزيلة. ولكن من سيصدقني إذا ما قلت ذلك؟ ما الفائدة من قول ذلك؟ ولمن؟ لرب العمل؟ وفي كل مساء وعند الساعة الخامسة كنت أرتعد من الحمى، بحدة فيقعع سريري ويهتز اهتزازات شديدة، كما لو بفعل زلزال حقيقي.

كان زنوج القرية قد استحوذوا ببساطة، على خدمتي في الكوخ، لم أكن قد طلبت منهم ذلك، ولكن صدهم وإبعادهم كان يحتاج إلى جهد كبير جداً. كانوا يتشاجرون حول ما تبقى من البضائع، ويقلبون، بلا تردد رزم التبغ في البراميل، ويجربون آخر الوزرات، يقيسونها، ويتخاطفونها. كانوا يضيفون أيضاً ما أمكنهم ذلك، تشتتاً جديداً على ما يسود كوخني من تشتت وفوضى. كان عصير الكاوتشوك المنذلق على الأرض بإهمال، يختلط بشمام الغابة، وبالغضب الهندي ذي المذاق الحلو، وغير المستساغ على غرار مذاق الإجاص البولي، والذي ظلت ذكراه بعد خمس عشرة سنة تثير في الغثيان، لفرط ما التهمت منه. بدلاً من يخنة الفاصولياء.

كنت أحاول أن أتصور مدى الإعياء الذي هدّ قواي، ولكنني لم أفجح. «كل الناس يسرقون» كان قد كررها لي روبنسون ثلاث مرات قبل أن

يختفي. وكان ذلك أيضاً هو رأي المدير العام. كانت تلك الكلمات تعذبني وأنا أتقلب على فراش الحمى.. «ينبغي أن تتدبر أمورك» قال لي ذلك أيضاً... كنت أحاول أن أقف على ساقي، فلا أفلح أبداً.. أما بصدد الماء الذي كان علي أن أشربه، فقد كان روبنسون على حق. كان من الطين وأسوأ من ذلك. صغار الزوج كانوا يجلبون لي موزاً.. من الحجم الكبير والصغير ومن الموز الدموي، ويجلبون لي دائماً من تلك الأعناب الهندية ولكن آلام المغص الشديد كانت تعترضني بعد تناولها. حتى أكاد أقيء الأرض برمتها.

حينما كنت أشعر بدبيب بعض القوة في أوصالي، وأجد نفسي أقل ذهولاً، كان ثمة خوف شديد يملكني. الخوف من أنه كان يتعين علي أن أقدم حساباتي إلى «شركة بوردوربير». ما الذي سأقوله لهؤلاء القساء الأشرار؟ كيف سيصدقوني؟ سيلقون علي القبض حتماً. من الذي سيحاكمني حينذاك؟ أشخاص مختصون، مسلحون. بقوانين رهيبة يستمدونها، لا أدري من أين، على غرار مجلس الحرب.. ولكنهم لا يطلعونك على نواياهم الحقيقية، سيتلهون بك ويجعلونك تصعد درجاً عمودياً فوق الجحيم. الدرب الذي يقود البؤساء إلى الهلاك. إنه القانون، إنه «مدينة الملاهي» العظيمة للألم، وحينما يستسلم البؤساء للوقوع في شباكه فسيسمع صراخهم قرناً وقرناً بعد ذلك

كنت أفضل أن أظل مخبولاً، مرتعشاً. مرتلاً، في الدرجة ٤٠ من حرارة الجسم، على أن أكون مضطراً، في حالة الصحو، إلى أن أتخيل ما كان ينتظرني في فورت غونو، وانتهى بي الأمر إلى أن أطلع عن تناول للكينين كي أترك الحمى تنهي حياتي؛ لا مفر من أن أظل مهيبضاً بكل ما يتاح لي من وسائل. ولما كنت لأطهو طعامي على مهل أياماً وأسابيع. فقد نفدت ذخيرتي من أعواد اللقاب. لم يكن لدي الكثير منها. لم يترك لي روبنسون سوى «بخنة الفاصولياء» ولكنني أستطيع

القول بأنه قد ترك لي الكثير منها حقاً. تقيأت علماً كاملة منها. وبغية تحقيق هذه النتيجة كان ينبغي أيضاً تسخينها.

ذلك الشح في أعواد الثقاب أتاح لي تسلية صغيرة، ألا وهي مراقبة طباحي الزنجي وهو يشعل النار بحك حجرين، بعضهما ببعض داخل الهشيم اليابس. خطر لي أن أجرب أنا أيضاً، حينما كنت أشاهده يفعل ذلك، ومع اشتداد الحمى، اتخذت تلك الفكرة قواماً فريداً. وعلى الرغم من أنني كنت أفنقر إلى المهارة بطبعي، فقد تعلمت بعد أسبوع من التجريب، تماماً مثل أي زنجي، أن أشعل ناري بين حجرين حادين من الصوان. بدأت، في المحصلة أتدبر أموري وسط تلك الحال البدائية. النار، ذلكم هو الأمر الجوهرى! لم يبق علي إلا الصيد. ولكنني لم أكن أطمح بأن أكون صياداً، كان يكفيني نار الصوان، وعلى مرّ الأيام، لم يكن لدي ما أفعل سوى إشعال النار، أما قذف يساريع الفراش بقدمي، فقد كنت فيها أقل مهارة بكثير، لم أكن قد اكتسبت تلك المهارة بعد. كنت أسحق الكثير من هذه اليساريع، إلى أن كفتت عن الاهتمام بها، كنت أتركها تدخل بملء حريتها إلى كوكبي كأصدقاء. فوجئت ذات يوم بثورة إعصارين عاتيين واحداً بعد الآخر، دام الثاني ثلاثة أيام، وثلاث ليالٍ على الأخص، وشربت أخيراً من ماء المطر المتجمع في الصحيفة. كان فائراً، هذا صحيح، ولكنه مع ذلك أنقى وأطيب مذاقاً، غير أن الاقمشة القطنية في مخزوني الصغير شرعت في الذوبان بحرية تحت وابل المطر المدرار، بعضها داخل البعض الآخر.. أية بضاعة قدرة!

كان ثمة زنوج لطفاء يحضرون لي من الغابة حزماً من النباتات المعرشة كي يوثقوا كوكبي إلى الأرض، ولكن عبثاً، فقد كانت الأوراق العازلة، تطلق بجنون فوق سقف الكوخ، مع أقل هبة ريح، على غرار أجنحة جريحة، ليس ثمة ما يمكن عمله، كان كل ما يفعلونه من أجل التسلية في النهاية.

قرر الزوج، صغارهم وكبارهم، العيش حولي بألفة بالغة، كانوا مغتربين أيما غبطة، وقد وجدوا في ذلك تسلية عظيمة، كانوا يدخلون ويخرجون من مسكني (إذا جاز القول) كما يشتهون.. حرية وأي حرية! كنا نتفاهم بالإشارات إلى حد كبير. ولولا الحمى، لتعلمت ربما لغتهم، كان ينقصني الوقت لذلك. أما نار الصوان فإنني لم أمتلك بعد، في إشعالها الطريقة المثلى والسريعة، على الرغم من التقدم الذي أحرزته. فما زال الكثير، من الشرر يتطاير ويدخل في عيني، وكان ذلك يثير ضحكات السود.

حينما لا أكون متعافياً من الحمى فوق سريري «النقال»، أو منشغلاً بقداحتي البدائية كنت أفكر بحسابات «شركة بوردوربير». من الغريب أن أجد كل تلك المشقة في التحرر من رعب حسابات غير منتظمة. ما من ريب في أنني قد ورثت هذا الرعب عن أمي التي انتقل إلي عدوى تقليدها المأثور «تسرق بيضة.. ثم بيضة أخرى.. ثم ينتهي بك الأمر إلى قتل أمك»، طالما لقيت عنناً شديداً في التخلص من هذه الأمور، إنهم يغرسونها فيك منذ نعومة أظفارك، ثم تأتيك فيما بعد، في اللحظات العصبية لتروعك على نحو يائس، أي ضعف هذا! وإذا عزمت على التخلص منها، فلا يمكنك الاعتماد إلا على قوة الأشياء. وهي قوة عظيمة لحسن الحظ. وبيننا نحن ننتظر أنا والحانوت، كنا نغوص ونغوص. كنا على وشك الاختفاء في الوحل، بعد كل وابل من المطر أكثر لزوجة، وأشد كثافة، كان ذلك فصل الأمطار، وما كان يبدو بالأمس صخرة عاتية صار اليوم أشبه بتفل رخو من قصب السكر، كانت الأغصان تتدلى بارتخاء، والماء الفاتر يلاحقك على هيئة شلال ينسكب داخل الكوخ، في كل مكان حولك، مثلما داخل سريرك، على غرار نهر قديم مهجور. كل شيء كان يذوب في عسيبة من سقط المتاع، ومن الآمال ومن

الحسابات، ووسط الحمى الدبقة أيضاً. كان ذلك المطر من الكثافة، حينما يهاجمك، كما لو أنه يغلق فمك بكمامة فاترة. ذلك الطوفان لم يمنع الحيوانات من أن تبحث عن بعضها، فقد شرعت العنادل تطلق صيحات صغيرة، مثلما بنات آوى، وعمت الفوضى في كل مكان وداخل سفينتي، أنا نوح، سفينتي الرثة، لقد حانت لحظة النهاية.

كان في جعبة أمي أمثال وحكم بصدد كل شيء. كانت تقول لي، أتذكر ذلك الآن، حينما كنا نحرق في البيت ضمادات قديمة.. «النار تطهر كل شيء».. كنت أجد لدى أمي كل شيء، لكل مناسبات للقدر، يكفي أن أحسن الاختيار.

لقد حانت اللحظة الحاسمة، لم أكن قد اخترت حجارة صواني جيداً، لم تكن حادة بما يكفي. كان الشرر يعلق بقوة، بيدي، على الأخص، ومع ذلك فقد اشتعلت النار أخيراً في البضائع الأولى، على الرغم من الرطوبة، كان ذلك مخزوناً من الأحذية القديمة المبللة بالماء. حدث ذلك بعد غروب الشمس، ارتفعت السنة اللهب وثابة جامحة، وتجمع سكان القرية حول الكوخ معققين بحنق، كان الكاوتشوك الطبيعي الذي اشتراه روبنسون يتجدد وينكمش وسط النار، فتتكرني رائحته بقوة بالحريق الشهير لشركة الهواتف في رصيف غرينيل.. كنت قد شاهدته مع عمي شارل، الذي كان يجيد غناء الأغنيات العاطفية. حدث ذلك الحريق في السنة السابقة على المعرض الكبير. كنت ما أزال صغيراً حينذاك. ما من شيء يرغم الذكريات على الحضور مثل الروائح والنيران. كان كوخي يصدر، هو أيضاً روائح مماثلة، على الرغم من غرقه في الماء والوحل، ثم أتت عليه النار بكامله دون إهمال، وعلى البضائع، وعلى كل شيء. سوّيت الحسابات الآن، وصممت الغابة دفعة واحدة. كانت البوم والفهود والعلاجيم والبيغاوات تحرق في النار دون انقطاع. كانت بحاجة إلى مثل هذا

المشهد كي تحس بالدهشة. مثلنا نحن مع الحرب، كان بوسع الغابة أن تعود الآن لتبتلع الأنقاض تحت رعود من الأوراق. لم أكن قد أتقنت سوى متاعى الصغير، السرير للسهل الطبي، والثلاثمئة فرنك، وبضع علب من «يخنة الفاصولياء» بالطبع، من أجل طريق العودة.

بعد ساعة من الحريق، لم يبق شيء من مسكني الصغير تقريباً، بضع شرارات تحت المطر، وبضعة زنوج مذهولين، ينبشون الرماد بأطراف حراهم، وسط هبات تلك الرائحة الوفية لكل الكروب، الرائحة المنبعثة من كل هزائم العالم، رائحة الرماد المدخن..

حان الآن وقت الفرار، وعلى جناح السرعة، هل أعود إلى فورت غونو، سيراً على قدمي؟ هل أحاول الذهاب إلى هناك لشرح تصرفي، وظروف مغامرتي؟ كنت متردداً.. وليس لوقت طويل. لن أشرح لأحد أي شيء. فالعالم لا يسعه سوى قتلك.. حينما ينقلب عليك فيهرسك، مثلما يقتل نائم براغيثه، ستكون تلك مينة بلهاء بالتأكيد.. كنت أحدث نفسي.. فأنت تضع ثقتك بالناس يعني أن تقتل نفسك بيدك تقريباً.

عزمت، على الرغم من الحالة التي كنت فيها، على أن أضرب في الغابة، في الاتجاه الذي سلكه ذلك الروبنسون، بكل ما فيه من ضروب الشقاء والتعاسة.



« في الطريق، كنت أسمع غالباً حيوانات الغابة، أسمع عويلها، وزغاريدها ونداءاتها، ولكني لم أكن أراها قط تقريباً، لم يكن لي أي شأن مع ذلك الخنزير البري الصغير الذي كددت أدوس فوقه ذات يوم بالقرب من كوخِي. حين تسمع تلك الرشقات من الصراخ والنداء والعويل، تخال أنها على مقربة شديدة منك. كانت مئات من الحيوانات، آلاف تتحرك مجتمعة، غير أنني، وحين كنت أقترّب من مكان لغطها لا أقع على أحد منها، ما عدا تلك الدجاجات الغابية الضخمة، الزرقاء، المرتبكة، بريشها الزاهي كما لو أنها تتزين لعرس، وبالغلة الخرق، حينما تقفز من غصن إلى غصن، وهي تسعل، حتى لتظن بأن حادثاً قد وقع.

في الأسفل، فوق النباتات الحرجية المتعفنة كان ثمة فراشات ثقيلة. وعريضة، تزركشت حواف أجنحتها على غرار بطاقات الأعياد، ترتعش متهادية، فارشة أجنحتها، وفي الأسفل أيضاً. كنا نحن، نتخبط في الوحل الأصفر اللون.. لم نكن نتقدم إلا بصعوبة، كان الزنوج يحملونني على محفة مصنوعة من أكياس مدروزة، من طرفها إلى الطرف الآخر. كان بوسعهم أن يقدفوني في الماء، حينما كنا نجتاز خليجاً نهرياً، لماذا لم يفعلوا ذلك؟ علمت السبب فيما بعد، وكان بوسعهم أن يأكلوني ما دام ذلك جزءاً من أعرافهم.

من وقت إلى آخر، كنت أسأل، هؤلاء الرفاق، وكانوا يردون علي دائماً: نعم، نعم. لم يزعجوني قط. أناس ظيبيون كرماء، في المحصلة، وحينما كان الإسهال يدعني أستريح قليلاً، كانت الحمى تعاودني حالاً: كان من الغريب أن أغدو مدنفاً إلى هذا الحد.

في البداية لم أجد أرى الأشياء بوضوح كامل. أو كنت أراها بالأحرى خضراء، كانت جميع حيوانات الأرض تأتي خلال الليل، لتحيط بالمكان الذي كنا نتوقف فيه. كنا نشغل ناراً. ومن هنا وهناك تتطلق صيحة، فتخترق رغم كل شيء الظلمة الداكنة للهائلة الأبعاد التي كانت تخنق أنفاسنا. ثمّة حيوان نبيح، على الرغم من خوفه من البشر ومن النار، كان يأتي، مع ذلك ليشتكو إلينا، نحن، هناك، على مقربة شديدة منه.

بدءاً من اليوم الرابع، لم أجد أتعرف على ما هو واقعي بين الأشياء اللامعقولة التي خلقتها الحمى، والتي كان بعضها يتداخل في بعض داخل رأسي. وتتداخل أيضاً في الوقت ذاته بقطع من الأشخاص وبنقف من القرارات ومشاعر القنوط، لم يكن لها نهاية.

ولكن هل كان القدر هو الذي قرر أن يضع في طريقنا، ذلك الأبيض الملتحي الذي التقينا به ذات صباح، فوق شناخ صخري، عند ملتقى نهريين؟ هكذا أقول لنفسني اليوم حينما أفكر بتلك الصدفة الغريبة، كنا نسمع حينذاك قرقرة مدوية، بالقرب من أحد الشلالات، كان ذلك الرجل نمطاً من نوع السيد في ثياب رقيب اسبنيولي، كنا قد عبرنا بطريقة ما، لفرط ما جبننا دروباً وممرات، إلى مستعمرة ريو دل ريو من مستعمرات التاج الكاستيلي، كان ذلك العسكري الإسباني البائس يمتلك كوخاً هو أيضاً، وقد ضحك كثيراً، كما خيل إلي، حين رويت له كل ما مر بي من تعاسات، وما كنت قد فعلته بكوخي. كان كوخه في الواقع يبدو أفضل حالاً من كوخي، بلا ريب، ولكن ليس كثيراً، أما أوجاعه الخاصة به فكانت ناجمة عن النمل الأحمر. كانت النملات الصغيرة قد اختارت طريقاً لعبورها إبان هجرتها السنوية، يمر

رحلة في أقاصي م-١٦

عبر كوخه، بوجه التحديد. وهي لم تتوقف عن المرور عبر الكوخ منذ ما يقارب الشهرين.

كانت تحتل المكان بكامله، بحيث كان من الصعب ثنيها عما همت به، وإذا ضايقها، أهد لدغته لدغاً مؤلماً.

كان سعيداً جداً لأنني أعطيتَه يخنه فاصوليائي، فقد كان طعامه مؤلفاً من علب الطماطم فقط، كان قد استهلك وحده منها خلال ثلاث سنين، كما أخبرني، أكثر من ثلاثة آلاف علبة. ولما كان قد تعب من إعدادها بطرق مختلفة، فقد كان يزدريها الآن بأسهل طريقة في العالم. من خلال فتحيتين في غطائها، مثل البيض.

ما أن عرف النمل الأحمر بالأمر، وأن هناك معلبات جديدة حتى شكل حراسة حول اليخنه، كان على الإسبنيولي أن لا يترك علبة واحدة مفتوحة الغطاء، سهواً، فقد كانت تلك النمل خليقة أن تستدعي إلى الكوخ حينئذ عرق النمل الأحمر بكامله، لم يكن ثمة من هو أكثر شيوعية منها. كانت ربما، ستلتهم الإسبنيولي أيضاً.

علمت من هذا المضيف بأن عاصمة ريو دل ريو كانت تدعى سان تابينتا، وأنها مدينة ومرفأ شهير على امتداد الشاطئ، وحتى أبعد من ذلك، يجري فيها تسليح للسفن الشراعية البحرية ذات الرحلات البعيدة.

دربنا الذي كنا نسلكه، كان يقود إلى هذه المدينة بالضبط. إنه طريقها الوحيد. كان يكفي أن نواصل السير على هذا الطريق ثلاثة أيام وثلاث ليل أيضاً. سألت ذلك الإسبنيولي إن كان يعرف بعض العلاجات الشعبية النافعة التي يتداول بها السكان الأصليون، لعلها تخلصني من حالة البحران التي كانت تلازمني. ولكنه لم يكن يرغب في سماع ما يروى عن تلك الأشياء. والواقع أن

الإسباني المستعمر كان مصاباً بالرهاب الأفريقي إلى الحد الذي كان يرفض فيه أن يستعمل في المرحاض حين يذهب إليه، أوراق الموز، ويصر على أن يستعمل كومة من قطع صحيفة بوليتان أستوريا. وهو لم يعد يقرأ للصحيفة أيضاً على غرار السيد تماماً.

كان يعيش هنا، منذ ثلاثة أعوام، وحيداً مع النمال، وبعض الأهواء الصغيرة، وصحائفه القديمة. بالإضافة إلى تلك اللهجة الإسبنيولية الرهيبة، التي هي أشبه بنوع من لهجة الخطابة، لفرط قوتها. كان من الصعب جداً إثارتها، ولكنه حين كان يصرخ بزوجه يتحول إلى إعصار، لم يكن السيد يعدّ شيئاً إلى جانبه في الزعيق، وقد تنازلت لذلك الأسباني عن كل معلبات يخنثي، لفرط ما راق لي، وعرفاناً منه حرراً لي جواز سفر جميل وموثق على ورق محجب من أوراق القوات المسلحة الكاستيلية مع توقيع من تلك التواقيع الدقيقة، احتاج إلى عشر دقائق كاملة من أجل كتابته بإتقان.

بالنسبة إلى مدينة سان تابيتا، كان من المستحيل أن نضل الطريق إليها، مثلما قال لي الإسبنيولي بحق، كانت أمامنا مباشرة، لم أعد أعرف كيف وصلنا إليها، ولكنني متأكد من شيء واحد، وهو أنهم عهدوا بي، منذ وصولي، إلى خوري، بدا لي خرفاً جداً، مثلما كنت أنا أوحى بذلك، وهو ما منحني نوعاً من الشجاعة مقارنة به، ولكن ليس لوقت طويل.

كانت مدينة سان تابيتا تتكى على خاصرة هضبة صخرية مشرفة على البحر، تتراءى خضراء للناظرين، مشهد بديع يلوح للنظر من المرسى، كان يبدو بانحاً عن بعد، ولكنك حين تقترب منه لا تجد سوى لحوم مترهلة، نال منها الإعياء على غرار فورت غونو، لا تني تتغطي بالبثور والدمامل، وتتلظى بالحر، أما زوج محملي الصغير، ففي لحظة من لحظات صُحوي

أعدتهم إلى قريتهم، كانوا قد اجتازوا مسافة طويلة من الغابة، وهم يشعرون الآن بالخوف على حياتهم خلال العودة. كما قالوا، كانوا يتباكون بسبب ذلك، وهم يغادرون ولكن القدرة على الرثاء لهم كانت تعوزني، كنت أعاني بشدة من الحمى، وأنضح بالعرق بكثافة، وما كان ذلك ليثقف.

بقدر ما أذكر تلك الأيام، كان العديد من الكائنات الناعقة التي تكتظ بها تلك الأرباض، تأتي في الليل والنهار؛ منذ لحظة وصولي لتحوم حول سريري الذي نصبوه لي بنحو خاص داخل بيت كاهن الرعية، كانت التسليات نادرة في سان تابيتا. أترع الخوري معدتي بالمناقيع المغلية. كان صليبه الطويل المذهب يترجح حول بطنه، ومن أعماق جيبه كان ينبعث رنين عال للنفود، حين يقترب من وسادتي. لم يعد يبالي بالتحدث مع الرعية، كان يغمغم الآن، فيرهقني بغمغمته فوق ما أطيع.

كنت أعتقد بأن نهايتي قد حانت، حاولت أن أشاهد مرة أخرى القليل مما يمكن مشاهدته في ذلك العالم من خلال نافذة الخوري. أما الشمس فحدث ولا حرج. حضور دائم ثقيل، كما لو أن مرجلاً بخارياً فتح غطاؤه أمام وجهك على الدوام. وفي الأسفل، كانت الشمس أيضاً، وتلك الأشجار الخرقاء، وممرات أيضاً، وتلك الأشكال من غراس الخس المفتحة على غرار سلاسل، وتلك الأنواع من نبات الهندباء التي يكفي ثلاثة منها، أو أربعة لتشكل شجرة كستناء مما نراه، عندنا، بالإضافة إلى علجوم أو اثنين داخل كتلة العروق الملتفة، ثقيلين مثل كلبين، يخبان عاويين من جهة إلى أخرى.

بسبب الروائح تنتهي الكائنات والبلدان والأشياء. جميع المغامرات تمر عبر الأنف. أغلقت عيني لأنني ما عدت قادراً على فتحهما، في الحقيقة، وليلة بعد ليلة تلاشت رائحة أفريقي اللاذعة. وغدا من العسير علي أكثر فأكثر أن

أعثر على ذلك الخليط الثقيل المكون من رائحة أرضها الميتة، ورائحة ما بين الأفضاد، ورائحة الزعفران المطحون.

من الزمن، من الماضي، ومن الزمن أيضاً حانت اللحظة التي تكالبت علي فيها آلام وتشنجات جديدة، واهتزازات منتظمة، أشبه باهتزازات مهود الأطفال.

كنت ما أزال راقداً، بالتأكد، ولكنني كنت أرقد فوق مادة متحركة تركت الأمور تجري في أعنتها، كنت أقيء، وأستيقظ أيضاً، وأعود النوم. كان ذلك كله وسط البحر، وقد بلغ مني الإنهاك مبلغاً لا أكاد أقوى معه على التقاط الرائحة الجديدة للحبال والقطران. كان الجو ندياً في ذلك الركن المنزوي من سفينة كثيرة الأسفار، تكومت في أسفل كوة كبيرة مفتوحة لإحدى قمراتها. تركت وحيداً هناك. كانت الرحلة متواصلة بالتأكد.. ولكن أية رحلة؟ كنت أسمع وقع خطوات على السطح الخشبي للسفينة فوق أنفي تماماً، وأصواتاً مختلطة وهدير أمواج تبقبق وتصطمم ببطن السفينة.

من النادر جداً أن تعود الحياة إلى وسادتك حين لا يكون لك مظهر مهيب لخنزير، ما كان قد لعبه معي أولئك الأشخاص في سان تابيتا يمكن أن يكون بالغ الخطورة، هل كانوا قد استغلوا حالتني كي يبيعوني، وأنا ذاهل عن نفسي، في الوضع الذي كنت فيه، إلى ربان السفينة الشراعية؟ ولكن أية سفينة كانت، في الواقع! مرتفعة الجوانب، مسلحة أفضل تسليح! متوجة بأشرعة أرجوانية جميلة وقد طلي طرفها بالذهب، ونجّدت أماكن الضباط أفضل تتجيد في مقدمتها لوحة قيادة رائعة، مزودة بزيت كبد المورة، برزت فوقها صورة الانفاتنا كومبيتا بقميص البولو، تلك الملكة التي كانت ترعى، مثلما علمت فيما

بعد.. باسمها، وبأثائها وبغبطتها الملكية السفينة التي كانت تقلنا، كان ذلك مما يداعب الغرور.

طفقت أقلب الأمور على كافة وجوها فيما يخص مغامرتي الجديدة. فلو بقيت في سان تابيتا، وأنا ما أزال مريضاً مثل كلب، فسأفطس بالتأكيد في بيت الخوري حيث وضعني الزوج، ولو عدت إلى فورت غونو فلن أنهى فيها سنوات عقوبتي (الخمس عشرة) بسبب حسابات الشركة.. أما هنا، فإن عجلة الحياة تتحرك، ولن أعدم الأمل.. فلأفكر ملياً في الأمر. لقد كان لدى قبطان الانفانتا كومبينا بعض الجرأة ليشتريني، وحتى بئمن بخس من الخوري، حين ألق بسفينته، كان يجازف كل المجازفة بنقوده في هذه الصفقة.. كان من الجائز أن يخسر كل شيء. لقد اعتمد على التأثير المؤاتي لهواء البحر من أجل إنعاشي واستعادة قواي. إنه يستحق مكافأته، ولكنه سيكسب ولا شك ما دمت أحسن، وقد وجدته سعيداً جداً بذلك. كنت ما أزال أهذي بشدة، ولكن مع بعض المنطق.. ومنذ اللحظة التي فتحت فيها عيني كان القبطان غالباً ما يأتي لزيارتي في عزلتي مزيناً قبعته بالريش، كان يبدو لي مهيباً على ذلك النحو.

سر القبطان أيما سرور حين رأني أحاول النهوض من فراشي القشي، على الرغم من الحمى التي كانت تجتاحني، كنت أتقيأ. «عما قريب، هيا! أيها الشخاخ، سيكون بإمكانك التجديف مع الآخرين» تنبأ لي القبطان بذلك. كان هذا لطفاً من جانبه، وقهقهه، وهو يوجه لي بضع ضربات خفيفة بسوطه، ولكن بتحبيب من دون زيب، على رقبتني وليس على أليتي، كان يريد أن أضحك أيضاً، وأن أكون مسروراً منه بسبب العمل الطيب الذي قام بها، باقتنائي في سفينته.

طعام السفينة بدا لي، مقبولاً جداً، ولكنني لم أكن أتوقف عن الغمغمة.. وبعد مضي أيام قلائل استعدت ما يكفي من القوة، مثلما تتبأ القبطان، كي أذهب إلى التجديف من وقت إلى آخر، مع رفاقي الآخرين، ولكنني كنت أرى مئة مجدف من هؤلاء، حين يكون عددهم عشرة! كان بصري قد أصيب بالعشا.

لم نكن نتعب كثيراً، أثناء تلك الرحلة، لأننا كنا نندفع معظم الوقت بقوة الأشرعة، وما كانت شروط حياتنا بين جسري السفينة أسوأ من شروط حياة مسافرين عاديين في الدرجة الدنيا من قطار شحن يوم الأحد، وأقل خطراً من تلك التي عشناها فوق ظهر الأميرال براغتون. كنا على الدوام معرضين للهواء الطلق على رحبه واتساعه، خلال عبورنا الأتلانتيك من الشرق إلى الغرب، وكانت درجة الحرارة قد انخفضت. قلما كنا نشكو من شيء، ونحن بين جسري السفينة. كنا نجد الرحلة طويلة، حسب. أما بالنسبة لي، فقد رأيت من مشاهد البحر والغابة ما يكفي لأبدية!

كنت ربما، سأسأل القبطان عن تفاصيل إبحارنا، عن غاياته وعن وسائله، ولكن ما أن بدأت أشعر بتحسن أحوالي حتى فقدت الاهتمام بمصيري، ومن ثم فقد كنت أترثر مع ذلك كثيراً مع رفاقي المجدفين من أجل المحادثة، ولم أعد أرى القبطان إلا من بعيد، باعتباره رب عمل.

على ظهر السفينة، وبين أولئك المجدفين الذين كانوا محكومين في بلدهم بالأشغال الشاقة بدأت البحث بصمت شديد عن روبنسون، وخلال الليل كنت أناديه، مرات عديدة، بصوت مرتفع. لم يكن أحد يجيبني ما عدا بعض الشتائم والتهديدات من المجدفين النائمين.

ومع ذلك، فكلما كنت أفكر في التفاصيل، وفي ظروف مغامرتي تلك كلما بدا لي من المحتمل أنهم فعلوا بروبنسون أيضاً مثلما فعلوا بي في سان

تابيتا، مامن شك في أن روبنسون كان يجدف بالتأكد، فوق سفينة شراعية أخرى. من المؤكد أن زنوج الغابة جميعهم كانوا مشاركين في التجارة، وفي المؤامرة. لكل دوره! كان ذلك أمراً اعتيادياً ومألوفاً. كان من المفيد لهم أن يعيش الأشخاص والأشياء الذين لا يأكلونهم مباشرة، كي يأخذوهم ويبيعوهم، أما الملاطفة الخاصة التي أبداها الزنوج تجاهي فهي لا تعدو أن تكون أسلوباً من أكثر الأساليب دناءة.

انسابت الانفانتا كومبيتا أسابيع وأسابيع فوق أمواج الأتلنتيك المضطربة، من دوار بحر إلى نوبة حمى، ثم إلى مساء جميل يسوده الهدوء. لم أعد أهذي، كنا نتحاور همساً حول المرساة. وذات صباح، علمنا ساعة الاستيقاظ، حين فتحنا الكوى بأننا بلغنا المكان المنشود. كان المشهد مهيباً.



<< إن كان ثمة مفاجآت في تلك الرحلة، فقد كان ما اكتشفناه مفاجأة مذهلة.. كان مدهشاً تماماً ما رأيناه فجأة عبر الضباب. بحيث رفضنا في البداية أن نصدق عيوننا.. ولكننا حين صرنا مع ذلك أمام الأشياء. انفجرنا جميعاً نحن المجدفين في الضحك، ونحن نحدق، أمامنا مباشرة..

تصور نفسك أمام مدينة واقفة، واقفة تماماً باستقامة. كانت نيويورك مدينة واقفة، كنا قد رأينا من قبل مدناً بالتأكيد ومدناً جميلة، ومرافئ، وذات شهرة، أيضاً، ولكن المدن عندنا نائمة، في الحقيقة، على شاطئ البحر أو على ضفاف الأنهار، إنها تتمدد على مد النظر، تنتظر المسافرين، في حين أن هذه المدينة الأميركية لم تكن ممتدة على الأرض كانت تقف متصلبة، هناك، لا يحضنها أحد، متصلبة بنحو يبعث على الخوف.

ضحكنا إذن مثل حمقى، كان ذلك المشهد مبهماً بالتأكيد، مشهد المدينة المتيبسة الجسد! غير أننا لم نستطع أن نضحك إلا ابتداء من عنقنا وما فوق، بسبب البرد الذي كان يأتينا من البحر في تلك اللحظة عبر سحب ضباب رمادية ووردية، سريعة وواخزة، اقتحمت سراويلنا واندفعت بقوة نحو صدوع ذلك الجدار الهائل من الأبنية، نحو شوارع المدينة. كانت سفينتنا قد اتخذت موقعا لها على عتبة أرصفة الميناء، وسط ماء قذر يبقبق تحت سلسلة من القوارب الصغيرة، وسفن القطر الجشعة والمهجورة.

لم يكن من اليسير على أحد أبداً النزول من السفينة في أي مكان من الرصيف، ولكن ذلك كان أصعب بكثير بالنسبة إلى محكوم بالأشغال الشاقة،

لا سيما وأن الناس في أمريكا لا يحبون مطلقاً المحكومين بالأشغال الشاقة الذين يأتون من أوروبا، «إنهم فوضويون جميعاً». هكذا كانوا يقولون. وهم لا يرغبون أن يستقبلوا في بلادهم، بوجه الإجمال سوى أولئك الفضوليين الذين يجلبون معهم الأموال، لأن جميع نقود أوروبا هي أبناء للدولار الأمريكي.

لعل بإمكانني أن أحاول مثلما حاول آخرون بنجاح، اجتياز المرفأ سباحة، وأن أهنف لحظة وصولي إلى الرصيف «يحيا الدولار! يحيا الدولار!» كانت تلك طريقة بارعة، ثمة أشخاص عديدون نزلوا إلى الرصيف بتلك الطريقة، ثم كوتوا، فيما بعد ثروة، ولكن هذا غير مؤكد. بل تتناقله الأسنة فقط، وغالباً ما أفضت الأحلام إلى كثير من المصائب. أما أنا فكان لدي تنبير آخر يسكن رأسي، جنباً إلى جنب مع الحمى.

لما كنت قد تعلمت على ظهر السفينة الشراعية عد البراغيث (ليس الإمساك بها وحسب، بل وإجراء عمليات حسابية لها من جمع وطرح، وبوجه الإجمال، القيام بإحصاء لها) وهي حرفة دقيقة لا قيمة لها في الظاهر، ولكنها تشكل تقنية بكل معنى الكلمة، فقد رغبت في أن استخدمها. يمكنك أن تقول عن الأمريكيين كل ما تريد، ولكنهم على صعيد التقنية بلغوا شأواً عظيماً. وهم سيحبون طريقتي في عد البراغيث حتى الجنون، كنت متأكداً من ذلك مسبقاً، ولم يكن خليقاً أن يخفق ذلك في رأبي.

كنت سأذهب لأقدم خدماتي لهم حينما يعطى الأمر لسفينتنا بالدخول إلى المحجر الصحي، داخل جون صغير مجاور، معزول عن المدينة. على مرمى حجر من قرية صغيرة مختبئة بهوء. على بعد ميلين شرقاً من نيويورك. بقينا جميعاً هناك في المحجر، نترقب، أسابيع وأسابيع، حتى غدا للترقب عادة من عاداتنا. ولما كان فريق منا ينزل من السفينة، كل مساء بعد تناول

الحساء، ليذهب إلى القرية، بغية التزود بالماء، فقد اغتمت الفرصة بالمشاركة في هذا الفريق كي أحقق مآربي.

كان الرفاق يعلمون جيداً ما كنت أنتويه، ولكنهم لم يكونوا هم أنفسهم متحمسين لخوض مثل هذه المغامرة. «هذا جنون، كانوا يقولون لي، إنه محفوف بالمخاطر». كنا على متن الأنفانتا كومبيتا نأكل بصورة لا بأس بها. صحيح أنهم كانوا يقرعون الرفاق بالهراوة أحياناً، ولكن ليس بنحو مفرط، كان من الممكن تحمل ذلك! وبوجه الإجمال، كان عملهم رحيماً، لا بل كان مزية رفيعة، لقد حظر عليهم حظراً تاماً الخروج من السفينة، كان الملك قد وعدهم بنوع من معاش بسيط حينما يبلغون الثانية والستين من عمرهم، وقد جعلهم ذلك الاحتمال سعداء، لأنه منحهم شيئاً يحلمون به، ومنحهم أيضاً يوم أحد كي يشعروا بأنهم أحرار، وفوق ذلك كانوا يشاركون شكلياً في الانتخابات.

خلال الأسابيع التي فرض علينا فيها الحجر الإلزامي، كان هؤلاء المحكومون يزمجرون جميعهم معاً داخل العنبر. كانوا يتعاركون هناك، ويأتون بعضهم بعضاً، أيضاً بالتناوب، ما كان يمنهم في النهاية من الفرار معي هو أنهم، بوجه خاص، لا يرغبون بأن يسمعوا أو يعرفوا شيئاً عن هذه أمريكا التي كنت أنا مولهاً بها. لكل غيلانه. أما هم فكانت أمريكا غولهم الذي يمقتونه أشد المقت.. كانوا يسعون أيضاً إلى إثارة نفوري منها، إلى أبعد حد.. كنت عبثاً أقول لهم، بأنني أعرف أناساً في هذه البلاد، صغيرتي "لولا"، التي لا ريب أنها الآن غنية بالتأكيد، وروبنسون أيضاً الذي كان، بلاشك، قد صنع لنفسه مركزاً جيداً في أعمال التجارة. ولكنهم لم يكونوا يرغبون في التخلي عن كراهيتهم للولايات المتحدة وعن اشمنزازهم وسخطهم عليها «لن تكف أبداً عن

جنونك» كانوا يقولون لي. وفي أحد الأيام تظاهرت بالذهاب معهم من أجل التزود بالماء. من القرية، وأخبرتهم بأنني لن أعود إلى السفينة. لقد أزلت ساعة الخلاص!

كانوا فتيناً طبيين، في الحقيقة، كادحين بلاريب، وقد كرروا على مسامعي بأنهم لا يؤيدون تصرفي على الإطلاق، ولكنهم كانوا يتمنون لي مع ذلك شجاعة طيبة وحظاً سعيداً، والكثير من الاستمتاع أيضاً.. ولكن على طريقتهم «اذهب، قالوا لي، اذهب، ولكننا نحزرك أيضاً. هذه الرغبة الطائشة ليست ملائمة لمقمل مثلك، لاشك أن الحمى أفتدتك رشذك! ستعود من أمريكا هذه في حال أسوأ من حالنا، وستؤدي بك رغباتك هذه إلى الضياع، هل تريد أن تتعلم؟ أنت تعرف أكثر مما ينبغي بالقياس إلى وضعك».

كنت عبثاً أجيبيهم بأن لدي أصدقاء هنا، وأنهم ينتظرونني.. كنت أغمغم.

«أصدقاء؟ ردوا علي بلهجة استنكار، أصدقاء، ولكنهم سيهربون من سحتنك، لقد نسيتك أصدقاؤك منذ زمن بعيد!

— ولكنني أريد رؤية أمريكيين، كنت مصراً على موقفي دون جدوى. ولديهم هنا نساء لا يضاھيھن أحد في أي مكان آخر.

— هلم معنا، أيها الأحمق! ما من فائدة ستجنيها من ذهابك. سيتفقم مرضك وسيودي بك إلى الهلاك. نحن نخبرك الآن من هم الأمريكيون، إنهم مليونيرات كلياً أو رمم بالية كلياً. ليس هناك وسط بينهم. وفي حالتك التي أنت فيها لن ترى المليونيرات بالتأكيد؟ أما الرمم فيمكنك أن تطمئن إلى أنهم سيجعلونك تلعن الساعة التي رأيتهم فيها، ليس بعد وقت طويل وإنما على الفور.

هكذا تعامل معي أولئك الرفاق، لقد أثاروا في القشعريرة في النهاية، أولئك المحبطون، الخانعون، أشباه الرجال. «هيا اهربوا جميعاً، كنت أجيبيهم، إنها الغيرة التي تجعل لعابكم يسيل هكذا، وهذا كل شيء، وإذا أهلكني الأمريكيون فلن آسف على شيء، ولكن الأمر المؤكد هو أنكم جميعاً لا تملكون أي شيء سوى فرن صغير بين سيقانكم، ورطب أيضاً.

وشعرت بالانفراج بعد أن قلت لهم ذلك.

حين أقبل الليل، انطلقت صفارة السفينة، إيداناً بالرحيل وعادوا يجذفون جميعاً بإيقاع واحد منظم، إلا واحداً لم يكن يجذف معهم، هو أنا. انتظرت حتى لم أعد أسمع أصواتهم، لم أعد أسمع أصواتهم أبداً، ثم عدت حتى المئة وركضت بعدها ما وسعني الركض، حتى بلغت القرية. قوقعة صغيرة كانت القرية، مضاءة جيداً.. بيوت خشبية تنتظر من يشغلها. مصفوفة إلى يمين ويسار كنيسة صغيرة، صامتة صامتاً مطبقاً هي أيضاً، كنت أرتعد حسب، من البرداء، ثم من الخوف، التقيت، هنا، وهناك ببحار من حامية الموقع، لم يكن يبدو عليه القلق، وبأولاد، ثم بفتاة مفتولة العضلات على نحو رائع. هي ذي أمريكا، وطئت أرضها أخيراً. لقد سررتني رؤيتها بعد مغامرات مريرة، ذلك يذكرك بفاكهة ألقىت إليك وسط الحياة! ولكنني وقعت على القرية الوحيدة التي لم تكن تصلح لشيء. تقيم فيها حامية من البحارة مع عائلاتهم في حال طيبة، مع كل محارها الصحية الخاوية تلك، إلى أن يأتي يوم يصل فيه وباء جائح من سفينة كسفنتنا، يعرض الميناء الكبير للويل والثبور.

في تلك الأبنية إنن، سيقضون على أكبر عدد ممكن من الأجانب، كي لا يصاب المقيمون في المدينة بأي داء، كان لهؤلاء الأجانب مقبرة قريبة أيضاً.

على أتم استعداد لاستقبالهم، غرست فيها الزهور في كل مكان، كانت الحامية تنتظر! منذ سنتين عاماً وهي تنتظر، لم تكن تفعل شيئاً سوى الانتظار.
ما إن وجدت كوخاً صغيراً خاوياً، حتى اندست فيه، وغرقت في النوم حالاً. حين أطل الصباح لم يكن في الشوارع الصغيرة سوى البحارة في ثياب قصيرة، وأجسام متناسقة ومعافاة، ينبغي رؤيتهم وهم يكنسون الأرض، ويرشون سطولاً من الماء حول ملجئي، وفي كل مفارق طرق تلك القرية النظرية. كنت أحافظ عبثاً على مظهر اللامبالي، فقد كان الجوع يعضني بنابه، حتى أُلجائي على الرغم من كل شيء إلى الاقتراب من مكان تفوح منه رائحة طعام.

تم اكتشافني هناك، ومحاصرتي بين زمرتين من البحارة أرادوا التحقق من هويتي، كان ذلك يعني إلقائي في الماء حالاً. ساقوني على جناح السرعة إلى مدير المحجر الصحي. وقد بلغ الخوف مني كل مبلغ. وعلى الرغم من أنني أظهرت بعض الشجاعة إزاء المحنة التي أحقت بي، فقد كنت أشعر أيضاً. من جراء الحمى، بأنني أضعف من أن أجازف ببعض الكلمات المرتجلة المؤثرة. كنت أهذي بالأحرى، وقد سقط قلبي من بين ضلوعي.

كان من الأفضل أن أغيب عن الوعي، وهو ما حدث لي.. وفي مكتب المدير، حين استعدت وعيي فيما بعد، كانت بعض النسوة بثياب فاقعة اللون قد حللن محل الرجال من حولي، وأخضعنني لاستجواب غامض مشوب بالرفق والتسامح، وهو ما فرج عني بعض الكرب. ولكن التسامح لا يدوم طويلاً في هذا العالم، ففي الغد شرع الرجال من جديد، يحدثوني عن السجن. انتهزت الفرصة كي أحدثهم عن البراغيث، وعن براعتي في الإمساك بها، وعدّها.. ثم جمع تلك الطفيليات في إحصائيات حقيقية. ورأيت بوضوح أن كلامي قد أثار اهتمام

حراسي ودهشتهم. كانوا يصغون إلي بانتباه، أما بشأن تصديقي فكان ذلك أمراً آخر مختلفاً.

ظهر أخيراً، أمر موقع الحامية ذاته.. كانوا ينادونه «السرجون جنرال» وهو ما سيكون اسماً جميلاً لسمكة. بدا السرجون خشناً، ولكن أكثر حزمًا وتصميماً من الآخرين «ما الذي تقصه علينا يا فتاي؟ آه.. آه..» كان يأمل أن يشوشني ببعض الكلمات المعسولة على هذا النحو، ولكنني أقيت عليه سريعاً مرافعتي التي كنت قد أعدتها.. «أنا أؤمن بفائدة إحصاء البراغيث، فذلك مظهر من مظاهر الحضارة، لأن هذا الإحصاء يمثل قاعدة لإحصاء المواد الأعلى قيمة.. ينبغي لبلد متقدم أن يعرف عدد براغيثه، مصنفة بحسب الجنس ومجموعة الأعمار. والسنوات والفصول.

— هيا، هيا، كفاك خطباً أيها الشاب، قاطعني السرجون جنرال. لقد جاء مثلك إلى هنا كثيرون آخرون من أولئك الشجعان الأوروبيين، ورووا لنا أكاذيب من هذا النوع، ولكن هؤلاء كانوا في المحصلة فوضويين، مثل الآخرين، بل وأسوأ من الآخرين، لم يكونوا يؤمنون قط بأمرىكا، دعك من التبجح والمفاخرة.. غداً، سنجري لك اختباراً على المهاجرين، في إيسلاند في مصلحة الحمامات، وسيخبرني مساعدي الماجور المستر ميسشيف إن كنت كاذباً. منذ شهرين يطالبني المستر ميسشيف بعنصر معتمد «لحساب البراغيث».. ستذهب إليه على سبيل التجربة، هيا انصرف. وإذا كنت تخدعنا فسنرميك في الماء. هيا انصرف، وحانز إن!

كنت أعرف كيف أنصرف من أمام هذه السلطة الأمريكية، مثلما كنت أنصرف من أمام كثير من السلطات الأخرى. مقدماً لها قضيب في البداية، ثم مؤخرتي بعد ذلك من خلال نصف دورة رشيقة مترافقة بتحية عسكرية.

فكرت بأن هذه الوسيلة لإحصاء البراغيث كانت خليقة أن لا تقل جودة عن غيرها في تقريبي من نيويورك، وفي الغد أطلعني الماجور ميسشيف باختصار، على شؤون وظيفتي، كان هذا الرجل بديناً ومصفراً. وحسير النظر ما وسعه ذلك، بالحمالة الضخمة لنظارتيه المدخنيتين، كان حرياً أن يتعرف علي بالطريقة التي تتعرف بها الحيوانات المفترسة على فريستها. وذلك بالنظر إلى مظهري العام، لأنه كان من المستحيل عليه أن يدقق في التفاصيل بنظارتين كاللتين يحملهما.

اتفقنا دون صعوبة على العمل. كنت أعتقد أن ميسشيف سييدي تعافياً نحوي في نهاية فترة اختباري. فأن لا أكون مرثياً من قبله بسبب ضعف بصره، كان ذلك في البداية سبباً للتعاطف، وبعد ذلك، وبوجه خاص فإن براعتي في النقاط البراغيث. كان تفتته.. لم يكن هناك اثنان مثلي في سائر أرجاء الموقع، في إدخال البراغيث داخل العلبة. وحتى أشدها حراناً وأصلبها قرنتة^(٩) وأكثرها برماً ونفاذ صبر، كنت قادراً على تصنيفها حسب الجنس في جسم المهاجر ذاته، كان ذلك عملاً رائعاً، يمكنني حقاً قول ذلك. وقد انتهى ميسشيف إلى أن يتباهى كل التباهي ببراعتي.

عند المساء كان أظفرا إيهامي وسبابتي يغدوان مرضوضين لفرط ما سحقت من البراغيث، لم أكن مع ذلك قد أنهيت مهمتي ما دام قد بقي الجزء الأكثر أهمية، وهو وضع جداول للحالة الوصفية اليومية. براغيث بولونيا من جهة، ويوغسلافيا.. وإسبانيا، وقمل العانة من كريمي.. وقمل البيرو.. كل ما يسافر بنحو خفي، وما يلسع، فوق أجساد البشر المهزومين، كان يمز بين

(٩) القرتين: مادة ليفية تدخل في أنسجة الجسم القرنية كالأظافر والقرون.

أطافري، كان ذلك عملاً هائل الأبعاد وشديد التدقيق في آن معاً. كانت حساباتنا تتم في نيويورك في قسم خاص مجهز بآلات كهربائية. عداد — براغيث. ففي كل يوم كانت قاطرة «المحجر الصحي» الصغيرة تجتاز المرسى على اتساع عرضه كي تنقل إلى هناك حساباتنا لإكمالها وتدقيقها.

مرت أيام وأيام، على هذا الحال، استعدت فيها بعضاً من عافيتي، ولكنني كلما كنت أفقد هذيانِي وحمّاي في تلك البحبوحة من العيش، كان الميل إلى المغامرة وإلى مزيد من الطيش يعاودني بإلحاح. وفي الدرجة المئوية ٣٧ غدا كل شيء مبتدلاً.

كان بمقدوري مع ذلك أن أبقى هنا، مطمئناً إلى أبعد حد، مغذى جيداً في مطعم الموقع، خاصة وأن ابنة الماجور ميسشيف، التي كنت أراقبها أيضاً، كانت تأتي، متألقة في أعوامها الخمسة عشر، لتلعب التنس بعد الساعة الخامسة.. أمام نافذة مكتبنا، مرتدية تنورة قصيرة للغاية. نادراً ما رأيت أروع من ساقبها، ورغم أنهما عضلان قليلاً، فقد كانا مع ذلك، في غاية النعومة. لحم شهّي في طور التفتح والازدهار. نداء حقيقي للغبطة، مفعم بالفرح والوعود، كان ثمة ضباط من المفرزة برتبة ملازم في ريعان شبابه لا يغادرونها إلا نادراً.

لم يكن على هؤلاء الأوغاد أن يبرروا سلوكهم مثلي بأعمال من النوع المفيد. لم أكن أفوت أي تفصيل من تفاصيل مناوراتهم حول معبودتي الصغيرة. كنت أتميز من الغيظ مرات عديدة كل يوم. وانتهى بي الأمر إلى أن أقول لنفسني بأن بإمكانني ربما، أيضاً أن أتصرف كبشار. كنت أداعب هذه الآمال حينما تسارعت الأحداث في الأسبوع الثالث والعشرين من إقامتي. فقد

وعد الرفيق المكلف بنقل الإحصاءات وهو أرمني، على حين فجأة بوظيفة
عداد - براغيث في آسكا لكلاب المستكشفين.

كانت تلك ترقية جيدة بالنسبة إليه، جعلته مفتوناً طافحاً بالبشر. فقد
كانت كلاب آسكا في الواقع نفيسة للغاية، كانوا في حاجة دائمة إليها، لذلك
فهم يعتنون بها جيداً، في حين لم يكن أحد يبالي بالمهاجرين البائسين، وكان
هناك أعداد كبيرة منهم باستمرار.

لما لم يعد تحت تصرفنا الآن أي شخص يقوم بنقل حسابات البراغيث
إلى نيويورك، لم يترددوا طويلاً، في المكتب بتعييني لهذه المهمة. ضغط
ميسشيف، رئيسي في العمل، على يدي لحظة الانطلاق، وأوصاني أن أكون
متقلاً واثقاً في المدينة، كانت تلك هي الوصية الأخيرة التي قدمها لي هذا
الرجل الشريف، وبقدر ما لم يكن يراني مطلقاً بعينيه الحسيرتين، فإنه لم
يرني قط مرة أخرى.. ما أن بلغت رصيف المرفأ حتى بدأ المطر المدار
بالانهمار فوق رأسي، ثم تسرب إلى سترتي الرقيقة، وإلى إحصائياتي أيضاً
التي ذابت بالتدرج داخل يدي، كنت أحتفظ مع ذلك ببعضها داخل ظرف
مختوم سميك جداً برزت أطرافه من جيبي، كي أبدو، بطريقة ما، داخل
المدينة، كرجل أعمال، كنت أغد السير مسكوناً بالخوف والانفعال نحو
مغامرات أخرى.

حين رفعت طرفي صوب كل ذلك الجدار الهائل من الأبنية شعرت
بنوع من دوار شديد، بسبب النوافذ العديدة والمتشابهة في كل مكان، والتي
كانت تثير في نفسي الغثيان.

ولما كنت أرتمي ثياباً مهلهلة فقد أسرعرت مرتعداً نحو الشارع الأشد
عتمة والذي أمكنني تمييزه في تلك الواجهة العملاقة، آملاً أن لا يراني المارة

بينهم إلا بصعوبة. خجل زائد لا مبرر له، إذ لم يكن ثمة ما أخشاه. كان الشارع الذي اختزته، وهو الأضيّق فعلاً بين كافة الشوارع والأقل كثافة من أي شارع عندنا، حافلاً بالقذارة والرطوبة، ومغشى بالعتمة، كان يمشي فيه أناس آخرون، منهم الصغار ومنهم الكبار، يقودونني معهم مثل ظل. كانوا يصعدون مثلي إلى المدينة، إلى العمل دون ريب. أنوفهم إلى الأسفل، كانوا يؤساء كل الأمكنة.



« كما لو كنت عارفاً إلى أين أمضي. اتخذت سمت من يختار
وجهته، وغيّرت الطريق، ملت نحو اليمين، إلى شارع آخر، أكثر إضاءة،
«برودواي». ذلك هو اسمه. قرأته فوق لوحة معلقة. فوق الطوابق الأخيرة،
في الأعلى كانت ما تزال بقية النهار، مع نوارس، ورقع من السماء، كنا نتقدم
داخل ضوء منبعث من الأسفل، مريض مثل ضوء الغابة، بالغ الضبابية،
بحيث بدا الشارع كما لو كان مملوءاً بركام هائل من قطن وسخ.
مثل جرح حزين كان ذلك الشارع الذي لم يعد يتخلص منا. نحن،
السائرين من جانب إلى آخر، ومن تعب إلى تعب، نحو النهاية التي لا نراها
قط، نهاية كل شوارع العالم.

لم تكن السيارات تمر من هنا، لا شيء سوى أناس، وأناس أيضاً.
كان ذلك هو الحي النقيس، كما شرحوا لي فيما بعد، الحي المكرس
للذهب: مانهاتن. لا يعبره أحد إلا على قدميه. كما في الكنيسة، إنه القلب
النابض لبنك العالم اليوم، كان ثمة، مع ذلك، من يبصق على الأرض وهو
يعبر الشارع، ذلك اجترأ ولا ريب.

حي مترع بالذهب، معجزة حقيقية.. يمكن سماع المعجزة عبر
الأبواب، بحفيف دولاراتها حين تدعكها الأيدي. بالغ الخفة، دائماً، هو
الدولار، روح قدس حقيقي، أنفوس من الدم.

كان لدي الوقت مع ذلك، كي أذهب لرؤية أولئك الموظفين الذين كانوا
يحرصون النقود، بل إنني دخلت لأحدث معهم.. كانوا حزينين للغاية، كانت
أجورهم زهيدة.

حينما يدخل المؤمنون الورعون إلى بنكهم، فلا تظن أن بإمكانهم أن يتصرفوا فيه هكذا على هواهم. مطلقاً، إنهم يتكلمون إلى الدولار هامسين له بأشياء، عبر سياج مشبك صغير. يعترفون له بذنوبهم، دونما كثير من الضجة، أنوار شفيفة عذبة.. كوة صغيرة غاية الصغر بين أقواس مقنطرة عالية. هذا كل ما في الأمر. إنهم لا يأكلون القربان، بل يضعونه فوق قلوبهم. لم أستطع البقاء طويلاً للإعجاب بهم، كان علي أن أتبع أناس الشارع بين جدران الظلال الناعمة.

اتسع شارعنا، فجأة على غرار صدع عميق ينتهي ببركة من نور. وجدت نفسي هناك أمام بحيرة من ضوء النهار خضراء مزرقّة محصورة بين غيلان وغيلان من المنازل، وفي وسط تلك الفرجة المضاءة يقوم مبنى له مظهر ريفي، محاط بمرجة خضراء حزينة.

سألت العديد من العابرين قربي من حشد المارة عن كنه هذا البناء الذي كنت أراه، ولكن أغلبيتهم كانوا يتظاهرون بأنهم لم يسمعونني، لم يكن لديهم وقت يضيعونه، غير أن شاباً صغيراً مر بجوارني أراد، مع ذلك أن يخبرني، بأن ذلك المبنى هو دار الحاكم، ذلك صرح قديم من بقايا العهد الاستعماري. أضاف الشاب. كل ما كان فيه من معالم تاريخية.. أبقى على حاله.. ثم تحول محيط تلك الواحة إلى حديقة عامة، تضم عدداً من المقاعد، يومها الناس كثيراً لمشاهدة دار الحاكم، جالسين على المقاعد، لم يكن هناك أشياء أخرى تستحق المشاهدة، حين وصلت.

انتظرت ساعة كاملة في المكان ذاته، وعند الظهر برز من هذا الغبش، من هذا الجمهور المختلط في الشارع جرف مفاجئ من النساء الجميلات جمالاً أخذاً.

أي اكتشاف رائع! أي أمريكا! أية فتنة طاغية! إنها ذكرى "لولا"! لم يخدعني مثال "لولا"! كان لعمرى، مثلاً حقيقياً.

كنت ألمس الوتر الحساس في رحلة حجي، ولو لم تكن تعذبني في تلك اللحظة نداءات الجوع والرغبة الجارفة بالطعام، لاعتقدت بأنني قد بلغت إحدى لحظات الانخفاف الجمالي فوق الطبيعية. كان الجمال الذي كنت استكشفه يخطفني بشيء من الثقة والغبطة، من شرطي الإنساني المبتذل. لم أكن يعوزني شيء سوى شطيرة كي أتصور نفسي في قلب معجزة من المعجزات. ولكن كم كانت تعوزني الشطيرة.

يا لرشاقتهن الغضة، مع ذلك! ما كان أشهائهن وأذهن! أية لقي جميلة متتاسقة، تفردات خطيرة، نجاحات لكل المخاطرات! لكل الوعود الممكنة للوجه والجسد لدى هؤلاء الشقراوات! وأولئك السمرراوات، وتلك الحوريات، لعل اليونان هي التي انبعثت أمامي؟ كنت أفكر، لقد وصلت في اللحظة المناسبة.

خيل إلي بالأحرى، أنني إزاء أطيايف إلهية، لم يكن يبدو عليها قط أنها لحظت وجودي، أنا، هناك، غير بعيد، فوق ذلك المقعد، غارقاً كلياً في حال من البحران، مفعماً بإعجاب شهواني - صوفي، يسيل من فمي اللعاب بسبب الكينين والجوع، لا بد من الاعتراف بذلك، ولو كان بمقدوري الخروج من جلدي لخرجت منه في تلك اللحظة بالضبط، مرة واحدة وإلى الأبد. لا شيء كان يبقيني داخله أبداً.

كان بوسع هؤلاء الفتيات الطائشات الخارقات الجمال أن يأخذنني معهن. أن يسمون بي، لم يكن ثمة سوى إشارة يشرن بها، أو كلمة يتفوهن بها، حتى أنتقل كلياً، وفي اللحظة ذاتها إلى عالم الحلم، ولكن كان لديهن مهمات أخرى.

انقضت ساعة، ساعتان وأنا في تلك الحال من الذهول، لم أعد أتمنى أي شيء.

أنتم تعرفون خدعة الأمعاء. لا شك أنكم رأيتموها في الأرياف عندنا، يخدعون بها المتشردين؟ يحشون محفظة نقود عتيقة بأمعاء عفنة لدجاجة ميتة، ويلقون بها في درب المتشرد. «إيه حسناً. ثمة متشرد، هو أنا، أقول لكم. وكل ما أراه أشبه بمحفظة ضخمة، نهمة» ثم ما من شيء داخلها سوى حلم. كان حرياً بي أن أفكر بالأمر الجدية، بأن لا أمس الآن ذخيرتي من النقود، إذ لم يكن معي الكثير منها. لم أكن أتجرأ حتى على عدها. ولن يكون بمقدوري ذلك على كل حال، فقد كنت أرى الأشياء مزدوجة. كنت أحس بوريقاتها فقط عبر نسيج بنطالي، هزيلة فزعة، قريبة جداً داخل جيبتي إلى جانب إحصائياتي الخائبة.

من حولي كان يمر رجال أيضاً، شبان على الأخص، رؤوسهم أشبه بخشب وردي، ونظراتهم جامدة ومتمائلة. وفكوكهم يستحيل أن تكون فكوكاً عادية، عريضة جداً، وفظة للغاية.. لا بد ان نساءهم في النهاية يفضلونها على هذا النحو. كان الجنسان، كما بدالي، يمضيان كل إلى جهته وسط الشارع.. أما النساء فقلما كن ينظرن إلا إلى واجهات المخازن. تستخوذ عليهن كلياتاً جاذبية الحقائق والمناديل وأشياء الحرير الصغيرة المعروضة بندرة شديدة، في كل واجهة، ولكن بطريقة متميزة ولافتة للنظر، لم أعثر وسط ذلك الجمهور على كثير من المسنين، ولا على أزواج أيضاً. ما من شخص بدا عليه الاستغراب من وجودي هناك وحيداً طوال ساعات، جالساً على ذلك المقعد أراقب جميع العابرين.. غير أن رجل البوليس الواقف وسط الشارع

المعبد، والجامد مثل محبرة، بدأ، في لحظة معينة يشتبه بأمرى، وتذهب ظنونه إلى أن لدي نوايا شريرة. كان ذلك واضحاً من نظراته. حيثما كنت، وحين تجتذب إليك انتباه السلطات، من الأفضل لك أن تتوارى بسرعة، لا ضرورة للشروح، الفرار الفرار، إلى لجة لا قرار لها! هكذا قلت لنفسى.

إلى اليمين من مقعدي كان ثمة فتحة عريضة. أشبه بمدخل المترو على الرصيف عندنا.. بنت لي ملائمة للاختفاء عن الأنظار.. في داخل تلك الفتحة للوسعة ثمة درج من رخام وردي، كنت أرى عدداً من الأشخاص العابرين في الشارع يتوارون فيها ثم يخرجون منها.. وتبينت أنهم كانوا في ذلك المكان تحت الأرضي، يذهبون لقضاء حاجتهم. وعلى الفور. وجدت نفسي داخلها، كانت للصالة التي يحدث فيها ذلك الأمر، من رخام أيضاً، نوع من حوض سباحة، ولكنه فارغ من مائه. حوض ملوث، يغمره ضوء ملطف خافت، يسقط فوق الرجال المفكوكي الأزرار وسط رواتحهم، محمري الوجه بسبب الضغط على فضلاتهم للقررة، أمام أنظار الجميع. مع دوي أصوات بربرية.

على ذلك النحو، ببساطة، ومع ضحكات جميع أولئك المقعنين داخل الكابينات المحيطة بالحوض، يتبادلون التشجيع مثلماً في كرة القدم، يلعب الرجل منهم سترته، في البداية، كما لو من أجل تمرين رياضي، ثم يتخذ الوضعية المناسبة في نهاية المطاف، كان ذلك هو الطقس المتعارف عليه بين الرجال. كانوا يستقرون، بعد ذلك، فوق المغارة الغائطية، مختلي الهندام، متجشئين وأسوأ من ذلك، يومنون إيماءات أشبه بالمجانين، أما الواصلون الجدد فكان عليهم أن يردوا على ألف مزحة بذئبة أثناء نزولهم الدرج من الشارع، ولكنهم كانوا يبدون مبتهجين متهللين مع ذلك.

وبقدر ما كان الرجال مترنين في الأعلى، فوق الرصيف، يتخذون سمت الوقار بصرامة، وبحزن أيضاً، كانت إمكانية اضطرابهم إلى إفراغ أحشاهم، وبمشاركة صاخبة تحررهم كما يبدو، تسرهم من أعماقهم.

كانت أبواب الكابينات الملطخة بشدة تتدلى، مقتلعة من مفاصلها، كان الرجال يدخلون من أحدها إلى الآخر بغية بعض الثرثرة. أما أولئك الذين كانوا ينتظرون مقعداً شاغراً فكانوا يدخنون سجائر ثقيلة، يرتبون على كتف الشخص الجالس المنهمك في العمل، مثابراً بعناد، ورأسه المتشنج بين يديه. كان كثير منهم يتأوهون بشدة على غرار الجرحى والنساء الواضعات، وينذرون المصابين بالإمساك بعذابات مضمية.

ما إن يعلن صوت انبحاس الماء عن شغور أحد النخاريب حتى تزداد الضجة حول هذا النخروب الشاغر، كانوا غالباً ما يلعبون للفوز به لعبة الطرة والنقش. أما الصحف المقروءة حديثاً، وعلى الرغم من أنها سميكة مثل مخدات فكانت ترمى على الفور إلى الأسفل من قبل هذا الرهط من المنشغلين بمعيمهم المستقيم. كان من الصعب تمييز الوجوه بسبب سحب الدخان، ولم أجرؤ على الاقتراب أكثر مما ينبغي من هؤلاء الرجال بسبب روائحهم.

تلك المفارقة كانت تبدو مصممة لبلبله أي غريب. كل ذلك الانفلات الشخصي من أبسط حدود اللياقة، تلك الألفة المعوية المذهلة، يقابلها في الشارع ذلك التشدد المطلق، كان يذهلني أيما ذهول.

صعدت إلى ضوء النهار عبر الدرج ذاته كي أستريح على المقعد ذاته. إفراط مفاجئ في الهضم وفي الابتذال، اكتشاف لشيوعية مرحة للخراء. كل جانب من تلك الجوانب المثيرة للبلبله، في المغامرة ذاتها تركته في مكانه، لم

يكن لدي القوة لتحليلها ولا لصنع توليف لها، كان النوم هو ما أشتهيه بقوة.
هياج لذيذ ونادر الوجود.

تابعت السير إذن مع أرتال المارة الذين دلفوا إلى أحد الشوارع
المفضية إلى الحديقة. تقدمنا دونما انتظام، بسبب المتاجر التي كان كل عرض
من عروض بضائعها يفرق الجمهور أشتاتاً، كان باب أحد الفنادق مفتوحاً
على مصراعيه، هناك، محدثاً دروراً بشرياً عظيماً. أشخاص ينبجسون فوق
الرصيف عبر فتحة الباب الواسع. قادتني قدامي في الاتجاه المعاكس، إلى
داخل الفندق، فتلقفني على الفور بهو عظيم واسع.

كنت مندهشاً في البداية، فقد كان علي أن أؤمن وأتخيل عظمة المبنى،
وضخامة أبعاده، كان كل شيء يجري تحت ضوء مصابيح محتجبة، لم تكن
تألّفها العين إلا بعد لأي.

وسط ذلك الغبش كان جمع غفير من الفتيات يغصن في مقاعد عميقة
أشبه بعلب الجواهر، ومن حولهن رجال بالغو الحذر، يمرون ويعاودون
المرور بصمت، على مسافة منهن، وقد بدا عليهم الفضول والوجل، إزاء
صف السيقان المتصالبة على غرار أعمدة حريرية رائعة. خيل إلي أن تلك
التحف العجيبة تنتظر هناك أحداثاً جليلة الشأن للغاية، وباهظة الثمن، لم أكن
بالطبع، من يفكرن به، وجعلت أمر، بدوري، خلسة أمام هذا الإغواء المديد
والصارخ.

لما كانت تلك الفاتنات اللواتي يقارب عددهن المئة، قد انتظمن في
صف واحد على الأرائك، كاشفات عن سيقانهن الرائعة، فقد بلغت مكتب
الدخول، كمن يمشي في الحلم، مرتشفاً جرعة من الجمال أكبر بكثير مما
كانت تحتمله طبيعتي الهشة المتداعية.

خلف المكتب ثمة موظف جامد كأنه ملصق بالصمغ، عرض علي،
بفظاظة غرفة صغيرة. كنت عازماً على اختيار أصغر غرفة في الفندق، فقد
كان كل ما أملكه، في تلك اللحظة، لا يعدو الخمسين دولاراً، لم يكن لدي أية
أفكار، ولا ثقة لي بأحد.

كنت أمل أن تكون تلك الغرفة التي قدمها لي الموظف أصغر غرفة في
أمريكا فقد كان فندقه، واسمه لوف كالفين، مثلما قرأت على لوحته، هو الأكثر
ازدحاماً بالزبائن بين أضخم الفنادق في القارة.

من فوقي، أية أجنحة بانخة لا نهاية لها! وعلى مقربة مني، فوق تلك
الأرائك! أي إغراء بهتك هذا الطوفان من الجمال! أية هوى سحيقة! أية مخاطر!
أ يكون عذاب الجمال للفقير البائس إذن عذاباً لا نهاية له؟ أ يكون أيضاً أشد عناداً
من عذاب جوعه؟ ولكن ما من وقت للاستسلام لتلك الخواطر، فقد وضع موظف
المكتب مفتاحاً ثقيلاً في يدي.. وفارقتني فجأة الجراءة على الحركة.

من الظل برز أمام عيني صبي نشط، عليه نوع من ثياب جنرال فتي
جداً، يأمر وينهي على هواه، قرع الموظف الهامد فوق المكتب ثلاث قرعات
بجرسه المعدني، فشرع الصبي يصفر. كانت تلك إشارة الانطلاق، كانوا
يرسلوني إلى غرفتي، وانسللنا أنا والصبي.

مشينا في البداية داخل رواق، بسرعة لا بأس بها، متجهين ومصممين
على غرار مترو، كان الولد يقودني، مررنا بفسحة صغيرة، تلاها انعطاف،
ثم انعطاف آخر. كنا نسير دون إبطاء، لوينا قليلاً خط سيرنا، ثم توقفنا. هوذا
المصعد. صعود مفاجئ. هل وصلنا الغرفة؟ لا، ثمة رواق أيضاً أكثر عتمة
من سابقه. كانت جميع الجدران من خشب الأبنوس كما بدا لي. لم يكن لدي
الوقت لأتفحصها، كان الصغير يصفر، حاملاً حقيبتتي البالية. لم أجرؤ على

سؤاله، عن أي شيء.. عليّ السير فقط، ذلك ما كنت أدركه جيداً. وفي قلب العتمة، هنا وهناك، داخل الممر الذي نسير فيه، مصباح كهربائي أحمر أو أخضر يعطي إيعازاً للسائر.. ثمة خطوط ذهبية تميز الأبواب. اجترنا منذ وقت طويل الرقم ١٨٠٠ ثم الرقم ٣٠٠٠، كنا نمضي مع ذلك كمن يجرفه قدر غير مرئي، كان الصياد الصغير المزين بشرائط الجنرال يطارد داخل الظل شيئاً لا اسم له. كما لو بوحى غريزته، ما من شيء كان يفاجئه في هذا الكهف، كما يبدو. كان صفيّره يتموج بنغمة شاكية، حينما مررنا بزنجي، ثم بوصيفة زنجية هي أيضاً. كان هذا كل شيء.

خلال الجهد الذي بذلته في سيرى المتعجل فقدت على امتداد تلك الرواقات المتماثلة، بعضاً من التوازن الذي بقي لي بعد فراري من المحجر الصحي. كانت قواي تتنسل، خيطاً خيطاً، مثلما كنت أرى كوخى يتنسل مع رياح أفريقيا بين طوفان المياه الفاترة. كنت أصارع هنا سيلاً جارفاً من إحساسات غامضة.

استدار الصبي فجأة دون سابق إنذار. لقد وصلنا. واصطدمت بأحد الأبواب. كانت تلك غرفتي. علبة كبيرة ذات جدران من الأبنوس. لا شيء سوى قليل من النور، كان ينزف على الطاولة من مصباح خجل، مخضر. «مدير فندق لوف كالفين، يسعده أن يعلن للمسافر بأنه يرحب به بحرارة، وهو يهتم شخصياً بأن يوفر له الراحة والسرور طوال مدة إقامته في نيويورك» كانت قراءة هذا الإعلان البارز للعيان خليفة أن تضيف أيضاً إلى بؤسي بؤساً جديداً.

ما أن غدوت وحيداً، حتى غدت حالي أسوأ بكثير، كل هذه الأمريكا جاءت إليّ تلقني، تطرح عليّ أسئلة عويصة، تنير في داخلي هواجس قدرة، هنا، حتى داخل غرفتي.

على السرير وبعد أن بلغ القلق مني كل مبلغ، كنت أحاول التآلف مع الغبش الذي يسود ذلك الحيز المغلق، كان ثمة هدير يأتي من النافذة ترتج له الجدران، ذلكم هو المترو الهوائي. ففي مقابل الفندق، كان يندفع بين شارعين على غرار قذيفة مدفوع. مكتظ بلحوم مرتعشة مهشمة، مترجأً عبر المدينة المعتومة، من حي إلى حي. كنت أراه هناك في الأسفل، يهز هيكله وفوقه سيل من الأقفاص التي كان صداها يتردد خلفه، بعيداً، من جدار إلى جدار. كانت ساعة الغداء قد حانت، وأنا في تلك الحال من الخور، ثم تلتها ساعة النوم أيضاً.

كان المترو الهائج على الأخص هو الذي أصابني بالبهت.. وفي الجانب الآخر من ذلك البئر أضاء النور داخل إحدى الغرف، ثم داخل غرفتين، ثم في عشرات. كان بمقدوري أن أتبين ما يجري في قلب بعض تلك الغرف. أسر عديدة كانت تنام الآن. وقد بدا على هؤلاء الأميركيين الإعياء الشديد على منوال الناس عندنا. بعد ساعات الوقوف العمودي على الأرجل. كانت أفخاذ النساء ممثلة جداً وشاحبة جداً، تلك التي استطعت أن أراها، على الأقل، أما أغلبية الرجال فكانوا حليقيين من الأعلى إلى الأسفل يدخنون سيكاراً قبل نومهم.

في السرير كانوا يخلعون نظاراتهم في البداية، ثم يضعون طقم أسنانهم في قذح، ويجعلون كل ذلك في متناول أيديهم. لم يكن يبدو عليهم أنهم يتحاورون فيما بينهم، أو بين أعضائهم الجنسية. إنهم تماماً كما في الشارع، حتى ليخيل إليك بأنك ترى حيوانات ضخمة وديعة جداً، معتادة على السأم. لم ألاحظ في جميع من شاهدت سوى زوجين وزوجتين يمارسان في النور الأشياء التي كنت أتوقعها، ودونما عنف على الإطلاق. أما النساء الأخريات

فكن يأكلن حبات الملابس في السرير، بانتظار أن ينتهي الزوج من تواليته.
ومن ثم ينطفئ الجميع.

كان الحزن يخيم على هؤلاء الناس الذين ينامون. لاحظت بوضوح أنهم غير مباليين بأن تسير الأمور كيفما تشاء. رأيت بوضوح أيضاً أنهم لا يسعون إلى معرفة السبب في وصولهم إلى ما وصلوا إليه، كان ذلك سيان عندهم. إنهم ينامون، لا يهتمهم كيف. ينامون منفوخين، محارات، لا متشككين. وسواء أكانوا أمريكيين أم لا؛ فقد كانت سرائرهم مطمئنة.

رأيت كثيراً من الأشياء أقل وضوحاً من أن تبهجني. كنت أدرك الكثير منها ولم أكن أدرك منها ما يكفي. وقلت لنفسي. لا بد من الخروج، ومن الخروج أيضاً، لعلي التقي بروبسون. كانت فكرة حمقاء بالطبع، ولكنني أقتعت نفسي بها، كي أجد حجة للخروج من جديد، لا سيما أنني كنت أتقلب وأتقلب عبثاً فوق سريري الصغير دون أن أتمكن من الحصول على أصغر ذرة من النوم. وحتى ممارسة الاستمءاء في مثل تلك الحالة لن تشعرني بالتفريج ولا بالتسلية. إنه القنوط الحقيقي، إذن!

والأسوأ من ذلك. أنني كنت أتساءل. كيف سأجد في الغد ما يكفي من القوة كي أوصل القيام بما قمت به عشية الليلة الماضية. أين سأجد القوة من أجل تلك المساعي البلهاء، تلك المشروعات الألف التي لا تفضي إلى شيء، تلك المحاولات للخروج من الضرورة المضنية، تلك المحاولات المجهضة دوماً. وكل ذلك من أجل أن أقتنع مرة واحدة إلى الأبد بأن القدر لا يمكن قهره، وأن علي أن أسقط كل مساء أسفل جدار من الجدران تحت وطأة القلق من ذلك الغد القادم، الأشد عرضية دوماً والأكثر بؤساً وقذاراً.

ربما كان العمر القادم هو الذي يهددنا بالأسوأ. لم يعد لدي الكثير من الموسيقى في داخلي كي أرقص الحياة. كل فترة للشباب كانت على وشك أن تمضي إلى أقاصي العالم. داخل صمت الحقيقة. إلى أين تذهب خارج هذه الغرفة؟ لنا أسألك، حينما لا يعود في داخلك للقدر الكافي من البطاح والهنيان؟ الحقيقة، إنها احتضار لا ينتهي، فحقيقة هذا العالم ليست سوى الموت. لا مفر أمامك من الاختيار أن تموت أو أن تموت. وأنا غير قادر بالمرّة على أن أقتل نفسي.

كان من الأفضل إذن الخروج إلى الشارع، القيام بذلك الانتحار الصغير. كل أمرئ له مواهبه الصغيرة، أسلوبه من أجل أن يكسب نومه وقوته. كان حرياً أن أتمكن من النوم كي أجد ما يكفي من القوة لأكسب ما أعيش به غداً. ما يلزمني تحديداً هو أن أسترد نشاطي كي أجد عملاً في الغد. وأن أعبر فوراً، بانتظار الغد، عتبة النوم الخفية. لا ينبغي لك الظن بأن من السهل عليك أن تتام، حينما تبدأ بالارتياح بكل الناس، بسبب الكثير من الخوف، على الأخص، الذي يخلقونه في نفسك.

ارتديت ثيابي، كيفما اتفق، وبلغت باب المصعد، وأنا في حال من البطاح.. كان ينبغي المرور في الرواق أمام صفوف أخرى، ألغاز أخرى تسبي العقل.. نوات سيقان شديدة الإغواء، ووجوه ناعمة وقاسية، إلهات في النهاية، إلهات صيادات، لعل بإمكانني محاولة التقرب منهن، ولكنني كنت أخشى من أن تنتهي بي الأمور إلى قبضة البوليس، فجميع رغبات الفقير تقريباً تنتهي به إلى السجن. ثم استعاندني الشارع. لم يعد الجمهور هو نفسه الذي رأيته من قبل. كان هذا يبدي جرأة أكبر قليلاً، وهو يرغي ويزبد على امتداد الأرصفة، كما لو أنه قد دخل الآن إلى بلد أقل قحولة وقحطاً، بلد التسلية. بلد المساء..

كان الناس يتقدمون نحو الأضواء البعيدة المعلقة في قلب الليل، مثل أفاع متحركة ومتعددة الألوان. كانوا يتدفقون من كل الشوارع المحيطة. مثل هذا الجمهور، كنت أفكر، كان يلد الكثير من الدولارات، من المناديل حسب، على سبيل المثال، أو من جراب حريري، أو من السجائر فقط.. والقول أن بمقدورك، أنت ذاتك أن تتسكع وسط كل هذا المال، فإن ذلك لا يقدم لك قرشاً واحداً، حتى من أجل أن تأكل. كان هذا مؤسماً حين يفكر المرء به، كان ذلك محظوراً على الناس، يحظره بعضهم على بعض.

كنت أجز نفسي أنا أيضاً نحو الأضواء. هي ذي سينما، ثم سينما أخرى إلى جانبها. وبعدها أيضاً سينما أخرى.. وهكذا دواليك. وعلى امتداد الشارع، كنا نفقد قطعة ضخمة من الجمهور أمام كل منها. اخترت واحدة من تلك السينمات، كان ملصقاً على واجهتها صور لنساء بثيابهن الداخلية، أية أفخاذ! يا سادتي: ثقيلة فسيحة محكمة التكوين، ورؤوس صغيرة ظريفة فوقها، كما لو أنها مرسومة على سبيل التضاد، ناعمة رقيقة، بقلم رصاص دونما رتوش.. كاملة دونما هنات، بإتقان يفوق الوصف. كاملة، أقول لكم. لطيفة ولكنها صارمة ومختصرة، في الوقت ذاته، كل ما يمكن أن تتفتق عنه الحياة من الجمال الأشد خطورة. من الطيش المطلق للجمال، تلك الهارمونييات السماوية العميقة وهي تبوح بأسرارها.

كان جو السينما لطيفاً دافئاً، أرغانت ضخمة الحجم بالغة العنوبة، كما في الكنيسة، سيسري بها الفء بعد لحظات، أرغانت شبيهة بالأفخاذ، ما من لحظة أضعيها، غصت في غمرة هذا العفو الدافئ. كان علي أن أترك نفسي على سجيبتها، كي أتصور أن هذا العالم ربما كان قد اهتدى إلى سبيل التسامح.

ما لبثت الأحلام أن سعدت وسط الظلمة كي تتعانق مع سراب الضوء الذي ينوس، لم يكن ما يجري على الشاشة نابضاً بالحياة، غير أن حيزاً

فسيحاً مضطرباً من الوهم بقي فيه، من أجل البؤساء، من أجل الأحلام، ومن أجل الموتى. حري بك أن تسرع في زخم الأحلام كي تجتاز الحياة التي تنتظرك في الخارج، حينما تخرج من السينما، كي تصمد بضعة أيام وسط تلك القسوة الفظيعة من الأشياء والناس. إنك تصطفي من أحلامك تلك التي تدفى روحك أكثر من غيرها، أما أنا، فقد كانت أحلامي، ينبغي أن أعترف بذلك، أحلاماً قنرة، ينبغي أن لا أكون فخوراً. نحن ننتزع من معجزة ما نستطيع انتزاعه منها. كان ثمة امرأة شقراء تمتلك ثديين وعنقاً لا ينسيان قط، عن لها أن تقطع صمت الشاشة بأغنية، تشكو فيها وحدتها. كنت سأبكي معها. كان ذلك مفيداً .. أية حيوية وهبها لي، دبت في عروقي بعد ذلك نفحة من شجاعة، دامت يومين اثنين، كنت أشعر بها. لم أكن أتمنى البتة أن يضيئوا أنوار الصالة، كنت مستعداً أن أتخذ كل القرارات بالنوم الآن بعد أن تجرعت قليلاً من ذلك الهياج الرائع. هياج الروح.

لدى عودتي إلى اللوف كالفين، ورغم أنني ألقيت التحية على بواب الفندق، فقد تقاعس عن أن يتمنى لي ليلة سعيدة، مثل البوابين عندنا، ولكنني لم أكن أبالي الآن باستخفاف البواب. ثمة حياة داخلية فوارة كانت تكفيني، بحد ذاتها، تذيب عشرين عاماً من الجليد.

في الغرفة، ما كدت أغلق عيني، حتى جاءت شقراء السينما تغني لي من جديد، لي أنا وحدي الآن. كل شجي كروبها. كنت أساعدها تقريباً بأن أغفو على صوتها. وقد غفوت عميقاً بما يكفي. لم أعد وحدي كلياً.. من المستحيل أن ينام المرء وحده.



« كي تتغذى بنحو اقتصادي في أمريكا يمكنك شراء رغيف خبز صغير ساخن مع قطعة نقانق في داخله. ذلك سهل ميسور، يباع في أي ركن من أركان الشوارع الصغيرة، بثمن بخس، لم يكن يزعجني قط، بالتأكيد أن أكل في حي الفقراء، ولكن المرء لا يصادف في هذا الحي تلك المخلوقات الجميلة التي هي من نصيب الأغنياء. ذلك ما كان يغدو مكدراً، إلى حد أن الأكل لا يعود حينئذ يستحق العناء.

في اللوف كالفين كان ما يزال بمقدوري أن أتخذ هيئة من يبحث فوق تلك البسط السمكة عن شخص بين صفي النساء الفائقات الحسن في المدخل، وأن أتجاسر شيئاً فشيئاً على اقتحام محيطهن المشوب بالغموض. وخلال مروري بهن كنت أعترف لنفسي بأنهم كانوا على حق، رفاقي المجدفون في الانفانتا كومبيتا. بدأت أدرك ذلك بالتجربة، لم يكن لدي الميول الحقيقية لبائس زري. لقد كانوا على حق، أولئك الرفاق حين عنفوني، غير أن الشجاعة لم تكن توافيني دائماً. كنت أذهب لأرتشف من جديد جرعات وجرعات أيضاً من السينما، في هذه الصالة أو تلك. كان هذا كافياً تماماً كي استرد ما كان يلزمني من الحيوية من أجل نزهة أو نزهتين لا أكثر. كنت قد عرفت في أفريقيا، بالتأكيد نوعاً من العزلة بالغ القسوة ولكن العزلة في قرية النمل الأميركية هذه كانت تتخذ شكلاً أشد إرهاباً.

ما كان يخيفني دائماً هو أن أغدو خاوياً تقريباً، أن لا يكون لدي في النهاية أي سبب جدي للعيش في هذا الوجود. كنت في تلك اللحظات أمام

الوقائع الأكيدة لعدمي الذاتي، في ذلك الوسط المختلف جداً عن الوسط الذي نشأت فيه وتعودت فيه عادات ننيئة، كنت كمن ينوب ويتحلل في الحال وشعرت بأنني لم أعد موجوداً، بكل بساطة، وهكذا فحين توقفت عن التحدث إلى نفسي عن الأشياء المألوفة لي، لم يعد ثمة ما يحول بيني وبين الغرق، بنحو مقزز، في نوع من السأم لا يمكن مقاومته. في كارثة روحية رهيبة.

عشية اليوم الذي فارقت فيه آخر دولار خلال تلك المغامرة كنت ما أزال غارقاً في السأم. كان ذلك من العمق بحيث رفضت حتى أن أتفحص السبل الأشد استعجالاً للخروج من مأزقي.. والحق أننا، نحن البشر، بطبيعتنا، من التفاهة والبطلان بحيث أن التسليات وحدها، يمكنها أن تمنعنا فعلاً من أن نموت. كنت أتشبث بالسينما بحماسة قانطة.

لدى خروجي من الظلمات الهادئة لفنلقي كنت ما أزال أحاول القيام بوضع نزاهات وسط الشوارع الراقية المحيطة بالفندق. كرنفال فسيح من المنازل المصابة بالدوار. كان سامي يتفاقم أمام تلك الامتدادات الواسعة لواجهات المباني، تلك الرتابة المتكبرة المنفوخة للشقق، للقرميد، للأعمدة التي لا نهاية لها. للتجارة وللتجارة أيضاً، قرحة العالم تلك، وهي تتفجر بإعلانات واعدة مقيحة، مئة ألف كذبة مهذرة.

على مقربة من النهر جبت شوارع صغيرة أخرى، وشوارع أيضاً، غدت أبعادها وقياساتها مألوفة لدي، فقد كان بإمكانني على سبيل المثال وأنا أقف على رصيف إحداها أن أكسر كل ألواح الزجاج للمبنى المقابل لي. كانت الروائح العفنة للقلي المتواصل تستأثر بتلك الأحياء. ولم تعد المتاجر تعرض بضائعها خوفاً من السرقات. كل شيء كان يذكرني بالأنحاء المجاورة لمشفاي في فيليجوييف، وحتى الأولاد ذوو الركب الغليظة، الملتوية

إلى الداخل، المنتشرون على امتداد الأرصفة، والأرغبات الجواله التي كنت سابقى ربما هناك مع عازفيها، لولا أن أولئك البؤساء لا يملكون إطعامي. أراهم دوماً غارقين في بؤسهم المدقع الذي كان يملؤني بالفزع. كنت أعود في النهاية إلى الأحياء الراقية في المدينة. «قذراً كنت أقول لنفسى حينذاك. أنت لا تملك في الحقيقة أي فضيلة». ينبغي أن تتصدى للتعرف على نفسك كل يوم أكثر قليلاً، في اللحظة التي تمتلك فيها الشجاعة للخلاص من تباكيك، مرة واحدة وإلى الأبد.

كان أحد الترامات يسير محانياً حافة "الهدسون"، متجهاً صوب مركز المدينة. عربة عتيقة، ترتج بكل عجلاتها وهيكلها الوجل، تستغرق ساعة كاملة كي تنهي خط سيرها، كان ركابها يخضعون، دون تبرم، إلى طقس معقد في الدفع، من خلال نوع من مطحنة للقهوة، توضع فيها النقود مثبتة في مقدمة الحافلة. كان المراقب يتابعهم بعينيه، وهم يقومون بذلك، مرتدياً على منوال المراقبين عندنا، زي «ميليشيا بلقاني سجين».

كنت أعود، في النهاية، من نزهاتي الشعبية منهكاً، فأعاود المرور أمام صف الجمال المزدوج الذي لا ينفد، في البهو الفضي. ثم أمر ثانية وثالثة، ولا أكف عن المرور حالماً متشهباً.

بلغ بي العوز حداً لم أعد أجرؤ معه على التفتيش داخل جيوبي، كي أعرف ما بداخلها. حسبي أن لا تكون "لولا" قد اختارت التغيب في تلك اللحظات. كنت أفكر في ذلك.. ولكن قبل كل شيء، هل كانت سترغب في استقبالي؟ هل أستطع أن أستلف منها خمسين أو مئة دولار في المحصلة؟ كنت متردداً، وشعرت بأنني سأفقد الشجاعة إن لم أكل جيداً وأنام جيداً، مرة واحدة، ثم إنني إذا ما أفلحت في مشروعى الأول هذا في الاستلاف من لولا،

فسأبدأ، على الفور، في البحث عن روبنسون، في اللحظة التي سأستعيد فيها ما يكفيني من القوة. لم يكن شخصاً من نسيجي هذا الروبنسون.. فهو عزوم. على الأقل، شجاع، آه، كان علي أن أعرف من قبل بعض الأمور والحقائق حول أمريكا. كان روبنسون يمتلك ربما، وسيلة كي يشعر بتلك الثقة وبذلك الطمأنينة التي كنت أفقدها كلياً.

إذا ما أقلته سفينة شراعية هو أيضاً، مثلما يخيل إلي، ووطئ هذا الشاطئ قبلي، في ذلك الوقت، فقد كوّن لنفسه مركزاً أمريكياً، فهذا الهياج الخالي من التأثر والقلق لدى هؤلاء الأمريكيين الطائشين لم يكن ليزعجه. وأنا أيضاً، إذا ما فكرت جيداً، فسيكون بوسعي البحث عن وظيفة في مكتب من تلك المكاتب التي كنت أقرأ لوحاتها المشعة على أبوابها. ولكنني حين كنت أفكر في الدخول إلى إحدى تلك البيوت يعتريني الخوف ويشلني الخجل. بحسبي فندقي! قبر هائل، مكتظ ببشاعة لا حدود لها.

ألم تكن تلك الأكداس من الأبنية، تلك النخاريب التجارية تؤثر ربما على المعتادين على رؤيتها مثلما كانت تؤثر علي؟ تلك الأقفاص المنتظمة أيما انتظام؟ لعل ذلك الطوفان المعلق كان يمثل بالنسبة إليهم الأمن في حين كان يمثل لي نظاماً فظيماً للإكراه، طوفان من القرميد، والأروقة والرتاجات والكوى، تعذيب معماري فظيع، يستغصي على التسكين.

ليست الفلسفة سوى التعبير، بطريقة أخرى عن الخوف وهي نادراً ما تعتمد إلا على صور الخوف والتهيب.

حينما لم يعد في جيبي سوى ثلاثة دولارات، رحلت أحرق بها وهي ترتعص في راحة يدي، على ضوء إعلانات التايم سكوير، تلك الساحة الصغيرة المدهشة التي تنبجس فيها الدعاية فوق رؤوس الجمهور المنشغل

باختيار سينما، كنت أبحث عن مطعم اقتصادي جداً، ثم وقعت على إحدى صالات الطعام المعقولة التي قلصت الخدمة فيها إلى الحدود الدنيا، واختصر الطقس الغذائي إلى العيار المضبوط للحاجة الطبيعية.

من المدخل، ثمة طبق يلقي بين يديك، تتقدم لتأخذ دورك في الرتل، انتظار، جارات، مرشحات رائعات للغذاء مثلي، لم يكن يكلمني، لا شك أن ذلك سيحدث في تأثيراً عجبياً لو أنهم فعلن ذلك، كنت أفكر. هل أستطيع أن أسمح لنفسي بالاقتراب هكذا من إحدى أولئك الأنسات ذوات الأنف الدقيق والمغناج: «أنستي، سأقول لها. أنا ثري، ثري جداً، قولي لي ما الذي يسعدك كي توافقي علي..»

حينذاك يغدو كل شيء بسيطاً على الفور، ربانياً من دون ريب، كل ما كان بالغ التعقيد قبل لحظة.. سينقلب عالياً سافلاً، والعالم المعادي على نحو مرير سيتدحرج عند أقدامك مثل كرة مداجية، طبعاً ناعم الملمس، وتتخلى حينئذ، في الوقت ذاته عن التعود المضني على الأحلام، تدخل في عداد الكائنات المحظوظة، وتحوز على الثروات النفيسة، ما دمت تملك ملامسة كل ذلك بأصابعك. لا ريب في أن حياة الأشخاص الذين يفتقرون إلى الوسائل، ليست سوى رفض مديد وسط هذيان مديد، إنهم لا يعرفون في الحقيقة، ولا يتحررون أيضاً إلا بما يملكونه. أما أنا فلفرط ما كنت أتمسك ثم أتخلى عن الأحلام فقد صار شعوري وسط مجرى هوائي، مصدعاً بألف صدع، وفاسداً على نحو مقزز.

بينما كنت أنتظر دوري في الرتل لم أتجرأ أن أخوض مع هذا الصبا الغض في المطعم أقل الأحاديث شأنًا. كنت أمسك طبعي باحتشام شديد، صامتاً. ولما جاء دوري في المرور أمام القدر الخزفي المملوء بالنقانق

والفاصولياء، أخذت كل ما قدموه لي. كان ذلك المطعم نظيفاً للغاية، مضاء أفضل إضاءة، بحيث كنت أشعر بأني محمول فوق فسيفسائه مثل نبابة فوق الحليب.

ثمة نادلات أشبه بالمرضات كن يقفن خلف أطباق المعكرونة والرز، والفواكه المطبوخة. لكل منهن اختصاصها، ملأت طبقي مما كانت توزعه تلك اللطيفات، دون أن يبتسمن، للأسف، أصغر ابتسامة للزبائن. حين يقدم إليك الطعام عليك أن تذهب لتجلس بهدوء، مفسحاً المكان، لغيرك، تمشي بخطوات وثيدة، حاملاً طبقك بتوازن، كما لو عبر غرفة عمليات، كان ذلك مختلفاً بالقياس إلى فندقني اللوف كالفين، وغرفتي الابنوسية ذات الخطوط المذهبة.

ولكنهم إذا ما كانوا يغمروننا بفيض من الأضواء المشعة، إذا ما كانوا ينتزعوننا بعض لحظات من عتمة شرطنا المعتادة، فقد كان ذلك يشكل جزءاً من خطة. لقد كان لصاحب المطعم أفكاره، كنت مرتاباً. كان ذلك النور المتلكئ يترك أثره في داخلك، بعد أيام وأيام من الظلمة، حين تستحم فجأة بشلالات من النور. أما أنا فقد سبب لي ذلك نوعاً من هياج إضافي. لم تكن هذه الإنارة تلزمني كثيراً.

تحت الطاولة الصغيرة التي كانت من نصيبي، والتي تشع بالنظافة، لم أفلح في إخفاء قدمي، كانتا تبرزان من كل ناحية، كنت أرغب بعمق بأن لاتكونا معي في تلك اللحظة، فقد كنا مراقبين من الجهة الأخرى، من جهة واجهة المطعم الزجاجية، من قبل الأشخاص المصطفين الذين تركناهم خلفنا في الشارع والذين كانوا ينتظرون أن ننتهي من طعامنا، كي يجلسوا هم بدورهم. لأجل تلك التأثير بالذات، ولكي يبقوهم مفتوحى الشهية، كنا نحن

مغمورين بالأضواء، ظاهرين للعيان، على هيئة دعاية حية، كانت حبات الفريز فوق قطعة الجاتو التي أمامي تتألق ببريق منعكس، بحيث لم أستطع أن أقرر التهامها.

لا يفلت المرء من التجارة الأمريكية.

عبر الافتتان بتلك الأضواء وبذلك القسر، كنت أراقب رغم كل شيء الذاهبات والآليات في الأثناء المحيطة بنا مباشرة من النادلات الرائعات، وعزمت على أن لا أضيع حركة واحدة من حركاتهن الرشيقة، وحينما جاء دوري في تبديل غطاء طاولتي، برعاية إحداهن، تبينت بوضوح الشكل غير المتوقع لعينيها اللتين كانت زاويتيها الخارجية حادة وصاعدة أكثر من عيون النساء عندنا. كانت جفونها تنموج أيضاً بخفة أكبر باتجاه الحاجب من جهة الصدغين، بقسوة في المحصلة، ولكن بما يلزم من القسوة بالضبط. قسوة يمكن عناقها بشغف، مرارة خادعة على غرار مرارة خمور الرين، لذيدة على الرغم منك.

حينما صارت النادلة على مقربة مني أشرت إليها بإشارات بسيطة ذكية، إن أمكنني قول ذلك، كما لو كنت أعرفها من قبل. تفحصتني دون أية مجاملة، كأنها تتفحص حيواناً، ولكن بفضول مع ذلك «هي ذي، كنت أقول لنفسي، أول أمريكية تجد نفسها مجبرة على النظر إلي».

ما أن أتيت على كعكة الفاكهة الساطعة، حتى كان علي أن أترك مكاني لشخص آخر. نهضت حينئذ من مكاني، ومشيت متعثراً قليلاً، وبدلاً من أن أسلك الطريق الصحيح الذي كان يقودني إلى المخرج مباشرة، استعدت بعض الشجاعة، وتجاوزت الرجل الواقف على الصندوق والذي كان ينتظرنا جميعاً، مع نقودنا، واتجهت نحو الشقراء، وقد بدت غريباً كل الغريبة، وسط أمواج الضوء المتهداية بانتظام.

أشارت إلي النادلات الخمس والعشرون جميعهن، من واقعهن خلف الأشياء التي كانت تطهى على مهل، وفي وقت واحد، إلى أنني أخطأت الطريق، كنت ألتقط دوامة من الأشكال عبر زجاج الواجهة لأشخاص ينتظرون الدخول، ولأولئك الذين كان عليهم أن يبدؤوا بالأكل، وكانوا مترددين في الجلوس، كنت قد خرقت نظام الأشياء. كان الجميع حولي مدهوشين على نحو يفوق الوصف

«إنه غريب، أيضاً على أي حال» كانوا يقولون

ولكنني كنت متشبثاً بفكرتي، مهما كلفني ذلك، لم أكن راغباً في أن أترك جميلتي التي كانت مكلفة بخدمتي. كانت الفتاة الظريفة قد شاهدتني، ويا لتعاستها! كنت وحيداً تماماً! ما من أحلام! ولكن مفعماً بالانجذاب «أنستي أنت لا تعرفيني إلا قليلاً جداً. ولكنني أحبك، هل ترغبين في الزواج مني؟..» سألتها بهذه الطريقة الأشد استقامة ونزاهة.

لم يصلني جوابها أبداً. لأن عملاقاً من حراس المطعم، يرتدي البياض هو أيضاً، ظهر في تلك اللحظة بالتحديد ودفعني خارجاً، ببساطة. دونما شتائم، ولا خشونة، إلى قلب العتمة، مثل كلب نسيه أصحابه، واتخذت طريقي نحو اللوف كالفين.

داخل غرفتي كان صدى الرعود المتواصل ذاته يتردد مداً كالإعصار. صواعق المترو الهوائي أولاً، وهو يندفع نحونا من بعيد جداً، محتلاً جميع أفنيته، مهمشاً المدينة، ثم نداءات متنافرة في الوقت ذاته، صادرة عن الآلات الميكانيكية، منبعثة من وسط الشارع، وبعد ذلك تلك الضجة الرخوة للجمهور المدوم متلكناً متردداً، مضجراً دوماً، يهيم بالانطلاق، ثم يتردد، ثم يهيم بالعودة. مربى من البشر داخل المدينة.

من هناك في الأعلى حيث أقبع. كان بوسعي الصراخ بهؤلاء الناس مثلما أشاء. حاولت ذلك، كانوا يثيرون تفززي جميعاً، لم يكن لدي الجرأة بأن أقول لهم ذلك أثناء النهار، حينما أكون في مواجهتهم. ولكنني من هنا، حيث كنت، لم أكن أجازف بأي شيء، صرخت بأعلى صوتي. «النجدة، النجدة»، لا لشيء إلا لأرى إن كان ذلك سيدفعهم إلى فعل شيء ما، ولكن ما من مجيب. كانوا يدفعون الحياة والليل والنهار أمامهم، ولكن الحياة كلها كانت متوارية عنهم. ففي قلب ضجيجهم لم يكونوا يسمعون شيئاً، ولم يكونوا يباليون بشيء. وبقدر ما كانت المدينة كبيرة، وبقدر ما كانت عالية، بقدر ما كانوا لامبالين. أقول لكم، لقد حاولت الصراخ، ولكن هذا لا يستحق العناء.



« لأسباب مالية حسب، ولكنها ملحة وقهرية شرعت في البحث عن "لولا". كم كنت سأترك صديقتي الصغيرة تشيخ وتختفي إلى الأبد دون أن أراها ثانية لولا هذه الضرورة المثيرة للرناء، حاصل الكلام، أنني لم يكن لدي مجال للشك، حينما كنت أفكر بها بأنها تصرفت معي بأشنع الطرق وأشدّها وقاحة. حين نفكر في سن متقدم بأنانية الكائنات البشرية التي كانت قد اختلطت بحياتنا، فإن تلك الأنانية لا تبرح راسخة بقوة، على النحو الذي كانت عليه. أعني، من حديد، من بلاتين، بل وأكثر استمرارية منهما، من الزمن نفسه. والواقع أن اللامبالاة الأشد برودة، والفظاظة الأكثر كلبية ولؤماً. تبدو للمرء في فترة شبابه، كأعذار لنزوات عاطفية. ثم لا أدري كيف، كعلامات على رومانسية غرة غير ناضجة، ولكن حين تطلعك الحياة، فيما بعد على كل ما يمكن أن تتطلبه من حذر ومكر، ومن قسوة وخبث كي تحافظ فقط بأي طريقة من الطرق على الدرجة ٣٧ من حرارة جسمك، فإنك تدرك آنذ، تفتح عينيك على اتساعهما، تتوصل إلى أن تفهم كل القذارات التي يحتويها ماضيك. يكفي في كل ذلك، ومن أجل كل ذلك أن تتأمل بدقة ذاتك، وما الذي غدوت إليه من التمرغ في الأقدار. والحقيقة أنه كلما كان هناك خفايا مجهولة، كلما كانت هناك غباوات، لقد ابتلعنا كل الأشعار، ما دما قد عشنا حتى الآن. بخنة فاصولياء، تلكم هي حياتنا.

انتهيت أخيراً إلى اكتشاف صديقتي الصغيرة الفظة، بكثير من المشقة، في الطابق الثالث والعشرين من شارع ٧٧. من الغريب أن الأشخاص الذين

تهيئ نفسك لتطلب منهم خدمة يمكنهم أن يثيروا اشمزازك، كان بيتها ينم عن ثراء، مرتباً، بنحو ملائم، مثلما كنت قد تخيلته.

بعد تجريبي مسبقاً جرعات كبيرة من السينما وجدت نفسي في حالة جيدة تقريباً من الناحية المعنوية، خارجاً من الفاقة التي كنت أتخبط فيها منذ وصولي إلى نيويورك، كان اللقاء أقل إزعاجاً مما كنت قد توقعت، لم يبد على "لولا" بأنها أحست بدهشة قوية لدى رؤيتي، بل بشيء من الضيق حين تعرفت علي.

حاولت في البداية أن أصوغ نوعاً من خطة حديث بسيط، بالاعتماد على موضوعات من ماضيها المشترك، وأن يكون ذلك بالطبع بألفاظ حذرة، قدر ما أستطيع. معرجاً، ولكن من دون إلحاح على الحرب، بوصفها، حادثاً عرضياً، وقد ارتكبت هنا هفوة شنيعة، فهي لم تعد ترغب في سماع أي حديث عن الحرب، أي حديث على الإطلاق، كان ذلك يؤرقها، وتكررت لولا بسرعة، واعترفت لي بأنها ما كانت لتتعرف علي أبداً لو صادفتني في الشارع، لفرط ما غضن العمر وجهي وكورني، وحوكني إلى كاريكاتور.. خضنا بعض الوقت في هذه المجاملات. ولكن إن كانت البغي الصغيرة تتخيل أنها تؤثر فيّ بهذه الأفكار الثابتة! فإنني لم أكن لأتنازل قط لالتقاط تلك الوقاحات الدنيئة.

لم يكن أثارها يبدي أية أناقة غير متوقعة، ولكنه كان بهيجاً مع ذلك، يمكن للعين احتمالها، بدا لي هكذا، على الأقل، بالقياس إلى فندقني لوف كالفين. إن أسلوب وتفاصيل جمع ثروة سريعة تمنحك على الدوام انطباعاً سحرياً، فمنذ صعود نجم ميزين ومدام هيروت عرفت أن الإست هو منجم الذهب الصغير للفقير، تلك الانسلاخات الأنثوية كانت تسحرني، وأنا، على

سبيل المثال، أهب آخر دولار في جيبي لحاجبة العمارة التي تسكنها "لولا"،
لالشيء إلا لكي أجعلها تثرثر.

ولكن لم يكن لعمارة "لولا" حاجبة، المدينة بكاملها كانت خاوية من
الحاجبات، مدينة دون حاجبات، هي مدينة دون تاريخ، ودون ذوق، إنها
عديمة الطعم، مثل حساء بلا بهار، ولا ملح، يخنة غليظة عديمة الشكل. أوه!
أية قشارات شهية، أية بقايا! أية بقع تتسح من المخدع، من المطبخ، من
السقائف، وتقطر شلالات من بيت الحاجبة في قلب الحياة، أي جحيم عذب!
بعض الحاجبات عندنا، يرزحن تحت وطأة عملهن، تراهن مقتصدات،
شهيات، منذهلات، ترهقهن الحقيقة، أولئك الشهيدات، وتستنفد قواهن.

في مواجهة كراهيتك لفقرك الذي تتمرغ فيه يجدر بك، لنعترف بذلك،
فالاقرار واجب، أن تشمل بطريقة ما، من الخمر، الخمر الرخيص، من
الاستمناء، من السينما، لا يسعك أن تكون شكساً صعب الإرضاء، «فريداً»
كما يقولون في نيويورك. أما حاجباتنا فكن يزودننا بالكراهية، طوال سنة
سعيدة أو تعيسة. لنعترف بذلك، يزودن أولئك الذين يحسنون احتضان تلك
الكراهية، وتأريثها داخل قلوبهم، كي يفعلوا كل ما في وسعهم لقلب عالم،
رأساً على عقب. أما في نيويورك، فتجد نفسك محروماً بقسوة من هذا الفلفل
الحلو المفعم بالحيوية، الدنيء والحي، المتعذر رذء، والذي لولاه لاخنتق
ذهنك، وحكم عليه بأن لا يتلب أو يغتاب قط إلا بإبهام، بل يغمغم بوشايات
باهتة، ما من شيء ينهش، يجرح، يشق، يززع يعذب، من دون وجود
حاجبة العمارة، وكل ذلك يضاف بالطبع إلى الكراهية الكلية، ويضيء ألف
تفصيل من تفصيلاتها التي لا تنكرا!

ألم بي اضطراب بعدما أشعررتي "لولا"، وقد تقابلت بي في عقر دارها، بتقزز جديد. كان لدي رغبة شديدة بأن أنقياً فوق سوقية نجاحها، وكبريائها، الغث والمثير للاشمئزاز، ولكن مع من؟ لقد استيقظت نكري ميزين، بتأثير عدوى فورية، في اللحظة ذاتها، لتجعلني عدوانياً ومنفراً، كراهية مضطربة ولدت في داخلي لهاتين المرأتين، وتعمقت أيضاً، واندمجت بمبرر وجودي. كان يعوزني توثيق الأحداث كي أتجرد في الوقت المناسب، وبصورة نهائية من كل تسامح راهن، قبل المجيء إلى "لولا". لا يغير المرء حياته.

لا تتكون الشجاعة من الصفح عن أخطاء الآخرين، نحن نصفح دوماً أكثر مما ينبغي، وهذا لا يفيد في شيء، فالدليل دامغ، ينبغي أن ننوم الناس السعداء ذات مساء، وفيما هم نائمون أقول لكم، نتخلص منهم ومن سعادتهم مرة واحدة وإلى الأبد، ثم لا نعود في الغد إلى التحدث عن سعادتهم، نتحرر من كوننا تعساء ما وسعنا ذلك، ولكنني سأعود إلى ما كنت فيه: كانت لولا تروح وتجيء إذن عبر حجرتها، متخففة من بعض ملابسها. كان جسدها يبدو لي مع ذلك شهياً جداً ما يزال، جسد باذخ، إمكانية دائمة للاستباحة، لهصر ثمين، مباشر. حميم، في صميم الثراء، والترف. دونما خشية أو تردد.

لم "تنتظر" لولا ربما سوى حركة مني كي تأذن لي بالانصراف. كان ثمة رغبة ملحة حقيرة، تدفعني إلى الحذر، أن أكل أولاً، ومن ثم أن لا تتوقف هي عن حديثها لي عن تفاهات وجودها. سيكون من الضروري إغلاق أبواب العالم خلال جيلين اثنين على الأقل إن لم يعد هناك أكاذيب تلهج بها الألسنة، لن يعود ثمة شيء يقال أو يكاد، سألتني عما كنت أفكر به حول أمريكاها، فبحث لها بأنني قد وصلت إلى ذلك الحد من الوهن والاحتضار، بحيث أن أي إنسان أو أي شيء، تقريباً كان يغدو بالنسبة إلي مرعباً، أما بلدها فقد كان

يخيفني بكل صراحة، أكثر من مجموع الأخطار الداهمة والمحتجبة، وغير المتوقعة التي صادفتني فيه، وعلى الأخص تلك اللامبالاة الهائلة تجاهي والتي تلخص بلدها في رأيي.

لا بد لي من أن أكسب قوتي، اعترفت لها أيضاً، كان علي التغلب بأقصى سرعة على تلك الحساسيات الزائفة، ولكنني وجدت نفسي على هذا الصعيد متأخراً جداً، أكدت لها امتناني العميق، فيما لو رغبت بأن توصي بي موظفاً من معارفها، وأن يكون ذلك بأسرع وقت.. بحسبي معاش متواضع جداً، وتفوهت أيضاً بالكثير من العبارات الرقيقة، ومن الهذر.. استاعت كثيراً من اقتراحي المتواضع، المتطفل مع ذلك، واتخذت على الفور موقفاً مثبطاً، فهي لم تكن تعرف على الإطلاق أي شخص يمكنه أن يقدم لي عملاً أو مساعدة، هذا ما أجابتي به، وعدنا، بالضرورة، إلى الحديث عن الحياة عامة، وعن حياتها بوجه خاص.

كنا نراقب بعضنا، على هذا النحو، معنوياً وجسدياً، حينما قرع جرس الباب، ومن دون مقدمات، تقريباً، ولا تلكؤ، دخلت أربع نسوة إلى الغرفة، مخضبات، ناضجات، منقلات باللحم والحلي، من صديقات "لولا" المقربات للغاية، قدمتي "لولا" إليهن باقتضاب شديد، منزعة جداً (كان ذلك بادياً عليها). وحاولت أن تجرهن بعيداً عني، ولكنهن بدأن، على النقيض من ذلك، بمحاولة جذب انتباهي إليهن كلهن مجتمعات، كي يحدثني عن كل ما كن يعرفنه عن أوروبا، الحديقة العجوز المكتظة بمجانين مهجورين، شهوانيين وكواسر. كن يحفظن عن ظهر قلب منطقتي الشابانية والأنفاليد.

بالنسبة إلي لم أكن قد زرت أياً من هذين الموقعين. فالأول مكلف جداً، والثاني بعيد جداً، وعلى سبيل الرد، اجتاحتني نفحة من الوطنية العفوية

والمرهقة، وهو ما يساورك عادة في تلك المناسبات، ورددت عليهن بحيوية بهجوم عكسي، بأن مدينتهن كانت قد أدمت فوادي، إنها نوع من معرض فاشل، قلت، معاكساً قناعاتهن، وبأن الناس مصرون هنا على إنجاح هذا المعرض مع ذلك.

بينما أنا أخطب هكذا، مخاتلاً حيناً وصادقاً حيناً لم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألتقط بأكبر قدر من الوضوح أسباباً أخرى أيضاً غير البرداء للانحطاط الجسدي والنفسي الذي كنت أرزح تحت وطأته المضنية، كان ذلك يعني، بالإضافة إلى تغيير العادات، ضرورة أن أتعلم مرة أخرى التعرف على وجوه جديدة في وسط جديد، وأن أتعلم دونما كسل طرقاً أخرى في الحديث وفي الكذب، لأن الكسل من القوة بقدر قوة الحياة تقريباً. كان ابتذال التمثيلية الهزلية الجديدة التي يجدر بي أداؤها يسحقني، كان يلزمني في المحصلة، من الجبن أكثر مما يلزمني من الشجاعة، لأبدأ كل شيء من جديد. إنه المنفى، الغربية، تلك المراقبة القاسية لوجودك مثلما هو فعلاً، خلال ساعات الصحو تلك، الاستثنائية في نسيج الزمن الإنساني، حيث تفارقت عادات البلد السابق دون أن تخبلك العادات الأخرى الجديدة إلى حد كاف.

كل ما يخالجك في تلك اللحظات يضاف إلى كربك القدر يدفعك، وأنت في غمرة ضعفك، إلى أن تتبين الأشياء والأشخاص والمستقبل. مثلما هم عليه، أعني هياكل من المومياء، لا شيء سوى اللاشيء، حيث يتوجب عليك أن تحب هذه المومياءات، تتعلق بها، تحميها، تبعث فيها الحياة كما لو كانت موجودة.

نمط آخر، أشخاص آخرون حولك، يتحركون بطريقة غريبة إلى حد ما، ابتذالات صغيرة مشتتة. بعض الغطرسة التي لم تعد تعرف هي سبب

وجودها ولا زيفها، ولا صداها المألوف، ثم لا تحتاج أنت إلى أكثر من ذلك، حتى تصاب بالدوار ويغزوك الشك، وتفتتح اللانهاية من أجلك وحدك، لانهاية صغيرة مضحكة، ثم تسقط في داخلها.

إنما السفر هو البحث عن ذلك اللاشيء، على الإطلاق، عن ذلك الدوار الصغير، بالنسبة إلى البلهاء.

كانت زائرات لولا الأربعة يضحكن كثيراً وهن يسمعنني، على هذا النحو أعترف، بكثير من الاندفاع، وأمثل دور جان جاك أمامهن.. وكن يخاطبني بكومة من الأسماء. لا أكاد أفهمها، بسبب التحريفات الأمريكية، وبسبب كلامهن اللذيذ وغير المحتشم، قطط مثيرة للشجي.

لما دخل الخادم الزنجي ليقدم الشاي صممتا جميعاً.

إحدى تلك الزائرات كانت تتمتع مع ذلك ببصيرة أكثر من الأخريات أعلنت بصوت عال بأنني كنت أرتعش من الحمى، وأني أعاني أيضاً من عطش غير عادي، وقدمت لي وجبة خفيفة، سررت بها كثيراً، على الرغم من ارتعاشي، لقد أنقذت تلك الشطائر حياتي. يمكنني قول ذلك.

دار الحديث، حول المزايا المقارنة للمنازل الباريسية والأمريكية دون أن أتحمل عبء المشاركة فيه. وتذوقت أولئك الجميلات أيضاً بتلذذ مشروبات معقدة التركيب، وما أن دبت فيهن الحرارة والحميمية تحت تأثير الشراب حتى تأرجت وجوههن بالحمرة وهن يتحدثن عن «الزواج» وعلى الرغم من أنني كنت مشغولاً بالتهام شطائري، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أعلق حول موضوع العلاقات الخاصة جداً، والتي تحدث بين المثليين.

أدركت لولا أن هذه الأحاديث كانت تجعلني شديد الانتباه والفضول كانت تحرق بي بشيء من القسوة، ثم كفت عن الشراب.. لم يكن الرجال

الأمريكيون الذين كانت تعرفهم مفرطين بالفضول مثلي، على الإطلاق. لبثت بشيء من الصعوبة على حدود مراقبتها، كنت راغباً في أن أطرح ألف سؤال على هؤلاء النساء..

ما لبثت المدعوات أخيراً أن غادرنا، ثقيلات الحركة متهيجات بسبب الكحول، ومنتعشات جنسياً، لقد انتشين بعد أن خوّضن في حديث مفعم بالشبق، أنيق وبذيء. كنت أهجس ها هنا بشيء ما اليزابيتي، أحسست برعشاته اللذيذة جداً بالتأكيد والمكثفة جداً في طرف عضوي، ولكن هذه المشاركة العضوية، هذه الرسالة الحيوية، لم أملك سوى أن أستشعرها بحسرة مرة، وبحزن متعاطم، وبكآبة لا أمل في شفائها.

بدت لولا بعد أن عبرت الصديقات بابها، مرهقة بوضوح. لقد كدرها كلياً هذا الفاصل الترفيهي، ولم تنبس بكلمة.

«أية مشعوذات، أكدت "لولا" بعد بضع دقائق

— من أين تعرفت بهن؟ سألتها

— إنهن صديقات منذ زمن بعيد..»

لم تكن مهياً لمزيد من المسارات في تلك اللحظة بحسب طريقتهن المتعالية بعض الشيء، تجاهها، بدا لي أن أولئك النسوة كان لهن، في وسط ما من الأوساط، تأثيراً على "لولا"، وحتى سلطة كبيرة لا جدال فيها، لم يكن خليقاً بي أبداً أن أعرف أكثر من ذلك.

أخبرتني لولا بأنها ستذهب إلى المدينة. ولكنها عرضت علي البقاء في البيت بانتظارها. وأن أتناول بعض الطعام إن كنت جائعاً، ولأنني غادرت اللوف كالفين دون تسديد الحساب، ودون نية بالعودة إليه أيضاً، بسبب ذلك،

فقد سررت جداً بالإذن الذي منحتَه لي. بقضاء لحظات من الدفاء قبل الذهاب لمواجهة الشارع، وأي شارع يا جدودي.

لما أن بقيت وحيداً توجهت عبر رواق صغير نحو المكان الذي كان قد ظهر منه خادمها الزنجي. وفي منتصف الطريق إلى غرفة الخدمة التقيت به، فصافحته، وقادني، واثقاً بي إلى مطبخه. مكان جميل مرتب بعناية، أكثر انسجاماً بكثير، وأكثر أناقة من الصالون.

وفي الحال بدأ الزنجي يبصق أمامي فوق البلاط، مثلما يجيد الزوج وحدهم أن يبصقوا بوفرة واثقان، وبصقت أنا أيضاً من قبيل المجاملة، ولكن على قدر ما استطعت، وفجأة دخلنا في مسارات حميمة. أعلمني أن "لولا" تملك قارب نزهة على النهر وسيارتين على الطريق، وقبواً في داخله مشروبات من كل أنحاء العالم وهكذا، بدأ يكرر لي دون توقف تلك المعلومات الموجزة. فكففت عن الإنصات إليه.

وفيما أنا ناعس مهوم في أرجاء بيتها عادت الأيام المنصرمة إلى ذاكرتي، حين تركتني لولا في باريس خلال الحرب، وتلك المطاردة، التعقب، الترصد، للمهذارة، الكاذبة، المراوغة ميزين، والأرجنتينيون، وقواربهم المكتنزة باللحوم، وتوبو، وموكب فاقد العقول في ساحة كليشي، وروبنسون، والأمواج، والحر، والبؤس، ومطبخ لولا المرتب جيداً، وزنجيها، واللاشيء على الإطلاق، وأنا داخل هذا كله.. مثل أي إنسان آخر، كل شيء كان يمكن أن يستمر.. كانت الحرب قد أحرقت البعض وأدفأت آخرين، مثل النار، عذاب أو رفاء، حسبما يكون المرء داخلها أو أمامها، ينبغي أن يتدبر المرء أمره وهذا كل شيء.

كان صحيحاً ما قالته "لولا" بأنني كنت قد تبدلت كثيراً.. إنه الوجود!
إنه يلويك، يهشم وجهك، وجهها أيضاً كان قد هشمه، ولكن أقل، أقل بكثير.
الفقراء، مسيخون، البؤس عملاق جبار يمسح أقدار العالم بوجهك مثلما بخرق
الغسيل، ثم لا تمحي آثاره أبداً.

كنت أعتقد بأنني لاحظت مع ذلك لدى لولا شيئاً ما جديداً، برهات من
الانحطاط، والكآبة، ثلمات في حماقتها المتفائلة، تلك البرهات التي يجدر
بالكائن فيها أن يستدرك أخطاه ليوجه بعيداً خبرات حياته وسنواته التي
تضغط بثقلها، على الرغم منه، على بشاشته وحيوية روحه التي ما يزال
يملكها، وعلى شاعريته القذرة.

عاد زنجيها فجأة إلى التملل والحركة، كان ذلك يعاوده، صديق جديد
كان ينوي أن يزقمني الغاتو، وأن يقدم لي لفافات السيكار، ومن أحد الأدرج
أخرج، بحذر شديد، كتلة مدورة ورساوية.

«القبلة» أعلن لي بقوة، فتقهقرت، "ليبيرتا، ليبيرتا"، كان يزعق جذلاً.
أعاد كل شيء إلى مكانه وبصق من جديد بروعة وشموخ، أي انفعال،
كان فرحاً متهللاً.. ضحكته أسرتني أيضاً، ذلك الإسهال من الأحاسيس، ومن
الحركات. حينما عادت لولا من تسوقها، وجدتنا معاً في الصالون. غارقين
في التدخين والضحك، فتظاهرت بأنها لم تلاحظ شيئاً.

غادرنا الزنجي: بخفة.. وقادنتي لولا إلى غرفتها. وجدتها حزينة
شاحبة، ومرتعشة، ترى من أين أمكنها أن تعود؟ بدأت لولا ببناء نفسها
متأخرة جداً. كانت تلك هي الساعة التي يتخبط فيها الأمريكيون في الحيرة
والقنوط لأن الحياة لم تعد تتحرك حولهم إلا ببطء. ها قد أزفت اللحظة
المناسبة لأنصاف الأحاديث الخاصة الحميمة.. ولكن ينبغي الإسراع من

الانتفاع بها، لقد هيأتني لتلك اللحظة وهي تسألني، ولكن اللهجة التي اختارتها لتطرح علي بها بضعة أسئلة حول الحياة التي عشتها في أوروبا أزعجتني إلى أبعد الحدود.

لم تخف إطلاقاً أنها كانت تجدني خليقاً بكل الدناعات، لم يغظني هذا الافتراض، ولكنه كدرني حسب، كانت تستشعر في قرارة نفسها بأنني جنّت إليها، لأطلب منها نقوداً، وهذا وحده كاف ليخلق بيننا نفوراً غريزياً. كل تلك المشاعر تلامس القتل. بقينا وسط مستتقع من التفاهات فيما كنت أفعل المستحيل حتى لا نتبادل فيما بيننا شتائم مقدّعة. تحرّت من بين تفاصيل أخرى عن مجوني الجنسي، وفيما إذا لم أكن قد تركت في مكان ما خلال تطوافي في بقاع الأرض ولداً صغيراً، يمكنها هي أن تتبناه. فكرة غريبة تلك التي خطرت لها، كانت مهووسة بفكرة تبني ولد من الأولاد، وكانت تعتقد بكل بساطة أن شخصاً محبباً من نمطي لابد وأن يكون له ذرية غير شرعية تحت كل سماء.. كانت غنية، كما أفضت إلي. وهي تنوي يوماً بعد يوم، ويجف عودها، لعدم قدرتها على أن تكرر نفسها لولد صغير. كانت قد قرأت كل الكتب التي تتحدث عن فن رعاية الأطفال، وعلى الأخص تلك الكتب التي تتغنى بالأمومة، تلك الكتب التي تحرر المرأة إذا ما تمثلتها كلياً من شهوة الجماع، وإلى الأبد. لكل فضيلة أدبها القدر.

ما دامت ترغب، بأن تضحي بنفسها، بوجه الحصر من أجل «كائن صغير» فقد حاق بي إذن سوء الطالع، إذ ليس لدي ما أقدمه له سوى الكائن الكبير الذي كنته، والذي كانت تجده مقززاً قطعاً، لم يكن لدي في المحصلة كي أحقق حظوة لديها سوى البؤس الذي عرضته أمامها، كانت محادثتنا قد نوت تماماً «هيا يا فرديناند، اقترحت علي أخيراً، كفانا ثرثرة، سأصطحبك

إلى الجهة الأخرى من نيويورك كي نزور محمي الصغير، إنني منشغلة به، بسرور بالغ، ولكن والدته تزعجني..»
كانت ساعة مسلية، تحدثنا في الطريق، داخل السيارة عن زنجيها الكارثي.

«هل أراك قنابله؟» سألتني، واعترفت لها بأنني خضعت لتلك التجربة..
«ليس خطراً، أنت تعلم، يا فرديناند، هذا المهووس، إنه يحشو قنابله بفواتيري القديمة. حينما كان سابقاً في شيكاغو، كان عاطلاً طيلة الوقت، وقد شارك في جماعة سرية خطيرة لتحرير السود. كان أعضاء الجماعة، مثلما قيل لي. أشخاصاً أشراراً. وقد حلت السلطات تلك العصابة. ولكن زنجي احتفظ بهذا الميل إلى القنابل. لم يضع في داخلها باروداً في يوم من الأيام.. روح التمرد كانت تكفيه.. ليس هو في الواقع سوى فنان.. ولن يكف قط عن صنع الثورة.. ولكنني أحتفظ به لأنه خادم ممتاز، وإذا ما اعتبرنا كل شيء، فلعله أكثر استقامة من الآخرين الذين لا يصنعون الثورة.»

ثم عادت إلى وسواسها بالتبني.

«من سوء الحظ مع ذلك أن لا يكون لك ابنة في مكان ما، يا فرديناند. طبيعة كطبيعتك تلائم امرأة كل الملائمة. ولكنها لا تلائم أي رجل على الإطلاق.»

كان الليل ينغلق حول سيارتنا فيما كان المطر يسوطها وهي تنزلق فوق الطريق الإسمنتي الناعم الطويل. كل شيء كان معادياً لي وبارداً. وحتى يدها التي كنت أمسك بها، مع ذلك، مغلقة بقوة داخل يدي. كنا منفصلين تماماً، وصلنا أمام منزل يختلف مظهره تماماً عن البيت الذي غادرناه. في إحدى شقق الطابق كان ثمة ولد صغير، في العاشرة من عمره تقريباً، إلى جانب

أمه ينتظراننا. تصاعدت إلى أنوفنا من الداخل رائحة طهوه. جلس الولد فوق ركبتي لولا وعانقها برقة. بدت لي الأم بالغة اللطف أيضاً مع لولا، وفيما كانت لولا تستفسر من الصبي تدبرت الأمر كي أنتقل مع الأم إلى الغرفة المجاورة.

حينما عدنا وجدنا الطفل يجرب أمام لولا خطوة من خطوات الرقص كان قد تعلمها في دروس الكونسرفاتوار «ينبغي أيضاً إعطاؤه بضع ساعات من الدروس الخاصة. هكذا ارتأت لولا، ويمكنني ربما تقديمه إلى صديقتي "قيتا" في مسرح الغولد، لعل هذا الطفل يكون له مستقبل باهر، بالغت الأم بعد هذه الكلمات الطيبة المشجعة، في شكرها وتباكيها وتلفت في الوقت ذاته رزمة صغيرة من الدولارات الخضراء دستها في صدرها، مثل كلمة غزل.

«هذا الصغير يعجبني كثيراً، أكدت لولا بعد أن صرنا خارجاً، ولكن لا بد لي من تحمل الأم في الوقت ذاته مع الابن، لا أحب الأمهات الخبيثات.. ثم إن هذا الصغير فاسق جداً مع ذلك.. إنه ليس من النوع الذي يتعلق به المرء، والذي كنت أرغب به. أريد أن أشعر بشعور أمومي خالص، هل تفهمني يا فرديناند؟». من أجل أن أكل، كنت أفهم كل ما تريده. لم يعد ذلك من الذكاء، إنما من الكاوتشوك.

لم تقلع عن رغبتها في الطهر والعفاف، حينما بلغنا بضعة شوارع بعيدة سألتني أين كنت سأنام هذا المساء، ثم سارت معي بضع خطوات على الرصيف، أجبته بأنني إن لم أجد بضعة دولارات في تلك اللحظة فلن أنام في أي مكان.

«حسناً، أجابتي، هلم معي إلى البيت، وسأعطيك هناك قليلاً من المال، وبعد ذلك ستذهب حيث تشاء.

كانت متلهفة إلى أن ترميني في الشارع بأسرع وقت ممكن. كان ذلك أمراً مألوفاً، فلفرط ما كنت مدفوعاً على هذا النحو إلى جوف الليل كان لا بد لي مع ذلك من أن أنتهي إلى مكان ما، كنت أقول لنفسي معزياً. «تشجع يا فرديناند، كنت أكرر بيني وبين نفسي، كي أتمالك قواي. لفرط ما طردت من كل مكان، سينتهي بك الأمر بالتأكيد إلى أن تجد وسيلة تملأ قلوبهم بالخوف، جميعاً، جميع هؤلاء الأوغاد، الخليقين بأن يكونوا هم في أقاصي الليل».

بعد أن بردت حرارة الحديد فيما بيننا كلياً، ونحن داخل سياراتها باتت الشوارع التي كنا نعبرها مهددة متوعدة بكل صمتها وسكونها، مسلحة حتى أعاليها بصخر لا نهائي، بنوع من طوفان موشك على ابتلاع كل شيء، مدينة مترصدة، مباغثة، دبقة بالقار والمطر.. لبطأنا أخيراً من حركتنا، سبقتي لولا نحو بابها.

«اصعد، دعنتي لولا، اتبعني»..

صالونها من جديد، سألت نفسي كم كانت ستعطيني كي أنتهي من كل ذلك، وأستريح، بحثت عن أوراق مالية داخل حقيبة صغيرة ملقاة فوق أحد المقاعد. كنت أسمع حفيف الأوراق المدعوكة، يا لها من ثوان! لم يعد في المدينة سوى تلك الضجة الخفيفة. كنت مع ذلك ما أزال متضايقاً لأنني طلبت منها، لا أعلم لماذا. ثم أتت باختصار شديد، في الوقت المناسب، على أخبار أمها التي كنت قد نسيتها.

«إنها مريضة، أمي، قالت ذلك، وهي تلتفت كي تنظر إلي وجهاً لوجه.

— أين هي الآن إذن؟

— في شيكاغو.

— مم تشكو؟

— من سرطان في الكبد.. لقد عالجتها عند أفضل الاختصاصيين في المدينة.. كلفني علاجها غالباً جداً، ولكنهم سينقذونها. لقد وعدوني بذلك».

قدمت لي على عجل أيضاً تفاصيل أخرى تتعلق بحالة أمها، في شيكاغو.. غدت فجأة رقيقة وأنيسة بحيث لم تعد تستطيع أن تمنع نفسها من أن تطلب مني بعض التعزية القلبية.

«أنت يا فرديناند، هل تظن أيضاً بأنهم سينقذون أمي أليس كذلك؟

— لا، أجبته بصراحة شديدة، وبوضوح تام. فسرطان الكبد لا أمل في شفائه مطلقاً..

وفجأة، شحبت لولا حتى بياض عينيها، تلك هي المرة الأولى التي أراها مضطربة بسبب شيء ما..

«ولكن، مع ذلك، يا فرديناند، لقد أكد لي الاختصاصيون بأنها ستتعافى، تكفلوا بذلك، كتبوا إلي بذلك. إنهم أطباء كبار أنت تعلم؟

— من أجل المال، يا لولا، سيكون هناك دوماً، لحسن الحظ، أطباء كبار.. سأقول لك مثلما قالوا لو كنت مكانهم، وأنت أيضاً يا لولا ستقولين مثل ذلك لو..

ما قلته لها بدا لها فجأة يقينياً جداً، بديهياً جداً بحيث لم تعد تجرؤ على الحوار.

لمرة واحدة، للمرة الأولى ربما، في حياتها. كانت تنقصها الشجاعة.

«اسمع، يا فرديناند، أنت تسبب لي ألماً لا حدود له، ألا تدرك ذلك. إنني أحب أمي، أنت تعلم بأنني أحبها كثيراً أليس كذلك؟

لقد سقط ذلك في العمق إذن، اللعنة! ما الذي يمكن أن يهيم العالم أن تحب أمها أو لا تحبها.

كانت لولا تتحب في خواتمها الرهيب.

«أنت يا فرديناند، شخص محبط فظيع، تابعت كلامها حانقة، لست سوى شرير بغيض، أنت تنتقم بكل ما يمكنك من جبن ونذالة من وضعك القذر، حين تقول لي أشياء كريهة.. أنا متأكدة من أنك تسبب لأمي الكثير من الألم حين تتحدث عنها بهذا النحو.

لم يسبب لي هياجها من الخوف بقدر ما سببه لي هياج ضباط الأدميرال براغتون الذين كانوا يزعمون بأنهم سيزهقون أنفاسي من أجل خاطر السيدات المتبطلات.

كنت أنظر إلى لولا بانتباه، فيما هي تتعتني بجميع الألقاب، وشعرت بالفخر وأنا ألاحظ، على نحو مفارق، بأن لا مبالاتي كانت تزداد، لا بل سروري، كلما كانت تشتمني أكثر. بقيت مهذباً في داخلي.

«كي تتخلص مني، كنت أضمن، ينبغي الآن أن تعطيني عشرين دولاراً على الأقل، وربما أكثر..».

أخذت موقف الهجوم: «لولا»، أعطيني، أرجوك، النقود التي وعدتني بها، وإلا سأنام هنا، وستسمعيني أكرر كل ما أعرفه عن السرطان، وعن مضاعفاته، وعن قابليته للتوارث، إنه مرض وراثي، يا لولا، السرطان لا تنتسي ذلك».

كلما كنت أفضل وأزيد في ذكر التفاصيل حول حالة أمها كنت أراها أمامي تمتنع، وتخور قواها، وترتخي أطرافها «آه الصبية، كنت أقول لنفسي،

أمسك الحبل جيداً، يا فرديناند، لمرة واحدة أنت تشد الآن جيداً. لا تفلت الحبل، لن تجد حبلاً قوياً قبل وقت طويل.

«خذ، أمسك، قالت، وقد هدها الإعياء، خذ مئة دولار وانصرف عن

وجهي، ولا تعد إلى هنا أبداً، أنت تسمعي، أبداً، وو وو وو خنزير قدر!

– عانقيني مع ذلك يا لولا، هيا، نحن لسنا غاضبين من بعضنا!»

اقترحت ذلك كي أعرف إلى أي حد كان يمكنني أن أثير اشمزازها.

أخرجت حينئذ مسدساً من أحد الأدراج، وليس عن مزاح. كان الدرج يكفيني، لم استدع المصعد.

منحتني تلك الشتائم الرغبة في العمل، وملأت جوانحي بالشجاعة، ففي

اليوم التالي ركبت القطار إلى ديتروا، بعد أن أكدوا لي بأن إمكانية العمل

كانت متاحة في أعمال عدة ليست جذابة، ولكن أجرها كان جيداً.



« قال لي العابرون بالقرب من المصنع مثلما قال لي الرقيب
الإسباني في الغابة

«ذاك هو، لن تضيع أبداً، إنه أمامك تماماً».

ورأيت في الواقع الأبنية الضخمة المنتفخة والمزججة، على شاكلة
أقفاص الذباب، ليس لها نهاية، في جوفها، يميز المرء رجالاً يتحركون ولكنهم
يتحركون بمشقة بالغة، كما لو أنهم لم يعودوا يصارعون إلا بوهن شديد ضد
ما لا أدري من مستحيل. أكانت تلك شركة فورد؟ كان كل ما حول وما فوق،
وحتى قبة السماء ضجيج ثقيل متكرر أصم لطوفان من الأعداة، إصرار عنيد
للآلات على الدوران، على السير، على الأنين. على وشك التخطم دوماً، وما
تخطمت يوماً.

«إنه هنا إذن، قلت لنفسى، ليس هذا مشجعاً..» كان ذلك أسوأ من
سائر ما تبقى، اقتربت أكثر حتى بلغت الباب، كان مكتوباً فوق لوح اردواز
بأنهم كانوا يطلبون العالم كله ليعمل عندهم.

لم أكن الوحيد الذي ينتظر، أخبرني واحد من الذين كانوا ينتظرون
بصبر، بأنه يقف هنا منذ يومين، وفي المكان نفسه أيضاً. لقد جاء من
يوغسلافيا هذا النعجة كي يجد لنفسه عملاً. بانس آخر وجه إلي الكلام. زاعماً
أنه جاء ليعمل بحماس، لا لشيء إلا من أجل متعته، أي مهووس.

ضمن هذا الحشد، ما من شخص تقريباً كان يتكلم الإنكليزية، كانوا
يراقبون بعضهم مثل حيوانات لا تثق ببعضها، حيوانات مضروبة دائماً.

يتصاعد من كتلتهم رائحة ما بين الأفخاذ البولوية، مثلما في المشفى. وحينما كانوا يكلمونك عليك أن تتحاشى أفواههم بسبب رائحة الموت التي تفوح من أولئك البؤساء.

انهزم المطر بغزارة فوق حشدنا، ومكثت الصفوف متراسة تحت وابل المزاريب. كان هؤلاء الأشخاص الباحثون عن عمل، قابلين للضغط إلى أبعد حد. ما كان يجده حسناً لدى فورد، قال لي ذلك، العجوز الروسي همساً، هو أنهم كانوا يشغلون أي إنسان كان، وفي أي عمل كان. «فقط، احذر، أضاف العجوز كي يحيطني علماً، عليك أن لا تتعاطم في حضرته، لأنك إن تعاطمت فسترمى خارج الباب في أقل من دقيقتين، وسيستعوضون عنك في أقل من دقيقتين، بوحدة من الآلات الميكانيكية التي هي جاهزة دوماً، ولن تحلم بالعودة حينذاك إلى المصنع» كان يتكلم اللهجة الباريسية جيداً، ذلك الروسي، فقد كان يعمل سائقاً لتاكسي طوال سنوات، ثم احتجزوا سيارته في قضية كوكابين في بيزونس، وفي نهاية المطاف لعب القمار عليها، مع زبون في بياريتز، وخسرها.

كان صحيحاً ما شرحه لي العجوز الروسي، فقد كانوا يشغلون أي إنسان لدى فورد، لم يكن كاذباً، كنت أرتاب بكلامه مع ذلك، لأن البائسين المدقعين يهذون بسهولة، ثمة لحظة للبؤس لا يعود العقل فيها دائماً مع الجسد، يحسّ البائس فيها بالإغماء، وعندئذ فإن روحاً هي التي تكلمك تقريباً، والروح ليست مسؤولة.

عراة تماماً أدخلونا في البداية، ثم حدثت المعاينة، داخل نوع من المخبر، كنا نسير في رتل بطيء الخطو «أنت منهك للغاية، علق الممرض وهو يتفرس بي، في البداية، ومع ذلك، فهذا ليس مهماً بالمرّة».

وأنا الذي كنت خائفاً أن يرفضوا تشغيلي بسبب الحمى الأفريقية لم أشعر إلا بمحض الصدفة، أنهم جسوا كبدي، كانوا على العكس يبدون سعيدين جداً بأن يجدوا مرضى وعاجزين في بضاعتنا الآدمية المعروضة.

«بالنسبة لما ستفعله هنا، ليس مهماً أن تكون خائر القوى! طمأنني الطبيب الفاحص، على الفور.

— حسناً جداً يا سيدي، أحبته، ولكن أنت تعلم يا سيدي! لدي بعض المعارف، وقد قمت فيما مضى بدراسات في الطب.

وفجأة حدجني الطبيب بنظرة عكرة، وشعرت بأنني قد زللت مرة أخرى، وجلبت على نفسي الويل.

«لن تتفعلك دراسائك هنا في أي شيء يا فتاي. أنت لم تأت إلى هنا لتفكر، بل لتقوم بحركات، نحن نطلب منك تنفيذها. لسنا في حاجة إلى الخيال في مصنعنا. نحن بحاجة إلى شامبانزيات. نصيحة لك أيضاً، إياك أن تعود إلى الحديث هنا عن ذكائك في أي يوم من الأيام. نحن نفكر من أجلك يا صديقي، إياك أن تنسى ذلك!»

كان الطبيب محقاً في تحذيري، من الأفضل أن أكون على بينة من عادات المصنع. حماقات، كان لدي منها ما يكفي لأنتفع به طوال عشر سنوات، على الأقل صرت حريصاً من الآن، على أن أنزوي، بعيداً عن القلق والمجازفة.. ما إن ألبسنا ثياباً جديدة حتى تم توزيعنا في أرتال بطيئة الخطى، على هيئة مجموعات أثقلها التردد والحيرة، نحو مواقع كانت تصدر منها قرقعة ميكانيكة هائلة، كل شيء كان يرتج داخل البناء المترامي الأرجاء، ونحن أنفسنا، من أقدامنا وحتى آذاننا كنا مرتعاً للارتجاج، كان ينبعث من زجاج النوافذ، ومن أرضية البناء، ومن الحديد ارتجاجات مزلزلة، من الأعلى

إلى الأسفل. كنا نغدو، نحن أنفسنا آلات أيضاً، لفرط ما كان لحمنا كله يهتز وسط جلبة ذلك السعار العنيف الذي كان يستولي على داخلك، ثم على كل رأسك ثم ينحدر إلى أخصيك، مهيجاً أحشاءك ثم يصعد من جديد إلى عينيك بضربات متسارعة. ليس لها نهاية ودونما كلل، كنا كلما تقدمنا إلى الأمام. نفقد بعضاً من رفاقنا. كنا نرسم ابتسامة صغيرة لهؤلاء الذين نتركهم خلفنا، كما لو أن كل ما كان يجري لا يعدو أن يكون في غاية اللطف، لم يعد بوسعنا لا أن نتبادل الكلام، ولا أن نسمع بعضنا بعضاً. وفي كل مرة كان يبقى من الرفاق ثلاثة أو أربعة حول آلة من الآلات.

يقاوم المرء على الرغم من ذلك، يجد مشقة في التقزز من جوهره. يرغب في أن يوقف كل ذلك، كي يفكر في هذا الجوهر، ويسمع قلبه ينبض، في داخله، ببسر، ولكن ذلك لا يعود ممكناً له أن ينتهي، كانت مفاجئة تلك العلبة الحديدية الهائلة الأبعاد، ونحن ندور في داخلها ومع المكنات ومع الأرض. كلنا معاً.. والألف بكرة، ومدقات الهاون التي لا تسقط أبداً في وقت واحد، والتي كانت تصدر جليات ينسحق بعضها على بعض، وهي من العنف بحيث تشيع حولها نوعاً من الصمت ينفعك قليلاً.

كانت العربة الصغيرة المتعرجة المسار، المحملة بخردة الحديد تتعثر خلال مرورها بين الآلات، نصطف نحن، نقفز، حتى تتمكن تلك الصغيرة الهستيرية من أن تتطلق أيضاً بقوة أكبر، ثم هوب، وتختلج بعيداً تلك المقعقة المجنونة بين السيور والدواليب، حاملة إلى الرجال حصصهم من الإرهاق.

للعمال المنحنون على الآلات المنشغلون بإسعادها. ما أمكنهم ذلك، يثيرون تقززك، وهم يدخلون محازق في القالب، ومحازق أيضاً، بدلاً من أن ينتهوا إلى الأبد من رائحة الزيت تلك، من ذلك البخار الذي يحرق طبقات الأذان، يدخل

الأذان عن طريق الحلق. لم يكن الخجل للأسف هو الذي يحني رؤوسهم. استسلمنا للضجيج مثلما كنا قد استسلمنا للحرب. استسلمنا للآلات بالأفكار الثلاث التي بقيت تتذبذب في الأعلى، داخل رؤوسنا خلف جباهنا، وهذا يكفي. كل ما كنا نشاهده، وكل ما تلمسه أيدينا كان صلباً الآن، وكل ما يمكننا أن نتذكره أيضاً كان صلباً كذلك مثل الحديد، ولم يعد له طعم داخل أفكارنا.

غدونا بقذارة هرمين دفعة واحدة.

كان ينبغي إلغاء الحياة الخارجية، أن نجعل منها شيئاً حديدياً، أداة ما، لم تكن نحب تلك الحياة بما يكفي، مثلما كانت عليه، ولهذا كان علينا أن نجعل منها شيئاً إذن، شيئاً من الأشياء الصلبة، تلكم هي القاعدة.

حاولت أن أكلم رئيس العمال في أذنه، كان يدمدم مثل خنزير، وهو يجيبني، ومن خلال الحركات فقط أراني بصبر بالغ العمل البسيط جداً الذي كان علي إنجازة، منذ الآن وباستمرار. دقائق، ساعاتي ما تبقي لي من الزمن، مثلي مثل أولئك الذين كانوا هنا، ستنقضي في إدخال أوتاد معدنية صغيرة، على نحو أعمى في فتحات جانبية من أجل معايرتها. كان هو، منذ سنوات يعمل مع الأوتاد، مع الأوتاد ذاتها، باشرت بالعمل تَوّاً على نحو سيئ جداً. لم يوجه إلي اللوم قط، ولكن بعد ثلاثة أيام تم نقلي بعد إخفاقي، إلى العمل في جر عربة صغيرة، مملوءة بالرنديلات، أنتقل فيها من آلة إلى أخرى. كنت أترك هنا ثلاث رنديلات، وهناك اثنتي عشرة، وهناك خمس فقط، ما من شخص كان يكلمني، لم نعد موجودين إلا عبر نوع من التردد بين التبلد والهديان، لم يعد ثمة ما يهم سوى الجلجلة المتواصلة لألف وألف آلة، كانت هي التي تقود الرجال.

في الساعة السادسة حين يتوقف كل شيء، تحمل الضجة معك داخل رأسك، كانت تبيت الليل بطوله معي، ورائحة الزيت أيضاً، كما لو ركبوا لي أنفاً جديداً ودماعاً جديداً إلى الأبد.

لفرط ما زهدت بالحياة إذن غدوت شخصاً آخر، فرديناند جديداً، غير أن الرغبة في رؤية الناس خارج المصنع عاودتني بعد بضعة أسابيع. ليس هؤلاء العاملين في الورشة بالطبع، لم يكن رفائي هؤلاء سوى أصدقاء وروائح للآلات مثلي، لحوم مرتعشة بلا نهاية.. جسد حقيقي، هو ما كنت أرغب في ملامسته، جسد وردي مفعم بحياة حقيقية صامتة وطرية.

لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة، وخاصة من النساء. ثم ما لبثت أن حصلت بكثير من العناء على عنوان مبهم لـ«منزل». سري بعيد عن الأنظار، في الحي الشمالي من المدينة. كنت أمضي لأنتزه في تلك الناحية خلال بعض الأمسيات، مستطلعاً بعد لنتهاء عملي في المصنع، كان ذلك الشارع يشبه أي شارع آخر، ولكنه كان أفضل تنظيماً من الشارع الذي أسكن فيه.

استدلت على المنزل الصغير الذي كان موثلاً للمتعة. محاطاً بالحدائق، كان يتعين على من يذف إلى داخله أن يسرع الخطى حتى لا يتمكن الشرطي الذي كان يحرس على مقربة من بابه أن يلحظ شيئاً. كان ذلك هو أول مكان في أمريكا أستقبل فيه دونما فظاظة، وحتى باحتفاء وبشاشة، لقاء دولارات خمسة، حسناوات في ريعان الشباب، فانتات مفعمات بالصحة والقوة الرشيقة، لسن أقل جمالاً، في النهاية عن حسناوات فندق لوف كالفين.

ثم إن هؤلاء على الأقل، كان يمكنك أن تلمسه دون تهيب. لم يعد بمقدوري أن أمتنع عن ارتياد هذا المكان. كل ما كنت أكسبه في المصنع صرت أنفقه هنا. ما إن يحل المساء حتى أجد نفسي مرغماً على الذهاب إلى

تلك الوصالات البهيجة بهاتيك البهيات الحفيات، من أجل ترميم روحي. لم تعد السينما تكفي كترياق لتخفيف أوجاعي، لم يعد لها تأثير حقيقي على الفضاء المادية للمصنع. كان لابد لي كي أصمد أيضاً، من اللجوء إلى المقويات الفعالة البعيدة عن الاعتدال، إلى المنشطات الحيوية، لم يكن يطلب مني في هذا المنزل سوى دريهمات قليلة، تسويات ودية بين أصدقاء، لأنني كنت قد جلبت لهؤلاء السيدات من فرنسا أشياء وأشياء، مساء السبت فقط، يبلغ الشغل ذروة النشاط. كنت أترك المكان كلياً لفرق لاعبات البيسبول القادمات إلى المنزل للهو والشراب، بأجسادهن القوية الرائعة المفعمة بالحوية، تغمرهن السعادة كما لو كن يتنفسنها.

فيما تكون فرق اللاعبات لاهية مستمتعة، كانت قريحتي تستيقظ. كنت ألوذ في المطبخ، لأكتب قصصاً صغيرة لي وحدي، حماس تلك الرياضيات تجاه المخلوقات التي تعيش في المنزل لم يكن ليبلغ بالتأكيد مستوى حماستي العاجزة نوعاً ما. كانت تلك اللاعبات المطمئنات إلى قوتهن سئمات من كمالهن الجسدي. فالجمال مثله مثل الكحول، أو مثل الرفاه، يعتاده المرء، ولا يعود يوليه اهتماماً.

كن يأتين إلى المنزل من أجل التسلية والضحك، ويشتبكن غالباً في عراك صاحب لا نهاية له. كان البوليس يقتحم المكان حينئذ كالإعصار ويأخذ الجميع في شاحنات صغيرة.

أحسست بعد وقت قصير تجاه فتاة من فتيات المنزل اسمها موللي، بشعور استثنائي من الثقة التي تأخذ لدى الكائنات المذعورة مكان الحب، أتذكر الآن كما لو كان ذلك بالأمس، رقتها المتناهية وساقها الطويلين الشقراويين، والنحيلين، بنحو رائع، والمفتولين. ساقان نبيلتان، عنوان

أرستقراطيتها الإنسانية الحقيقية. عبثاً أقول. كان ساقاها هما اللذان يضيفان عليها تلك المسحة الأرستقراطية، ولست مخطئاً.

غدونا حميمين بالجسد والروح، كنا نذهب معاً للنزهة في المدينة بضع ساعات كل أسبوع، كانت تلك الصديقة تملك ثروة وفيرة، كانت تكسب مئات الدولارات في اليوم في ذلك المنزل. في حين أنني كنت لدى فورد لا أكاد أكسب ستة دولارات، لم يكن وصالها الجنسي مع الرجال يتعبها كثيراً، لأن الرجال الأمريكيين يمارسون ذلك كالعصافير.

عند المساء بعد أن أكون قد جررت عربتي الصغيرة الجواله طوال النهار، أجدني مضطراً، مع ذلك، إلى أن أبدو بوجه متهلل، حينما ألتقي بها بعد العشاء. ينبغي أن يكون المرء مرحاً مع النساء، في البداية، على الأقل، كان لدي رغبة مبهمه في أن أقترح عليها أشياء وأشياء، ولكنني لم أكن أقوى على ذلك قط. كانت موللي تفهم آفة الخرف الصناعي، فقد اعتادت على معاشره العمال.

ذات مساء، ونحن على هذا المنوال، قدمت لي موللي، ومن غير مناسبة خمسين دولاراً. نظرت إليها في البداية. دون أن أجرؤ على أخذها. كنت أفكر فيما ستقوله أمي في مثل هذه الحالة، ومن ثم فكرت بأن أمي، المسكينه، لم تقدم لي مثل هذا المبلغ، ولكي أسعد موللي، اشتريت على الفور بدولاتها بدلة جميلة لي فاتحة اللون، كانت دارجة في ربيع ذلك العام. لم يروني قط أصل إلى المنزل بمثل تلك الأناقة. وشغلت مديرة المنزل فونوغرافها الضخم، لا لشيء إلا لتعلمني الرقص.

ذهبت، بعد ذلك، إلى السينما مع موللي، مرتدياً بدلتني الجديدة. سألتني في الطريق إن كنت غيوراً، كانت بدلتني تمنحني مظهراً حزيناً، ورغبة بعدم

العودة إلى المصنع، بدلة جديدة، كان هذا يبلبل أفكارك، كانت موللي تقبل
بدلتي قبلات صغيرة مشبوبة، حينما نكون بعيدين عن أنظار الناس، وكنت
أحاول أن أفكر بشيء آخر.

تلك الموللي، أي امرأة كانت! في النهاية، أية سخية! أي لون كان لون
بشرتها! أي امتلاء بالفتوة الغضة، مآدبة للرجبات المشبوبة، وعاودني القلق
من جديد، هل صرت قواداً؟ كنت أفكر بيني وبين نفسي.

«لا تذهب إنن إلى فوردا! شجعتني موللي فوق ذلك. ابحث بالأحرى،
عن وظيفة صغيرة في مكتب من المكاتب.. كمترجم على سبيل المثال. ذلك
هو نمطك.. الكتب.. ذلك هو ما يعجبك..»

كانت تتصحني هكذا، بلطف بالغ، تحدها الرغبة في أن أكون سعيداً.
لأول مرة يهتم بي كائن إنساني، من أعماقه، إن تجرأت على قول ذلك، يهتم
بأنائي.. كان يضع نفسه في مكاني، ولا يحاكمني فقط من مكانه هو، مثل
الآخرين.

أه، لو كنت التقيت بموللي في وقت أبكر، حينما كان ما يزال ثمة وقت
لاختيار طريق دون آخر. قبل أن أفقد حماستي عند تلك الطائشة ميزين، وعند
تلك البعرة الصغيرة لولا. ولكن الأوان قد فات كي أرمم شبابي، لم أعد أومن
بنذك. لقد غدوت هراً بسرعة، وعلى نحو لا براء منه. لاحظت ذلك بطريقة
طفقت معها أحب تعاستي، على الرغم مني، إنها الطبيعة، تفوقك قوة
وجبروتاً، وهذا كل ما في الأمر، إنها تختبرنا داخل نمط من الأنماط، ثم
لايعود بوسعنا الخروج من هذا النمط، أما أنا فقد مضيت باتجاه قلق الروح.
يحمل المرء رويداً رويداً، دوره وقدره على محمل الجد، دون أن يدرك ذلك

بوضوح، وحينما يلتفت إلى الوراء يكون الأوان قد فات على تغييرهما، فيغدو نهباً للقلق، ويظل هكذا بالتأكيد حتى نهاية أيامه.

كانت موللي تحاول أن تحتفظ بي بالقرب منها، وأن تثنييني عن العودة إلى أوروبا.. «لن تكون حياتك هنا أقل راحة وطمأنينة مما في أوروبا، أنت تعلم يا فرديناند، لن نكون تعيشين معاً» كان رأيها مصيباً «سنجمع توفيراتنا.. وسنشترى محلاً تجارياً.. وسنعيش مثل غيرنا من الناس» كانت تقول ذلك كي تهدئ من روعي.. خطط ومشروعات.. كنت أصوب رأيها. ولكنني كنت أشعر بالخجل كذلك من مقدار العناء الذي كانت تتحملة في سبيل الاحتفاظ بي، كنت أحبها بقوة من دون ريب، ولكنني كنت ما أزال أحب عيبي أكثر، ذلك النزوع لأن أفر من كل مكان، لأبحث عما لا أدري كنهه، بكبرياء أرعن من دون شك، وبيقين بنوع من التفوق.

كنت أحرص على أن أتجنب تكديرها، كانت تتفهم ما يقلقني وتتجاوزها، ولفرط ما كانت مسابرة لي اعترفت لها، بالهوس الذي كان يستبد بي، بالفرار من كل مكان. أصغت إلي طوال أيام وأيام وأنا أتفاخر وأتحدث عن ذاتي، على نحو يبعث على التقزز، متخبطاً في الأوهام والغطرسات، ولم تكن هي برمة نافذة الصبر، بل على العكس من ذلك كانت تحاول فقط مساعدتي على التخلص من هذا القلق العبثي والأبله، لم تكن تفهم جيداً إلى أين كنت أريد أن أمضي بهذياناتي، ولكنها كانت توافقني الرأي سواء أكان ضد الأوهام، أو مع الأوهام، تبعاً لاختياري. ولفرط ما كانت تتمتع به من رقة وحنونة غدت طبيعتها، بالنسبة إلي مألوفة وشخصية تقريباً، ولكن كان يتبين لي أكثر فأكثر أنني قد بدأت المراوغة مع قدرتي الفريد، مع مبرر وجودي، مثلما كنت أدعوه، وانقطعت مذاك بنحو مفاجئ عن الإفضاء إليها بكل ما كنت أفكر به،

كنت أعود وحيداً إلى ذاتي، مسروراً لكوني ما أزال أشد تعاسة مما كنت قبلاً. ذلك لأنني كنت قد حصلت داخل أسوار عزلتي على طريقة في الغم وعلى شيء ما كان يشبه شعوراً حقيقياً.

كل ذلك تافه ومبتذل، كانت موللي تتمتع بصبر القديسين، كانت تؤمن إيماناً صلباً كالحديد بالأقدار، أختها الصغرى، مثلاً، في جامعة أريزونا، كانت مصابة بهوس تصوير الطيور في أعشاشها، والجوارح في أوكارها، ولكي تتمكن إذن من الاستمرار في متابعة دروسها الغربية في تلك التقنية الخاصة، كانت موللي تبعث بانتظام، لأختها المصورة الفوتوغرافية خمسين دولاراً في الشهر.

قلب لا نهائي حقاً، مفعم بسمو حقيقي، يمكن أن يتحول إلى مال، دون أي تصنع، على منوالي ومنوال كثيرين آخرين، وفيما يخصني كانت موللي تتقبل مسرورة بأن تتحمل مالياً أعباء مغامرتي الموحلة، وعلى الرغم من أنني بدوت لها شخصاً مذهولاً عن نفسه أحياناً، فقد كان كل ما أومن به يبدو لها واقعياً، وجديراً حقاً بأن لا يحبط أو يثبط، كانت تطلب مني فقط بان أعد لها نوعاً من ميزانية بخصوص نفقة مالية تريد أن تخصصها لي. لم يكن بمقدوري الموافقة على تلك الهبة، كان الأثر الأخير الباقي لدي من اللياقة يمنعني من أن أمل منها المزيد، وان أعتمد على تلك الطبيعة الروحانية إلى أبعد حد، والرقيقة بنحو يعز على الوصف. على هذا النحو بدأت عن عمد أضع العقبات في وجه العناية الإلهية.

بذلت في تلك اللحظات، وأنا شاعر بالخجل، بعض الجهود للعودة إلى فورد، بطولة صغيرة دون نتيجة مع ذلك، وصلت تماماً أمام باب المصنع، ولكنني لبثت جامداً في ذلك المكان الاستهلاكي. فالآفاق التي كانت تنتظرنني من تلك المكثات وهي تكور، دمرت في داخلي نهائياً تلك الإرادة الواهية للعمل.

كنت واقفاً أمام الواجهة الزجاجية للمرجل المركزي، ذلك العملاق المتعدد الأشكال الذي يهدر، ممتصاً وناقثاً، لا أدري إلى أين، ولا أدري ماذا، عبر ألف من الأنابيب اللامعة، المتشابكة والداعرة على غرار النباتات المعرشة. كنت كامناً على هذا النحو ذات صباح أتأمل ببلادة، وإذا بالعجوز الروسي يمر بي «هيا!.. قال لي، لقد تبخترت أيها المغنح.. منذ ثلاثة أسابيع وأنت غائب عن المصنع، استعاضوا عنك بألة ميكانيكية، كنت قد حذرتك مع ذلك...».

«هكذا إذن قلت لنفسي، هذا كاف على كل حال، لم يعد ثمة مجال لتغيير دفة الأمور..» ومضيت نحو المدينة، وفيما أنا عائد مررت ثانية بالقتلية لأسألهم ما إذا كانوا يعرفون أية أخبار عن فرنسي يدعى روبنسون. «بالتأكيد، أجبني الموظفون في القنصلية لقد جاء إلى هنا مرتين، كان لديه أوراق مزورة أيضاً، البوليس يبحث عنه، هل تعرف عنه شيئاً...» ولم أتح في طلبه.

منذذبت أترقب اللقاء بروبينسون في كل لحظة، كنت أحس بأنني سألتقيه لا محالة، استمرت موللي في رفقها وحنوها علي. بل إنها أصبحت أكثر رقة أيضاً مما كانت عليه قبلاً. منذ أن غدت مقتنعة بأنني عزمت على الرحيل بنحو قاطع. كنت أجوب برفقتها الأنحاء المحيطة بالمدينة خلال ساعات بعد الظهر.

قطع صغيرة جرداء من الأرض، أجمات من البتولا، تحيط ببحيرات صغيرة، أشخاص يقرؤون هنا وهناك، متاجر مكفهرة تحت سماء ملبدة بالغيوم الرصاصية، كنا نتحاشى أنا وموللي المناجيات المؤثرة ومن ثم فقد كفت موللي عن الكلام، كان لديها الكثير من الأشياء لتقولها عن حزنها.. ما

كان يدور في داخلها كان يكفيها، داخل قلبها. كنا نتعانق ولكنني لم أكن أقبلها كما كان ينبغي من ركبتيها، في الحقيقة. كنت أفكر دائماً بشيء آخر في الوقت ذاته، أن لا أفقد الزمن والحنان. كما لو كنت أريد أن أحتفظ بهما كليهما من أجل شيء ما رائع، وسام، لزمن قادم، ولكن ليس من أجل موللي، كما لو أن الحياة كانت، ستخفي عني ما كنت أريد أن أعرفه عنها، عن الحياة في قلب الظلمة، حينما سأفقد حماسي في تقبيل موللي، وحينئذ سأفقد كل شيء في نهاية المطاف بسبب افتقاري إلى القوة، وستخدعني الحياة، مثلما خدعني الآخرون جميعهم، الحياة. تلك المعلمة الحقيقية للرجال الحقيقيين.

كنا نعود نحو الجمهور المحتشد، وأتركها أمام منزلها، فقد كانت تتشغل خلال الليل وحتى الصباح بزبائنها الكثيرين، وخلال فترة انشغالها بالزبائن، كنت أكابد الألم مع ذلك، وكان ذلك الألم يحدثني عنها طويلاً. كنت أشعر أيضاً بأنها كانت معي أفضل مما هي في الواقع. كنت أدخل إلى صالة سينما. كي أمضي الوقت، ولدى خروجي، كنت أركب هذا الترام أو ذاك كي أنتزه في قلب الليل. في الساعة الثانية كان يصعد إلى الترام ركاب يبدو عليهم التهيب والوجل، نوع من البشر قلما كنت أصادفه قبل أو بعد تلك الساعة، شاحبون جداً وناعسون، على هيئة رزم طيبة، متجهين إلى الضواحي.

كنت أذهب معهم بعيداً، أبعد من المصانع، نحو مساكن ضائعة المعالم، وشوارع غير مميزة. وفوق البلاط الدبق بأمطار الفجر الخفيفة كان النهار يبزغ بزرقة شفيفة. كان رفاقي في الترام يتوارون في الوقت الذي تتوارى فيه ظلالهم. كانوا يغلغون أعينهم أمام ضوء النهار، كان من الصعب جعل هذه الكائنات الظلية تتطرق بكلمة.. من الصعب للغاية. لم يكونوا يشكون أيضاً. لا. كان هؤلاء هم الذين ينظفون أثناء الليل مخازن، وأيضاً مخازن

ومكاتب المدينة بطولها وعرضها بعد إغلاقها. كانوا يبديون أقل قلقاً منا نحن، أناس النهار، ربما لأنهم بلغوا أدنى درجة يبلغها البشر والأشياء.

في ليلة من تلك الليالي، كنت قد صعدت إلى ترام آخر حملني حتى محطاته الأخيرة. ولما أن نزلت منه باحتراس، خيل إلي أنني سمعت أحداً يناديني باسمي «فرديناند، هيه فرديناند» كان ذلك أشبه بفضيحة وسط ذلك الغبش، لم أكن أحب ذلك. كانت السماء فوق الأسطح تختفي وتعود على هيئة حزم باردة جداً متحولة إلى مزاريب، من المؤكد أن أحداً كان يناديني.. وحين التفت خلفي عرفته فوراً، كان ذلك روبنسون، وحين ناديت به بصوت هامس دنا مني، وخصنا حينئذ في شروح طويلة.

هو أيضاً كان عائداً من تنظيف أحد المكاتب مع الآخرين، ذلك كل ما وجدته كوسيلة للعيش.. كان يمشي بكثير من الاتزان، وبشيء من عظمة حقيقية، كما لو أنه كان قد أنجز أموراً خطيرة. ومقدسة تقريباً داخل المدينة، كان ذلك هو السميت الذي يتخذه جميع عمال التنظيف هؤلاء، خلال الليل.. كنت قد لاحظت ذلك من قبل. فوسط التعب والوحشة ينبثق هذا الشعاع السماوي من داخل البشر.. كان ذلك يسطع في عينيه هو أيضاً حينما كان يفتحهما، متسعيتين أكثر من المعتاد، زرقاوين وسط ذلك الغبش الذي كان يحيط بنا. كان قد نظف هو أيضاً مساحات لا نهاية لها من المغاسل، ولمع جبلاً حقيقية من الطوابق بصمت مطبق.

أضاف روبنسون: «لقد عرفتك، في الحال يا فرديناند، من الطريقة التي صعدت فيها إلى الترام، تصور، عرفتك فقط من طريقتك في إظهار حزنك حينما تجد أنه ليس ثمة امرأة، أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا هو نوعك من الرجال؟» ما من ريب في أن روبي كانت تكشف عما بداخلها مثل فتحة

سروال. لا شيء إذن كان يدهشني في ملاحظته الدقيقة، ولكن ما فاجأني بالأحرى، أنه هو أيضاً لم يحقق النجاح في أمريكا، لم يكن هذا أبداً ما كنت قد توقعتة..

حدثته عن صفقة السفينة الشراعية في سان تابيتا، ولكنه لم يكن يفهم ماذا يعنيه ذلك. «لقد كنت محموماً» أجابني بهذه الكلمات فقط، هو أيضاً كان قد وصل على متن سفينة شحن، وقد حاول أن يشتغل لدى فورد ولكن أوراقه، كانت مزورة، بنحو فاضح جداً، بحيث لم يجرؤ على إبرازها خشية أن يعقلوه. «كان من الخير لي أن أحتفظ بها في جيبتي». علق قائلاً: أما بالنسبة للعمل في فرق التنظيف فلم يكن خطراً على الحالة المدنية، وكان أجره زهيداً كذلك، فهم يشغلونك محل شخص آخر. كان ذلك نوعاً من جحفل أجنبي يجوس في الليل.

«وأنت ماذا فعلت؟» سألني حينئذ.. أما زلت إذن أحرق؟ ألم تمتلك بعد ما يكفي من المهارات والحيل؟ وهل ما تزال إذن ترغب بالأسفار.

— أريد أن أعود إلى فرنسا، قلت له: حسبي ما رأيت وعانيت! أنت على حق.

— أنت تحسن صنعاً، أجابني روبنسون، بالنسبة إلينا فإن طبختنا قد احترقت: لقد سخنا دون أن نلاحظ ذلك. أنا أعلم ما الذي.. أريد فعلاً أن أعود أنا أيضاً. ولكنها الأوراق دائماً.. سألبث قليلاً كي أحصل على أوراق حقيقية.. لا يمكن القول بأن العمل الذي أقوم به سيئ، هناك ما هو أسوأ منه، ولكنني لم أتعلم الإنكليزية، يظل عامل التنظيف ثلاثين عاماً في العمل ذاته ولا يتعلم، في النهاية سوى Exit (مخرج) لأن هذه الكلمة معلقة على الأبواب التي يلمعها و Lavtory (مغسلة)، أنت تفهم؟

كنت أفهم بالطبع، لو أن موللي قد تخلت عني، في يوم من الأيام لكنت مضطراً إلى الذهاب للعمل أيضاً، في أعمال الليل.
ليس هناك طريق للخلاص من كل ذلك.

حاصل الكلام، أنني حينما كنت في الحرب، قلت بأنني سأكون أفضل حالاً في السلم، ابتلعت هذا الأمل كما لو كان حبة من اللوز والسكر. ثم لاشيء مع ذلك سوى الخراء. لم أكن أجرو على قول ذلك في البداية، حتى لايتقزز مني أحد، كنت مهذباً في المحصلة، وبعد ذلك صرحت به جهاراً أمام الجميع، حسبي ثقلاً في مهاوي البؤس، غير أن الجميع وجدوا فجأة بأنني سيئ التربية، وهذا كل شيء.

تواعدت مع روبنسون بعد ذلك، مرتين أو ثلاث مرات، كان متجهماً للغاية. أحد الفرنسيين الفارين، كان يصنع خموراً مهربة لحتالات مدينة ديتروا كان قد أوكل إلى روبنسون جزءاً من «العمل» كان هذا قد أغراه. «سأسلك أنا أيضاً، بعض الوقت، هذا «المنحدر» من أجل طلعتة القذرة. أفضى إلي روبنسون. ولكن أنت تراني، لقد فقدت معدتي. أشعر بأن شجاعتي تخونني مع أول شرطي يوقفني.. بالإضافة إلى ذلك، فإنني أنام طوال الوقت.. بالضرورة. والنوم في النهار ليس نوماً.. دون حساب غبار «المكاتب» الذي تعج به رئتاي. أنت تدرك ذلك؟ كل هذا يزهدق روح أي إنسان..»

تواعدنا أنا وروبنسون ليلية أخرى، ثم عدت للقاء موللي، وحدثتها عن كل شيء، بذلت موللي جهداً مضنياً كي تخفي عني الألم الذي سببته لها، لم يكن من الصعب مع ذلك رؤية ما كانت تعانيه، كنت أعانقها الآن دون توقف، ولكن أساها العميق كان حقيقياً وصادقاً أكثر مما لدينا نحن، (القادمين من

أوروبا)، لأننا معتادون، بالأحرى على أن نتكلم عن الحزن أكثر مما نشعر به، على عكس الأميركيين تماماً، إنهم لا يجروون على فهم الحزن، على قبوله، ذلك مهين إلى حد ما، ولكن في داخلهم مع ذلك، حزناً حقيقياً، ليس كبرياء، ولا كذلك حسداً، ولا تأثراً، إنه ألم حقيقي في أعماق القلب حسب. ينبغي للقول بأن كل ذلك ينقصنا في داخلنا، ولأننا نستمتع بالشعور بالحزن فنحن قاحلون بلا إحساس. علينا أن نخجل من أننا لسنا أغنياء في قلوبنا وفي كل شيء، ومن أننا نحكم على البشر مع ذلك بأنهم أثنى مما هم عليه في الواقع.

من وقت إلى آخر كانت موللي تسمح لنفسها بأن توجه لي ملامحة بسيطة، ولكن دوماً بعبارات موزونة وعذبة «أنت لطيف جداً يا فرديناند، كانت تقول لي، أعلم بأنك تبذل جهوداً كي لا تغدو خبيثاً مثل الآخرين. ولكنني فقط، لا أعرف إن كنت تترك فعلاً ما ترغب به في الواقع. فكر جيداً في ذلك. ينبغي أن تجد ما تقفّات به لدى عودتك إلى هناك، يا فرديناند، لن يعود بإمكانك، كذلك، أن تنتزه مثلما تفعل هنا، حالماً، طوال ليال وليال.. مثلما تحب كثيراً أن تفعل.. في حين أنني أعمل.. هل فكرت في ذلك يا فرديناند؟»

بمعنى من المعاني، كانت ألف مرة على حق، ولكن لكل طبيعته. كنت خائفاً أن أجرحها، خاصة أنها كانت تتجرح بسهولة فائقة. «أؤكد لك بأنني أحبك جداً يا موللي، وسأحبك دائماً.. قدر ما أستطيع.. بطريقتي..»

طريقتي لم تكن كثيرة، كانت موللي ربلاء مع ذلك شهية جداً، ولكن كان لدي هذا النزوع القدر إلى الأوهام، ربما لم يكن ذلك خطئي كلياً، فالحياة ترغمك على أن تبقى دائماً مع الأوهام.

«أنت ودود جداً، يا فرديناند، كانت تؤكد لي، لا تحزن من أجلي، أنت أشبه بالمرريض دوماً بسبب رغبتك الملحة في أن تعرف المزيد دوماً. هذا كل شيء.. وفي النهاية، هذا ما ينبغي أن يكون طريقك، وحدك تماماً، فالمسافر الحقيقي هو الذي يمضي إلى أبعد ما يكون، هل سترحل عما قريب إذن؟
- نعم، سوف أنهى دراستي في فرنسا، ومن ثم سأعود. أكدت لها بشيء من القحة..

- لا، يا فرديناند. أنت لن تعود قط. ومن ثم فإنني لن أكون هنا أنا أيضاً..

لم تكن موللي مغفلة؟

دنت لحظة الرحيل، توجهنا ذات مساء إلى محطة القطار قبل ساعة من عودتها إلى المنزل. كنت خلال النهار قد ودعت روبنسون. لم يكن سعيداً كذلك بأن أغانده.. لن أنتهي قط من مفارقة كل من عرفته. فيما كنت أنتظر القطار على رصيف المحطة مع موللي، كان كثير من الرجال العابرين يتظاهرون بأنهم لا يعرفونها، ولكنهم يهمسون فيما بينهم بأشياء..

«ها أنت الآن ترحل بعيداً، يا فرديناند.. أنت تفعل بالضبط ما ترغب في أن تفعله، أليس كذلك يا فرديناند؟ ذلك هو المهم.. ذلك هو وحده ما يحوز على أهمية كبيرة.

دخل القطار المحطة، لم أعد واثقاً جداً من مغامرتي حينما شاهدت الآلة الضخمة، عانقت موللي بكل ما كان في داخل هيكلي من شجاعة. كنت متألماً، ألماً حقيقياً صادقاً، لمرة واحدة، لكل العالم، لي، لها ولجميع البشر.
ربما كان ذلك ما نبحت عنه طوال حياتنا، لا شيء سوى هذا، أكبر قدر ممكن من الحزن كي نغدو نحن ذواتنا، قبل أن نموت. مرت سنون في إثر

هذا الرحيل، وسنون أيضاً، كتبت مراراً إلى مدينة ديتروا وإلى كل العناوين التي كنت أتذكرها، وحيثما كان من الممكن أن يتعرف أحد على موللي، أن يقتفي أثرها، ولم أتلق قط أي جواب.

لقد أغلق المنزل الآن، ذلك كل ما أمكنني معرفته. الطيبة، الرائعة موللي، كنت أتمنى لو كان بإمكانها أن تقرأ رسائلي، من مكان لا أعرفه، وأن تعلم كل العلم بأنني لم أغير تجاهها. وأني ما أزال أحبها، وسأظل أحبها إلى الأبد، بطريقتي، وأن تتمكن من المجيء إلى هنا حينما ترغب وتقاسمني خبزي، ومصيري العابر.. فإن لم تعد جميلة، إيه! وحتى أسوأ من ذلك فسنندبر أمرنا. فأنا أحتفظ بكثير من جمالها في داخلي. حياً جداً، حاراً جداً، بما يكفيننا لكلينا، ولعشرين عاماً على الأقل أيضاً، حتى تحين نهايتي.

من أجل مغادرتها كنت في حاجة بالتأكيد إلى كثير من الجنون، وإلى نوع قدر وبارد منه. ومع ذلك فقد حميت روحي حتى الآن، وإذا ما حانت منيتي غداً، فلن أكون على الإطلاق، أنا على يقين من ذلك، بمثل تلك البرودة وتلك الحقارة، التي يتصف بها الآخرون، لقد أهدت إلي موللي كثيراً من اللطف ومن الحلم، خلال تلك الشهور التي قضيتها في أمريكا.



<< لم تكن العودة من العالم الآخر نهاية الآلام! وجدت خيط الأيام من جديد مثلما تركته، يتجرجر دبقاً، مترجحاً كأنه في انتظاري.

درت طوال أسابيع وأشهر حول ساحة كليشي التي انطلقت منها، وفي الأحياء المجاورة لها، تنقلت بين مهن صغيرة لأكسب عيشي بالقرب من الباتينيول، لا ضرورة للخوض فيها طويلاً، تحت المطر أو وسط لهيب الحر، إبان شهر حزيران، ذلك اللهب الذي يحرق الحلق وجوف الأنف، مثلما لدى فورد، كنت أنظر إلى الناس وهم يعبرون ويعبرون كي أتسلى، متقاطرين نحو مسرحهم أو نحو الغابة، عند المساء.

كنت وحيداً أكثر أو أقل دائماً، خلال الساعات التي أتحرق فيها من العمل، أقضي الوقت بهدوء مع الكتب ومع الصحف، ومع جميع الأشياء التي كنت أراها. وبعد أن استأنفت دراستي الجامعية في الطب اجتزت الامتحانات على طريقة «حا، دي»، في الوقت الذي كنت أكسب فيه معاشي. كان العلم محظوراً تماماً، وأكد لكم، كانت الكلية خزانة مقفلة بإحكام، قدوراً عديدة جداً، في جوفها قليل من المرئي. حينما أتممت مع ذلك سنواتي الخمس أو الست من محنتي الأكاديمية حصلت على لقبني الرنان جداً، تعلقت حينئذ بالضواحي، ذلك هو نوعي من الأطباء، علقت في ضاحية غارين رانسي ما إن خرجت من باريس.

لم يكن لدي إدعاء، ولا طموح كذلك، لا شيء سوى الرغبة في أن أتنفس قليلاً، وأكل أفضل قليلاً، وما أن علقت لوحتي حتى رحمت أنتظر.

سكان الحي جاؤوا للتفرج على لوحتي، متشككين، كانوا قد سألوا مفوض البوليس إن كنت طبيباً حقيقياً. نعم، أجابهم المفوض، فهو يحمل دبلوماً في الطب، إنه طبيب بالتأكيد.. حينئذ تردد في كل أرجاء رانسي بأن طبيباً حقيقياً، جاء ليستقر في الحي، بالإضافة إلى الأطباء الآخرين «لن يكسب من هنا بفتيحه» تنبأت على الفور بوابة عيادتي، صار عندنا أطباء أكثر مما ينبغي». كانت تلك ملاحظة صائبة.

عبر الترام كانت الحياة تصل إلى الضاحية، عند الصباح، كان يحمل منذ الفجر، رزماً كبيرة على دفعات متلاحقة، من أشخاص منزهلين مترنحين عبر شارع ميناتور متجهين إلى العمل.

كان الشباب منهم يبدون سعادة بذهابهم إلى العمل، كانوا يستعجلون سير الترام، ويتعلقون بسلامه، أولئك الظرفاء وهم يتضاحكون. ينبغي أن تراهم!. ولكن حين تعلم أن حجرة التلفون في الحانة، على سبيل المثال، لم تتظف منذ عشرين عاماً، وأنها من القذارة بحيث تصلح بيتاً للكلاب، تداخك الرغبة بأن تأخذ على سبيل المزاح كافة الأمور الجدية، ومعها رانسي، بنحو خاص، وتذكر الموقع الذي سيعنونك فيه. البيوت تستحوذ عليك، تفوح منها روائح البول، مسطحة الواجها، قلوبها للمالك. والمالك لا يراه أحد على الإطلاق، بل إنه لن يتجرأ على الظهور علانية، إنه يرسل وكيله، الفظ، ويقال، مع ذلك في الحي بأن المالك يكون بالغ اللطف حينما تلتقيه، ولكن ذلك لا يعد بشيء.

ضوء السماء فوق رانسي هو نفسه الذي كان فوق ديتروا، عصير من الزبل، دخاني اللون، يغمر السهل بدءاً من لوفالوا، نفاية من هياكل العمارات محاطة بأكوام من القمامة السوداء، تلوح لك من بعيد مداخنها الصغيرة منها

والكبيرة أشبه بالأوتاد الضخمة المغروسة في وحل شاطئ البحر، وفي داخلها، نقيب نحن.

ينبغي أن يكون لدى المرء في رانسي شجاعة السرطانات، لا سيما حين يشيخ، وأن يكون على يقين بأنه لن يخرج منها على الإطلاق. بعد محطة الترام يمتد الجسر الدبق فوق السين، ذلك المجرور الضخم الذي ترى من فوقه كل شيء، يتسلق الناس كتلته الضخمة أيام الأحاد، وفي الليل يقف الرجال على امتداد حافتيه، ليتبولوا، وهو ما يجعلهم متأملين مفكرين، شاعرين بذواتهم أمام الماء الجاري، يخالجهم أثناء ذلك إحساس بالخلود، أما النساء فلا يفكرن ولا يتأملن لا بالسين ولا بغيره. في الصباح ينقل الترام إذن جمهوره إلى المترو، وفي داخل المترو ينضغط ذلك الحشد، حتى يخيل إليك وهم يفرّون جميعاً إلى تلك الجهة بأن كارثة قد ألمت بهم، أو أن النيران قد أنت على بلدتهم بلهيبها، وبعد كل فجر، يحملهم الترام من جديد فيتعلقون ببواباته وحواجزه على هيئة عناقيد، هروب كبير.. إنهم مع ذلك يبحثون بالتحديد، عن رب عمل في باريس، عن ذلك الذي سينقذهم من الهلاك جوعاً، إنهم هلعون جداً من أن يفقدوه، أو أن يتخلى عنهم، فذلك المعاش اليومي الذي يجعلك تتضح بالعرق مع ذلك، وتتغفن من أجل تحصيله طوال عشر سنوات.. عشرين سنة وأكثر، لم يكن متيسراً بسهولة.

كانوا، يشاتمون داخل الترام، مطلقين سبلاً من الكلمات البذيئة كي يشقوا أمهم، مخذلاً إلى الترام، والنساء أشد احتجاجاً ونخيراً، وكذلك الفتيان. كان هناك بالتأكيد ثملات بين هؤلاء الراكبات، وخصوصاً أولئك اللواتي ينزلن إلى السوق نحو سانت أوين، من أنصاف القرويات، «بكم للجزر؟» يسألن قبل أن يصلن إلى البائع، كي يظهرن بأنهن على سعة من العيش.

كانوا يجتازون رانسي بكاملها، مضغوطين مثل القمامة داخل علبة معدنية، تفوح منهم روائح قوية في الوقت ذاته، وخصوصاً أيام الصيف. عند التحصينات القديمة كانوا يتبادلون التهديد والوعيد، مرة أخرى، ويوجهون آخر شتيمة، وبعدئذ ينسون كل شيء، ثم يبتلع المترو الجميع. البدلات المبللة بالعرق والفساتين المدعوكة، وجوارب الحرير، والتهابات الرحم، والأقدام القذرة كأنها الأحذية.. والياقات العتيقة والمتصلبة، والإجهاضات المتواصلة، كل ذلك يسيل عبر الدرج المغسول بالقطران والفينيك، وحتى النهاية الكئيبة، مع بطاقة العودة التي تكلف وحدها ثمن رغيفين من الخبز.

ثمة قلق بطيء ينهش الصدور من التسريح دون سابق إنذار، ولا سيما صدور أولئك المتخلفين دراسياً (بشهادة الدراسة الابتدائية فقط) حينما يرغب رب العمل بأن يقلص نفقاته السخية. ذكريات «الأزمة» ما تزال تحت الجلد، ذكريات التسريحات العمالية، في المرة الأخيرة، والتي طالت الجميع في كل مكان. تلك الذكريات، تخنق أنفاس رجل، مهما كان مستور الحال والعيال، في كل الفصول.

تواري المدينة، قدر ما تستطيع حشودها ذات الأقدام الوسخة، داخل مجاريها الكهربائية الطويلة، إنهم لا يعودون إلى السطح إلا يوم الأحد. حينذاك، وعندما يكونون خارج المجاري لا بد لهم أن يظهروا للملأ. وإذا ما شاهدتهم على سبيل التسلية، يوم أحد واحد، فسيفقدك ذلك حس الدعابة والضحك. حول المترو، وعلى مقربة من التحصينات ثمة رائحة مستوطنة تقضم الجو، رائحة الحروب التي لم تنطفئ بعد نيرانها، رائحة بقايا القرى المحروقة، والمطبوخة على عجل، والثورات المجهضة، والتجارات المفلسة. يحرق جامعو الخرق في المنطقة، منذ فضول وفصول، الأكوام الصغيرة

الرطوبة ذاتها داخل الحفائر. جامعو الخرق هؤلاء برابرة خائبون مترعون بالأنبذة وبالتعب، يذهبون ليسعلوا في المستشفى المجاور بدل أن يقدفوا بالترامات في المنحدرات، ويذهبوا ليبولوا رشقة بول قوية على الهبات الممنوحة للفقراء، لم يعد ثمة دماء، لم يعد ثمة حكايات، وحينما ستعود الحرب. الحرب القادمة سيجمعون أيضاً ثروة من بيع جلود الجرذان، ومن الكوكايين ومن الأقمعة المعدنية المتموجة.

فيما يتعلق بي، فقد وجدت لنفسي من أجل ممارسة المهنة شقة صغيرة في محيط الحي، كنت ألمح بوضوح من خلالها منحدرات المياه، والعامل الذي يقف فوقها دائماً ينظر إلى اللاشيء، ذراعه داخل لفافة ضخمة من قطن أبيض، مجروحة من جراء العمل، لم يعد يدري ماذا يفعل، وبماذا يفكر، وليس لديه ما يكفي من النقود كي يذهب ليشرب ويترع أحاسيسه.

كانت موللي على حق، لقد بدأت أفهمها. الدراسة تغريك، تخلق لديك كبرياء رجل. ينبغي العبور من هنا للدخول إلى أعماق الحياة. كنت في السابق أدور حول الحياة حسب، أعتبر نفسي منعقاً متحرراً، ولكنني كنت أستند إلي التقاهات والأباطيل. كنت أحلم أكثر مما ينبغي، أنزلق فوق الكلمات، لم يكن ذلك سوى نوايا، سوى مظاهر سطحية. كان يلزمني شيء آخر هو العزيمة. مع الطب، وعلى الرغم من أنني لست موهوباً جداً، كنت أقترّب، مع ذلك، من البشر، من الحيوانات، من كل شيء، لم يعد ثمة أمامي الآن سوى الماضي قدماً وسط الركام. الموت يجري خلفك، عليك أن تحث خطاك، عليك أن تأكل أيضاً، فيما أنت تبحث، وتنتقل من حضيض الحرب إلى ما فوق مستوى السوق. وهذا يحتاج إلى إنجاز كثير من الأشياء، ولم يكن ذلك بالسهل.

كنت أنتظر المرضى. لم يأت منهم الكثير، لابد من مرور زمن من أجل الإقلاع، كنت أقول لأطمئن نفسي، كان المريض في تلك اللحظة هو أنا على الأخص.

قلما وجدت مكاناً أكثر مدعاة للحزن والرتاء، مثلما وجدت غارين رانسي، حينما لا يكون لدي زبائن. يمكنني قول ذلك. ينبغي الابتعاد عن التفكير داخل هذه الأماكن. وأنا الذي جئت إلى هنا كي أفكر بهدوء! ومن الطرف الآخر للأرض أيضاً! لقد وقعت على أم رأسي. غطريس صغير! كانت تتوارد علي أفكار سود ثقيلة، لم يكن هناك ما يدعو إلى المرح. ولم تعد تفارقني تلك الحال لحظة. الدماغ، طاغية مستبد، ليس كمثله أحد.

تحت عيادتي كان يقيم بيزين، المتكسب البسيط الذي يكسب رزقه، كان يقول لي دائماً حينما أتوقف أمام بابه «عليك أن تختار، يا دكتور، إما المراهنة على خيول السباق، أو تناول الشراب، إما هذه أو تلك، لا يمكن للمرء أن يعمل كل شيء!.. أما أنا فأفضل الشراب، لا أحب المراهنة كثيراً..».

بالنسبة إليه، فقد كان مشروبه المفضل، هو عصير الجنطايا مع الكشمش المخلوط بالكحول، لم يكن بيزين شريراً في العادة، ولكنه بعد الإفراط في معاورة شرابه لا يغدو لطيفاً جداً.. وحينما كان يذهب إلى التعيش في «سوق البراغيث». (سوق شعبي تباع فيه الأشياء الرخيصة)، يظل ثلاثة أيام خارج البيت، في «نزهة»، كما كان يسمي ذلك، كانوا يعيدونه إلى البيت، وحينئذ كان يتنبأ:

«المستقبل، أنا أرى كيف سيكون المستقبل.. على منوال فسق جماعي ليس له نهاية.. سنرى ذلك في السينما.. ليس علينا إلا أن نرى كيف تجري الأمور..»

كان يرى أيضاً أبعد من ذلك فيما يتعلق بتلك الأوضاع: «أرى أيضاً بأنهم لن يعودوا يشربون.. سأكون أنا آخر من يشرب.. عليّ أن أستعجل..
إبني أعرف عيبي..».

جميع الناس كانوا يسعلون في شارعِي، كان السعال يستولي على الحي بأجمعه.. فمن أجل رؤية الشمس كان ينبغي الصعود على الأقل حتى الساكاري كور بسبب الأدخنة.

من هناك، إذن، من ذلك المكان المطل على حيننا، تدرك بوضوح، أنه في قاع السهلة المنبسطة، كنا نحن، والبيوت التي نقيم فيها، ولكن حين تبحث عنها بالتفصيل، فلن تعثر عليها، ولا حتى على بيتك لفرد ما كان المشهد شائهاً، ومثله في القبح كل ما تراه.

في القاع أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، كان السين على الدوام ينساب مثل خيط مخاطي متلويماً من جسر إلى آخر.

حينما يسكن المرء في رانسي، لا يعود يدرك قط، كم غداً كثيباً، وتفارقه الرغبة بفعل شيء ذي قيمة، هذا كل ما في الأمر، فلفرد ما يقتصد في كل شيء، وبسبب كل شيء، تزايله كافة الرغبات.

خلال أشهر، كنت أقترض النقود من هنا وهناك. كان الناس في الحي على حال من الفقر ومن الريبة بحيث كان لا بد من هبوط الليل، حتى يقرروا القدوم إلي، أنا الطبيب الرخيص الأجر، مع ذلك، كنت أجوب الحي على هذا النحو، ليالي وليالي سعياً للحصول على عشرة أو خمسة عشر فرنكاً من عيادتي للمرضى، خابطاً في الأزقة والساحات المظلمة.

عند الصباح يغدو الشارع مثل طبل ضخم من البسط المنفوضة عن طريق الضرب بالمخابيط.

في ذلك الصباح التقيت ببيبرت على الرصيف، كان يحرس منزل عمته
المسافرة خارج الحي للقيام ببعض أعمال الخدمة، كان ببيبرت أيضاً، قد آثار
سحابة من الغبار فوق الرصيف بمكنسته.

كل من لا يثير الغبار في تلك الأماكن، عند الساعة السادسة ينظر إليه
بين سكان شارعهم على أنه خنزير فريد من نوعه. فالسجاجيد المنفوضة
علامة على الملكية، على منزل مؤثث جيداً.. وهذا كافٍ.. من الممكن أن
تفوح من أفواههم رائحة كريهة، ولكنهم، مع ذلك مطمئنون كل الاطمئنان..
كان ببيبرت يبتلع كل الغبار الذي كانوا يرسلونه إليه من الطوابق، كان يصل
إلى بلاط الشارع، مع ذلك بضع بقع من الشمس، ولكن مثلما داخل كنيسة،
بقع شاحبة باهتة، مترهدة.

رآني ببيبرت قادماً، كنت طيبب تلك الناحية القريبة من موقف الأتوبيس.
سحنة بالغة الاخضرار، نقاحة لن تتضح أبداً، ذلكم هو ببيبرت.. كان يحك جسمه،
وحين رأيته يفعل ذلك لنتابني أنا أيضاً رغبة بان أحك جلدي. ذلك لأنني لم أسلم
من البراغيث، أنا أيضاً، هذا صحيح، كانت تنتقل إلي خلال الليل، وأنا بجانب
المرضى. إنها تقفز فوق معطفك، بطيبة خاطر، لأنه المكان الأكثر دفئاً، والأكثر
رطوبة الذي يعرض لها. يعلمونك كل هذا وأنت في الكلية.

حينما يكون عليك أن تحب أحداً ما فإن مجازفتك مع الأطفال أقل مما
هي مع الكبار. لديك العذر، على الأقل، حين تأمل بأنهم سيكونون أقل سوءاً
منا نحن في المستقبل، لا أحد يعلم!

فوق وجهه الأدكن كانت تتراقص تلك الابتسامة الصغيرة اللانهائية من
المودة الخالصة والتي ما استطعت أن أنساها في يوم من الأيام. بشاشة للكون
كله..

قليل من الكائنات ما يزال لديهم قدر ضئيل جداً من هذه المودة
الفياضة، بعد العشرين عاماً المنصرمة، إنها مودة الحيوان الأليف. ليس العالم
متلماً كان يعتقد المرء، هذا كل ما في الأمر.. لقد غيرَ الناس وجوههم إذن.
وكيف؟ ماداموا قد خدعوا! إنهم يغدون قساة بلمح البصر. مكشرين
كالوحوش. ذلك ما بقي منطبعاً على وجوهنا بعد العشرين عاماً الماضية!
خطأ فادح، ليس وجهنا سوى خطأ فادح.

«هيه. ناداني ببيرت، دكتور، ألم يرفعوا الجثة من ساحة الأعياد هذه
الليلة؟ جثة الرجل الذي قطعت عنقه بسكين حلاقة؟ ألم تكن أنت الطبيب
المناوب في الخدمة؟ هل كان ذلك صحيحاً؟

— لا، لم أكن أنا المناوب في الخدمة، يا ببيرت، لقد كان الدكتور
فروليشون

— يا لسوء الحظ، لأن عمتي قالت بأنها تتمنى أن تكون أنت.. كي
تروي لها كل شيء.

— سيكون هذا في المرة القادمة، يا ببيرت..

— كثيراً ما يُقتل أشخاص هنا؟» علق ببيرت أيضاً

تجاوزت غباره قليلاً، ولكن عربة الكناسة التابعة للبلدية كانت تمر، في
تلك اللحظة بالذات، وهي تطلق أزيزاً حاداً، مثيرة إعصاراً هائلاً من الغبار،
مندفعاً بقوة على هيئة سيول، ليغمر الشارع بكامله بسحب أخرى أيضاً، أشد
كثافة، سحباً كالفلفل، لم نعد نرى بعضنا. كان ببيرت يثب يميناً وشمالاً،
عاطساً وعاوياً، جذلاً، رأسه المطوق بالغبار، شعره الدبق، ساقاه اللتان
تشبهان ساقَي قرد هزيل، كل ذلك كان يرقص بتشنج، خلف المكينة.

عادت عمة ببيرت من أعمال خدمتها. تناولت كأساً صغيراً من

الشراب، ينبغي القول أيضاً بأنها كانت تفوح قليلاً برائحة الإيتير، وهي عادة

أدمنتها منذ أن كانت تعمل خادمة عند طبيب، وكانت تشكو كثيراً من أضرار العقل، لم يبق في فمها سوى سنين من الأمام، ولكنها لم تكن تتوقف عن تنظيفها بالفرشاة «حينما يعمل المرء مثلي، في عيادة طبيب فإنه يتعلم القواعد الصحية» كانت تعطي استشارات طبية لسكان الجوار، بل وحتى أبعد من ذلك، حتى حدود بيزون.

كان يثير اهتمامي معرفة ما إذا كانت عمّة بيبرت تفكر في بعض الأحيان بشيء ما، لا، لم تكن تفكر في شيء، كانت تثرثر كثيراً دون أن تفكر إطلاقاً، وحينما نكون وحيدين دونما متطفلين حولنا، كانت تقدم لي بدورها، نصيحة طبية، كان ذلك يداعب غرورها بمعنى ما.

«بيبرت، دكتور، ينبغي أن أقول لك، لأنك طبيب. إنه وغد صغير.. إنه «يلعب بعضوه» لقد لاحظت ذلك منذ شهرين وتساءلت، من الذي أمكنه أن يعلمه هذه القدرات. لقد ربيته أنا أفضل تربية، وقد منعته من ذلك، ولكنه يعود إليها من جديد.

— قولي له بأنه سيغدو مجنوناً» نصحتها حسب الطريقة التقليدية

كان بيبرت يسمعنا، لم يكن سعيداً.

— لم ألمس أعضائي، ليس هذا صحيحاً. إنه الولد غاغات الذي اقترح علي ذلك.

— انظر، لقد كنت أرتاب به، إنه الولد الخامس في عائلة غاغات، أنت تعلم، إنهم جميعاً فاسقون، الجد كان يجري وراء الخادמות، أسألك يا دكتور هل توجد أدوية مثبتة لذلك؟ قل لي يا دكتور، طالما أنت موجود هنا، هل يمكنك أن تصف له شراباً لمنعه من ممارسة ذلك؟»

تبعته إلى حجرتها كي أصف للغلام شراباً مضاداً للرزيلة! كنت مسائراً
جداً للناس جميعاً، أعلم هذا جيداً. وما من أحد كان يدفع لي، كنت أنظر في
العيون، من قبيل الفضول على الأخص، وهذا خطأ، فالناس ينتقمون من
الخدمات التي تقدمها لهم مجاناً. استفادت عمّة ببيرت مثل الآخرين من ترفعي
المتغطرس، بل إنها تجاوزت الحد بقذارة، كنت أستسلم للذهاب معهم، للكذب،
كنت أتبعهم كظل، كان مرضاي هؤلاء يمسون بي يتباكون أمامي، كل يوم
أكثر من سابقه، كانوا يقودونني كألعوبة في أيديهم، ويكشفون لي في الوقت
ذاته، عن كل ما كانوا يخفونه داخل مخزن روحهم من قبائح وشناعات، مما
لا يكشفونه لأحد آخر سواي، لم يكن هؤلاء القبيحون يدفعون لي إلا أقل
القليل. كانوا ينسلون فقط من بين أصابعك مثل أفاع لزجة.

كنت أحدث نفسي النهار بطوله، فيما إن كنت قادراً على العيش ما
يكفي من الزمن كي أروي كل شيء.

«حذار أيها الأندال. دعوني أظل رقيقاً عطوفاً بضع سنوات، لا تقتلوني
مزيداً من القتل، وعلى الرغم من أنني أظهر بمظهر الخانع الأعزل. سأروي
كل شيء، وأكد لكم ذلك، ستتلون حينئذ مثل يساريع الفراش القذرة، في
أفريقيا، والتي كانت تطلق رائحتها الخائفة في كوشي، وسأجعلكم أكثر خسة
وأشد قذارة أيضاً، لعل ذلك أن يهلككم في النهاية.

«هل هو محلى بالسكر، سألني ببيرت بشأن الشراب

— لا تحلّه له بالسكر، إنه لا يستحق أن يكون شرابه محلى بالسكر، لقد
سرق مني ما يكفي من السكر، إنه يحمل كل العيوب، وكل الوقاحات، سينتهي
إلى قتل أمه!

— ليس لي أم، رد ببيرت، وقد طاش صوابه.

— خراء، صاحت العمّة، سأجلدك بالسوط إن رددت علي»

ثم ذهبت لتفك السوط، ولكنه كان قد انسل سريعاً إلى الشارع. «فاجرة»
صاح بها وسط الممر، احمرت العمة خجلاً، وعادت إلي. صممت قليلاً، ثم
غيرت دفة الحديث.

«ربما سيكون من الضروري، يا دكتور أن تذهب لمعاينة السيدة
المقيمة في الطابق فوق الأرضي، رقم ٤ في شارع مينور، إنه منزل موظف
قديم في توثيق العقود. حدثته عنك سابقاً.. قلت له بأنك تعامل مرضاك
بمنتهى اللطف والرفقة..»

كنت أعلم على الفور، بأن العمة كانت تكذب، لأن طبيبها المفضل كان
فروليشون، فهو الذي كانت توصي بالذهاب إليه دائماً حين يسعها ذلك، أما أنا
فكانت، على العكس من ذلك، تغتابني وتتلبني في كل مناسبة. مغالاتي في
الإنسانية كانت تقابل من جانبها بحقد حيواني. إنها حيوان، ينبغي عدم نسيان
ذلك، أما فروليشون الذي يعجبها فكان فقط يجعلها تدفع نقداً، في حين أنها
كانت تستشيرني، على الواقف وبسرعة، ولكي توصي بي ينبغي إذن أن
يكون هناك معاينة مجانية أيضاً، أو قضية قدرة مشبوهة للغاية.. وفيما أنا
منصرف كنت أفكر ببيرت.

«ينبغي أن تخرجي به خارج البيت. فهذا الولد لا يخرج كفاية
— أين تريدنا أن نذهب نحن الاثنين؟ لا يمكنني الذهاب بعيداً مع كوشي
هذا..»

— اذهبي معه إلى الحديقة على الأقل، يوم الأحد
— ولكن الحديقة تعج بالناس والغبار أكثر مما يوجد هنا، الناس فوق
بعضهم بعضاً.

كانت ملاحظتها في محلها، فكرت بمكان آخر أنصحها به.

وبشيء من الوجل اقترحت عليها المقبرة.

كانت مقبرة غارين رانسي المكان الوحيد المشجر في المنطقة، والممتد

على مساحة واسعة

«عجباً، هذا صحيح، لم أكن أفكر به، يمكننا فعلاً الذهاب إلى هناك

عاد بيبيرت في تلك اللحظة ذاتها

«وأنت يا بيبيرت، ألا يعجبك الذهاب للتنزه في المقبرة. ينبغي أن أسأله،

يا دكتور، لأنه، بخصوص النزاهات، له رأس خنزير حقيقي لا بد من أن أنبهك

إلى ذلك..»

لم يوافق بيبيرت أبداً، ولكن الفكرة راقت للعممة، وهذا كاف، كانت العممة

تحس بالضعف تجاه المقابر، على شاكلة كل الباريسييين. لقد بدأت أخيراً، كما

يبدو، تفكر في هذا الأمر، وتدرس الإيجابيات والسلبيات، التحصينات القديمة،

سوقية جداً.. والحديقة تعج فعلاً بالغبار.. في حين أن المقبرة، ليست سيئة،

هذا صحيح.. ومن ثم فإن الأشخاص الذين يأتون إلى المقبرة يوم الأحد.

أشخاص محترمون بالأحرى، إضافة إلى ذلك، فإنه لمن المريح جداً أنها

تستطيع لدى عودتها القيام بأعمال تسليم الطلبات أثناء مرورها في شارع

ليبيرتي، حيث المخازن ما تزال مفتوحة يوم الأحد.

أنهت العممة الحديث قائلة: «هيا يا بيبيرت، رافق الدكتور إلى منزل

السيدة هنروي، شارع المينور، أنت تعرف أين تسكن السيدة هنروي، أليس

كذلك يا بيبيرت.

كان بيبيرت يعرف كل شيء شرط أن تتاح له فرصة التطواف والتنزه.



<< بين شارع فانثرو وساحة لينين، قلما كان هناك مساكن معدة للإيجار، فقد استولى المتعهدون تقريباً على كل ما بقي هناك من أراضٍ زراعية، من أراضي الغارين، كما كانوا يسمونها، ولم يبق منها في الأطراف تقريباً سوى مساحة صغيرة جداً من أراضٍ بور تقع بعد مصباح الغاز الأخير.

أمام زحف العمارات، ما تزال بضعة دور صامدة، تتعفن بهدوء، محاصرة من كل اتجاه، يقيم فيها بعض أرباب المعاشات من الذين ظلوا هناك.. كان ثمة دار من بين تلك الدور، مؤلفة من أربع غرف وموقد ضخم، في بهو الطابق السفلي، لا يكاد سكان البيت يشعلون النار فيه، من أجل التوفير، كان ينفث الأدخنة وسط الرطوبة.. ما أن تدخل إلى تلك الدار حتى تبدأ في السعال بسبب الدخان، لم يكن سكان المنزل من أرباب المعاشات الأغنياء الذين ظلوا مقيمين هنا، لا، وعلى الأخص عائلة هنروي. التي أرسلتني العمة إليهم، ومع ذلك فقد كان هؤلاء الناس يملكون شيئاً ما صغيراً. حينما تدخل إلى بيت هنروي تصدمك على الفور روائح المراحيض والمجاري، بالإضافة إلى سحب الدخان.. كان الزوجان قد أنتهيا للتو من تسديد ثمنه. كان بيتهم حصيلة خمسين عاماً من التوفير، ولكنك ما إن تصبح داخل البيت. وترى الزوجين هنروي حتى تتسائل، ما عسى أن يكون لدى هذين الزوجين كليهما؟ إيه، حسناً، إن ما لدى الزوجين هنروي شيء خارق وغير طبيعي، فهما لم ينفقا قط طوال خمسين عاماً قرشاً واحداً على نفسيهما

من غير أن يتأسفا عليه أشد الأسف، فبلحهما وعقلهما كانا قد ملكا منزلهما، على غرار الحلزون، ولكن الحلزون يفعل ذلك دون أن يتشكك فيما يفعله. أما الزوجان هنروي، فلم يصدقا أنهما أمضيا كل حياتهما، من أجل امتلاك بيت فقط، كانت حالهما حال من خرج من السجن للتو، فأدهشه ذلك كل الدهش. ولا بد لمن يخرج من زنزانة مظلمة من أن يبدو في هيئة عجيبة. منذ ما قبل زواجهما كان آل هنروي يفكران في شراء منزل. منفصلين في البداية، ثم مجتمعين معاً فيما بعد. رفض الزوجان أن يفكرا في شيء آخر طوال نصف قرن. وحينما أُجبرتهما الحياة على أن يفكرا في شيء آخر، في الحرب، على سبيل المثال، أو في أولادهما، فقد جعلهما ذلك مريضين كلياً. حينما أقاما في دارهما، وهما زوجان شابان، مع عشر سنوات من التوفير لكل منهما، لم تكن الدار مكتملة تماماً، كانت تقع وسط الحقول.. ومن أجل الوصول إليها، في الشتاء، كان عليهما أن ينتعلا القباقيب، كانا يتركانها عند بائع الفاكهة، في زاوية شارع ريفولت حينما يذهبان صباحاً إلى عملهما في الساعة السادسة، كانا ينطلقان من محطة العربات إلى باريس، على بعد ثلاثة كيلو مترات وبقرشين اثنين.

كل ذلك كان يدل على تمتعهما بصحة جيدة، بمحافظتهما طوال حياة بكاملها على مثل هذا النظام. كانت صورتها الفوتوغرافية معلقة فوق السرير في الطابق الأول، تظهرهما في يوم عرسهما. غرفة النوم أيضاً كان قد سدد ثمنها منذ زمن طويل، وكذلك الأثاث، كانت جميع الفواتير المدفوعة منذ عشر سنوات، عشرين سنة، أربعين، مشبوكة معاً. بدبوس داخل درج من الأدراج، أما دفتر الحسابات اليومية فكان في الطابق الأرضي في صالة الطعام التي لم يكونوا يأكلون فيها أبداً. كان الزوج هنروي يكشف لك عن كل حساباته إذا

شئت، وفي أيام السبت كان هو الذي يسوي الحسابات في صالة الطعام. كان آل هنروي يأكلون دوماً في المطبخ.

علمت كل ذلك، شيئاً فشيئاً، منهم هم ومن آخرين، ثم من عمّة ببيرت، وحينما توثقت معرفتي بهم حدثوني. هم أنفسهم عن خوفهم الكبير، الخوف الذي يملأ حياتهم بأكملها، الخوف من أن ابنهم، الوحيد الذي كان يعمل في التجارة قد تبور تجارته. خلال ثلاثين عاماً كانت تلك الفكرة الرهيبة توقظهم من نومهم، كل ليلة تقريباً، قليلاً أو كثيراً، كان ذلك الابن يعمل في تجارة ريش الطيور. وكان الأبوان يفكران طوال ثلاثين عاماً، فيما إن كانت الأزمات الاقتصادية ستصيب الريش مثلما أصابت غيره! ليس هناك مهنة. ربما، أسوأ من مهنة الريش. وأقل ثباتاً كما يقولون.

ثمة أعمال تجارية شهدت انهياراً شديداً، بحيث لم يفكر أحد باقتراض المال من أجل تعويمها، ولكن هناك أعمالاً أخرى كان يجري الحديث دائماً بشأن ضرورة الاقتراض، أكثر أو أقل لتعزيز وضعها في السوق. وحينما كان الزوجان هنروي يفكران بالاقتراض على هذا النحو.. ويفكران أيضاً بمنزلهما الحالي الذي سدّدت أقساطه، وبكل شيء، كانا ينهضان من مقعديهما، وينظران إلى بعضهما وقد اعتراهما الاحمرار.. ما الذي سيفعلانه في مثل هذه الحالة؟ سيرفضان.

كانا قد قررا باستمرار أن يرفضا اقتراض أي مبلغ.. انسجاماً مع مبادئهما، من أجل أن يحتفظا لابنهما ببعض الوفر، بإرث، بمنزل. على هذا النحو كانا يحاكيان الأمور. كان ابنهما متعلقاً رصيناً بالتأكيد، ولكنه معرض مع ذلك، للضياع، في أعماله التجارية..

لو سئلت أنا، حول كل ذلك، لقلت بأنني كنت أجد الجميع مثل الزوجين هنروي. أمي، أيضاً كانت تعمل في التجارة، لم تكن تصيب قط من تجارتها سوى البؤس والإملاق، قليل من الخبز وكثير من الضجر، لم أكن أحب الأعمال التجارية إذن، فالخطر الذي كان يحيق بهذا الابن، والمجازفة بقرض كان لا بد منه ربما، عند الضرورة، في لحظة الاستحقاقات الخطرة، كل ذلك كنت أفهمه حق الفهم، ولا ضرورة لشرحه لي، كان الأب هنروي قد عمل موظفاً صغيراً لدى كاتب العدل في شارع سيباستبول طوال خمسين عاماً. كان قد عرف أيضاً حكايات عن تبديد الثروة، وروى لي أيضاً بعضاً منها شهيرة. قصة والده في البداية، فبسبب إفلاس والده حرم هنروي من التقدم للحصول على رتبة الإستاذية بعد البكالوريا، وتعين عليه أن ينخرط، على الفور في الأعمال الكتابية، كان هنروي يتذكر تلك الأشياء.

أخيراً، فإن منزلهما الذي سدنت كافة أفساطه، وصار ملكاً لهما بالكامل، لم يستدينا من أجله قرشاً واحداً، ولم يكن عليهما قط أن يشعرا بالقلق وعدم الأمان، كانا آنذاك في السنتين من عمرهما.

ولكن ها هو ذا الأب يبدأ الآن بالشعور بتوعك لم يألفه من قبل، أو بالأحرى كان يستشعر هذا النوع من التوعك منذ أمد طويل، ولكنه لم يكن يفكر فيه سابقاً، بسبب المنزل والأفساط المترتبة عليه. وحينما تم تسديد حساب البيت، وسويت على نحو محكم مسألة شرائه، وثبتت التواقيع. بدأ يفكر بتوعكه الغريب، واستولت عليه حالة من الذهول، وصغير كصغير البخار داخل كل إذن من أذنيه.

منذ تلك اللحظة بدأ أيضاً يشتري الصحيفة، ما دام قد صار بوسعه منذ الآن أن يدفع ثمنها، كل ما كان يستشعره هنروي داخل أذنيه كان مكتوباً

وموصوفاً على صفحات الصحيفة. اشترى حينئذ الدواء الذي كانوا ينصحون به في إعلان الصحيفة، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من توعكه وانحراف صحته. على عكس ذلك تماماً، فقد بدا وكأن الدواء كان يزيد الصغير في أذنيه أيضاً، أو ربما كان يجعله يفكر أكثر بهذا الصغير. ومع ذلك، فقد استشار الزوجان معاً الطبيب، طبيب المستوصف. «إنه ارتفاع الضغط الشرياني» قال لهما الطبيب.

صدمته هذه الكلمة، غير أن ذلك الوسواس في الواقع، وصل إليه في وقته تماماً.. فلفرط ما انتابه القلق طوال سنين، بسبب البيت والديون المستحقة على ابنه، ظهر الآن لديه فجأة حيز فارغ في نسيج القلق الذي كان يمسك بتلابيبه، منذ أربعين عاماً، من جراء الأقساط المستحقة، وفي قلب حماسته الوجلة الدائمة ذاتها.. أما وقد تحدث إليه الطبيب عن ضغطه الشرياني فقد شرع ينصت الآن إلى ضغطه، يقرع في أذنه، وفي أعماق أذنه. كان ينهض ليحرب قواه، ثم يظل بعد ذلك هامداً قرب سريره، طوال الليل، وقتاً طويلاً، يشعر بجسده وهو يرتج رجات صغيرة رخوة، في كل مرة كان قلبه ينبض فيها، كان ذلك موته. هذا ما كان يقوله. لقد انتابه دوماً خوف من الحياة، أما الآن فكان خوفه يتعلق بشيء ما، بالموت، بضغط دمه. كان ذلك الخوف يرتبط خلال أربعين عاماً، بشيء آخر، بالخطر الذي سيدهمه إذا عجز عن الانتهاء من سداد ثمن المنزل.

كان تعيساً دوماً، ولكن كان ينبغي، مع ذلك بأن يسارع إلى إيجاد مسوغ جديد كي يكون تعيساً. ليس ببساطة، بأن يظهر ذلك على ملامحه، ليس المهم أن يقول: «أنا تعيس» بل ينبغي أيضاً أن يشعر بالتعاسة داخل نفسه. أن يقتنع تمام الاقتناع بأنه تعيس. لم يكن يطلب أكثر من ذلك. أن

يعطي لخوفه الذي يشعر به سبباً حقيقياً قوياً جداً، ومقبولاً جداً. كان ضغطه قد بلغ ٢٢. بحسب كلام الطبيب، وهذا الـ٢٢ شيء، وأي شيء! كان الطبيب قد علمه العثور على الطريق المؤدي إلى موته..

الابن الشهير الرياش، لم يكن يراه أحد تقريباً، مرة أو مرتين في يوم رأس السنة، كان هذا كل شيء، أما الآن فلم يعد بوسع الرياش القدوم إلى منزل أهله ليس ثمة ما يقترضه البابا والماما، وإذن فإن الابن لم يعد يأتي البتة، تقريباً.

أما السيدة هنروي، فقد كنت في حاجة إلى زمن أطول كي أتعرف عليها. لم تكن تشكو أبداً من أي قلق، وحتى من قلق موتها الذي لم تكن تتخيله. كانت تتذمر فقط من عمرها، ولكن دون أن تفكر به حقاً. بل كي تفعل مثلما يفعل جميع الناس، وتتذمر أيضاً، من أن تكاليف الحياة «كانت ترتفع». كان عملها الكبير قد أنجز. المنزل المسدّد الأقساط، ولكي تنتهي بسرعة من كيميالاتها الأخيرة، بدأت في تركيب أزرار على صدارات، لحساب مخزن كبير. «ما يلزمني خياطته من أجل مئة قرش، هذا لا يصدق».

كانت جدران المنزل تظل جافة فيما مضى، حينما كانت التيارات الهوائية ما تزال تتحرك حولها، أما الآن وبعد أن أحاطتها العمارات الشاهقة المعدة للإيجار، فقد صارت تسح كلها بالرطوبة، وحتى الستائر، فقد تبقت ببقع رطبة عفنة.

حينما غدا المنزل ملكاً لآل هنروي ظهرت السيدة هنروي باسمه طوال الشهر الذي أعقب ذلك. كاملة، مفتونة، مثل امرأة ورعة بعد تناول القربان. وهي نفسها التي اقترحت على هنروي: «جول، أنت تعلم، سنشتري منذ الآن الصحيفة كل يوم، صار باستطاعتنا ذلك..» هكذا، بدأت تفكر في ذاتها،

وتلقت إلى زوجها، ومن ثم فقد نظرت إلى ما حولها، وأخيراً فكرت في أم زوجها، حماتها هنروي، وحينذاك عادت الابنة رصينة من جديد، على نحو مفاجئ، مثلما كانت سابقاً يوم انتهت من تسديد أقساط البيت. هكذا، بدأ كل شيء مع تلك الفكرة التي طرأت لها، فقد كان ما يزال هناك فرصة للقيام بتوفيرات من خلال أم زوجها، تلك العجوز، التي لم يكن يجري الحديث عنها، غالباً داخل الأسرة، ولا إلى أحد خارجها.

في عمق الحديقة داخل السور كانت العجوز الأم هنروي، حيث تراكمت المكناس القديمة، وأقفاص الدجاج العتيقة، وسائر ظلال العمارات المحيطة بالمنزل. كانت تقيم في كوخ وطيء، لا تخرج منه مطلقاً تقريباً. كان ذلك يخلق قصصاً يطول شرحها، من أجل إدخال الطعام لها.. لم تكن تريد أن تسمح لأحد بالدخول إلى خلوتها، ولا حتى ابنها، كانت تخاف أن يقتلها، كما كانت تقول.

حينما خطرت للكنة فكرة الشروع بتوفيرات جديدة، لامستها في البداية بوضع كلمات مع زوجها، كي تسبر نواياه، لترى ما إذا كان من الممكن إدخال عجوزته مثلاً إلى دار العجزة التي يشرف عليها أخوات القديس فنسان، أولئك الفتيات المتدينات اللواتي نذرن أنفسهن لرعاية أولئك العجائز البائسات داخل ذلك المأوى، لم يجب الابن لا بنعم ولا بلا. كان ثمة شيء آخر يشغله في تلك اللحظة ألا وهو ذلك الطنين الذي لا يتوقف داخل أذنه، فلفرط ما كان يفكر بهذا الطنين، ولفرط ما كان ينصت إليه، توصل إلى قناعة بأن هذا الطنين الكريه سيحرمه من الرقاد. كان ينصت إليه، في الواقع بدل أن ينام، إلى تلك الصفرات، تلك الطبول، ذلك الهدير، كان ذلك عذاباً جديداً، يقض مضجعه طيلة النهار والليل، كان يسكن في داخله كل ضجيج الكون.

شيئاً فشيئاً، مع ذلك، وبعد شهر مرت على هذا النحو تأكل قلقه، وبدأ يتلاشى مع مرور الأيام. ولم يبق منه ما يشغله ويؤرقه. فالتفت حينئذ إلى سوق سانت أوين هو وزوجته، كان ذلك السوق، بحسب ما يقال، أكثر الأسواق رخصاً وتوفيراً في الجوار. صار الزوجان يذهبان كل صباح، وفي كل الأيام، إلى ذلك السوق يتبادلان الملاحظات حول أسعار المواد وحول التوفيرات التي كان بوسعهما تحقيقها ربما، بشراء هذا بدل ذلك.. وحين تفرع الساعة الحادية عشرة ليلاً، في منزلهما كان الخوف يستولي عليهما من أن يقتلها أحد. كان ذلك خوفاً معتاداً. ولكن خوفه هو كان أقل من خوف زوجته، فقد كانت تشغله، بالأحرى تلك الضجة في أذنيه والتي كان يعود إلى التعلق بها، بياس شديد، في تلك الساعة من الليل، حينما كانت تهدأ حركة الشارع ويعم الصمت من حوله. «مع هذه الضجة لن أعرف طعم النوم أبداً». كان يكرر بصوت عال كي يقلق مزيداً من القلق. «ليس بوسعك أن تتخيلي!».

غير أنها لم تكن تحاول قط أن تسمع ما كان يريد قوله، ولا أن تتخيل ما كان يزعه من ضجيج أذنيه. «أنت تسمعي جيداً، مع ذلك» سألته.

— نعم، أجابها هنروي

— حسناً، هذا جيد الآن.. ستحسن صنعاً إن أن تفكر بأمرك التي تكلفنا غالباً، فيما تتضاعف تكاليف الحياة كل يوم.. كذلك فإن كوخها غدا بالغ النتانة.

كانت خادمة المنزل تمر بهما ثلاث ساعات في الأسبوع. من أجل الغسيل. تلك هي الزيارة الوحيدة التي كانوا يتلقونها منذ سنوات عديدة. كانت الخادمة تساعد السيدة هنروي في ترتيب سريرها.. ولكي تشجع الخادمة على

أن تردد أمام الجيران ما تسمعه منها، في كل مرة تقلبان فيها معاً، وجوه الفراش، كانت السيدة هنروي من باب التوضيح والحيطة تعلن بأعلى ما يمكنها من نبرة صوتها «ليس لدينا على الإطلاق نقود في المنزل»، من أجل تثبيط عزيمة اللصوص والقنلة المحتملين.

قبل ان يصعدا إلى غرفة نومهما.. معاً، كانا يغلقان بعناية شديدة كافة المداخل، أحدهما يراقب الآخر، ثم يذهبان ليلقيا نظرة على كوخ الحماية، في نهاية الحديقة، كي يريا فيما إذا كان مصباحها ما يزال مضاء، تلك كانت علامة على أنها ما تزال على قيد الحياة. كانت العجوز تستهلك كثيراً من الزيت، فهي لم تكن تطفئ مصباحها أبداً.. كانت تخشى من القنلة أيضاً، وتخشى من ولديها، في الوقت ذاته. منذ عشرين عاماً، عاشتها هنا لم تفتح نوافذها، لا في الشتاء، ولا في الصيف، ولم تطفئ مصباحها على الإطلاق.

كان الابن يحتفظ عنده بنقود أمه، مداخل ضئيلة، كان يتعهدا كأمانة لديه. كانا يضعان وجبات طعامها أمام بابها، ويحتفظان بنقودها، كانت الأمور تجري على هذا النحو. ولكنها كانت تشكو من تلك الترتيبات المختلفة. ليس فقط من ذلك، بل من كل شيء، ومن خلال بابها كانت تشتم كل من يقترب من كوخها. «ليست غلطتي إن كنت قد هرمت يا حماتي، كانت الكنة تحاول أن تفاوضها، لديك من الأوجاع مثلما لدى كل الناس المسنين..

— أنت الهرمة! أيتها النذلة الصغيرة، أيتها الساقطة، أنت التي ستقضين علي بأكاذيبك القذرة.

كانت الأم هنروي تنكر الشيوخة بهياج جنوني، وتتصدى عبر بابها، على نحو لا يقبل المصالحة، لكوارث العالم بأجمعه، كانت ترفض الاحتكاك بأحد، وترفض القدر، والخضوع للحياة في الخارج. باعتبار أن كل هذا غش

وتضليل، لم تكن ترغب بأن تسمع أي شيء عن كل ذلك. «إنها خداع وأضاليل» كانت تعوي على هذا النحو. وأنت نفسك التي اختلقتها».

كانت تدافع عن نفسها بضراوة، إزاء كل ما كان يجري خارج كوخها، وإزاء جميع الإغراءات بالاقتراب منها وبمصالحتها أيضاً.. كانت متيقنة بأنها إذا ما فتحت بابها، فإن قوى الشر ستندفع إلى داخل كوخها وتستحوذ عليها، وستكون تلك نهايتها مرة واحدة وإلى الأبد. -

«إنهم ما كرون اليوم، كانت تصرخ، لديهم عيون في كل مكان حول رؤوسهم، وحول أشداقهم، حتى فتحة مؤخرتهم، وعيون أخرى في كل مكان أيضاً، كي يكدبوا.. إنهم هكذا..».

كانت تتكلم بغزارة مثلما كانت قد تدربت على الكلام في باريس. في سوق تامبل، حينما كانت تعمل لكسب رزقها مع أمها أيام صباها. لقد جاءت من زمن لم يتعلم فيه الفقراء بعد، أن يولوا أية أهمية للشيخوخة..

«أريد أن أعمل إن لم ترغبني بإعطائي نقودي، كانت تصرخ بكنتها، هل تسمعين ما أقول أيتها النصابة، أريد أن أعمل!
- ولكن لم يعد باستطاعتك ذلك، أيتها الجدة.

- آه، لم أعد أستطيع! جربي إذن أن تدخلني إلى جحري لتري، سأريك إن كنت لم أعد أستطيع!».

وكانا يتركانها مرة أخرى داخل خلوتها التي تحرسها. كانا يريدان مع ذلك، بكل الوسائل أن يجعلاني أرى العجوز. لقد جاؤوا بي من أجل ذلك، من أجل أن تستقبلنا في غرفتها. كانت تلك مكيدة فريدة. ثم إنني، وباختصار، لم أكن أتبين بوضوح ما الذي يريدانه مني. كانت حاجبة العمارة، عمه بيبرت هي التي رددت أمامهما مراراً بأنني كنت طبيباً لطيفاً جداً، محبباً جداً، مسائراً

للغاية.. كانا يريدان أن يعرفا، إن كان بمقدوري أن أجعل عجوزتهما تمكث هادئة عن طريق الأدوية فقط، غير أن ما كانا يرغبان به أكثر، في الواقع «وعلى الأخص الكنة» هو أن أعمل على احتجاز العجوز في ملجأ العجزة، احتجازاً نهائياً. حينما قرعنا على بابها مدة نصف ساعة بالكامل، انتهت العجوز إلى أن تفتحه دفعة واحدة. وإذ بها تقف أمامي، بعينيها المحاطتين بمصال وردّي، غير أن نظرتها كان تتراقص مرحة مع ذلك فوق وجنتيها المجدنتين والرماديتين، نظرة تستخوذ على اهتمامك، وتجعلك تنسى ما عداها، لفرط ما تعكسه من مرح طلق على الرغم منها، وتسعى إلى أن تستجمع ما في داخلها، بنحو فطري، من شباب.

كانت تلك النظرة المرحة تبعث الحيوية في كل ما حولها، داخل الظل المعتم.. تمده بمرح فتي، ببشاشة خفيفة، ولكنها صافية، ببشاشة لم نعد نعهدها فينا منذ أمد بعيد. كان صوتها المتقطع وهي تزعق، يستعيد طروباً الكلمات، حينما ترغب في أن تتكلم مثلما يتكلم الناس، ويجعل الجمل والأمثال. تنط أمامك، وتلعب وتتقافز حبة بطريقة مضحكة، مثلما يتفق للناس أن يفعلوا ذلك بصوتهم وبالأشياء التي حولهم حينما لا يعرفون بعد كيف يتدبرون أمرهم في التحدث والغناء بمهارة فيعرفون بين الناس على أنهم حمقى، أو خجولون أو مرضى.

كان العمر يكسوها، على غرار شجرة عجوز مرتعشة، بأغصان راقصة مياسة.

كانت العجوز هنروي جذلة! مستاءة، ووسخة هذا صحيح، ولكنها جذلة.. تلك الفاقة التي كانت تعيش داخلها منذ عشرين عاماً لم تترك أثراً على روحها. كان جزعها على العكس، ينبع من مواجهتها للخارج، كما لو أن

البرد المريع والموت لم يكونا يأتيانها إلا من هناك، وليس من الداخل. من الداخل لم يكن يبدو عليها أي رهبة. كانت تبدو بكل تأكيد واثقة من رأسها، مثل شيء يقيني لا مرء فيه، مرة واحدة وإلى الأبد.

وأنا، الذي كنت أعدو وأعدو خلف رأسي، وحول العالم بأسره أيضاً. «مجنونة» كانوا يقولون عنها، تلك كلمة تقال سريعاً، «مجنونة». إنها لم تخرج من عزلتها أكثر من ثلاث مرات خلال اثنتي عشرة سنة. هذا كل شيء. ربما كان لديها أسبابها. وهي لن تقولها لنا..

عادت كنتها إلى مشروعها بإيداع العجوز في الملجأ «ألا تصدق يا دكتور بأنها مجنونة؟ لم يعد ثمة وسيلة لإخراجها.. هذا سيفيدها مع ذلك، من وقت إلى آخر.. ولكن بلى أيتها الجدة، فهذا يفيدك.. لا تقولي لا.. فهذا يفيدك.. أنا أؤكد لك» كانت العجوز تهز رأسها، منغلقة على داخلها، عنيدة، متوحشة، في حين أنهم كانوا يدعونها إلى الخروج، هكذا..

«إنها لا تريد أن نهتم بها، إنها تفضل أن تظل في الزوايا المظلمة، البرد شديد عندها، وليس ثمة نار.. ليس من الممكن، أن تظل هكذا! أليس كذلك يا دكتور، هذا ليس ممكناً.

لم أكن أعرف كيف سأتصرف إزاء ذلك، كان هنروي يظل قابلاً بالقرب من الموقد. كان يفضل أن لا يعرف، بالتحديد ما يحاك بين زوجته وأمه وبينني.

كانت العجوز تستشيط غضباً من جديد.

«أعيدي إلي إذن كل ما كنت أملكه، وبعدها سأخرج من هنا!.. لدي ما يكفل لي العيش.. ولن تعودي تسمعي عني شيئاً، بالمرّة.

— ما يكفل لك العيش؟ ولكن أيتها الجدة.. لن تعيشي بألافك الثلاثة من الفرنكات في السنة. تكاليف الحياة تضاعفت منذ آخر مرة خرجت فيها أليس كذلك يا دكتور، سيكون من الأفضل بان تذهب إلى ملجأ الأخوات مثلما نقول لها، وستهتم بها الأخوات على أحسن وجه. إنهن لطيفات.. الأخوات..».

ولكن احتمال ذهابها إلى ملجأ الأخوات كان يسبب لها الهلع.

«إلى ملجأ الأخوات؟ إلى ملجأ الأخوات؟ عارضت العجوز على الفور. لن تطأ قدمي يوماً من الأيام ملجأ الأخوات، لن أذهب إلى الخوري حينما تكونين أنت هناك. هه؟ إذا لم يكن لدي ما يكفي من المال كما تقولين. إيه حسناً، سأذهب للعمل أيضاً».

— تعملين؟ أيتها الجدة! ولكن أين تعملين؟ آه! دكتور! اسمع هذه الفكرة، تريد أن تعمل!! في سنها، في الثمانين، عما قريب، هذا جنون، دكتور! من الذي ينتظر منها ذلك؟ ولكن ايتها الجدة أنت مجنونة.

— مجنونة! ما من شخص مجنون! في أي مكان سواك، أنت المجنونة بالتأكيد! أيتها الخرية.

— اسمعها الآن يا دكتور. اسمعها وهي تهذي وتشتمني! كيف تريد منا أن نبقها هنا؟

وجهت العجوز حينئذ سهام غضبها نحوي، أنا، الخطر الجديد الذي يتهددها.

— ما الذي يعرفه هذا إن كنت مجنونة؟ هل هو داخل رأسي؟ أم أنه عرف ذلك من داخل رأسك؟ ينبغي أن يكون هناك حتى يعرف. أغربا عن وجهي كلاكما! انصرفا من أمامي! أنتما أشد خبثاً، من الشتاء بشهوره الستة،

أذهباً إذن لتريا ولدي بدلاً من أن تبقى هنا تنفتان السموم! إنه في حاجة إلى طبيب أكثر مما أحتاج أنا، ذلك الذي لم يعد لديه أسنان، والذي كانت له أسنان جميلة جداً حينما كنت أعنتي به، انصرفاً، انصرفاً، أقول لكما! أغرباً عن وجهي كلاكما. وصفقت الباب في وجهينا.

كانت ما تزال تراقبنا من خلف مصباحها ونحن نبتعد عبر الفناء. وحينما اجتزناه، وصرنا بعيدين بما يكفي عادت إلى مرحها وضحكها، لقد دافعت عن نفسها بحمية.

لدى عودتنا من هذه الغارة المزعجة، كان هنروي ما يزال جالساً بالقرب من الموقد مديراً لنا ظهره، واصلت زوجته، مع ذلك، مضايقتي بالأسئلة وفي الموضوع ذاته أيضاً، كان لتلك الكنة رأس صغير، مصفر، وماكر. نادراً ما كان مرفقها يفصلان عن جسدها حينما تتكلم، فهي لم تكن تومئ قط أثناء كلامها، كانت حريصة، مع ذلك، على أن لا تذهب هذه الزيارة الطبية سدى أبداً، وأن تتمكن من الاستفادة منها في أي شيء.. فتكاليف الحياة تتزايد، ونفقة حماتها لم تعد تكفي. هما أيضاً كانا يشيخان، على أي حال.. لم يعد بمقدورهما أن يظلا، كما كانا سابقاً قلقين دوماً من أن تموت العجوز منسية، دون عناية.. أن تشعل النار مثلاً في براغيثها وأقدارها.. بدلاً من أن تذهب إلى ملجأ مناسب تلقى فيه العناية اللائقة.

لما أن بدوت مؤيداً لرأيهما، أصبح كلاهما أكثر لطفاً ومودة، ووعداني بأن يثنيا علي في الحي أطيب الثناء.. إذا ما وافقت على مساعدتهما، والعطف عليهما.. وتخليصهما من العجوز.. الشقية جداً، أيضاً في تلك الظروف التي تصر على البقاء فيها..

«ويمكننا كذلك تأجير جناحها» اقترح الزوج فجأة، بعد أن صحا من غفوته.. كانت تلك هي الغلطة التي اقترفها، حين تحدث عن ذلك أمامي. فما كان من زوجته إلا أن هرست قدمه تحت الطاولة، ولم يفهم هو لماذا.

بينما كانا يتساجران، كنت أتخيل ورقة الألف فرنك التي سيمكنني الحصول عليها لقاء كتابتي شهادة الاحتجاز المطلوبة فقط، كانا يبديان حريصين على تلك الشهادة حرصاً شديداً.. عمة بييرت كانت من دون شك قد طمأنتهما من جانبي وحدثتهما بأنه ليس ثمة طبيب في سائر أنحاء رانسي أشد بؤساً وراثية مني، وأني سأفعل كل ما يشتهون.. ليس فروليشون من يعرض عليه مثل هذا العمل. فقد كان هذا إنساناً فاضلاً!..

كنت أقلب هذه الأفكار، حينما اقتحمت العجوز علينا فجأة، الغرفة التي كنا نتأمر فيها. يبدو أنها كانت تشبه بذلك، يا لها من مفاجأة، كانت قد جمعت مزق تنورتها أمام بطنها، وانهالت علينا بالسباب والشتم دفعة واحدة مشمرة عن ساقها، وعلي أنا بصورة خاصة. جاءت من أجل ذلك من عمق فنائها.

«أيها النصاب. توجهت إلي بالشتيمة مباشرة، يمكنك أن تذهب، انصرف من هنا، قلت لك، لا فائدة من بقائك!.. لن أذهب إلى مأوى المجانين!.. ولا إلى مأوى الأخوات أيضاً.. لقد قلت لك ذلك! أنت تحاول عبثاً وتكذب عبثاً. لن تتال مني! أيها المرتشي الصغير!.. هما من سيذهبان قبلي، النذلان، سارقا المرأة العجوز، وأنت أيضاً أيها الحقير. ستذهب إلى السجن، أقول لك، وفي أقرب وقت أيضاً.

من المؤكد، أنني لست محظوظاً! ولو لمرة واحدة، كنت على وشك أن أكسب ألف فرنك دفعة واحدة! وانسحبت على عجل.

في الشارع كانت العجوز ما تزال منحنية فوق أعمدة السور. لا لشيء،
إلا لتشتمني من بعد، في قلب الظلمة التي لذت فيها: «وغدا!.. حقير» كانت
تعوي، وكان صوتها يرن في إثري. أية أمطار كانت تنهمر في تلك اللحظة!
كنت أخب من مصباح إلى مصباح، حتى وصلت إلى مبنولة ساحة الأعياد،
ملجئي الأول.



« في كوخ صغير جداً لا يرتفع كثيراً عن الأرض، وجدت بيبرت. كان قد لجأ إلى داخله ليحتمي من المطر هو أيضاً. كان قد رأيته وأنا خارج من بيت هنروي «أنت قادم من عندهم؟ سألني بيبرت. عليك الآن أن تصعد إلى الناس الذين في الطابق الخامس من العمارة التي نسكنها، من أجل ابنتهم..» تلك الزبونة التي تحدث عنها، كنت أعرفها جيداً، بحوضها الواسع.. وفخذيها الطويلين والمخملين.. كانت رقتها العفوية ودقة حركاتها البالغة الرشاقة هما اللتان تكملان النساء المتناغمات جنسياً. كانت قد جاءت لاستشارتي مرات عديدة، حينما كان الأمل ينشب مخالفه في أحشائها، كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وهي تتوجع الآن بعد إجهاضها الثالث من المضاعفات التي خلفها ذلك الإجهاض، أما عائلتها فكانت تسمى ذلك بالأنيما. كان ينبغي رؤيتها، حينما كانت قوية متينة البنيان، بميلها الجارف إلى المضاجعة، والذي لا تملكه إلا القليلات من الإناث. رصينة في حياتها، متعقلة في مظهرها وتعبيرها، بريئة من أي هستيريا. ولكنها موهوبة جداً، مغذاة أفضل تغذية، متزنة للغاية. بطلة في نوعها، باختصار. مصارعة حسنة في سبيل المتعة، دون أي شائبة تشويها. لا شيء سوى أن الرجال المتزوجين كانوا يعاشرونها، والرجال الخبيرين فقط. الرجال الذين يعرفون كيف يقدرون ويتذوقون النجاحات الطبيعية الباهرة ولا ينظرون إلى أية فاسقة صغيرة على أنها مكسب كبير. جلدها الكامد وبسمتها المتهاللة، ومشيتها الأنيقة، واتساع عجزتيها المهترتين بجزالة أكسبها هذا الولوج العميق الذي تستحقه من قبل بعض مدراء المكاتب الذين كانوا يعرفون مزايها حق المعرفة.

غير أن مدراء المكتب بالتأكيد لم يكن بوسعهم أن يطلقوا زوجاتهم من أجلها، على العكس، فقد كان ذلك سبباً كي يظلوا هانئين داخل أسرهم، وهكذا، وفي كل مرة كان حملها يبلغ شهره الثالث، ولم يكن ذلك يخطئ أبداً، كانت تذهب لرؤية القابلة.

حينما كان يشتد شبقتها ولا تجد زوجاً من أولئك الأزواج تحت يدها فإنها كانت تكف عن المجون.

شقت لي والدتها الباب باحتراس من يتوقع الاغتيال. كانت الأم تتحدث همساً ولكن بقوة وحدة بالغتين بحيث كان ذلك أسوأ من اللعنات.

«ما الذي فعلته مع السماء يا دكتور، حتى يكون لي مثل هذه البنت، آه! أنت على الأقل، لن تقول شيئاً لأي شخص في حيننا، يا دكتور! أنا أثق بك!». لم تكن تكف عن تهيج هلعها، وعن التلمظ بما سيمكن أن يفكر به الجيران والجارات. لقد استبد بها قلق أبله، جعلها تنتفض بقوة، واستمر حالها على هذا المنوال وقتاً طويلاً.

تركتني لحظة أتألف مع غبش الرواق، مع رائحة الكراث من أجل الحساء، مع ورق الجدران، ومع تشجيراته الخرقاء، مع صوتها المخنوق. وأخيراً وصلت إلى سرير الفتاة ترافقني غمغماتها المخنوقة. كانت المريضة منهكة خائفة مشرفة على الهلاك. كنت أريد أن أقصصها، ولكنها كانت قد فقدت دمها كلياً. كان ذلك أشبه بعصيدة مهروسة، بحيث لم يكن بالوسع إطلاقاً رؤية مهبلها، بسبب الدم المتخثر.. كان الدم يصدر «بقبقة» بين ساقها، على غرار عنق الكولونيل المقطوع أثناء الحرب، أعدت كتلة القطن إلى مكانها، ثم رفعت اللحاف فوقها ببساطة.

لم تكن الأم تنظر إلى شيء ولا تسمع أي شيء سوى نفسها «سأموت بسببها، يا دكتور! كانت تولول، سأموت بسببها من العار!» لم أحاول قط

ثنيها عما هي فيه.. لم أكن أعرف ماذا أفعل.. كنت ألمح الأب في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة يروح ويجيء طويلاً وعرضاً، لم يكن مهياً بعد لاتخاذ موقف لمواجهة الظرف. كان ينتظر ربما، أن تتضح الأمور قبل أن يختار هيئة فيظهر فيها.. ظل في نوع من الغموض. تمضي الكائنات الإنسانية من كوميديا إلى أخرى. في غضون ذلك لا تكون المسرحية مخرجة. إنهم لا يتبينون بعد حدودها، فإذا كان دورهم رئيسياً، يهزون أذرعهم، ويطلقون غرائزهم من عقالها، مفعمة بالتشوش.

أخذت الأم الدور الرئيسي بيني وبين ابنتها، كان من الممكن أن ينهار المسرح، لم تعبأ بذلك، لقد وجدت نفسها على المسرح كلياً، حقاً وفعلاً. لم يعد ممكناً سوى الاعتماد على نفسي كي أضع حداً لهذا السحر الملوث بالخراء.

جازفت بنصيحة عابرة بضرورة نقلها فوراً إلى المستشفى لإجراء عملية سريعة لها.

أه! ويحي! لقد قدمت لها حجتها الأقوى، تلك التي كانت تنتظرها. «أي عار! المستشفى: أي عار سينالنا! يا دكتور! لم يكن ينقصنا سوى ذلك. إنه طفاح الكيل!.

لم يعد لدي ما أقوله، جلست إذن، ورحت أصغي إلى الأم وهي ما تزال تتخبط بصخب، غارقة في هذياناتها المأساوية. خزي بلا حدود، غم بلا حدود يوديان بك إلى العجز المطلق. العالم أثقل من أن تتحملة، يا لتعسك! وفيما هي تتضرع وتسترحم السماء والجحيم، وترعد بالويل والثبور. كنت أنكس رأسي خجلاً مرتبكاً. وبينما أنا على هذا الحال، عاجز عن فعل أي شيء، رأيت تحت سرير الفتاة بركة صغيرة من الدماء تتشكل، تسيل منها

ببطء، ساقية رقيقة على امتداد الجدار، صوب الباب. كان الدم يسيل نقطة نقطة من عارضة السرير، على نحو منتظم، تيك تيك، كانت المناشف بين ساقها تطفح بحمرة الدم. سألت مع ذلك بصوت خجول، إذا ما كانت المشيمة قد تم إخراجها كلياً، يدا الفتاة اللتان علا أطرافهما الشحوب والزرقة كانت تمتدان هامدتين على جانبي السرير، كانت الأم أيضاً هي التي أجابت على سؤالي بسيل من النواح المقزز. ولكن أن أستجيب لنواحيها، كان ذلك على كل حال أكثر بكثير من أن أغامر به.

كنت موسوساً إلى أبعد حد، أنا نفسي، ومنذ زمن طويل، بأنني منحوس نكد الطالع. كان نومي سيئاً جداً، لم أعد أكثرث إطلاقاً إزاء هذا الانحراف في سير الأحداث أن تكون النتيجة على هذا النحو أو ذلك. كنت أفكر فقط بأن من الأفضل لي أن أنصت إلى هذه الأم المولولة، جالساً أو واقفاً، ما من شيء مهما بلغت أهميته، يبهجك حينما تغدو مستسلماً تماماً. ثم أية قوة، لن أكون بحاجة إليها، كانت ستوقف هذه الأم المسترسة في اللحظة التي «لم تعد تعرف فيها كيف تنقذ شرف عائلتها» أي دور! ذلك الذي كانت تؤديه، مرة أخرى! فبعد كل إجهاض لابنتها كنت أتعرض من جديد للتجربة. كانت تؤدي الدور على النحو ذاته، متدربة بالطبع على القيام به، بصورة أفضل في كل مرة، كان ذلك يستمر بقدر ما تشاء، وهي، اليوم، تبدو لي مستعدة لأن تضاعف تأثيره عشرة أضعاف.

هي أيضاً، الأم، كنت أفكر، وأنا أنظر إليها، كانت بالتأكيد كائناً جميلاً، مكتنزة باللحم، في زمانها، ولكنها كانت أكثر شفاهية مع ذلك، مبددة طاقتها بالكلام، وأكثر طلاقة وانفتاحاً من ابنتها التي كانت حميميتها المركزة بالفطرة تحقق لها النجاح، على نحو يثير الإعجاب. والحق أن هذه

الأمر لم تدرس بعد بما تستحقه من الاهتمام، كانت الأم تستشعر هذا التفوق الحيواني لدى ابنتها، وبشعور من الغيرة كانت تستكره غريزياً، بطريقتها في خداع ذاتها، في أعماقها الغائرة، وفي الاستمتاع مثل امرأة عفيفة.

كان الجانب التمثيلي من الفاجعة يثير حماسها، كانت قد استأثرت من خلال ترجيفات صوتها الوجيع، بعالمنا الصغير الضيق الذي كنا نتعثر داخله جميعاً. لم يكن ممكناً إعادها أيضاً، كان علي مع ذلك أن أحاول، لا بد من عمل شيء ما، كان ذلك واجبي كما يقال، ولكنني كنت جالساً أكثر مما ينبغي، واقفاً أقل مما ينبغي.

كان بيتهم مبهجاً إلى حد ما أكثر من بيت آل هنروي، أشد قبلاً منه، ولكنه أبعث على الراحة، كان الجو لطيفاً داخله، وليس كثيباً مثلما هناك، كان قبيحاً فقط، بهدوء وسكينة.

أخذ مني التعب كل مأخذ، فتاهت نظراتي فوق محتويات الغرفة، أشياء صغيرة دونما قيمة كانوا يمتلكونها داخل العائلة، وعلى الأخص واجهة الموقد ذات الجلاجل الوردية من المخمل، والذي لم يعد يعثر عليه في المتاجر، وتلك المرأة النابولية المبرغلة الحواف، وطاولة للعمل ذات مرآة مائلة. لم أنبه الأم قط إلى بركة الدماء التي كنت أراها تتشكل تحت السرير، ولا إلى قطرات الدم التي كانت تسقط دوماً بانتظام، لأنها كانت ستصرخ ربما بصوت أعلى أيضاً، ولن تصغي إلي أكثر، لم تكن تتوقف عن شكوها وعن سخطها، كانت موهوبة.

كنت صامتاً، أنظر خارجاً، عبر النافذة. كان مخمل المساء الرمادي يستولي على الجادة المقابلة، وعلى بيوتها، بيتاً بيتاً، الصغيرة منها في البداية ثم البيوت الأخرى، ثم يغمر المنازل الكبيرة أخيراً، وبعد ذلك الأشخاص

الذين كانوا يتحركون بين البيوت، بوهن أكثر فأكثر، مبهمين، مرتبكين مترددين من رصيف إلى آخر. قبل أن يذهبوا ليغطسوا في غياهب الظلمة.

بعيداً جداً، أبعد من التحصينات، ثمة خيوط وصفوف من المصابيح الضعيفة النور منثورة فوق مساحة الظلال الفسيحة كأنها المسامير، تنشر النسيان فوق المدينة، وأضواء صغيرة أخرى تتلألأ مخضرة، وترف بأشعة حمرة. مراكب ومراكب على الدوام، أسطول جرار قادم من كل مكان، يهتز فوق المياه، حين كانت تفتح من خلف البرج أبواب الليل العظيمة.

لو أن هذه الأم كانت قد تركت وقتاً قليلاً لتتنفس، ولحظة طويلة أيضاً من الصمت، لكنت استطعت، على الأقل، أن أستسلم للتخلي عن كل شيء، ولمحاولة نسيان ضرورة أن أعيش، ولكنها ما انفكت تلاحقني.

«لو أنني أقوم بغسلها، دكتور، ما رأيك في ذلك» لم أجب لا بنعم ولا بلا، ولكني نصحت مرة أخرى، ما دام الكلام كان لي بإرسالها فوراً إلى المستشفى، وكان الجواب، عواءات أخرى أيضاً أكثر حدة، وأشد تصميماً، وأقوى صريراً، لا شيء أفعله.

توجهت ببطء نحو الباب، بكل هدوء

كان الظل يفصلنا الآن عن السرير

لم أعد أتبين تقريباً يدي الفتاة الممددتين فوق الغطاء، بعد أن تحول لونهما الشاحب إلى ما يشبه لون الغطاء.

عدت لأجس نبضها، كان أشد خفوتاً، وأكثر خفاءً منه قبل قليل. كانت الفتاة تتنفس بصعوبة شديدة. كنت أسمع باستمرار صوت قطرات الدم وهي تسقط فوق أرض الغرفة مثل دقات صغيرة صادرة عن ساعة. أكثر فأكثر بطناً، أكثر فأكثر وهناً، ما من شيء يمكن فعله. سبقتني الأم نحو

الباب. «على الأخص، يا دكتور، أوصتني، وهي ترتعد، هل تعدني بأنك لن تقول أي شيء لأحد؟». كانت تتوسل إلي، «هل تقسم لي؟» وعدتها بكل ما تشاء، مددت يدي، كان ذلك عشرون فرنكاً، وأغلقت الباب خلفي، بهدوء.

في الأسفل كانت عمة بيبرت تنتظرنني برأسها المترصد لما يجري «لم تسر الأمور سيراً حسناً إذن؟» كانت تستعلم، فهمت بأنها كانت تنتظرنني هناك، في الأسفل، منذ نصف ساعة كي تقبض عمولة الانتفاع، فرنكين اثنين، ولم أفلت منها. «وعند هنروي إذن، هل سارت الأمور؟» أرلنت أن تعرف. كانت تأمل في أن تقبض عمولة عن هؤلاء أيضاً. «لم يدفعوا لي»، أجبتها. كان ذلك صحيحاً، فانقلبت البسمة الجاهزة للعملة إلى برطمة. كانت مرتابة بي.

«ألسنت تعيساً مع ذلك، يا دكتور، لأنك لا تعرف كيف تحصل على أجرك! كيف تريد من الناس أن يحترموك. إما أن يدفعوا لك ثمن أتعابك نقداً، في وقته، أو لن يدفعوه لك أبداً».

كان هذا صحيحاً أيضاً، وانسللت من أمامها، كنت قد طهوت فاصوليائي قبل أن أخرج. كانت تلك هي اللحظة المناسبة، بعد أن خيم الليل، كي أذهب لشراء حليبي، فقد كان الناس في النهار يبتسمون حين يلتقون بي حاملاً زجاجة الحليب. بالضرورة، إذ لم يكن لدي خادمة.

ومن ثم فقد أبطأ الشتاء في الرحيل، أطل إقامته شهوراً وأسابيع أيضاً.. ولم نعد نخلص من ضبابه وأمطاره في النهاية.

لم يكن ينقصني المرضى، غير أن الكثير منهم لا يقدرّون أو لا يرغبون في الدفع. الطب، إنه مهنة عاقلة. فحين يأخذ الطبيب ثمن أتعابه من الأغنياء يبدو مثل خادم، وحين يأخذه من الفقراء يبدو مثل لص. «أجور أتعاب؟» إنها

ليست أكثر من كلمة.. فهؤلاء المرضى لا يملكون ما يكفي للطعام والذهاب إلى السينما، فهل ينبغي أيضاً أن نأخذ منهم المال كي نسمي ذلك «أجور أتعاب»؟ ولا سيما في اللحظة التي يقلبون فيها عيونهم ويسقطون مغشياً عليهم، ليس هذا مناسباً. ليس أمامك إلا أن تتركهم يذهبون، وأن تغدو لطيفاً، وأن تنسل بسرعة.

في شهر كانون الثاني بعثت، في البداية، طاولة السفرة، كي أخلي مكانها، كما أعلنت ذلك في الحي، وأحول صالة الطعام إلى قاعة للتدريبات الرياضية. منذ الذي صدقني؟ وفي شهر شباط، ومن أجل أن أصفي ما علي من أقساط وديون بعثت أيضاً دراجتي وجهاز الحاكي الذي أهدتني إياه موللي حينما ودعتها، كان يصدق بأغنية «لا وقت للقلق». لحنها ما يزال يرن في أذني. كل ما بقي لدي، أسطواناتي، ظلت زمناً طويلاً لدى بيزين في حانوته ثم باعها. مع ذلك.

لكي أظهار أيضاً بأنني أكثر غنى تحدثت في الحي بأنني كنت سأشتري سيارة، وأنني جمعت من أجل ذلك بعض المال مقدماً، كانت الجراءة هي التي تنقصني في الواقع، كي أمارس الطب على نحو جاد، فحينما كانوا يرافقونني إلى الباب، بعد أن أكون قد قدمت نصائحي للعائلة وأعطيتهم وصفة الدواء، كنت أخوض في ركام من التعليقات، لا لشيء إلا لكي أتملص في تلك اللحظة من دفع أتعابي بضع دقائق أخرى. لم أكن أقوى على أن آخذ منهم الأجر سلفاً. كان أغلب زبائني معدمين جداً، متعفين للغاية، تشي نظراتهم أيضاً بالوعيد والتهديد. بحيث كنت أسأل نفسي دائماً، من أين كانوا سيجدون العشرين فرنكاً التي كان عليهم أن يدفعوها لي، أو إذا ما كانوا

سيقتلونني، بالمقابل. كنت مع ذلك في أمس الحاجة إلى العشرين فرنكاً. أي عار! لن أنتهي قط من الاحمرار خجلاً من ذلك.

«أتعاب!..» هكذا كان زملائي مصريين على تسميه هذا العار، غير متقززين، كما لو كانت هذه الكلمة ستجعل منه شيئاً ذا قيمة.. وأنهم بحاجة إلى تفسيره.. عار وأي عار! لقد كان بوسعي أن أتجرأ على قول ذلك لنفسي. وليس ثمة سبيل للخلاص منه.

إنهم يفسرون كل شيء. أعرف ذلك جيداً، ولكن هذا لا يمنع من أن ذلك الطبيب الذي يتلقى المئة قرش من الفقير ومن غيره هو شخص مقزز دوماً. وأنا على يقين بأنني منذ ذلك الزمن غدوت مقززاً أيضاً، مثل أي طبيب آخر. ليس لأنني مارست التتهتك أو المجون بقروشهم المئة، وفرنكاتهم العشرة، لا. ما دام مالك بيتي كان يعتبرني عفيفاً شريفاً. وأنا لا أقدم كلامه مع ذلك على أنه حجة على ما أقول، أتمنى فعلاً أن يكون حجة، ولكنه ليس كذلك. فالمالك أقدر من الخراء. وهذا كل ما في الأمر.

لفرط ما نالني من القلق والاضطراب، وما انهمرت فوقني من أمطار الفصل المحملة بالصقيع غدوت، بدوري أشبه بنوع من مسلول بنحو قدرتي لاراد له. حدث ذلك حينما كان علي أن أقلع عن كل متع الحياة تقريباً. كنت أشتري، من وقت إلى آخر بيضات من هنا وهناك، ولكن حميتي الأساسية كانت في المحصلة مقتصرة على الخضار المجففة، كانت تستغرق وقتاً طويلاً في الطبخ، كنت أمضي الوقت في مراقبتها وهي تغلي ساعات داخل المطبخ، بعد أن أفرغ من المعاينة، وبما أنني كنت أسكن في الطابق الأول، فقد كنت أطل من مطبخي على بانوراما عجيبة في الفناء الخلفي للبناء. والفناعات الخلفية هي زنازين البيوت المبنية على نحو متسلسل. لقد كان لدي الكثير

من الوقت كي أُنْفِرَج على فنائي الخلفي، وعلى الأخص أن أسمع ما يدور فيه.

ها هنا تسقط، تفرقع، ترتد الصيحات، والنداءات من عشرين منزلاً تحيط بالفناء، وحتى أصوات العصافير الصغيرة اليائسة لحاجبات العمارات وهي تتعفن بعد أن رحل الربيع الذي لن تراه مرة أخرى قط داخل أقفاصها، بالقرب من المراحيض. التي كانت كلها مجمعة هناك في عمق الظل، بأبوابها المخلعة، والمتمائلة على الدوام. مئة سكير ذكر وأنثى يكتظون داخل تلك الأكواخ ويترعونها بصدى خصوماتهم المتبجحة، وأيمانهم الكاذبة والزاهرة بعد إفطار أيام السبت على الأخص. تلك هي البرهة المكثفة في حياة العائلات، بالأفواه يتحدّون بعضهم، وبالأقداح المترعة حتى الجمام. البابا يشهر الكرسي مثل فأس، ليتك تراه، والماما تُشهر جمرة النار مثل سيف. فليحذر الضعاف إذن! الصغير هو من يتلقى الضربات، والصفعات تسطّح على الجدار كل من لا يملك الدفاع عن نفسه ولا يستطيع ردّ الضربات: أولاد، كلاب، قطط. بعد قدح الخمر الثالث، تستيقظ السويداء، الأشد سوءاً. الكلب هو الذي يبدأ بالتوجع، لقد سحقته رجله بدعسة عقب ثقيلة، ذلك سيعلمه الجوع في الوقت ذاته مع البشر، منظره يثير الضحك وهو يختفي مصاصناً تحت السرير، مثل جريح مبقور البطن، تلكم هي الإشارة! لا شيء يثير النساء الثملات مثلما يثيرهن ألم الحيوانات، ليس ثمة ثيران دائماً تحت اليد، تحتمل المجادلة من جديد بسبب ذلك، حقودة قهرية، أشبه بهذيان، الزوجة هي التي تثيرها، مطلقة تجاه الذكر دعوات حاسمة للنزال، ثم يبدأ العراك، الأشياء المحطمة تتقطع إرباً، فيلتقط الفناء التقصف والقرقعة، ويدوم الصدى حول الظلال، الأولاد يعوون وسط الرعب، ويكتشفون كل ما في داخل البابا والماما! يجتذبون إليهم الصاعقة وهم يصرخون.

كنت أمضي أياماً وأياماً أنتظر أن يحدث ما يحدث، من وقت إلى آخر في نهاية الجلسات العائلية.

في الطابق الثالث، أمام نافذتي كانت المعركة تجري، في المنزل الواقع في الجهة المقابلة.

لم أكن أستطيع رؤية أي شيء، ولكنني كنت أسمع بوضوح. ثمة نهاية لكل شيء، لم تكن دائماً الموت. كانت في الغالب شيئاً ما آخر، ليس أقل سوءاً، لا سيما مع الأولاد.

كان هؤلاء المستأجرون يظنون على هذا المنوال إلى أن تشحب الظلال على ارتفاع الفناء. وحين يكون الأب والأم وحدهما، في النهار حين تحدث المشاحنات، يتجادلان في البداية، وقتاً طويلاً ثم يسود صمت مديد. كان النزاع يتخمر. كانا في البداية، يفرغان سخطهما بابتئهما الصغيرة، كانا يناديانها، فتعرف هي حقيقة ما يدور، كانت تبكي على الفور، لأنها تعرف ما الذي كان ينتظرها. وبحسب صوتها، لم يكن عمرها يزيد عن العاشرة بالتأكيد، وقد توصلت بعد العديد من المرات إلى فهم ما كانا يفعلانه بها كلاهما.

كانا يقيدانها في البداية، ويلبثان في تقييدها زمناً، كما لو أنهما يجهزانها لعملية جراحية.. كان ذلك يهيجهما. «الجيفة الصغيرة» يصيحان بها. «آه! أيتها القحبة الصغيرة!» تقول أمها. «سنؤدبك أيتها البغي» كان يصرخان بها سوياً، وأشياء وأشياء كانا ينهالان بها عليها في الوقت ذاته، أشياء كانا يتخيلانها، دون ريب، كان عليهما أن يقيداها بقوائم السرير، والطفلة في أثناء ذلك تنن وتجوح مثل فأرة عالقة في المصيدة. «عبثاً ما تقومين به أيتها المتوحشة الصغيرة فلن تفلتي، هيا! لن تفلتي!». كانت الأم تتابع برشقة كثيفة

من الشتائم، كأنها تشتم حصاناً! فتهتاج الصغيرة «اسكتي يا ماما. كانت ترد بهوء، اسكتي يا ماما! اضربيني يا ماما، ولكن اسكتي يا ماما» لم تكن تكف عن التوسل، وهي تتلقى ضربات متتابعة، كنت أصغي حتى النهاية كي أتيقن تماماً بأنني لم أكن مخطئاً في فهم ما يجري، وأن ذلك هو ما كان يحدث بالفعل، لم يعد بوسعي تناول فاصوليائي، طالما كان ذلك يدور، لم يكن باستطاعتي كذلك إغلاق النافذة، لم أكن صالحاً لشيء، لم أكن أستطيع فعل أي شيء، كنت أصغي فقط مثلما كنت في كل زمان.. وفي كل مكان، ومع ذلك كنت أعتقد بأن لدي مزيداً من القوى للإصغاء إلى تلك الأشياء، للذهاب أبعد وأبعد، قوى عجيبة، تمكنني من الغوص أعمق في المرة القادمة، والاستماع إلى أنات وشكاوى أخرى، لم أكن قد فهمتها بعد، أو أنني فهمتها خطأ في السابق. لأن هناك كما يبدو ما يزال ثمة في أعماق الآخرين شكاوى أيضاً. لم نسمعها بعد، ولم نفهمها!.

حينما كانا يضربان ابنتهما كل هذا الضرب، حتى لا يعود بمقدورها أن تعوي، كانت تطلق صرخات صغيرة أيضاً، رغم ذلك، مع كل شهقة نفس من أنفاسها.

كنت أسمع الرجل يقول حينئذ «تعالى أنت! أيتها الكبيرة. بسرعة.. تعالى إلى هنا». وقد اجتاحه فيض من الحبور.

على هذا النحو، كان يكلم الأم، ثم يصفقان باباً مجاوراً خلفهما، وذات يوم، كانت هي التي قالت له، فقد سمعتها: «آه، أحبك يا جوليان، إلى حد أنني سألعق فضلاتك، وحتى لو كانت فضلات كبيرة هكذا!..»

على هذا النحو كانا يتضاجعان، كما أوضحت لي حاجبة عمارتهما، كان هذا يجري في المطبخ، أمام مغسلة الأطباق، وخلاف ذلك، لم يكونا يتضاجعان أبداً.

أحطت بكل هذه الأمور عنهم من الشارع، شيئاً فشيئاً. وحينما كنت ألتقي بهم. ثلاثتهم معاً، لم يكن ثمة ما ألاحظه عليهم. كانوا ينتزهون مثل مثل أية عائلة حقيقية، كنت ألمح الأب حينما أمر أمام واجهة مخزنه، في زاوية شارع بوانكاريه، في سوق «باعة الأحذية الطبية» كان الأب، هو البائع الأول هناك. لم يكن فناؤنا يقم في غالبية الأوقات سوى قباحت لا رونق لها، ولا سيما، في الصيف، تهديدات مزمجرة، أصداء، ضربات، أشياء ساقطة، وشتائم غير واضحة، لم تكن الشمس تصل قط إلى قاعة. كان أشبه ببقعة من الظلال الزرقاء، الكثيفة للغاية، وعلى الأخص في زواياه، كان لحاجبات العمارات فيه مراحيض صغيرة أشبه بقفائر النحل، وفي الليل حينما كن يذهبن للتبول، كن يتعرثن بعلب القمامة. فينجم عن ذلك جلبة مدوية كالرعد داخل الفناء.

بعد العشاء، وفي الأمسيات التي لا تحتدم فيها العراكات العنيفة، كانت سباقات الخيول هي الموضوع الذي تحمى حوله النقاشات. ولكن هذه المجادلات الرياضية كانت تنتهي، هي أيضاً، في الغالب، نهايات سيئة، بوابل من اللطمات. وخلف نافذة واحدة على الأقل كانت تختتم دائماً بالعراك وتبادل الضربات.

في الصيف أيضاً كان الفناء يعبق بروائح قوية، لم يكن ثمة نسمة هواء، لا شيء سوى الروائح، كانت رائحة الكرنب هي التي تتفوق، وبسهولة، على الروائح الأخرى، كرنبة واحدة تعادل عشرة مراحيض، حتى لو فاضت أقدارها. لا جدال في ذلك، كانت رائحة الكرنب تنبعث بقوة من بيت أولئك الذين يسكنون في الطابق الثاني غالباً.

حاجبة العمارة ٨، الأم سيزان. كانت تصل حينئذ، ومعها قضبان الأسل، لتفتح بها المجاري المسدودة. كنت ألاحظها وهي تكد في عملها، كنا

نتبادل الحديث حينما نلتقي. وقد وجهت إلي ذات مرة نصيحة: «لو كنت مكانك يا دكتور لتركزت بهدوء النساء الحوامل.. ثمة في هذا الحي نساء يستسلمن للملذات.. لن تتخيل ذلك! لن يطلبن منك أكثر من ان تفحصهن بين وقت وآخر. أقول لك! أليس هذا أفضل من معالجة الدوالي في سيقان الموظفات الصغيرات؟ فهو يضمن لك على الأخص الدفع نقداً...».

كان لدى الأم سيزال استخفافاً أرستقراطياً، لا أدري من أين جاءها، بكل الناس الذين يعملون.

«لن ترى هؤلاء المستأجرين مسرورين في يوم من الأيام، حتى ليخيل إليك بأنهم سجناء.. إنهم خليقون بأن يزعجوا العالم بأسره. مراحيضهم هي التي تنسد وتفيض.. وفي يوم آخر فإن الغاز هو الذي يتسرب.. أما رسائلهم التي يبعثونها لنا.. فهي حافلة بالماحاكات والانتقادات دون وجه حق.. مضجرة دوماً. حتى أن واحداً منهم بصق لي داخل مغلفه. هل تتخيل ذلك؟..»

كانت الأم سيزان ترفض غالباً فتح المراحيض المسدودة لفرط ما كان ذلك صعباً. «لا أعلم ما الذي يضعونه داخلها. ولكن ينبغي في البداية أن لاتجف!.. هذا ما أعرفه.. إنهم يخبرونك دائماً بعد فوات الأوان.. هم يفعلون ذلك. عن قصد.. حيث كنت أعلم سابقاً. كان ينبغي تنويب الأنبوب لفرط صلابة ما كان يحتويه من أقدار لا أدري ما الذي يمكنهم أن يأكلوه.. فهم يبيلون في داخلها بلاء مضاعفاً!..».



« لن أتخلص إلا بصعوبة من تلك الأفكار التي إذا ما عاودتني من جديد، فليس مرد ذلك، بوجه خاص، إلى عودة روبنسون، لم أول في البداية اهتماماً كبيراً للمضايقات والإزعاجات، واصلت التسكع على هذا النحو أو ذلك، من مريض، إلى آخر، ولكنني غدوت أشد قلقاً من السابق، وعلى نحو متزايد، مثلما كنت في نيويورك، وبدأ النوم مرة أخرى، يجافيني أكثر من المعتاد.

بسحنته الملتخة بالغم، طلع علي روبنسون، كأنما كان يعيدني إلى حلم قدر، لم أكن لأفلح في الخلاص منه منذ سنوات عديدة. كنت أغمغم بذلك. جاء ليسقط من جديد هنا، أمامي، وسوف لن أتخلص منه بعد ذلك. من المؤكد أنه كان قد بحث عني هنا، لم أكن، بالتأكيد رغباً باللقاء به من جديد.. وما من شك بأنه سيضطرنني مرة أخرى إلى التفكير بشؤونه، إنه يجعلني، الآن، بالإضافة إلى ذلك، أعيد التفكير في جوهره القدر. وهؤلاء الناس أيضاً، وهم يمشون في الشارع على هذا النحو كانوا يجعلونني أفكر بثرثراتهم، عند زوايا الأبواب، وباحتكاكهم ببعض. كنت أعرف ما الذي كان يبحث عنه هؤلاء الناس بمظهرهم الذي لا ينم عن شيء. إنهم يسعون إلى أن يقتلوا بعضهم وأن يقتلوا أنفسهم، ليس بضربة واحدة، بالتأكيد، ولكن رويداً رويداً، مثلهم مثل روبنسون، بكل ما كانوا يحملونه من كآبات قديمة، ومن بؤس جديد، ومن ضغائن أيضاً لا اسم لها، حينما لا تكون الحرب محتدمة، ولكنها حين تضري ويشتد أوارها فإن ذلك يحدث بسرعة أكبر من المعتاد..

لم أعد أجروُ كذلك على التخلص من خوفاً من اللقاء بروبونسون.
كان علي أن أسأل نفسي، مرتين أو ثلاث مرات متتالية كي أقرر
الاستجابة لدعوة المرضى. وحينما كنت أقرر الذهاب لزيارة مريض، كنت
أجد نفسي، في أغلب الأوقات ذاهباً لزيارة مريض آخر، كان ذلك يكشف عن
حالة من الاضطراب في تفكيري، مثلما في حياتي. في شارع سانت فنسان
والذي لم أكن قد ذهبت إليه سوى مرة واحدة، كانوا يسألون عني لدى ساكني
الطابق الثالث رقم ١٢. كانوا قد جاؤوا بسيارة للبحث عني، تعرفت فوراً على
الجد، كان يتكلم همساً، كان غالباً ما يمسح حذائه بممسحة الأرجل أمام بابي،
كائن يتحرك خلسة، عجوز شاحب، محني الظهر، كان راغباً في استعجالي
من أجل حفيده.

كنت أنكر جيداً ابنته أيضاً، مستهترة أخرى، متهنكة ولكنها صلبة وصامتة،
جاعتني مرات عديدة، من أجل إجهاضها في بيت والديها. لم يكونوا يوجهون إليها
أي لوم، كانوا فقط راغبين في أن تتزوج في نهاية المطاف، لا سيما وأن لها ولداً
صغيراً في الثانية من عمره يعيش في بيت جديه على الدوام.

كان ذلك الولد مريضاً بلا سبب ظاهر، وحينما كان يمرض كان جده
وجدته وأمه ينخرطون جميعاً في البكاء، ويزفرون دموعاً غزيرة، لا سيما
وأنه كان بلا أب شرعي. في مثل تلك اللحظات بالذات كان التأثر يبلغ أقصاه
بسبب الأوضاع غير المألوفة داخل العائلة. كان الجدان يعتقدان دون أن
يعترفا بذلك كلياً، بأن أبناء السفاح هم أكثر هشاشة وأشد تعرضاً للمرض
غالباً، من الأبناء الآخرين.

أخيراً، فإن الأب، ذاك الذي كانوا يعتقدون على الأقل بأنه والد الطفل
كان قد رحل نهائياً وإلى الأبد، فلفرط ما كانوا قد تحدثوا مع ذلك الرجل عن

الزواج بابنتهم، انتهى به الأمر إلى الضجر، ولا شك أنه الآن بعيد جداً، وأنه ما يزال يعدو هارباً منهم. ما من أحد كان يفهم شيئاً عن سبب هذا الهجر، ولا سيما الفتاة نفسها، لأنه كان يجد مع ذلك كثيراً من المتعة في مضاجعتها.

إذن، فمنذ أن رحل هذا القلب، كان ثلاثتهم جميعاً مستغرقين في تأمل هذا الولد متباكين، وهكذا، فقد وهبت لذلك الرجل مثلما كانت تقول «جسدها» وروحها» وكان ذلك خليقاً أن ينجح، وأن يكون كافياً للوصول إلى السعادة، حسب رأيها، كان الصغير قد خرج، دفعة واحدة من جسدها، وتركها مترهلة تماماً حول خاصرتيها. يفتبط العقل بالجمل والكلمات ولكن الجسد ليس على هذا الغرار. إنه أصعب إرضاء، شيء ما حقيقي دوماً، هو الجسد، لذلك فهو حزين على الدوام ومنفر للنظر.. لقد رأيت.. وهذا صحيح أيضاً، ولادات ذهبت بصبا الأم دفعة واحدة، ولم يبق لتلك الأم على وجه التقريب سوى مشاعر وروح، ما من أحد يرغب بذلك قط.

قبل تلك الولادة السرية كانت العائلة تسكن في حي «فتيات غالفير» منذ سنوات عديدة، وإذا كانت قد هاجرت إلى رانسي فلم يكن ذلك عن رغبة منها، وإنما لتتوارى عن الأنظار، لينساها الآخرون، لتختفي بالجملة.

ما أن غدا من المستحيل إخفاء ذلك الحمل عن الجيران حتى قرروا مغادرة حيهم في باريس، تحاشياً لجميع التعليقات، رحيل شرف. كانوا غير معروفين في رانسي، ثم إن بلدية هذه الضاحية كانت تمارس سياسة بغیضة تماماً! فوضوية باختصار، كان الناس يتقولون عليها شتى الأقاويل، في كل أنحاء فرنسا، سياسة داعرة، ففي هذه الوسط من المنبوذين لن يكون لرأي الآخرين أية قيمة.

نالت العائلة قصاصها على نحو تلقائي، فقد قطعت كل صلة لها مع أقارب وأصدقاء الماضي. إذا تكلمنا عن مأساة فقد كانت تلك مأساة كاملة، لم يعد ثمة ما يفقدونه، كما كانوا يقولون، لقد انحط مقامهم، وحينما يقرر المرء أن يفقد اعتباره، يذهب إلى الشعب.

لم يوجهوا أية ملامة لأحد، كانوا يحاولون فقط أن يكتشفوا عبر نوبات من التمردات الصغيرة العاجزة إن كان بوسع القدر أن يمتص قذارة أخرى مماثلة يلطخهم بها ذات يوم.

لم تشعر الفتاة من عيشها في رانسي سوى بعزاء وحيد، ولكنه على قدر كبير من الأهمية، ألا وهو، قدرتها على أن تكلم الناس جميعاً بحرية منذ الآن عن «مسؤولياتها الجديدة». لقد أيقظ عشيقها حين تركها رغبة عميقة داخل طبيعتها المولعة بالبطولة وبالتفرد. فمنذ أن اطمأنت إلى أنها لن تواجه قط، فيما تبقى لها من أيامها، مصيراً مماثلاً لغالبية النساء من طبقتها ووسطها، إلى أنها تستطيع الآن أن تصرّح علناً بقصة حياتها المسلوقة منذ مغامراتها العشقية الأولى، ارتضت، بشيء من اللذة، بالشقاء العظيم الذي حل بها، وغدت ضربات القدر الفتاكة، في النهاية، مقبولة ومرحباً بها. كانت فرحة وفخورة بكونها فتاة أما.

داخل صالة طعامهم التي دخلناها أنا والأب، كان ثمة إضاءة مقتصدة، لا تظهر إطلاقاً سوى نصف لون الأشياء. بدت لي الوجوه مثل بقع شاحبة، لحوم تهذر بكلمات ما تنفك تتسكع داخل الغبش الثقيل لرائحة بهار قديم يفوح من سائر أثاث العائلة.

فوق الطاولة في الوسط، وضعوا الطفل على ظهره، بين أقمطته، من أجل أن أفحصه، ضغطت بأصابعي قليلاً على جدار بطنه، في البداية، بكثير

من الاحتراس، على نحو تدريجي، من سرته وحتى كيس خصيتيه، كنت أسمع بانتباه شديد.

كان قلبه ينبض بإيقاع قلب قطة صغيرة، على نحو خاطف ومجنون. تضايق الولد من حركة أصابعي ومن ملامساتي، وبدأ يصرخ، مثلما يفعل الأطفال في هذا السن، على نحو يفوق التصور. كان زعيقه أعلى مما أطيعه. منذ عودة روبنسون، كنت قد غدوت غريباً عما يجري داخل رأسي وجسدي، وقد خلقت لدي صرخات الصغير البريء انطباعاً كريهاً، أية صرخات! ياإلهي! أية صرخات!.. لم أعد أحتمل سماعها.

ثمة فكرة أخرى أيضاً، كانت خليفة أن تحدد سلوكي الأخرق، فلفرط ما شعرت بالإرهاق من صراخ الطفل، لم يعد بوسعي الامتناع عن إبلاغهم علانية بما كنت أشعر به، في الواقع، من ضغينة ومن اشمئزاز، منذ مدة طويلة جداً.

«إيه! أجبت على عواء الصغير، لا تتعجل إذن!.. أيها الصغير الأبله!.. سيكون لديك الوقت دائماً كي تصرخ.. سيكون لديك الكثير منه!.. لاتخش شيئاً أيها الكر الصغير! لا ترهق نفسك! سيبقى ما يكفي ويزيد من الشفاء كي تذيب عينيك ورأسك وكل ما بقي منك أيضاً إذا لم تحترس! — ما الذي تتفوه به يا دكتور؟» انتفض الجد، فكررت ببساطة: «سيبقى الكثير أيضاً».

— ماذا؟ ما الذي يبقى؟ سألني الجد، مذعوراً.

— عليك أن تفهم، أجبت الجد، عليك أن تفهم، أنا أشرح لك كثيراً من الأشياء!.. إنه الشفاء.. سيبقى منه الكثير.. حاول إذن أن تفهم!.. ابذل قليلاً من الجهد!..

«يبقى ماذا؟ ما الذي يقوله؟» كان الثلاثة يسألون بعضهم، كانت الفتاة صاحبة «المسؤوليات الجديدة» تنظر إلي نظرات غريبة، ثم ما لبثت أن أطلقت صرخات طويلة فريضة، لقد وجدت فرصة سانحة جليلة لتتخرط في نوبة عصبية، ولم تكن لتفتوتها، إنها الحرب! وسأضربك بقدمي! وبالاحتناق، وبحول العينين المخيف! لقد كانت مستعدة للغاية، ينبغي أن تروا ذلك! «إنه مجنون. ماما! كانت تختلق بصيحاتها المزمجرة، الدكتور، صار مجنوناً، خذي ابني من بين يديه، ماما!». كانت تنفذ ابنها.

لم أكن أعرف أبداً لماذا، ولكنها لفرط هياجها بدأت تتكلم باللهجة الباسكية. «إنه يقول أشياء مخيفة! ماما!.. إنه معتوه!..».

انتزعوا الصغير من بين يدي، كما لو كانوا ينتشلونه من بين ألسنة اللهب. وتناول الجد الذي كان خجلاً جداً قبل قليل، تناول الآن ميزان الحرارة الضخم المعلق على الحائط، والمصنوع من خشب الأكاجو. ولوّح به مثل هراوة.. ثم رافقتني على مسافة مني نحو الباب، وصفق مصراعه خلفي بعنف، بركلة من رجله.

لقد استفادوا من ذلك، بالطبع، كي لا يدفعوا لي لقاء زيارتي. حينما وجدت نفسي في الشارع من جديد، لم أكن فخوراً جداً بما كان قد جرى لي. ليس بخصوص سمعتي التي لم يكن ممكناً أن تغدو أسوأ مما كانت عليه بين سكان الحي الذين كانوا قد شوهوها ولطخوها من دون أن أكون بحاجة إلى تلطيخها، ولكن بصدد روبنسون دائماً الذي كنت قد رجوت أن أتخلص منه عبر موقف صريح، أن أتخذ القرار بعدم استقباله، بافتعال سبب للخلاف، يوجه إلي خلاله نوعاً من عبارات نابية.

على هذا النحو حسبت الأمور: سأتمعن جيداً، على سبيل التجريب في
الفضيحة التي يمكن أن تحدث، دفعة واحدة. المسألة هي أنني لن أخلص، مطلقاً
من الفضيحة ومن الانفعال، فأنا لا أعرف البتة إلى أي حد سأكون مضطراً إلى
المضي في الصراحة.. فما يخفيه عنك الناس، ما يظهرونه لك.. إذا ما عشت
ردحاً من الزمن.. إذا ما مضيت بعيداً بما يكفي مع هنرهم وهنيانهم، هو بلا
نهاية على الإطلاق.

كنت متعجلاً في أن أوارى نفسي، أنا أيضاً، للحظة. سلكت في البداية،
في الطريق إلى منزلي زقاق جيبية، ومن ثم شارع فالنتين، ذلك طريق
ملائم.. ولكنني سرعان ما غيرت رأبي واتجهت نحو الأضواء، في ساحة
ترانزيتوار التقيت بيريدون موقد المصابيح، تبادلنا بضع كلمات بلا معنى
«هل أنت ذاهب إلى السينما، دكتور؟» سألني بيريدون، لقد أوحى لي بالفكرة،
فوجدتها فكرة جيدة.

سيقلني الأوتوبيس بسرعة أكبر من المترو.

بعد هذا الفصل المخزي، سأرحل عن رانسي نهائياً، وإلى الأبد، حينما
أجد إلى ذلك سبيلاً.

كلما طال بقاؤك في مكان، كلما كشفت لك الأشياء والبشر عن
سوءاتهم، وعن عفونتهم، وعن نتن روائحهم التي يطلقونها متعمدين في
وجهك.



<< على الرغم من كل شيء، فقد فعلت خيراً بالعودة إلى رانسي في اليوم التالي، بسبب بيبيرت الذي سقط مريضاً في ذلك الوقت بالذات، كان زميلي فروليشون، قد سافر في إجازة، وقد ترددت العمة بعض التردد، ثم طلبت مني العناية بابن أخيها مع ذلك، لأنني، بلا شك كنت أرخص طبيب من الأطباء الذين كانت تعرفهم العمة.

بعد عيد الفصح بدأ الجو يتحسن، كانت الرياح الجنوبية تهب على رانسي، وتحمل معها أيضاً. كل سخام المصانع لتلصقه على زجاج النوافذ. استمر مرض بيبيرت أسابيع، كنت أذهب لرؤيته مرتين كل يوم. كان سكان الحي ينتظرونني أمام بيوتهم، دون أن يتظاهروا بذلك، على بعد خطوة من منازلهم، والجيران أيضاً. كان ذلك أشبه بتسليية لهم. كانوا يريدون أن يعرفوا، عن بعد، ما إذا كانت صحة بيبيرت تسوء أم تتحسن. كانت الشمس تمر عبر كثير من الأشياء ولكنها لم تكن تترك، قط في الشارع سوى ضوء خريفي، مع كثير من الحشرات والغيوم.

نصائح كثيرة، كنت ألتقاها بخصوص بيبيرت، كل سكان الحي، في الحقيقة، كانوا مهتمين بحالته، كانوا يتحدثون عن حسنات، ومن ثم عن سيئات مهارتي في الطب. وحينما كنت أدخل المنزل كان يسود صمت حرج ومعاد، بما فيه الكفاية، صمت بالغ الحماسة على الأخص. كان المنزل مكتظاً دائماً بثرثارات تربطهن صداقة حميمة مع العمة. كان عابقاً دوماً برائحة التتانيير الداخلية وبول الأرناب. كان لكل منهن طبيبيها المفضل، فهو الأكثر براعة

دوماً، والأوسع علماً، أما أنا فلم يكن لي سوى ميزة وحيدة، في المحصلة، ولكنها تلك التي لا يغفرونها لك إلا بصعوبة، ألا وهي أنني كنت تقريباً طبيباً مجانياً، وحين يكون الطبيب مجانياً. فإن ذلك يؤدي المريض وعائلته، مهما كانت تلك العائلة فقيرة.

لم يكن ببيروت يهذي بعد. لم يعد لديه فقط أي رغبة بالحركة، وقد بدأ يفقد وزنه كل يوم، قليل من اللحم المصفر والمتحرك كان ما يزال يكسو هيكله المرتعش من أعلاه إلى أسفله، مع كل نبضة من نبضات قلبه، حتى لكأن قلبه كان في كل مكان تحت جلده، لفرط ما غدا نحيلاً بعد شهر من المرض. كان يوجه لي ابتسامات مضيئة، حينما كنت آتي لرؤيته. لقد تجاوزت حرارته الـ ٣٩ درجة، ثم الـ ٤٠ دون أن يفقد أبداً لطفه ومحبته، وظل طوال أيام وأسابيع متأملاً مفكراً.

انتهت عمة ببيروت إلى الصمت، وتركنتا هادئتين، أفرغت كل ما كان في جعبتها من الكلام، ثم ذهبت لتتباكى، مبلبله، في زوايا كوخها. زاوية إثر زاوية، لقد غزتها الكآبة أخيراً، بعدما نضب معينها من الكلام.

لم يكن يبدو عليها أنها تعرف ما تفعل بكربها، كانت تحاول أن تتخطه من جديد. كانت تتحرك في كل مكان، وانتهى بها الأمر، على هذا النحو إلى أن تغدو أيضاً أقل نظافة من المعتاد، وكانت تدهش لذلك «يا إلهي! يا إلهي!» كانت تردد. وهذا كل شيء. لقد بلغت أقصى ما في داخلها من قوة في البكاء، ثم تهدل ذراعها، وظلت منذهلة عن نفسها أمامي.

كانت تثوب مع ذلك من حزنها قليلاً، فتهم بالخروج من بيتها منتحبة. على تلك الصورة، وطوال أسابيع، استمرت تلك الروحات والجيئات دون أن يفارقها الهم والقلق. كنت أستشعر بعمق بأن ذلك المرض كان سيؤول إلى

نهاية خطيرة. كان نوعاً من التفويد الخبيث، كل ما كنت أجربه في العلاج كان يذهب سدى، المغاطس، السيرومات، الحمية، اللقاحات، ما من شيء كان ناجعاً، عبثاً كنت أكافح، كل شيء كان قبض الريح. كان بييرت يمضي، على نحو لا راد له، باسماً. ومن فوق حماه، كان يلبث مترناً هادئاً، بينما كنت أنا أتخبط في الأسفل خبط عشواء. كانت النصائح، بالطبع، تنهال على العمة من كل حذب وصوب وعلى نحو أمر أيضاً، بأن تصفّي حسابي، دون مواربة، وأن تستدعي على عجل طبيبياً آخر أوسع خبرة مني، وأكثر جدية.

كان حادث الفتاة «ذات المسؤوليات الجديدة» قد شاع في كل الأنحاء ودارت حوله التعليقات بكثافة، كانوا يتمضمضون به في الحي.

ولكن بما أن الأطباء الآخرين الذين علموا بطبيعة مرض بييرت، تهربوا من علاجه، فقد بقيت أنا في النهاية.. وما دام بييرت قد آل إلي، فلا بد لي من أن أواصل العلاج. هكذا كان الزملاء يفكرون بالضبط.

لم يكن قد بقي في يدي من حيلة في الواقع، سوى الذهاب من وقت إلى آخر كي أهتف من الحانة القريبة إلى بعض الاختصاصيين الآخرين الموزعين هنا وهناك بعيداً عن رانسي، ممن كنت أعرفهم، أكثر أو أقل، في باريس، داخل المستشفيات، كي أسألهم عما يفعلونه هم، أولئك الجهاذة، أولئك الإعلام، إزاء تفويد كالذي كان يربكني ويقض مضجعي. كانوا جميعاً يعطونني نصائح طيبة، جواباً على أسئلتي، نصائح طيبة، غير أنها عديمة الفائدة، ولكنني كنت أشعر، مع ذلك، بالسرور للاستماع إليهم، وهم يجثمون أنفسهم العناء، على ذلك النحو، وبصورة مجانية في النهاية، من أجل الصغير المجهول الذي كنت أعالجه، وهكذا فإننا نفرح بالشيء الزهيد القيمة، بأقل القليل، والذي تريد أن تتركه لنا الحياة كعزاء!

بينما كنت أضرب أخماساً بأسداس على هذا المنوال كانت عمّة بيبرت تترنح يميناً ويسرة. دونما تبصر. منهارة فوق الكراسي وعلى الأراج، لم تكن تخرج من ذهولها إلا لكي تأكل. ولكنها، في واقع الحال، لم تفوت قط وجبة واحدة، ينبغي قول ذلك، فجيرانها لن يتركوها تنسى نفسها.. كانوا يزقّمونها بين شهقاتها. «هذا يسندك» كانوا يؤكدون لها. لا بل إنها بدأت تسمن.

فيما يتعلق برائحة كراث بروكسيل والتي كانت أقوى من مرض بيبرت، فقد كان لها داخل المنزل قصف وعريضة، كان ذلك هو فصل الكراث، كانوا يأتون به من كل مكان، كهدية إلى العمّة، مطبوخاً جاهزاً، يتصاعد منه البخار. «إنه يمدني بالقوة، هذا صحيح، كانت تبدي إعجابها، به بطيبة خاطر، كما أنه مدر للبول!».

قبل منتصف الليل، وعلى قرعات جرس صغير كي لا تغرق العمّة بالنوم، ولكي تلبي أول نداء على الفور، كانت العمّة تحسو القهوة. على هذا النحو، لم يكن الجيران يوقظون بيبرت حينما يقرعون الجرس مرتين أو ثلاث مرات متتالية. حينما كنت أمر في المساء من أمام المنزل كنت أدخل لأرى إن لم يكن كل ذلك قد توقف أحياناً. «ألا تعتقد أن المرض انتقل إليه من البابونج الذي شربه عند بائع الفاكهة، في اليوم الذي جرى فيه سباق الدراجات؟» كانت هذه الفكرة تقض مضجع العمّة، منذ البداية. فكرة بلهاء.. «بابونج» كان بيبرت يهمس بوهن، فيضيع الصدى داخل الحمى. ما الفائدة من ثنيها عن هذه الفكرة؟ كنت أقوم، مرة أخرى بالإجراءات المهنية الصغيرة المطلوبة، ومن ثم أخرج إلى الليل، غير فخور، لأنني، على غرار أمي، لم أتوصل قط، إلى الشعور بأنني بريء من صنوف الشقاء التي كانت تحل بالأرض.

في اليوم السابع عشر، قلت لنفسي، مع ذلك، بأن من الخير لي أن أذهب لأسأل عما كانوا يفكرون به في معهد بيوديرييه جوسبين، عن حالة تيفونيد من هذا النوع، وأن أطلب في الوقت ذاته نصيحة صغيرة، وربما لقاحاً أيضاً يشيرون به علي، وهكذا، أكون. قد فعلت كل شيء، وجربت كل شيء، وحتى الأشياء التي لا تخطر على بال، وإذا مات بيبرت، إيه حسناً، فلن يكون ثمة ما ألام عليه، وصلت إلى المعهد في طرف باريس، خلف مجمع "الفبيت" للعلوم والصناعة، في الساعة الحادية عشرة صباحاً. جالوا بي، في البداية، عبر مخابر ومخابر، بحثاً عن عالم من العلماء. لم يكن هناك أي شخص في تلك المخابر، لا من العلماء ولا من غيرهم، أشياء مركومة فقط، في حالة من الفوضى العارمة، جنث صغيرة لحيوانات مبقورة البطون، أعقاب سكاثر، مصابيح غاز مكسورة، أفاص وقوارير زجاجية، في داخلها فئران على وشك الاختناق، مقطرات، مبالول ملقاة بإهمال، مقاعد محطمة، كتب، وغبار، وأعقاب سكاثر أيضاً، ودائماً، رائحتها ورائحة المبوالة تحتلان المكان. وما دمت قد جنثت مبكراً. فقد عزمت على القيام بجولة، أزور خلالها. قبر العالم العظيم بيوديرييه جوسبين الذي كان مشاداً في أقبية المعهد ذاتها، مجللاً بالذهب والرخام، فانتازيا بروجوازية – بيزنطية رفيعة الذوق. بفضل هذا البيوديرييه كان العديد من الطلاب الشباب قد اختاروا، خلال نصف قرن ميدان العلوم، وقد فشل عدد منهم لا يقل عن عدد الفاشلين في التخرج من الكونسرفاتوار. ثم انتهوا جميعاً، إضافة إلى ذلك، إلى التجمع في هذا المعهد بعد عدد من السنوات لم يحققوا فيها أي نجاح. وفي مستنقعات الهزيمة كان «خريج الكلية» يستحق «جائزة روما». لم يكن الباص ينقلهم إلى المعهد في ساعة واحدة. كان علي الانتظار أيضاً وقتاً طويلاً في حدائق المعهد. تركيبة

صغيرة من سجن وحديقة عامة. زهور مزروعة بعناية على امتداد تلك الجدران المزخرفة بعدوانية.

مع ذلك، فإن بعض العاملين الشبان من ملاك المعهد كانوا أول من وصل، كان عدد منهم يحمل زاده من السوق القريب، في أكياس شبكية كبيرة، تلوح عليهم علائم البؤس والعوز. وبعدهم، وصل العلماء وعبروا البوابة بتباطؤ أكثر، وبتحفظ أشد من مرؤوسيهم، على هيئة مجموعات صغيرة، بشعور كثة، وأصوات هامسة، واختفوا على امتداد الممرات وراقبت باهتمام، عودة أولئك التلاميذ الهرمين الشائبين، الذين أخلبهم الروتين الصارم والاختبارات الكيماوية المؤسدة والمقززة، مقيدين طوال مرحلة نضجهم المديدة. وبأجور هزيلة جداً، إلى تلك المطابخ الصغيرة الحافلة بالمكروبات، يطهون فيها، بلا نهاية، طعامهم المؤلف من قشارات الخضار، ومن خنازير الهند المخنوقة، ومن نباتات أخرى لا يعلمها إلا علام الغيوب.

لم يعد هؤلاء في نهاية المطاف سوى قوارض مدجنة هرمة، مسيخة داخل معاطف. قلما يبتسم المجد في أيامنا إلا للأغنياء، سواء أكانوا علماء أم غير ذلك. أما العاملون في البحث العلمي من عامة الناس فلم يكن بمقدورهم المحافظة على أنفسهم إلا بالاعتماد على خوفهم من أن يفقدوا موقعهم داخل علبة الأقدار تلك، المرتفعة الحرارة، والذائعة الصيت، والمقسمة إلى خانات ومراتب. كانوا حريصين، في الأساس، على لقب عالم رسمي. وهو لقب ما يزالون ينالون بفضل بعض الثقة من صيادلة المدينة، من أجل تحليل بول وبصاق الزبائن، وبعض التعويض الشحيح، ذلك التعويض الملوث بالوحد الذي كان من نصيب العالم.

ما أن يصل الباحث المنهجي حتى ينحني على نحو طقوسي، بضعة دقائق فوق الأحشاء المصفرة والمتفسخة للأرنب الذي كان معروضاً منذ الأسبوع الفائت.. على النحو الكلاسيكي، في زاوية من زوايا الغرفة، جرن الأقدار. وحينما تغدو رائحته لا تطاق. كانوا يضخون بأرنب آخر، ولكن ليس قبل ذلك، بغية الاقتصاد في النفقات الذي كان البروفيسور جونيسييه كبير أمناء سر المعهد يحرص عليه في ذلك الوقت على نحو متزمت.

بعض الحيوانات المتعفنة كانت تخضع بسبب ذلك، وعلى سبيل الاقتصاد لإطالات في العرض ولتفسخات لا تصدق. كل الأمور منوطة بالتعود. كان بعض فتيان المخابر المدربين جيداً يطهون طعامهم في نواويس مستخدمة في التجارب، حتى أن آثار العفونة المتبقية لم تعد تزعجهم. كان هؤلاء المساعدون المتواضعون العاملون في البحث العلمي العظيم يتوصلون في هذا الصدد إلى تخطي البروفيسور جونيسييه نفسه في الاقتصاد بالنفقات، والمشهور بقذارته مع ذلك. يتفوقون عليه في لعبته الخاصة. مستغلين غاز مجففاتهم، على سبيل المثال، كي يجهزوا العديد من وجبات طعامهم من الخضار واللحم واليخنات الأخرى البطيئة النضج، والأشد خطراً أيضاً.

حينما يفرغ العلماء من فحوصهم واستقصاءاتهم المسطحة لأمعاء خنزير الهند والأرنب الطقسيتين، ينتقلون بهدوء إلى العمل الثاني في حياتهم اليومية العلمية، ألا وهو التدخين، محاولة تخفيف النتانة والضجر من خلال تدخين التبغ، ومن عقب سيكارة إلى آخر يصل العلماء، مع ذلك، إلى نهاية نهارهم، في الساعة الخامسة، حينذاك يعيدون الأنسجة المتفسخة، من أجل تفتير حرارتها إلى داخل مجففاتهم المرتجة. كان الباحث الشاب يخبئ فاصوليائه المطبوخة داخل صحيفة كي يمررها بسلام، ودون مساءلة، من

أمام حاجبة المبنى، كان يحمل بقية الطعام الذي أعده في النهار ليتناوله في غارغان. أما معلمه، العالم، فكان ما يزال يسجل شيئاً ما في زاوية دفتر التجارب، بتواضع جم، من أجل بحثه القادم العديم النفع كلياً، ولكنه الذي يؤكد حضوره في المعهد، والمزايا الهزيلة التي يتمتع بها.

يقضي العالم الحقيقي عشرين سنة كاملة في المتوسط لإنجاز اكتشافه العظيم. ذلك الذي يتكون من الاقتناع بأن هذيان البعض لا يخلق سعادة لدى الآخرين، أو أن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يجد نفسه منحرف المزاج من جراء الهوس المستحوذ على جاره، وهكذا دواليك.

والواقع أن الهذيان العلمي الذي يبدو أكثر معقولة وأشد برودة من الهذيانات الأخرى. هو في الوقت ذاته أشد إثارة للقرف والنفور من أي هذيان آخر، ولكن حينما يحوز المرء على بعض الفرص في المحافظة على موقع معين، ولو بأجر ضئيل، بمساعدة بعض التكشيرات، فلا بد له من المواظبة على هذيانه، وإلا فإنه يهلك مثل خنزير هندي.

كنت أبحث عن بارابين عبر أرجاء المعهد، ما دمت قد جئت من رانسي، على أمل اللقاء به. كان لزاماً علي المضي في البحث عنه. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، كررت المحاولة عدة مرات، متردداً، زمنياً طويلاً، أمام عدد من الممرات والأبواب.

قلما كان هذا الفتى المسن يفطر أو يتغدى أكثر من مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، ولكنه كان يأكل حينئذ بشراهة فائقة على منوال جنون الطلاب الروس الذين كان بارابين يحتفظ بعاداتهم الغريبة الأطوار.

لقد نال هذا البارابين، في وسطه الاختصاصي حظوة كبيرة، لم يسبقه أحد إليها. كل ما كان يتعلق بأمراض التيفويد صار مألوفاً، وعادياً بالنسبة

إليه، التيفوئيد الحيواني أو الإنساني. كانت شهرته قد ذاعت منذ عشرين عاماً حين زعم بعض العلماء الألمان، في أحد الأيام، بأنهم قد عزلوا بكتيريا التيفوئيد الحية داخل المفرزات المهبلية لطفلة صغيرة في الشهر الثامن عشر من عمرها، وقد أثار ذلك ضجة في ميدان الحقائق العلمية. ورد بارابين في أقصر مهلة باسم المعهد الوطني، متجاوزاً، دفعة واحدة، ذلك المتشوق للتوتوني، وذلك بزراعة الجرثوم ذاته، ولكن في حالته النقية داخل مني شخص عليل في الثانية والسبعين من عمره. طارت شهرة بارابين على الفور، ولم يبق عليه حتى نهاية حياته سوى أن يسود، على نحو منظم، بضعة أعمدة غير مقروءة، في مختلف الدوريات الاختصاصية، كي يحافظ على نجوميته، وهو ما صنع له، فوق ذلك منذ ذلك اليوم، ودون مشقة جراً وحظاً.

أغدق الجمهور العلمي الجاد الثناء على بارابين ومحضه الثقة، وكان هذا يعفي الجمهور الجاد من أن يقرأ ما يكتبه بارابين. لو أن ذلك الجمهور العلمي شرع بالنقد، فلن يعود هناك أي تقدم ممكن. لذلك فإنه سيراوح مكانه سنة عند كل صفحة..

حين وصلت أمام باب زنزانته الصغيرة كان سيرج بارابين يتقل في أربعة أركان المخبر لعاباً متواصلًا، مع تكشيرة متقرزة، بحيث يجعلك تفكر بما يفعله في تلك الزنزانة. كان يخلق لحيته من وقت إلى آخر، ولكنه كان يحتفظ دائماً، مع ذلك، فوق مساحة عارضيه بما يكفي من الشعر كي يبدو شخصاً فاراً. كان يرتعد باستمرار أو على الأقل، كان يبدو عليه ذلك، على الرغم من أنه لم يكن يخلع معطفه قط. تشكيلة كبيرة من البقع، وعلى الأخص من القشور، كان يزيلها بضربات دقيقة من اظفره، من حواشي المعطف ساحباً مشعله المهتز دوماً قريباً من أنفه المخضر والمحمّر.

خلال فترة تدريبي، في الدروس العملية للكلية، كان بارابين يعطيني بضعة دروس بالمجهر، ويبيدي لي في مختلف المناسبات أريحية حقيقية. كنت أتمنى أن لا يكون قد نسيني كلياً، منذ تلك الأيام البعيدة، وأن يقدم لي، بالأريحية ذاتها، رأياً طبياً، من طراز رفيع، من أجل حالة بيبرت التي كانت تعذبني في الحقيقة.

من المؤكد أنني كنت متلهفاً للحيلولة دون موت بيبرت، أكبر بكثير مما تجاه شخص راشد. ما من أحد، تقريباً، يتألم جداً لموت شخص راشد، إنه مثير للغم على كل حال، كما يقال في حين أنه بالنسبة إلى طفل، فإن الأمر أعظم من ذلك. ثمة المستقبل.

بعد أن أطلع بارابين على الصعوبات التي كانت تعترضني لم يتلأأ في إبداء رغبته بمساعدتي وتوجيه علاجي المحفوف بالمخاطر، ولكنه فقط، كما ذكر لي، كان قد درس خلال عشرين عاماً كثيراً من الأشياء، ومن الأشياء المختلفة جداً، والمتناقضة جداً، في الغالب، حول موضوع التفونيد، بحيث صار من العسير، جداً، عليه الآن، أو من المستحيل، كما قال، أن يصوغ حول موضوع هذا الداء المبتذل جداً، وحول كيفية علاجه أي رأي جازم، مهما كان هذا الرأي بسيطاً.

«بداية، هل تؤمن، أنت، يا زميلي العزيز بالسيرومات؟ بدأ كلامه بسؤاله لي، ماذا؟ ما رأيك فيها، واللقاحات إذن؟ ما هو انطباعك في المحصلة؟ ثمة العديد من العقول اللامعة لم تعد ترغب الآن في أن تسمع كلمة واحدة عن اللقاحات.. هذا تهور، أيها الزميل، بالتأكيد.. هذا هو رأيي.. ولكن أخيراً؟ ماذا؟ مع ذلك؟ ألا ترى أن هناك بعض الصواب في هذا الموقف السلبي من اللقاحات؟ ما الذي تراه أنت...».

كانت الجمل تخرج من فمه بقفزات مخيفة مع وابل هائل من حرف
«الراء».

وفيما هو يتخبط مثل أسد بين فرضيات أخرى حانقة ويأثمة مرّ
جونيسييه، السكرتير العظيم اللامع، الذي كان ما يزال آنذاك على قيد الحياة،
مر في تلك اللحظة بالضبط تحت نوافذنا مختالاً وشامخاً.
ما أن رآه بارابين حتى أربد لونه أكثر من ذي قبل، وغير دفة الحديث
بعصبية، ثم لم يلبث أن أظهر لي على الفور كل الاشمئزاز الذي كان يتولد
لديه بسبب هذه الرؤية اليومية الوحيدة لهذا الجونيسييه المبجل، مع ذلك، على
نطاق عالمي. ونعت لي بارابين هذا الجونيسييه الشهير، خلال لحظة واحدة،
بالمزيّف، والمهووس، والبالغ الخطورة، وحملّه أيضاً جرائم بشعة وحقيرة
ومستحدثة، كان ينبغي أن يحتويها سجن للأشغال الشاقة بكامله، طوال قرن
من الزمان.

ولم يعد بمستطاعي أن أمنع بارابين من أن يعطيني، مئة وألف تفصيل
حقوق عن مهنة الباحث المضحكة، والتي كان هو مضطراً من أجل الحصول
على قوته، إلى أن يلتزم بها، كان حقه أشد تميزاً وأكثر علمية، في الحقيقة
من تلك الأحقاد التي ينفثها الرجال الآخرون الموجودون ضمن شروط
مشابهة، داخل المكاتب أو المتاجر.

كان يرسل كلامه بنبرة عالية جداً، وشعرت بالدهشة من صراحته..
كان تلميذه في المخبر ينصت إلينا.. كان هو أيضاً يطهو طعامه البسيط من
الخضار، ويتحرك أيضاً مراعاة للشكل بين المجففات وأنابيب الاختبار، ولكن
الباحث التلميذ كان معتاداً على سماع بارابين، وهو يصب لعناته اليومية
تقريباً، بحيث أنه كان الآن يعتبر أقواله هذه أقوالاً أكاديمية، قطعاً، ولكنها

عديمة الجدوى. كانت بعض التجارب الشخصية الصغيرة التي يتابعها الآن، بكثير من الرصانة، في داخل إحدى مجففات المخبر، تبدو له، بالقياس إلى ما كان يرويه بارابين خارقة وحافلة بالفائدة على نحو لذيذ. لم يكن سخط بارابين يسليه قط، وقبل أن ينصرف، أغلق باب فرن التجفيف على مكروباته الشخصية. كأنه يغلقها على وعاء خبز القربان. برفق، وبتدقيق شديدين.

«رأيت بعينك تلميذي، أيها الزميل؟ رأيت فتاي الأبله العجوز، قال ذلك بارابين بعد أن خرج تلميذه، إيه حسناً، ثلاثون سنة ستقتضي عما قريب وهو يكنس أقداري، ولا يسمع حوله سوى الحديث عن العلم، وبغزارة وإخلاص، في الواقع، غير أنه، بدل أن يتقزز من ذلك فقد انتهى به الأمر الآن، هو وحده، إلى أن يصدق كل ما يسمعه هنا. ولفرط ما قلب أفكاري وآرائي وجدها خارقة، إنه يتلمظ بها، أقل حركة قردية مني تسكره، أليست الأمور في الديانات على هذا المنوال؟ ألم يحدث منذ زمن طويل أن الكاهن كان يفكر في كل شيء، ما عدا الإله الرحيم، بحيث أن قواس كنيسته كان يصدق كلامه في النهاية.. رغم انه صلب كالحديد؟ هذا يدعو إلى التقيؤ، في الحقيقة! أليس من المثير للسخرية أن تلميذي الأبله يقلد بيوديرييه جوسبين العظيم، في بزته وفي عثونه! لقد لاحظته ولا شك؟ وفيما بيننا، وبهذه المناسبة فإن العظيم بيوديرييه لا يختلف كثيراً عن تلميذي إلا بشهرته العالمية وبحدة نزواته الغربية.. بهوسه في تنظيف القوارير تنظيفاً كاملاً، وبمراقبته عن كذب على نحو لا يصدق، تفريخ العثة.. لقد بدا لي ذلك العبقرى التجريبي العظيم دائماً، سوقياً بصورة فظيعة.. قم بتجريد بيوديرييه العظيم قليلاً من هوسه الحقير الهائل في الانشغال بشؤون وأدوات المخابر وقل لي إذن ما الذي يبقى منه مما يثير الإعجاب؟ أنا أسألك؟ شخصية عدوانية لبواب عمارة مباحك وسيئ النية. هذا

كل ما في الأمر، بالإضافة إلى ذلك، فقد كشف في الأكاديمية عن طبيعته الخنزيرية طول العشرين سنة التي قضاها فيها، ولأنه كان مكروهاً من الجميع تقريباً فقد تخاصم مع كل من كان يعمل في الأكاديمية، وليس قليلاً.. لقد كان مصاباً بجنون العظمة على نحو لا يصدق.. وهذا كل ما في الأمر.

كان بارابين يتأهب بدوره، بهدوء، للخروج، ساعدته في وضع نوع من الوشاح حول عنقه، وفوق البقع والقشور التي تشكل أيضاً وعلى نحو دائم نوعاً آخر من وشاح، وحينئذ استعاد الفكرة التي جنّت لرؤيته من أجلها، بخصوص شيء ما محدد جداً ومستعجل. «هذا صحيح، لقد أضجرتك بالحديث عن شؤوني الصغيرة، نسيت مريضك، اعذرني أيها الزميل، ولنعد بسرعة إلى موضوعنا. ولكنك كنت تقول لي بأنك في المحصلة، لم تكن تعرف ماذا تفعل.. الواقع أن العقل يحترق إزاء الكثير من النظريات المتذبذبة، والتجارب الخاضعة للنقاش في اختيار أي منها: ابذل إذن كل ما في وسعك أيها الزميل: ما دام يتوجب عليك أن تتصرف. ابذل أقصى جهودك، من أجلي أنا أيضاً، يمكنني الآن أن أؤكد لك، بيني وبينك، بأن هذا المرض النموذجي أثار قرفي وتقززي في النهاية على نحو يتجاوز كل حد، وكل خيال أيضاً. حينما تصديت في شبابي للتفوييد، لم تكن سوى بضعة باحثين، ننقّب في هذا الميدان، وكان بمقدورنا، في المحصلة أن نعتمد على بعضنا، وأن نقدر بعضنا على نحو متبادل. أما الآن، فماذا أقول لك؟ في كل يوم يصل إلى هنا من لابونيا يا عزيزي! من البيرو! يصل المزيد من الاختصاصيين. يأتون إلى هنا من كل مكان! يفبركونهم، بالجملة في اليابان. سيغدو العالم خلال بضع سنوات، مثلما أراه، مؤسسة فوضوية حقيقية للنشرات الشاملة والسخيفة حول هذا الموضوع المكرر والمعاد دونما فائدة. لقد استسلمت لهذا الوضع، بغية

الحفاظ على موقعي هنا، وللدفاع عنه بالتأكيد، كيفما اتفق، بإنتاج وإعادة إنتاج بحث صغير أقدمه إلى مؤتمر، أو أنشره في صحيفة أو أخرى حيث أدخل عليه، ببساطة، في نهاية كل فصل بعض التعديلات البارعة والعديمة الجدوى، ومع ذلك، صدقني أيها الزميل، فإن التفويذ، في أيامنا هذه قد انحط وتحول إلى سفساف بقدر ما انحط الماندولين والبيانو، هذا مرهق إلى حد الإعياء، أقول لك، كل واحد يريد أن يعزف لحناً بطريقته، لا، أود أن أعترف لك أيضاً، لم يعد لدي القوة لأتحمل هذا النكد أكثر من ذلك، ما أبحث عنه كي أنهي وجودي على هذه الأرض هو ركن هادئ، أجري فيه أبحاثي، ليس لي فيه أعداء ولا تلاميذ، بل تلك الشهرة المتواضعة دونما حسد، والتي تكفيني، والتي أنا في حاجة إليها. من بين السخافات الأخرى، أفكر بدراسة مقارنة لتأثير التدفئة المركزية على البواسير بين بلدان الشمال والوسط، ما الذي تفكر به أنت؟ بعلم الصحة؟ بالحمية؟ تلك الموضوعات مطابقة لنوق العصر أليس كذلك؟ مثل هذه الدراسة إذا ما أنجزتها بنحو ملائم، وأطلت العمل بها زمناً. فسأحوز على رضى الأكاديمية، أنا واثق من ذلك، والتي تضم أغلبية من العجائز الذين لا يمكن أن يظلوا غير مبالين بمعضلات التدفئة المركزية والبواسير.

انظر ماذا، فعلوا بشأن السرطان الذي يثير اهتمامهم جداً!.. ولكن هل ستكرمني الأكاديمية بإحدى جوائزها؟ من يدري؟ عشرة آلاف فرنك؟ أليس كذلك؟ بهذا المبلغ سأعطي نفقات رحلة إلى فينيسيا، لقد كنت في فينيسيا أيام شبابي، هل تعلم ذلك يا صديقي الشاب؟.. كدت أهلك فيها من الجوع مثلما كدت أهلك في أمكنة أخرى، ولكنني كنت أنتسم فيها رائحة موت باذخ! ليس من السهل نسيانه فيما بعد..»

في الشارع، كان علينا أن نعود على أعقابنا بسرعة كي نبحث عن نعليه من الكاوتشوك واللذين نسيهما، تأخرنا بعض الشيء، ومن ثم فقد أسرعنا متجهين إلى مكان لم يكن قد حدثني عنه.

عبر امتداد شارع فوجيرارد الموشى بالخضار وبالأنقاض، وصلنا إلى حواشي ساحة محاطة بأشجار الكستناء ورجال البوليس، اندسنا داخل غرفة داخلية تابعة لمقهى، وجثم بارابين خلف لوح زجاجي في ظل سجف. «تأخرنا كثيراً، قال بارابين مغتاطاً، لقد خرجنا..»

— من؟

— طالبات الثانوية الصغيرات، إنهن فائتات، كما تعلم.. أعرف سيقانهن عن ظهر قلب. لم أعد أطلب شيئاً آخر، حتى نهاية حياتي.. لنذهب من هنا.. سيكون ذلك في يوم آخر..

وافترقنا، كصديقين حميمين حقاً.



« ساكون مسروراً لو ينزاح عن كاهلي واجب العودة إلى رانسي. منذ ذلك الصباح الذي غادرت فيه ذلك المكان، نسيت همومي المعتادة. كانت همومي ما تزال مقيمة في نانسي لا تبرح، لم تتبعني إلى باريس، ربما ستموت همومي هناك، مهملة، مثلما سيموت بيبرت، إن لم أعد. كانت تلك هموم الضواحي. غير أنني في شارع بونابرت، عاودني التفكير الحزين، رغم أن ذلك الشارع، كان يخلق البهجة في قلب العابر. فهو يصادف فيه بعض العطوفات والرشيقات. غير أنني حين اقتربت من أرصفة السين، غدت مع ذلك وجلاً. رحت أتسكع. لم أكن قادراً على اتخاذ قرار باجتياز السين. ليس كل الناس يوليوس قيصر! فعلى الجانب الآخر، فوق الضفة الأخرى، كانت تبدأ أكداري، قررت الانتظار هكذا على الضفة اليسرى حتى يخيم الليل.. كانت بضع ساعات من الشمس مغنماً لي، قلت ذلك لنفسى.

كان الماء ييبق بالقرب من بضعة صيادين، جلست أراقبهم وهم يصيدون، لم أكن مستعجلاً على الإطلاق، ولا هم كانوا مستعجلين أيضاً. كنت كأنما وصلت في اللحظة المناسبة، في العمر المناسب، ربما، حين يعرف المرء جيداً ما الذي يفقده في كل ساعة تمضي. ولكنه لا يملك بعد، قوة الحكمة التي يحتاجها كي يتوقف في درب الزمن، وإذا ما توقف، فإنه لا يعرف أيضاً ما الذي سيفعله من دون ذلك الجنون الذي يدفعه للمضي قدماً، ذلك الجنون الذي يستحوذ عليه، والذي يسبب عقله أيام شبابه، يكون المرء في السابق أقل تباهاً بذلك الشباب. ولا يجرؤ بعد على الاعتراف به أمام الملاء.

يكتشف المرء داخل ماضيه المضحك الكثير من المساهر والخدع والسذاجات بحيث يرغب، ربما أن يكف عن كونه شاباً، أن ينتظر الشباب الذي انفصل عنه. ينتظر أن يتجاوزه، يراه يمضي، ينادى، يشاهد خيلاءه، يضع يده داخل الفراغ، وحين يتأكد بأن شبابه قد تسرب بهدوء، من بين يديه، يعبر بتؤدة إلى الجانب الآخر من الزمن، كي يشاهد فعلاً كيف يكون الناس والأشياء.

عند حافة الرصيف لم يكن الصيادون قد صادوا أي شيء، لم يكن يبدو عليهم، أيضاً بأنهم حريصون كثيراً على أن يصيدوا أسماكاً.

لا ريب في أن الأسماك كانت تعرفهم. ظلوا هناك جميعاً متظاهرين بأنهم كانوا يصيدون. ثمة شمس أخيرة جميلة كانت ما تزال تتشر بعضاً من الدفء حولنا، مرقصة فوق الماء انعكاسات صغيرة من النور. مقودة من الزرقة والعسجد. ومن الضفة المقابلة كانت الريح تهب طرية عبر الأشجار، باسمه كانت الريح، منحنية عبر ألف ورقة، بهبات بليلة. مكثت جالساً هناك بهدوء، ساعتين كاملتين، لا أعاني من شيء ولا أفعل أي شيء. ثم اكتسى السين لوناً معتماً داكناً، وغدت زاوية الجسر حمراء قانية بلون الشفق، والعابرون على الرصيف كانوا قد نسونا هناك، بين الضفة والماء.

خرج الليل من تحت عقود الجسور، وصعد على امتداد القصر، اجتاح واجهة القصر ثم نوافذه، واحدة بعد الأخرى، والتي كانت تتلامع أمام الظلمة ثم ما لبث ذلك اللمعان أن خبا وانطفأ. لم يبق ثمة إلا الرحيل، نهائياً.

باجة الكتب القديمة فوق الأرصفة كانوا يغلقون صناديقهم «ها تعال» كانت المرأة تهتف من فوق الدرابزين لزوجها الذي يصيد بالقرب مني. والذي راح يجمع أدواته وطعوم ذبابه، وكرسيه المطوي. تذمر الزوج،

والصيادون الآخرون تذمروا في إثره، ثم سعدوا جميعاً، وصعدت أنا إلى الأعلى متذمراً، نحو الناس الذين يمشون فوق الجسر. تحدثت مع الزوجة. لأقول لها بضع كلمات لطيفة قبل أن يطمس الليل بعتمته كل شيء، رغبت المرأة على الفور أن تبيعني كتاباً. كان أحد الكتب قد نسيت إعادته إلى علبتها، مثلما زعمت «ستأخذه إذن بأرخص الأسعار، بلا شيء تقريباً». أضافت المرأة. كتاب صغير قديم لـ«مونتاني»، تحفة حقيقية بفرنك واحد.. رغبت أن أفرح قلب تلك المرأة لقاء نقود قليلة جداً، أخذت منها «مونتاني».

تحت الجسر كان الماء قد غدا ثقيلًا جداً. لم يكن لدي قط رغبة في أن أتقدم إلى الضفة الأخرى، عدت إلى الشوارع الفسيحة، تناولت قهوة بالكريما. وفتحت ذلك الكتاب الذي ابتعته من المرأة فوقعت بالضبط على صفحة تضم سطورها رسالة كتبها مونتاني إلى زوجته، بمناسبة موت ابن لهما، أثار ذلك المقطع اهتمامي مباشرة، ربما بسبب الروابط التي أقمته في تلك الفترة مع بيبرت. «آه! كتب مونتاني لزوجته، لا تجزعي!.. يا زوجتي العزيزة! ينبغي أن تتأسي! ستفرج هذه الكربة، كل كربوب الحياة تنفرج في النهاية.. لقد عثرت بالأمس في بعض الأوراق القديمة لصديق لي على رسالة أرسلها بلوتارك هو أيضاً إلى زوجته في ظروف مشابهة تماماً لظروفنا.. ولأنني وجدتها جميلة جداً، يا زوجتي العزيزة فإنني أرسلها إليك! إنها رسالة رائعة! أنا لا أريد، بالإضافة إلى ذلك أن أحرمك منها زمناً أطول، ستقولين لي كم خففت من كربك.. أيتها الزوجة العزيزة، إنها ستثير اهتمامك إلى أبعد الحدود! آه.. لا.. اطلعي عليها يا زوجتي العزيزة، اقرئيها جيداً. اعرضيها على الأصدقاء، وقرئيها مرة أخرى أيضاً، إنني مطمئن الآن تماماً، وأنا واثق من أنها ستعيد إليك رباطة جأشك.. زوجك الطيب، ميشيل». قلت لنفسى بعد

قراءة الرسالة. ذلك ما يمكن أن نسميه بالإنشاء الجميل الصنع. كانت زوجة مونتاني خليقة بأن تفخر بزوج طيب لا يجيد إنشاء مثل هذه الرسالة على غرار ميشيها، ولكن، كانت تلك، في النهاية شؤون أولئك الناس.. لعلنا نخطئ كثيراً حينما يتعلق الأمر بالحكم على قلوب الآخرين. ربما كانوا يشعرون بالحزن حقاً؟ بحزن عصرهم؟

فيما يخص بيبرت، فقد أمضيت من أجله نهراً عسيراً، لم يكن حظي سعيداً مع بيبرت. لقد بدا لي بأنه لم يعد ثمة شيء من أجله فوق هذه الأرض، وربما ينطبق الأمر نفسه على الناس جميعاً. فما أن يلحّ المرء قليلاً، حتى يصطدم بالخواء. ذلك أمر لا خلاف فيه، لقد غادرت رانسي في الصباح، ولا بد من العودة إليها. لم أكن أحمل في جعبتي أي شيء، لم يكن لدي قطعاً ما أقدمه لبيبرت ولا للعملة كذلك.

قمت بجولة صغيرة في ساحة بلانش قبل أن أعود. رأيت الناس متجمهرين على امتداد شارع لييل، أكثر من المعتاد. صعدت أنا أيضاً لأرى، كان الناس محتشدين في ركن من أركان حانوت جزار. كان علي أن أنهرس كي أرى ما الذي يجري داخل الحلقة. خنزير، بالغ الضخامة، يتأوه، هو أيضاً، وسط الحلقة على غرار رجل يتعرض للتعذيب، ولكن شكوى الخنزير كانت رهيبية. لم يكف المحتشدون عن تعذيبه، بشتى ألوان العذاب. كانوا يلوون أذنيه كي يسمعهو يبعق، كان الخنزير يثني قوائمه ويرفعها وهو يلتمس سبيلاً إلى الفرار باجتذاب حبله، كان آخرون يضايقونه، فيبعق أيضاً بصوت أعلى بسبب الألم، وكان الجمع يغرق في مزيد من الضحك.

لم يكن الخنزير الضخم يعرف كيف يختبئ داخل كومة القش الصغيرة جداً التي تركوها له، والتي كانت تتطاير أشلاء حين كان ينخر، أو ينفخ داخلها. لم يكن

يعرف كيف يفلت من هؤلاء الناس، كان يدرك ذلك. وبال في الوقت ذاته قدر ما يستطيع. ولكن ذلك لم يكن يفيد في شيء وظل ينخر ويبيع، لم يعد يملك أي حيلة، كان الجميع ينفجر بالضحك فيما الجزار، في الخلف، داخل الحانوت، يتبادل الإشارات والغمزات مع الزبائن، وهو يشير بسكينه الضخم.

كان الجزار سعيداً هو أيضاً، فقد اشترى الخنزير، وربطه من أجل الدعاية وهو لن يتسلى أكثر من ذلك، في عرس ابنته.

كان يجتمع عند باب الحانوت المزيد من الناس أيضاً، كي يروا الخنزير وهو يخر على الأرض، فتبدو غضون جلده وردية أكثر مع كل جهد يبذله من أجل الفرار، غير أن ذلك لم يكن كافياً أيضاً، فقد وضعوا فوق ظهره كلباً صغير شرساً. وأخذوا يحرضونه على القفز، وغرز أنيابه في اللحم السمين المنبسط. كانوا يتسلون على هذا النحو، ولكن لم يعد بوسعهم التقدم أكثر، فقد جاء رجال البوليس وفرقوا الحشود.

حينما بلغت في تلك الساعة أعلى جسر كولينكور لمحت فيما وراء بحيرة الليل الشاسعة التي تخيم فوق المقبرة أولى أنوار رانسي، كانت رانسي قابعة على الضفة الأخرى، ينبغي القيام بدورة طويلة. للوصول إليها. كانت بعيدة جداً، وخيل إلي بأنني سأطوف حول الليل ذاته، لفرط ما يحتاج السير حول المقبرة من وقت، ومن خطوات للوصول إلى التحصينات القديمة.

لما أن وصلت باب المقبرة، مررت أمام مكتب الدخول المتعفن، حيث يقبع الموظف الصغير الأخضر بخمول، مثل نبتة ذاوية، كلاب المنطقة اتخذت مواقعها من أجل النباح. كان ثمة زهور تحت ضوء مصباح غاز.. زهور البائعة التي كانت تقف دوماً هناك، تنتظر الأموات الذين يعبرون من يوم إلى آخر، ومن ساعة إلى أخرى.. المقبرة، ومقبرة أخرى أيضاً، إلي جانبها، ثم شارع ريفولت الذي كان يصعد بجميع مصابحه مستقيماً

وعريضاً، ليشق جوف الليل. لم يكن علي إلا أن اتبعه، على اليسار.. كان ذلك هو شارعي، لم أصادف أحداً، في الحقيقة.. ومع ذلك، كنت أرغب في أن أكون في مكان آخر، بعيد، كنت أرغب أن يكون في قدمي خفين حتى لا يسمعني أحداً أبداً، وأنا أعود إلى منزلي.. لن يكون لعودتي أية فائدة مع ذلك، إن لم تتحسن حالة بيبرت. لقد عملت كل ما في وسعي، لا شيء يمكن أن ألام عليه. لم تكن غلطتي إن أعجزتني الحيل أمام حالة كحالته.. وصلت أمام باب بيبرت، كنت أتخيله دون أن تقع أنظاري عليه. نظرت من نافذتي دون أن أفتح مغلقها كي أرى من بين الشقوق. إن كان ما يزال هناك أحد لأكلمه أمام منزل بيبرت.. كان بعض الزائرين يخرجون من المنزل. ولكن مظهرهم قد تغير عما كان عليه بالأمس. إحدى الخادמות التي تقيم في الجوار والتي كنت أعرفها، خرجت وهي تبكي، «من المؤكد أن حالة بيبرت قد تدهورت.. قلت لنفسي.. على كل حال فإن حالته لن تكون أفضل بالتأكيد، ربما يكون قد مات؟ ما دام هناك من يبكي!».. كان النهار قد أدير.

كنت أسأل نفسي مع ذلك، فيما إن كانت جهودي كلها مع ذلك مجانية ودون جدوى. كان ثمة برد وصمت يسودان منزلي، مثل ليل صغير في زاوية من الليل الكبير، ليل خاص بي وحدي..

من وقت إلى آخر كانت تتصاعد جلبة أقدام، كان الصدى يقتحم غرفتي ويتعاضم دويه أكثر فأكثر، ثم يتلاشى.. صمت.. كنت أنظر أيضاً إن كان ثمة شيء ما يدور في الخارج.. كان ذلك يدور في داخلي فقط. وأنا أطرح على نفسي السؤال ذاته دائماً.

انتهى بي الأمر إلى أن أغفو مع السؤال. داخل ليلي الخاص بي، داخل ذلك التابوت، لفرط ما كنت متعباً من السير، ومن إخفاقي في العثور على شيء.



« بقدر ما لا يصنع الناس لأنفسهم أوهاماً، بقدر ما لا يجنون ما يقولون فيما بينهم، إنهم لا يتحدثون إلى بعضهم إلا عن كربهم، وكل واحد عن كربه هو، بطبيعة الحال.. كل منهم لنفسه والأرض للجميع! إنهم يحاولون التخلص من كربهم من خلال الآخر، من خلال ممارسة الحب، ولكن ذلك لا يفيد، عبثاً يفعلون، فهم يحتفظون بكربهم كاملاً. ثم يبدؤون من جديد، يحاولون مرة أخرى أن يلقوا به بعيداً، «أنت جميلة، يا أنستي» يقولون، وتذب فيهم الحياة من جديد، حتى يلقوا بأخرى، فيحاولون أيضاً بالطريقة نفسها «أنت جميلة جداً، يا أنستي».

ولكنهم يفلحون في تنفيس كربهم، في غضون ذلك، من خلال التباهي بأنفسهم. غير أن الجميع، من حولهم يعلمون جيداً، دونما ريب، بأن تباهيهم لاصلة له بالحقيقة والواقع، وأنهم إنما يحتفظون به برمته لأنفسهم هم، في واقع الحال. وما أن يغدو أحدهم قبيحاً أكثر فأكثر، ومنفراً، في تلك اللعبة، حينما يشيخ، حتى لا يعود بوسعه إخفاء كربيه وإفلاسه. ثم ينتهي به الأمر إلى أن يرسم على وجهه تلك التكشيرة القذرة، والتي تستغرق عشرين سنة، ثلاثين سنة، وأكثر في التسلق من بطنه إلى وجهه. لهذه التكشيرة يصلح الإنسان، لها وحدها. إنه يمضي كل حياته من أجل أن يتقنها، رغم أنه لا يصل بها دائماً إلى الكمال. لفرط ما هي ثقيلة ومعقدة، بحيث يتوجب عليه من أجل أن يبرزها جيداً. أن يستغل كل موارد روحه دون أن يضيع منها شيئاً.

بخصوص تكشيرتي، فقد كنت على وشك أن أتقنها، بسبب فواتير لن أتوصل إلى تسديدها. إنها فواتير صغيرة مع ذلك، إيجار بيتي المستحيل،

معطفي الرقيق جداً، بالقياس إلى فصل البرد، وبائع الفواكه الذي كان يضحك في زاوية حانوته حينما يراني أعدّ قروشي، وأتردد أمام جنبه الأبيض، وأحمر حينما كان سعر العنب يرتفع، ثم مرضاي. الذين لم أنل رضاهم أبداً. صدمة موت بييرت أساعت إلى سمعتي أيضاً في الأنحاء المجاورة. غير أن العمّة لم تحقد علي. ليس بإمكانني القول بأن العمّة كانت خبيثة خلال ذلك الظرف. لا! آل هنروي بالأحرى. هم الذين بدأت أشعر تجاههم، وفي منزلهم بكثير من الضجر، وبكثير من المخاوف.

غادرت العجوز، الأم هنروي، ذات يوم جناحها، وابنها، وكنتها، وقررت من تلقاء ذاتها، القدوم لزيارتي. لم تكن العجوز غيبية، ومن ثم فقد صارت تعود إلي غالباً كي تسألني إن كنت أعتقد حقاً بأنها كانت مجنونة. كان ذلك يوفر لتلك العجوز فرصة للتسلية، بقدومها إلي وطرحها مزيداً من الأسئلة. كانت تنتظرنني في الغرفة التي كنت أستخدمها كصاله انتظار. ثلاثة كراسي واسكمله بثلاث أرجل.

حينما عدت ذلك المساء، وجدتها في صاله الانتظار، تعزي خاله بييرت، وتروي لها عن كل ما كانت قد فقدته هي، العجوز هنروي، من أقارب، في درب حياتها، قبل أن تبلغ هذا العمر، بنات إخوة وأخوات بالدينيات. أعمام وأخوال من هنا وهناك. والدها الذي توفي منذ زمن بعيد، في منتصف القرن الماضي، وخالات أيضاً، ومن ثم بناتها اللواتي اختلفن في أمكنة مختلفة، حتى إنها لم تعد تعرف تماماً أين متن ولا كيف متن، وقد خبت صورهن، وغدت مبهمه جداً، بحيث أنها كانت تجبر نفسها على تخيلهن الآن، وبكثير من المشقة أيضاً، حينما تريد أن تتحدث عنهن إلى الآخرين، لم يكن ذلك على الإطلاق ذكريات أبنائها وأقربائها، كانت العجوز تجرجر حشداً من

المنايا القديمة والخفيفة حول خاصرتيها الشائختين، ظلال خرساء منذ زمن طويل، أحزان غير محسوسة كانت تحاول إثارتها قليلاً مع ذلك، بكثير من المشقة، من أجل تعزية عمّة بيبرت، بعد ذلك، جاء روبنسون، بدوره وقمت بتعريف الجميع بعضهم على بعض. كأصدقاء.

ومنذ ذلك اليوم بالذات، اعتاد روبنسون على اللقاء بالعجوز الأم هنروي في صالة انتظار. كانا يتبادلان الحديث.. وفي اليوم التالي على دفن بيبرت.. «هل ستذهبون معي إلى المقبرة؟» سألت العمّة كل أولئك الذين كانت تلتقي بهم، سأكون مسرورة جداً، بأن تذهبوا معي إلى هناك..

— سأذهب بالطبع، أجابت العجوز هنروي، من دواعي سرور المرء أن يكون حوله أناس في هذه اللحظات. لم يعد أحد قادراً على إبقائها في كوخها القذر، لقد غدت العجوز دوارة جوالّة.

— آه، حسن إذن، حبذا أن تأتي معنا! شكرتها الخالّة وأنت، يا سيدي، هل ستذهب إلى هناك أيضاً؟ سألت العمّة روبنسون:

— أنا أخاف من المآتم، يا سيدي! أرجو أن لا تغضبني مني» أجابها روبنسون كي يتملص من الذهاب.

ومن ثم فإن كلاً منهم تكلم أيضاً ما طاب له الكلام، لا شيء إلا لأن عليه أن يتكلم بدوره، وبصوت حاد تقريباً، وحتى العجوز هنروي، شاركت في الحديث، بصوت أعلى بكثير من جميع الذين تكلموا، مثلما في مشفى المجانين.

وجدت العجوز، إذن في غرفة الانتظار، فأدخلتها إلى الغرفة المجاورة التي كنت أعين فيها المرضى.

لم يكن لدي شيء مهم أقوله لها، كانت هي التي تسألني، بالأحرى، عن أشياء، وقد وعدتها بأن لا أصر على شهادة عجزها، وعدنا إلى غرفة الانتظار لنجلس مع روبنسون والخالة، ثم خضنا أيضاً ساعة كاملة في حديث حول الحالة التعسة التي عاشها بيبيرت. جميع من في الحي كانوا مجتمعين، قطعاً على أنني بذلت أقصى الجهود وتحملت الكثير من المشقة من أجل إنقاذ الصغير بيبيرت، وأن وفاته كان قضاء وقدرًا، وأني كنت قد تصرفت بروية في المحصلة. وأن ذلك كان مفاجأة تقريباً لكل من في الحي، وحينما عرفت الأم هنروي بان عمر الصبي سبع سنوات. بدا عليها كما لو أنها شعرت بشيء من الراحة والطمأنينة، فموت صبي في عمر غض، كان يبدو لها أشبه بحادث عرضي، لا أكثر ولا أقل، وليس كموت طبيعي، يدفعها إلى التفكير.

شرع روبنسون يحدثنا مرة أخرى بأن الأحماض كانت تحرق معدته ورنثيه، وتسبب له الاختناق، وتجعله يبصق بصاقاً أسود تماماً، ولكن الأم هنروي لم تكن تبصق، ولم تكن تعمل في الأحماض. لذلك فإن ما كان يتفوه به روبنسون حول هذا الموضوع لم يكن يملك إذن أن يثير اهتمامها. لقد جاءت فقط كي تكون رأياً بصددي.

كانت تنفرس بي من زاويتها حينما كنت أتكلم، بحدقتيها الصغيرتين السريعتي الحركة والمائلتين إلى الزرقة. ولم يكن روبنسون يفوت أدنى خلجة من ذلك القلق الخفي الكامن بيني وبينها. كانت الظلمة ترحف داخل صالة انتظاري. وغرق المنزل الكبير في الجهة الأخرى من الشارع في الشحوب قبل أن يستسلم لليل. ثم، لم يعد ثمة سوى أصواتنا وهي تتردد فيما بيننا، وكل ما كان يبدو على أصواتنا أنها تقوله دون أن نقول شيئاً على الإطلاق.

ما أن اختليت بروبنسون حتى حاولت أن أفهمه بأنني لم أعد راعباً على الإطلاق في رؤيته ثانية، ولكنه عاد مع ذلك، في نهاية الشهر ثم في كل مساء تقريباً. لم يكن صدره في الواقع في حالة طبيعية.

«السيد روبنسون جاء مرة أخرى يسأل عنك، كانت حاجبة العمارة تذكرني بذلك، كان روبنسون قد أثار اهتمامها، ولكن لأن يتخلص المسكين من السعال، إنه ما يزال يسعل حينما يأتي..» كانت تعلم جيداً بأنها تزعجني بالحديث عنه.

كان روبنسون يسعل بالفعل «ليس هناك من وسيلة، كان هو نفسه يتنبأ بذلك، لن أتخلص من هذا السعال أبداً».

— انتظر حتى الصيف المقبل، اصبر قليلاً وسترى.. سينتهي ذلك من تلقاء ذاته».

هذا ما يقال، أخيراً، في مثل تلك الحالات، لم يكن بوسعي شفاؤه ما دام مستمرّاً في العمل بالأحماض.. كنت أرفع من معنوياته، مع ذلك

«سيذهب من تلقاء ذاته؟ كان يجيبي، أنت تبالغ بالتأكيد! ستقول بأن من السهل التنفس كما أتفس أنا.. بودي لو أراك تتنفس مع ذلك الشيء الذي في داخل صدري، ستخونك الشجاعة لو كنت مكاني.. هذا ما أقوله لك.

— أنت مكتئب الآن، لأنك تمر بلحظة عصبية ولكن حينما ستغدو أفضل.. وحتى أفضل قليلاً، ستري!

— أفضل قليلاً؟ في الجحر الذي أنا فيه سأكون أفضل قليلاً! كان من الخير لي، على الأخص، أن أموت في الحرب، لكان ذلك أفضل حقاً! أنت أيضاً تتمنى ذلك.. وتسلم به.. أليس كذلك؟»

يتشبث الناس بذكرياتهم القذرة، بكل تعاساتهم. إنهم لا يملكون أن يتخلصوا منها، فهي تحتل أرواحهم، إنهم ينتقمون من جور حاضرهم بصنع المستقبل في أعماقهم بالقذارة ، محقون وجبناء، هم في واقع الأمر. تلك هي طبيعتهم. لم أعد أجيبه بشيء، كان إذن حاقداً علي.

لكي أهدئ من قلقه بحثت له عن شراب مضاد للسعال، كان جيرانه يشتكون من أنه لم يكن يتوقف عن السعال، وأنهم لا يستطيعون النوم بسبب سعاله المتواصل. وفيما كنت أملاً له القارورة، كان يتساعل أيضاً، من أين أمكنه أن يلتقط عدوى هذا السعال الذي لا يتوقف.. ويطلب مني في الوقت ذاته أن أحقنه عن طريق الإبر، بملح الذهب.

«إذا مت بسبب الإبر، فلن أخسر أي شيء، أنت تعلم!»

ولكنني رفضت، بالطبع، اللجوء إلى علاجات شديدة التأثير أياً كان نوعها. كنت أريد قبل كل شيء أن يغرب عن وجهي.

كنت أفقد أنا نفسي كل مرح، بسبب رؤيته فقط، يتسكع مرة أخرى ها هنا، كنت أشعر بكل آلام العالم لأنني لم أكن أستسلم لفاقتي وبؤسي، ولأنني لم أخضع بعد للرغبة بإغلاق بابي، نهائياً، وعشرين مرة في اليوم، هكذا كنت أردد لنفسي.

ما الجدوى، إذن في الانصات أكثر، إلى نواحه؟ لقد طفح الكيل حقاً. «أنت تقتقر إلى الشجاعة يا روبنسون، قلت له أخيراً، ينبغي لك أن تتزوج، لعل الزواج يمنحك رغبة بالحياة..» لو كان لديه زوجة، لارتحت منه قليلاً. وحينئذ أشاح عني مغيضاً. لم يكن يحب نصائحي، وعلى الأخص الأخيرة منها. لم يجب بكلمة على مسألة الزواج تلك. لقد كانت في الحقيقة نصيحة بلهاء تلك التي قدمتها له.

في أحد أيام الأحد. لم أكن فيه مناوباً، خرجنا معاً، أنا وروبينسون، فسأقتنا أقدامنا، إلى مقهى رصيف في أحد أركان شارع ماغانايم، جلسنا لتناول كأس صغير من عصير الكشمش ومن الليمونادة، لم نتكلم كثيراً. لم يعد لدى أحدنا ما يقوله للآخر. وماذا تفيد الكلمات في الأصل إن كانت مواقف أصحابها ثابتة؟ مقتصرة على توجيه اللوم، لا أكثر. لم تكن الحافلات تعبر كثيراً أيام الأحاد، لذا فقد كان ممتعاً أن تسرح بنظرك من موقعك على الرصيف إلى الشارع أمامك، خالياً تماماً، هادئاً تماماً هو أيضاً، وجهاز الفونوغراف، في المقهى خلفك.

«هل تسمع؟» قال لي روبينسون، كان الفونوغراف يرسل ألحاناً أمريكية، كنت أعرف هذه الألحان، فقد استمعت إليها هي ذاتها في ديتروا، عند موللي..»

طوال سنتين قضاها هناك، لم يدخل روبينسون عميقاً في حياة الأميركيين، كان كما لو أنه لامسها من السطح، من خلال بعض موسيقاهم التي كانوا يحاولون من خلالها، هم أيضاً التحرر من وطأة الإلتمان على نمط في العيش، ومن العناء الفظيع الناجم عن عملهم في كل الأيام عملاً وحيداً متكرراً. يجعلهم يترنحون طوال حياتهم الخالية من المعنى، دبية، هنا، وهناك!..

لم يكف رأسه عن التفكير في كل ذلك. دوّم بعض الغبار هنا وهناك.. كان ثمة أولاد صغار، يتسكعون حول أشجار دلب قريبة، معفرين بالأترربة، متكرشين، جذبتهم أسطوانة الموسيقى هم أيضاً! ما من أحد يقاوم الموسيقى في الحقيقة، لا شيء يمكن فعله مع القلب. نحن نقدمه عن طيب خاطر. كنا بحاجة إلى الاستماع في قاع كل الموسيقى، إلى اللحن الذي لا علامات له، المصنوع من أجلنا، لحن الموت.

بعض المتاجر ما زالت تفتح أبوابها أيام الأحد، من قبيل العناد. خرجت بائعة الصنادل من محلها، متسكعة من واجهة إلى أخرى وهي تثرثر، حاملة معها كيلوغرامات من الدوالي خلف ساقها في الكشك المجاور كانت صحف الصباح تتدلى مسترخية مصفرة قليلاً. ركام هائل من الأخبار يترنخ فوق صفحاتها، بال كلب فوقها بسرعة، كان النعاس يداعب أجفان مديرة الكشك.

الأفكار أيضاً كان لها يوم أحدها، كنا ذاهلين أكثر من المعتاد. كنا هناك في الفراغ! نعاني من الفراغ! كنا مسرورين. ليس لدينا ما نتحدث به. ما من شيء في الواقع كان يخطر لنا، كنا بؤساء، كان وجودنا مقزراً ربما، ليس ذلك غريباً.

«هلاً وجدت لي عملاً، أعمل به، كي أخلص من مهنتي التي أنهكتني؟»
كان يخرج من سبحات تفكيره

«أريد الخلاص من عملي، هل تفهم؟ حسبي الكد مثل بغل! أريد أن أذهب لأنتزه أنا أيضاً.. ألا تعرف أناساً يحتاجون إلى سائق. عن طريق الصدفة، ألا تعرف أحداً من الناس، أنت؟».

كانت تلك أفكار يوم الأحد، لم أجرو أن أثنيه عن تلك الأفكار أو التلميح له بأنه ما من أحد على الإطلاق يمكن أن يعهد إليه بسيارته مع هذا الرأس الذي يحمله والذي هو أشبه برأس قائل معوز. وأنه، ببذلة السائقين أو من دونها، سيحتفظ بذلك المظهر الغريب والمضحك للغاية.

«أنت لست مشجعاً لي في المحصلة، استنتج حينئذ. لن أتخلص قط، إذن برأيك؟ لم يعد ثمة حاجة إلى أن أحاول؟ في أمريكا، لم تسر أموري جيداً. أنت تعلم.. وفي أفريقيا كانت الحرارة قد أنهكتني.. وها هنا.. لست

ذكياً بما يكفي.. في النهاية، ثمة في كل مكان شيء ما يقف في طريقي، كثيراً أو قليلاً، ولكنني متأكد من كل هذا، آه لو كنت أملك المال! لا اعتبرني الجميع شخصاً مهذباً ولطيفاً. هنا، وهناك، وفي كل مكان وفي أمريكا أيضاً، أليس هذا صحيح؟ وأنت نفسك؟..

— هذا صحيح» أجبتُه

لم يصدق بأنه توصل لوحده إلى هذه النتيجة العظيمة، نظر إليّ بغرابة حينئذ، كما لو أنه اكتشف فيّ فجأة جانباً منفرماً لم يكن يعرفه سابقاً.

«حين أفكر في الأمر، أرى أنك سلكت الطريق الصحيح، أنت تتبع الأكاذيب للمرضى، وبعد ذلك، تولي الفرار، لا أحد يراقبك أو يتحكم فيك، أنت تغدو وتروح حينما تريد، تملك الحرية، في المحصلة.. إنك تبدو لطيفاً، ولكنك، في الحقيقة، قاس عديم الرحمة في أعماقك.

— أنت غير منصف يا روبنسون.

«هيا إذن، ابحث لي عن عمل ما»

كان مصمماً على ترك مهنته في الأحماض، إلى مهنة أخرى.

انطلقنا في الشوارع الصغيرة الجانبية، وعند المساء خيل إلينا بأننا قد بلغنا قرية رانسي، مررنا بحقل للبقول كانت أبواب سياجاته نصف مفتوحة والفناء الواسع فارغاً، كوخ الكلب أيضاً. في مساء مثل هذا المساء ومنذ زمن طويل، غادر الفلاحون أحواشهم، طردتهم المدينة التي زحفت نحوهم من باريس، ولم يبق من ذلك الزمن سوى حوشين أو ثلاثة تفوح بروائح متعفنة، اكتسحتها معرشات الوستاريا، بعناقيد زهورها الضجرة، والمتهدلة نحو الأرض على هيئة جدران قرمزية، مشط الأعشاب المعلق بين مزاربين ما يزال لامعاً لم يصدأ. ذلك ماض لن نعود إلى رؤياه قط. لقد مضى وحيداً. أما

مستأجرو اليوم فهم أشدّ تعباً من أن يلمسوا أي شيء حول بيوتهم حينما يعودون، تراهم متكديسين ببساطة داخل حانات يشربون، تعلقت في سقوفها حلقات من الدخان «على صورة ثريات مهتزة». الحي بأكمله يرتج دون أن يشكو أحد أو يتذمر، من جراء الهدير المتواصل للمصنع الجديد. قرميد الأسطح المغطى بالطحالب، يتساقط متدرجاً فوق الشقق العليا المحدودة، مثلما يحدث في سجن فرساي وفي السجون الجلييلة الأخرى.

رافقني روبنسون حتى حديقة البلدية الصغيرة المحاطة كلياً بالمخازن والمستودعات، حيث كانت ترمى فوق المرجة المحشوشة مهملات المحيط المجاور، ما بين ملعب الكرة المعد للمعاقين وتمثال فينوس غير المكتمل وكثبان الرمل التي غدت مرتعاً للعب والتبول.

عدنا للحديث هكذا في أشياء مختلفة «ما ينقصني، أنت ترى، هو القدرة على تحمل الشراب» كانت تلك فكرته الدائمة. «حينما أشرب أشعر بتشنجات لا تحتمل في معدتي وهذا أسوأ»، وقدم لي الدليل على الفور بسلسلة من التجشّوات، لم يكن رأسي الصغير لما بعد تلك الظهيرة، يتحملها على الإطلاق.. «هكذا، أنت ترى».

أمام باب منزله تركني. «قصر التيارات الهوائية» كما كان يدعوه ثم اختفى، كنت أعتقد أنني لن أراه عما قريب.

بدأت أعمالي راغبة في الازدهار، قليلاً، تلك الليلة. كل ما في الأمر، أن سكان مبنى القوميسارية وجهوا لي دعوتين على نحو مستعجل. ففي مساء الأحد تنقلت الأهات والانفعالات واللهايات. ويراود الذات إحساس بالتأله.. ويعروها الثمل والانشراح أيضاً، ها هم أولاء العبيد، بعد يوم كامل من الحرية الكحولية ينتفضون قليلاً، ويغدو من العسير ضبطهم. إنهم ينخرون، يحممون، ويصلصلون بحديد سلاسلهم.

كان الأمر يتعلق بدرامتين كانتا تحدثان في ذلك المبنى، في آن معاً. في الطابق الأول كان مريض بالسرطان يلفظ أنفاسه، وفي الطابق الثالث كان هناك إجهاض، لم تفلح القابلة في أن تتدبر أمره، كانت تلك العجوز تعطي نصائح طبية للجميع، وبعد محاولتها تجفيف الدماء النازفة بمناشف ومناشف أيضاً انسلت بين حفتين، ونزلت إلى مريض السرطان في الطابق الأول لتحقنه بإبرتين من زيت الكافور، بعشرة فرنكات لكل إبرة، إن كان هذا يعجبكم، كان ذلك النهار طيباً، بالنسبة إليها.

جميع عائلات ذلك المبنى أمضوا يوم أحدهم بالمتزر والقميص الداخلي لمواجهة الأحداث. مدعومين جيداً بالأطعمة المتبلة، كانت رائحة الثوم وروائح غريبة أيضاً تحتل الأوراق والأدراج. الكلاب أيضاً كانت تتسلى متشقلبة حتى الطابق السادس. حاجبة العمارة كانت حريصة على أن تحيط بكل شيء، كنت تجدها في كل مكان، لم تكن قد شربت سوى من النبيذ الأبيض، لأن النبيذ الأحمر كان سيضيع عليها الكثير من التفاصيل.

القابلة العجوز الضخمة والملفوفة بوزرتها الفضفاضة قامت بإخراج الدرامتين. في الطابق الأول والثالث، واثبة، ناضحة بالعرق، مبهورة الأنفاس ومترعة بالحدق، أثار قدومي سخطها الشديد.. فقد كانت تسيطر على جمهورها. نجمة من النجوم.

بذلت عبثاً كل ما في وسعي لمداراتها، كي ألقت انتباهها إلى وجودي، ولو بأدنى حد ممكن، كي يجعلها وجودي وكلامي (على الرغم من أنها في الواقع، لم تفعل شيئاً سوى حماقات فظيعة) تشعر بالخوف. ولكن دون فائدة. أن تشرف على قابلة فذلك أشبه بداحس متقيح في إصبعك. فأنت لا تعود تدري كيف تعاملها كي ينالك أدنى قدر ممكن من أذاها، كان المطبخ يكتظ

بالعائلات حتى أول الدرج، مختلطين بأقارب آخرين للعائلة، ما أكثر ما كان هناك من أقارب! جسيمين ونحفاء، متكديين على هيئة عناقيد، يغالبون النعاس تحت أضواء «الثريات» كان الوقت يمضي، وما يزال آخرون يأتون من المقاطعة حيث ينامون هناك أبكر مما في باريس.. حسبهم تعباً وسهراً! كل ما كنت أقوله لأقارب دراما الطابق الأول، مثلما لأقارب دراما الطابق الثالث، لم يعوه أو يعقلوه بالمرة.

لم يدم الاحتضار في الطابق الأول إلا بعض الوقت. هذا أفضل وهذا أسوأ! وفي اللحظة التي هاجمه فيها الفواق. وصل طبيبه المعتاد، الدكتور أومانون كي يرى إن كان زبونه قد مات، وعنفني أيضاً، أو كاد، لأنه وجني عند فراش مريضه. شرحت حينئذ لأومانون بأنني كنت منوياً في الخدمة البلدية ليوم الأحد، وأن وجودي كان طبيعياً. ثم صعدت إلى الطابق الثالث، بوقار.

كانت المرأة في الأعلى تنزف باستمرار من فرجها، ولن تلبث طويلاً حتى تموت هي أيضاً، دون تأخير، مكثت دقيقة ريثما أحقتها بإبرة، ثم نزلت مرة أخرى إلى مريض أومانون، كان كل شيء قد انتهى، وكان أومانون قد غادر، ولكنه قبض مع ذلك العشرين فرنكاً التي هي من حقي، الوعد!.. عزمت حينئذ على أن لا أتخلي عن المكان الذي شغلته بالقرب من الإجهاض، صعدت إذن بسرعة.

أمام فرج المرأة النازفة، كنت ما أزال أشرح الأمور للعائلة، كانت القابلة، بالطبع تعاكس رأيي، كأنها كانت تكسب مالها بمعارضة أقوالي. غير أنني أنا الطبيب! تعساً لها. ينبغي أن لا أبالي بها سواء أرضيت أم لم ترض، كان ينتظرني مئة فرنك، على الأقل، إن عرفت كيف أتصرف بثبات، مزيداً من الهدوء، ومن العلم! قلت لنفسي. اللعنة! ينبغي الصمود. أمام هجمة

الملاحظات والأسئلة المترعة بالنبيذ الأبيض والتي كانت تتقاطع، عنيدة فوق رأسي الساذج، ذلكم هو العمل. إنه ليس سهلاً: قالت العائلة كل ما كانت تفكر به، بمساعدة الآهات والتجشؤات. كانت القابلة تنتظر، بدورها أن أتعث، وأن يرتج علي الكلام. وأن أولي الأدبار، وأترك لها المئة فرنك. كانت تريد أن تنهي الوضع بسرعة. وأجري إذن؟ منذ الذي سيدفعه؟ هذه الولادة تتعث منذ الصباح، أود ذلك، وهذا النزيف لا يتوقف، أود ذلك أيضاً، ولكن الجنين لا يخرج، ينبغي التمكن من إمساكه.

الآن، وقد مات مريض السرطان في الطابق الأول، فإن جمهور احتضاره صعد خلسة إلى هنا، فما دام أنهم قد سهرروا حتى هذه اللحظة، وضحووا بلبيلتهم تلك، فليتسلوا إذن بمشاهدة كل ما يتيح لهم الجوار من تسليات، أسرة مريض السرطان في الأسفل صعدت لترى إن كانت الأمور هنا ستنتهي نهاية سيئة أيضاً، مثلما انتهت لديها. ميطان في ليلة واحدة، وفي بناء واحد، سيكون هذا لعمرى، حدث مفاجع، بكل بساطة. كلاب الحي جميعاً كأن يُسمع رنين أجراسها الصغيرة، وهي تتواثب وتتسقلب عبر الأدرج. وقد صعدت هي أيضاً. أشخاص قدموا من بعيد، دخلوا كذلك، بأعداد وفيرة، يتبادلون الوشوشات.. الفتيات اليافعات كن «يتعلمن دروس الحياة» دفعة واحدة، كما تقول الأمهات، إنهن يتكلفن، برقة بالغة مظهر الرصانة أمام المحنة. تلك الغريزة الأنثوية في التعزية والمواساة، كن يراقبن منذ الصباح ابن عم لأسرة المريضة قد اعتراه زهول شديد، لم تكن عيونهن تفارقه، ذلك كشف مباح وسط التعب، كان الجميع بثياب البيت، مهملي الهندام. سيتزوج ابن العم إحدى هؤلاء الفتيات، ولكنه يريد أن يرى سيقانهن أيضاً، أثناء وجوده هنا، كي يستطيع أن يختار بصورة أفضل.

إخراج الجنين لم يكن يتقدم، ينبغي أن يكون مضيق الحوض جافاً، لم يعد ثمة انزلاق، كان هناك نزيف وحسب. سيكون هذا ولدها السادس ترى أين هو زوجها؟ طلبت أن أراه.

لابد من حضور الزوج، كي يتمكن من نقلها إلى المستشفى، هكذا اقترحت عليّ إحدى القريبات، وهي أم لعائلة كانت تريد مع ذلك. أن تذهب لتتأم مع أولادها الذين تركتهم. ولكن حين ورد ذكر المستشفى، فإن معظم الحضور لم يكن موافقاً. قلة منهم كانوا يريدون المستشفى. أما الغالبية فبدوا كارهين جداً بسبب التقاليد.. لم يكن يريد هؤلاء حتى مجرد الحديث عن ذلك، كانوا يتبادلون فيما بينهم بصدد الموضوع كلمات رنانة منقولة عن الأجداد، لن ينسوها أبداً، فهم يموتون في البيوت وبين أفراد العائلة وليس في مكان آخر. كانت القابلة تحتقر الجميع. غير أنني، من جانبي، كنت أريد أن يعثروا على الزوج كي أتمكن من أن أشاوره في الأمر، بغية اتخاذ قرار في النهاية، على هذا النحو أو ذاك. هو ذا الزوج قد برز أخيراً من بين الحشد.. أكثر تردداً وحيرة أيضاً. من جميع الآخرين. كان عليه هو، مع ذلك، أن يحسم الأمر. المستشفى؟ أم لا؟ ما الذي يريده الزوج؟ إنه لا يدري. إنه يريد أن يرى بعينه. أمعن النظر في زوجته حينئذ. أريته، تقب زوجته الذي تسح منه خثرات متجمدة وتبقيق الدماء فيه، ثم أريته زوجته بأكملها، والتي كانت تنن مثل كلب ضخم مرت فوقه عجلات سيارة. لم يكن، في المحصلة، يعرف ما يريد، ناولوه قداماً من النبيذ الأبيض ليتماسك. ثم ما لبث أن جلس.

لم تواته أية فكرة رغم كل شيء، ذلكم رجل يكدح طوال النهار، جميع من في السوق يعرفونه جيداً، وفي محطة القطار على الأخص، حيث كان يحمل الأكياس للسباخين، وليس أكياساً صغيرة بل ضخمة ثقيلة، منذ خمس

عشرة سنة. كان مشهوراً. بنظاله كان كبيراً وفضفاضاً، وسترته أيضاً، بحيث لم يكن يبدو عليه، لفرط اتساعهما أنه يتحرك داخلهما غير أنه فوق الأرض فقط، وحين ينتصب، كان يبدو واقفاً على رجليه كليهما، كما لو كان سيزلزل الأرض بين لحظة وأخرى. كان يدعى ببير.

كنا ننتظر قراره. «ما الذي تفكر به يا ببير؟» كان جميع من حوله يسألونه.. حك جلده، ثم جلس ببير، عند رأس زوجته، كما لو كان يصعب عليه التعرف عليها، هي التي لم تكف عن وضع الأبناء والآلام في هذا العالم. ومن ثم ذرف ببير نوعاً من الدمع. وبعد ذلك عاد إلى الوقوف من جديد. وحينئذ، طرحوا عليه السؤال نفسه مرة أخرى، كنت قد جهزت بطاقة دخول إلى المستشفى «فكر إذن قليلاً يا ببير!» كان الجميع يناشدونه. كان يحاول فعلاً. ولكنه أعطى إشارة بأن شيئاً لم يخطر له. نهض ومضى مترنحاً صوب المطبخ، حاملاً قده. ما جدوى انتظاره أيضاً؟ ربما سيدوم ترده بقية الليل، جميع من كانوا حوله أدركوا ذلك. لا بد لي إذن من الانسحاب.

كانت المئة فرنك قد ضاعت علي. هذا كل شيء! كنت قد سئمت من القابلة، لا يهم كيف! كان ذلك غاية مناها، ولم أكن، بالإضافة إلى ذلك، قادراً على المضي في إجراءاتي العملية، أمام أنظار الجميع. كنت متعباً للغاية «تعالى لي، قلت لنفسى، لنذهب من هنا! لنندع الطبيعة هادئة! تلك الصبية!

ما كدت أبلغ الدرج، حتى كان الجميع يبحثون عني، وكذلك الزوج الذي كان يتدحرج خلفي «هيه، صاح لي، دكتور، لا تذهب!

— ما الذي تريد مني أن أفعله؟ أجبته

— انتظر، سأرافك يا دكتور، أرجوك سيدي الدكتور!

— حسناً» قلت له، وتركته يرافقتني إلى الأسفل، لدى مرورنا بالطابق الأول، دخلت، مع ذلك لأودع عائلة مريض السرطان الراحل، ودخل الزوج معي إلى الحجرة. ثم خرجنا. وفي الشارع سار إلى جانبي، كان قد شعر بالحيوية في الخارج. صادفنا كلباً صغيراً كان يتدرب على الرد على كلاب تلك الناحية، بنباحات طويلة، كان عنيداً ونائحاً. إنه يعرف كيف ينبح الآن، محتجاً، وعماً قريب سيغدو كلباً حقيقياً.

«عجباً إنه «مح البيض» لاحظ الزوج، مسروراً جداً بالتعرف على الكلب، وبتغيير دفة الحديث. بنات الكواء في شارع غونيس هن اللواتي ربينه على رضاعة الأطفال: «مح البيض»، ذلك الجرو الصغير!.. أنت تعرف بنات الكواء؟

— نعم — أجبته

كان يحدثني دونما توقف، فيما نحن نمشي، عن الطرائق التي تُربى فيها الكلاب، دون أن يكلف ذلك غالباً جداً، كان يبحث باستمرار، مع ذلك، فيما وراء هذه الكلمات عن فكرته حول مصير زوجته.

كان هناك خمارة مفتوحة بالقرب من باب العمارة
«هل ندخل إلى هنا، دكتور؟ أريد أن أقدم لك..»

لم أكن أريد أن أعاكسه، «لندخل» قلت له «اثنان بالكريم»

وانتهزت الفرصة كي أعاد التحدث إليه عن زوجته. جعله حديثي جدياً تماماً، ولكن دون أن أتوصل، إطلاقاً إلى إقناعه بشيء.. فوق مكتب الخمار، كان ثمة باقة كبيرة من الورد تشع بالبهجة، كان ذلك عيد ميلاد الخمار ما رترودون، «هدية الأولاد» أعلن لنا الخمار ذلك وتناولنا قحداً من الفيرموت على شرفه، ثمل الزوج، واشتبك في جدال طويل مع الخمار، حول

تاريخ الخمارة واسمها السابق، حتى أنه لم ينتبه إلى خروجي لفرط ما كان مستغرقاً في الجدل.

لم أر الزوج مرة أخرى أبداً، كنت أشعر بخيبة مريرة من كل ما حدث لي في ذلك الأحد، وكنت متعباً جداً بالإضافة إلى ذلك.

ما كدت أخطو بضع خطوات في الشارع حتى لمحت روبنسون قادماً نحوي، حاملاً أنواعاً شتى من الألواح الخشبية، الصغيرة منها والكبيرة. تعرفت عليه جيداً، رغم عتمة الليل، ولشدة انزعاجه من لقائه بي، انسل مبتعداً عني، ولكنني أوقفته.

«أنت لم تتم إذن؟ قلت له

— الوقت مبكر! أجبني. أنا ذاهب إلى العمل في بعض الإنشاءات!

— ما الذي ستفعله بكل هذه الأخشاب؟ إنشاءات، أيضاً؟ تابوت؟ هل سرقتها؟

— لا، إنها من أجل قفص للأرانب

— هل تربي أرانب في هذه الأيام؟

— لا — إنه من أجل آل هنروي؟

— آل هنروي؟ وهل لديهم أرانب؟

— نعم، ثلاثة أرانب، سيضعونها، في الفناء الصغير. أنت تعلم، حيث تقيم العجوز..

— إذن فأنت تصنع أقفاصاً للأرانب، في هذه الساعة من الليل؟ إنها ساعة غريبة!

— تلك هي فكرة زوجته!

— يا لها من فكرة عجيبة!.. ما الذي تريد أن تفعله زوجته بالأرانب؟
هل ستبيعها من جديد، أم لتصنع منها قبعات بالفراء؟
— لست أعلم.. ستسألها حين تراها. حسبي أنا أن تعطيني «مئة
فرنك».

كانت مسألة القفص هذه تبدو لي، مع ذلك.. في منتصف الليل، غريبة
ومضحكة.. ألحفت عليه بالسؤال..
ولكنه حول مجرى الحديث. سألته من جديد

«ولكن كيف ذهبت إلى بيتهم؟ فأنت لم تكن تعرف آل هنروي؟

- العجوز هي التي قادتني إلى بيتهم. أقول لك. في اليوم الذي التقيت
بها في عيادتك، إنها ثرثرة، تلك العجوز.. وحين بدأت الحديث.. ليس لديك
فكرة.. لم أستطع التخلص منها.. ثم غدت بعد ذلك أليفة معي.. وكذلك هم..
ثمة أشخاص يثيرون اهتمامي أنت تعلم!

- أنت لم تحدثني إطلاقاً عن كل ذلك.. ولكن ما دمت تذهب إليهم، فلا
شك أنك تعرف! إذا ما توصلوا إلى وضع عجوزتهم في الملجأ؟

- لا، لم يتمكنوا من ذلك، كما قالوا لي..»

لم تكن هذه المحادثة بأكملها تروق له. كنت أحس بذلك، لم يكن يعرف
كيف يتخلص مني. ولكنه كلما كان يتهرب، كلما أصررت على معرفة ما
يقوم به.

«الحياة قاسية مع ذلك، ألا ترى أنت؟ ينبغي القيام بأعمال كثيرة، أليس
كذلك؟» كان يتحدث بغموض. ولكنني كنت أعيده من جديد إلى الموضوع،
كنت عازماً على أن لا أتركه يتملص.

— يقال بأن لدى آل هنروي من المال أكثر مما يتظاهرون به؟ ماذا تقول في ذلك، وأنت الآن ذاهب إليهم؟

— نعم، أكبر الظن أنهم يملكون كثيراً من المال، ولكنهم يريدون فعلاً التخلص من العجوز».

بصدد الكتمان، لم يكن روبنسون ناجحاً على الإطلاق.
«بسبب أعباء الحياة، أنت تعلم، والتي تزداد أكثر فأكثر يريدون التخلص من العجوز. قالوا لي بأنك لست راغباً في أن تعتبرها مجنونة؟ هل صحيح ما يقولونه؟

ودون أن يلح على سؤاله هذا، سألني، عن الجهة التي كنت قادماً منها.
«هل أنت عائد من زيارة مريض؟»

رويت له قليلاً عن مغامرتي مع الزوج الذي كنت قد أضعته في الطريق، جعله ذلك، يضحك، كما جعله يسعل في الوقت ذاته.

التوى جسده كلياً، داخل ظلمة الليل، ليسعل بينه وبين ذاته، بحيث لم أعد أراه تقريباً. ولقربه مني كنت ما أزال أرى يديه فقط على نحو مبهم، منضمتين إلى بعضهما برفق، على غرار وردة ضخمة زاوية أمام وجهه، في قلب الليل، ترتعشان. لم يتوقف عن السعال، «إنها تيارات الهواء!» قال أخيراً، بعد أن توقف سعاله، حينما كنا قد وصلنا أمام بيته.

«نعم، في بيتي تيارات هوائية! وهناك براغيث أيضاً هل لديك في البيت براغيث أيضاً.

كان بيتي لا يخلو منها. «نعم بالضرورة، أجبته إنها تنتقل إلي من بيوت المرضى.

— ألا تجد بأن مرضاك يفوحون برائحة البول؟ سألني حينئذ.

— نعم! وبرائحة العرق أيضاً..

— مع ذلك، قال بتمهل بعد أن فكر طويلاً، بودي لو أكون ممرضاً.

— لماذا؟

— لأن الناس، كما ترى، حينما ينعمون بالصحة، فمن المؤكد أنهم

يثيرون فيك الخوف.. منذ الحرب على الأخص. أنا أعرف بم يفكرون.. إنهم

لا ينتبهون دائماً إلى ذلك، هم أنفسهم ولكنني، أعرف بم يفكرون.. فحينما

يكونون أصحاء، يفكرون بقتلك.. في حين أنهم حين يكونون مرضى فمن

المؤكد، أنهم أضعف من أن يثيروا خوفك.. لا شك أنك توافقني الرأي فيما

أقوله لك.. أليس هذا صحيحاً.

— هذا صحيح، قلت ذلك على الرغم مني.

— وإذن، أنت، أليس بسبب ذلك أيضاً صرت طبيباً؟» سألني أيضاً

فيما كنت أبحث عن جواب، شعرت بأن روبنسون ربما كان على حق.

ولكنه عاد فوراً إلى سعاله في نوبة شديدة.

«قدماك رطبتان، ستصاب بذات الجنب، وأنت تترنج هكذا في الليل،

عد إذن إلى بيتك. نصحته، اذهب ونم.

بسبب سعاله المتواصل على هذا النحو، ثارت أعصابه.

— العجوز هنروي، لن تلبث طويلاً حتى تصاب بنزلة صدرية

محترمة. كان يسعل في أذني وهو يضحك.

— وكيف ذلك؟

— سترى! قال لي.

— ما الذي ابتكره الزوجان هنروي؟

— لا أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك.. سترى..

— أخبرني إذن، يا روبنسون، هيا أيها الوغد، أنت تعلم جيداً بأنني لأكرر ما أسمعه أمام أي كان..

الآن فقط، استبدت به الرغبة فجأة بأن يروي لي كل شيء. ربما ليُفهمني، في الوقت ذاته بأن علي أن لا أحسبه خانعاً، خائراً بقدر ما كان يبدو عليه ذلك.

— هيا إذن! كنت ما أزال أحته بصوت هادئ. أنت تعلم جيداً بأنني لأتكلّم مطلقاً..».

كان ذلك هو العذر الذي يحتاج إليه كي يعترف.

«بخصوص ذلك أنا أصدقك، فأنت تصمت جيداً» وافقني على ذلك، ثم انطلق ليعترف لي بما كان يكتمه، بكل جدية. أنت تريد ذلك، إليك إذن!.

كنا وحيدين تماماً في تلك الساعة فوق شارع كوتومانس.

«أنت تذكر، بدأ كلامه، قصة بائعي الجزر؟»

لم أكن أتذكر، في البداية، تلك القصة عن بائعي الجزر

«أنت تعرف جيداً، هيا؟ ألح علي، أنت نفسك من رواها لي..

— آه، نعم» وتذكرت ذلك حينئذ فجأة

«هل تقصد قصة عامل سكة الحديد، في شارع برومير؟ الذي انفجرت

فيه المفرقة، وأصابت خصيتيه، حينما كان يحاول سرقة الأرانب؟..

— نعم! أنت تعلم، في منزل بائع الفواكه، فوق رصيف ارجنتوي .

— صحيح! فهمت الآن. قلت له. وإذن؟» ذلك أنني لم أتبين بعد الصلة بين هذه القصة القديمة وبين موضوع العجوز هنروي.

لم يتأخر في أن يضع لي النقاط على الحروف.

— أنت لم تفهم؟

— لا»، قلت له، ولكن بعد قليل لم أعد أجروء على أن أفهم إيه حسناً، هل يحتاج منك ذلك إلى كل هذا الوقت؟

— ذلك لأن تصرفك يبدو لي غريباً. لم أستطع أن أمنع نفسي من تحذيره، أنت لن تشارك، مع ذلك في قتل العجوز هنروي الآن، من أجل إسعاد الكنة.

— أوه، أنت تعلم، سأكتفي أنا بصنع القفص الذي طلباه مني.. أما بالنسبة إلى المتفجرة، فإنهما من سيهتم بشأنها.. إن شاء!..

— كم أعطياك من أجل ذلك؟

— مئة فرنك من أجل الخشب، ومئتين وخمسين لصنع القفص، وألف فرنك أيضاً لكل الحكاية.. أنت تفهم، ليس ذلك سوى البداية، تلك حكاية.. حين تروى بصورة جيدة، فإنها تؤمن دخلاً.. صغيراً، هيه!.. هل تفهم ذلك؟

كنت أفهم في الواقع، ولم أكن مفاجأ، ولكن ذلك جعلني مغموماً، هذا كل شيء. كل ما تقوله لتنتهي الناس عما عزموا عليه في مثل هذه الحالات لأهمية له على الدوام، هل كانت الحياة لطيفة بهم؟ هل سيكون لديهم إذن رحمة بأي إنسان أو بأي شيء..؟ هل رأينا أحداً ينزل في الجحيم ليحل محل آخر؟ أبدأ على الإطلاق. ولكننا نراه يُدخل الآخر في الجحيم. هذا كل شيء.

نزعة القتل التي استأثرت فجأة بروبينسون، كانت تبدو لي في المحصلة كنوع من التطور، فيما لاحظته حتى ذلك الحين لدى الأشخاص الذين هم دائماً

أنصاف حقوقيين، أنصاف عطوفين، مريكين دوماً بسبب غموض نزعاتهم الداخلية. من المؤكد أنني بمتابعتي لروبينسون حتى النهاية، خلال تلك الليلة تعلمت أموراً كثيرة، مع ذلك.

ولكن كان ثمة خطر: القانون «هذا عمل خطر، لفتَ أنظاره إلى القانون، إذا ما علقت في حباله فلن تنجو، مع صحتك هذه، ستظل في السجن، ولن تصمد.

— تعساً لي حينئذ، أجايني روبينسون، يكفيني ما تعاملت به مع جميع الناس بالطرق القانونية.. أنت رجل عجوز، ما تزال تنتظر دورك كي تمرح وتضحك، وحين يصل دورك.. هذا إن وصل.. فستكون هالكا، مدفوناً تحت الثرى منذ زمن طويل.. المهن الشريفة هي عمل الناس السذج. كما يقال: أنت تعرف هذا مثلما أعرفه أنا.

— هذا ممكن.. ولكن الآخرين.. الرجال الأقوياء، جميع الناس، سيحاولون فعل ذلك ربما لو لم يكن هناك مجازفات.. والبوليس خبيث، كما تعلم، ليس ثمة إيجاب وسلب..»

— لا أقول العكس، ولكن أنت تفهم، ففي عمل كالذي أعمله، وفي شروط كالتي أعيش فيها، حيث لا يغمض لي جفن، أسعل طوال الليل والنهار، وأكد مثل حصان، في أعمال لا أرغب بها، ما من شيء يمكن أن يحدث لي الآن، أسوأ من ذلك.. هذا هو رأيي.. لا شيء..».

لم أكن أجروء على أن أقول له، في المحصلة، بأنه على حق تماماً، مخافة اللوم الذي سيوجهه إلي، فيما بعد، إذا ما أخفقت مكيدته الجديدة، وحتى يطمئنني، ساق لي بعض الحجج كي لا أقلق بشأن العجوز، فهي في نهاية المطاف، وبأي طريقة من الطرق، لم يعد لديها من العمر الكثير لتعيشه في

هذه الحياة الدنيا، فقد كانت مسنة جداً، وهو سيرتب أمر خروجها من البيت في النهاية، وهذا كل شيء.

إذا ما تحدثنا، مع ذلك عن خدعة شنيعة فقد كانت تلك رغم كل شيء، خدعة شنيعة، كل التفاصيل كان متفقا عليها بينه وبين ولدي العجوز.. فما دامت العجوز قد استأنفت عادة الخروج من بيتها، فسيغرونها ذات مساء جميل على الأكل مع الأرناب..

ستكون المتفجرة مجهزة جيداً، وستنطلق في وجهها تماماً حينما ستلمس باب القفص. مثلما حدث في بيت بائع الفواكه.. كان يُنظر إلى العجوز في الحي على أنها مجنونة. ولن يفاجئ الحدث أحداً من الناس.. سيقولون بأنهم نبهوها إلى أن لا تقترب أبداً من الأرناب.. وأنها لم تسمع كلامهم.. وعجوز في عمرها، لن تتجو بالتأكيد من صدمة مفرقة كالتي كانوا قد جهزوها.. على هذا النحو، في وسط معدتها.

لا نكران أبداً، في أنني كنت قد رويت لروبنسون حكاية مفيدة!



<< وعادت الموسيقى في العيد مرة أخرى، تلك التي ما برحت
أصداؤها ترن في ذاكرتي منذ أزمان بعيدة، حينما كنت ما أزال صغيراً، تلك
التي لا نتوقف أبداً، هنا وهناك، في جيوب المدينة، وفي ساحات الريف
الصغيرة، في كل مكان حيث يجلس الفقراء، في نهاية الأسبوع كي يتأملوا
فيما آلوا إليه، ذلكم هو فردوس النعيم! كان يقال لهم، ومن ثم فقد كانت
الموسيقى تصدح لهم، تارة هنا وطوراً هناك، ومن فصل إلى آخر، كانت
أصوات الموسيقى تضج للفقراء، تطحن كل ما ارتكبه الأغنياء بحقهم، في
السنة المنصرمة. كانت الموسيقى الآلية، تنهمر من ظهور الخيول الخشبية،
من السيارات التي لم تكن تشبه السيارات. من منصة المصارع الذي لا حول
له ولا قوة. من الساحر الذي كانت تخدعه زوجته. من الأورغ الذي لم يكن
ذهيباً، من خلف خط الرماية على البيض الذي كان فارغاً.. ذلكم هو العيد..!
عيد أناس نهاية الأسبوع.

ويشرب المحتفلون بالعيد كؤوس الجعة من دون رغبة، ولكن الصبي
نفوح رائحة أنفاسه تحت الأجمة المزيفة. والنقود التي يدفعها تحتوي على
قطع غريبة جداً، بحيث لا ينتهون بعد ذلك من تححصها، أسابيع وأسابيع.
يدسونها بصعوبة في أيدي المتسولين، حينما يتصدقون، ذلك هو عيد الفقراء،
ينبغي أن تتسلى حيثما يمكنك ذلك، ما بين الجوع وبين السجن، وأن تقبل
الأمر كيفما تكون.. وما دمت لابتاً في مكانك لا تبرحه، فعليك ألا تشكو!
«مركز الرماية» ذاته، رأيته من جديد. ذلك الذي شاهده لولا منذ سنين

مضت، رأيته الآن في ممرات حديقة سانت كلود. كل شيء نراه من جديد، في الأعياد! إنها عودة الفرح إلى الأعياد، ينبغي للجموع منذ الآن أن تعاود التنزه وسط الممر الكبير لسانت كلود.. متزهون ومنتزهون... كانت الحرب قد انتهت. ترى هل كان مالك مركز الرماية هو نفسه الآن أيضاً؟ هل عاد من الحرب ذلك المالك؟ كل شيء هنا كان يثير اهتمامي، تعرفت على أهداف الرمي، ولكنهم أضافوا إليها الرمي على الطائرات.. إنه الجديد، التقدم، الموضة.. كان العرس هو هو، الجنود أيضاً ودار العمدة مع علمها، كل شيء كان على حاله، في المحصلة، مع أهداف أخرى للرمي أكثر مما كان في ذلك الزمن الغابر.

ولكن الناس كانوا يمرحون أكثر في حلبة السيارات. تلك الابتكارات الحديثة. بسبب أنواع من الاصطدامات، لا نهاية لها، داخل الحلبة، وبسبب الرجات الهائلة التي تخرقك من رأسك حتى أحشائك. بعض المخبولين والصخابين كانوا يعمدون إلى التصادم بعنف بالغ، والسقوط دائماً كيفما اتفق، مسببين أشد الأذى لأنفسهم، لم يكن من السهل إيقاقهم. لم يطلبوا هم قط عناية من أحد، وما كانوا سعداء في يوم من الأيام. مثلما هم الآن. كان بعضهم ما ينفك يهذي، كان ينبغي انتزاعهم من كوارثهم. كانوا يطلبون الموت لأنفسهم، كعلاوة، لقاء عشرين قرشاً، فيما هم مندفعون فوق الآلة. كان على الجوقة الموسيقية أن تعزف وسط العيد حتى الساعة الرابعة. كان لها صليبيها وعلمها، لم يكن من السهل جمع الموسيقيين، بسبب البارات التي كانوا يدخلونها بأجمعهم بين حين وآخر، وحين كانوا يجتمعون من جديد، يكون واحد منهم ناقصاً، فينتظرونه، ثم يذهبون للبحث عنه، وأثناء فترة انتظاره وعودته، يستبد بهم العطش، وها هما اثنان آخران يختفيان. ثم يبدأ كل شيء من جديد.

تنتظر العائلات الألعاب النارية كي تذهب بعدها إلى النوم، انتظار، إنه العيد أيضاً، ألف ليتر فارغ كانت تهتز وتقطع، وتحت الطاولات أقدام متحركة متوافقة أو متعاكسة، لم يكن أحد يسمع الموسيقى لفرط ما كانوا يحفظون الألحان غيباً، ولا الأسطوانات المبهورة خلف الأكواخ حيث تمر الحياة في الأشياء التي لا بد من رؤيتها لقاء فرنكين اثنين. يقرع القلب من جراء التعب على امتداد صدغيك حينما تشرب، بم، بم! فوق نوع من المخمل الممتد حول رأسك، وفي أعماق أذنك، هكذا ستؤول إلى الانفجار ذات يوم. حينما تنضم حركة داخلك إلى حركة الخارج، وتتبدد حينذاك جميع أفكارك لتلهو أخيراً مع النجوم.

كان ثمة الكثير من الدموع خلال العيد، تنهمر من مآقي الأطفال الذين ينهرسون هنا وهناك بين الكراسي عن غير قصد، ثم من أولئك الأطفال الذين كان أبائهم يعلمونهم مقاومة رغباتهم، ومسراتهم الصغيرة المضطربة التي كانت تثيرها فيهم الأحصنة الخشبية التي ما تنفك تدور وتدور. ينبغي أن يستفيد الأطفال من العيد لتكوين طبائعهم، كانوا أصغر سناً من أن يتركوا ليتصرفوا على هواهم. لم يكونوا يعرفون بعد، هؤلاء الأولاد الظرفاء بأن لكل شيء ثمناً ينبغي تسديده، كانوا يعتقدون بأن أريحية الأشخاص الكبار خلف المكتب المزخرف، ولطافتهم، هي التي تجعلهم يحثون الزبائن على اجتناء المتعة من تلك الأشياء العجيبة التي يكومونها، ويسيطرون عليها، ويحمونها بابتساماتهم الزاعقة، دون أن يبتغوا شيئاً آخر، لم يكن الأولاد يعرفون القانون، وليس إلا بالصفعات يعلمهم الآباء القانون ويحمونهم من رغائبهم.

ليس هناك على الإطلاق فرح حقيقي بالعيد إلا للتجارة. ومن الأعماق أيضاً وفي الخفاء. تغتبط التجارة. عند المساء، أيما اغتباط، حينما يرحل

المؤمنون فاقدوا الشعور، زبن التجارة، تلك الحيوانات التي تدر الأرباح، حين يعم السكون من جديد، ساحة العيد، ويقذف آخر كلب في النهاية آخر قطرة بول فوق البليارد الياباني، حينذاك، يمكن للحسابات أن تبدأ. تلك هي اللحظة التي تحصي فيها التجارة قواها وضحاياها، بالقروش.

في مساء الأحد الأخير للعيد جرحت الخادمة في خمارة مارتريدون جرحاً عميقاً في يدها، فيما هي تقطع السجق.

في الساعات الأخيرة من المساء نفسه. غدا كل شيء حولي رائقاً إلى حد كبير، كما لو أن الأشياء قد كفت عن الانجرار من حافة الأقدار إلى حافتها الأخرى، بكثير من الحيرة والالتباس. وخرجت كلها، في الوقت ذاته من عتمة الظل وجعلت تحدثني، ولكن ينبغي الارتياح بالأشياء وبالناس في تلك اللحظات، اعتقدت بأن الأشياء ستحدثني، ولكنها لم تقل شيئاً على الإطلاق، ثم ابتلعها الليل في الأغلب دون أن أتمكن من فهم ما الذي كان عليها أن تقوله لي. هذا ما شعرت أنا على الأقل، كانت تلك تجربتي.

أخيراً، التقيت بروبنسون، في ذلك المساء ذاته، في مقهى مارتريدون حينما ذهبت لأضمد جرح خادمة المقهى. أتذكر الظرف بالتحديد. كان إلى جوارنا رجال عرب. لجؤوا زرافات إلى المقاعد المنجدة، وبدا عليهم النعاس. لم يكن يبدو عليهم الاهتمام بأي شيء مما كان يدور حولهم. حين تحدثت مع روبنسون تحاشيت العودة إلى محادثتنا في مساء اليوم السابق، حينما فوجئت به يحمل أخشاباً. كان من الصعب خياطة جرح الخادمة، لم أكن أرى الجرح بوضوح في عمق المقهى. وحينما فرغت من ذلك اجتذبتني روبنسون إلى ركن من أركان المقهى، وأصر هو نفسه على أن يؤكد لي بأنه كان قد رتب

الأمر في بيت هنروي، ولأجل قريب. كان ذلك سرًا.. كدرني كثيراً، ولم أكن أريد سماعه.

«لأجل قريب، بصدد ماذا؟»

— أنت تعرف الأمر جيداً..

— وماذا أيضاً؟

— احزر كم سيعطيناني الآن؟» لم أحرص على أن أحزر

«عشرة آلاف.. من أجل أن أصمت فقط

— إنه مبلغ!

— ها أنذا قد تخلصت من المأزق، بكل بساطة، هذه الآلاف العشرة من

الفرنكات.. كانت تنقصني دائماً.. لم يكن لدي قط أي مهنة، ولكن بهذه العشرة

آلاف فرنك..»

كان من المؤكد أنه قد ابتزّهما..

تركني أفتر كل ما سيكون في وسعه أن ينجز، أن يفعل بهذه الآلاف

العشرة من الفرنكات.. منحني الوقت كي أفكر في ذلك، كان واقفاً، لصق

الحائط، وسط الظل.. عالم جديد. عشرة آلاف فرنك.

ومع ذلك، فحينما عدت إلى التفكير في فعلته، أخذت أتساءل إن لم أكن

قد عرضت نفسي لبعض المخاطرة الشخصية، إن لم أكن قد انزلت إلى نوع

من التواطؤ، لأنني لم أظهر بمظهر المستكر على الفور لمشروعه، كان

خليقاً أن أندد به أيضاً، لست مبالغياً بالتأكيد، بأخلاق الناس لا من قريب ولا

من بعيد، ولا كذلك بسائر العالم. ما حيلتي إزاء ذلك؟ غير أن هناك سائر

الحكايات القنرة، التي يهتم بها القضاء لحظة الجريمة، من أجل تسليّة دافعي

الضرائب، أولئك القدرين.. ولا يعود المرء يعرف حينئذ كيف يخلص نفسه..

كنت قد شهدت ذلك سابقاً. كارثة فوق كارثة. كنت أفضل الكارثة التي تمر دون ضجة، على تلك التي تنتشر على صفحات الصحف. كنت مبلبلاً، بوجه الإجمال، ومسمماً في الوقت ذاته، فبانتهائي إلى هذا الحد، كانت الشجاعة تتقصني مرة أخرى للذهاب إلى أبعد مدى تصل إليه الأمور. وفيما كان علي أن أفتح عيني الآن على اتساعهما، كنت أحب أن أحتفظ بها مغلقتين. ولكن روبنسون كان يدفعني دفعاً، كما يبدو، إلى أن أفتحهما، إلى أن أقدر العواقب.

لكي أغير الحديث، فيما كنا نتمشى في المقهى، تطرقت إلى موضوع النساء. لم يكن روبنسون يحب النساء كثيراً.

«بالنسبة إلى النساء، قال، أنا مشغوف كما تعلم بأكفالهن الجميلة، بأفخاذهن الضخمة، بثغورهن من الداخل، ببطونهن التي ينمو دائماً في داخلها شيء ما، حيناً أطفال، وحيناً أمراض، ليس من خلال ابتساماتهن تسدد ما عليك من أقساط، أليس كذلك. حتى لو كان لدي أنا امرأة في كوكبي، فلن يفيدني في شيء، أن أكشف إبتيتها للمالك، في منتصف الشهر، لأن هذا لن يجعله يخفض لي الأجرة.

كانت هذه الاستقلالية نقطة ضعف روبنسون، هو نفسه كان يقول ذلك، غير أن المعلم مارتريدون سئم من «محادثتنا الانفرادية» ومن دسائسنا الصغيرة في أركان المقهى.

«الأقداح يا روبنسون، اللعنة! قال أمراً، هل سأقوم أنا بغسلها.

قفز روبنسون بنحو مفاجئ.

«أنت ترى، أخبرني قبل أن يبتعد، أنا أعمل هنا كخادم إضافي».

كنا ما نزال في موسم العيد. كان مارتريدون يعاني ألف صعوبة في الانتهاء من حسابات صندوقه. كان ذلك يقلقه.. كان العرب قد انصرفوا، ما عدا اثنين ما يزالان غافيين قرب الباب.

«ما الذي ينتظره هذان؟»

— ينتظران الخادمة، أجنبي المعلم مارتريدون

— كيف تسير الأحوال؟ سألته كي أقول شيئاً ما.

— بين بين.. ولكن الوضع صعب للغاية. تصور يا دكتور، قبل الأزمة، اشتريت بمبلغ كبير ستين سنداً، كنت خليقاً أن أتمكن من جني مائتي فرنك على الأقل لدى بيعها. هل تلاحظ؟ صحيح أن مقهاي يكتظ بالزبائن. ولكنهم من العرب على الأخص.. هؤلاء الناس لا يشربون الخمر إن، ليس من عاداتهم شرب الخمر.. في حين أن لدي زبائن بولونيون، هؤلاء يا دكتور، هؤلاء البولونيون ما أروعهم! إنهم يشربون على نحو يفوق الوصف! حينما كنت سابقاً في الأردن. كان لدي الكثير من البولونيين، وكانوا يأتون إلي من أفران طلاء الخبز. كانت تلك الأفران تحميهم، هذا ما نحن بحاجة إليه.. الظماً.. وها إن السبب مر على الحانة.. خراء! كان هناك عمل كثير! البلاد بكاملها في أزمة، وهؤلاء العرب الجديان، ليس الشراب هو ما يهمهم، وإنما للنكاح بالأحرى. الشراب محرّم في ديانتهم، كما يبدو، ولكن النكاح ليس محرماً..»

كان مارتريدون يحتقر العرب، ويصفهم بالجديان.. «أورغاد! يبدو أنهم يفعلون بخادمتي!.. إنهم كلبون، مهووسون أليس كذلك؟ أية أفكار. ألا توافقني يا دكتور. أنا أسألك؟»

كان المعلم مارتريدون يضغط بأصابعه الصغيرة على الجيوب المصلية التي تتدلى تحت عينيه: «كيف حال كليتيك؟» سألته حين رأيته يفعل ذلك. كنت أعالجه لقصور في كليتيه. «هل عدت إلى تناول الملح؟».. إنه الزلال أيضاً يا دكتور! لقد أجريت تحليلاً أول أمس في الصيدلية.. أوه. لم أعد أبالي إن فطست، بالزلال أو بشيء آخر. ولكن ما يضايقتني هو أن أعمل مثلما تراني أعمل.. من أجل ربح زهيد..» انتهت الخادمة من جمع آنية الموائد، ولكن ضمادها كان ملطخاً بفضلات الطعام، بحيث كان ينبغي تغييره، قدمت لي ورقة مالية من فئة المئة قرش. لم أكن أرغب بقبول هذه المئة قرش، ولكنها أصرت على إعطائها لي، كانت تسمى سيفيرين.

«هل قصصت شعرك يا سيفيرين؟ قلت لها معلقاً..

— هذا ضروري. إنها الموضة، قالت لي، ومن ثم فإن الشعر الطويل، مع عمل المطبخ هنا يحتفظ بكل الروائح.

— ولكن إبتك يفوح بروائح أسوأ. شوشت ثرثرتنا حسابات مارتريدون، فقطعها على هذا النحو، ثم أكمل، وهذا لا يمنع زبائنك مع ذلك، من..»

— نعم، ولكن هذا ليس الشيء نفسه، ردت سيفيرين، مغتازة بالتأكد.

ليس هناك روائح في أي مكان من جسمي.. ولكن هل تريد أيها المعلم أن أقول لك بأنك تفوح بروائح نتنة؟ ليس فقط من مكان واحد، فقط ولكن من كل أنحاء جسمك؟

كانت سيفيرين غاضبة بشدة ولم يكن مارتريدون يريد أن يسمع منها البقية، فعاد مدمماً إلى حساباته القذرة.

لم يكن بمقدور سيفيرين أن تخلع خفيها، كي ترتدي حذاءها، بسبب انتفاخ قدميها من جراء عملها الشاق، احتفظت به إذن في يدها كي تخرج. — سانام مع هذا الحذاء بالتأكيد، علقت بصوت مرتفع أخيراً. — هيا، اذهبي واطفئي النور في الداخل، أمرها مارتريدون أيضاً. لست أنت التي تدفعين ثمن الكهرباء، بالتأكيد.

لم يكن مارتريدون قد انتهى من عملية حساباته. خلع فوطته، وصدرته كي يحسب بنحو أفضل، كان متعباً، ومن العمق غير المرئي للمقهى، كان يتناهى إلى مسامعنا، طقطقة صحون. إنه روبنسون والعامل الآخر يغسلان الأواني. كان مارتريدون يخط أرقاماً كبيرة طفولية بواسطة قلم رصاص أزرق، يسحفه بين أصابعه التي تشبه أصابع قاتل، وكانت الخادمة تغفو أمامنا، مخلعة الأوصال، ثم ما تلبث أن تستعيد وعيها قليلاً بين لحظة وأخرى.

«آه! يا قدمي! آه! يا قدمي!» كانت تقول حينئذ، ثم تسقط في بئر النوم. ولكن مارتريدون أيقظها بضربة قوية على فكها.

«إيه، سيفيرين. اصطحبي معك هؤلاء الجديان خارج المحل، كفاني تعباً! أغربوا عن وجهي جميعاً! اللعنة!. حان وقت إغلاق المحل»

لم يكن يبدو على العرب أنهم مستعجلون على الإطلاق، على الرغم من الساعة المتأخرة. واستيقظت سيفيرين أخيراً.. «صحيح! ينبغي علي أن أذهب، وافقت، أشكرك يا معلم» اصطحبت معها الجديين كليهما. وبادر الاثنان معاً إلى الدفع لها.

«سأضاجع الاثنتين معاً هذا المساء، أوضحت لي سيفيرين، وهي تخرج، لأنني لن أستطيع في الأحد القادم، بسبب ذهابي إلى آشير لرؤية طفلي. أنت تفهم.. السبت القادم هو يوم مجيء المرضعة».

نهض العربيان كي يتبعاها. لم يكن يبدو عليهما مظهر الوقاحة والتهاك. نظرت إليهما سيفيرين، مع ذلك، نظرة جانبية سريعة، بسبب التعب.. «لست مع رأي المعلم، فأنا أجد الجديان أفضل من غيرهم، العرب ليسوا خشنين مثل البولونيين.. ولكنهم فاسقون.. لا جدال في أنهم فاسقون. إنهم يفعلون في النهاية كل ما يريدون.. أعتقد بأن ذلك لا يمنعني من النوم! هيا، دعتهما سيفيرين، إلى الأمام أيها الفتيتان!».

وها هم يمضون ثلاثتهم إذن. كانت سيفيرين تتقدمهما قليلاً. كنت أراهم يجتازون الساحة الباردة المغطاة بحطام العيد. يضيء أشباحهم مصباح الغاز الأخير في طرف الساحة. كنت ما أزال أسمع أصواتهم قليلاً، ثم لم أعد أسمع شيئاً على الإطلاق، لم يعد ثمة حس ولا نائمة.

غادرت المقهى بدوري، دون أن أكلم روبنسون. تمنى لي المعلم كثيراً من الأشياء. كان أحد رجال البوليس يذرع الشارع. صوت أقدامي على بلاط الشارع كان يهز جدار الصمت، مما يثير الرعدة في تاجر هنا أو هناك قد شوشة حساباته العدائية، مثل كلب يقرض عظماً.. ثمة عائلة عائدة من جولة، كانت تشغل الشارع كله بزعيقها، في إحدى زوايا ساحة جان جوريه. لم تعد العائلة تتقدم قط خطوة واحدة، كانت مترددة أمام شارع صغير مثل فريق من الصيادين يواجهون ريحاً عاصفة.. راح الأب يتعثر من رصيف إلى آخر.. لم يكن لينتهي من تبوله.

كان الليل قد حط رحاله وطاب له المقام



« ما أزال أذكر مساءً آخر في ذلك الحين، بسبب ما نشأ فيه من ظروف وأحوال. في البداية وبعد ساعة الغداء سمعت ضجة عظيمة صادرة عن علب قمامة كانت تترقع وتنقلب. كان ذلك العبث بعلب الأقدار يحدث على الأغلب فوق درج شقتي، ومن ثم، فقد سمعت أنين امرأة، وأصوات عويل، شققت بابي المطل على الدرج. ولكن دون أن أتحرك قيد أنملة.

إذا ما خرجت بنحو عفوي، لحظة وقوع حادث فسينظرون إلي على الأرجح، على أنني جار من الجيران لا أكثر، وسيعتبرون إسعافي الطبي مجانياً. أما إذا كانوا يريدونني، فليس عليهم سوى دعوتي حسب الأصول وسيعني ذلك بالنسبة إلي عشرين فرنكاً. الإيثار يلزمه البؤس ويتبعه كظله بكل قسوة، والمبادرات الأكثر وداً ولطفاً تجازى دونما رحمة، رحت أنتظر إذن أن يأتوا ليقرعوا بابي، ولكن أحداً لم يقرعه.. من باب التوفير بلا شك. غير أنني، حين كففت تقريباً عن الانتظار، فإن فتاة صغيرة ظهرت أمام بابي، كانت تحاول قراءة الأسماء فوق الأجراس، كنت أنا في المحصلة، من كانت تطلبه. مرسلة من طرف آل هنروي.

«من هو المريض عندهم؟ سألت الفتاة

— إنهم يطلبونك من أجل سيد أصيب بجراح في بيتهم.

— سيد؟» وخطر لي على الفور أنه هنروي نفسه

«من هو؟ السيد هنروي؟

— لا، بل من أجل صديق لهم كان عندهم.

— هل تعرفينه، أنت؟

— لا« فهي لم تكن قد رأيت هذا الصديق على الإطلاق.

كان الجو بارداً في الخارج. وكانت الطفلة تخب إلى جانبي بينما كنت

أعدو بسرعة..

— «كيف حدث ذلك؟

— لا أعرف أي شيء عنه.

حاذينا حديقة أخرى خلف غابة مسورة تكاثفت بين أشجارها سحب

شتائية ضبابية، عذبة ومتهادية.. ثم اجتزنا شوارع صغيرة، من شارع إلى

آخر. إلى أن بلغنا بيتهم بعد بضع لحظات. كانت الفتاة خائفة من الاقتراب

أكثر. لمحت الكنة هنروي واقفة على درج المدخل تحت طنف الباب.

مصباحها الزيتي كان يرتعش مع هبات الريح.

«من هنا، دكتور، من هنا» كانت تناديني من بعيد..

سألت أنا على الفور: «هل كان زوجك هو الذي أصيب؟

— ادخل إذن، قالت ذلك فجأة دون أن تترك لي الوقت للتفكير، ووقعت

أول ما وقعت على العجوز التي كانت تعوي من الرواق، وتهاجمني مطلقاً

رشقات من الشتائم.

«آه! القذرون! آه! قطاع الطرق! دكتور، لقد أريدوا قتلي!».

لقد أخفقوا إذن وخاب سعيهم.

«يريدون قتلك؟» قلت، كما لو أنني مندهش تماماً. ولماذا إذن؟

— لأنني لا أريد أبداً أن أموت بسرعة، أجل، بكل بساطة أقسم بالله، أنا

لا أريد أن أموت أبداً.

— ماما، ماما، قاطعتها كنتها، لم يعد عقلك سليماً، يا ماما! أنت تروين

للدكتور أكاذيب فظيعة. هيا، كفي عن ذلك يا ماما!

— أنا أروي أكاذيب فظيعة؟ إيه حسناً، لديك كل الوقاحة لتقولني ذلك! لم

يعد عقلي سليماً؟ ما يزال لدى ما يكفي من العقل السليم كي أوصلكم جميعاً

إلى حبل المشنقة. وأنا أقول لكم ذلك مرة أخرى!

— ولكن من الذي جرح، أين هو

— ستراه الآن! قاطعتني العجوز. إنه فوق، ممدداً على سريرها، ذلك

القاتل، لقد لوث سريرها، أليس كذلك، لوث فراشك القذر، وبدمه الخنزيري،

وليس بدمي أنا، بدمه الذي يجب أن يكون مثل الأقدار، ولن تنتهي يوماً من

غسله! سينتأزماً وأزماً دم ذلك القاتل، أنا أقول لك! آه. هناك من يذهب

إلى المسرح كي يحرك إحساسه، ولكنني أقول لك الآن: يوجد مسرح هنا، يا

دكتور! إنه فوق، ومسرح حقيقي، ينبغي أن لا تضيع مكانك، اصعد إلى

الأعلى بسرعة، ربما سيكون قد مات ذلك الوغد القذر حينما ستصل. وحينئذ

لن ترى شيئاً.

كان الكنة تخشى أن يسمع أحد في الشارع صوت العجوز. فأنذرتها بأن

تصمت، لم تبد لي الكنة، رغم حرج الموقف. مضطربة جداً. أو مفتاطة جداً

لأن الأمور حادت كلياً عن مسارها المرسوم، لا: كانت تحتفظ بفكرتها

بإصرار، بل وكانت على يقين بأنها على حق.

«ولكن يا دكتور، اسمع ما تقوله: أليس من المؤسف سماع ذلك، أنا

التي حاولت دائماً أن أجعل حياتها أفضل.. أنت تعرف ذلك. أليس صحيحاً؟

أنا التي عرضت عليها باستمرار أن نضعها في ملجأ الأخوات.».

كان الحديث عن الأخوات أثقل من أن تتحمل العجوز سماعه مرة أخرى.

«إلى الجنة! أجل أيتها الطفلة البريئة! كنتم تودون جميعاً أن ترسلوني إلى الجنة.. آه أيتها المجرمة! من أجل ذلك جننما به إلى هنا أنت وزوجك. ذلك الفاجر الذي يرقد فوق، من أجل قتلي، أجل، وليس من أجل أن ترسلاني إلى ملجأ الأخوات، هذا أكيد، وقد خاب سعيه، نعم. يمكنك يا دكتور أن تقول له بأن مكيدته كانت خائبة! اذهب يا دكتور، اذهب لترى حاله التي آل إليها، وغدك الذي فوق! هو نفسه الذي جر على نفسه الوبال.. وينبغي أن أتمنى له الهلاك.. اذهب يا دكتور. اذهب لتراه طالما ما يزال هناك وقت..».

إذا لم يكن يبدو على الكنة أي وهن أو خور، فإن العجوز كانت أقل وهناً وخوراً، لقد كادت أن تلاقي حتفها، مع ذلك، في تلك المكيدة ولكنها لم تكن ساخطة بالقدر الذي كانت تريد أن تظهر فيه، كانت تصطنع ذلك اصطناعاً. هذا الاغتيال المخفق كان يحثها بالأحرى، ويخرجها من ذلك النوع من القبر الهامد الذي انزوت فيه منذ سنين في عمق الحديقة المتعفن.. في عمرها المديد ذلك، كان ثمة حيوية فياضة. تعود لتملاً أوصالها الجافة. كانت مستمتعة ببذاءة، بنصرها، وبنشوة امتلاكها منذ الآن وبلا حدود، وسيلة لإفلاق كنفها القاسية. إنها تملك الآن هذه الوسيلة، لم تكن تريد أن يفوتني تفصيل واحد من هذا الاعتداء الخائب، ومن الكيفية التي جرت عليها الأمور. «وبعد ذلك، أنت تعلم. فقد كانت تتبعني أينما ذهبت، بالحماس والهوس ذاته. وفي بيتك أنت يا دكتور التقيت بالقاتل، في بيتك يا سيدي الدكتور.. كنت مرتابة به، مع ذلك.. آه كم كنت في ريب منه.. هل تعرف ما الذي اقترحه علي في البداية؟ أن يقتلك أنت يا ابنتي! يا صغيرتي! وبئس بخس

أيضاً! أؤكد لك ذلك! لقد عرض الشيء نفسه على الجميع. هذا متوقع منه..
وإذن فأنت ترين بأنني كنت أعرف حرفة قاتلك المأجور . وأنتي
استخبرت عنه جيداً. وأن اسمه روبنسون.. أليس هذا هو اسمه؟ قولي لي
إذن، بأن هذا ليس اسمه؟ ما إن رأيته يجوس هنا معك، حتى ساورتني
الشكوك على الفور.. لقد فعلتُ خيراً.. فلو لم يراودني الشك به فأين سأكون
الآن؟».

وروت لي العجوز أيضاً وأيضاً، كيف جرت الأمور. فقد تحركت
الأرانب حينما كان يربط المتفجرة خلف باب القفص. وكانت هي، العجوز،
أثناء ذلك تراقبه من كوخها، وهو يفعل ذلك. وانفجرت المفرقة. بكل ما فيها
من خراشق، في وجهه تماماً فيما هو يجهز خدعته. في عينيه بالذات «لايكون
الذهن حاضراً حينما ينفذ القاتل جريمته، بالضرورة!» استخلصت العجوز.

أخيراً، فإن ما حدث لم يكن سوى كبوة رعناء، وقلة مهارة. «على هذا
النحو تماماً يحولون الناس الآن. ! هكذا يعودونهم! ينبغي عليهم أن يقتلوا كل
يوم، كي يأكلوا! لم يعد يكفيهم أن يسرقوا خبزهم وحسب.. بل وأن يقتلوا
أهمهم أيضاً! لم يعد في أجسادهم أي شيء آخر سوى الشر.. ولكن ها إنكم
جميعاً تغوصون حتى الأعناق في الكيد والتآمر!.. وها هو قد صار أعمى
الآن، ذلك القاتل! وستحملونه على أذرعكم إلى الأبد! أليس كذلك؟.. ولن
تكفوا عن تعلم النذالات معه!..».

لم تتبس الكنة بكلمة، غير أنه كان عليها أن توقف خطبة العجوز كي
تخلص من هذه الورطة، وبينما كنا منصرفين إلى التفكير، أنا وهي، كانت
العجوز تقوم بالبحث عن ابنها عبر الغرف.

من الصحيح، يا دكتور، أن لي ابناً! أين هو الآن أيضاً؟ وما الذي يكيد
بالإضافة إلى ذلك؟»

كانت تترنح عبر الرواق، هازئة ضاحكة ما شاء لها الهزء والضحك.
عجوز، تضحك وتقهقه على هذه الصورة، ذلك شيء قلما يحدث إلا
للمجانين، ويتساءل المرء، ترى أين يذهب حين يسمع كل هذا! ولكنها كانت
مصرة على العثور على ابنها. كان قد فر إلى الشارع. «حسناً. فليختبئ،
وليعش هكذا زمناً طويلاً، فهو سيجد نفسه مرغماً، بالتأكيد على العيش مع
الآخر الذي هو فوق. على أن يعيشاً سوياً.. مع ذلك الذي لن يرى النور قط،
وعلى أن يطعمه، ذلك الذي انفجرت مفرقته في وجهه.. لقد رأيت أنا! رأيت
كل شيء! هكذا، بُم. رأيت كل شيء، ولم يكن ذلك أرنب، أوكد لكم! آه!
اللعة ثم اللعة! أين هو ابني، يا دكتور، أين هو؟ ألم تره أنت؟ إنه نذل خائر
القوى أيضاً، ذلك الابن، والذي كان دائماً مكاراً. وأشد مكاراً من الآخر. ولكن
الكراهية انتهت الآن إلى الخروج من طبيعته القدرة. آه هذه الكراهية، أجل،
إنها، ومنذ أمد بعيد، تتبع من طبائع فظيعة كطبيعته. وحينما تخرج فإنها
حينئذ، العفن بعينه، لا شك في ذلك، يا دكتور، لقد وصلت الكراهية إلى هذا
الحد. ينبغي أن لا نخطئها!»

كانت ما تزال تتسلى، راغبة، أيضاً في أن تدهشني. بترفعا إزاء هذه
الأحداث، وأن تخزينا جميعاً، دفعة واحدة، وتهيننا بالجملة.

كانت مأخوذة بدور مؤات لها كلياً. تستمد منه الانفعال، وقد بلغ بها
الفرح كل مبلغ. لم يكن لسعادتها حد على الإطلاق. طالما أنها ما تزال قادرة
على تمثيل ذلك الدور، لم تعد العجوز هنروي تقبل بدور الشكوى والنحيب،
دور العجائز، الذي تركوه لها منذ عشرين عاماً. وهي لم تعد تتخلى عن هذا

الدور الذي أتيح لها، الشديد الفتك، وغير المنتظر. أن يكون المرء عجوزاً، فهذا يعني أنه لن يجد بعد دوراً مفعماً بالحمية ليؤديه، يعني أنه سيصبح أسير تلك العطالة الغثة المسيخة والتي لا ينتظر منها سوى الموت. كانت رغبة الحياة تعاود العجوز، على حين فجأة، مع هذا الدور المترع بالحمية. لم تعد بالمقابل راغبة بأن تموت على الإطلاق، وبهذه الرغبة في الاستمرار بالعيش كانت تتألق، بهذا اليقين. لقد عثرت على النار. نار حقيقية وسط المأساة.

كانت تسخن أكثر فأكثر، لم تعد راغبة في أن تترك النار الجديدة، وتتركنا. لقد كفت منذ زمن طويل، عن الاعتقاد بموتها، وتوصلت إلى أنها لم تعد تعرف كيف تفعل من أجل أن لا تستسلم للموت في أعماق حقيقتها الرثة. وفجأة عرض لها عارض عنيف، عصف بيومياتها الرثية القاسية. فدفنت أيما دفء .

«موتي أنا، كانت الأم هنروي تولول الآن. أريد أن أرى موتي بعيني. أنتم تفهموني: لدي عينان كي أرى موتي، أنتم تسمعونني! ما يزال لدي عينان أريد أن أشاهد موتي بهما!».»

لم تعد العجوز راغبة في أن تموت، على الإطلاق، كان ذلك واضحاً. لم تعد تعتقد بأنها ستموت.



<< من المؤكد بأنه يصعب دائماً إصلاح مثل هذه الأمور. وأن إصلاحها يكلف على الدوام غالباً جداً. في البداية لم تكن نعرف حتى أين سنضع روبنسون، في المستشفى؟ وهو ما يمكن أن يثير ألف ساعة من دون شك وثرثرات لا حصر لها.. أن نرسله إلى بيته؟ كان من المستحيل كذلك التفكير بمثل هذا الحل، بسبب الحالة التي كان يبدو وجهه فيها. طوعاً إذن أو كرهاً، كان آل هنروي مضطرين إلى إبقائه في بيتهم.

أما هو، الممدد فوق سريرهما في غرفة نومهما في الأعلى فكان يعاني الأمرين، هلع شديد كان ينتابه، من أن يلقى به خارج الباب ثم يلاحق، كان ذلك مفهوماً. كانت تلك واحدة من القصص التي لا يمكن، في الحقيقة، روايتها لأحد. ظلت مصاريع النوافذ في غرفته محكمة الإغلاق، غير أن الناس، والجيران بدؤوا يعبرون في الشارع أكثر من المعتاد، كي يشاهدوا فقط المصاريع المغلقة، ويجتسّون أخبار الجريح، كانت تروى لهم أخبار ويلقى على مسامعهم أمازيح ونكات. ولكن كيف يمكن منعهم من الاندهاش، من النّم والثرثرة؟ وبالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن تحاشي الافتراضات؟ لم تبلغ النيابة العامة، لحسن الحظ بأي شكوى محددة. كانت الأمور تجري على هذا المنوال. أما بخصوص وجهه فقد تدبرت الأمر، لم يحدث أي إنتان، على الرغم من أن جرحه كان كثير التجاويف واللطخات: وأما عيناه فكانت أتوقع وجود ندوب على قرنيتهما تمنع عبور النور داخلهما إلا بضعوبة. هذا إن كان ممكناً أن يدخل فعلاً.

ربما سنجد وسيلة لإعادة البصر إليه بطريقة أو بأخرى، إن كان قد بقي لديه ما يمكن إصلاحه، ولكن كان علينا في اللحظة الراهنة أن نتخذ

الاحتياجات العاجلة، وعلى الأخص أن نحول بين العجوز وبين أن تتمكن من تعريضنا جميعاً إلى الخطر بنباحاتها القذرة أمام الجيران والمتطفلين، كان من العبث القول بأنها مجنونة، فذلك لا يفسر دائماً كل شيء.

إذا ما تدخل البوليس مرة واحدة في مغامرتنا فسيجربنا، لا نعود ندرى إلى أين. كان الحؤول دون أن نثير العجوز الآن فضيحة، وإبقاؤها في فئائها الصغير يشكلان مهمة حساسة ودقيقة، كان كل واحد منا يحاول، بدوره، أن يهدئها، لم يكن بوسعنا أن نستعمل أسلوب العنف، ولكن الرقة والدمائة لم تكن تفلح دائماً، أيضاً، كانت العجوز مسكونة بروح الانتقام الآن، وكانت تبتزنا، ببساطة متناهية.

كنت أمر لرؤية روبنسون، مرتين في اليوم على الأقل، كان يئن تحت ضماداته، حالما يسمعي أصعد الدرج، كان يتألم، هذا صحيح، ولكن ليس بالقدر الذي يحاول أن يظهره لي. سيكون لديه ما يعزیه! كنت أتكهن، حينما سيبتين له بالضبط ما آلت إليه عيناه. ظللت أراوغ بما يكفي بشأن المستقبل.. كان جفناه يخزانه بشدة، وكان يتوهم بأنه بسبب هذا الوخز لم يعد يرى أمامه. انهمك الزوجان هنروي في العناية به عناية فائقة، حسب تعليماتي. لامجال للسأم في هذا الجانب.

لم نعد نتحدث عن المحاولة، ولم نكن نأتي على ذكر المستقبل كذلك، وحينما كنت أغادرهم في المساء كانوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم بعضاً، كل واحد بدوره، وفي كل مرة كانوا يتبادلون فيها تلك النظرات، وبمثل تلك الإصرار، كان يخيل إليّ باستمرار بأنهم على وشك أن يفتك بعضهم ببعض فتكاً ذريعاً لا رحمة فيه. تلك النهاية التي ينتهي إليها تفكيرهم كانت تبدو لي

منطقية جداً، وملائمة لكل منهم. كان يصعب علي تخيل كيف يقضي ذلك المنزل ليليته. ورغم ذلك كنت أجدهم في الصباح، ونعود معاً إلى الأشخاص والأشياء حيثما كنا تركناهم معاً في المساء الفائت. ومع السيدة هنروي كنت أجد الضماد والتطهير. بالبرمنغانت، ونشق مصراعي الشباك قليلاً على سبيل التجريب. لم يكن ثمة جدوى في كل مرة، فروبنسون لم يكن ليلاحظ حتى بأننا قد شققنا المصراعين.

على هذا النحو كان يدور عالمنا خلال الليل منذراً بأسوأ العواقب، وصامتاً كصمت المقابر.

وعاد الابن يستقبلني كل صباح، بعبارة قروية صغيرة، كان يقولها لي «إيه حسناً، هو ذاك يا دكتور، ها نحن في فترات الصقيع الأخيرة» كان يقول ذلك شاخصاً بعينيه إلى السماء من تحت الباحة الصغيرة ذات الأعمدة، كما لو كان ثمة أهمية للزمن الذي نحن فيه. زوجته كانت تنطلق مرة أخرى إلى حماتها ساعية إلى التفاوض معها عبر الباب المرتج بإحكام، دون أن تتوصل إلا إلى تأجيل غضبها.

فيما كنت أجدد الضمادات لروبنسون كان يروي لي كيف بدأ حياته. كان قد بدأ بالتجارة. وضعه والداه وهو في الحادية عشرة من عمره عند إسكافي متقن الصنعة ليقوم بتسليم البضاعة إلى الزبائن، وبينما كان ذات يوم يقوم بالتسليم دعت زبونة إلى أن يطارحها الغرام، لم يكن لديه حتى ذلك الحين سوى صور خيالية عن تلك النشوة. لم يعد بعدها إلى معلمه أبداً لفرط ما بدا له تصرفه ذاك شائناً. فأن يضاجع زبونة في ذلك الزمن الذي يتحدث عنه، كان ذلك، في الواقع عملاً لا يغتفر. قميص تلك الزبونة، من الموسلين كان قد ترك لديه تأثيراً خارقاً لا يمحي. وبعد مرور ثلاثين سنة، كان ما يزال يتذكر تماماً ذلك القميص. تلك

السيدة ذات القميص المحفّف، شقتها المملوءة بالأرائك، والسجف المهذبة. ذلك اللحم الوردي المعطر ترك لدى الصغير روبنسون طوال حياته مادة لمقارنات يائسة لا نهاية لها.

كثير من الأشياء مرت بعد ذلك.. جاب قارات وخاض حروباً كاملة، ولكنه لم ينهض قط من تلك الرؤيا، كان يبهبه مع ذلك. أن يعاود التفكير فيها. أن يروي ذلك النوع من برهة الشباب التي قضاها مع تلك الزبونة «حين يكون لك عيانان مغلفتان هكذا فإن ذلك يجعلك تفكر. تتقاطر الصور إلى خيالك، حتى لتظن، بأن هناك سينما في رأسك..» لم أكن أتجرأ بعد على أن أقول له بأنه سيكون لديه الكثير من الوقت ليتعب من سينماه الصغيرة. فما دامت جميع الأفكار تقود إلى الموت، فستحين عليه لحظة من اللحظات، لن يعود يرى فيها سوى الموت معه داخل سينماه.

بالقرب من منزل هنروي كان ثمة مصنع صغير يعمل طوال النهار، مع محرك ضخم في داخله، كانوا يرتجفون داخل منزلهم بسبب الهدير من الصباح وحتى المساء، ومن ثم، فقد كان هناك مصانع أخرى أبعد قليلاً، تهدر دون انقطاع، وحتى خلال الليل «حينما سينهار كوخنا فلن يعود لنا أثر!» كان هنروي يمزح في تلك المناسبة، يساوره بعض القلق، مع ذلك.. «سينتهي بلا شك إلى السقوط» كان هذا صحيحاً.. فقد كان السقف يتفتت فوق الأرضية أنقاضاً صغيرة، عبثاً كان يهدئ مخاوفهما أحد المهندسين، فمند أن قررا أن يسمعا أشياء العالم، أحسا داخل بيتهما كما لو أنهما داخل قارب، نوع من قارب يمضي بهما من خوف إلى خوف. مسافرين مسجونان، أمضيا زمناً طويلاً داخل مشاريع أكثر كآبة من الحياة، وتوفيرات أيضاً، والارتياب بالنور، وكذلك بالظلمة.

كان هنروي يصعد إلى الغرفة بعد الإفطار كي يقرأ شيئاً لروبنسون، مثلما كنت قد طلبت منه. كانت الأيام تمضي. حكاية تلك الزبونة المدهشة التي كان قد امتلكها أيام تدريبه. قصها على هنروي أيضاً، وانتهت تلك الحكاية إلى أن تشكل نوعاً من الفكاكة العامة، لدى جميع من في المنزل، هكذا تنتهي أسرارنا حينما نطلقها في الفضاء، على ملأ من الآخرين. ليس ثمة ما يثير الخوف في داخلنا، وفوق الأرض، وفي أقطار السماء سوى ما لم نقله بعد. ولن نشعر بالطمأنينة إلا حينما نقول كل ما لدينا، مرة واحدة وإلى الأبد، حينذاك سنصمت في النهاية، وسنكون أشد خوفاً من صمتنا. هذا ما سيكون عليه الأمر في بيت هنروي.

خلال الأسابيع التي استمر فيها تقيح أجفانه كان يمكنني الهذر معه بشأن عينيه ومستقبله. تارة كان يزعم أن النافذة مغلقة في حين أنها كانت مفتوحة على مصراعها، وطوراً أن الجو مظلم في الخارج.

غير أنه، ذات يوم، وفيما كنت أدير ظهري له، تقدم نحو زجاج النافذة كي يتأكد بنفسه، وقبل أن أتمكن من التدخل أزاح الضمادات من فوق عينيه، تردد لحظة؛ ولامس قوائم النافذة من اليمين ثم من اليسار لم يكن يريد أن يصدق في البداية، بأنه لا يرى، ومن ثم فقد كان عليه مع ذلك أن يصدق. كان عليه أن يصدق فعلاً.

«باردامو! كان يعوي حينئذ ورائي، باردامو!. إنها مفتوحة! النافذة مفتوحة أنا أقول لك!» لم أكن أعرف بماذا أجيبه. لبثت أمامه متبلاً. كان يضع ذراعيه الاثنتين وسط فراغ النافذة، في الهواء الرطب.. لم يكن يرى أي شيء بالطبع، ولكنه كان يحس بالهواء. مد ذراعيه حينئذ بقدر ما وسعه ذلك، داخل الظلمة المحيطة به كما لو من أجل أن يلمس نهايتها. لم يكن يريد أن

يصدق الأمر. ومن الظلمة التي كانت تلفه، أعدته إلى سريره، وجعلت أواصيه أيضاً، ولكنه لم يعد يصدقني أبداً. كان يبكي، لقد بلغ نقطة النهاية هو أيضاً. لم يعد ممكناً أن أقول له أي شيء، ثمة لحظة تشعر فيها بأنك وحيد تماماً، حينما تبلغ نهاية كل ما يمكن أن يحدث لك. تلك هي نهاية العالم. الحزن نفسه، حزنك أنت، لا يعود يستجيب لك أبداً. سيكون عليك العودة حينئذ إلى الوراء. وسط الناس، أي ناس لا على التعيين، لن تكون صعب الإرضاء حينذاك، لأنك من أجل أن تبكي لا بد لك من العودة إلى الناس. حيث كل شيء يبدأ من جديد. أجل عليك العودة إليهم.

«إذن! ماذا ستفعلين به عندما ستتحسن جراحه؟» سألت الكنة أثناء الإفطار الذي أعقب ذلك المشهد. كانا قد طلبنا مني البقاء لمشاركتها الطعام، داخل المطبخ. لم يكونا يعرفان، في الواقع لا هو ولا هي كيف سيخرجان من الوضع، كانت نفقة إعالته التي سيدفعانها تثير هلعهما، هي على الأخص، لأنها أكثر إطلاعاً من زوجها على الكلفة التي تتطلبها الترتيبات من أجل العاجزين، كانت قد حاولت كذلك القيام ببعض المساعي لدى مؤسسة المساعدة الحكومية. مساع كانت تتجنب أن تحدثني عنها.

ذات مساء بعد زيارتي اليومية الثانية حاول روبنسون بكل الوسائل أن يبقيني إلى جواره بعض الوقت، وجعل يحدثني، دون توقف، عن كل ما كان يمكنه أن يتذكره عن الأشياء وعن الرحلات التي قمنا بها سوياً وحتى عما لم يكن يحاول في أي يوم من الأيام تذكره، كان يتذكر أشياء لم يكن يتاح له الوقت أبداً لاسترجاعها، ففي عزلته، كان العالم الذي يجوبه يسيل متدفقاً بجميع النواحات والمسرات والثياب العتيقة والأصدقاء الذين تركهم. بازار حقيقي من المشاعر الموغلة في القدم كان يدشنه في رأسه دون عيين.

«سأقتل نفسي!» أخطرني بذلك، حينما بدا له شقاؤه بالغ الوطأة. ومن ثم فقد توصل مع ذلك، إلى أن يحمل شقاءه أبعد قليلاً. على غرار عبء ثقيل جداً فوق كاهله، عبء عبثي إلى أبعد الحدود. شقاء فوق طريق لم يكن يصادف فيها أحداً ليكلمه عنه، لفرط ضخامته وحدته، ولن يكون بوسعه تفسيره، كان ذلك شقاء يتجاوز معارفه.

كان جباناً رعيدياً، كنت أعرف ذلك، مפתوراً أيضاً على الأمل دوماً بالتخلص من الحقيقة. ولكنني من جهة أخرى، بدأت مع ذلك أتساءل إن كان هناك في أي مكان أشخاص جبناء حقاً.. يمكن القول بأن من الممكن دائماً أن يوجد بالنسبة لأي شخص نوع من شيء يكون مستعداً للموت من أجله، على الفور، وبسرور شديد أيضاً. ولكن المناسبة فقط لا تسنح دوماً ليموت المرء على نحو جميل، المناسبة التي تعجبه. إنه يذهب حينئذٍ إذن ليموت، في مكان ما، على النحو الذي يعجبه أن يموت فيه. ويظل هناك، أخيراً على الأرض، الإنسان غير المقتنع بالموت فقط، والذي يبدو في عيون الجميع مغفلاً وجباناً. هذا كل ما في الأمر! ليس الجبن إذن سوى مظهر خارجي فقط.

لم يكن روبنسون مستعداً لأن يموت في المناسبة التي سنحت له، وربما لو سنحت على نحو مختلف، فإن الموت كان سيروق له كثيراً.

الموت بوجه الإجمال، يشبه الزواج بعض الشبه، وهذه الميته لم تكن تروق لروبنسون على الإطلاق، ذلك هو الأمر. لا جدال..

سيتوجب عليه إذن أن يستسلم لتقبل تعفنه ومحنته. غير أنه الآن ما يزال مهموماً جداً ومشغولاً جداً بتلطيف روحه على نحو مقرز بتعاسته وكربه، وفيما بعد سينظم أمر تعاسته، وحينذاك سيبدأ حياة حقيقية جديدة. لامناص له من ذلك أبداً.

«ستصدقني، إن شئت، كان يذكّرني، فيما هو يرمق على هذا النحو، مرقاً من الذكريات، بعد العشاء. ولكن أنت تعلم، فعلى الرغم من أنني لا أملك مطلقاً، استعدادات حقيقية لتعلم اللغات، فقد توصلت، مع ذلك في الإنكليزية إلى أن أتمكن من إجراء حوار صغير في ديتروا، نسيته الآن تقريباً ما عدا جملة واحدة.. كلمتين اثنتين، تعودان إلي في كل وقت، منذ أن حدث ما حدث لعيني GENTLEMEN FIRST ذلك تقريباً كل ما يمكنني أن أتحدث به الآن بالإنكليزية، لا أعلم لماذا.. من السهل تذكره، هذا صحيح.. GENTLEMEN FIRST».. ورغبة مني لتغيير أفكاره، رحت أتحدث معه بالإنكليزية. كنا نكرر حينئذ ولكن مراراً: عبارة «السيد أولاً..» بمناسبة ودون مناسبة، مثل الحمقى، على سبيل الدعابة فيما بيننا. ثم انتهينا إلى أن نعلّمها لهزروي نفسه، الذي صعد إلينا كي يراقبنا.

فيما كنا نهدهد الذكريات، تساءلت بيني وبين نفسي، ترى ما الذي أمكنه أن يبقى من ذلك كله.. مما كنا نعرفه كلانا.. تساءلت.. ما الذي أمكن أن تكون قد آلت إليه موللي، لطيفتي موللي.. ولولا، تلك التي كنت أريد أن أنساها. ولكنني كنت، في كل الأحوال أود أن تكون لدي أخبار عنهن جميعاً. رغم كل شيء، عن الصغيرة ميزين أيضاً.. التي ينبغي أن تكون الآن مقيمة غير بعيد عن باريس. بالقرب مني في المحصلة. ولكن سيكون علي أن أقوم بنوع من الجولات، مع ذلك كي أقتصي أخبارها.. وسط العديد من الأشخاص الذين أضعت أسماءهم وعاداتهم، وعناوينهم، والذين ينبغي أن تكون حفواتهم وكذلك ابتساماتهم قد تحولت بعد سنوات من الفلق، والبحث عن الطعام، على غرار الجبن القديم، إلى تكثيرات قاسية. الذكريات نفسها لها شبابها.. فما أن نتركها تتعفن حتى تتحول إلى أشباح مقززة، تسخّ بالأنانية، وبالخيلاء،

وبالأكاذيب.. إنها تتعفن، على غرار التفاح. كنا نتحدث إذن، عن فترة الشباب. كنا نتذوقها ونعاود تذوقها، كنا نرتاب بها. أمي، بالمناسبة، لم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل، وتلك الزيارات التي قامت بها، حين كنت في المشفى كلما نجحت في ترك أثر طيب على جملتي العصبية.. كانت أمي أسوأ حالاً مني فيما يتعلق بالكآبة والأحزان.. حبيسة دوماً، داخل حانوتها الصغير، كانت تراكم حولها قدر ما تستطيع من خيبات وخيبات، بعد العديد والعديد من السنين، وحينما كنت أذهب لرؤيتها، كانت تروي لي: «أنت تعرف الخالة هورتانس، لقد ماتت منذ شهرين في كوتانس.. ربما سيكون بإمكانك الذهاب إلى هناك؟ وكليمانتين. أنت تعرف كليمانتين؟ مساح الأرضيات الخشبية الذي كنت تلعب معه حينما كنت صغيراً؟.. إيه حسناً.. لموه أمس الأول من شارع أبو قير. لم يكن قد تناول طعاماً منذ ثلاثة أيام..»

طفولة روبنسون لم يعد يعرف من أين يتناولها حينما كان يفكر بها، لفرط ما كانت تفتقر إلى الفرح والتسلية، وباستثناء حادثة الزبونة لم يكن يجد فيها شيئاً إلا ويثير يأسه إلى حد التقيؤ، داخل منزل، لم يكن يجد فيه سوى أشياء منفرة نفوح بالروائح، مكانس وصرر، وأدوات طعام، وصفعات.. السيد هنروي لم يكن لديه أي شيء يرويه عن صباه، حتى التحاقه بالجندية، ما عدا أنه كان يملك من تلك الفترة صورة فوتوغرافية، وهي ما تزال لديه، الآن فوق الخزانة الزجاجية.

حينما خرج هنروي من الغرفة أبلغني روبنسون بقلقه من أنهما لن يسلماه الآن أبداً عشرة الآلاف فرنك التي وعدها بها «لا تعتمد عليهما كثيراً، في الواقع» قلت له، كنت أفضل أن أهيئه لتلك الخيبة الأخرى.

قطع رصاص صغيرة، تلك التي بقيت من الشحنة المتفجرة، كانت قد برزت على حواف جراحه، كنت أنتزعتها في أوقات متفرقة، بضع قطع منها

كل يوم.. كان ذلك يسبب له ألماً شديداً، حينما كنت أقلب مبضعي فوق ملتحمتي جفنيه.

عبثاً كنا نتخذ العديد من الاحتياطات، فقد بدأ أهل الحي بالثرثرة مع ذلك، في كل ما يعنّ لهم.. لم يشتبه روبنسون، لحسن الحظ فيما يدور حوله من ثثرات، لأن ذلك كان سيزيد من وطأة مرضه، من دون ريب. كنا محاطين بالشكوك والشبهات. كانت الضجة التي تثيرها هنروي الابنة وهي تجوب أرجاء المنزل بخفيها، ثقل شيئاً فشيئاً.. لم تكن نعتمد عليها، رغم أنها كانت هناك، بالقرب منا.

لما أن بلغنا وسط ركام الصخر، كانت أقل شبهة الآن، تكفي لتلقي بنا جميعاً في عباب أليم، كل واحد منا سيذهب حينئذ ليفرقع، لينفلق ليتهشم، ليزوب، لينطرح فوق الضفة. روبنسون، والحماة، والمفرقة والأرنب، والعينان، والابن العجيب، والكنة القائلة، سنذهب لننطرح هناك وسط جميع أوساخنا، وخزينا القذر، أمام الفضوليين المرتعشين. كنت أحس بالعار، ليس لأنني ارتكبت أي شيء جرمي على نحو واقعي أكيد، لا، ولكنني كنت أشعر بأنني مذنب آثم، مع ذلك. كنت على الأخص مذنباً بالرغبة في أعماقي بأن يستمر كل هذا، وبأنني لم أعد أرى ضيراً في أن نمضي جميعاً لنتجول أبعد فأبعد في أقاصي الليل!.



« ليس الأغنياء في حاجة إلى أن يقتلوا من أجل أن يأكلوا. إنهم يشغلون الناس كما يقولون. لا يقترف الأغنياء الآثام بأيديهم هم، إنهم يدفعون المال. يفعل الآخرون كل شيء لإرضائهم، والعالم بأجمعه يرفل بالحبور. وبينما تكون نساؤهم جميلات فإن نساء الفقراء قبيحات. تلك نتيجة ولدتها القرون، دع عنك تبرجهن. إنهن جميلات، ظريفات، مغذيات على أحسن وجه، مغتسلات أحسن اغتسال، ومنذ أن استمرت الحياة لم تكن الأمور إلا على هذا المنوال.

أما بقية الناس، فعبثاً يشقون ويتعبون. إنهم ينزلقون، يسقطون في الكحول الذي يحفظ الأحياء والأموات. ولا يجنون أي شيء. ذلك مثبت لامراء فيه. ومنذ العديد من القرون يمكن رؤية بهائمنا، تولد، وتتعب، وتفتس أمام أنظار الجميع، دون أن يحدث لها في حياتها قط أي شيء غير عادي، اللهم إلا أن تستأنف بؤسها المسيح الذي خلفته لها بهائم أخرى. يتوجب علينا، مع ذلك، أن نفهم ما الذي يجري. موجات لا تتوقف من الكائنات غير المجدية تأتي من أعماق العصور. لتموت في كل وقت أمام عيوننا، ومع ذلك، نظل هناك، نأمل بأشياء.. لا نفكر بالموت الذي نحن فيه. نساء الأغنياء مغذيات جيداً، مرفهات جداً، ينعمن بالراحة الهائلة، لذلك يصبحن جميلات. هذا صحيح. ربما كان هذا كافياً في النهاية! لا أدري! ولكنه سيكون على الأقل، مبرراً للعيش.

«ألا تجد أن النساء الأمريكيات أكثر جمالاً من النساء هنا؟»

كان روبنسون يسألني عن أشياء من هذا القبيل منذ أن جعل يهدد ذكريات أسفاره. كان لديه شيء من الفضول، حتى أنه بدأ يتحدث عن النساء. كنت أذهب لرؤيته الآن أقل غالباً.. بعد أن تم تعييني في تلك الأثناء ضمن هيئة استشارية في مستشفى صغير لمعالجة مرضى السل في الأنحاء المجاورة. ينبغي تسمية الأشياء بمسمياتها، فقد كنت أحصل من هذا العمل على ثمانئة فرنك في الشهر. كان المرضى، بالأحرى، من أبناء المنطقة التي كنت أعيش فيها، من ذلك النوع من القرى التي لم تتوصل أبداً إلى الخلاص من الوحل. الغارقة في الأقدار، والمحاطة بدروب ضيقة، حيث كانت فتيات المدارس الصغيرات، المتفتحات والمخاطيات، على امتداد سياجات الأشجار المتشابكة، ينسلن من مدارسهن ويسلمن أنفسهن من شبق إلى آخر، يلتقطن منه عشرين قرشاً، وبطاطا مقلية، ومرض السيلان.. بلدة من بلدات سينما الطليعة حيث الغسيل القذر يسم الأشجار وسائر البقول التي تسحّ بالبول، في أماسي أيام السبت.. لم أحقق في بضعة الشهور تلك خلال ممارسة عملي التخصصي أية معجزة. كان الوضع، مع ذلك، في حاجة إلى معجزات. ولكن مرضاي لم يكونوا يحرصون على أن أحقق معجزات، كانوا على العكس من ذلك يعتمدون على سلهم كي ينتقلوا من حالة البؤس المطلق، حيث يختنقون منذ أمد بعيد، إلى حالة البؤس النسبي، التي توفرها المعاشات الحكومية الصغيرة جداً، كانوا يجرجرون قشعهم الأكثر أو الأقل إيجابية من مصح إلى مصح منذ الحرب، وقد ضوت أجسادهم من شدة الحمى التي كان ينشطها شحة الطعام وكثرة الإقياء. والإقبال الشديد على تناول الخمور، والعمل، رغم كل ذلك، يوماً واحداً من ثلاثة أيام، والحق يقال.

كان الأمل بالمعاش الحكومي يملكهم جسداً وروحاً. وسيأتيهم ذلك المعاش ذات يوم على غرار النعمة الربانية، شريطة أن تكون لديهم القوة على انتظاره مزيداً من الانتظار قبل أن يهلكوا نهائياً. لم يكن أحد من هؤلاء البؤساء الطامعين بالنفقة يعرف ما الذي سيصيبه من ذلك الانتظار مثلما أن أحداً منهم لم يكن يعرف كم كان بإمكانه الانتظار.

كانوا يمضون أياماً وأسابيع بكاملها يحدهم الأمل، عند مدخل، وعلى عتبة مستشفى، حينما يكون الجو ماطرأً، بئسين رثين، يهددون آمالهم بالنسب المئوية لقشعهم، بقشع ملوث بعصيات السل على نحو واضح، بقشع حقيقي، قشع سَلِي «مئة بالمئة». أما الشفاء فلم يكن يراود آمالهم إلا بعد النفقة الحكومية. كانوا يفكرون أيضاً بالشفاء بكل تأكيد.. ولكن غراراً، لفرط ما كانوا يرغبون بأن يكون لهم دخل شهري دون عمل. دخل زهيد للغاية، ولكنه كان يفتهم كلياً، أياً كانت الشروط التي يعيشون فيها. بالإضافة إلى هذه الرغبة العنيدة، المطلقة، لم يكن يسكن داخلهم سوى رغبات صغيرة ثانوية، وحتى موتهم كان يغدو بالقياس إليها شيئاً ثانوياً إلى حد ما، مجازفة رياضية على الأكثر، فالموت في نهاية المطاف ليس سوى مسألة بضع ساعات، وحتى بضع دقائق، في حين أن المعاش، مثله مثل البؤس يدوم طول الحياة. الناس الأغنياء ثملون، بطريقة أخرى، لا يمكنهم أن يتوصلوا إلى فهم هذه الرغبات المسعورة بالأمن والطمأنينة. ثملون بنوع آخر من الثمل، ثمل النسيان، من أجل ذلك بالضبط، أصبحوا أغنياء، من أجل أن ينسوا.

كنت قد فقدت شيئاً فشيئاً عادتي السيئة، بأن أعد مرضاي هؤلاء بالشفاء والصحة لأن ذلك لا يملك أن يسعدهم كثيراً، لأن احتمال أن يرفلوا في ثوب العافية، ليس، في نهاية المطاف سوى الاحتمال الأسوأ بالنسبة إليهم، أما

الصحة الجيدة فتعني العمل، وبعد ذلك؟ في حين أن معاش الدولة، وحتى لو كان زهيداً، نعمة إلهية. دون قيد أو شرط.

حينما لا يكون لديك مال تقدمه إلى الفقراء فمن الأفضل أن تصمت. وإذا تكلمت عن شيء آخر غير المال، فإنك تخدعهم، تكذب، دوماً، تقريباً. من السهل على الأغنياء أن يتسلوا، لا بشيء سوى بالنظر إلى المرأة، على سبيل المثال. يتأملون فيها أنفسهم، لأنه ما من شيء، أمتع من مشاهدة الأغنياء لأنفسهم. وبغية إنعاشهم، تتم ترقية كل عشر سنوات، درجة في وسام جوقة الشرف. مثل ندي هرم، ومن ثم يشغلون خلال عشر سنوات أخرى، وهذا كل شيء. كان مرضاي أنانيين، بانسين، ماديين، مختزلين داخل خططهم القدرة للحصول على المعاش الحكومي، من خلال قشعهم المدمى والإيجابي. أما ما تبقى فكان لديهم سيان. وحتى فصول السنة كانت لديهم سواء. لم يكونوا يحسون بالفصول، ولا يرغبون بأن يعرفوا عنها إلا ما يتصل بالسعال والمرض، على نحو أنهم في فصل الشتاء، مثلاً، يصابون بالزكام أكثر مما في الصيف. غير أنهم، في المقابل يبصقون، بسهولة، دماً في الربيع. وخلال فصل الحرارة يمكن أن يفقدوا ثلاثة كيلوغرامات من وزنهم كل أسبوع. كنت أسمعهم أحياناً يتحدثون فيما بينهم، فيما هم ينتظرون دورهم، معتقدين أنني في مكان آخر. كانوا يتناولونني بكلام بذيء. ولا ينتهون من ذلك، ويسردون عني أكاذيب من نسج خيالهم. كان ذلك خليقاً أن ينعشهم حينما يغتابوني، على هذا النحو، وبما لا أدرى من شجاعة سرية كانت ضرورية لهم. ولكي يصبحوا عديمي الرحمة أكثر فأكثر، مقاومين، خبثاء، لكي يستمروا في الوجود، كان اغتياهم لي، وثلبهم واحتقارهم، وتوعدهم يفيدهم إلى حد كبير، ينبغي أن نصدق هذا. وعلى الرغم من كل ذلك، كنت أفعل كل ما بوسعي كي أكون لطيفاً معهم بكل الوسائل، لقد ارتبطت بقوة بقضيتهم، وحاولت

أن أكون نافعاً لهم، وأن أعطيهم الكثير من دواء الأيودور، كي أجعلهم يبصقون عصياتهم القنرة، كل هذا، دون أن أفصح إطلاقاً في تحديد شروطهم. كانوا يظنون هناك، أمامي مبتسمين مثل خدم عندما كنت أسألهم، ولكنهم لم يكونوا يحبونني.. أولاً، لأنني كنت أحسن معاملتهم، ومن ثم لأنني لم أكن غنياً، ولأن علاجهم كان على يدي، وكان هذا يعني بأن علاجهم مجاني، وهو ما لم يكن مريحاً، على الإطلاق للمريض، حتى ولو كان يسعى إلى الحصول على نفقة، لم يكن ثمة نذالات إذن، يشيعونها عني خفية. لم أكن أملك سيارة أيضاً، مثل أغلبية الأطباء الآخرين في الأنحاء المجاورة. كان ذلك عاهة في رأيهم حين آتي إلى المستشفى على قدمي. وحين كان يتم تحريضهم ضدي، ولم يكن زملائي يقصرون في ذلك، فقد كانوا ينتقمون من كل حفاوتي بهم، من كوني خدوماً جداً، متفانياً جداً، كل ذلك كان اعتيادياً ومألوفاً. كان الزمن يمضي مع ذلك.

ذات مساء، وفيما كانت صالة انتظاري خاوية تقريباً، دخل كاهن إلى غرفتي يريد التحدث معي، لم أكن أعرفه من قبل، كدت أرفض استقباله لأنني لم أكن أحب الخوارنة. كانت لدي أسبائي، وعلى الأخص منذ أن باعني الكاهن في سان تابينتا إلى قبطان السفينة المبحرة إلى أمريكا، ولكن هذا الخوري الذي أمامي كان غريباً. كنت أحاول عبثاً التعرف عليه، لكي أشتمه بشيء من الثقة، لم أكن، في الحقيقة قد التقيت به قط، في أي مكان سابقاً. كان خليفاً. مع ذلك، أن يكون قد جال مثلي، زمناً طويلاً خلال الليل في رانسي، ما دام أنه من هذه الأنحاء، لعله كان يتجنّبني إذن، حينما كان يخرج؟ كنت أفكر في ذلك. كان علي في النهاية أن أبلغه بأنني لم أكن أحب الخوارنة. وقد أحس هو بذلك. من خلال الطريقة التي باشر بها حديثه المسلي.. لم تكن إذن

على الإطلاق نددافع حول المرضى أنفسهم. كان يخدم كنيسة هناك، في الجوار، منذ عشرين سنة. كان لديه جموع من المؤمنين، ولكنهم لم يكونوا يدفعون له كثيراً، كان، بالأحرى أشبه بمتسول بوجه الإجمال. وهو ما يقرب الشقة بيننا. بدت لي جيبته التي تغطيه مصنوعة من قماش غير عملي للتسكع في مناطق أشبه بحساء السمك. لفتَ نظره إلى ذلك، وشدت على ما كان يلاقيه من عنت بسبب عدة العمل هذه، «تعودت عليها!» أجنبي الخوري.

نقاد الصبر الذي توحى به ملاحظتي لم يضايقه مطلقاً، بل جعله أكثر لطفاً أيضاً، كان لديه بالتأكيد شيء ما يريد أن يسألني عنه، لم يكن صوته أعلى مما يدور في مسارة رتيبة. وقد جاءه هذا الصوت الخفيض، كما تخيلت ذلك، من مهنته، وفيما بدأ الحديث، حزراً وممهّداً، كنت أحاول أن أتخيل كل ما كان يصطنعه هذا الخوري، كل يوم من تكثيرات ومن وعود، كي يحصل على حريراته. من نوع تكثيراتي وعودي. ومن ثم فقد تخيلته، كي أتسلى، عارياً تماماً أمام الهيكل. على هذا النحو، ينبغي أن تعتاد على أن تبدل، منذ الوهلة الأولى، هيئة الرجال الذين يأتون لزيارتك. وحينذاك تفهم الرجل على نحو أسرع، وتبين على الفور، داخل أية شخصية من الشخصيات يقبع واقعه كسرفة نباب ضخمة وشرهة، تلكم مهارة جيدة للمخيلة، فحين تتخيله عارياً تماماً، يتلاشى سحره، ويتبدد بريقه، ولا يبقى منه أمامك، في المحصلة، سوى خرج مملوء بالإدعاء والقبح، يحاول جاهداً تون جدوى، أن يهز بنحو أو بآخر. لا شيء يعصى أمام هذه التجربة، ثم توازن حساباتك في الحال.. إذ لا يبقى ثمة سوى الأفكار، والأفكار لا تثير الخوف. وما من شيء تفقده معها. كل شيء ينتسوي وينتظم. في حين أن من الصعب عليك أحياناً أن تتحمل سحر رجل مكسو بالثياب، لأنه يحتفظ بروائح كريهة وبأسرار نفينة داخل ثيابه.

كانت أسنان الخوري في غاية السوء، زنخة ومسمرة، محاطة في أعلاها بقلح مخضر، أسنان يسيل منها الحديد في المحصلة، كلمته عن صديد أسنانه، ولكنه كان منشغلاً جداً في الحديث معي عن أشياء.. لم يكن يكف عن عصر الأشياء التي كان يحدثني بها، بين أسناخه، بدفعات من لسانه الذي كنت أراقب جميع حركاته داخل فمه، كان لسانه مسلوخاً في مواضع صغيرة عدة فوق حوافه الدامية.

كانت تلك المراقبات الشخصية المدققة عادة من عاداتي، بل ميلاً متأصلاً لدي. فحين نركز على الطريقة التي نشكل وننطق بها الكلمات فإن جملنا قلما تصمد لكارثة الانزلاق نحو الهنر، ذلك أشد تعقيداً وأكثر صعوبة من الجهد الميكانيكي الذي نبذله خلال الحديث. هذا التويج اللحمي المنفتح، الفم، والذي ينقبض أثناء الصفير والمص، ويكّد دون توقف، يطلق كل أنواع الأصوات الدبقة عبر سدّ نّن من الأسنان النخرة، أية عفونة! ذلك ما يناشدوننا بأن نحوله إلى مثل أعلى، ذلك صعب وأيم الله! فما نمنا لسنا أكثر من أسوار من الكروش الفاترة. والشديدة العفونة فسيشق علينا الأمر مع العاطفة. أن نكون عاشقين، فهذا لا يعني أن نستمر معاً، ذلك صعب! فالأقدار لا تسعى إلى أن تتوّم، ولا إلى أن تتكاثر، وفي هذه النقطة نحن أتعس من الخراء. فهذا الحرص الشديد على الاستمرار في الحال التي نحن فيها يشكل عذاباً لا يطاق.

من المؤكد أننا لا نحب شيئاً أبهى من رائحتنا. كل تعاستنا تتجم عن كوننا في حاجة إلى أن نبقي: جان وبيير او غاستون مهما كلفنا ذلك، خلال كل أنواع السنين. هذا الجسد جسدينا، متكرر تحت قناع جزئيات متحركة وتافهة، إنه يثور طوال الوقت ضد تلك التمثيلية الهزلية الفظيعة التي تدعى البقاء، تريد جزئياتنا الرشيقة أن تذهب لتضمحل وتتلاشى. بأسرع وقت بين

الأكون، إنها تكابد من كونها «نحن» مخلوقة إلى ما لا نهاية، لا ريب في أننا سننفجر إذا ما ملكنا الشجاعة. ولكننا نخور حسب، من يوم إلى آخر. عذابنا العزيز على قلوبنا كامن هنا، نرّي، داخل جلدنا ذاته، مع غرورنا وتغطرنا.

لما كنت صامتاً واجماً بسبب استحضاري لتلك المخازي البيولوجية اعتقد الأب بأنه قد استحوذ علي. واستغل ذلك كي يغدو تجاهي رقيقاً إلى أبعد حد، بل وحتى أليفاً. ما من شك في أنه استعلم عني قبل أن يجيء، لاس بالمنتهى الحذر الموضوع الماكر حول سمعتي الطبية في الأثناء المجاورة. مشيراً إلى أنها كانت ستغدو أفضل، لو أنني سلكت مسلكاً آخر مختلفاً حين حللت في رانسي، منذ الشهور الأولى من عملي فيها. «المرضى، يا عزيزي الدكتور، علينا أن لا ننسى ذلك أبداً، محافظون من حيث المبدأ. إنهم يخشون، وهذا يمكن تصويره بسهولة، أن يخسروا الأرض والسماء...»

حسب رأيه، كان يجدر بي إذن، منذ بداياتي أن أغشى الكنيسة، كانت تلك خلاصته للنظام الروحي والعملي أيضاً، لم تكن الفكرة سيئة، امتعت عن مقاطعته، ولكنني كنت أنتظر بصبر أن يأتي على ذكر الغرض من زيارته.

إذا ما رغبت بجو كئيب ومتجهم. فلا يمكن لي أن أرغب بأفضل من الجو الذي كان يخيم في الخارج، فلفرط ما كان الجو رديئاً، قارساً وملحاً خيل إلي بأنني لن أرى قط، مرة أخرى بقية العالم حينما سأخرج، وأن العالم سينوب وينحل، متقرزاً.

كانت ممرضتي قد أفلحت أخيراً في تسجيل بطاقتها، جميع بطاقتها حتى آخر بطاقة، لم يعد لديها أبداً أي عذر للبقاء هنا، لتتصت إلينا، خرجت إذن، مغیظة بنحو واضح، صافقة الباب خلفها عبر سحابة مطرية غاضبة.



« خلال تلك المحادثة أبلغني ذلك الخوري الذي كان يدعى بروتيست، بكثير من التحفظ والتردد بأنه كان يقوم، منذ بعض الوقت بمساع هو والسيدة هنروي البنت من أجل إنزال عجوزتها وروبسون، كليهما معاً، في مؤسسة دينية غير باهظة النفقات، وأنهما كانا ما يزالان يبحثان.

لدى النظر إلى الأب بروتيست جيداً يمكنك عند اللزوم أن ترى فيه نوعاً من مستخدم في عرض البضائع مثل الآخرين. وربما مديراً لفرع من فروع العرض، مبللاً ومخضراً، ومجففاً، مئة مرة، كان رجلاً عامياً في الحقيقة، بوضاعة حركاته وإشاراته، وبأنفاسه أيضاً. قلما كنت أنخدع بصد الأنفاس. كان هذا رجلاً يأكل بسرعة فائقة، ويشرب النبيذ الأبيض.

كانت الكنة هنروي، كما روى لي الأب، ومنذ البداية، قد ذهبت إليه لتراه في بيته بالذات، بعد محاولة الاغتيال بقليل، كي يخلصهم من الورطة القذرة التي كانوا قد أوقعوا أنفسهم بها. كان يبدو لي وهو يتحدث إلي عن ذلك كمن يبحث عن أعذار، وتفسيرات. فقد كان يشعر بالحرج من هذا التعاون. لم يكن من المفيد لي في الحقيقة أن أتردد، فقد كان الأمر واضحاً ومفهوماً. لقد جاء ليلقانا وسط عتمة الليل، وهذا كل شيء. تعساً له ذلك الخوري. فقد استحوذ عليه، هو أيضاً، نوع من الجراءة القذرة، شيئاً فشيئاً، مع رنين النقود. تبا! ولما كان الصمت يطبق على سائر مستشفاي، والليل ينغلق على المنطقة فقد خفض الخوري حينئذ نبرة صوته كلياً، كي يبلغني مساراته، لا لأحد سواي. ولكنه كان عبثاً يهمس مع ذلك، فكل ما كان يرويه لي، كان يبدو لي مدوباً، إلى حد

لا يطلق.. بسبب الهدوء حولنا بلا ريب. الحافل بالصدى، وربما في داخلي وحدي؟ اخرس! كنت أود أن أهمس له في كل وقت، بين كل كلمتين من كلماته التي كان يتفوه بها. كانت شفتاي تختلجان قليلاً بسبب الخوف. وفي نهاية كل جملة كنت أكف عن التفكير بها.

الآن وقد أدركنا الخوري داخل قلعنا لم يعد يعرف ما الذي يفعله كي يتقدم في إثرنا نحن الأربعة وسط الليل. زمرة صغيرة. كان يريد أن يعرف إلى أي مدى كنا عالقين داخل المجازفة، وإلى أين كنا نمضي؟ كي يستطيع هو أيضاً أن يمسك بيد الأصقاع الجدد نحو النهاية التي سيكون من الضروري أن نبلغها معاً، وإلا فلن نبلغها أبداً. لقد كنا الآن في الرحلة ذاتها، كان الخوري يتعلم للسير في الليل، مثلنا ومثل الآخرين، كان يتعثّر أيضاً. كان يسألني كيف ينبغي له أن يتصرف كي لا يسقط. لم يكن عليه أن يأتي إذا كان خائفاً!. سنصل سوياً إلى النهاية، وحينذاك سنعرف ما الذي كنا نبحث عنه في تلك المخاطرة كنا نبحث عن الحياة، عن ومضة من شعاع في قلب الليل.

ومن ثم، فلعلنا لن نعرف شيئاً على الإطلاق، ولن نجد أي شيء، ونلكم هو الموت.

المهم في تلك اللحظة، أن نتقدم خبط عشواء. وحيثما وصلنا أيضاً، فلن يكون بمستطاعتنا التراجع، لا مجال للاختيار، فعدالتهم مع قوانينها كانت لنا بالمرصاد، في زاوية كل ممر. كانت هنروي الابنة تمسك بيد العجوز وبيد زوجها، وأنا أمسك بأيديهم وبيد روبنسون، أيضاً. كنا معاً، ذلكم هو الأمر. كنت أشرح كل ذلك، على الفور، للخوري. وكان هو يفهم.

حيثما كنا قد وصلنا الآن، شئنا ذلك أم أبينا. فلن نفلح قط إذا ما انكشف سرنا، وأطلقت ألسن العابرين. كنت أقول ذلك أيضاً للخوري وأؤكد

عليه بشدة. إذا ما صادفنا أحد العابرين فعلينا أن نبدو كمن ينتزّه. كأن شيئاً لم يكن. تلكم هي التعليمات.. أن نبقى طبيعيين تماماً. كان الخوري يعرف الآن كل شيء تقريباً، يدرك كل شيء، ويشد على يدي بدوره، كان خائفاً جداً، بالضرورة هو أيضاً. في البداية، كان متردداً، يغمغم مثل شخص بريء، وكلما تقدمنا على الطريق، وفقدنا أي شعاع ضوء هناك، حيث نحن. كان علينا التمسك بالحذر والتحوط، وإعادة النظر بكل خطوة، نخطوها إن لم تكن متأكدين تماماً من جدواها. الكلمات التي تقال في مثل هذه الأحوال، والتي كنا نردها فيما بيننا لطمأنة بعضنا لم تكن تخلف أي أثر ولا ترجع أي صدى، لقد خرجنا من المجتمع. لا يقول الخوف نعم ولا يقول لا. يستحوذ الخوف على كل ما يقال، وعلى كل ما يجول في الذهن.

لا يفيد في شيء أيضاً، في مثل هذه الحالات أن تجحظ العيون في ظلمة الليل، بسبب الهلع من الضياع. يستولي الليل على كل شيء وعلى النظرات ذاتها، فالمرء يخويه الليل ويفرغه من الداخل. ينبغي أن يتمالك المرء نفسه مع ذلك، وإلا فسوف يسقط.

أناس النهار لا يفهمونك، يفصلك عنهم الخوف الشديد، تظل مسحوقاً تحت هذا الخوف، حتى اللحظة التي ينتهي فيها، بطريقة أو بأخرى، وحينئذ يمكنك في النهاية أن تنضم إلى هذه السلطات من البشر، في الموت أو في الحياة.

لم يكن على الأب سوى أن يساعدنا الآن وأن يسرع في التعلم، تلك كانت مهمته، ومن ثم فهو لم يأت إلا من أجل هذا، لقد بذل كل جهده من أجل إيجاد عمل للعجوز هنروي، في البداية، وبسرعة، ولروبينسون أيضاً، في الوقت ذاته، في ملجأ الأخوات في المقاطعة. كان هذا التدبير يبدو له ممكناً،

ولي أيضاً. سيكون علينا فقط الانتظار، خلال شهر، لوظيفة شاغرة، ولم يعد بإمكاننا نحن انتظار تلك الشهور، لقد طفح الكيل حتى الجمام.
كانت الكنة على حق. فكلما كان أكبر، كلما كان أفضل. فليذهبوا!
فلنتخلص منهم.. جرب بروتيست حينئذ تدبيراً آخر، وافقت عليه على الفور،
وقد بدا لي لبيباً إلى حد كبير، ومن ثم فقد كان يتضمن في البداية مهمتين
اثنتين لكلينا، أنا والخوري، كان ينبغي إنجاز ذلك التدبير، دون أي تأخير
تقريباً، كان علي أن ألعب فيه دوري الصغير، ذلك الذي يتكون من إقناع
روبنسون بالذهاب إلى الجنوب، وأن أنصحه بطريقة حانية تماماً، بالطبع،
ولكن بسرعة مع ذلك.

من دون أن أعرف ظهر أو بطن التدبير الذي تحدث عنه الخوري،
كان علي ربما أن اتخذ احتياطاتي، كأن أوفر لصديقي بعض الضمانات على
سبيل المثال.. لأنني، في نهاية المطاف، حين كنت أفكر بالتدبير الذي اقترحه
علينا بروتيست كنت أجده مضحكاً وغريباً. غير أننا كنا على عجلة من
أمرنا. بسبب الظروف، والتي كان أهمها أن لا يتأخر هذا التدبير، وقد وعدت
بتنفيذ ما طُلب مني من تأييد للخطة ومن كتمان لها. كان هذا البروتيست يبدو
لي معتاداً كل الاعتياد على الظروف الدقيقة من هذا النوع، وشعرت بأنه كان
سيسهل علي كثيراً من الأمور.

من أين أبدأ أولاً؟ كان ينبغي تدبير رحيل سري إلى الجنوب، ما الذي
سيفكر به روبنسون حول هذا الرحيل. ومن ثم سفره مع العجوز. بالإضافة
إلى ذلك، والتي كان علي وشك أن يقتلها.. سألح عليه.. هذا كل شيء.
إذا تكلمنا عن مهنة غريبة، فقد كانت المهنة التي تم تدبيرها لروبنسون
وللعجوز في الجنوب مهنة غريبة، كان ذلك في تولوز. وتولوز مدينة جميلة،

سأراها مرة أخرى تلك المدينة: سأذهب لرؤيتها هناك! كان ذلك وعداً مني بأن أذهب إلى تولوز ما أن يستقرا فيها في منزلهما، وفي عملهما، وفي كل شيء.

حين كنت أفكر في الأمر، فإن رحيل روبنسون الوشيك كان يحزنني قليلاً، وكان في الوقت ذاته يفرحني كثيراً، لأنني على الأخص حصلت بسببه، لمرة واحدة على فائدة حقيقية صغيرة.. لقد أعطوني ألف فرنك. لم يكن مطلوباً مني سوى حث روبنسون على الذهاب إلى الجنوب. أن أؤكد له بأنه ما من مناخ أفضل لجراح عينيه من المناخ هناك، وأنه ليس بالإمكان أفضل من ذلك، ثم إنه كان محظوظاً، بوجه الإجمال لتخلصه من ورطته بثمان زهيد جداً، تلك كانت الوسيلة لإقناعه.

بعد خمس دقائق اجترار من هذا النوع، تشربت أنا نفسي بالافتتاح، وصرت على أتم استعداد للمقابلة الحاسمة، ينبغي طرق الحديد وهو محمى. ذلك هو رأيي، لن تكون تولوز، على أي حال، أسوأ من هنا. لقد بدت لي فكرة هذا البروتيسيت، لدى تأملها، معقولة تماماً. هؤلاء الخوارنة، يستطيعون، مع ذلك، أن يخدموا لك أسوأ الفضايح.

تجارة، ليست أسوأ من أي تجارة أخرى، ذلك ما قدم لروبنسون عشية السفر، كعمل هناك. كان ذلك نوعاً من كهف يحتوي على مومياءات، على حد علمي، يقوم روبنسون بإدخال الزوار إلى الكهف الواقع تحت كنيسة، بأوبول^(١) واحد. سائحون. تجارة حقيقية كما أكد لي بروتيسيت. كنت مقتنعاً تقريباً بذلك، وعماً قريب سيساورني بعض الحسد ربما. وليس في كل حين يمكن تشغيل الأموات.

(١) أوبول: قطعة نقد ذات قيمة زهيدة.

أغلقت باب المستشفى، وها نحن على الطريق إلى آل هنروي، مصممين كل التصميم، كلانا أنا والخوري، عبر مستنقعات الوحل. إن تكلمت عن الجديد فقد كان ذلك جديداً. ألف فرنك من الأمل. لقد غيرت رأبي بالخوري. حين وصلنا إلى المنزل وجدنا الزوجين هنروي بالقرب من روبنسون في غرفة الطابق الأول، ولكن يا للحالة التي كان عليها روبنسون حينذاك؟

«إنه أنت! قال لي وهو في ذروة الانفعال. ما أن سمعني أصعد الدرج. لقد أحسست كأن أمراً ما سيحدث!.. هل ما يقولونه صحيحاً؟»
سألني عاوياً.

هو ذا ينفجر بالبكاء حتى قبل أن أتمكن من أن أجيب بكلمة واحدة. الآخران، آل هنروي، أشارا إلي بإشارات، بينما كان هو يندب.
«ورطة حقيقية، قلت لنفسي، الآخرون مستعجلون جداً!.. دائماً مستعجلون جداً!.. لقد صارحوه ببرود هكذا؟ دون تمهيد. ودون أن ينتظروني.

استطعت أن أستدرك الموقف تقريباً، لحسن الحظ، بكلمات أخرى. لم يكن روبنسون يطلب أكثر من ذلك أيضاً، وجه جديد للأشياء ذاتها. كان هذا يكفي. لم يكن الخوري الواقف في الرواق يجرؤ على دخول الغرفة، فمشى مترنحاً من الهلع.

«ادخل، دعتة هنروي الابنة، في النهاية.. ادخل إذن! أنت لست في غير مكانك بالتأكيد، يا سيدي الأب! لقد فاجأت عائلة مسكينة في محنتها، وهذا كل ما في الأمر!.. الطبيب والكاهن معاً، أليس الأمر هكذا دائماً في اللحظات الأليمة من الحياة؟».

كانت تصوغ جملاً شعرية.. كانت تلك آمال جديدة للخروج نهائياً من البؤس ومن الليل، جعلتها شاعرية بطريقتها القنرة، تلك القاسية العديمة الرحمة.

بدت الحيرة والاضطراب على الخوري، وفقد كل تماسكه، وعاد يغمغم على مسافة من المريض، كانت غمغمته المشوبة بالانفعال والتأثر تصل إلى أسماع روبنسون الذي انطلق صياحه من جديد منتفضاً: «لقد خدعوني. خدعوني جميعاً».

دارت ثرثرات حول أمور سطحية فقط.. انفعالات.. الشيء ذاته دائماً، ولكن ذلك أعاد إلي زمام المبادرة، والجرأة، سحبت هنروي الابنة إلى أحد الأركان وخيرتها بين إتمام الصفقة أو فسخها لأنني كنت أرى بوضوح بأن الرجل الوحيد القادر هنا، في الداخل على إخراجهم من هذا الوضع، كان ما يزال مغبوناً في النهاية. «العربون، قلت لها، وعربوني حالاً» حينما لا يكون هناك ثقة فليس ثمة مبرر ليزعج المرء نفسه، كما يقال. فهمت الزوجة، وأغلقت يدي حينئذ على ورقة من فئة الألف فرنك، وورقة أخرى مثلها أيضاً كي أكون واثقاً.. كنت قد مارست تأثيري على روبنسون، بدأت الآن بإقناعه. كان ينبغي أن يتخذ قراره بالسفر إلى الجنوب.

الخيانة! ما أن يقترفها المرء، حتى يقترفها بسرعة. ينبغي اغتنام الفرصة. إنها أشبه بفتح نافذة داخل سجن. الجميع يرغبون بها، ولكن نادراً ما يستطيعون ذلك.



« بعد أن غادر روبنسون رانسي توهمت بأن الحياة كانت ستقلع من جديد، وأنه سيكون لدي على سبيل المثال، من المرضى أكثر من المعتاد. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق، في البداية ظهرت البطالة، الأزمة، في الأنحاء المجاورة، وكانت تلك هي الأسوأ. ثم بدأ الجو، على الرغم من فصل الشتاء، يعتدل ويغدو لطيفاً وجافاً، في حين أن الرطوبة والبرد هما ما نحتاجه، نحن الأطباء!. ما من آفات كذلك. فصل معاكس في النهاية وخائب جداً.

لاحظت كذلك بأن زملائي يذهبون لزيارات مرضاهم سيراً على الأقدام. ليس هناك ما يضاف إلى ذلك، محاولين الظهور بمظهر المنتزه المرح، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر مغتاطين جداً، لأنهم بوجه التحديد، لا يخرجون بسياراتهم، على سبيل التوفير. أما أنا، فلم يكن لدي سوى مشمّع مطري من أجل الخروج. هل بسبب ذلك أصبت بزكام حاد جداً، أم لأنني كنت قد اعتدت فعلاً على الإقلال الشديد من الطعام؟ كل شيء ممكن، هل الحمى هي التي عاودتني مرة أخرى؟ كان هناك بلا ريب لفحة برد صغيرة، قبيل الربيع، بدأت أسعل سعالاً متواصلًا، مريضاً بقذارة، كارثة. كان يستحيل علي في بعض الصباحات مجرد النهوض من الفراش، كانت عمة بيبيرت تمر ببابي. فكنت أدعوها، فتصعد إلي، لأرسلها في الحال كي تقبض لي حساباً صغيراً، يدين لي به بعض أهل الحي، وقد دام الحساب الأخير، ذلك المبلغ المستعاد نصفه فقط، دام معي عشرة أيام، وأنا طريح الفراش.

توفر لدي الوقت لأفكر، وأنا ممدد على السرير. خلال الأيام العشرة. حينما سأستعيد قواي سأغادر رانسي. ذلك ما عزمت عليه. قسطن متأخران من أجرة البيت، بالإضافة إلى ذلك. وداعاً إذن يا قطع أثاثي الأربع! ودون أن أفوه بكلمة لأحد بالطبع، انسلت من البيت بمنتهى الهدوء، ولن أعود قط لرؤية غارين – رانسي ما حبيبت! رحلت دون أن أترك أثراً ولا عنواناً. فحين يطاردك السبع المنهك من الجوع والعفن. فلماذا النقاش، الفرار الفرار، دونما كلمة واحدة، ذلك ما يفعله اللبيب!

مع دبلوماسي في الطب، كان بوسعي أن استقر في أيما مكان، كان هذا صحيحاً.. ولكن ذلك المكان الآخر لن يكون أحسن ولا أسوأ.. يكون المكان أفضل قليلاً في البداية، بالضرورة، لأنه لا بد من انقضاء بعض الوقت قبل أن يتمكن الناس من التعرف عليك، ليشرعوا في إيذائك، وليجدوا الوسيلة إلى ذلك، فما داموا يبحثون عن الثغرة التي ينفذون من خلالها للإساءة إليك بأسهل السبل فهم غير مطمئنين تماماً، ولكنهم حين يجدون تلك الثغرة فإن أذاهم يغدو متشابهاً في جميع الأمكنة. خلاصة الأمر، فإن تلك المهلة الصغيرة التي تكون فيها غير معروف، في كل مكان جديد هي المهلة الأهنأ بالنسبة إليك، وبعد ذلك، يبدأ الأذى من جديد، تلك هي طبيعتهم. ما يهمك هنا هو أن لا تنتظر طويلاً جداً كي يتعرف الناس على ضعفك، ينبغي سحق البق قبل أن يعثر على منافذه التي ينفذ منها. أليس هذا صحيحاً؟

أما المرضى، الزبائن.. فلم يكن لدي البتة أي وهم بصددهم. لن يكونوا أقل ضراوة، ولا أقل بلادة، ولا أقل جبناً ممن هم هنا. الخمر ذاتها، والسينما ذاتها، والنائم ذاتها.. والخضوع الأعمى للحاجات الطبيعية، للفم وللشرج. إنهم سيشكلون من جديد هناك مثلما يشكلون هنا الحشد الفوضوي الثقيل الموحد،

المترنج ذاته، من إشاعة إلى أخرى، متشدقين دوماً متكسبين، سيئي النية، عدوانيين، بين خوفين اثنين.

ولكن ما دام المريض، يغير الجانب الذي ينام عليه في سريره، وفي حياته فلدينا نحن الحق في ذلك أيضاً، بأن ننقلب من جانب إلى الجانب الآخر. ذلك كل ما يمكن للمرء أن يفعله، وكل ما يجده من دفاع تجاه مصيره. ينبغي للمرء أن لا يأمل كثيراً بترك شقائه في أي مكان، على الدرب. فالشقاء أشبه بامرأة شريرة، قد تزوجت منها. لعل من الأفضل لك أن تتوصل إلى حبها قليلاً بدل أن تستنزف قواك في ضربها طوال حياتك. ما دمت بالتأكد لن تتمكن من التغلب عليها.

وكان أن انسلت من قبوي في رانسي ملتزماً أقصى الهدوء والحذر. مررت أمام كوخ حاجبة العمارة دون أن يلمحني أحد أو يعرفني من أفراد أسرتها الذين كانوا حول طاولة الشراب والكستناء. كانت هي تحك جسمها. بينما كان الزوج منحنيّاً على الموقد أشبه بالملفوج من الدفاء. كان قد شرب كمية كبيرة من الخمر التي جعله لونها البنفسجي يغلق عينيه.

بالنسبة إلى هؤلاء الناس كنت أنزلق داخل المجهول، كما لو كنت داخل نفق عظيم لا نهاية له. من الجيد أن ثلاثة أشخاص على الأقل. يعرفونك، وبالتالي يراقبونك ويؤذونك، لا يعودون يعرفون على الإطلاق ما آل إليه أمرك.. هذا جيد. ثلاثة أشخاص، لأنني عدت ابنتهما أيضاً، طفلتها تيريز، التي كانت تجرح دماغها المنقيحة لفرط ما كانت تحك جلدها باستمرار تحت لسع البراغيث والبق. والواقع أنني كنت أتعرض للسع هذه الحشرات بشدة في منزل حاجبة عمارتي، بحيث أنني حينما كنت أدخل إلى كوخهم كنت كمن يدخل إلى قلب غابة، كان الإصبع الطويل لمصباح الغاز يسطع ويصدر

صغيراً داخل الممر، ويلقي بأشعته على العابرين فوق حافة الرصيف، فيحولهم، دفعة واحدة، إلى أشباح تائهة ثملة.. كان العابرون يمضون بعد ذلك يبحثون قليلاً عن لون ما من الألوان، هنا، وهناك، أمام نوافذ ومصابيح أخرى، ثم يضيعون أخيراً، مثلي، وسط الليل، سوداً ورخوين.

لم أكن قط مضطراً إلى التعرف على هؤلاء العابرين. غير أنه كان يروق لي أن أوقفهم في تجوالهم الغامض، لحظة صغيرة، الزمن الكافي لأقول لهم فقط، مرة واحدة، بأنني كنت ذاهباً لأضيع في المجهول، كنت راحلاً، ولكن بعيداً جداً، بحيث كنت سأضجرهم، دون أن يكون بوسعهم أن يقولوا لي أي شيء.. لا هؤلاء ولا أولئك، ولا أن يفعلوا أي شيء..

حينما وصلت إلى شارع ليبرتي كانت سيارات الخضار تتطلق مرتجة صوب باريس، سلكت طريقها.. كنت تقريباً قد ابتعدت عن رانسي كلياً. لم يكن الجو دافئاً، ولكي أدفئ نفسي، انعطفت قليلاً صوب منزل عمه ببيرت. كان مصباحها يفكك عقد الظل في قاع الرواق. «كي أنتهي من كل هذا.. قلت لنفسي، ينبغي ان أقول للعممة، وداعاً».

كانت هناك فوق كرسيها، على جري عادتها، وسط روائح الكوخ. والموقد الصغير يدفئ كل ما حولها. ووجهها العجوز، الآن على وشك البكاء دوماً منذ أن رحل ببيرت عن الدنيا. على الجدار فوق صندوق الثياب، صورة فوتوغرافية كبيرة لبيبرت في المدرسة بمريلته. ببيرت والصليب. كانت تلك «صورة مكبرة» تحتفظ بها. أيقظتها من غفوتها.

«صباح سعيد، يا دكتور» انتفضت العممة.. ما أزال أذكر جيداً بأنها قالت لي: «تبدو مريضاً» قالتها على الفور.. اجلس إذن! لست بحالة طيبة أنا أيضاً.

- كنت ذاهباً لأقوم بجولة صغيرة، أحببتها، كي أستعيد بعض رباطة الجأش.

- هذا وقت متأخر، من أجل جولة صغيرة، قالت العمّة، وعلى الأخص إن كنت ذاهباً صوب ساحة كليشي، الريح الباردة تخترق الجادة في مثل هذه الساعة. نهضت العمّة حينئذ، وراحت تترنح هنا وهناك كي تعد لي مشروباً ساخناً، ولتحدث على الفور، عن كل ما يعن لها، في الوقت ذاته، وعن آل هنروي، وعن بيبرت بالضرورة.

لم يكن ثمة ما أقوله كي أحول بينها وبين الحديث عن بيبرت، فقد كان ذلك يثير أحرانها وأوجاعها. وكانت هي تعرف ذلك أيضاً. رحلت أصغي إليها دون أن أقاطعها أبداً. كنت كالمخدر تماماً. حاولت أن تذكرني بكل الخصال اللطيفة التي كان يتمتع بها بيبرت، والتي كانت تستعرضها بصعوبة، لأنها لم تكن خليقةً أن تنسى أي خصلة منها. كانت تبدأ من جديد، وحين تنتهي من ذلك كله، تزوي لي جميع الظروف التي أحاطت بتربيته وإرضاعه بالرضاعة. وعندما تعثر أيضاً على خصلة صغيرة من خصال بيبرت كان ينبغي أن تضعها مع ذلك إلى جانب خصاله الأخرى، وحينذاك تعود إلى القصة من بدايتها، دون أن تنسى مع ذلك شيئاً، وكانت مضطرة في النهاية إلى أن تدرف بعض الدموع بسبب عجزها ووضعها.. ثم تشرد عن نفسها من التعب، وتغفو بمساعدة شهقاتها الصغيرة. لم يعد لديها القوة لتسترجع طويلاً من ظلال الماضي الذكرى الصغيرة لبيبرت الصغير الذي كانت تحبه جداً. كان العدم دوماً قريباً منها وفوقها. قليل من الشراب الساخن ومن التعب، ثم انتهى كل شيء، راحت تغفو شاخرة مثل طائرة صغيرة بعيدة تحملها الغيوم.. لم يعد لها أي إنسان في هذه الدنيا.

عندما انهارت على هذا النحو وسط الروائح كنت أفكر بأنني راحل
وأنتي لن أعود قط، إلى رؤية العمّة، وأن بييرت كان قد رحل دون تردد،
رحيلاً نهائياً، وأنها سترحل هي أيضاً، العمّة، كي تلتحق به، وليس بعد وقت
طويل. كان قلبها عليلًا أولاً، وكانت هرمة كلياً، كان قلبها يدفع الدم بجهد
هائل داخل شرايينها، ويعاني مشقة في ضخه داخل العروق، سترحل العمّة
إلى المقبرة الكبيرة غير بعيد عن الحي، حيث الموتى هناك مثل جمع ينتظر.
هناك في المقبرة كانت العمّة تأخذ بييرت كي يلعب، قبل أن يقع مريضاً.
وكان لا بد لذلك أن ينتهي بعد موته، وسنعود نحن لنرسم مثوانا الأخير،
ويمكن القول بأننا سندركه جميعاً على غرار كرات اللعب التي ترتعش عند
حافة الحفرة، تتردد قليلاً قبل أن تسقط في النهاية.

تطلق الكرات عنيفة وهادرة أيضاً في البداية، ولكنها لا تذهب قط إلى
مكان آخر في المحصلة. ونحن كذلك. وسائر الأرض لا تصلح إلا لهذا، إلا
لتجعلنا نجد أنفسنا في جوفها جميعاً في النهاية. لم يكن ذلك بعيداً جداً بالنسبة
إلى عمّة بييرت. لم يعد لديها الحماس تقريباً، لم يعد بوسعك أن تجد نفسك،
خلال الحياة، لم يعد هناك الكثير من الألوان التي تسليك، والكثير من
الأشخاص الذين يتحركون حولك، ثم لا تجد نفسك إلا في الصمت، حينما
يكون الألوان قد فاتت، على غرار الموتى. ولكن كان عليّ أنا أيضاً أن أتحرك
من جديد، وأن أذهب إلى مكان آخر. عبثاً كنت أفعل، عبثاً كنت أعرف... لم
يعد بإمكانني البقاء في ذلك المكان.

كان دبلوماسي في جيبني منتقخاً بارزاً، ولكنه كان أكثر بروزاً من نقودي،
وأوراق هويتي. أمام مركز البوليس كان عنصر الحراسة ينتظر تبديل نوبة
منتصف الليل. ويبصق أيضاً قدر ما وسعه ذلك تبادلته معه تحية المساء.

في أحد أركان الشارع كان مركز الجمارك، والسعاة المخضوضرون داخل قفصهم الزجاجي. كانت الترامات قد توقفت عن السير. تلك هي اللحظة الملائمة للتحدث مع هؤلاء السعاة عن الحياة، والتي كانت دائماً تزداد صعوبة وكلفة. كانا اثنين هناك، أحدهما شاب والآخر عجوز، منحنيين فوق جداول كبيرة، ومن خلال زجاجهما كانا يلحان الأرصفة الضخمة لظل التحصينات، ترحف شامخة داخل الليل تنتظر زوارق قادمة من البعيد، سفناً نبيلة، زوارق لم يشاهد مثلها قط، بالتأكيد، كان الجميع بانتظار وصولها.

ثرثرت إذن، لحظة من الزمن مع الساعيين، وتناولنا أيضاً قهوة صغيرة كانت تسخن فوق المدفأة الصغيرة، سألاني إن كنت أذهب كثيراً خلال العطل كي أتسلى على هذا النحو، خلال الليل، مع صرتي الصغيرة في يدي. «هذا صحيح» أجبتهما، لا جدوى من أن أشرح لهذين الساعيين أموراً غير مألوفة لهما.. فهما لم يكونا قادرين على مساعدتي في الفهم. ولما كنت قد اغتظت قليلاً من ملاحظتهما، فقد ساورتني رغبة قوية في أن أثير اهتمامهما ودهشتها أخيراً. شرعت أحدثهما بسرعة وأنا واقف عن حملة نابليون عام ١٨١٦ والتي قادت القوزاق إلى المكان الذي كنا فيه بالذات، وهم يطلقون مدافعهم في إثر نابليون العظيم.

تحدثت عن ذلك بمرح وطلاقة، بالطبع، وهو ما أفتع، نيتك الموظفين القميين كليهما، وبقليل من الكلمات بنفوقي الثقافي، وتجري النقاشي. ثم انصرفت عنهما هادئاً مطمئناً، صوب ساحة كليشي، عبر الجادة التي تقضي إليها. ستلاحظون بأن هناك على الدوام مومستين اثنتين تنتظران في ركن من شارع السيدات. كانت تقفان في تلك السويغات المتقلة بالتعب ولتي تفصل ثمالة اليوم عن تباشير الفجر.. بفضلهما كانت الحياة مستمرة عبر الظلال المعتمة.

كانتا تحملان حقائبهما بأيديهما، محشوة بوصفات طبية ومناديل لكل الاستعمالات وصور لأولاد من الريف. حينما اقتربت منهما وسط العتمة، كان لابد لي من الانتباه كي ألحظ وجودهما الذي لا يكاد يبين للنظر، لفرط ما كانتا متخصصتين، لقد بقيتا على قيد الحياة تحديداً للإجابة على جملتين أو ثلاث تلخص كل ما يمكن أن يفعله الرجال معهما. كانتا روحين حشريتين في جزمات ذات أزرار. لا ضرورة للتحدث معهما بكلمة، ولا الاقتراب منهما أكثر من اللازم، فقد كانتا شريرتين. أبقيت بيني وبينهما مسافة، ثم أسرعت الخطى وسط قضبان السكة الحديدية. كانت الجادة طويلة.

في نهاية الجادة تماماً انتصب تمثال المارشال مونسي، مدافعاً دوماً عن ساحة كليشي منذ عام ١٨١٦ ضد الذكريات والنسيان.. ضد لا شيء على الإطلاق. مكللاً بتاج من اللائى غير النفيسة. وصلت بالقرب منه ركضاً، متأخراً مئة ولثي عشر عاماً. عبر الجادة للاخوية.. لم يعد هناك روس، لم يعد هناك معارك ولا قوزاق، ما من جنود... لم يعد هناك أي شيء في الساحة. كانت بضع سيارات تعبر سئمة قدر ما وسعها السأم، متجهة صوب المخارج.

يتذكر المرء الشوارع الكبيرة في الحالات العصبية، كأماكن أقل برودة من غيرها. لم يعد رأسي يعمل إلا بفعل الإرادة بسبب الحمى. كان المشروب الساخن الذي تناولته لدى العمة يسري في عروقي، وليت ظهري هارباً أمام الريح التي كانت أقل برودة، حينما تتلقاها من الخلف. كانت سيدة مسنة بالقرب من ميترو سانت جورج تبكي على مصير فتاتها الصغيرة المريضة، في المستشفى، بالتهاب السحايا كما قالت لي، كانت تستغل ذلك من أجل جمع الصدقات، ولم يواتها الحظ.

عزبتها ببضع كلمات. حدثتها أنا أيضاً عن الصغير ببيت و عن فتاة صغيرة أيضاً كنت أعالجها في المدينة، ماتت بالتهاب السحايا هي أيضاً، استمر احتضارها ثلاثة أسابيع، وأمها في السرير إلى جانبها قد جافها النوم بسبب الحزن، كانت الأم تمارس العادة السرية طوال أسابيع الاحتضار الثلاثة، ولم يعد من الممكن إيقافها عن ذلك، بعد أن انتهى كل شيء.

هذا يثبت بأن من غير الممكن العيش دون لذة، وحتى لثانية واحدة. وأن من الصعب حقاً الغرق الدائم في الأحران، هكذا هو الوجود.

تركت العجوز للحزن أمام الغاليري، كان عليها أن تفرغ حمولة من الجزر بالقرب من سوق الخضار، كانت تسلك طريق الخضار، مثلي، الطريق ذاته.

غير أن سينما «التارابو» اجتذبتني إليها. كانت جائمة في الشارع مثل قطعة غاتو ضخمة وسط الأضواء. يؤمها الناس من كل حدب وصوب مسرعين مثل اليساريين. يخرجون من قلب الليل، ويحيطون بها، عيونهم جاحظة كي يملؤوها بالصور. النشوة متواصلة لا تتوقف، المشهد نفسه في مترو الصباح، غير أن الناس هنا، أمام التارابو يكونون مسرورين، وبينما يحك الأمريكيون في نيويورك بطونهم أمام صندوق النقود، فإن هؤلاء ينضحون بالنقود نضحاً، ثم لا يلبثون أن يندفعوا مصممين جاذلين نحو جيوب النور. كانوا أشبه بالعراة، لفرط ما تنصب جداول النور فوقهم. وتزدان الحركات والأشياء بالأكاليل والمصابيح أيضاً. ويعسر عليهم الخوض في الحديث بأي شأن شخصي وسط هذا المحشر. كان ذلك أشبه بنقيض الليل.

غلبني الخدر والذهول فلذت إلى مقهى صغير مجاور. على الطاولة القريبة لمحت بارا بين، استاذي القديم وهو يتناول كوباً من الجعة، عثرت عليه

أخيراً، بقشوره، وبكل شيء فيه، وسرني ذلك أيما سرور: لقد طرأت تغيرات كبيرة على حياته كما قال لي: وقد احتاج إلى عشر دقائق كي يحدثني عنها. لم يكن ذلك مسلياً. كان البروفسور جونيسييه مدير المعهد قد غداً خبيثاً جداً تجاهه. واضطهده أيما اضطهاد، مما حدا ببارابين إلى الذهاب، استقال وغادر مخبره، كان هناك أيضاً أمهات فتيات الثانوية الصغيرات اللواتي كن يأتين بدورهن ينتظرنه عند باب المعهد، ويضربنه بقسوة، حكايات، تحقيقات، قلق.

في اللحظة الأخيرة، ومن خلال إعلان غامض في إحدى الدوريات الطبية استطاع أن يتدبر أمره بنوع آخر صغير من المعاش، ليس بالغ الأهمية بالطبع، ولكنه، مع ذلك. عمل غير مرهق، وضمن اختصاصه بالتحديد. كان هذا يعني التطبيق الذكي والبارع للنظريات الحديثة للبروفسور باريتون حول تأثير السينما على تفتح عقول الصغار القاصرين عقلياً.. خطوة إلى الأمام فريدة من نوعها في ميدان اللاشعور. لم يكن أحد في المدينة إلا ويتحدث عنها. كان ذلك أسلوباً عصرياً.

كان بارابين يصطحب بلهائه الصغار إلى سينما تارايبو الحديثة، كان يمر على بيوتهم ليأخذهم إلى مصح باريتون الصحي الحديث في الضاحية، وبعد المرور بتارايبو يعيدهم إلى المصح من جديد، بلهى، شعبين من العروض، سعادة، أصحاء، وأكثر حداثة أيضاً. وحينما كانوا يجلسون أمام الشاشة، كانوا بحاجة أكثر إلى الاهتمام. جمهور ذهبي، الجميع مسرورون. الفيلم ذاته كان يعرض عليهم عشر مرات متتالية. فيفتهم ويخلب ألبابهم الصغيرة. لم يكن لديهم ذاكرة، كانوا يجسون دائماً بالدهشة. كانت عائلاتهم مسحورة، وبارابين أيضاً، وأنا كذلك. كنا نتمازح بمرح ونشرب أكواباً وأكواباً من البيرة احتفالاً بإعادة التشكيل التي يقوم بها بارابين، حسب المناهج الحديثة. لم تغادر سينما تارايبو إلا

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. بعد الحفلة السينمائية الأخيرة. كان من المقرر الآن السعي إلى لَمّ المعاقين الصغار والذهاب بهم في باص إلى مصح الدكتور باريتون في فينبيه على ضفة السين. عمل حقيقي.

ما دمنا مسرورين أنا وبارابين بالعثور على بعضنا، فقد خضنا في أحاديث شتى، للاستمتاع فقط وتبادل الخواطر، وروى كل منا للآخر أخبار رحلاته. ثم عرجنا في حديثنا على نابليون، وذلك بمناسبة الحديث عن تمثال مونسي في ساحة كليشي. كل شيء كان مبهجاً ما أن غدت غايتنا فقط أن نكون معاً. لأننا شعرنا حينئذ بأننا أحرار في النهاية. نسينا الحياة. نسينا كل ما يتعلق بأمر المال

استطراداً، حول نابليون نفسه، كان في جعبة بارابين حكايات ماجنة عنه رواها لي. كان بارابين ملماً جداً بتاريخ نابليون، كان مشغولاً بذلك فيما مضى، كما أخبرني، حين كان ما يزال طالباً في المدرسة الثانوية في بولونيا. لقد تربي بارابين تربية راقية. وليس مثلي. وهكذا، فقد روى لي بهذه المناسبة، أن جنرالات نابليون وجدوا صعوبة شديدة بعد تقهقرهم أمام الروس في أن يمنعوه من البقاء في فارسوفيا، في أحضان عشيقته البولونية الغائتة. هكذا كان نابليون حتى في معمعان الكوارث العظيمة والمحن، غير جاد، في المحصلة مع جوزيفينه. ما من حيلة إزاء ولعه بالمتع والمجون، وهو ولع البشر جميعاً، ذلكم هو الأمر الأشد مأساوية، أن لا يفكر الناس إلا بالسريير، بالقهوة، بالعرش، بالوزارات، في كل مكان! في كل مكان. نابليون أو غير نابليون. زوج مخدوع أم غير مخدوع. المتعة أولاً، فليهلك أربعمئة ألف جندي مهووس مدجج بالسلاح حتى الريش. ذلك هو لسان حال المهزوم العظيم. أي وغداً! تلكم هي الحياة! وهكذا انتهى كل شيء، لقد قرف الطاغية

من المسرحية التي كانت تُمثل، قبل أن يُعرف المتفرجون، وذهب ليضاجع عشيقته حين لم يعد لديه ما يهذي به أمام الجمهور. وحينئذ لاقى حسابه كاملاً، تركه القدر يسقط بعد أقل من سنتين. ليست مجزرة آلاف الرجال هي التي لامه عليها أنصاره المتحمسون. لا. فهذه المجزرة ليست شيئاً، ولكن لأنه غدا مضجراً على حين فجأة، وهو ما لم يغفروه له! لا تتوقف الأوبئة إلا في اللحظة التي تشمئز المكروبات فيها من سمومها. لقد أعدموا روبيسبير بالمقصلة لأنه كان يكرر دائماً الشيء نفسه. ونابليون لم يصمد أيضاً، أكثر من عامين بعد توسيعه لجوقة الشرف. كان عذاب هذا المجنون هو أنه وجد نفسه مرغماً على خلق الرغبة بالمغامرة لدى نصف أوروبا، حرفة مستحيلة، هلك بسببها في النهاية.

كانت وفود الناس تتجذب نحو الأضواء، يطاردها السأم والخوف، يبحثون عن التسلية. كان ثمة السينما. ذلك الأجير الصغير لأحلامنا، والذي يمكن شراؤه والحصول عليه لساعة أو ساعتين مثل مومس، وكان هناك الفنانون بالإضافة إلى ذلك تُعرض صورهم بعناية في كل مكان لإزجاء السأم، وحتى في المنازل، حيث يعرضون بخصل شعورهم المسترسلة، إنهم يفيضون كالسيل من كل مكان، وتسيل براءتهم عبر الطوابق، وترتج الأبواب بصورهم، وتزين بها المراحيض مثلما المسالخ، وبنك الإسعاف! كل ذلك لتسليتك، لإلهائك، لإخراجك من قدرك.

أي كوخ قدر يعيش فيه المرء حينما تكون حياته مملة خاوية. ليست الحياة سوى صيف كصفوف المدرسة حيث السأم فيه هو الناظر، إنه لا يبرح يراقبك طيلة الوقت. عليك أن تظهر بمظهر المنشغل مهما كلفك ذلك، بشيء ما، أخاذ، وإلا فسيصل إليك ويلتهم دماغك، وحين يكون يوم من الأيام مجرد

٢٤ ساعة فقط، فمن الصعب احتمالها. لا ينبغي أن يكون اليوم سوى استمتاع طويل لا يحتمل تقريباً. جماعاً طويلاً، شئنا أم أبينا .

هكذا تراودك أفكار مقززة ما أن تذهلك الضرورة عن نفسك، حينما تتسحق داخلك في كل ثانية رغبة بألف شيء آخر.

كان روبنسون فتى مهموماً باللانهاية أيضاً، في نمطه، قبل أن يصيبه ذلك الحادث. ولكنه الآن نال حسابه. كما أعتقد على الأقل.

انتهزت فرصة وجودنا في المقهى، هادئين. كي أروي أنا أيضاً لبارابين كل ما جرى معي منذ فراقنا. كان بارابين يتفهم الأمور، وحتى أموري، اعترفت له بأنني هدمت عملي كطبيب حين غادرت رانسي بطريقة غير مألوفة، هكذا كان علي أن أقول. لم يكن هناك ما يدعو إلى المزاح. أما بصدد العودة إلى رانسي. فلم يكن خليقاً التفكير بها. وقد وافقتني على ذلك بارابين نفسه.

فيما كنا نتسامر بحميمية على ذلك المنوال. ونبوح بهمومنا لبعضنا في المحصلة، أعلن عن فاصل للاستراحة في سينما تارابو. ونزل موسيقيو السينما بكاملهم إلى الحانة. ليتناولوا قدهاً من الخمر معاً. كان بارابين معروفاً جيداً من قبل هؤلاء الموسيقيين.

علمت منهم بأنهم يبحثون بالتحديد، عن ممثل ثانوي يؤدي دور باشا أثناء الفاصل الموسيقي، وهو دور صامت، كان ممثلاً ذلك الدور قد رحل دون أن يقول كلمة. دور جميل، وبأجر لا بأس به مع ذلك، يؤدي في مقدمة الفاصل الموسيقي. ما من جهد يبذل. ثم إنه محاط بغنج فتان، بسرب رائع من الراقصات الإنكليزيات، آلاف العضلات المتحركة والتميزة. ذلكم هو نوعي تماماً وحاجتي الملحة.

قمت نفسي بلطف وبشاشة في النهاية، وانتظرت جواب مدير أعمال المسرح. ولما كان الوقت ضيقاً، ويصعب عليهم البحث عن ممثل آخر حتى بولية سان مارتين. فقد سرّ مدير الأعمال لأنه عثر علي في المكان نفسه، ووفر علي نفسه مشقة البحث، لم يبق كثيراً في اختياري، واعتمني إنن علي الفور، ثم باشرت العمل، فطالما أنني لا أعرج. لم يكن مطلوباً مني أكثر من ذلك.

ولجت في تلك البواطن الجميلة الدافئة، والمثيرة لسينما تارابو. فقير من المقصورات المتأرجة. حيث تسترخي الراقصات الإنكليزيات خلال فترة انتظار المشهد يمزح ويضحك، في جمهرات ملتبسة. ما أن عثرت علي بفتيكي بهذه الوفرة حتى سارعت إلى إقامة صلات مع تلك الشابات والرفيقات الطائشات، ومنحنتي شرف التعرف علي فريقيهن الأكثر لطفاً ورشاقة في العالم ملائكة، ملائكة رصينات!

كانت الإيرادات هائلة في تارابو. ففي داخل الكواليس كان كل شيء باذخاً. الأفخاذ والأضواء والصابون والساندويش. أما موضوع المشهد الراقص الذي كنت أظهر معهن فيه، فكان مستمداً من تركمانستان، كما أعتقد. كان ذلك ذريعة لكلمات فارغة موقعة مع حركات رقص، مخلعة موسيقياً، مترافقة مع قرع طبول عنيف.

كان دوري موجزاً. ولكنه أساسي. كنت أشعر في البداية، وأنا منتفخ بالذهب والفضة، ببعض الصعوبة في الثبات بين الكثير من الدعامات والشمعدانات غير الثابتة، ولكنني أدبت الدور بنجاح، وجوّدت فيه ما استطعت. لم يكن علي سوى الاستسلام للأحلام تحت مساقط الأضواء اللبينية.

طوال ربع ساعة، تكد عشرون راقصة، يندفعن في رقص باخوسي هائج، على وقع أنغام رخيمة، لإقناع الباشا المزعوم بسحرهن وفتنتهن. لم أكن أطلب أكثر من ذلك. كنت أفكر أن تكرار هذا الرقص، خمس مرات في اليوم، كان شاقاً على هؤلاء الراقصات. ودون أن نفتر قواهن أيضاً على الإطلاق، ومن مرة إلى أخرى كن يتثنين ويهززن أردافهن، بتلك الطاقة الخارقة وتلك الاستمرارية الدؤوبة التي لا تعرفها إلا سفن المحيطات بجهد لا متناه.



<< ما من حاجة إلى التخبط، والانتظار، حسبنا كل ذلك ما دام على الجميع أن يخرجوا الى الشارع. فهو وحده المهم، لا خلاف في هذا. إنه ينتظرنا. ينبغي الهبوط إلى الشارع، ينبغي اتخاذ قرار بذلك. ليس واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة من بيننا، بل الجميع. هناك، وسطه، نتردد قليلاً ونتصنع قليلاً، ولكن ذلك لن يطول.

في البيوت، لا شيء يستحق الاهتمام. فما أن يوصد باب على أحد حتى يبدأ بإصدار رائحة نتنة على الفور، وكل ما يضع يده عليه يفوح بالنتن. إنه يتقادم في مكانه، جسداً وروحاً، يتعفن. وإذا ما تعفن الناس، فذلك مفيد بالنسبة إلينا. ينبغي أن نهتم بهم، ينبغي إخراجهم، إبعادهم، عرضهم. كل الذين يتعفنون يكونون في الغرف. وحتى لو تزينوا، فإنهم ينتنون، مع ذلك

إذا تحدثنا عن العائلة، فقد كنت أعرف سيدلانياً في جادة سانت أوين علق على واجهة محله إعلاناً جميلاً يقول : بثلاثة فرنكات تحصل على مطهر، لتطهير سائر أفراد العائلة. يا لها من تجارة: إنهم يتجشؤون، يتجشؤون معاً داخل العائلة، يكرهون بعضهم كرهاً عميقاً. تلكم هي الأسرة الحقيقية، ولكن أحداً منهم لا يحتج أو يعترض لأن العيش مع الأسرة، مع ذلك، أقل كلفة من العيش في الفندق.

وإن تحدثنا عن الفندق، فنحن أكثر قلقاً فيه، وأقل إدعاء مما في الشقة.. وأقل شعوراً بالذنب أيضاً. نحاول هنا أن لا نلفت انتباه أحد إلينا. فما أن نصرخ أو نشتم، قليلاً أو غالباً جداً، حتى تسوء الأمور ثم إننا لا نتجرأ، على

التبول في المغسلة، لفرط ما يسمع كل شيء من غرفة إلى أخرى.. ولكننا ننتهي بالضرورة إلى اكتساب العادات الحسنة. على غرار ضباط البحرية خلال الحرب. كل شيء في الفندق يمكن أن يتزلزل من الأرض حتى السماء من لحظة إلى أخرى. .. نحن مهيوون لذلك، ولا نبالي أبداً ما دنا «نغفر» لبعضنا عشر مرات في اليوم، لا لشيء إلا لأننا نلتقي دوماً في الممرات.

في الفندق، عليك أن تتعرف في المراحيض على رائحة كل جار من جيران الدرج. ذلك سهل. من العسير عليك أن تحمل أية أوام حينما تقيم في إحدى غرف الفندق. فالزبائن هنا لا يختالون في مشيتهم.. إنهم يسافرون بهدوء في الحياة، من يوم إلى آخر. دون أن يلفتوا انتباه أحد إليهم على غرار مسافرين في قارب يتعفن قليلاً، ثم يمتلأ بالنقوب، وهم يعرفون ذلك.

كان الفندق الذي نزلت فيه يجتذب طلاب المقاطعات على الأخص؟ روائح أعقاب السكائر القديمة، وأطعمة الإفطار، تستقبلك عند درجاته الأولى.. يهتدي إليه رواده، في الليل من بعيد، بسبب الأضواء الرمادية المشعة فوق بابه، والحروف الذهبية المسننة التي تتدلى من شرفته على غرار طقم أسنان ضخم قديم.

من غرفة إلى غرفة، عبر الممر، كان الطلاب يتزاورون. ها أنذا أعود إليهم، إلى هؤلاء الطلاب، بعد سنوات عملي البائسة في ممارسة المهنة . كانت رغباتهم وأمنياتهم هي ذاتها! متصلبة وزنخة. ليست أقل ولا أكثر تفاهة مما كانت عليه، فيما مضى، حين غادرتهم. لقد تغيرت الكائنات البشرية ولكن الأفكار لم تتغير. كانوا يذهبون، مثلما في السابق، هؤلاء وأولئك يرمون فتاتاً، أكثر أو أقل، من علم الطب وقشوراً من الكيمياء، وأقراصاً من الحقوق، وعلم الحيوان، في ساعات منتظمة تقريباً. في الطرف الآخر من الحي. كانت

الحرب قد مرت على قاعاتهم دون أن تحرك فيهم ساكناً على الإطلاق،
وحيثما كنت تطل على أحلامهم، بروح من التعاطف، يذهبون بك، مباشرة
إلى السنة الأربعين من عمرهم. كانوا سيتحملون، على هذا النحو عشرين
عاماً أخرى قادمة، مئتين وأربعين شهراً، من التقدير العنيد كي يصنعوا
لأنفسهم سعادة.

تلك صورة إيبينالية^(١). تقوم لديهم مقام السعادة، وفي الوقت نفسه مقام
النجاح، ولكنها صورة مترجعة، ومصقولة. كانوا يرون أنفسهم في المربع الأخير،
محاطين بأسرة قليلة العدد، ولكنها فريدة ونفيسة حتى الهنيان. وهم، لن يلتفتوا إليها
مع ذلك، في المستقبل، على الإطلاق تقريباً. لا حاجة إلى ذلك، فقد خلقت الأسرة
لكل شيء ما عدا أن يرى أفرادها بعضهم. في البداية كانت قوة الأب وسعائته،
مكرسة لمعانقة الأسرة دون أن يراها. . إنها قصيبته

الإقامة في الفندق الحافل بالبراغيث جعل رفاقي الطلاب يشعرون
ببعض الخجل، يستحوذ عليهم النزق والانفعال بسهولة. فالبرجوازي الشاب
في الفندق، طالب الجامعة، يشعر بأنه معاقب. وما دام عاجزاً حتى الآن،
بالطبع، عن توفير أي دخل، فهو يعيش حياة البوهيميين الهامشيين، يوماً بيوم،
كي ينسى وضعه، ويغرق في تلك الحياة، في ذلك اليأس من القهوة بالكريما.
في بداية الشهر كنا نمر بأزمة حقيقية قصيرة من التهيج الجنسي، كان
الفندق كله يرتعش بالشبق، والجميع يغسلون أقدامهم. ثم تبدأ جولة من جولات
المتعة. .. كان وصول الحوالات المالية من المقاطعات يشجعنا على ذلك.
كان بوسعي ربما، أن أمارس الحب في تارابو مع إنكليزياتي الراقصات،

(١) نسبة إلى مدينة إيبينال: مدينة فرنسية صغيرة معروفة بأبنيتها الرومانية ذات الطراز
القوطي.

وبنحو مجاني أيضاً. ولكنني لدى التفكير بذلك كنت أتأشاهن، بسبب المتاعب التي يثيرها القوادون الصغار الغيورون والتعساء من أصدقاء الراقصات الذين يتسكعون في الأروقة في إثر الراقصات.

ولما كنا نقرأ عدداً من الصحف الرقيقة في فندقنا. فقد تعرفنا على وسائل وعاوين لقضاء الوطر في باريس. ينبغي الاعتراف بأن تلك العناوين كانت مبهجة مغوية، بحيث كنا نستسلم للذهاب إليها. حتى أنا الذي كنت قد اجتزت جبال البيرينية، وطففت ما شاء لي الطواف، وعرفت تعقيدات من هذا النوع الخنزيري فإن لعبة الوصالات السرية لا يبدو أنها قد فارقنتي كلياً. ذلك أنه يبقى في داخلك دائماً، فضول كامن تجاه الشذوذ. تحدثك نفسك بأن تلك الطريقة الشاذة لن تعلمك شيئاً، وأنه لا جدوى من أن تضيع دقيقة من أجلها. ومن ثم فأنت تعود إليها من جديد مرة أخرى، مع ذلك، كي تتأكد فقط من حقيقة أنها خاوية من المعنى. وتتعلم شيئاً ما جديداً بشأنها، وهذا كاف لكي يعيد إليك بعض التفاؤل.

تستدرك خطأك، تفكر بوضوح أكثر من السابق، تأمل حينئذ بأنك لم تعد ترجو من ممارستها أي متعة على الإطلاق، ثم تعود في النهاية لتمارس الشذوذ بالثمن ذاته. إنها في المحصلة، اكتشافات داخل مهبل امرأة بالنسبة لكافة الأعمار. انطلقنا بعد ظهيرة أحد تلك الأيام، ثلاثة من نزلاء الفندق بحثاً عن مغامرة لا تكلف كثيراً. لم يطل بنا البحث كثيراً بفضل علاقات بومون الذي كان يتولى مهمة تأمين كل ما يمكن أن نحتاجه من ترتيبات ومن مواعيد غرامية، في حي باتينيول الذي يقيم فيه. كان دفتر مذكرات بومون حافلاً بدعوات متباينة الأسعار. كان موئل المتعة ذاك، والذي لم يكن يبدو باذخاً يقع في طرف ساحة صغيرة داخل مسكن صغير لا يكاد النور يضيء جنباته

بحيث يلزمك من أجل أن تهتدي إلى طريقك داخله إلى قدر كبير من البصيرة والفتنة. كان ينبغي أن تريح من أمامك العديد من السجف دون أن يفارقك القلق، حتى تبلغ ذلك القواد. الجالس دوماً وسط نور خافت

بسبب ذلك الغبش لم أكن أرى بومون بوضوح كامل، والحق يقال. وعلى الرغم من أننا تبادلنا الحديث طويلاً مع ذلك القواد، وساعدنا في وقت من الأوقات، وعرض علي أنواعاً من العروض. وكل أنواع الأسرار الخطيرة، فإنني سأعجز عن التعرف عليه إن كنت سألتقي به في جهنم.

أذكر فقط بأن العشاق العابرين الذين كانوا ينتظرون دورهم في الدخول لمقابلته داخل صالته كانوا يلبثون جالسين بنحو لائق جداً، من دون أي ألفة فيما بينهم، متحفظين دوماً، مثلما لدى نوع من أطباء الأسنان الذين لا يحبون الضجيج على الإطلاق، ولا الأضواء كذلك.

بفضل أحد طلاب الطب تعرفت على بومون. وقد دخل طالبنا هذا في سجلات البوليس تحت اسم مستعار رهيب: بالتهازار.

كانت الحوارات تدور بصعوبة بين الزبائن المنتظرين. والألم ينتشر في الأجساد، في حين أن المتعة والحاجة إليها كانتا مشفوعتين بالخجل.

من الخطيئة، شئنا ذلك أم أبينا، أن نكون زنائين وفقراء. حينما أطلعت بومون على حقيقة وضعي، وعلى ماضي الطبي، لم يتكأ هو في الإفشاء إلي بعذابه الذي يرضيه... كان ثمة رذيلة تستزفه، فقد أضمن على «الاستمنا» بيده باستمرار، تحت طاولة مكتبه أثناء الحوارات التي كان يجريها مع زبائنه،

ومع الباحثين، ومع النساء القلقبات على عجانهن. «إنها مهنتي. أنت تفهمني! ليس من السهل علي الامتاع عن ذلك، مع كل ما يرويه لي هؤلاء الأوغاد...» كانت الزبونة، في المحصلة تقوده إلى الإسراف في ذلك، على غرار تلك الأفواه اللواسعة جداً التي تهفو يوماً إلى اللثام اللحم. بالإضافة إلى ذلك كنت أعتقد أن أحشاءه السفلية كانت محمّاة يوماً بفعل حمى مؤذية تصدر عن رئتيه، وأن السل لا بد سيفتك به بلا ريب، بعد بضع سنوات. كانت الثمرات التي لا تنتهي لزبائنه المحبطين ولزبوناته المدعيات تستنزف قواه أيضاً بطريقة أخرى. كانوا يرسلون إليه طوفاناً من الرسائل المحملة بالأعاجيب. كانت زبوناته مختلات يخلقن كومة من الحكايات والبهرجات، بصد لا شيء وبصد مؤخراتهن. بحيث أنه لن يجد شبيهاً لما كان يسمعه منهن لو قلب العالم رأساً على عقب. وكان الرجال بحاجة إلى نساء هائمت ومعجبات من أجل إشباع نزواتهن المشبوبة. لم يعد لدى هؤلاء الرجال ما يقمنونه من الحب، مثل تلك الحرارة وذلك الانتفاع للذين كان يتمتع به زبائن المدام هيروت. كان يصل إلى بومون في بريد صباحي واحد من الحب غير المشبع ما يكفي لإطفاء كل حروب العالم. ولكن هذا الفيض العاطفي الداعر لم يكن يتعدى على الإطلاق الأرداف والمؤخرات، وكان ذلك هو التعاسة بعينها.

كانت طاولته تختفي تحت ذلك الركام الثقيل من الرسائل الحافلة بتلك الترهات المضطربة. كنت أرغب في معرفة المزيد عما في داخلها من أسرار. وقد عزمت على أن أهتم في وقت من الأوقات بتصنيف تلك التجارة الرسائلية غير الشريفة. باشرت. كما نصحني بأنواع الآفات العصبية. على غرار تصنيف ربطات العنق أو الأمراض. الهذيانات أولاً في جانب، ومن ثم المازوخيون والفاسقون في جانب آخر. الضاربون بالسوط هنا، و«نوع المتسلطات» بالمقابل.

وهكذا بالنسبة لجميع الرسائل.. ثم ما لبثت هذه اللعبة أن تحولت إلى ما يشبه السخرة. لقد كانوا مطرودين من الجنة. . يمكنني قول ذلك، وكان بومون يرى مثل هذا الرأي أيضاً، ببديه الرطبتين، ورنيلته المتواصلة، والتي تكبده المتعة والعقاب في آن معاً. وبعد أشهر قليلة صرت أعرف ما يكفي حول تجارته. وحوله. وباعدت بين زيارتي له.

لم يتوقفوا في تارابو عن اعتباري ممثلاً مناسباً جداً، هادئاً جداً، دقيقاً في المواعيد، غير أنه بعد مضي أسابيع قليلة من الهدوء والاطمئنان. عاودني سوء الحظ من جانب غير متوقع. ووجدت نفسي مرغماً على حين فجأة أيضاً. على أن أترك دوري التمثيلي لأتابع دربي القدر.

حين أنظر، من بعد، إلى تلك الأيام التي قضيتها في تارابو أرى أنها لم تكن في المحصلة سوى نوع من مرسى محظور وماكر. كنت أرثدي دائماً أفر الثياب، خلال تلك الشهور الأربعة، حيناً أمير وحيناً قائد روماني، لمرتين اثنتين أو طيار في يوم آخر، وكان أجري مجزياً ومنظماً. أكلت في تارابو عن سنوات. خيانة! كارثة، ففي إحدى الأمسيات حدث انقلاب في مشهنا التمثيلي، مشهد الأغا. لا أدري لأي سبب. وغدا المشهد الجديد يصور أرصفة لندن. ارتبت في الأمر على الفور، كان على انكليزياتنا في الداخل أن يتظاهرن الآن بالغناء والرقص على أرصفة التايمز، في أثناء الليل. بينما كنت أنا أؤدي دور شرطي إنكليزي، وهو دور صامت كلياً، كان على الشرطي أن يتجول من اليمين إلى اليسار أمام الدرابزين، وفجأة كما لو أنني لم أعد أفكر بغنائهن، نتاهى إلي ذلك الغناء أقوى من الحياة، وبذل وجهة القدر نحو الشقاء. وفيما كن يصدحن بالغناء، لم يعد بوسعي التفكير بشيء آخر سوى بكل يؤس العالم المعذب، وبيؤس عالمي على الأخص. جعلني غناء أولئك الصبايا أعود إلى قلبي، مثلما يعود

سك التون. وخيل إلي مع ذلك، بأنني قد تمثلت ونسيت ما كان أدهى وأمر، لأن غناءهن كان هو الأدهى من أي شيء، كن يغنين أغنية جنلي لم يغنينها من قبل، ومع الغناء كان صوتهن يتموج كي يبلغ الأثر مداه الأقصى. وقد تلقيته في الصميم. حتى ليكنني القول بأنني شعرت كما لو أنني مطروح فوق الشقاء وفوق الكروب..... متجولاً وسط الضباب ووسط الشكوى ! كانت الأغنية تقطر نحيباً.كنت أشيخ معها دقيقة إثر دقيقة. وكان الديكور يسح هو أيضاً. واصلت رفيقاتي الغناء، مع ذلك. لم يكن يبدو عليهن أنهم يدركن الأثر الفاجع الذي كانت تثيره فينا أغنيتهن. كن يتجعجن على حياتهن بأسرها، وهن يرقصن، بإيقاع موزون.. وحين تغلغل ذلك بعيداً في الأعماق. قوياً جداً، لم يبق ثمة خداع للذات، ولا مقاومة.

كنا جميعاً نكابد البؤس، على الرغم من البذخ الذي يغمر الصالة، ويغمر ثيابنا، ويغمر الديكور. كان البؤس يفيض، ينعصر فوق الأرض بكاملها، رغم كل شيء. كان يتصاعد منهن الحزن، دون أن يرغبن بإيقافه أو حتى فهمه.. كانت عيونهن هي الحزينة حسب. ولكن لا يكفي أن أقول العيون. كن يغنين اندحار الوجود. كن يحسبن ذلك على أنه الحب، لا شيء سوى الحب، لم تتعلم أولئك الصغيرات ما تبقى. كن يغنين أسى صغيراً مزعوماً، وكن يسمينه أسى الحب. وحين كن يافعات، غير مدركات كن يحسبن كل شيء على أنه أسى الحب..

<< حيثما أذهب... حيثما أنظر...

إليك وحدك... أو

إليك وحدك.. أو..

هكذا كن يغنين.

ذلكم هوس تلك الصبايا، وضع سائر البشرية، في خلفية، خلفية وحيدة،
الحلم المقدس، الحب المضطرم، وفيما بعد سيعلمن ربما أين سينتهي كل ذلك،
حينما لا يعدن أبداً بضات متوردات، حينما يحقق بهن الكرب الحقيقي لعالمهن
القدر. كل تلك الصبايا، الست عشرة، بأفخاذهن المكتنزة كأفخاذ الأفراس،
وأثائهن المتوثبة... يمسكهن الشقاء من أعناقهن وأجسادهن، لم يكن يدركن،
يمسكهن في البطن، وفي الأنفاس عبر سائر موجات أصواتهن الرقيقة
والمصطنعة أيضاً.

كان الشقاء راحماً في داخلهن، ما من ثياب تغطيه، ما من لآلى، ما من
ضوء، ما من ابتسامة لخداعه، لإلهائه عنهن، فهو سيعثر عليهن، أينما
اختبأن.. إنه يتسلى بابتزازهن. فيما هن ينتظرن دورهن، كل حماقات الرجاء
والأمل كانت توقظه، تهدده، تستحثه...

على هذا الغرار، يكون شقاؤنا، شقاؤنا الكبير، سهو دائم. غفلة بلا
حدود.

تعباً إذن لذلك الذي يغني أغاني الحب، فالحب إنما هو الشقاء، لا شيء
آخر غير الشقاء. شقاؤنا الذي يأتي دائماً ليكذب داخل أفواهنا، ذلك الروث..
وهذا كل شيء، إنه موجود في كل مكان، لا يعرف الرحمة. علينا أن
لانوقطه، حتى ولو بنحو مصطنع، فما من تظاهر أو اصطناع أمام الشقاء.
كانت انكليزياتي يعدن إلى الرقص والغناء ثلاث مرات في اليوم، رغم كل
شيء، أمام الديكور وعلى أنغام الأوكورديون. كان خليفاً أن يؤول ذلك إلى
تعب بلا حدود.

تركيتهن يغنين ويرقصن. غير أنه كان بإمكانني القول بأنني كنت أرتقب
الكارثة.

واحدة من تلك الصغيرات، سقطت مريضة في البداية، ألا فليخطف الموت هاتيك الظريفات الصغيرات اللواتي يستثرن الشقاء، ألا فليهلكهن، حبذا لو هلكن جميعاً! كان عليهن أن لا يتوقفن ليرقصن ويغنين في زوايا الشوارع خلف الأوكورديونات. فمن هناك غالباً كن يلتقطن العدوى، صدمة الحقيقة. وجاءت فتاة بولونية إذن، لتحل محل المريضة في لازمتها الغنائية. كانت البولونية تسعل هي أيضاً. كانت فتاة طويلة، متينة البنية وشاحبة، غونا على الفور حميمين، وخلال ساعتين عرفت روحها بالكامل. أما بشأن جسدها، فكان علي انتظار بعض الوقت. هوس تلك البولونية كان إتلاف جهازها العصبي في تجارب حب عابر مستحيلة. وقد دخلت، بالضرورة في غناء الإنكليزيات الشجي، كأنما داخل الزبدة. بوجعه وبكل شيء. كان غناؤهن يبدأ برنة صغيرة لطيفة، لم يكن يبدو فيها أي شيء غريب، مثلها مثل جميع المقدمات التي تمهد للرقص، ثم ما يلبث الغناء أن يجعلك تعتصر قلبك لفرط أساك، كما لو كنت ستفقد الرغبة بالحياة. حتى ليبدو لك، كل شيء، صباحن، وكل شيء. على أنه باطل وقبض الريح. وتتخى بعيداً حينئذ بعد أن تتلاشى الكلمات وبعد أن يمضي الغناء، ويرحل النغم الطروب، لينام في مهده الحقيقية مهدك، حقيقة الحقيقة، مهد حفرتك الأخيرة كي تنتهي هناك، دورتان اثنتان تدورهما اللازمة، وتشعر بالميل إلى بلد الموت ذاك بلد أولئك الراقصات، البلد البديع، البلد الحاني والسريع النسيان مثل ضباب. كانت تلك الأصوات أصوات ضباب في نهاية المطاف.

كن يعاودن الغناء معاً، جميعهن، شكوى مترعة بمرّ العتاب لأولئك الذين ما يزالون هنا، يجرجرون حياتهم، ينتظرون على امتداد الأرصفة، جميع أرصفة العالم، حيث يمضون حياتهم حتى النهاية، يمارسون أعمالاً

ومهارات، يبيعون الأشياء والبرتقال للأشباح الأخرى، والأسرار والنقود المزيفة للبوليس وللفجار، ويروون أخباراً ملفقة، وسط ضباب الصبر الذي لانهاية له أبداً.

تانيا، رفيقتي البولونية الجديدة كانت كمن يتقلب على الجمر في تلك الفترة، كنت أفهمها، بسبب موظف بسيط أربعيني يعمل في أحد البنوك، تعرفت عليه حين كانت في برلين، كانت مصممة على أن تعود إليه في برلينها، وأن تحبه رغم كل شيء، وبأي ثمن. ولكي تعود وتجده هناك، كانت ستفعل أي شيء.

كان عمال المسرح والفنيين يطاردونها، ينثرون لها وعود الوفاء الكاذبة، في عمق أدراجهم التي تفوح برائحة البول. كانوا يقرصونها من خذيتها، أولئك الخبثاء. بانتظار الأجوبة التي لم تكن تصل أبداً، ولكنها كانت لا تكاد تلاحظ مناوراتهم لفرط ما كان يستحوذ عليها كلياً عشقها البعيد. لم يكن ينقضي أسبوع واحد في مثل تلك الظروف دون أن تمر بمحنة فريدة. لقد أتخمت قدرها، بإغواءات منذ أسابيع وشهور على غرار مدفع متخم بالنيران. اختطف وباء الانفلونزا حبيبها البعيد. علمنا بالنبا المفجع مساء أحد أيام السبت. وما أن تلقت النبا حتى جرتني مشعثة الشعر، تائهة اللب، باندفاع عاصف نحو محطة قطارات الشمال. لم يكن هذا كل شيء أيضاً. ولكنها، وسط هذيانها، كانت تزعم أمام كوة التذاكر بأنها ستصل إلى برلين في الوقت المحدد للمشاركة في الجائزة. كان الأمر يحتاج إلى رئيسين من رؤساء المحطة كي يثبوا عن عزمها، ويفهموها بأن الأوان كان قد فات.

في تلك الحالة التي انتابتها، لم يكن من الممكن أن أفكر بتركها. كانت متشبثة بفاجعتها، وأكثر من ذلك أيضاً بأن تظهرها على صورة انتفاضات

تجتاح جسدها، أية فرصة قد أتاحت لي الآن! إن قصص الحب التي يعاكسها الشقاء ونأي المسافات، مثلها مثل قصص حب البحارة. لا مرأى في ذلك، فحين لا تتيح لهم الظروف غالباً أن يلتقوا مع من يهون، لا يعود بإمكانهم أن يتخاصموا معهم ويتراشقوا بالشتائم، وهذا لعمرى مكسب كبير. طالما أن الحياة هذيان محشو بالأكاذيب فإن المرء كلما نأى وغاب، كلما استطاع أن يحشوها بالأكاذيب، وكلما غدا سعيداً بعد ذلك. وهذا طبيعي، ومطرد. فالحقيقة يصعب ابتلاعها.

من السهل الآن، على سبيل المثال أن يحدثونا بأشياء عن المسيح، هل كان المسيح يذهب إلى المراحيض أمام الجميع. إنني على قناعة بأن حذقه لم يكن ليديم طويلاً لو تغوط أمام أنظار الناس.. قليل جداً من الحضور أمام الآخرين، ذلك هو المهم وعلى الأخص في أمور الحب.

لما أن تأكدت، مع تانيا بأنه لم يكن هناك قطار إلى برلين تعلقنا بالبرقيات، حررنا في مكتب البورصة برقية طويلة ومؤثرة، ولكن كان ما يزال أمامنا صعوبة في إرسالها. لم نكن نعلم على الإطلاق إلى من نرسلها، لأننا لم نكن نعرف قط أحداً في برلين، ما عدا الميت. ما عاد لدينا منذ تلك اللحظة سوى أن نتبادل كلمات بصدد الفقيه، وقد أتاحت لنا الكلمات القيام بجولتين أو ثلاث في محيط البورصة. ولما كنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا في هدهدة الأمل مع ذلك، فقد صعنا بهوء، باتجاه مونتماتر، ونحن نغمم بالأحزان.

من بداية شارع ليببيك كنا نلتقي بأشخاص جاؤوا يلتمسون بعض الترويح في أعالي المدينة. كانوا مسرعى الخطى.. وحين وصلوا إلى القلب المقدس شرعوا ينظرون من على إلى الليل على غرار تجويف هائل ثقيل، تكدست البيوت في قاعه.

فوق الساحة الصغيرة كان هناك مقهى بدا لنا من مظهره بأنه الأرخص. دلفنا إليه. وتركتني تانيا، من أجل مواساتها، و عرفاناً منها أعانقتها متى أريد. كانت راغبة في الشراب، كان ثمة سكارى نائمون على المقاعد من حولنا. بدأت الساعة فوق الكنيسة الصغيرة تدق ساعات وساعات أيضاً، ولم تعد تتوقف. كنا قد وصلنا إلى نهاية العالم، كان ذلك ينكشف لي أكثر فأكثر، لم يكن بمقدورنا المضي أبعد. لم يعد ثمة بعد ذلك سوى الموتى.

فوق ساحة التير، المجاورة كان الموتى يبدؤون بالاستيقاظ. كان بإمكانهم تمييزهم، كانوا يمرون بالضبط فوق غاليري ديفايل.

ولكن لابد، مع ذلك، من معرفة كيف كانوا حين عثرنا عليهم، أعني من الداخل، و عيونهم مغمضة تقريباً، لأن أدغال الضوء المتوهجة للإعلانات كانت تزعجهم كثيراً، وحتى عبر الغيوم. أدركت، في الحال بأنهم كانوا قد أخذوا معهم ببيرت، أشار إلي الاثنان كلاهما بإشارة صغيرة: ببيرت. ومن بعده أيضاً، وغير بعيد عنه الفتاة التي اعترها الشحوب، الفتاة المجهضة أخيراً، فتاة رانسي.. وقد تصفى جسدها كلياً من الدماء، هذه المرة.

كان هناك أيضاً زبائن قدامى، من هنا وهناك، وزبائن لم أعد أفكر بهم على الإطلاق، وآخرون غيرهم، ولمحت العجوز الزنجي داخل غمامة بيضاء وحيداً. ذلك الذي كان قد جُلد بالسوط جلدًا مبرحاً، هناك في توبو، والأب غرابا، ضابط الغابة العذراء العجوز، كنت أفكر بهؤلاء، من وقت إلى آخر، بالضابط، وبالزنجي المعذب، وبالاسبنيولي أيضاً، وبذلك الخوري. جاء الخوري مع الموتى هذه الليلة، من أجل صلوات السماء. كان صليبه الذهبي يزعجه كثيراً، وهو يرفرف من سماء إلى أخرى، كان متعلقاً بصليبه وسط الغيوم، الأشد قذارة والأكثر اصفراراً. تعرفت أيضاً في الوقت ذاته على

آخرين كثيرين راحلين. وآخرين دائماً... كانوا من الكثرة بحيث شعرت بالخجل من نفسي حقاً. لأنه لم يكن لدي الوقت لمشاهدتهم حينما كانوا أحياء هناك، بجواري، سنوات طويلة .

لم يكن لدي إطلاقاً ما يكفي من الوقت، هذا صحيح، ذلك لأنني كنت أفكر في نفسي وحسب .

في النهاية، تحول كل هؤلاء الأوغاد إلى ملائكة دون أن ألاحظ ذلك. كان هناك الآن في كل مكان غيوم كثيفة من الملائكة، والمهلهلين، وغير المحتشمين يطوفون فوق المدينة، بحثت بينهم عن موللي، كانت تلك هي اللحظة المناسبة. لطيفتي، صديقتي الوحيدة، ولكنها لم تكن معهم... كانت خليقة أن يكون لها سماء صغيرة، لها وحدها، بالقرب من الإله الرحيم، لفرط ما كانت لطيفة. موللي.. لقد أثلج صدري أنني لم أعتز عليها بين هؤلاء الرعاع، كان هؤلاء هم رعاع الموتى، أذلاً، لم يكونوا سوى الأوباش وطغمة الأشباح الذين تجتمعوا هذا المساء فوق المدينة، وعلى الأخص فوق المقبرة المجاورة، حيث كان يصل أيضاً أشخاص غير معروفين. مقبرة صغيرة مع ذلك، وأشخاص من العامة. تنزف دماؤهم، يفتحون أفواههم على اتساعها، كما لو كانوا يريدون الصراخ، ولكن لم يعد بإمكانهم ذلك... كان هؤلاء العاميون ينتظرون. مع الآخرين. كانوا ينتظرون لا بيروس، بطل الجزر، الذي كان يقود حشدهم في تلك الليلة، لم يكف لابيروس عن التذمر بسبب ساقه الخشبية، وبسبب الآلام التي كان يعاني منها حين كان يقف على هذه الساق، وبسبب منظره الكبير الذي لم يكن يرغب في الخروج من الغيوم دون أن يكون حول عنقه، منظره الشهير الطويل الذي يجعلك ترى الأشخاص والأشياء من بعيد. دائماً من بعيد جداً. ثمة قوزاق مدفونون بالقرب

من مولين. لم يفلحوا في الخروج من قبورهم. كانوا يبذلون جهوداً مخيفة، كانوا يحاولون مرات عديدة... ويسقطون باستمرار في قاع القبور، كانوا ما يزالون ثملين منذ عام ١٨١٠.

وإبل من المطر هطل مع ذلك، زرع صفوفهم، وما أن تبللوا ونال منهم البرد، فوق المدينة حتى تبددوا في جميع الجهات، ورقشوا الليل بصخبهم، من غيمة إلى أخرى. اجتذبتهم على الأخص دار الأوبرا، كما يبدو، بجمر إعلاناتها في الوسط، ثم انبجست أطيافهم، منها، لتتب من جديد إلى الطرف الآخر من السماء. كانت الأطياف من الاضطراب والكثرة بحيث تغشى عينيك منها غشاوة ثقيلة. حينما دقت الساعة الرابعة بدأ الاندفاع الهائل خلف لايبوروس، اندحار شنيع. ثم وصلت الأشباح من جهات الأرض الأربعة. جميع الأشباح من كل الأساطير والملامح، يطارد بعضها بعضاً، يتحدى بعضها بعضاً، تحمل على كاهلها قرناً إثر قرن، وظل الشمال زمناً طويلاً مثقلاً بخليطها الكريه... ثم تحرر الأفق من زرقته، وصعد النهار من ثقب أحدثته الأشباح كي تفرّ منه، حينما كان الليل يلفظ آخر أنفاسه.

بعد ذلك غدا من الصعب العثور عليها... لا بد من معرفة الخروج من الزمن.

هناك صوب إنكلترا يتم العثور عليها، حينما تصل إلى تلك الجهة، ولكن الضباب هناك، في جميع الأوقات، من الكثافة والتراص بحيث يبدو مثل أشرعة حقيقية يرتفع بعضها أمام بعض، من الأرض وحتى أعالي السماء، دائماً وأبداً، ومع الاعتقاد والانتباه يمكن التوصل إلى العثور عليها رغم ذلك، ولكن ليس لزمن طويل على الإطلاق، بسبب الريح التي تحمل دوماً زوابع جديدة وغيوماً ضبابية من عرض البحر.

المرأة العظيمة الرابضة هناك، تحرس الجزيرة، المرأة الأخيرة التي ما يزال رأسها أكثر شموخاً من أعلى الغيوم. لم يعد ثمة سواها حياً داخل الجزيرة. شعرها المحمر الذي يعلو كل شيء، ما يزال يذهّب الغيوم قليلاً. ذلك كل ما تبقى من الشمس.

كانت تحاول أن تعدّ الشاي كما يروون.

كان عليها أن تحاول ما دامت ستقف هناك إلى الأبد، وهي لن تتوقف قط عن غلي شايبها بسبب الضباب الذي يغدو شديد التكاثف، بالغ النفاذ. كان إبريق شايبها عبارة عن هيكل قارب. أجمل من كل القوارب. وأكبر من كل القوارب. القارب الأخير الذي أمكن العثور عليه في سوتهامبتون. كانت تسخن فيه الشاي موجات إثر موجات تهزها، تحركها جميعها، بمجداف بالغ الضخامة... كان ذلك ما يشغلها.

لم تكن تنظر إلى شيء آخر. رصينة ومنحنية دائماً تمر دورية التفنيس فوقها تماماً ولكنها لا تتحرك، لقد اعتادت أن تأتي إليها جميع أشباح القارة لتضيق هناك... إنها تقلّب، وهذا يكفي، تقلّب النار تحت الجمر بين غابتين ميتين، بأصابعها الكبيرة.

تحاول أن توري النار، فكل شيء لها الآن، ولكن شايبها لن يعود إلى الغليان على الإطلاق.

لم يعد ثمة حياة في السنة النيران
لم يعد ثمة حياة في العالم لأي شخص، إلا القليل لها، ثم ينتهي كل شيء.



« أيقظتني تانيا في الغرفة التي انتهينا إلى النوم فيها معا، كانت الساعة العاشرة صباحاً، ولكي أتخلص منها، أخبرتها بأنني لم أكن على ما يرام.. وأنني سأظل بعض الوقت في السرير.

واصلت الحياة دورتها. تظاهرت تانيا كما لو أنها صدقتني، وما أن خرجت من الغرفة حتى اتخذت أنا، بدوري، طريقي. كان علي أن أقوم بعمل ما، في الحقيقة. رقصة السرمندة تلك وأغنيتها الفاجعة، في الليلة السابقة كانت قد خلفت في نفسي شعوراً غريباً بالأسى. وعادت ذكرى روبنسون لتتقض مضجعي. لقد تركته لمصيره، وأسوأ من ذلك أيضاً، لعناية الأب بروتيست. ليس ثمة ما يضاف إلى ذلك... كان قد بلغني بأن الأحوال هناك، في تولوز تمضي على أحسن ما يرام، وأن العجوز هنروي غدت أيضاً لطيفة معه. ولكن المرء في بعض الحالات قلما يسمع، إلا ما يود سماعه، وما يلائمه على أحسن وجه. لم تثبت لي تلك المعلومات المبهمة شيئاً على الإطلاق.

توجهت إلى رانسي يساورني القلق والفضول، التماساً لأخبار عنهما. أخبار صحيحة ومحددة. كان لا بد لي من أجل الذهاب إلى رانسي من المرور بشارع باتينيول الذي يقيم فيه بومون. كان ذلك طريقي. عندما صرت على مقربة من منزله، دهشت جداً حين لمحته هو أيضاً في أحد أركان الشارع، كما لو أنه كان يقفني خطوات سيد صغير على مسافة منه. بالنسبة إلى بومون الذي لم يكن يبارح منزله قط، كان ذلك بالتأكيد حدثاً مهماً. عرفت أيضاً الشخص الذي كان يتبعه، كان أحد زبائنه إنه «السيد» مثلما كان يسمي نفسه في رسائله إلى بومون.

منذ سنوات كان «السيد» يلاحق بومون بإلحاح كي يعثر له على صديقة صغيرة حسنة التربية. ذلكم هو حلمه. ولكن الآنسات اللواتي قُذمن إليه لم يكنّ بالمستوى المطلوب من التربية الذي يلائم نوقه. فقد كن يرتكبن هفوات، كما كان يزعم. لم تسر الأمور سيراً حسناً إذن. لدى التفكير ملياً في الأمر نحن نصادف هناك نوعين اثنين من الصديقات الصغيرات. أولئك اللواتي لديهن «أفكار متحررة». وأولئك اللواتي تلقين «تربية كاثوليكية جيدة». تلكما طريقتان لأولئك التعسات كي يشعرن بأنهن متفوقات، طريقتان أيضاً في الوجود، طريقة اللواتي يؤرقهن القلق، وطريقة اللواتي يؤرقهن الكبت وعدم الإشباع، النوع «الفظ الكريه» والنوع «السمح المتساهل».

كل مدخرات «السيد» كانت تذهب شهراً بعد شهر على تلك المساعي، كان قد وصل الآن مع بومون إلى آخر قطرة من موارده، وآخر قطرة من أمله أيضاً، وقد علمت فيما بعد، بأن «السيد» قد انتحر في المساء ذاته في منطقة مجهولة. ما أن رأيت بومون إذن يخرج من منزله حتى داخلني الشك بأن شيئاً ما غير عادي كان يحدث. تبعتهما مسافة طويلة جداً عبر ذلك الحي الذي كان يُضيع حوانيته على امتداد الشوارع ويضيع ألوانه كذلك، واحداً بعد الآخر، ثم ينتهي أخيراً بحانات مؤقتة عند حدود مكتب الجمارك بالضبط. حينما لا يكون المرء مستعجلاً، فإنه يضيع في تلك الشوارع، يبلبله الغم في البداية، ولا اكثرائية المكان المفرطة بعد ذلك، وإذا كان يملك بعض المال فإنه يستقل سيارة تاكسي على الفور، كي ينجو بنفسه لفرط ما يشعر بالضجر. الناس الذين تصادفهم يسوقون مصيراً ثقيلاً جداً، بحيث تصاب بالحيرة من أجلهم. قدارة! تقول لنفسك، ليس هذا بالكثير عليهم.

ومن ثم، فما من مقعد في تلك الشوارع لتجلس عليه. لون كستنائي ورمادي يشيع في كل مكان. وحين تمطر السماء، فإنها تمطر من كل مكان أيضاً من أمامك، ومن جنبك، ويغدو الشارع زلماً حينئذ، أشبه بظهر سمكة ضخمة مع غرغرات مطر في الوسط. ولا يسعك حتى أن تقول بأن ذلك الحي هو الفوضى بعينها. إنه بالأحرى أشبه بسجن، سجن في غاية الكمال، سجن ليس في حاجة إلى أبواب.

بتجوالي، على ذلك النحو أضعت أثر بومون ومنتحره فوراً في نهاية شارع فينغرييه. وهكذا بلغت مشارف الغارين رانسي، ولم يعد بمستطاعي أن أمنع نفسي من الذهاب لإلقاء نظرة من فوق حصون باريس.

من بعيد. يبدو الغارين رانسي جذاباً لعين الناظر. لا يمكن أن أقول عكس ذلك، بسبب أشجار المقبرة الكبيرة، ويستسلم المرء للوهم قليلاً، ويقسم يميناً بأنه إنما يشاهد غابة بولونيا.

حينما يريد المرء قطعاً، أخباراً عن شخص ما، عليه أن يذهب ليسأل أولئك الذين يعرفون أخباره. على أي حال، قلت لنفسي إذن، ليس ثمة ما أخسره إذا قمت بزيارة صغيرة إلى آل هنروي، فقد كان حرياً أن يعرفوا ما آلت إليه الأمور في تولوز. وها أنا ذا أرتكب عملاً طائشاً متهوراً. لم أسلك سبيل الحذر والحيلة.. ما كنت أعلم بأن قدمي كانتا تطآن مناطق الليل القذرة. غير أنني كنت في وسطها الآن. ثمة شقاء لا قبيل لك به يداهمك على الفور. كان عليك، منذ البداية، أن لا تسعى لرؤية أشخاص بعينهم مرة أخرى، وعلى الأخص آل هنروي، فأنت لن تنتهي قط من عواقب طيشك ذاك.

من عطفة شارع إلى عطفة أخرى ساقنتي قدامي بحكم الاعتياد لأجد نفسي على بضع خطوات من منزل آل هنروي. لم أصدق نفسي بأنني أرى

من جديد منزلهم في المكان ذاته، كانت السماء تمطر، ولم يكن في الشارع أحد سواي! خانتي الجرأة على التقدم. كنت حتى على وشك العودة من حيث أتيت، حينما انفتح باب منزلهم نصف انفتاح، بما يكفي بالضبط لتشير هنروي الابنة إلي، بإشارة تدعوني بها إلى الدخول، لقد رأيت بالتأكيد، كل شيء، كانت قد لمحتني من شقوق مغلاق النافذة، وأنا على الرصيف المقابل. لم يعد لدي حينئذ أي رغبة بالاقتراب، ولكنها ألحت علي، كما أنها كانت تدعوني باسمي.

«دكتور.. هيا إذن بسرعة!»

هكذا كانت تدعوني، بمطلق السلطة. كنت أخشى أن يلاحظني أحد، فأسرعت حينئذ في الصعود فوق الدرجات الصغيرة لبابها، لأعثر على الرواق الصغير ذي الموقد، ولأرى من جديد سائر الديكور. وقد أثار ذلك قلقاً في داخلي، ثم شرعت تحدثني عن أن زوجها سقط مريضاً، منذ شهرين وأن حالته تتدهور من سيئ إلى أسوأ.

ساورتني الريبة على الفور، بالتأكيد

«وروبنسون؟» سألتها على عجل

تمعنت في البداية بسؤالني ثم بدأت في الحديث بعد ذلك.

«كلاهما على ما يرام.. أمورهما تسير على أحسن حال في تولوز» أجابتي في النهاية، ولكن بسرعة، ودون أن تضيف شيئاً إلى ذلك. ثم عادت إلى الحديث من جديد عن زوجها المريض. كانت تود أن أهتم بأمره في الحال، ودون إضاعة دقيقة واحدة أيضاً. «لقد تفانيت في سبيله، إنني أعرفه جيداً زوجي.. وكيت وكيت.. إنه لا يثق بأحد سواي...، وهو لا يريد أن يرى طبيباً آخر غيرك.. وأنتما لم يكونا يعرفان عنواني..» وانخرطت أخيراً في بهرجات مصطنعة.

كان لدي الكثير من الأسباب للخوف من أن مرض زوجها هذا، كان أيضاً نتيجة لأسباب مريبة. كنت قد تلقيت أجري، كي أعرف حق المعرفة هذه السيدة، وعادات المنزل أيضاً، ومع ذلك فإن فضولاً شيطانياً دفعني للصعود إلى غرفة الزوج.

كان راقداً، بالضبط، فوق السرير ذاته الذي عالجت فيه روبنسون في إثر الحادث، قبل بضعة أشهر.

بضعة شهور تغير غرفة بالكامل، حتى حينما لا يحرك أحد فيها ساكناً عن ساكن. كانت الأشياء قد شاخت كلياً، وعراها البلى. وهي ما تزال تجد القوة، لا أدري من أين كي تشيخ، كل شيء كان قد تغير، من حولنا، ليس مكان الأشياء بالتأكيد، بل الأشياء ذاتها، في العمق. لقد كانت أشياء أخرى حينما رأيتها من جديد، كانت تملك، كما يخيل إلي، مزيداً من القوة كي تنفذ إلى داخلنا على نحو أشد أسى وأعمق غوراً، وأكثر هدوءً مما في السابق. وتذوب، في ذلك النوع من الموت الذي يحدث في داخلنا، ببطء، يوماً بعد يوم، والذي نتدرب، بوجل على مواجهته في كل يوم، أقل بقليل مما في عشية اليوم السابق. ومن مرة إلى أخرى نرى الحياة ترقق وتتغصن في داخلنا ومعها الكائنات والأشياء التي نغادرها، مبتذلة، نفيسة، مخيفة أحياناً. يدمغ الخوف في النهاية كل ذلك بأخاديه، بينما نخبأ نحن عبر المدينة، وراء اللذة ووراء الخبز.

وعما قريب، لن يعود ثمة، أشخاص وأشياء، مسالمون، رحماء، عزل من السلاح، يحيطون بماضينا، لا شيء سوى أخطاء غدت خرساء.

تركنتي المرأة وحيداً مع الزوج، كان الزوج قد خبا كل بريق فيه. لم تعد دورته الدموية تعمل إلا بمشقة، كان قلبه قد أصيب بالعطب.

«سأموت». كان يكرر ببساطة، أيضاً.

حينما كنت أواجه حالات من هذا النوع، كنت أستخدم نوعاً من قريحة ابن آوى. كنت أسمع إلى دقات قلبه. من قبيل القيام بشيء ما في ذلك الظرف، مع بعض الحركات المتوقعة. كان قلبه يعدو، يمكنني قول ذلك، فيما وراء أضلاعه، حبيساً. كان يعدو سريعاً خلف الحياة، بصخب، ولكنه عبثاً كان يقفز، فهو لن يدرك الحياة. كان منهاراً، ولفرط ما كان يعثر، فإنه سيسقط عما قريب في العفن، كان ينعصر، محمراً، ويسيل على غرار رمانة مهمشة.. على هذا النحو سيبدو قلبه بعد أيام قليلة رخواً، مرمياً فوق الرخام، مشقوقاً بسكين بعد التشريح. لأن كل ذلك سينتهي بتشريح جنائي جميل، مثلما أتوقع.. بانتظار أن يبدأ جميع أهل الحي برواية حكايات قدرة حول ميتته والتي سيجدونها، ميتة غريبة أيضاً، بعد القصة الأخرى.

كان سكان الحي يرقبون زوجته عند المنعطف مع ركام من القبيل وقال حول القضية السابقة التي ما تزال طرية في الأذهان. وستستمر زمناً بعد ذلك. لم يعد الزوج الآن يعرف كيف يتماسك، ولا كيف يموت. كان قد وصل إلى حالة هي أشبه بمن خرج من الحياة، ولكنه لم يتوصل مع ذلك إلى التخلص من رئتيه. كان يطرد الهواء، ولكن الهواء يعود. كان راغباً بقوة بأن يستسلم للموت، ولكن كان عليه أن يعيش، مع ذلك، حتى النهاية، كان ذلك عملاً شاقاً لا قبل له به.

«لم أعد أحس بقدمي، كان الزوج يئن.. إنهما باردتان حتى الركبتين..»

كان يريد أن يلمس قدميه، ولم يعد يقوى على ذلك.

لم يكن يستطيع أيضاً أن يشرب أي شيء. كانت تلك هي النهاية تقريباً، وحينما قدمت إليه الشراب الساخن الذي أعدته زوجته، تساءلت عما كان

يمكنها أن تضع في داخله، لم يكن للشراب رائحة طيبة، ولكن الرائحة ليست دليلاً. فالغاردين الذي يستخرج منه العطر يصدر رائحة سيئة بحد ذاته. أما بصدد الاختناق، مثلما كان الزوج يختنق، فليس هناك كبير أهمية لكون الشراب غريباً. كان الزوج يكابد، مع ذلك ألماً شديداً، كان يبذل جهوداً كبيرة، بكل ما تبقى لديه من عضلات تحت جلده، كي يتمكن من أن يتألم، ويتنفس أكثر. كان يصارع الحياة بقدر ما يصارع الموت. وهذا يعني الانفجار بالضبط! في هذه الحالات حين تبدأ الطبيعة باللامبالاة لا يعود للمبالاة من حدود. كانت زوجته تتنصت خلف الباب على نصائحي التي كنت أقدمها له، ولكنني كنت أعرف زوجته. تحركت ببطء وهدهوء، وفاجأتها صائحاً «كويك! كويك» لم يَعْظها ذلك على الإطلاق، وتوجهت إلي حينئذ، لتكلمني في أذني. «ينبغي، همست لي، أن تجعله يخلع طقم أسنانه. لا ريب في أنه يضايقه حين يتنفس...» كنت أريد فعلاً أن أنزع من فمه طقم أسنانه.

«ولكن قل لي له ذلك أنت بنفسك إذن» اقترحت عليها ذلك، كانت تلك، في الواقع، مهمة دقيقة في مثل حالته.

«لا! لا! سيكون أفضل لو قمت أنت بذلك! ألحت، سيتضايق كثيراً لو كلمته أنا.

— أه! أعربت عن دهشتي، لماذا؟

— منذ ثلاثين عاماً وهو يضع طقماً في فمه، دون أن يحدثني عنه مطلقاً..

— يمكن إذن أن نتركه في فمه، اقترحت عليها ما دام قد اعتاد على التنفس مع وجوده في فمه.

- أوه، لا! سألوم نفسي على ذلك أجابتي، وقد شاب صوتها انفعال غريب..

عدت بهدوء إلى الغرفة. سمعني الزوج أعود إلى جوار سريره، وقد سره أن أعود. ما بين اختناقاته كان يحدثني أيضاً، كان يحاول كذلك أن يكون لطيفاً معي بعض الشيء. سألني عن أخباري، إذا ما كنت قد وجدت زبناً آخرين «نعم، نعم» أجبته على كل أسئلته. سيكون الحديث معه طويلاً جداً ومعقداً جداً فيما لو شرحت له التفاصيل! لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة، كانت زوجته مختبئة خلف مصراع الباب، وهي تشير لي بأن أطلب منه أيضاً خلع طقم أسنانه. اقتربت من أذن الزوج حينئذ ونصحته بصوت خافت بنزع طقمه.. ويا لها من زلة! «لقد رميت به في المراض..» قال لي ذلك حينئذ، بعينين أشد فزعاً أيضاً..، وسال لعبه بغزارة بعد ذلك.

إنها لحظة الاعترافات.. كنت أود لو يستفيد من ذلك كي يعطيني رأيه حول ما كان قد حدث بخصوص أمه.. ولكنه لم يعد يستطيع الكلام، كان يهذي. ثم بدأ لعبه يسيل بغزارة شديدة. إنها النهاية. ما من وسيلة لخروج جملة واحدة من فمه، كنت أمسح له فمه، ثم نزلت من غرفته. زوجته في الرواق، في الطابق الأسفل لم تكن مسرورة مني على الإطلاق، ووبختني تقريباً. بسبب طقم الأسنان كما لو كانت تلك غلظتي.

«إنه من ذهب يا دكتور! أنا أعرف ذلك. أعرف كم دفع من المال ثمناً له! لم يعد أحد يصنع مثله..» يا لها من حكاية طويلة. «أريد فعلاً أن أصعد إليه لأحاول أيضاً» اقترححت عليها لفرط ما كنت مزعوجاً، ولكنني اشتربت أن تكون معي.

لم يعد الزوج يتعرف علينا تقريباً، هذه المرة. قليلاً جداً فقط.. كان اللعاب يسيل أقل من فمه حينما صرنا بالقرب منه.. كما لو كان يرغب في سماع كل ما كنا نقوله، أنا وزوجته.

لم أحضر جنازته، لم يكن ثمة تشريح لجثته مثلما كنت أتوقع. حدث ذلك بهدوء.. ولكن هذا لم يمنع من أن نغتاط كلانا، فعلاً، أنا والأرملة هنروي، بصدد طقم الأسنان.



<< يتعجل الشباب دوماً في الذهاب لممارسة الحب، إنهم يسارعون جداً إلى الإمساك بكل ما يمنحهم الوهم باجتناء المتعة. ويولون اهتماماً بالغاً بكل ما يلبي أحاسيسهم. إنهم، إلى حد ما، أشبه بمسافرين بقطار يأكلون كل ما يقدم لهم على المائدة، ما بين صفارتين اثنتين. بحسب الشباب أن يتزودوا أيضاً بمقطعين غنائيين صغيرين أو ثلاثة، يستخدمونها، للارتقاء من الحوار إلى العناق والوصال. ذلك يكفي. ثم تراهم سعداء كل السعادة. يغمر السرور قلوب الشباب بسهولة، إنهم يستمتعون في البداية، ما شاء لهم الاستمتاع، لامراء في ذلك.

جميع الشباب يبلغون الشاطئ البهي، عند ضفة المياه، هناك حيث تبدو النساء أكثر حرية في النهاية، وعلى قدر من الحسن لا يعدن معه بحاجة إلى كذب أحلامنا.

ولكن ما أن يأتي الشتاء، حتى يكون من العسير عليهم أن يعودوا إلى الورا، أن يقولوا لأنفسهم بأن كل ذلك قد مضى وانقضى، أن يعترفوا لأنفسهم بذلك. إنهم سيظلون مقرورين وسط الزمهرير، وسط العمر، يأملون ويأملون، ذلك مفهوم، المتعة والسعادة قبل كل شيء، ذلكم رأيي بالتأكيد. ولكن حين يبدأ المرء بالتواري عن الآخرين، فتلك إشارة بأنه بدأ يشعر بالخوف من اللهو معهم.. ذلك مرض بحد ذاته. ينبغي أن ندرك سبب الإصرار على عدم علاج عزلتنا. ثمة شخص كنت قد التقيت به خلال الحرب في المستشفى، عريف في الجيش، كان قد حدثني قليلاً عن تلك المشاعر. من الخسارة أنني ما عدت

رأيت ذلك الفتى على الإطلاق «الأرض ميتة، شرح لي.. وما نحن سوى ديدان فوقها. ديدان فوق جثتها الضخمة المقززة، نلتهم طوال الوقت أحشاءها ولا شيء غير سمومها.. لا شيء ينقذنا من ذلك. نحن جميعاً متعفون منذ الولادة. وتلكم هي حالنا!».

لقد ساقوا ذلك المفكر، بسرعة إلى جانب الحصن، كان ذلك أيضاً ذريعة صالحة لإعدامه بالرصاص. قاده دركيان لثان إلى الخارج، أحدهما كبير والآخر صغير. أتذكر ذلك جيداً. لقد كان فوضوياً، برأي المجلس الحربي.

حينما أفكر به، بعد مرور سنوات، تراودني الرغبة بأن أستعيد الكلمات التي قالها لي بعض الأشخاص، وأن أستعيد الأشخاص أنفسهم كي أسألهم عما كانوا يريدون قوله. ولكنهم رحلوا وأوغلوا في الرحيل. لم يكن لدي ما يكفي من المعرفة كي أفهمهم. أود أن اعرف ما إن كانوا قد غيروا رأيهم منذ ذلك الحين مرات ومرات. ولكن الألوان قد فاتت بالتأكيد، وانتهى كل ذلك، لم يعد هناك من يعرف شيئاً عنهم. لا ريب في أنهم، إذن، قد تابعوا دربهم وحيدين، وسط ظلمة الليل. بعد أن أضاعوا رفاقهم الحقيقيين. لم أطرح عليهم السؤال المهم، الحقيقي، حينما كان الوقت ملائماً للسؤال. بالقرب منهم لم ندرك شيئاً، فالإنسان ضائع، متأخر دائماً ومنذ البداية، كل هذا إنما هو حشرات لا تجدي فتيلاً.

لحسن حظي، جاء الأب بروتيست أخيراً ليراني، ذات صباح جميل كي نتقاسم العمولة، تلك التي تؤول إلينا من تجارة سرداب الدفن والتي كان بإدارة الأم هنروي. لم أكن أعتمد حينذاك على أمانة الخوري، لقد كان كما لو أنه سقط علي من السماء. خمسمئة فرنك، كانت نصيب كل منا! ونقل إلي، في الوقت ذاته، أخباراً طيبة عن روبنسون كانت عيناه، كما بدا ذلك لبروتيست

في تحسن دائم، ولم يعد جفناه يتقيحان أيضاً، كان الجميع يطلبونني هناك. وقد وعدت الخوري بالذهاب لزيارتهم، وكان هو نفسه مصراً على ذلك.

بحسب ما قاله لي، فهمت بأن روبنسون كان سيتزوج عما قريب من ابنة بائعة الشموع في الكنيسة، التي كانت تقيم بالقرب من المدفن. والتي كانت مسؤولة عن مومياءات الأم هنروي. كان ذلك الزواج جاهزاً تقريباً.

كل ذلك قادنا بالضرورة للحديث قليلاً عن المرحوم السيد هنروي ولكن دون إلحاح، ثم عادت المحادثة أكثر طلاوة حول مستقبل روبنسون وحول تلك المدينة، تولوز بالذات التي لم أكن أعرفها على الإطلاق والتي حدثني عنها غرابا، فيما مضى، وكذلك حول نوع التجارة التي كان يقوم بها هناك روبنسون والعجوز كلاهما، وأخيراً حول الفتاة الشابة التي كان روبنسون سيتزوج منها.. ثرثرنا قليلاً حول كل الموضوعات بالإجمال وبصدد كل شيء.. ألف وخمسة فرنك: ذلك يجعلني متسامحاً، ومتفانلاً والحق يقال. وجدت جميع المشروعات التي حدثني عنها الخوري بشأن روبنسون حكيمة تماماً، ومعقولة وذكية، وملائمة تماماً للظروف. تطرقت خلال حديثنا الطويل إلى الأعمار. كنا قد تجاوزنا الثلاثين، أنا والخوري منذ سنوات بعيدة، كانت ثلاثيننا توغل في الماضي فوق ضفاف يابسة ومأسوف عليها بمرارة، لم يكن حتى من المجدي الالتفات للتعرف على تلك الضفاف.. لم نكن نخسر أي شيء ذي قيمة فيما نحن نشيخ «ينبغي أن نكون أذلاً في النهاية، استخلصت جازماً، حتى نأسف على تلك السنة أكثر مما على غيرها.. يمكننا أن نشيخ، نحن أيضاً. بشيء من المرح. أيها الأب، وبمرح غامر أيضاً. ترى، كيف كان أمس؟ هل كان مفرحاً؟ والسنة الأخرى السابقة؟ كيف تجدها أنت؟ على أي شيء نأسف إذن؟ أنا أسألك؟ على الشباب؟ لم يكن لنا نحن أي شباب!..

«من المؤكد أن الفقراء يجددون شبابهم من الداخل كلما تقدموا نحو نهايتهم، شرط أن يحاولوا التخلي، خلال الدرب عن كل الأكاذيب والمخاوف والميل المفرط إلى الطاعة التي زودهم بها منذ ولادتهم، حينذاك يصبحون أقل إثارة للتعزز مما كانوا عليه في البداية. كل ما على الأرض ليس لهم، وهو لا يعينهم! واجبه الملقى على كاهلهم، واجبه الوحيد هو أن يفرغوا من داخلهم كل أحمال الطاعة، أن يتقيروها. وإذا ما اقلحوا في ذلك قبل أن يهلكوا كلياً فسيكون بمقدورهم حينئذ أن يباهوا بأنهم لم يعيشوا عبثاً».

كنت في أحسن حالاتي، بالتأكيد.. وهذه الخمسة فرنك أثارت حميتي، تابعت: «الشباب الحقيقي، الشباب الوحيد، أيها الأب هو أن تحب الناس جميعاً، دون تمييز. ذلك فقط ما هو حقيقي، ذلك فقط ما هو شاب وجديد. هل عرفت أيها الأب كثيراً من الشباب يقوم توازنهم على هذا الأساس؟ أما أنا فلا أعرف منهم أحداً. لم أر في كل مكان سوى حماقات سوداء وشائخة تتخمر داخل الأجساد الفتية أكثر أو أقل، وكلما تخمرت هذه القذارات، وكلما أفلقت الشباب، كلما ادعوا حينئذ بأنهم شباب فعلاً. ولكن هذا ليس صحيحاً، إنه ترهات لا أكثر. شبابهم هذا أشبه بالدمامل بسبب القيح الذي يولد الأكم داخلها، ويجعلها تتورم.

أزعج برويتست أن أتكلم على هذا النحو، ولكي لا أزيد في ازعاجه غيرت دفة الحديث.. لا سيما وأنه كان لطيفاً معي، وحتى حميماً.. غير أن من الصعب للغاية أن يمنع المرء نفسه من العودة إلى الموضوع الذي يقلقه، على غرار موضوع الحياة الذي كان يقلقني. يشقى المرء بموضوع حياته بكاملها حينما يعيش وحيداً. وينتابه الخبل من ذلك. أن يكون المرء وحيداً، يعني أنه يتدرب على الموت «ينبغي أن يموت المرء، قلت له أيضاً، أكثر من كلب، وأن يقضي ألف دقيقة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكل دقيقة ستكون جديدة مع ذلك

ومثقلة بما يكفي من الاحتضار كي يجعله ذلك ينسى ألف مرة كل ما أمكنه أن يحصل عليه من لذة في ممارسة الحب طوال ألف سنة سابقة. ليست السعادة على هذه الأرض، سوى أن تموت مع اللذة، داخل اللذة، وما تبقى فهو باطل وقبض الريح. ولكننا لا نجرؤ، بسبب الخوف، على الاعتراف بذلك».

فيما كان بروتيست يسمعي أهذي، على ذلك النحو، ذهب تفكيره إلى أنني كنت مريضاً بالتأكيد. ربما كان على حق. وكنت أنا على خطأ كلياً، وفي كل الأشياء. ففي عزلتي، وفيما كنت ألتمس العقاب للأناية الشاملة، كنت أشطح بخيالي في الحقيقة، كنت أبحث حتى العدم عن العقاب. يميل المرء إلى السخرية قدر ما وسعه ذلك حينما تكون فرص الخروج نادرة، بسبب عوزه إلى المال، وأكثر ندرة أيضاً فرص الخروج من ذاته ومن الجماعة.

كنت أود أن لا أكون محقاً كلياً في إزعاج بروتيست بفلسفتي المضادة لليقينيته الدينية، ولكن ينبغي القول بأن هناك مع ذلك، داخل جوهر شخصيته ميل صغير قدر إلى التفوق، كان لا بد له من أن يثير أعصاب كثير من الناس. حسب فكرته هو، فإن البشرية بكاملها تعيش فوق الأرض داخل نوع من الانتظار البائس للأبدية، لكل فرد منها رقم. أما رقمه فهو الرقم الجيد الذي مآله إلى الجنة، وأما بقية الأرقام فلم يكن يبالي بها.

أمثال هذه اليقينييات لا يمكن تحملها، ولكن لأنه قدم لي في ذلك المساء نفسه المبلغ الذي كان نصيبي من سفرة تولوز. كفتت كلياً عن إزعاجه ومعارضته. كان الخوف من أن أضطر إلى الالتقاء بتانيا في تارابو، مع شبح حبيبها الراحل قد جعلني أقبل دعوته في الذهاب إلى تولوز، دون مزيد من الجدل. أسبوع أو أسبوعان من الحياة الهادئة! كنت أقول لنفسي. يمتلك الشيطان كل المغريات كي يغويك! ولن تنتهي أبداً من مطاردتها والسعي

خلفها. لو عاش المرء زمناً طويلاً، فلن يعرف إلى أين يذهب لكي يجد مزيداً من السعادة. إنه سيخلف في كل مكان جهائض سعادة، تنتن في زوايا الأرض، ولن يعود بمقدوره التنفس بسبب نتانتها. فبسبب محاولتنا المقرزة جداً لكي نكون سعداء نسقط مرضى، لفداحة إخفاقاتنا، قبل أن نهلك نهائياً بسبب تلك الاخفاقات.

لن نستطيع أن نذوي ونخدم ما لم ننس آمالنا. دعك عن الألم الذي نكابده من أجل تحقيقها، من أجل أن نجعل أحلامنا وسعادتنا المجهضة، وحماساتنا وأكاديبنا حيوية ومضطربة، هل تريد أكثر؟ إليك أيضاً، وأموالنا إذن! وأساليبنا الصغيرة للحصول عليها، والخلود، بقدر ما نرغب به، والطور، والمداعبات، ورغباتنا المهووسة بكل شيء أخيراً، كي ننتهي أخيراً إلى أن نبصق كل هذا بقدر ما نستطيع، ولا نعود إلى التحدث عنه لفرط خزيها وخوفنا من أن يكون حديثنا عنه شبيهاً بالتقيؤ. ليس العناد الضاري هو ما ينقصنا إذن. بل أن نكون بالأحرى على الدرب الحقيقي الذي يؤدي بنا إلى الموت بهدوء.

كان الذهاب إلى تولوز في المحصلة، حماقة كبيرة. حينما كنت أفكر بذلك كانت تساورني الشكوك والمخاوف. لم يكن لدي أعذار إذن. ولكن أن أتبع روبنسون على هذا النحو، وسط مجازفاته، فقد كان لدي ميل نحو الأشخاص المريبين. في نيويورك حينما كان يجافيني النوم، كان يقض مضجعي معرفة إن لم يكن بمقدوري مرافقة روبنسون أبعد وأبعد أيضاً. يغوص المرء عميقاً، ويستولي عليه الذعر في حلقة الظلام، ولكنه يريد أن يفهم مع ذلك، وحينئذ فإنه لا يعود يغادر القاع، بيد أن هناك الكثير من الأشياء لابد من فهمها في الوقت ذاته. فالحياة قصيرة جداً. ونحن لا نرغب أن نكون غيرمنصفين مع أي شخص. لدينا وساوس، ونتردد في الحكم فجأة،

ونخاف على الأخص بأن نموت ونحن مترددون. لأننا سنكون حينذاك قد جئنا إلى الأرض عبثاً ودون جدوى على الإطلاق. وهو أسوأ الأسوأ. ينبغي الإسراع، ينبغي أن لا تخطئ موتك. ثمة المرض، ثمة البؤس الذي يبدد ساعاتك وسنواتك.. والنوم الذي يلطخ أيامك وأسابيعك بكاملها بلون الرماد، والسرطان الذي ينشب فيك ربما عنيداً، نازفاً من شرجك.

لن يكون لدينا الوقت مطلقاً، ناهيك عن الحرب المستعدة دوماً، هي أيضاً، وسط ضجر البشر كي تنطلق شرارتها من الكهف الذي حُبس فيه الفقراء. ولكن هل سيقتل المزيد من الفقراء فيها؟ ليس هذا محتملاً.. من الأفضل ربما ذبح أولئك الفقراء الذين لم يدركوا؟ كي يولد آخرون، فقراء جدد. ودائماً على هذا النحو، إلى أن يأتي يوم يدرك فيه الفقراء الدعابة جيداً، الدعابة بكاملها.. هكذا يجري حش عشب المرج، إلى أن يحين الوقت الذي يغدو فيه العشب جيداً وطرياً حقاً.

حينما وصلت إلى تولوز، وجدت نفسي أمام المحطة متردداً، شربت كوباً من الجعة ورحت أتسكع في الشوارع. جميلة هي المدن التي لا نعرفها! تلك هي اللحظة والمكان اللذان يمكنك فيهما أن تفترض بأن الذين تصادفهم هم أناس لطفاء جميعاً.. تلك هي لحظة الحلم. يمكنك أن تستفيد من لحظة الحلم تلك كي تذهب لتضيع بعض الوقت في حديقة عامة. غير أن الإنسان لا يأمن أن يبدو مثل بارابين وهو يبحث عن الفتيات الصغيرات في الحديقة العامة. ينبغي الحذر. من الأفضل المرور على بائع المعجنات قبل اجتياز باب الحديقة، وعلى المخزن الجميل المتقن الترتيب في الزاوية على غرار ديكور ماخور، بعصافيره الصغيرة التي تزين المرايا بخطوط مائلة.. تكتشف نفسك في المرايا وأنت تلتهم في الداخل حبات اللوز بالسكر بلا نهاية، تتعكس

صورتك، فيها، ها هنا يقيم الملائكة الساروفيم. كانت أنسات المخزن يعلقن بنحو عابرٍ على شؤون القلب والحب على هذا النحو:

«إذن، فقد قلت له، بأنه يستطيع أن يأتي إلينا يوم الأحد.. ولكن أُمي سمعت بذلك، وعملت منه قصة يطول شرحها، بسبب أبي.

— ولكن ألم يتزوج أبوك امرأة أخرى؟ وقطع علاقته بالأسرة.

— وماذا يمكن أن يعني زواجه من امرأة أخرى؟ له الحق، مع ذلك. في

معرفة مع من تخرج ابنته..

كان هذا أيضاً رأي أنسة أخرى في المخزن. وحول الموضوع دارت المناقشة المثيرة بين جميع البائعات. كنت أقف صامتاً في زاويتي كي لأزعجهن، أتناول الفطائر بالكريما وفطائر الفاكهة خفية، آملاً أن يتوصلن بسرعة إلى حل تلك المعضلات العائلية الحساسة، ولكنهن لم ينتهين من ذلك. لقد جعلهن فقر أفكارهن يقتصرن على الكراهية العمياء. كانت أولئك الأنسات غارقات في حالة من اللا معقول ومن التباهي والجهل، كان ذلك يسيل مع لعابهن وهن يهمسن بألف شتيمة.

ظللت على الرغم من كل شيء مفتوناً بغمهن البائس. كنت أنقضّ على الحلوى بشرامة، لم أحص عدد قطع الحلوى، ولا هن أيضاً، كنت أمل أن لأنصرف قبل أن يتوصلن إلى نتيجة. ولكن الانفعال جعلهن صماوات وخرسوات تجاهي. وانتهيت إلى الجلوس كي يدوخنني أكثر بلغط كلماتهن المتواصل. وبمغزى أفكارهن، كما لو كنت جالساً على حافة شاطئ حيث الموجات الصغيرة المتواصلة لا تفضي على الإطلاق إلى التناغم.

كنت أسمع وأسمع، وكنت أتمنى، هنا وهناك، في القطار، في المقهى في الشارع، في الصالون، وفي بيت حاجبة العمارة، كنت أسمع، وأنتظر أن ينتظم

الشر ويرتب صفوفه كما في الحرب. ولكن هذا الشر كان يتحرك فقط، دون أن يحدث شيء إطلاقاً. لا من قبل الآنسات البائسات، ولا من قبل الآخرين أيضاً. ما من شخص جاء ليساعدنا. هذر هائل ينتشر رمادياً ورتبياً فوق الحياة مثل سراب مثبط. دخلت سيدتان إلى المخزن فتلاشى السحر الباهت للمحادثة العقيمة والمنتشر بيني وبين الآنسات. وخفت آنسات المخزن لاستقبال الزبونتين. بحفاوة سريعة ومباشرة. واندفعن لتنفيذ طلبات الزبونتين، وتلبية أُنَى رغباتهما. كانت هذه الزبونة وتلك، تختاران، تنقران كالعصافير حلوى الفرنيات والفظائر كي يشتريانها، وعند الحساب، انفصلتا بلطف، وتظاهرتا بأنهما تتبادلان قطعاً من المعجنات كي تهشاهما «في الحال».

رفضت إحدى الزبونتين قطعة الحلوى، بألف كياسة، شارحة بإسهاب وحميمية للنساء الأخريات اللواتي كن ينصتن إليها باهتمام بالغ بأن طبيبيها منعها من تناول كافة السكريات منذ مدة، وأن طبيبيها هذا، كان بارعاً جداً، وقد حقق معجزات في شفاء حالات الإمساك المعوي في المدينة وخارجها. وأنه يعالجها، مع نساء أخريات من انحباس الغائط في مستقيميها، والذي كانت تعاني منه منذ أكثر من عشر سنوات، بفضل حمية خاصة. جداً، وكذلك بفضل دواء مدهش، لا يعرفه أحد سواه، لم تكن النساء الأخريات أبداً راغبات في أن يتفوق عليهن أحد بسهولة في أمور الإمساك، فقد كن يعانين من الإمساك أفضل من أي شخص آخر، لذلك فقد عاندها، كن في حاجة إلى أدلة وإثباتات. وحين وجدت الزبونة أنها في موضع الشك أضافت فقط بأنها صارت تصدر الآن «ريحاً قوية فيما هي تتغوط، وأن هذه الريح كانت أشبه بأسهم نارية حقيقية، وأنها بسبب غائطها الجديد، التام التكوين والصلب جداً، كانت في حاجة إلى أن تضاعف احتياطاتها حين تتبرز.. فقد كان غائطها

الجديد الرائع صلباً جداً أحياناً، بحيث كانت تشعر بالألم في قاعدتها.. وكان يسبب له تمزقات.. كانت مضطرة إلى وضع الفازلين في أسفلها حينئذ، قبل الذهاب إلى المرحاض». كان دليلها لا يدحض.

على هذا النحو خرجت الزبونات مقتنعتين، منفصلتين، ترافقهما حتى عتبة المخزن «العصافير» بالإضافة إلى كل ابتسامات المخزن. بدت لي الحديقة العامة المقابلة لمائة كمحطة صغيرة للاستجمام والتأمل، بما يكفي لاستعادة قواي الذهنية والروحية قبل الذهاب للبحث عن صديقي روبنسون.

في الحدائق العامة داخل مدن المقاطعات تظل المقاعد فارغة تقريباً، طيلة الوقت، خلال الفترات الصباحية، على مقربة من حافة أجمات ملبدة من الخيزران وأزهار المارغريت، وغير بعيد عن ركام من الحجارة فوق بحيرة من المياه المتجمعة، زورق صغير من الزنك محاط برماد خفيف. مربوط إلى حافة المياه. بحبله المتعفن، كان الزورق يتحرك، فوق المياه أيام الأحاد. مثلما أعلن عن ذلك فوق لوحة معلقة، وأجرة الجولة في البحيرة: «فرنكان اثنان».

كم من السنين. كم من الطلاب؟ كم من الأشباح؟

في جميع زوايا الحدائق العامة، ثمة على هذا النحو أكوام منسية من أحواض الزهور المنفتحة، من الأيكات الواعدة، من الشالات المزدانة بكل شيء. ولكن، ما من شيء جدي.

ثمة فسحة من الحلم، رغم ذلك! قلت لنفسي وأنا ذاهب للبحث عن روبنسون وعن كنيسة سانت ايبونيم. وعن ذلك المدفن الذي يضم المومياءات مع العجوز هنروي. لقد جئت لأرى كل ذلك. كان ينبغي أن أعقد العزم.

انطيت عربة سارت بي بأنواع صغيرة من الخيب، في منعطفات وشوارع مظلة في المدينة القديمة. حيث النهار ما يزال عالقاً في قبضة

الصخب، كانت دواليب العربة تصدر جلبة خلف الحصان بحذوات حوافره المعدنية، مجتازة أفضية وعبارات، لم يلتهم الحريق مدن الجنوب منذ زمن طويل، لم تكن شائخة يوماً مثلما كانت الآن. فالحروب لم تعد تعبرها قط. وصلنا أمام كنيسة سانت ايبونيم، عند وقت الظهر. كان المدفن أبعد قليلاً، ينتصب فوقه تمثال للمسيح المصلوب. أشار إلي بعض المارة إلى الموقع وسط حديقة صغيرة جافة تماماً. يدخل الزائر إلى قبو الكنيسة من خلال نوع من الثقوب الموصد بأحكام. لمحت من بعيد حارسه المدفن، فتاة شابة. سألتها على الفور عن أخبار صديقي روبنسون. كانت على وشك أن تغلق الباب. رسمت الفتاة ابتسامة رقيقة على وجهها كي تجيبني، وأخبرتني حالاً بأخبار طيبة.

في ذلك النهار الجنوبي، وفي المكان الذي كنا نقف فيه، كان كل ما حولنا قد غدا أحمر زهرياً. كانت أحجار الأسوار المنخورة تصعد نحو السماء على امتداد الكنيسة، كما لو أنها على وشك الذوبان في الفضاء هي بدورها. كانت صديقة روبنسون الصغيرة في العشرين من عمرها كما بدت لي، ذات ساقين ملفوفتين وصلبتين، وقد ممشوق فائق الرشاقة ورأس صغير جميل التقاطيع، عينان سوداوان بالفتا السوداء، يقظتان، مما يروق لي جداً. ربما لم تكن الفتاة من نوع الفتيات الحالطات على الإطلاق. كانت هي التي تكتب رسائل روبنسون. تلك التي كنت أتسلمها. سبقتني بمشيتها الممتدة الخطو. نحو المدفن. قدماها، عقباها منحوتان باتقان. مشبكان متينان لشبكة حقيقية تلتفان بقوة حول من يمتطيها، في اللحظة المناسبة. ويدان قصيرتان، صلبتان، متماسكتان جداً، يدا عاملة طموحة. وبحركة صغيرة متكئة أدارت المفتاح في الباب فتراقصت الحرارة من حولنا. تحدثنا عن أشياء من هنا وهناك. وما

أن انفتح الباب حتى قررت مع ذلك، أن تدخلني إلى المدفن للقيام بزيارة إليه، على الرغم من ساعة الغداء. بدأت أستعيد على الفور بعضاً من طيشي، كنا نغوص في الرطوبة المتزايدة خلف مصباحها. كان ذلك منعشاً، تظاهرت بأني أتعثر بين درجتين كي أمسك بذراعها، وهو ما أثار بيننا جواً من الدعابة والضحك. وحين وصلنا إلى الأرض الممهدة في الأسفل، طوقت عنقها بذراعي لحظات، مانعت في البداية، ولكن ليس كثيراً.

بعد لحظة قصيرة من الانفعال التفتت حول بطنها، مثل يرقة ذباب لحظة الحب. فاسق داعر!، رطبت وأعدت ترطيب شفاهي، ثمّة مناجاة للأرواح، وتسقلت بنظري ببطء على امتداد فخذيها المقوسين، كان المشهد أسراً، مع ضوء الصباح الذي وضعته على الأرض، مما أتاح لي أن أشاهد، في الوقت نفسه التضاريس المتحركة على امتداد ساقها. آه! لا ينبغي إضاعة هذه اللحظات، كنت أنظر إليها بطمع واشتهاء، وكوفئت بسخاء. أي إغراء! أي مزاج طيب مفاجيء! استأنفنا الحديث بنبرة من الثقة الجديدة والبساطة، صرنا أصدقاء.

«هل تقودين الزائرين إلى هنا غالباً؟ سألتها بخراقة وأنا أتنفس بجهد، وتابعت في الحال: «أليست أمك هي التي تبيع الشموع في الكنيسة المجاورة؟» لقد حدثني الأب بروتيست عنها.

— لقد حلت السيدة هنروي محلي خلال الغداء فقط، أجابتنني، وفي فترة ما بعد الظهر أعمل في الأرياء بالقرب من شارع المسرح، هل مررت أمام المسرح لدى قدومك؟»

طمأننتني أيضاً، عن روبنسون، وأخبرتني بأنه كان يتحسن أكثر فأكثر، وأن الطبيب الأخصائي يعتقد بأنه سيرى عما قريب بما يكفي ليسيير وحده في الشارع، وهو يحاول ذلك الآن. كل ذلك كان نبوءة طيبة، أما الأم هنروي فقد أكدت لي، بأنها مسرورة للغاية من عملها في المدفن، وهي تقوم ببعض

التوفيرات: ثمة أمر سيئ واحد هو أن البق يتقشّى في المنزل ويمنع الجميع من النوم، لاسيما خلال الليالي العاصفة، حينئذ يشعلون الكبريت لطرده. من الواضح أن روبنسون كان يتحدث عني غالباً، وبعبارات طيبة أيضاً، وتطرقتنا، استطراداً إلى موضوع وظروف الزواج.

والواقع، أنني مع كل ذلك لم أكن قد سألتها بعد عن اسمها، كان اسمها ماديلون؛ ولدت خلال الحرب. كان مشروع زواجهما ملائماً لي في كل الأحوال، ماديلون، إنه اسم سهل التذكر. من المؤكد أنها كانت خليقة بأن تعرف ما هي مقدمة عليه بزواجها من روبنسون... فهو في المحصلة، وعلى الرغم من التحسن الذي طرأ على عينيه سيكون عاجزاً على الدوام.. وهي تعلم بأن عينيه مصابتان إصابة بليغة... وإذن فقد كان له أعصاب ومعنويات مريض. كنت سأقول لها تقريباً، وأنبهها إلى ذلك. لم أكن أعرف البتة كيف أوجه الحديث عن زواجهما، ولا كيف أخرج منه.

ولكي أغير الموضوع، أبدت أهمية مفاجئة بأمر المدفن، وما دمت قد جئت من مكان بعيد جداً لرؤية المدفن، فقد كانت تلك هي اللحظة المناسبة للاهتمام به.

بمساعدة مصباحها الصغير أخرجنا أنا وماديلون، من الظلمة جثث الموتى المحنطة، واحدة إثر أخرى، كان ينبغي لمشهد هذه الجثث أن يدفع السائح إلى التفكير لدى رؤيته لها. كانت تلك الجثث المسندة إلى الجدار على غرار محكومين بالإعدام رمياً بالرصاص، لموتى منذ عهد بعيد... لم يعد لها على الإطلاق جلد ولا عظم... قليل جداً من كل ذلك فقط، في حالة بالغة القذارة، يغطها النخر في كل مكان.

كان الزمن قد أتلف جلود تلك الجثث منذ قرون وترك آثاراً لا تمحي، لقد مزق كذلك بقايا الوجوه.. ووسع الثقوب والتجاويف. كان ما يزال أيضاً خيوط

طويلة من بشرتها. نسيها الموت بعد تلاشي الغضاريف، كانت بطونها خاوية من كل شيء. وقد جعلها ذلك أشبه بمهاد للظل في مكان سرتها.

شرحت لي ماديلون بأن هؤلاء الموتى ظلوا داخل مقابر من الكلس الحي أكثر من خمسمئة سنة كي يصلوا إلى هذا الوضع. ليس بالوسع القول بأن تلك كانت جنثاً، فقد انتهى زمن هذه الجنث منذ أمد بعيد. وأصبحت على تخوم الانحلال إلى غبار، بكل بطء وهدوء.

كان الكهف يضم ستاً وعشرين جثة لكبار وصغار، لم يكونوا يطلبون أكثر من الدخول في الأزلية، ولكنهم لم يتركوهم بعد، نساء ورجال معلقون من أعلى هياكلهم، كان من بينهم أحذب، وعملاق، وحتى طفل رضيع تلف هيكله تماماً هو أيضاً، مع نوع من مريلة من الدانتيل حول عنقه الصغير الجاف، إن كان يعجبكم، وبقايا أقمطة صغيرة.

كانت الأم هنروي تكسب كثيراً من النقود مع كشاطة القرون هذه. كنت أفكر بأنها كانت أشبه بهذه الأشباح تقريباً منذ عرفتها... كنت أروح وأجيء، ببطء أمام الجنث مع ماديلون، من واحدة إلى واحدة، أمام نوع من الرؤوس الخرساء، وسط حلقة من المصابيح الساطعة. لم يكن الليل يملأ كلياً قاع محارها. كان يخيل إليّ أيضاً أنها ترسل نظرات، ولكنها نظرات وديعة، مثل نظرات أشخاص عارفين.. ما كان يثير الإزعاج في كل ذلك هو رائحة الغبار التي تعلق في طرف أنفك.

لم تكن الأم هنروي نفوت زيارة واحدة مع السائحين، كانت تشغل الموتى مثلما في السيرك، مئة فرنك في اليوم كانوا يدفعون لها في المواسم الطيبة.

«ألا ترى بأنهم لا يبديون تعساء» سألتني ماديلون. كان سؤالها طقسياً. لم يكن الموت يعني لها شيئاً، تلك الظريفة. لقد ولدت أثناء الحرب، زمن الموت السهل. أما أنا فكنت أعرف كيف يموت الناس. لقد تعلمت ذلك.

إنه موجه وجعاً لا حدود له. من السهل القول للسائحين بأن هؤلاء الموتى كانوا مسرورين. ليس لدى الموتى ما يقولونه. كانت الأم هنروي تربت على بطونهم حيثما بقي فوق هياكلهم ما يكفي من رقّ التحنيط، وكان ذلك يصدر صوتاً رناناً «بوم، بوم» غير أن ذلك ليس دليلاً على أن كل شيء كان يسير بصورة جيدة.

عدنا أخيراً، أنا وماديلون إلى شؤوننا. كان صحيحاً إذن، بأن حالة روبنسون غدت أفضل. لم أسأل عن ذلك المزيد من الأسئلة، كانت الصديقة الصغيرة تبدو لي مصرّة على الزواج! كان خليقاً أن تعاني ضجراً شديداً في تولوز. حيث الفرص نادرة فيها للقاء بفتى قام بأسفار كثيرة مثل روبنسون، وقد سمعت منه حكايات ونوادر، حقيقية وأقل صلة بالحقيقة أيضاً، كان قد روى لها بالتأكيد كثيراً من الحكايات عن أمريكا وعن البلدان المدارية، كان ذلك لا ريب فيه.

أنا أيضاً كنت في أمريكا، وفي البلدان المدارية، نويت أن أحدثها عن ذلك، وعن أننا غدونا أصدقاء لفرط ما سافرنا معاً أنا وروبنسون، كان المصباح ينطفئ، وقد أشعلناه عشر مرات بينما كنا نسوي حسابات الماضي مع المستقبل، كانت تحمي ثدييها مني واللذين كانا شديدي الحساسية.

مع ذلك، ولما كانت الأم هنروي على وشك العودة بين دقيقة وأخرى من الغداء. فقد كان علينا أن نصعد إلى ضوء النهار. عبر الدرج الصغير، والهش والصعب الارتقاء على غرار سلم. لم يفتني ملاحظة ذلك بوضوح.



« بسبب ذلك الدرج الرقيق جداً والغادر جداً لم يكن روبنسون ينزل غالباً إلى كهف المومياءات. كان يظل بالأحرى أمام الباب يلقي بالكلام المعسول للسائحين، ويتدرب أيضاً على التماس الضوء من هنا وهناك من خلال عينيه.

في أعماق المدفن كانت الأم هنروي تتدبر الأمور خلال ذلك الوقت، كانت تعمل عنها وعن روبنسون في الواقع مع المومياءات. كانت تزين جولة السائحين بأقوال صغيرة حول موتها داخل لفافات الرق. «ليسوا منفريين أبداً، أيها السادة والسيدات، ما داموا قد حفظوا داخل الكلس، مثلما ترون منذ أكثر من خمسة قرون... مجموعتنا هذه هي الوحيدة في العالم... لقد اختفى اللحم بالطبع، وبقي الجلد وحده، بعد ذلك، ولكنه مدبوغ. إنهم عراة ولكنهم ليسوا غير محتشمين... ستلاحظون بأن طفلاً صغيراً دفن في الوقت ذاته مع أمه... وقد حفظ الطفل الصغير أيضاً على نحو جيد جداً، أما الكبير ذاك بقميصه الذي ما تزال بقاياها سليمة... فأسنانه كلها باقية في فمه. ستلاحظون...» ثم تشرع في التريبت على صدر كل منها حتى آخرها. وكان ذلك يصدر صوتاً كصوت الطبل «انظروا، أيها السادة والسيدات إلى هذا، لم يبق له سوى عين واحدة... جافة تماماً.. ولسان.. غداً مثل الجلد أيضاً!» ثم تتابع «إنه يخرج لسانه ولكن هذا ليس منفراً... يمكنكم أيها السادة والسيدات أن تعطوني ما تجود به أنفسكم حينما تذهبون، ولكن العادة جارية بدفع فرنكين للشخص الواحد ونصف ذلك للأولاد. يمكنكم أن تلمسوهم قبل ذهابكم من هنا...

وتتأكدوا بأنفسكم... ولكن لا تضغطوا بشدة. أوصيكم بذلك.. إنهم جميعاً في غاية الهشاشة...»

كانت الأم هنروي تحلم بأن تضاعف أجورها منذ وصولها. وهي تنتظر رداً من الأسقفية. لم تكن الواردات وفقاً عليها وحدها، بسبب خوري كنيسة سانت ايونيم الذي كان يريد أن يقطع ثلث الواردات. له وحده، ومن ثم روبنسون الذي كان يحتج باستمرار، لأنها لم تكن تعطيه حصة كافية، كما يزعم.

«لقد عملت، يجزم روبنسون، عملت مثل فأر... مرة أخرى أيضاً، لست محظوظاً... إنه عمل مربح، مع ذلك، ما تقوم به العجوز في كهفها. وهي تضع كل شيء في جيوبها، السافلة. أؤكد لك.

— ولكن لست أنت الذي تكسب النقود في الوضع الذي أنتما فيه. اعترضت على كلامه كي أهدئ من سخطه وأجعله يتفهم الأمر... وها أنت تتغذى على نحو جيد.. وهم يهتمون بك أفضل اهتمام».

ولكن روبنسون عائد مثل نحلة طنانة.. كانت طبيعته طبيعة من يلزمه الشعور بالاضطهاد. لم يكن يريد أن يفهم، ولا أن يخضع.

«لقد خرجت سالماً، بوجه الاجمال، من مهلكة قنرة.. أؤكد لك! دعك من الشكوى! كنت ستذهب إلى سجن سابين لو لم يحولوا وجهة سيرك نحو شاطئ الأمان، وها هم قد تركوك مطمئناً قرير العين. وقد التقيت، بالإضافة إلى ذلك، بالصغيرة ماديلون التي تمتاز بلطف بالغ، وهي تحبك بقوة... مهما كانت حالة مرضك؟ فما بالك إذن تشكو كل هذه الشكوى... وعلى الأخص أن عينيك الآن في تحسن دائم؟

— أنت تعني كما يبدو، بأنني لا أعلم إطلاقاً مم أشكو، أليس كذلك؟ أجنبي روبنسون، ولكنني أشعر مع ذلك، بأن عليّ أن أشكو... هذا هو

الحال. لم يبق لي إلا أن أشكو... أقول لك... ذلك هو الشيء الوحيد الذي يسمحون لي به... أنت لست مضطراً إلى أن تصغي لي».

والواقع أنه لم يتوقف عن النواح منذ أن بقينا وحيدين، كنت أتهيب هذه اللحظات من الأحاديث الشخصية. نظرت إليه وهو يطرف بعينيه، وهما تسيلان، تحت أشعة الشمس أيضاً، وقلت لنفسي بأنه لا يثير التعاطف في النهاية. ثمّة حيوانات مخلوقة على هذا النحو، عبثاً تبدو لنا بريئة وتعيسة وكل شيء. نعرف ذلك تماماً، ولكننا ننفر منها رغم كل شيء. ذلك أن شيئاً ما ينقصها.

«كنت ستهلك ربما في السجن، أكدت له مرة أخرى، من أجل أن أجعله يفكر أيضاً.

- ولكنني دخلت السجن فيما مضى، ليس الحال في السجن أسوأ مما أنا فيه الآن! كلامك متأخر...»

لم يكن قد قال لي بأنه كان في السجن. لا بد أن ذلك حدث قبل أن ألتقي به، قبل الحرب. أصر على موقفه وقال جازماً: «ليس ثمّة سوى حرية واحدة، أقول لك، ليس هناك سوى حرية واحدة فقط، هي أن ترى بوضوح أولاً، وأن تملك المال بعدئذ، ملء جيوبك، وما عدا ذلك باطل.

- إلى أين تريد إذن أن تصل في النهاية؟ سألته. والواقع أنه حين اضطر على هذا النحو، إلى أن يحزم أمره، ويعلن موقفه ويعبر عن نفسه، خاف وخانته الشجاعة، تلك هي اللحظة، مع ذلك، التي كانت جديرة بالانتباه. فيما كانت ماديلون، خلال النهار تذهب إلى عملها في المشغل، وكانت الأم هنروي تتلو ابتهالاتها أمام الزبائن، كنا أنا وروبسون نذهب إلى المقهى المظلل بالأشجار. ذلك هو الركن الذي كان يحبه روبسون. ربما بسبب الضجة التي كانت تثيرها العصافير فوق الأشجار. كم كان هناك من

عصافير! ولا سيما عند الساعة الخامسة حينما تَووب إلى أعشاشها، وقد هاجها الصيف. كانت ترفرف حينئذٍ فوق المكان مثل عاصفة. وقد حدثوني، بأن حلاقاً كان له دكان ملاصق للحديقة، غداً مجنوناً، بسبب سماعه لزقزقتها فقط، مجتمعة خلال النهار، يمكن تصديق ذلك، لأننا لم نكن نسمع بعضنا البتة، بسبب جلبتها. ولكن ذلك كان مبهجاً، مع ذلك، بالنسبة إلى روبنسون.

«لو كانت العجوز تعطيني بانتظام أربعة قروش فقط، عن كل زائر، فسأجد ذلك مناسباً جداً.

ما انفك خلال خمس عشرة دقيقة بكاملها يتحدث عن هذا الشاغل الذي استحوذ عليه. كانت ألوان الأزمان الماضية تعاوده، مع ذلك، وحكايات أيضاً، حكايات شركة بوردويرير في أفريقيا، من بين حكايات أخرى، والتي كنا نعرفها كلانا مع ذلك. وقصص قذرة أخرى لم يكن قد رواها لي على الإطلاق، لم يكن يجرؤ ربما، كانت مدفونة في أعماقه.

بصدد الماضي كنت أتذكر موللي على الأخص حينما يكون مزاجي رائقاً، مثل أصدقاء ساعة ترن من بعيد، وحينما كنت أفكر بشيء ما لطيف ومحبيب.. أفكر بها على الفور.

على كل حال، حينما تغتر أنانية الرجال قليلاً مع قدوم شتاء العمر فإنهم لا يحتفظون داخل قلوبهم سوى بذكرى النساء اللواتي كانوا يحبونهن حقاً.

لدى عودتنا في المساء من المقهى، لم نكن نفعل أي شيء، على غرار ضباط الصف بعد تقاعدهم.

لم يكن سيل السائحين يتوقف خلال الموسم، كانوا يجررون أنفسهم في سرداب الدفن، بينما الأم هنروي ماضية في إثارة جو من الدعابة بينهم.

كان الخوري يستاء قليلاً من دعاباتها. ولكن بما أنه كان يقبض أكثر من

حصته، فقد كان يتجاوز عن ذلك. لم يكن يسمع من قبل، مثل هذه المجانات. كانت الأم هنروي تستحق عناء مشاهدتها والاستماع إليها وسط جثتها، كانت تنظر في وجوه الجثث تماماً، هي التي لم تكن تخشى الموت، والتي تغضن جلدها وملأته التجاعيد، حتى غدت أشبه بواحدة من مومياءاتها فيما هي تحمل مصباحها، وتثرثر ما شاء لها الثرثرة وسط ذلك النوع من الوجوه.

حينما عدنا إلى المنزل، حيث يجتمع الجميع، من أجل العشاء، ثار الجدل من جديد حول الإيرادات. ومن ثم فإن الأم هنروي كانت تخاطبني «دكتور الصغير الواوي» بسبب ما كان قد حدث بيننا في رانسي. ولكن كان كل ذلك من قبيل المزاح بالطبع، كانت ماديلون تبذل جهداً في إعداد الطعام في المطبخ.. لم يكن المسكن الذي كنا فيه يستقبل سوى ضوء شحيح. كان ملحقاً بسكرستيا الكنيسة المحدودة المساحة، والمدعمة بروافد وزوايا عقرها الغبار «على الرغم من كل شيء». لاحظت العجوز، ومع أن الجو هنا مظلم طيلة الوقت تقريباً، فإننا نجد فيه مع ذلك، ما ننام عليه، وما نضعه في جيبينا، وما نسدّ به رمقنا، وهذا كاف».

بعد موت ولدها، لم يدم حزنها وقتاً طويلاً. «كان دائماً هشاً معتل الصحة، كانت تحدثني عنه.. وفي حين أنني أنا، عجباً! التي تجاوزت السادسة والسبعين من العمر، لم يصدر عني أي شكوى على الإطلاق! فقد كان هو يشكو دائماً، إنه بالتأكيد من النمط ذاته الذي هو نمط صاحبك روبنسون... وكى أعطيك مثلاً، فأنت تعرف الدرج الصغير للمدفن، كم هو صعب وخطر، أليس ذلك؟.. إنه يرهقني، بالتأكيد ومع ذلك، فإنني أحصل منذ أيام على فرنكين اثنين لكل درجة... لقد عددت الدرجات. حسناً، من أجل هذه المكافأة سأصعد، حتى السماء، إن شئت!».

وضعت ماديلون كثيراً من التوابل في عشاءنا، ومن الطماطم أيضاً. كان ذلك فريداً. ومن الخمر الأحمر. وما أن بدأ روبنسون بالشراب حتى شرع يقص علي كل ما حدث له منذ وصوله إلى تولوز. لم أكن أصغي إليه. لقد خيبتني وآثار نفوري كلياً. «أنت بورجوازي. انتهيت إلى وصفه كذلك (لأنه لم يكن ثمة مسببة أسوأ من هذه في تلك الفترة). أنت لا تفكر في النهاية، سوى بالمال... وحينما سيرند إليك بصرك، ستكون أسوأ من الآخرين».

لم يغتظ روبنسون من هذه المسببة، بل يمكنني القول، بالأحرى، بأن ذلك قد منحه مزيداً من الشجاعة. كان يعلم بأن ما أقوله صحيح تماماً. لقد استقرت الآن أحوال هذا الفتى، كنت أقول لنفسى، ولم يعد من الضروري القلق بشأنه... ثمة امرأة صغيرة عنيفة إلى حد ما، وفاسقة أيضاً، لا خلاف في ذلك... يمكنها أن تحوله إلى رجل آخر كلياً. كنت ما أزال أحدث نفسى... كنت أعتبر روبنسون، منذ زمن طويل على أنه فتى مغامر، ولكنه في الحقيقة، لم يكن أكثر من نصف أبله. مخدوع أو غير مخدوع، أعمى أو غير أعمى... ذلك هو الحال..

والواقع أن العجوز هنروي كانت قد أصابته بالعدوى، على الفور، عدوى سعارها الشديد لجمع المال، وأصابته ماديلون بعدوى الزواج. وإن فقد طفح كيله حتى الجمام. كانت حساباته ناجحة، لا سيما أنه كان يميل إلى الصغيرة ماديلون. كنت أعرف شيئاً ما عن ذلك. سيكون من الكذب، بداية، بأن أقول بأنني لم أحسده بعض الحسد، من وقت إلى آخر. كنا نغتم أنا وماديلون بعض اللحظات بعد الغداء كي نلتقي في غرفتها، ولكن لم يكن من السهل ترتيب تلك المقابلات. لم تكن نتبادل أية كلمة، كنا رصينين غاية الرصانة.

ينبغي عدم الذهاب إلى الظن بأنها لم تكن تحب روبنسونها، ولكنه فقط كان يلعب لعبة الخطوبة، فيما كانت هي أيضاً تلعب لعبة الإخلاص. كان ذلك

هو الجو السائد بينهما. ولكن الأمر المهم في تلك العلاقة، أنهما كانا متفقين. كان ينتظر وقت الزواج كي يفض بكارتها، مثلما أفضى إلي، كانت تلك فكرته: الانتظار الأبدي، بالنسبة إليه، والمباشرة على الفور، بالنسبة إلي. وحدثني، بالإضافة إلى ذلك، عن أنه يفكر في تأسيس مطعم صغير، معها، وترك العجوز هنروي لحالها. كل شيء إذن كان مأخوذاً على محمل الجد. «إنها لطيفة وهي تعجب الزبائن، كان يتكهن، في أفضل لحظاته. ومن ثم فقد تذوقت أنت طبخها، أليس كذلك؟ لا أحد يضاهيها فيما يتعلق بالطبخ».

كان يفكر كذلك في أن يتمكن من استلاف مبلغ أولي صغير من الأم هنروي. كنت أتمنى أن يفلح في ذلك، ولكنني كنت أتوقع أن يجد صعوبة في إقناعها. «أنت ترى كل شيء وردياً» لفت انتباهه. قاصداً أن أهدئ قلقه وأن أجعله يفكر قليلاً. وفجأة انخرط في البكاء، وجعل يعاملني معاملة فظة. لا ينبغي في المحصلة، تثبيط أي شخص.. واقتنعت فجأة بأنني كنت على خطأ، وأن السويداء هي التي كانت تسبب لي الضياع دوماً. كان العمل الذي يجيده روبنسون قبل الحرب هو النقش على النحاس. ولكنه لم يعد يرغب في أن يمسه من قريب أو بعيد، بأي ثمن. «برئتَي هاتين أحتاج إلى الكثير من الهواء، هل تفهم، ثم إن عيني، لن تعودا إلى سابق عهدهما قط» لم يكن مخطئاً هو أيضاً، بمعنى من المعاني، ولم أجد ما أجيبه به. وحينما كنا نمر عبر الشوارع المزدحمة، كان الناس يلتفتون إلينا ليعبروا عن رثائهم للأعمى. يشعر الناس بالشفقة على العاجزين والعميان، يمكن القول بأنهم يكتون حبا لهم مخزوناً في أعماقهم، لاحظت ذلك الحب المخزون مرات عديدة، ثمة الكثير منه لدى الناس، لا خلاف في ذلك، ولكن تعاستهم تكمن فقط في أنهم يظنون قساة على الرغم من ذلك الحب المخزون. لا يخرجونه إلى النور. ذلك هو

الحال، إنه حبيس في داخلهم، يظل كامناً دون أن يفيدهم في شيء، إنهم يبددونه ببساطة.

بعد العشاء، انشغلت ماديلون به، بليونها، كما كانت تسميه. كانت تقرأ له الصحيفة، كان مولعاً الآن بالسياسة، وكانت صحف الجنوب طافحة ببثور السياسة.

كان المساء يحرق بنا، والمنزل يغوص في ظلمة القرون. كانت تلك هي لحظة ما بعد العشاء التي يتكثف فيها زحف البق، لحظة مكافحته بمحلول لاذع، تركته فيما بعد لصيدلاني لقاء ثمن بخس. كان ذلك التركيب البسيط الذي جربته يسلي الأم هنروي، وقد حضرت جميع تجاربي. كنا ننقل من عش إلى عش، وإلى الشقوق والزوايا لنبخر أسرابه بالسلفات التي أعددتها، كانت أسراب البق تتجمهر ثم تتلاشى تحت ضوء الشمعة التي كانت تمسكها لي بانتباه الأم هنروي.

فيما نحن نلاحق البق كنا نتحدث عن رانسي، كنا نفكر في ذلك المكان. وقد أضجرتني الحديث عنها. سأبقى ربما في تولوز. خلال ما تبقى لي من الحياة. لم أعد أطلب أكثر من ذلك، في النهاية. أن أضمن معاشي وأن يكون الزمن كله لي. ولكن كان علي التفكير، مع ذلك، بالعودة وبالعمل، كان الزمن يمضي، وعمولة الخوري، أيضاً، وكل ما ادخرته.

وددت قبل الرحيل أن أعطي أيضاً بضعة نصائح صغيرة لماديلون، كانت ماديلون متيقظة بالتأكيد. ولكنها كانت جاهلة جهلاً مطبقاً فيما يتعلق بالمكروبات التي تنتقل من الرجال. وانطلقت في تقديم إيضاحات وشروح مفصلة للغاية بصدد ما كان عليها أن تلاحظه بعناية، قبل أن تستجيب لمداعبات الرجال وملامساتهم، وعن أشياء كلاسيكية لا بد من معرفتها في

النهاية، وهي مفيدة فعلاً. بعد أن أنصتت إلي جيداً، وتركتني أتكلم على هواي، احتجّت على طريقة حديثي، ووجهت إلي نوعاً من التعنيف «بأنها فتاة رصينة، وإن ما قلته معيب، وأنتي كنت أحمل عنها فكرة سيئة، وبأنني كنت احتقرها، وبأن الرجال جميعهم مقززون».

قالت أخيراً، كل ما تقوله النساء في مثل هذه الحالة، كان ينبغي أن أتوقع ذلك، ستار واق يستترن به. المهم، بالنسبة إلي، أنها كانت تصغي إلي نصائحي بانتباه، وأنها احتفظت بالجوهري منها. وما تبقى لم يكن بذي أهمية. غير أنها لدى سماعها إلي على هذا النحو فإن ما جعلها واجمة وحزينة، في الحقيقة، هو التفكير بأن من الممكن أن تصاب هي بكل ما حدثتها عنه من أمراض، من خلال الملامسات الرقيقة والتماس اللذة، لم أعد ألح إلا لكي أحدثها عن الأكياس الواقية الصحية جداً والسهلة الاستخدام. وأخيراً ولكي تبدو كمحللين نفسيين، حاولنا تحليل شخصية روبنسون «إنه ليس غيوراً، قالت لي: حينئذ، ولكنه يمر أحياناً بلحظات عصبية».

«جيد.. جيد..» أجبتها، وانطلقت في تحديد شخصية روبنسون، مثلما كنت أعرفه، ولكنني لاحظت على الفور بأنني قلما كنت أعرف روبنسون، ما عدا بعض البدايات السخيفة عن مزاجه. لا شيء أكثر.

من المدهش أن المرء يجد صعوبة في تصور ما يمكنه أن يقول كي يجعل كائناً أكثر أو أقل قبولاً في عيون الآخرين. كنت أريد مع ذلك أن أجعله مقبولاً، رحمت أغمغم.. كان ذلك مثيراً للرتاء منذ الكلمات الأولى..

في أيامنا هذه ليس من السهل أن تصنع «زهرة خلنج»، ذلك ليس سهلاً، إذ يفرض من أمامك لا شعورك الباطن ما أن تقترب منه.



« حينما قررت الذهاب لشراء تذكرة القطار للعودة إلى باريس أصر الجميع على بقائي أسبوعاً آخر لأزور برفقتهم ضواحي تولوز، وضاف النهر الندية المخضوضرة التي طالما حدثوني عنها، ولا سيما كروم العنب المنتشرة في الضواحي، والتي يبدو سكان المدينة قاطبة فخورين ومسرورين بها، كما لو أنها ملك لهم جميعهم، لم يكن خليفاً أن أذهب على هذا النحو، وأنا لم أزر سوى جثث الأم هنروي، هذا لا يجوز! من باب اللياقة، في نهاية المطاف.

ضغفت أمام هذا الفيض من اللطف والود. ولكني لم أتجرأ كثيراً على الإصرار على البقاء، وأبدت الكثير من التمتع، بسبب المودة التي نشأت بيني وبين ماديلون، تلك المودة التي غدت محفوفة بالمخاطر. فقد بدأت العجوز في الارتياح بشيء ما بيننا. إزعاج حقيقي.

ولكن العجوز لم يكن بوسعها أن تراقبنا في تلك النزهة. إنها، في البداية لا تريد أن تغلق مدفنها، ولو ليوم واحد. وافقت إذن على البقاء، وها نحن ننتقل في صباح أحد جميل إلى البرية. كان كل منا، أنا وماديلون نمسك روينسون، من أحد ذراعيه فيما هو يسير بيننا، وحين وصلنا إلى المحطة، قطعنا تذاكر في الدرجة الثانية. كانت روائح السجق تفوح بقوة، مع ذلك، في مقصورتنا، مثلما في مقصورة الدرجة الثالثة. في إحدى القرى، واسمها سانت جان، نزلنا من القطار. وبدا على ماديلون كما لو أنها قد وجدت نفسها في منطقتها. فقد التقت على الفور بمعارف لها قادمين من كل مكان. كان النهار صيفياً رائعاً، كان علينا، ونحن نتنزّه، أن نتحدث عن كل ما نراه لروينسون «هنا توجد حديقة... هناك جسر وفوقه صياد مع صنارته... لم يصد الصيد

شيئاً... انتبه إلى الدرجة...» كانت رائحة البطاطا المقلية، على سبيل المثال، تجذب به بقوة، كان هو الذي جرننا نحو المحل الذي تباع فيه البطاطا المقلية لقاء عشرة قروش. كنت أعرف أن روبنسون كان يحبها دائماً، مثلما أحبها أنا أيضاً، ذلكم ولع باريسسي، في حين أن ماديلون كانت تفضل الفيرموت، غير المشوب بالماء.

لم تكن الأنهار في الجنوب تجري كما يحلو لها، كانت تعاني كما يقال، بل إنها كانت دائماً على وشك الجفاف. التلال والشمس، والصيادون، والأسماك، والقوارب، والحفائر الصغيرة، وأحواض الغسيل، والأعشاب، وأشجار الصفصاف الباكية، وكل العالم، كان يرنو ببصره إلى الأنهار تلك برجاء، يتوسل إليها... كانوا يطلبون الكثير جداً من المياه، ولهذا لم يبق منها في سرير النهر إلا القليل. وحين تنتظر إليها في بعض المواضع يخيل إليك أنك ترى طريقاً مغموراً ببعض الماء أكثر مما ترى نهراً حقيقياً. وما دما قد قدمنا للتسلية فقد كان علينا الإسراع في العثور على مكان على الضفاف، وحالما انتهينا من البطاطا المقلية قررنا القيام بجولة صغيرة بالقرب، قبل الغداء... كان ذلك مبهجاً... كنت أنا أجذب بالطبع. وكان كلاهما يجدفان في الجهة المقابلة، يده في يدها، روبنسون وماديلون.

ها نحن ننساب مع تيار الماء، يحتك القارب بقاع النهر، هنا وهناك، هي بصرخاتها الصغيرة، وهو، غير مطمئن تماماً. ذباب، وأيضاً ذباب.. ويعاسيب في كل مكان، تراقب النهر بعيونها الكبيرة، وتحرك أذناها الدقيقة الجافة.. ثمة حرارة مدهشة تجعل البخار يتصاعد فوق السطوح، كنا ننزلق فوق الدوامات الطويلة المنبسطة تحتنا، وفوق الأغصان الميتة.. وعلى مستوى الضفاف، كنا نمضي، باحثين عن نفحات ظل نلوذ به تحت أشجار

لاتخترقها أشعة الشمس.. كان الكلام يخلق مزيداً من الحرارة أيضاً، لم تكن نجرؤ على القول كذلك، بأننا قد تعبنا. كان روبنسون أول من أعياه التجديف... ذلك طبيعي. فاقترحت حينئذٍ أن نتوقف عند أحد المطاعم المنتشرة على الضفاف. لم نكن نحن الوحيدين الذين خطرت لهم تلك الفكرة. كان كل صيادي الأسماك في منطقة شلال النهر قد حطوا رحالهم في المطعم قبلنا، منهمكين في الشراب. لم يكن روبنسون يتجرأ على أن يسألني إذا ما كان المقهى الذي اخترته غالباً، ولكنني وفرت عليه مؤونة هذا القلق، على الفور، وطمأنته بأن كافة الأسعار كانت مسجلة فوق لوحة، وهي معقولة جداً. كان ذلك صحيحاً، ولم يترك هو يد ماديلون.

من أجل قضاء فترة ما بعد الظهر، وترتيب جولة صيد مع روبنسون كان الأمر معقداً جداً... كان ذلك سيثير حزنه، مادام أنه سيعجز عن رؤية طوافة صنارته.. ولكنني كنت قد وصلت إلى حد الإنهاك من التجديف، من جراء تجديف الصباح فقط. هذا يكفي، لم يعد لدي القوة التي كانت لي أثناء عبور أنهار أفريقيا. لقد شخت في هذا الجانب مثلما في كل الجوانب الأخرى. ولكي أغير هذه التمرينات أكدت بأن نزهة صغيرة على الأقدام على امتداد حافة النهر كانت ستفيدنا كثيراً، أو على الأقل، صوب تلك الحشائش العالية التي كنا نلاحظها على بعد كيلو متر تقريباً. بالقرب من حاجز أشجار الجوز.

انطلقنا ثانية، كنت أفود روبنسون من ذراعه فيما كانت ماديلون قد سبقتنا بضع خطوات. كان ذلك أسهل، من أجل التقدم وسط الحشائش. وعند إحدى ثنيات النهر، تناهت إلينا أصوات أوكورديون صادرة من قارب، قارب جميل كان يرسو في ذلك المكان من النهر، استرعت الموسيقى انتباه روبنسون. كان ذلك مفهوماً في مثل حالته، فقد كان دائماً ضعيفاً إزاء

الموسيقياً.. سررنا إذن لوقوعنا على شيء ما يبهجه. وحططنا رحالنا فوق ذلك العشب والذي كان أقل تلوثاً بالغبار من عشب حافة النهر القريبة منا. لا حظنا بأن ذلك القارب لم يكن عادياً. كان نظيفاً متقن الصنع، قارب للإقامة والنزهة، وليس للشحن، مزداناً بالورود. في داخله كوخ صغير مزين للكلب.. شرعنا نصف القارب لروبسون كان يريد معرفة كل شيء.. «أريد فعلاً، أنا أيضاً، أن يكون لي قارب نظيف جداً مثل هذا. قال روبسون، وأنت؟ وجه سؤاله إلى ماديلون...

- أنا أفهمك، هيا! أجابته ماديلون.. ولكن هذه فكرة أعلى مما تستطيع أن تدفعه يا ليون، هذا أعلى بكثير جداً، من ثمن بيت من بيوت الأجرة، أنا متأكدة من ذلك..

شرعنا ونحن في موقعنا ذاك نفكر في الثمن الذي يمكن أن يدفع لشراء قارب مثله، ولم ننته من تقدير اتنا تلك... كان كل منا مصراً على الرقم الذي طرحه... من عادة الناس أن يقدروا الثمن عالياً جداً، في كل شيء.. كانت موسيقياً الأوكورديون تصل إلينا رخيمة خلال تلك اللحظات... وأخيراً رأينا جميعاً بأن ثمنه لا يقل بالتأكيد عن مائة ألف فرنك... وهو ما يغري بالأحلام. «أغلقي عينيك الجميلتين لأن الساعات قصيرة..

إلى موطن السحر والفتون، إلى موطن الأحلام العذاب...» ذلك ما كانوا يغنونه داخل القارب، أصوات رجال ونساء مختلطة، ناشزة بعض النشاز، ولكنها بالغة الروعة مع ذلك، بسبب المكان، كان ذلك ينسجم مع دفء المروج، ومع الساعة التي كنا فيها، ومع النهر. أصر روبسون على تقدير ثمن القارب بالألوف، ومئات الألوف كان يجد أنه يساوي أكثر من ذلك أيضاً، بحسب وصفنا له، فقد كان سطحه مزججاً، لكي

يغمره النور، ويرى من بداخله الأفق بوضوح. وكان النحاس يغلف جدرانه،
كان باذخاً كل البذخ.

«أنت تتعب نفسك يا ليون. حاولت أن تهدئه ماديلون. من الأفضل أن
تتمدد، على العشب الكثيف تحتك، ليس لك ولا لي أيضاً مثل هذا الترف،
أليس كذلك؟ لا يستحق هذا في الحقيقة أن تهتاج وتتحمس..»

ولكنه كان متمدداً، وكان مهتاجاً، مع ذلك بسبب ثمن القارب الذي كان
يرغب بكل قوة في أن يعرفه، ويحاول رؤية القارب الذي كان ثمنه غالياً جداً..

«هل له محرك؟..» سأل روبنسون. لم تكن نحن نعرف. كنت أنظر
إلى مؤخرة القارب، ما دام كان مصراً على ذلك. لا شيء إلا لكي أسرّه، كي
يرى إن كنت أميز وجود قناة للمحرك.

«أغلقي عينيك الجميلتين.. فالحياة ليست سوى حلم.

الحب ليس سوى كذبة نلح بها.

أغلقي عينيك...»

كانوا يواصلون الغناء على هذا النحو، أولئك الذين كانوا داخل القارب
وأخيراً، أصابنا الإعياء واستسلمنا للنوم.

في لحظة من اللحظات، قفز الكلب السنبيلي خارج كوخه، وبدأ ينبج
فوق جسر القارب، باتجاهنا، أيقظنا نباحه بشيء من الارتعاش، فزجرناه
بعنف. أما روبنسون فقد اعتراه الخوف.

خرج شخص، يبدو أنه مالك القارب وأطل من الباب الصغير ثم تقدم
فوق الجسر، لم يكن يرغب أن نزرر كلبه. فشرحنا له ما حدث. ولكنه حين
عرف بأن روبنسون كان أعمى تقريباً، هداً فجأة، بل إنه وجد نفسه مغفلاً،
وغير رأيه بصدد تعنيفنا، وتخلي عن فظاظته، راغباً في إصلاح الأمور.

ورجانا من قبيل التعويض بأن نذهب لتناول القهوة داخل قاربه، لأنه كان يحتفل في ذلك اليوم بعيد زواجه. لم يعد يقبل أن نبقى هناك تحت أشعة الشمس، نتلظى بحرارتها، وكيت وكيت... وقد جاء ذلك في الوقت المناسب تماماً. كانوا ثلاثة عشر حول الطاولة.. شاب في مقتبل العمر هو المعلم، صاحب أهواء ونزوات. كان يحب القوارب كما شرح لنا.. وفهمنا ذلك في الحال، غير أن زوجته كانت تخشى النهر، وإذن فقد أوقفا قاربهما هنا. فوق الحصى تقريباً. بدوا مسرورين باستقبالنا، الزوجة بادئ بدء مخلوق جميل، كانت تعزف على الأوكورديون، مثل ملاك، كانت ودودة، مع ذلك، حين دعتنا لتناول القهوة، كان بوسعنا الآن أن نظهر أنفسنا في الصورة التي نشاء، فقد أولونا ثقتهم، في النهاية. وأدركنا على الفور بأنه لا ينبغي لنا أن نسبب الخزي لهذين المضيفين الفاتنين.. ولاسيما أمام مدعوهم، كان لدى روبنسون الكثير من العيوب، ولكنه كان عادة، فتى حساساً.. لم يكن في داخل قلبه سوى الأصوات تتردد، وقد أدرك بأن علينا أن نتماسك، وأن لا نبدي فظاظة أو فحشاً في القول. لم نكن نرتدي ثياباً أنيقة بالتأكيد، ولكننا كنا مع ذلك نظيفين ولائقين للغاية. تفحصت المعلم صاحب القارب عن كذب. كان خليقاً أن يكون في نحو الثلاثين من العمر. يزينه شعر أسمر جميل شاعري، وبدلة أنيقة من نوع بدلات البحارة، ولكنها في غاية الإتقان. أما زوجته الحسنة فكان لها عينان راعتان من المخمل..

كان غداؤهم قد انتهى للتو، وظلت منه على الطاولة بقايا وفيرة. لم نرفض تناول قطعة صغيرة من الكاتو، ولكن لا. وأقداح من البورتو معها. منذ زمن طويل لم أسمع أصواتاً بهذه الرخامة والفرادة. كانت لهم طريقة خاصة في الكلام، طريقة الأشخاص المميزين التي تبعث الوجل في نفسك، والتي كانت

تثير في داخلي الخوف، بصورة خاصة، ولا سيما نساؤهم. لم يكن كلامهم، مع ذلك سوى جمل سيئة الصياغة، ومدّعية، ولكنها مصقولة لامعة مثل أثاث قديم، كانت عباراتهم تثير الخوف بقدر ما كانت غير مؤذية. كنت أخشى أن أنزلق فوقها، حين أجيئهم فقط. وحتى حين يتخذون لهجة سوقية كي يغنوا أغاني الفقراء، على سبيل التسلية فإنهم يحتفظون بتلك اللهجة المتميزة، التي تثير فيك الريبة والقرف، لهجة تبدو كما لو أن في داخلها سوطاً صغيراً، على الدوام، مثلما يحتاج الأمر دائماً إلى سوط للتحدث مع الخدم، ذلك مهيج. ولكنه يحرضك في الوقت ذاته على أن تشمر ثياب نسائهم كي ترى عزة نفوسهم تذوب كما يقال.

شرحت لروبينسون طراز الأثاث الذي فرشت به حجرة القارب، كان طرازاً قديماً بكامله ذكرني إلى حد ما بحانوت أمي، ولكنه أكثر نظافة، وأفضل تنظيمًا بالطبع.. فحانوت أمي كان يفوح برائحة بهار قديم..

بعد ذلك، رأينا لوحات المعلم صاحب القارب معلقة على حواجز في كل مكان. كان رساماً. كانت الزوجة هي التي أخبرتنا بذلك، وبألف طريقة أيضاً. كانت زوجته مولعة به، لم يكن ذلك خافياً، كان المعلم فناناً، نساء جميلات، شعور جميلة، إيرادات وفيرة، كل ما يلزم ليكونوا سعداء، تبهج قلوبهم أنغام الأكورديون المنسابة، والأصدقاء، والأحلام فوق القارب، فوق المياه القليلة العمق التي تجري من تحتهم.. سعداء جداً بأن لا يرحلوا عن هذا المكان... كانوا يملكون كل شيء في قواربهم وفي بيوتهم، كل ما هو حلو المذاق، ونداوة العالم النفيسة، تتسرب من بين «السجف»، ونسمات المراوح، وأمن السماء.

ما دمننا قد وجدنا أنفسنا هنا فقد كان علينا أن ننخرط في الجمع، شراب منلج، وفريز بالكريما في البداية، تحليتي المفضلة، كانت ما ديلون نتشي جذعها كي تتناول الفريز مرة بعد مرة، هي أيضاً. وقد أهدت الآن كثيراً من ضروب

اللباقة والظرف. كان الرجال في المركب يجدونها لطيفة، ولا سيما والد الزوجة الذي كان واسع الثراء كما يبدو. كان مسروراً جداً بوجود ماديلون إلى جانبه، يتحرك بحمية كي يظهر أمامها لطيفاً محبباً، وراح يقرب لها كل أنواع الطعام والحلوى. وكانت هي تغطس وجهها بالكريما حتى طرف أنفها. من خلال الحديث مع والد الزوجة تبين لنا أنه أرملة، ولكنه نسي الآن ذلك، من دون شك. ثم ما لبثت ماديلون أن ثملت ودب السكر في أوصالها. كانت البدلة التي يرتديها روبنسون، وكذلك بدلتني قد أبلأها طول الاستخدام، وتوالي الفصول، غير أننا في الركن الذي نحن فيه كان يصعب رؤيتنا بوضوح، كنت أشعر مع ذلك بشيء من الصغار وسط الآخرين، المرفهين، والنظيفين مثل أمريكيين، مستحمين أحسن استحمام، متزيين بأجمل الأزياء، مستعدين للدخول في مسابقة للأناقة.

ماديلون النشوى والجدلة لم تعد تحس بأنها على ما يرام، كانت تقفوه بحماقات، وهي تتطلع نحو اللوحات المرسومة...

بدأت المضيفة، التي أحاطت قليلاً بالوضع، بالعزف على أكورديونها كي تلطف الجو وتضفي عليه الانسجام، فيما كان الجميع يغنون، ونحن أيضاً، ولكن بصوت خفيض، وبكثير من النشاز، تلك الأغنية ذاتها التي سمعناها ونحن في الخارج، قبل وقت قليل، وأغنية أخرى أيضاً.

وجد روبنسون وسيلة لينخرط في حديث مع السيد العجوز الذي بدا ملماً غاية الإلامم بزراعة الكاكاو. موضوع جيد، كان هناك الآن في القارب مستوطن في المستعمرات، لا بل مستوطنان. «حينما كنت في إفريقيا، سمعت روبنسون يؤكد، مثيراً دهشتي الشديدة، كنت مهندساً زراعياً في شركة بوردويرير. كرر روبنسون ذلك، وقد دفعت سكان قرية بكاملها إلى الجني... إلخ». لم يكن بوسعها أن يراني وهو يتكلم وانخرط في الحديث بأشراح... ما وسعه ذلك... ذكريات مبتدعة... أثارت إعجاب السيد العجوز إلى أقصى

حد.. أكاذيب. كل ما كان يخطر له كي يضع نفسه في مستوى العجوز المنافس. كان روبنسون متوازناً إلى حد كاف خلال حديثه، ولكنه كان يقلقني ويكدرنى أيضاً فيما هو يهذي على هذا المنوال.

أجلسوه تكريماً له في صدر ديوان ضخم يضوع بالعطر، ثمة قدح من أفخر المشروبات في يده اليمنى، فيما كان يستحضر بحركات واسعة من يده اليسرى جلال الغابات العذراء، وثورانات الأعاصير المدارية.

ليس ثمة ما يقال. إن تكلمنا عن الراحة والسعادة، فقد كنا مرتاحين وسعداء في قاربهم، لاسيما أن ريحاً نهريّة بدأت تهب، وتتسلل من النوافذ لتموج الستائر ذات الثنيات الأنبوبية، على غرار رايات ترفرف مع هبات ريح طرية.

أديرت من جديد أطباق المتلجات، ثم أقداح الشمبانيا.. إنه عيد زواج المعلم. كرر المعلم ذلك مئة مرة.. ولا بد له من توفير السعادة، مرة واحدة، للجميع، وحتى للعابرين في الدرب، لنا نحن، لمرة واحدة. وخلال ساعة من الزمن، ساعتين، ثلاثة، سنغدو ربما جميعاً متآلفين متناغمين تحت ظله، سنغدو جميعاً أحبباء، المعروفون منا، والآخرين والغرباء. وحتى نحن الثلاثة الذين اصطادونا من على ضفة النهر، لعدم توفر من هم أفضل منا، حتى لا يكونوا ثلاثة عشر فقط حول الطاولة. كنت على وشك أن أبدأ في غناء أغنيتي الصغيرة المرحّة، ثم عدلت عن ذلك، وشعرت بالفخر فجأة، وبالصحو، ووجدت من المناسب من أجل تبرير دعوتنا أن أكشف لهم، على الرغم من كل شيء، بعد أن دارت الخمرة في رأسي، بأنهم بدعوتهم لي شخصياً، فقد دعوا واحداً من الأطباء الأكثر شهرة وتميزاً في منطقة باريس، لم يكن بمقدور هؤلاء الأشخاص أن يساورهم الشك بنا، بعد الإعلان عن نفسي بوضوح، ولا بضالة شأن رفيقي أيضاً. وما أن سمعوا ذلك، حتى عبروا عن إعجابهم البالغ، وغمروني بالإطراء

دون تأخير، وبدأ كل منهم يسرّ لي بمتابعه الجسدية. وانتهزت الفرصة كي أتقرب من ابنة أحد المتعهدين، قريبة صغيرة حسناء لصاحب القارب قوية البنية، تشكو بالتحديد من طفح جلدي ومن تجشؤ ترافقه حموضة دون سبب واضح.

حينما لا تكون معتاداً على المآكل الشهية، وعلى الرفاهية فإنك سرعان ما تثمل.. وحينذاك فإن الحقيقة لا تطلب شيئاً سوى أن تهجر، يحتاج الأمر دائماً إلى القليل جداً كي تتحرر منها. ولا يعود المرء مبالياً بحقيقته، وسط تلك الوفرة المفاجئة من المتع واللذائذ. تستحوذ عليك حمى شديدة من جنون العظمة، ببسر بالغ. بدأت بدوري أهذي، وأنا أحدث القرية الصغيرة عن طفحها الجلدي، كنت أتخلص من وضاعتي اليومية، محاولاً، على غرار روبنسون، الارتقاء إلى عالم الناس الأثرياء، من خلال الأكاذيب، التي هي نقود الفقراء.. الفقراء المنقلون بالخجل من لحمهم المعروف ببؤس، ومن هيكلمهم المتداعي. لم يكن بوسعي أن أقرر إظهار حقيقتي لهم، كان علي مهما كلف الثمن، أن أخلق انطباعاً طيباً في نفوسهم، بدأت أجيب على أسئلتهم بابتداعات محضة، على منوال روبنسون حينما كان يكلم السيد العجوز قبل قليل.. ولكتسحتي الخيلاء بدوري.. وزبونتي الرائعة.. والإرهاق.. وصديقي روبنسون.. والرسام الذي قدم لي الضيافة الكريمة في منزله البحري وتولوز.

ما أن شرب الضيف جيداً، وأكل جيداً، حتى غدا واتقأ من نفسه بسهولة. ولحسن الحظ فقد كان كل شيء يمر دون اعتراض. كان روبنسون قد سبقني إلى السعادة الخاطفة للأكاذيب المرتجلة، ولم يحتج الأمر، من أجل اقتفائه إلا إلى جهد يسير.

بسبب النظارات المدخنة التي يضعها روبنسون على عينيه، لم يتمكن أولئك الناس من أن يتبينوا بوضوح حالة عينيه. وعزونا بأريحية فائقة، الأذى

الذي لحق بعينيه إلى الحرب، ومنذئذٍ لَدَ مقامنا وطاب، وارتقينا اجتماعياً، ومن ثم وطنياً إلى مقامهم. كان مضيفونا قد تفاجؤوا قليلاً في البداية، بنزوات الزوج، الرسام الذي كان وضعه الاجتماعي الراقي كفنان، يتيح له مع ذلك، من وقت لآخر، القيام بتصرفات غريبة غير مألوفة. وجعل المدعون يعتبروننا تماماً، ثلاثتنا معاً أشخاصاً لطفاء وممتعين إلى أبعد حد.

لم تحرص ماديلون، كخطيبة لروبنسون على دورها هذا أمام الجميع، مثلما كان يتعين عليها، كانت تثير الجميع، بمن فيهم النساء بحيث تساءلت إن كل ذلك سينقلب إلى حفل جنسي جماعي، لا، فقد تبددت النوايا تدريجياً وتعطلت، بسبب الجهد اللاهث للمضي إلى ما وراء الكلمات، ولم يحدث أي شيء..

بقينا متشبهين بالكلمات وبالأرائك، وقد عمنا الذهول، من جراء سعيينا جميعاً إلى أن نكون سعداء على نحو أشد عمقاً، وأعظم حرارة... سواء نحن أم الآخرون، سعداء بالروح حسب، بعد أن شبع الجسد، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، أن نجتني كل سعادة العالم، في اللحظة الحاضرة. كل ما كنا نعرفه من مدهش في داخلنا وفي العالم.. كي يبدأ الجار بالاستمتاع أخيراً، كي يعترف لنا الجار، بأن هذا هو ما كان يبحث عنه مما هو معجز ورائع إلى حد الإبهار، وبأنه لم يكن ينقصه بالضبط، منذ سنين وسنين سوى هذه الهبة، كي يكون في النهاية سعيداً كل السعادة، وإلى الأبد... وأنا قد كشفنا له أخيراً عن مبرر وجوده الشخصي. وأنه لا بد أن يذهب حينئذٍ ليقول للعالم أجمع، بأنه قد وجد مبرر وجوده، وبأننا نشرب المزيد سويماً كي نحتفل ونسعد بهذه النعماء، وأن ذلك سيدوم إلى الأبد على هذا المنوال، وأنا لن نعود إطلاقاً على الأخص إلى تلك الأزمات الكريهة.. إلى تلك الزمن الخالي من المعجزات، إلى الزمن الذي سبق تعارفنا، وأنا قد تلاقينا أخيراً على نحو بالغ الروعة.

لم يستطع المعلم أن يمنع نفسه عن قطع هذا السحر البهي. كان ثمة رغبة تستحوذ عليه في أن يحدثنا عن رسمه وعن لوحاته بحماس عارم، وبأي كلام يخطر له.. هكذا وبسبب هذه الحماسة التي استولت عليه، على الرغم من أننا سكارى، خيم علينا ابتذال جارف. ولشعوري بالهزيمة وجهت إلى المعلم بضع مجاملات حارة ومتألقة عن السعادة التي يشعر بها الفنانون، كان ذلك كل ما يحتاجه، فما أن تلقى مجاملاتي حتى كان ذلك أشبه بجماع. فقد انزلق نحو ديوان منفتح من ديوانات سطح القارب، وغرق في النوم وعلى الفور، بهدوء، سعيداً بالطبع. كان المدعوون أثناء ذلك ما يزالون يتابعون مسابقات التفرس في الوجوه عبر نظرات رصاصية، وافتتان متبادل، تنوس بين وسن غير مرئي تقريباً وبين التلذذ بهضم دهني رائع.

وقرت هذه الرغبة في النوم، واحتفظت بها إلى الليل، فالمخاوف التي يخلفها النهار غالباً ما تقصي النوم عن الجفون، وحينما يكون المرء محظوظاً في أن يوفر لنفسه، ما استطاع من ذخيرة من الغبطة، فيسكون غيباً بالتأكيد إن بددها في غفوات يسيرة مسبقة، كل شيء من أحل الليل. ذلكم هو شعاري. ينبغي التفكير بالليل طوال الوقت. وبعد ذلك فقد أصروا على بقائنا لمشاركتهم طعام العشاء، كانت ذلك هو زمن ترميم الشهية..

اغتنمنا فرصة الخدر الذي ألم بالجميع كي ننسل من المكان، خرجنا ثلاثتنا بحذر وتكتم، متحاشين المدعوين المهمومين في النوم، والمنتشرين بلطف حول الأكورديون. والسيدة أيضاً، كانت عيون السيدة قد أذبلتها الموسيقى فراحت تطرف بحثاً عن الظل «إلى اللقاء قريباً جداً» قالت لنا، حينما مررنا بالقرب منها، وانتهت بسمتها في حلم.

مضيئاً بعيداً جداً، ثلاثتنا معاً، حتى ذلك المكان الذي كنت قد أشرت إليه عند كوع النهر، بين صفيين من أشجار الجوز، أشجار تشمخ ذواباتها المستدقة نحو السماء. وهناك أشرفنا على واد عميق، ولاحت لنا على البعد أيضاً تلك المدينة الصغيرة، وسط ذلك المكان العميق الغور تتلوى حول برج للأجراس، منغرس مثل مسمار وسط حمرة السماء.

«في أية ساعة سنعود، عبرت ماديلون عن قلقها، على الفور».

«لا تقلقي. طمأنها روبنسون. سيصطحبوننا بسيارتهم.. هذا.. أكيد.. قال لي

المعلم ذلك، لديهم سيارة..»

لم تعد ماديلون إلى الإلحاح، وظلت ساهمة تحلم بالفرح.. يوم رائع

بحق..

«وعيناك يا ليون.. كيف حالهما الآن؟ سألته ماديلون.

— إنهما في حال أفضل. لا أرغب في أن أتحدث بشيء عنهما، لأنني

لست متأكداً من ذلك، ولكنني أعتقد أنني بعيني اليسرى على الأخص، صرت

أستطيع أن أعد الزجاجات على الطاولة. لقد شربت كمية لا بأس بها، هل

لاحظت ذلك؟ كان ذلك ممتعاً..

— اليسرى، إنها جهة القلب، علقت ماديلون فرحة، كانت مسرورة جداً،

ذلك مفهوم، كان يسعدها أن تتحسن حالة عينيه.

«هلم نتعاقق إذا» اقترحت عليه، كنت أشعر بأن وجودي فائض عن

الحاجة بالقرب من هذا البوح بالعواطف. ومع ذلك، فقد كان يصعب علي

الابتعاد، لأنني لم أكن أعرف بالتحديد إلى أين أذهب. تظاهرت بالذهاب

لقضاء حاجة خلف الشجرة التي كانت لا تبعد كثيراً، وبقيت هناك متوارياً

لأستمع إلى ما يدور بينهما من حديث، كان ما يبوحان به رقيقاً، كنت أسمع

عبارتهما المتبادلة، حوار حول الحب مسطح إلى أبعد الحدود، من المسلي دائماً مع ذلك أن تتعرف على الناس أكثر، لم أكن اسمعهما قط يتحدثان عن هذه الأشياء مثلما يتحدثان عنها الآن.

«هل تحبني فعلاً؟ سألته ماديلون.

- أحبك بقدر ما أحب عيني! أجابها روبنسون.

- هذا ليس قليلاً، ما قلته يا ليون... ولكن أنت لم ترني بعد يا ليون؟

لعلك حين تراني بعينيك، وليس فقط بعيون الآخرين، فلن تعود تحبني بهذا القدر؟ ففي تلك اللحظة سترى نساء أخريات، وربما ستميل إلى حبهن جميعاً؟
مثل أصدقائك؟..

تلك الملاحظة التي أفضت بها إليه، بهدوء، كانت موجهة إلي. لم أكن مخطئاً، كانت تخالني بعيداً، لا أستطيع سماعها.. وحينئذ وجهت إلي ضربة قوية.. لم تكن تضيع وقتها.. أما هو، الصديق روبنسون فبدأ يحتج..
«مثلاً..» قال لها، ليس ما تقولينه سوى افتراضات.. ثم استأنف!

«أبدأ، يا ماديلون! على الإطلاق.. كان يدافع عن نفسه. لست أنا من هذا النوع. ما الذي جعلك تعنقدين بأني مثله؟.. أنا متعلق بك.. لست وغداً.. لقد قلت لك دائماً، بأنه ليس لدي سوى كلمة واحدة.. أقولها ولا أحيدها عنها إلى الأبد، أنت جميلة، وأنا أدرك ذلك، ولكنك ستكونين اجمل بكثير أيضاً حينما أراك.. هل أنت سعيدة الآن؟ هيا كفكي دموعك.. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك..»

- هذا جميل يا ليون أجابته حينئذ، مكورة جسدها داخل جسده كانا يقسمان يمين الوفاء، لم يكن من الممكن إيقافهما، كانت السماء واسعة بما يكفي فوقهما.

«أريد أن تكوني يوماً سعيدة.. قال لها، بهدوء شديد لا أطلب منك أي شيء، ولك مني كل ما تطلبين...

- آه كم أنت طيب يا ليون، أنت أفضل مما كنت أتصور أيضاً.. أنت رقيق.. أنت وفي.. وأنت كل شيء..
- ذلك لأنني أعبدك يا حلوتي..

وراحا يتبادلان التسخين، ملتقنين حول بعضهما.. ولكي يدفعاني بعيداً عن سعادتهما المتدفقة وجّها إلي طعنة قذرة..

بدأت هي أولاً: «الدكتور، صديقك إنه لطيف، أليس كذلك؟» أعانت الكرة.. «إنه لطيف.. لا أريد أن أقول أي شيء بحقه، ما دام صديقك.. ولكنه مع ذلك، رجل فظ مع النساء.. لا أريد أن أنكره بسوء ما دمت أعتقد حقاً بأنه يحبك فعلاً.. ولكنه في النهاية لن يكون من نوعي... سأقول لك... ألا يزعجك كلامي على الأقل؟» لا، لا شيء كان يزعج ليون، «إيه حسناً، يبدو لي بأن الدكتور، يحب كثيراً من النساء، على غرار الكلاب إلى حد ما، هل تفهمني؟.. ألا ترى أنت ذلك؟ إنه يبدو كمن يقوم عن امرأة ليقع على أخرى كما يقال... إنه يرتكب الفحش ثم يمضي، ألا ترى ذلك أنت؟ بأنه على هذا النحو؟

كان يرى النذل، كان يرى كل ما كانت تريده، كان يرى كل ما كانت تقوله صحيحاً كلياً، ومضحكاً، ومسلياً، كان يشجعها على المضي في حديثها، ويصدر حازوقات بين الفينة والفينة.

«نعم، صحيح ما لاحظته بشأنه يا ماديلون، إن فرديناند ليس سيئاً، ولكنه يفتقر كثيراً إلى الرقة واللطف، يمكن قول هذا، وليس وفيّاً بالإضافة إلى ذلك! أنا واثق من ذلك!

- لا بد أنك تعرف بأن له عشيقات، أليس كذلك يا ليون؟

كانت الخبيثة تستكشف الأسرار .

«مثله مثل غيره، أجاها، بحزم، ولكن أنت تعلمين.. إنه في البداية، من السهل إرضاءه..»

كان لابد من خاتمة لهذا الكلام، وتكفلت ماديلون بذلك.

«الأطباء، هذا معروف، كلهم خنازير.. في أغلب الأوقات، ولكنه هو كما أعتقد، تافه في نوعه.»

- لم تقولي يوماً كلاماً أكثر صواباً من قولك هذا «واقفاً صديقي الطيب، صديقي السعيد، وتابع: «بصد هذه النقطة، أنا واثق جداً، فلشدة ما هو ميال إلى النساء، فإنه يتناول عقارات ومخدرات، ومن ثم إذن، فهو يمتلك آلة والعياذ بالله، لو كنت ترين ضخامة حجمها، إنها غير طبيعية.»

- آه.. آه! قالت ماديلون مرتبكة فجأة، وحاولت أن تتذكر شيئاً، هل تعتقد إذن بأنه سيصاب بأمراض، قل لي أنت؟ كانت قلقة جداً، وحزينة فجأة من جراء هذه المعلومات الشخصية الحميمة.

- بشأن هذا لا علم لي، كان روبنسون مضطراً أن يقر، لا أستطيع للأسف أن أؤكد أي شيء، غير أنه محظوظ في حياته التي يعيشها.

- مع ذلك، أنت على حق، لابد أنه يتناول مخدرات... بسبب ذلك فإنه يبدو غريباً في بعض الأحيان.

بدأ رأسها الصغير يعمل، ماديلون، على حين فجأة، ثم أضافت «سيكون ضرورياً، في المستقبل أن نرتاب به قليلاً..»

- هل تخشين شيئاً مع ذلك؟ سألها روبنسون. هل له صلة بك على الأقل، هل حاول إقامة علاقة معك؟

- آه، لا، أنا لا أريد على الإطلاق، ولكن لا أدري أبدأ ما الذي يدور في رأسه.. افترض مثلاً بأنه أصيب بأزمة. هؤلاء الأشخاص يصابون بأزمات من جراء المخدرات... لن أقبل في أي يوم من الأيام أن يعالجنني..
- ولا أنا أيضاً وافقها روبنسون، وعند هذا الحد، بدأت الملاطفة والمداعبات.

«مدللي... مدللي، راحت تهدد.

- معبودتي، معبودتي أجابها، ثم التحما ببعضهما وغرقا في عاصفة من القبل.

«قل لي بسرعة بأنك تحبني مرات ومرات قدر ما تستطيع، فيما أنا أضمك إلى صدري. كانت اللعبة الصغيرة قد بدأت بالعنق.

- لقد احمر وجهي، صاحت به وهي تلهث... أنا أختنق، دعني أتنفس قليلاً من الهواء، ولكنه لم يتركها تتنفس، ثم بدأ مرة أخرى، كنت وسط الحشائش أحاول أن أرى ما الذي يجري.. تناول حلمات ثدييها بين شفاهه، وراح يلهو بهما. أخيراً، قاما بالألعاب الصغيرة، وغشيت الحمرة وجهي أنا أيضاً، وهاجت مشاعري، ودهشت من الفضول الذي استحوز علي.

«نحن الاثنين سنكون سعيدين، أليس كذلك، قل لي يا ليون؟ قل لي بأنك متأكد من أننا سنكون سعيدين؟»

كان ذلك فاصلاً للاستراحة، وكذلك لمشاريع المستقبل، التي لم ينتهيا منها، كما لو كانا يعيدان بناء عالم بكامله، ولكنه عالم لهما فقط. لم أكن أنا على الإطلاق داخله، يمكنني القول بأنهما لم يكفا عن التأكيد بأنهما سيتخلصان مني، وينظفا حياتهما الخاصة من أي ذكرى لي..

«منذ زمن طويل، أليس كذلك، وأنتما صديقان، أنت وفردينا؟» كان هذا الإلحاح يضايقه..

«منذ سنوات، نعم.. التقينا هنا.. وهناك.. أجابها روبنسون. التقينا في البداية بمحض الصدفة، خلال أسفارنا.. هو نمط من البشر يهوى رؤية البلدان.. وأنا أيضاً بمعنى من المعاني.. إذن فقد حدث ذلك كما لو أننا سلطنا معاً طريقاً واحداً، منذ زمن طويل... هل تفهمين؟» كان يعيد حياتنا إلى مجرد مصادفات تافهة.

«إيه حسناً، ستطويان إذن صفحة صداقتكما الحميمة، يا عزيزي اللطيف! ومنذ الآن أيضاً.. أجابته بتصميم حازم، وموجز. وواضح. هذا سينتهي! ألن ينتهي هذا يا عزيزي اللطيف؟ معي وحدي حسب، سنكمل طريقك الآن... هل تفهمني؟ وليس مع أحد غيري، يا ظريفي؟

- أنت غيورة منه إذن؟ سألها متردداً، مع ذلك، الأبله.

- لا.. لست غيورة منه... ولكنني أحبك جداً كما ترى يا ليوني. أريدك أن تكون لي كلياً... أن لا يشاركني فيك أحد... إنه فاسق جداً... أنت تفهم ذلك، قل لي بأنك تعبدني يا ليون! وأنتك تفهمني؟

- أعبدك..

- حسناً

عدنا جميعاً إلى تولوز، في المساء ذاته.
وبعد يومين من ذلك وقعت الواقعة..



« كان علي، مع ذلك الرحيل عن تولوز، وبينما كنت أحزم حقيبتني استعداداً للذهاب إلى المحطة.. سمعت شخصاً يهتف بشيء ما أمام المنزل، أصغيت إلى الصوت.. كان يطلب مني أن أسارع إلى النزول على الفور إلى المدفن. لم أكن ألحظ الشخص الذي يدعوني على ذلك النحو.. غير أنه من نبرة صوته بدا لي من المؤكد أنه ملهوف متعجل.. كان من الضروري الانطلاق على وجه السرعة كما فهمت منه..

«ألا يمكن الانتظار دقيقة إذن؟ هل المنزل يحترق؟» أجبت على الصوت، عازماً أن لا أتعجل الخروج... لقد حدث ذلك على الأغلب في الساعة السابعة قبل العشاء. كنت سأودعهم في المحطة وكان ذلك ملائماً تماماً، كانت العجوز في طريقها إلى المدفن، في تلك اللحظة، لتستقبل حبيب السائحين الذين كانت تنتظرهم في المدفن..

«هلم سريعاً يا دكتور.. كان الشخص الذي يناديني من الشارع ما يزال يهتف بالإحاح.. لقد وقعت مصيبة للعجوز هنروي.

«حسن.. حسن.. آجبتّه، سأتي على الفور. سأنزل... بالتأكيد!»

كنت بحاجة إلى بعض الوقت لأتمالك نفسي وأضفت: «أذهب أنت

أمامي، قل لهم بأنني سأصل خلفك.. سأتي بسرعة... بعد ارتداء بنطالي..

- ولكن هذا مستعجل جداً! كان الشخص ما يزال يلح... لقد فقدت

العجوز وعيها، أكرر لك، وكسرت عظمة في رأسها كما يبدو... سقطت من

فوق درجات المدفن»..

«هذا جيد» قلت لنفسي وأنا أسمع هذا الخبر الجميل، لم أكن بحاجة إلى التفكير وقتاً طويلاً، انسلت، مباشرة، نحو المحطة، كنت قد حزمت أمري. كان قطاري ينطلق في السابعة والرابع، مع ذلك. ولم أكن في حاجة إلى وداع أحد.



« ما لاحظته بارابين في البداية، حينما التقاني من جديد، هو ذلك الكبر والتجهم الباديين على سيمائي.

«ينبغي أن يكون التعب قد نال منك هناك في تولوز» علق بارابين متشككاً مثلما هو حاله دائماً.

صحيح أنني تعرضت هناك لانفعالات شديدة، في تولوز، غير أنه لم يكن يحق لي، في النهاية، أن أشكو، ما دمت قد تخلصت بأعجوبة، مثلما أمل على الأقل.. من سأم قاتل، ولذت بالفرار في اللحظة الحرجة..

شرحت لبارابين إذن المغامرة بالتفصيل، مع الشكوك التي كانت تساورني في الوقت نفسه، ولكنه لم يوافقني على أنني قد تصرفت بحكمة في ذلك الظرف... لم يكن الوقت يسمح لي مع ذلك بمناقشة الأمر. كانت مسألة العثور على عمل قد غدت ملحة جداً بالنسبة إلي في ذلك الوقت. ما من وقت أضيعه إذن في المزيد من الشروح والتعليقات. لم يعد في حوزتي سوى مائة وخمسين فرنكاً هي كل ما أذخره، ولم أعد أعرف قط أين أولي وجهي بعد الآن، كي أجد مأوى لي. إلى تارابو؟.. ولكنهم لم يعودوا يشغلون أحداً هناك. بسبب الأزمة الخانقة. إلى غارين رانسي إذن؟ أن أعود إلى معالجة المرضى؟ أمعنت التفكير في كل ذلك، على الرغم من كل شيء... كان ذلك هو أفضل الخيارات... رغم أنني كنت أقبله على مضض مني.. ما من شيء ينطفئ مثل نار مقدسة. كان بارابين هو الذي مد لي في النهاية طوق النجاة من خلال موقع صغير عثر عليه في المشفى الذي كان يعمل فيه منذ شهور مضت.

كانت الأمور في ذلك المنزل ما تزال تجري على أحسن ما يرام، ففي ذلك المنزل لم يكن بارابين مكلفاً فقط بخدمة الأطفال القاصرين عقلياً خلال العروض السينمائية.. بل كان منشغلاً بالإضافة إلى ذلك بالصعقات الكهربائية.. ففي ساعات محددة ومرتين في الأسبوع كان يطلق زوابع مغناطيسية فوق رؤوس المعتوهين المتجمعين خصيصاً في حجرة محكمة الإغلاق، يغشاها ظلام دامس، وكل ذلك عبارة عن رياضة ذهنية في المحصلة، وتطبيقاً للفكرة الجديدة للدكتور باريتون، عرابه. كان شحيحاً جداً ذلك العراب الذي وافق على تشغيلي بأجر زهيد جداً، ولكن بعقد وشروط لاحصر لها، تصب كلها في مصلحته بالطبع.. رب عمل في المحصلة..

كنا في ذلك المستشفى لا نكاد نتقاضى أجراً، هذا صحيح، ولكننا كنا بالمقابل نتغذى بصورة حسنة، وننام في شروط مريحة جداً، وكان بإمكاننا أيضاً أن نتبادل العلاقات الجنسية مع الممرضات، كان هذا مسموحاً، شرط أن يكون بعيداً عن الأنظار بالطبع، لم يكن المعلم باريتون يرى ضيراً في مثل تلك التسليات. كان يلاحظ أيضاً بأن هذه التساهلات الجنسية تشد رباط كادر العاملين إلى المشفى. لم يكن غيباً، ولا قاسياً.

ومن ثم فإن تلك اللحظة لم تكن، في الواقع، لحظة طرح التساؤلات والشروط، في الوقت الذي كانت تقدم لي قطعة بفتيكي الصغيرة، التي جاءت في وقتها تماماً. حينما أفكر في الأمر لم أكن لأتوصل بنحو جازم إلى إدراك السبب الذي جعل بارابين يوليني هذا الاهتمام الكبير المفاجئ. كان سلوكه معي يبعث على القلق.. هل أنسب إليه، إلى بارابين، مشاعر أخوية... كان هذا تجميلاً له إلى حد بعيد. لا بد أن الأمر كان أكثر تعقيداً. غير أن ذلك قد حدث.

على مائدة الطعام عند الظهر.. كنا نلتقي جميعاً.. كان ذلك هو العرف السائد. كنا نتعلق حول باريتون، معلمنا، طبيب الأمراض العقلية المحنك.. لحيه مستدقة، أفخاذ قصيرة ولحيمة، لطيف المعشر، غير أنه بصدد موضوع التوفير، كان مضرب المثل، ولا سيما حين كان يجد ذريعة أو فرصة إلى ذلك.. بسبب المعكرونة، ونبذ بورديو اللاذع، فقد أفسدنا باريتون أيما إفساد.. يمكنني قول ذلك. كروم عنب بكاملها آلت إليه كميراث. كان قد أسهب لنا في الحديث عن ذلك. يا لتعسنا! كان يملك مصنع نبيذ صغير، ذلك كل ما في الأمر.. مستشفاه في فينيه سورسين، قلما كان يخلو من المرضى، كان اسم المشفى «بيت الصحة» بارزاً فوق لافتة كبيرة، تحيط به حديقة كبيرة، يتنزه فيها مرضانا المعتوهون خلال النهارات الصحاحية، متظاهرين على نحو مضحك، بأنهم يوازنون رؤوسهم فوق أكتافهم، كما لو أنهم يخشون دائماً من أن يريقوا ما بداخلها على الأرض، فيما هم يترنحون... كانت تلك الرؤوس مكتظة بكل أنواع الأفكار المتقلبة والغريبة والتي كانوا يحافظون عليها بحرص شديد..

لم يكونوا يحدثوننا عن كنوزهم العقلية... أولئك المعتوهون إلا بالكثير من التشنجات المذعورة أو من باب التسامح والتعطف، على منوال الإداريين المتشددين جداً والمدققين، كان من المستحيل إخراج هؤلاء الأشخاص من داخل رؤوسهم، ليس في رأس المجنون سوى أفكار عادية لأي إنسان، ولكنها حبيسة داخل رأسه، أما العالم فلا يدخل قط عبر ذلك الرأس، وهذا يكفي.. والواقع أن رأساً مغلقاً هو أشبه ببحيرة دون نهر. عفونة دون حد.. كان باريتون يمون المشفى بالمعكرونة والخضار من باريس، بالجملة، لذلك قلما كنا محبوبين من تجار فينيه سورسين، كانوا حاقدين علينا بالتأكيد،

فقد كان ذلك يؤرث لديهم الضغينة تجاهنا. حول مائدة الطعام، في بداية عملي، كان باريتون يلخص على نحو مطرد نتائج وفلسفة أحاديثنا المتهافئة، وبما أنه كان قد قضى حياته بين المختلين عقلياً، يكسب رزقه من العمل بينهم، ويقاسمهم حساءهم، ويلطف من خبلهم، فما من شيء كان يبدو له أكثر إملاً من الحديث عن نزواتهم ووساوسهم خلال وجباتنا. «لا ينبغي أن يرد ذكرهم في أحاديث أناس طبيعيين» كان يؤكد على نحو دفاعي حاسم. وكان مصراً فيما يتعلق به على هذه القاعدة الصحية العقلية.

كان باريتون يحب الحوار، على نحو قلق تقريباً، كان يحب الحوار المرح والمسكن للهواجس، والمعقول، لم يكن يرغب في التركيز والإسهاب في الحديث عن المجانين، كان لديه نفور غريزي تجاههم، يكفيه مدى الحياة. قصص أسفارنا كانت تسحره بالمقابل. ولم أكن قط أعطيه ما يروي ظمأه منها... منذ وصولي تحرر بارابين من الثرثرة بنحو جزئي، وقد وصلت أنا في الوقت المناسب، لتسليمة معلمنا خلال تناول وجبات الطعام. جميع رحلاتي رويتها له، وأعدت روايتها مرات ومرات، مرتبة بالطبع، مصوغة في قوالب أدبية مثلما كان الحال يتطلب، مثيرة مرحة. كان باريتون يصدر من لسانه ومن فمه ضجة عظيمة. كانت ابنته تجلس دائماً إلى يمينه على الرغم من سنيها العشر.. كانت الصغيرة إيمي تبدو زاوية على الدوام. شيء ما من الخمود والوهن، يذب في أوصالها، شحوب مزمن لا تخطئه العين، يغشى وجهها، كما لو أن غيمة صغيرة من السقم كانت تمر بلا انقطاع أمام ذلك الوجه الطفولي.

كان ثمة احتكاكات صغيرة تحدث بين بارابين وباريتون. غير أن باريتون لم يكن يحتفظ بأي ضغينة لأحد، ما دام لا يرتاب بأن له أية مصالح

في مشروعه.. كانت حساباته تشكل منذ زمن طويل، الجانب المقدس من وجوده.

ذات يوم وبينما كان بارابين يتحدث إليه أعلن له بارابين بغضب شديد، بأنه يفتقر إلى الأخلاق، أغضبت هذه الملاحظة باريتون في البداية، ثم سويت الأمور، كأن شيئاً لم يكن.. حينما كنت أروي قصص أسفاري كان باريتون يشعر ليس فقط بانفعال مجنح حالم، وإنما أيضاً بشعور من يقوم بتوفير المال.. «حينما أستمع إليك لا يعود لي حاجة إلى الذهاب لرؤية تلك البلدان، لفرط ما وصفتها وصفاً رائعاً يا فرديناندا!» لم يكن بوسعها أن يفكر بمجاملة اللطف من هذه، يوجهها لي، لم تكن نستقبل في المشفى سوى المجانين الذين تسهل مراقبتهم، والإشراف عليهم، أما المجانين العدوانيون والمجرمون فلم تكن نستقبلهم على الإطلاق.

لم يكن مشفاه قط مكاناً كثيباً ومتجهماً، قليل من الشباك المعدنية، وبضع زنانات فقط. كان الموضوع الأشد إثارة للقلق هو الصغيرة المعتلة الجسم، ابنته إي.مي. لم تكن تُعدّ بين المرضى، تلك الطفلة. ولكن ذلك الوسط كان يسكنها..

بعض الصرخات العاوية، كانت تنتهي إلينا في صالة طعامنا بين وقت وآخر، ولكن مصدر تلك الصرخات كان دائماً خفياً ومكتماً إلى حد كبير. كانت تستمر وقتاً قصيراً مع ذلك.. كنا نلاحظ أيضاً موجات طويلة ومفاجئة من الهيجان المفرط، كانت تجتاح المجانين من وقت إلى آخر، دون أية مناسبة. خلال تجوالاتهم التي لا نهاية لها بين مضخة الماء، وأجمات الشجر وأيكات أزهار البيغونيا. ثم ينتهي كل ذلك دون حوادث أو إنذارات من خلال حمامات فاترة وسيرومات مشبعة بالأفيون.

من بعض نوافذ غرف الطعام المطلّة على الشارع كان ينطلق صراخ المجانين أحياناً، يثيرون قلق الجيران. ولكن زعر هؤلاء المجانين يظل في داخلهم. كانوا منشغلين بهذا الذعر، يحتفظون به بنحو حميم، إزاء محاولاتنا العلاجية، كانت تلك المقاومة تستهويهم.

عندما أفكر الآن بجميع المجانين الذين عرفتهم في مشفى الأب باريتون لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك بوجود كوابيس حقيقية في أعماق طبائنا الدفينة، غير الحرب وغير المرض، ذينك الكابوسين اللانهائين.

ربما كان العناية الثقيل لوجودنا في المحصلة، هو البلاء الذي نعانيه كي نظل عشرين سنة، أربعين سنة، وأكثر نعتبر أنفسنا عاقلين، كي لا نكون ببساطة، وعمق، نحن أنفسنا، أعني فترين مننسين. شرسين عبثيين. ثمة كابوس يجثم على صدورنا، حين نضطر إلى أن نقم أشباه البشر العرج الذين هم نحن، على أنهم دائماً المثال للكي، على أنهم فوق إنسانيين من الصباح حتى المساء.

كان لدينا في المشفى مرضى بمختلف الأجر والأسعار. كان الأكثر غنى منهم يظلون ملازمين حجراتهم المنجدة ببذخ، على طراز لويس الخامس عشر. كان باريتون يقوم كل يوم بزيارة صغيرة لهؤلاء المرضى الأغنياء، غالية الأجر جداً. كان هؤلاء ينتظرونه.

كان بارابين يظل متحفظاً على طاولة الطعام، ليس لأن نجاحاتي البلاغية أمام باريتون كانت تغيظه، على العكس من ذلك تماماً. كان يبدو بالأحرى أقل انشغالاً من السابق، أيام عكوفه على الميكروبات، بل ومسروراً تقريباً على وجه التحديد. لا بد من ملاحظة أنه كان يشعر بالخوف الشديد بسبب قصصه مع الفتيات القاصرات. كان يظل مبلبلاً قليلاً إزاء الجنس. وفي ساعات فراغه كان يجوس حول مرج المشفى هو أيضاً مثل مريض، وحينما

كنت أمر بالقرب منه، كان يوجه لي ابتسامات صغيرة، ولكنها ملتبسة جداً،
وصفراء للغاية، حتى ليخيل إلي، بأنها ابتسامات وداع.

حين قبل بنا باريتون، كلينا في الملاك الفني للمشفى فقد حقق مكسباً
كبيراً، ما دمننا قد حملنا له معنا، ليس فقط كل إخلاصنا طوال الوقت، بل
والتسلية أيضاً. وأصداء المغامرات التي كان شرهاً إلى سماعها ومفطوماً عنها.
كان غالباً ما يسعده أن يبدي رضاه تجاهنا. ولكنه كان يعرب مع ذلك عن
بعض التحفظات فيما يتعلق ببارابين. لم يكن على الإطلاق على وفاق كامل مع
بارابين: «بارابين... لاحظ يا فرديناند.. قال لي ذات يوم بيني وبينه، إنه
روسي. أن يكون المرء روسياً كان هذا يعني لدى باريتون شيئاً ما مورفولوجياً
غير قابل للغفران، مثله مثل «مرض السكري» أو «اللغة الفرنسية الرديئة»
وبعكوفه على هذا الموضوع الذي كان يقلقه منذ عدد من الشهور فقد بدأ
بحضوري ولمصلحتي الخاصة في أعمال فكره والبوح بما يجول فيه. لم أكن
أعرف باريتون معرفة جيدة. كنا نذهب معاً بين وقت وآخر إلى «مكتب التبغ»
في البلدة لإحضار السجائر. «من الصحيح يا فرديناند؟ أن بارابين يبدو لي فتى
في غاية الذكاء، هذا مؤكد ولكن نكاه هذا الفتى اعتباطي كلياً، ألا ترى ذلك
يا فرديناند. فهو في البداية لا يريد التكيف.. هذا ما تلاحظه عليه فوراً، وهو
أيضاً غير مرتاح إلى مهنته... وغير مرتاح كذلك في هذا العالم... أنت توافقني
الرأي... ولكنني أرى هنا بأنه مخطئ! مخطئ كلياً، ما دام يعاني ويتألم... ذلك
هو الدليل. لاحظ يا فرديناند كم أنا متكيف «شرع يربت بيده على قفص
صدره». إذا بدأت الأرض غداً على سبيل المثال بالدوران في الاتجاه
المعاكس، إيه حسناً! ماذا أفعل؟ سأتكيف يا فرديناند، ولنتو أيضاً. وهل تعلم كيف
يا فرديناند؟ سأنام نومة طويلة لمدة اثنتي عشرة ساعة على الأكثر، وهذا كل

شيء! نعم سأتكيف! في حين أن بارابينك في وضع كهذا.. هل تعرف ما الذي سيفعله؟ سيجتر خطأ ومرارات طوال مئة عام. أنا واثق من ذلك أقول لك. ليس هذا صحيحاً تماماً؟ إنه سيفقد النوم فجأة ما إن تبدأ الأرض بالدوران بالمقلوب. سيرى، في ذلك لا أدري أي ظلم خاص!... ظلم لا حد له!... ذلك هو وسواسه، الظلم... لقد كان يحدثني كثيراً عن الظلم في الفترة التي كان ما يزال يتنازل فيها ويكلمني. وهل تظن أنه سيكتفي بالتبكي بسبب الظلم؟.. سيكون ذلك نصف مصيبة! ولكن لا! سيبحث حالاً عن وسيلة ليخسف الأرض كي ينتقم يا فرديناند! والأسوأ من ذلك، سأقول لك ما هو الأسوأ إيه حسناً، إنه سيجد الوسيلة مثلما أقول لك! آه! حاول يا فرديناند أن تعي ما سأشرحه لك.. هناك مجانيين بسيطون. وهناك بالمقابل مجانيين آخرون. أولئك الذين يعذبهم هوس الحضارة. من الفظاعة بالنسبة لي التفكير بأن بارابين واحد من هؤلاء. هل تعلم ما قاله لي ذات يوم.

- لا يا سيدي..

- إيه حسناً، لقد قال لي «لا يوجد بين قضيب الرجل وبين الرياضيات يا سيد باريتون أي شيء على الإطلاق. ثمة الفراغ». ثم إليك أيضاً!.. هل تعلم ما الذي ينتظره كي يعاود التحدث معي من جديد.

- لا يا سيد باريتون، لا، لا أعرف شيئاً على الإطلاق..

- ألم يحدثك إذن عن ذلك.

- لا، لم يحدثني بعد..

- حسناً لقد قال لي بأنه لن يكلمني حتى يحل عصر الرياضيات، بكل بساطة... إنه مصمم قطعاً! ما رأيك بهذه الطريقة الوقحة التي يتصرف بها تجاهي، صديقك الأكبر سنّاً. رئيسك؟...»

كان لابد من أن أبدأ ببعض الدعاية حتى أنهى هذه الفانتازيا الفظيعة التي كانت تدور بيننا، غير أن باريتون لم يعد يقبل مثل هذه السفاسف، ووجد الوسيلة ليصب سخطه على عدد من الأشياء الأخرى.

«أه يا فرديناند! أنا أرى بأن كل هذا لا يبدو في نظرك سوى نقاهة محضة، أقوال ساذجة، ترهات مشتتة، وأشياء أخرى... هذا ما يبدو أنك قد استخلصته. هذا فقط.. أليس صحيحاً؟ أه، يا فرديناند الطائش! دعني، بالمقابل، أحذرك بكل عناية من هذا النهج في النظر إلى المظاهر فقط، أوكد لك بأنك على خطأ كلياً!... أنت مخطئ تماماً!... مخطئ ألف مرة... في الحقيقة.. صدقتي يا فرديناند بأنني خلال مسيرة عملي سمعت تقريباً كل ما يمكن سماعه هنا وفي أماكن أخرى من هذيانات باردة وساخنة! لم يفتني أي شيء!.. أنت ستصدقني يا فرديناند أليس كذلك؟ ولم أعط الانطباع أيضاً في أي يوم من الأيام، وهذا ما لاحظته أنت بالتأكيد، بأنني ميّال إلى الجزع... أو إلى المغالاة، لا، أليس كذلك؟ إن قوة الكلمة وحتى العديد من الكلمات، وحتى الجمل والكلام بأكمله لم تؤثر يوماً في الحكم الذي أصدره، ولكوني بسيط جداً منذ الولادة، وبالفطرة، فإنني كنت دائماً واحداً من أولئك البشر الذين لا تخلف الكلمات في نفوسهم أي خوف!.. إيه حسناً يا فرديناند. بعد تحليل دقيق ومنصف بشأن بارابين أجد نفسي مضطراً إلى الاحتراس منه.. وإلى إيداء أشد التحفظات صراحة. إن شذوذه لا يشبه تلك الشذوذات المسالمة والمألوفة، ولكنه ينتمي، كما بدا لي، إلى واحد من أشكال الشذوذ النادرة الخطرة، إلى إحدى تلك الأهواء الغريبة المعديّة بسهولة.. الاجتماعية والظافرة باختصار. لعل حالة صديقك ليست هي الجنون كلياً... لا! ربما ليست هي سوى اليقين المفرط. ولكنني خبرت حالات من الاختلالات العقلية المعديّة.. عرفت عدداً

كبيراً منها.. أنا الذي أحذثك يا فرديناند... لأولئك الذين يشعرون باليقين المطلق، ومن مختلف المنابع أيضاً... إن أولئك الذين يتحدثون عن العدالة، يبدون لي، في المحصلة، أكثر الكائنات سعاراً... أنصار العدالة هؤلاء، في واقع الحال، لا يعنون لي الكثير، أعترف لك... إنهم يقلقونني الآن، يثيرون سخطي إلى أبعد حد، أولئك الممسوسون، أليس هذا هو رأيك؟.. لقد اكتشفت لدى الناس ما لا أدري من سهولة في التحول إلى هذا الجانب الذي يثير خوفي، لدى جميع الناس، هل تسمعي؟.. لاحظ هذا يا فرديناند! لدى الجميع! مثلما إلى الكحول أو الشبق! ثمة استعداد لذلك، حتمية قدرية شائعة إلى أبعد مدى... هل تمزح يا فرديناند؟ أنت تخيفني إذن بدورك! أنت ضعيف! سريع العطب! رخو! خطر يا فرديناند! ولكنني أفكر بأنك جاد فعلاً، لا تنس أنني مسن يا فرديناند. يمكنني أن أسمح لنفسي بعدم الاكتراث بالمستقبل، سيكون ذلك مسموحاً لي بالتأكيد".

مبدئياً، وبنحو مستمر، وفي كل الأمور كنت أوافق معلمي وأجاريه في رأيه، لم أكن قد أحرزت تقدماً عملياً، خلال حياتي المضطربة، ولكنني تعلمت مع ذلك المبادئ الصالحة لآداب الخضوع والعبودية. وفجأة وبفضل هذه الحوارات، توقفت علاقتنا، وغدونا قريبين من بعضنا إلى الأبد، لم أكن قط مستاء من ذلك، كنت قليل الطعام على الطاولة.. معاوناً لطيفاً في المحصلة، مقتصداً كلياً، وغير طموح للحصول على قرش واحد. وغير خطر على الإطلاق.



« تقبع قرية فينيه سورسين بين تلين اثنين، عاريين، من الخضرة.
ينسل ريشها يوماً بعد يوم بانتظار أن تبتلعها باريس.

إنها تفقد حديقة كل شهر. لوحات الدعاية لفرقة البالية الروسية تزين
شوارع القرية بدءاً من مدخلها. ليس ثمة سوى الترام يخترق شوارعها
مصرأً على أن يغدو تاريخياً، وهو لن ينتهي إلا بثورة. الناس يعتربهم القلق،
والأولاد لم يعودوا يتحدثون بلهجة آبائهم. المعجزة تتحقق، آخر قطعة
خضراء اختفت من الوجود مع مجيء لافال. والخاديات المياومات رفعن
أجورهن عشرين سنتياً كل ساعة في أوقات العطل. جابية مركز البريد
تشتري روايات لوطية معتقدة أنها روايات واقعية. يقول الخوري طز، متى
يشاء، ويعطي نصائح للبورصة، لأولئك الذين يتمتعون بحكمة كافية. السين
قتل أسماكه، وغدا أمريكياً، بين صفيين من الصبابات- الجرارات-الرافعات
التي تشكل منه على مستوى الضفاف ما يشبه طقم أسنان من أكوام العفونة
وخردة الحديد... ثلاثة من فرازي الأراضي دخلوا السجن. الأحوال تنتظم.

لم يفلت هذا التحول العقاري المحلي من باريتون. إنه يتحسر الآن
بمرارة لأنه لم يقم بشراء المزيد من الأراضي في الوادي المجاور، قبل
عشرين عاماً خلت، حين كانوا يتوسلون إليك أن تشتري متر الأرض بأربعة
قروش، أي ما يعادل ثمن فطيرة غير طازجة. تلكم أزمان الحياة الرخية
الماضية... ولحسن الحظ فإن معهده لعلاج الأمراض العقلية كان ما يزال
يدافع عن نفسه بقوة، ولكن ليس من دون صعوبة. لم تكف العائلات النهمة

عن مطالبته وبإلحاح شديد أيضاً، ودائماً، بطرائق أكثر جدة في العلاج، وأكثر كهربائية. وأكثر سحرية ، وأكثر من كل شيء.. بالولاية أحدث على الأخص، وأجهزة أشد إدهاشاً، وعلى الفور أيضاً، وتحت طائلة أن يتجاوزهم الآخرون في معركة المنافسة الطاحنة، بدأت تلك المعركة.. عبر مشاف مماثلة، كمنت وسط الغابات المجاورة لآزتييردي باسي ولمونترتوت، تترصد، هي أيضاً جميع المعتمهين والمختلين عقليا من الطبقات الموسرة.

سارع باريتون، يقوده بارابين إلى الانسياق مع الذوق العام، مع أفضل العروض بالتأكيد، ومع ترخيص الكلفة. ومع الاوكازيونات، ولكن على الفور، ودون توقف. وبمساعدة آلات إلكترونية حديثة غازية، ومائية، ليبدو دائماً، بهذا النحو، مجهزاً أفضل تجهيز للجري وراء الأهواء الشاذة للنزلاء المقيمين الصغار المبلبلين والأغنياء. كان المشفى ينوء تحت وطأة ضرورة مظاهر الأبهة والفخامة، وضرورة أن يكسب حطوة المجانيين أنفسهم.

«حين افتتحت هذا المشفى، أفضى لي باريتون ذات يوم، وهو يبوح بمشاعر الأسف، كان ذلك قبل افتتاح المعرض الكبير تماماً، يا فرديناند... لم نكن نشكل، نحن الأطباء العقليين، سوى عدد محدود جداً من الأطباء الممارسين، أقل فضولاً، وأقل فساداً مما نحن عليه اليوم، أرجوك أن تصدقني! لم يكن أحد منا يحاول حينئذ أن يكون مجنوناً، بقدر ما كان الزبائن كذلك.. لم يكن أسلوب العلاج مستنداً مثلما هو اليوم إلى الهذيان، بحجة أن ذلك أفضل للعلاج، أسلوب داعر، لاحظ ذلك، على غرار كل ما جاء إلينا من الخارج تقريباً...

«في بداية عملي إذن، كان الأطباء الفرنسيون، يا فرديناند ما يزالون يحترمون بعضهم بعضاً، لم يكونوا يعتقدون بأنهم مضطرون إلى الهلوسة، في

الوقت ذاته مع مرضاهم، بغية مجازاة المرضى من دون شك؟ ماذا يدريني؟ من أجل إدخال السرور إلى قلوبهم... أين سيقودنا هذا؟.. أسألك يا فرديناند؟... ما دام أطباؤنا قد غدوا أكثر مكرماً وأسوأ مرضاً، وأعظم فساداً من المرضى الأشد عتياً وجنوناً في مشافينا، لفرط ما مرغونا بنوع من الغطرسة الجديدة الغارقة في وحل جميع أشكال الخبل التي يظهرونها لنا، إلى أين نمضي الآن؟.. هل بوسعك أن تطمئنني يا فرديناند حول مصير عقلائنا، وحتى مجرد حسنا السليم؟ ما الذي سيبقى لنا من الحس السليم بمثل هذا الوضع؟ لا شيء، هذا متوقع! لا شيء قطعاً. يمكنني أن أتنبأ لك بذلك... هذا واضح تمام الوضوح...

«بداية، يا فرديناند... ألم تصبح كل الأمور سواء، أمام عقل حديث... لم يعد ثمة أبيض! لم يعد ثمة أسود أيضاً! كل شيء يتمزق وينهار!... إنه النوع الجديد! إنها الموضة! لماذا لم نصبح نحن أنفسنا مجانين، وعلى الفور! كي نبدأ! ونتباهى أيضاً بذلك، نعلن الاضطراب الروحي الكبير! ونحقق النجاح عبر جنوننا! من الذي يمكنه أن يمنعنا؟ أسألك يا فرديناند؟ يتفق لي يا فرديناند أن أنصت إلى بعض زملائنا، وهؤلاء، لاحظ يا فرديناند، من بين أوسع الأطباء شهرة، والمرغوبين أكثر من قبل المرضى، والأكاديميات، فأسأل نفسي إلى أين يقودنا هؤلاء؟ هذا لا يطاق في الحقيقة! هؤلاء المعنوهون يفقدونني رشدي. يقلقونني، يثيرون تقززي، على الأخص، وحين أسمع فقط نتائج أبحاثهم خلال إحدى مؤتمراتهم الحديثة يجتاحني رعب فظيع يا فرديناند، يخذلني عقلي حين أنصت إليهم فقط... ممسوسون، داعرون، محتالون. هؤلاء المنافحون عن الطب العقلي الحديث، يدفعوننا بتحليلاتهم إلى

الهاوية، بكل بساطة إلى الهاوية! وفي ذات صباح. إن لم تقاوموا، يا فرديناند،
أنتم الشباب فسنهلك، افهمني جيداً، سنهلك!...

«أنت تعلم يا فرديناند بأن هؤلاء الأوغاد لن يكفوا قط عن الفسق بالعقل
والإدراك خلال الليل والنهار وحتى في أحلامهم...! ليس ثمة ما أضيفه إلى
ذلك!... لقد عمقت لك الموضوع، وبسطت لك المسألة... لم يعد ثمة حول
هؤلاء سوى أفضاض عضوية مقرزة، مرملا من ظواهر هذيانية تسح منهم،
وتنظر من كل مكان... سينهار كل شيء يا فرديناند، كل شيء ستذروه
الريح. أتتبا لك بذلك، أنا العجوز باريتون، وليس بعد وقت طويل أيضاً،
سترى ذلك بعينيك يا فرديناند، هذا الانهيار الهائل، لأنك ما تزال شاباً! سترى
ذلك! آه! أنا أعدك بمباهج، ستشهدا عند جارك بارابين. هوب! وبنوبة
هذيانية على الأكثر.. وإلى الأمام نحو الجنون أخيراً، وستتحرر أنت أيضاً
كما تقول لي. ذلك ما يغريك منذ زمن طويل جداً، ولكن حين ستكون لدى
المجانين، أصدقائك الصغار، أؤكد لك بأنك ستبقى عندهم.

«لحفظ هذا جيداً يا فرديناند، إن ما يشكل بداية النهاية لكل شيء هو
غياب المعايير، تلك الطريقة التي بدأ فيها الانهيار الكبير. إنني في وضع
يمكنني به أن أوضح لك ذلك... ومن خلال المعايير الوهمية بدأ كل ذلك، من
خلال المبالغات الأجنبية الغريبة. لم يعد ثمة قياس، ولم يعد ثمة قوة. وإذن
إلى العدم أيها العالم بأكمالك؟ ولم لا؟ سائر العالم؟ هذا مؤكد. إننا لا نسير في
هذا الاتجاه، وإنما نعدو إليه عدواً! إنه اندفاع حقيقي! أنا أراه يا فرديناند، أرى
العقل يتخلى شيئاً فشيئاً عن اتزانه، ثم نذوب في مشروع كبير من الطموحات
القيامية! لقد بدأ ذلك عام ١٩٠٠... منذ ذلك الحين لم يعد في العالم، بوجه
عام، وفي الطب العقلي، بوجه خاص سوى تنافس مسعور على من سيكون

أعظم فساداً وأشدّ شبقية، وأسوأ اختلافاً، وأكثر بعثاً على التفرز، وأعلى إبداعية، مثلما يقولون، على غرار زميلك الصغير، سلّطة عجيبة... إنه التنافس على الغرق الكامل في القبح، والشذوذ، بأسرع وقت ممكن، على الوحشية العديمة القلب والعديمة الاعتدال... هذا مؤكد يا فرديناند... إنه الوحش؟ رأس ضخم يسير حيثما يشاء... حروبه ولعابه، يتدفقان حولنا، وفي كل مكان... ها نحن في لجة السيل! بكل بساطة.. آه، كنا نضجر، كما يبدو، من وعينا. ولكننا لم نعد نضجر الآن، فقد بدأنا بالخبل والهديان كي نغير أنفسنا... بدأنا إذن على حين فجأة نختبر «الانطباعات» و«الحدوس»، على غرار النساء. هل من الضروري أيضاً، عند هذا الحد الذي وصلنا إليه أن نربك أنفسنا بكلمة غادرة هي كلمة المنطق؟... بالتأكيد لا! سيكون المنطق بالأحرى نوعاً من الإزعاج، بوجود علماء تحليل نفسي، ماهرين للغاية! على غرار ما نراه في أيامنا، طليعيين فعلاً.. هل سيدفعني ذلك إلى القول بأنني أحتقر النساء؟ لا! أنت تعرف ذلك جيداً.. ولكنني لا أحب حدسهن وانطباعاتهن! إنني حيوان بخصيتين يا فرديناند، وحينما أمسك بواقعة من الوقائع فإنني أجد صعوبة في إفلاتها. وقد صادفتني واقعة في أحد الأيام، من المفيد ذكرها لك في هذا المقام.. فقد طُلب مني استقبال كاتب... كان يهذي دون توقف.. هل تعلم ما الذي كان يهتف به منذ أكثر من شهر؟ «أنا أصفي... أنا أصفي» هكذا كان الكاتب يزعم داخل المشفى، كان قد انتقل إلى الجانب الآخر من العقل، ولكنه بوجه التحديد كان ينوء تحت وطأة سائر آلام العالم الذي يريد تصفيته.. ثمة تضيق قديم يجعله يتسمم بالبول، كان يسد مثانته. لم أتوقف عن سبره وتخليصه من بوله قطرة قطرة.. كانت عائلته تصر على أن هذا الهديان يعتريه، بسبب من عبقريته، كنت أحاول عبثاً أن أشرح للعائلة بأن ذلك كان بالأحرى بسبب المثانة العليلة لكاتبهم، ولكنهم لم

يتراجعوا عن قناعاتهم... فالكاتب حسب رأيهم، كان يزرع تحت وطأة نوبة من نوبات عبقريته، وهذا كل شيء، كان علي أن أجاريهم في رأيهم في النهاية... أنت تعلم بالتأكيد أن هذه ليست سوى عائلة؟ ومن المستحيل إفهام عائلة بأن فرداً فيها، أباً أو غير ذلك، لا يشكو في المحصلة سوى من التعفن المنحبس... فهي لن تدفع لك من أجل تعفن منحسب في جسد رجلها...»

منذ عشرين عاماً لم يكف باريتون على الإطلاق عن مجازاة الغرور المفرط لعائلات مرضاه، لقد جعلت تلك العائلات حياته شاقة... وعلى الرغم من صبره وتوازنه اللذين أعرفهما عنه فقد كان يحتفظ مع ذلك داخل قلبه بعقابيل كراهية زنخة ومزمنة تجاه العائلات. وفي الفترة التي كنت أعيش فيها إلى جواره، كان مرهقاً جداً، يبحث بعناد وعلى نحو خفي عن التحرر من هذا الإرهاق، عن الإفلات مرة واحدة وإلى الأبد من طغيان العائلات، بطريقة أو بأخرى، كل واحد منا يملك أسبابه للفرار من بؤسه الشخصي، وكل واحد منا، يتبع طريقاً مبتكراً، حسب الظروف، سعياً إلى تحقيق ذلك. سعاداً جداً أولئك الذين يكفيهم الماخور..

كان بارابين يبدو سعيداً لأنه اختار درب الصمت. أما باريتون الذي لم أفهمه إلا فيما بعد، فكنت أتساءل في سري إن كان سيفلح في الإفلات من قبضة العائلات، من نيرهم، من ألف تفاهة مقرزة للطب العقلي الغذائي، من وضعه بوجه عام. ولشدة رغبته بأشياء جديدة، قطعاً، ومغايرة، فقد كان مهياً، في الواقع للفرار والتلمص.. ومن هنا، بلا ريب، تتبع خطبه النقدية... كان أنه يزرع تحت وطأة الروتين، ولم يعد بمقدوره أن يتسامى أبداً. كان يريد الذهاب فقط، حاملاً جسده إلى مكان آخر. لم يكن باريتون موسيقياً على الإطلاق. كان يلزمه إن أن يقلب كل شيء مثل دب حتى يتخلص من وضعه..

ثم تحرر باريتون الذي كنت أعتقد بأنه متعقل، بطريقة فضائحية مؤسفة إلى أبعد حد وسأحاول أن أتحدث بتمهل فيما بعد، عن الكيفية التي سارت عليها الأمور..

فيما يتعلق بي، آنذاك، كانت مهنة طبيب مساعد في مشفاه تبدو لي مقبولة.

لم يكن روتين العلاج شاقاً على الإطلاق، على الرغم، من إزعاجات يسيرة، بالطبع من وقت إلى آخر. فحينما كنت على سبيل المثال أتحدث طويلاً مع المرضى المقيمين، كان نوع من الدوار يعتريني حينئذٍ، كما لو أنهم كانوا يقودونني بعيداً عن ضفتي المعتادة، يقودونني معهم دون أن يبدو عليهم ذلك، بكلمات بريئة، حتى أجد نفسي وسط هذيانهم، كنت أتساءل خلال لحظة صغيرة، كيف السبيل إلى الخلاص، إن لم أكن بالصدفة قد احتجزت نهائياً داخل جنونهم، دون أن أعي ذلك.

كنت أفق عند الحافة الخطرة للمجانين، على تخومهم تقريباً، لفرط ما كنت دائماً محبباً من قبلهم، وهذا عائد إلى طبيعتي، لم أكن أنفعل أو أتأثر، ولكنني كنت طوال الوقت أشعر بالخطر كما لو أنهم كانوا يجتنبونني بمكر إلى أحياء مدينتهم المجهولة... مدينة كانت شوارعها تغدو أكثر فأكثر رخاوة، كلما كنت أتوغل بين بيوتها اللعابية، نوافذها ذاتبة، شبه مغلقة على تلك الضجة المرية، الأبواب والأرض متحركة... تستحوذ عليك الرغبة، مع ذلك، في أن تمضي فيها أبعد قليلاً، كي تعرف إن كان لديك القدرة على أن تعثر على عقلها، بين الانقراض. ولكن العقل مصاب بالعطب، مثلما المزاج الطيب والنوم في مدينة النورستانيين. ولا يعود بإمكانك التفكير سوى بعقل تلك المدينة. ما من شيء فيها يسير سيراً طبيعياً. ثم ينتهي بك الأمر إلى الهزل والضحك.

كل شيء إذن، كان يمضي.. من شكوك إلى شكوك إلى أن حل يوم ٤ أيار، تاريخ مشهور كان ذلك اليوم.. كنت أشعر صدفة، بأنني في أحسن حال، خلال ذلك اليوم، كما لو كان ذلك معجزة. النبض ٧٨، كما لو بعد غداء جيد، حينما بدأ كل شيء في الانقلاب والتحول! رحت أتسبب بأي شيء.. كان كل شيء يتحول إلى السخط والتذمر. بدأ الناس يتخذون سحنة غريبة، وأصبحوا فظلين كما بدا لي، مثل الليمون، أشدّ خبثاً وأذى مما كانوا عليه سابقاً. كنت قد سعدت عالياً جداً، من دون شك، بتهور أكبر ما تتحمّله صحتي، ثم سقطت أمام المرأة، لأرى نفسي وقد علاني الكبر والشيخوخة..

لم أعد أبالي بقرف تلك الأيام الغائطية ولا متاعبها! بعد أن تراكمت بين الأنف والعينين، لقد كان هناك من تلك المتاعب أكثر مما يتحمّله إنسان، بالنظر إلى كل ما كان حولي، فضلت أننذ العودة إلى تاراابو. لا سيما أن بارابين لم يعد يكلمني أنا أيضاً. ولكنني كنت قد احترقت في تاراابو. من المؤلم جداً أن لا يكون لدي سوى رب عمل واحد. من أجل راحتي المعنوية والمادية، وعلى الأخص حين يكون طبيباً للأمراض العقلية، ما عدت مطمئناً جداً لما يدور في رأسه. ينبغي التماسك، ليس ثمة سبيل آخر، لم يبق لنا ما نتحدث عنه معاً سوى النساء، كان ذلك موضوعاً لطيف التأثير ويمكنني بفضلها أيضاً أن أمل بتسليته، من وقت إلى آخر! وبهذا الصدد، فقد أولاني أيضاً ثقة كبيرة، بتجربتي معهن، جدارة مقرزة.

لم يكن ثمة بأس على الإطلاق في أن باريتون كان ينظر إلي، بوجه عام بشيء من الاحتقار. ينبغي للعبد، مهما كلفه ذلك أن يكون جديراً بالاحتقار قليلاً، أو حتى كثيراً، ثمة مجموعة من العيوب الصغيرة المزمنة

المعنوية والجسدية تبرر المصير الذي يكابده العبد.. والأرض تدور على نحو أفضل حينما يجد كل امرئ فوقها مكانه الذي يستحقه..

خليق بالكائن الذي يستخدمه الآخرون أن يكون وضعياً متذبذباً محكوماً بالانحطاط، فذلك يريح النفس.. ولا سيما أن باريتون كان يدفع لنا أجوراً زهيدة كلياً. في تلك الحالة من الشح الشديد كان الموظفون يظنون مرتابين، قلقين، إلى حد كبير... أن أكون محبباً، وفاسقاً وفاسداً، ومخلصاً، فإن ذلك يجد تفسيره، وتبريره، لدى باريتون في المحصلة. ولن يكدر باريتون سوى أن أكون مطلوباً من البوليس. كان ذلك هو ما يجعلني مخلصاً متفانياً.

كنت قد تخلت بالإضافة إلى ذلك، منذ أمد طويل عن كل كبرياء أو شعور بالكرامة. فقد بدا لي هذا الشعور دائماً أعلى من الشرط الذي أعيش فيه. أعلى ثمناً ألف مرة، بالقياس إلى مواردني، كنت أجد نفسي مرتاحاً كلياً من خلال التضحية بكبريائي نهائياً.

كان يكفيني الآن أن احتفظ بالتوازن داخل وسط يمكن احتمالته، غذائياً وجسدياً، أما الباقي فلم يكن يهمني قط في الحقيقة، ولكنني كنت أحس في ذلك بصعوبة كبيرة في اجتياز بعض الليالي، ولا سيما حين كانت نكرى ما حدث في تولوز نقض مضجعي ساعات بكاملها... كنت أتخيل حينئذٍ، ولم يكن بوسعي أن أمنع نفسي عن ذلك، أتخيل كل أنواع العواقب المأساوية لسقوط الأم هنروي في حفرة مومياءاتها. كان الخوف يعتصر أمعائي، ويشد بقبضته على قلبي الذي كان يدق حتى يكاد يقفز بكامله خارج سريره، كي ينزع غرفتي في أحد جهاتها ثم في الجهة الأخرى حتى أعماق الظل، وإلى أن يطلع الصباح. كنت وسط هذه الأزمات، أحس باليأس من أن أجد في لحظة من اللحظات ما يكفي من غياب الشعور، كي أتمكن من أن أهجع ولو

للحظات، لا تصدقوا إذن أبداً، على الفور شقاء البشر، اسألوهم فقط إن كان ما يزال باستطاعتهم أن يناموا؟ فإذا أجابوا بنعم، فإن كل شيء على ما يرام ، وحسبهم ذلك.

لم يعد يتفق لي أبداً أن أنام نوماً عميقاً.. لقد فقدت الثقة نهائياً، تلك التي ينبغي أن يكون لدى المرء قسط عظيم منها بالفعل، كي ينام نوماً عميقاً بين البشر، كنت في حاجة على الأقل إلى مرض، حمى، كارثة محددة، كي أستطيع أن أعثر على قليل من تلك اللامبالاة وأصرف قلقي تماماً، وأهتدي إلى الاطمئنان الأحمق والسماوي... كانت الأيام الوحيدة التي احتملتها، والتي يمكنني أن أتذكرها خلال العديد من السنوات هي بعض الأيام التي أصبت فيها بنزلة صدرية حادة، رافقتها حمى ثقيلة جداً.

لم يكن باريتون يسألني أبداً عما يتعلق بصحتي، كان يتحاشى أيضاً الخوض بأمور صحته هو «العلم والحياة يشكلان مزيجاً مشؤوماً يا فرديناندا! تجنب دوماً أن تعنتي بنفسك، صدقني... كل سؤال تطرحه حول الجسد يغدو ثغرة. بداية للقلق، للوساوس...» هكذا كانت مبادئه البيولوجية المبسطة والأثرية، كان يتظاهر بالمكر في المحصلة، «ما أعرفه يكفيني» كان يقول ذلك غالباً، أيضاً، كي يجعلني انبهر به.

لم يكن يحدثني قط عن المال. ولكن ذلك كان من أجل أن يفكر به هو أكثر، وبحميمية أعظم..

مشكلات روبنسون مع عائلة هنروي كنت أحتفظ بها أيضاً في أعماق شعوري، على نحو غير مفهوم أيضاً، وغالباً ما كنت أحاول أن أروي طرفاً منها، لباريتون. ولكنه لم يكن يلقي إليها بالاً على الإطلاق. كان يفضل قصص أفريقيا، وخاصة حين كان الأمر يتعلق بحكايات عن زملاء أطباء

كنت قد التقيتهم غراراً في بعض الأمكنة، وممارسات هؤلاء الزملاء الطبية غير المعتادة، الغريبة أو المريبة.

من وقت إلى آخر، كنا نمر في المشفى بحالة استنفار بسبب البنية الصغيرة إيمي.. فعند العشاء، وعلى حين فجأة، لم نكن نجد لها أثراً لا في الحديقة ولا في غرفتها، بالنسبة إلي، كنت أتوقع دائماً أن نعثر عليها ذات مساء مقطعة الأوصال خلف أجمة من الأجمات. فمع مجانبنا المتسكعين في كل مكان، كان يمكن أن يحدث الأسوأ. كانت فوق ذلك قد نجت من الاغتصاب مرات عديدة. كانت الصرخات تنطلق حينئذٍ، تتلوها توييخات عنيفة ثم توضيحات واستقصاءات لا نهاية لها. عبثاً كنا نحاول منعها من العبور في بعض الممرات المحمية من الأنظار. كانت تلك الطفلة تعود على نحو لا يرد إلى الزوايا الصغيرة. ولم يكن والدها يقصر في ضربها على مؤخرتها ضرباً لا ينسى، ولكن ذلك لم يكن يثنيها.

حين كنا نلتقي بالمجانين. أو نتجاوزهم عبر الممرات كان علينا دائماً، نحن العاملين في المشفى، أن نظل على حذر بعض الشيء، فالمرضى العقليون يقتلون بسهولة أكبر من الناس العاديين. وهكذا فقد غدا ذلك بالنسبة إلينا نوعاً من العادة، بأن نجعل ظهرنا إلى الحائط حين نلتقي بهم، مستعدين دائماً لأن نتلقى منهم ركلة قوية في أسفل البطن، لدى أول حركة منهم. إنهم يترصدونك، يمرون بجوارك، فالجنون وحده، غير مفهوم كلياً. كان باريتون يتأسف لأن أيّ منا لم يكن يجيد اللعب بالشطرنج، لذا كان ينبغي علي أن أبدأ بتعلم هذه اللعبة من أجل إسعاده فقط. خلال النهار كان باريتون ينخرط في نشاطات مزعجة وصغيرة جداً تجعل الحياة مرهقة حوله. ثمّة فكرة مزعجة وصغيرة جداً لها طابع عملي على نحو تافه ومسطح، كانت تخطر له كل

صباح. تبديل لفافة ورق التواليت بورق طلحيات، على سبيل المثال. كان يضطرننا إلى التفكير طوال أسبوع بكامله إلى أن نبدد الوقت على قرارات متناقضة، وقد قرر أخيراً، انتظار شهر بيع التصفية للقيام بجولة على المخازن.. ثم طراً همّ آخر جديد.. هو صدرات الفلانيلة... هل ينبغي ارتداؤها تحت؟.. أم فوق القميص؟.. ثم طريقة اختيار سلفات الصودا؟.. كان بارابين يلوذ بالصمت المطبق خلال تلك المحاورات شبه العملية.

نفعني الضجر إلى أن أروي لباريتون مغامرات أكثر بكثير من كل ما كانت قد تضمنته أسفاري. كنت قد استفتت كل نخيرتي! وكان هو بدوره أخيراً، يشغل كلاً الفترات الشاغرة من حوارنا باقتراحاته وتحفظاته الصغيرة فقط، لم يعد ثمة سبيل إلى الخروج من ذلك. فبسبب الإنهاك الذي نلته منه، ولأنني لم أكن أملك، على غرار بارابين لا مبالاة مطلقة لأحمي نفسي، كان ينبغي أن أجيبه على الرغم مني، لم يعد بوسعي أن أمنع نفسي إلى ما لا نهاية من اللغو الفارغ حول الميزات المقارنة للكاكو والقهوة بالكريما، كان يسحرني بحماقته.

كنا نعود إلى الحديث حول كل شيء وحول لا شيء، حول مرض الدوالي، وحول التيار الفارادي وحول التهاب النسيج الخلوي في منطقة الكوع. وانتهيت تماماً إلى الغمغمة بحسب إشارات وميوله حول لا شيء وحول كل شيء. كان باريتون يصطحبني. يسبقني في هذه النزاهات البلهاء، وقد أشبعني حواراً حتى أبدأ الأبددين. كان بارابين يضحك في سره، وهو يستمع إلينا نخوض في تلك المحاكات، حول وجبات المعكرونة الشريطية، ورشاش نبيذ بوردو يتطاير من أفواهنا فوق غطاء المائدة.

ولكن، سلام عليك يا ذكرى باريتون! ذلك الوجد، لقد انتهيت أخيراً مع ذلك، إلى جعله يخفني، وقد تطلب مني ذلك كثيراً من المهارة.

من بين مرضاي الذين عهد إلي بحراستهم، على نحو خاص، كان الأشد عتياً بينهم يثيرون فيّ قلقاً شديداً، دوشاتهم هنا، مسابرهم هناك. عيوبهم الصغيرة، عنفهم، وسواس النظافة لديهم.. كانت إحدى الشابات النزيلات تسبب لي غالباً ملاحظات حانقة من المعلم.. كانت تتمر الحديقة بقطع جميع أزهارها، كان ذلك وسواسها، ولم أكن أحب ملاحظات المعلم... كان باريتون يسميها «الخطيئة». فتاة أرجنتينية ذات بنية جسدية غير سيئة على الإطلاق، ولكن بنيتها النفسية مضطربة جداً. تهيمن عليها فكرة وحيدة هي الزواج بأبيها.. كانت تنتقل من زهرة إلى زهرة في أجمات الزهور فتقطفها جميعها، وتغرزها في شال كبير أبيض ترتديه ليلاً ونهاراً. كانت عائلتها المتعصبة دينياً تشعر بخجل شديد من حالتها، وهكذا حجبا فتاتهم عن العالم، وحجبا كذلك فكرتها. كانت الفتاة بحسب رأي باريتون تعاني من عواقب تربية متشددة وقاسية، ومن أخلاقية مطلقة، انفجرت على وجه التقريب، داخل رأسها.

عند الغروب كان عالمنا بأكمله يهجع بعد نداءات متكررة طويلة، وبعديئاً نمر على الحجرات من أجل أن نمنع المهيجين من المرضى على الأخص من أن يستمنوا بنحو مفرط، قبل أن يناموا، وفي مساء يوم السبت كان من المهم تهدئة المرضى والاهتمام الفائق بهم لأن أهاليهم كانوا يأتون يوم الأحد لزيارتهم. ومن المساء للمشفى أن يجدوا أبناءهم مبيضي البشرة من فرط الاستمنااء.

كل هذا ذكرني ببيرت وبالشراب السكري الذي أعدته له حينما شكت لي خالته من أنه يمارس العادة السرية. وقد استخدمت هذا الشراب في المشفى بكثرة، كنت قد احتفظت بصيغته، وانتهيت إلى أن أومن بفعاليتها. كانت حاجبة المشفى تباع حبات اللوز المسكر، مع زوجها. كنت أدعو الزوج،

من وقت إلى آخر، لمواجهة أزمات الهياج لدى المرضى بحبائه السكرية. هكذا كانت الأمور والشهور تسير، دون تكبير كبير في المحصلة. لم يكن لدينا ما نشكو منه إذا لم يخطر لباريتون على حين فجأة خاطر آخر جديد يعكر صفونا.

منذ زمن طويل، بلا شك كان باريتون يتساءل بينه وبين نفسه إن لم يكن بوسعه أن يستخدمني على نحو أكبر وأفضل أيضاً، بالأجر ذاته، ثم توصل أخيراً إلى تحقيق ذلك.

ذات يوم بعد الغداء أعلن فكرته على الملأ. قدم لنا، في البداية طبقاً من السلطة مملوءة بمقبلاتي الأثيرة، فريز بالكريما، بدا لي ذلك للتو مثيراً للريبة، والواقع أنني ما كدت أنتهي من التهام آخر فريزة حتى هاجمني بمطلق سلطته علي.

"فرديناند، قال لي هكذا، لقد سألت نفسي فيما إذا كنت ستوافق على إعطاء ابنتي إيمي بضعة دروس في الإنكليزية؟ ماذا تقول في ذلك؟ أعلم أنك تمتلك لهجة ممتازة، واللهجة في الإنكليزية أمر جوهري أليس كذلك!... ومن ثم فإنني أقول دون أن أجاملك، أنت يا فرديناند اللطف بعينه.

- ولكن بالتأكيد، سيد باريتون» أحبته متفاجئاً.

وتقرر الأمر، في الحال، بأن أعطي لإيمي منذ الغد صباحاً درسها الأول. ودروساً أخرى تالية، على ذلك المنوال، فيما بعد.. خلال أسابيع.

بدءاً من دروس الإنكليزية هذه، دخلنا جميعاً في مرحلة كدرة وملتبسة قطعاً، تتالت الأحداث خلالها بإيقاع لم يعد على الإطلاق هو إيقاع الحياة اليومية العادية.

أصر باريتون على حضور الدروس، جميع الدروس التي كنت أعطيها لابنته. وعلى الرغم من عنايتي البالغة القلقة، فإن الصغيرة البائسة إيمي قلما كانت تفهم الإنكليزية ولا شيء منها على الإطلاق. لم تكن في الواقع، تحرص على معرفة ما كانت تعنيه كل تلك الكلمات الجديدة. كانت تتساءل أيضاً عما ينتقيه منها جميعاً بإصرارنا، نحن الطغاة، على هذا النحو، على أن تحفظ فعلاً تلك المعاني.. لم تكن تبكي. هذا صحيح.. كانت إيمي تفضل أن ندعها تتدبر أمرها بلطف، مع القليل جداً من اللغة الفرنسية التي كانت تعرفها، والتي كانت صعوباتها وسهولاتها كافية تماماً كي تشغل حياتها بكاملها.

غير أن والدها لم يكن يعيرها أذناً صاغية «ينبغي أن تصبحي فتاة حديثة يا صغيرتي إيمي! كان يحثها دون كلل أو ملل، في سبيل مواساتها.. أنا أتألم. أنا والدك، أتألم، من أنني لم أعرف ما يكفي من الإنكليزية كي أتدبر أمري كما يجب، مع المرضى الأجانب.. هيا، لا تبكي يا صغيرتي العزيزة... أصغي جيداً بالأحرى إلى السيد باردامو، إنه صبور جداً، ولطيف جداً، وحينما تتقنين بلسانك لفظ The، مثلما يلفظها لك فسأشتري لك... هذا وعد، دراجة جميلة.

ولكن إيمي لم تكن ترغب بأن تلفظ The ولا Enough، ولا أية كلمة على الإطلاق.. كان الأب هو الذي يلفظ بدلاً عنها The و enough. ومقاطع أخرى كثيرة أيضاً، على الرغم من لهجته، لهجة أهل بوردو، وهوسه بالمنطق الثقيل للغة الإنكليزية. وخلال شهر، شهرين على هذا الغرار، وكلما نما لدى الأب شغف بتعلم الإنكليزية كانت إيمي تنتهز الفرصة للابتعاد أكثر فأكثر عن التخبط بين الحروف والأصوات، حتى أن باريتون استحوذ علي كلياً، استأثر بي، ولم يعد يفلنتني، وراح يمتص كل إنكليزيتي.

لما كانت غرفتانا متجاورتين فقد كان بوسعي أن أسمع منذ الصباح

فيما هو يرتدي ثيابه، يحول حياته الشخصية من خلال اللغة الإنكليزية
The coffee is black.. My shirt is white.. The garden is green..

مال على نحو مبكر جداً إلى الأشكال الأكثر إضمارية في اللغة الإنكليزية.
today Bardamu? How are you كان يعوي عبر الحاجز بين غرفتي. لقد

مع هذا الانحراف في سير الدروس كان لابد لباريتون أن يقودني بعيداً
جداً.. فما أن لامس بعض الملامسة الأدب العظيم حتى بات من المستحيل أن
نتوقف.. وبعد ثمانية أشهر من التقدّم غير الطبيعي، كان قد توصل تقريباً إلى
أن يكون نفسه، على نحو كلي على الصعيد الأنكلو سكسوني، ونجح في
الوقت نفسه في أن يثير تفرزي كلياً، على نحو مضاعف أضعافاً.

شيئاً فشيئاً، انتهينا إلى أن نخلي سبيل الصغيرة إيمي تقريباً، خارج
محادثاتنا، فاستعادت سكينتها أكثر فأكثر، وعادت وادعة مطمئنة إلى غيومها
دون أن تتسحب.. لن تتعلم إيمي الإنكليزية، هذا هو الأمر.. كل شيء من
أجل باريتون..

عاد الشتاء، وحلت أعياد الميلاد. كانوا يعلنون في مكاتب السفر عن
تذاكر سفر إلى إنكلترا، ذهاباً وإياباً بأسعار مخفضة.. كنا نعبر الشوارع أنا
وبارابين ذاهبين إلى السينما، حين وقع نظري على تلك الإعلانات. دخلت
أحد المكاتب لأستعلم عن الأسعار،

ولما أن اجتمعنا حول الطاولة أقيت من جملة ما أقيت، كلمتين
لباريتون. لم يبد عليه في البداية، أنه أعار معلوماتي أي اهتمام. وترك الأمر
يمر دون أي تعليق، ظننت أنه قد نسي الأمر كلياً حينما ذكرني به ذات مساء،
ورجاني أن أعيد على مسامعه موضوع تلك الإعلانات.

بين جلساتنا الأدبية الإنكليزية كنا نلعب غالباً بالبلياردو الياباني وبلعبة «البوشون» في إحدى غرف المنزل وهي غرفة مجهزة بقضبان صلبة، تقع فوق مسكن الحاجة.

كان باريتون بارعاً في تلك الألعاب، وكان بارابين يتحداه عادة ويخسر أمامه دائماً، كنا نقضي في صالة الألعاب الصغيرة المرتجلة هذه أمسيات بكاملها، ولا سيما خلال الشتاء، حينما كانت الأمطار تنهمر، كي لا نلوث الصالة الكبيرة لمعلمنا. كنا في بعض الأحيان نضع مجنوناً تحت المراقبة داخل صالة اللعب ذاتها، ولكن ذلك كان نادراً. بينما كانا يتباريان بخفة، فوق غطاء المائدة أو على أرضية الغرفة «بلعبة البوشون»، كنت أتسلى، إن جاز لي التعبير عن حالتي التي أنا فيها، بمحاولة الشعور بأحاسيس سجين في زنزانته، كان هذا الإحساس ينقصني. وبشيء من الإرادة، أمكنني وأنا على تلك الحال، أن أتوصل إلى الإحساس على غرار السجين بصداقة الأشخاص النادرين الذين يعبرون الشوارع في محيط المشفى، وبعد أسابيع شعرت بحنين إلى الحركة الصغيرة التي يحدثها الترام وهو يعود بالموظفين من باريس رزماً وديعة. ولدى انعطافته الأولى بعد حانوت البقالة تنتهي هزيمتهم، وينسكبون، بكل هدوء في قلب الليل، لم يكن لدي إلا القليل من الوقت كي أعدهم. ولكن باريتون قليلاً ما كان يتركني أحلم كما أهوى، ففي وسط لعبة البوشون كان يبادرني فجأة بأسئلة غريبة.

«How do you say... مستحيل... باللغة الإنكليزية يا فرديناند؟...»

لم يكتف باريتون على الإطلاق، بتحقيق تقدم في الإنكليزية، كان يطمح، مع كل بلاهته إلى الكمال. كان يرفض الحديث عن مستوى متوسط أو عن تنازلات. ولحسن الحظ، فإن أزمة أمتّ به حررتني منه.. ذلك هو المهم.

كنا كلما تقدمنا في قراءة تاريخ إنكلترا، يفقد شيئاً من طمأنينته، ويفقد في النهاية أفضل ما يتمتع به من تفاؤل. ثم إننا لما عرضنا للشعراء الإليزابيتيين طرأت تبدلات روحية كبيرة داخل عقله، وفي أعماق شخصه. كنت أشعر في البداية، ببعض الصعوبة في إقناع نفسي، ولكنني كنت مضطراً في النهاية، مثل الجميع إلى قبوله مثلما كان قد غدا، مثيراً للرثاء، في الحقيقة. اهتمامه الشديد، والذي كان متمزماً فيما مضى، يعوم الآن، منجرفاً نحو ما هو أسطوري، انحطاط متواصل. وشيئاً فشيئاً صار يظل ساعات بكاملها داخل منزله بالذات، هناك، أمامنا، حالماً، نائياً... وعلى الرغم من أنه كان يثير تقززي حقاً وفعلاً، فقد أحسست مع ذلك ببعض تبيكيت الضمير لرؤيته يتفكك على هذا المنوال. كنت أعتقد بأنني أتحمل بعض المسؤولية عن هذا التدهور... لم يكن اضطرابه الروحي غريباً عني كلياً... وقد دفعني ذلك إلى أن أقترح عليه أن نوقف لبعض الوقت تدريباتنا الأدبية، بحجة أن فترة من الراحة والفراغ كانت ضرورية لنا، وفرصة لتجديد مصادرنا الوثائقية... لم يكن باريتون من الغفلة بحيث تتطلي عليه هذه الخدعة الغثة والمصطنعة، وواجهني على الفور برفض أكيد... بشيء من الرفق، ولكن بحزم كلي. كان ينوي أن يواصل معي دون توقف اكتشاف إنكلترا الروحية... مثلما كان قد تعهد.. لم يكن لدي ما أجيبه به... فخضعت. كان يخشى كذلك من أنه لم يعد لديه ما يكفي من العمر كي يبلغ مبتغاه.. كان ينبغي، في المحصلة، وعلى الرغم من أنني كنت أستشعر ما هو أسوأ، أن أتابع معه، كيفما اتفق هذه الرحلة الأكاديمية الموحشة.

والواقع أن باريتون لم يعد قط، في المحصلة، هو ذاته. كان كل ما حولنا، من أشخاص وأشياء، مما هو غريب غير مألوف، ومما هو أكثر

بلادة، يفقد أهميته، وحتى الألوان التي كنا قد عرفناها اتخذت عذوبة حاملة ومبهمة كلياً...

لم يعد باريتون يبدي سوى اهتمام عرضي، وفاتر أكثر فأكثر بالتفاصيل الإدارية داخل مشفاه، أما عمله الذي كان مشغولاً به طيلة أكثر من ثلاثين سنة فقد وقع كلياً على عاتق بارابين الذي تفرغ لترتيبات الخدمات الإدارية... تلك البلبلة المتنامية ليقيناته، والتي كان ما يزال يسعى إلى إخفائها بخجل عن الملأ، غدت الآن جلية لنا جميعاً، يصعب نكرانها

غوستاف مانامور، رجل البوليس الذي تعرفنا عليه في فينيه من أجل استخدامه أحياناً في الأعمال الحرجة في المشفى، والذي كان الكائن النافذ البصر الذي أتيح لي أن ألتقيه بين عدد آخر من الدائرة ذاتها. سألني ذات يوم في تلك الفترة، إذا ما كان المعلم يتلقى أحياناً أخباراً سيئة جداً.. طمأنته ما وسعني ذلك، ولكن دون أن أتوصل إلى إقناعه.

جميع تلك الأقاويل عن تغير أحواله لم تكن تثير اهتماماً لدى باريتون. كان مصمماً فقط أن لا يبدو مضطرباً وتحت أية حجة من الحجج، كنا في بداية دروسنا نتصفح بسرعة كبيرة، حسب رغبته، كتاب تاريخ إنكلترا من تأليف ماكولي، وهو مؤلف بالغ الأهمية، ستة عشر مجلداً. كنا نعاود، بناء على طلبه، تلك القراءة الفريدة، وضمن شروط معنوية مثيرة للقلق كلياً، مقطعاً. بعد مقطع.

صار باريتون يبدو لي مصاباً أكثر فأكثر على نحو خطير بعدوى التأمل. فحينما كنا نبلغ ذلك المقطع البالغ القسوة، والذي يهبط فيه مومنوث الطامع بالعرش فوق شيطان مجهولة في كنت... في اللحظة التي بدأت مغامرته تطوح في الفراغ... حين لم يعد مومنوث الطامح بالعرش، يعلم جيداً

ما الذي يطالب به... ما الذي يريد فعله. وما الذي كان قد فعله... وحين بدأ يقول لنفسه بأنه كان يريد فعلاً أن يذهب، ولكنه لم يعد يدري، إلى أين ولا كيف يذهب... حينما أحاقت به الهزيمة... وسط غبش الصباح... حينما ابتلع البحر آخر السفن... حينما بدأ مونموث التفكير للمرة الأولى... فإن باريتون لم يكن يبلغ أيضاً، فيما يخصه، وهو على ما هو عليه من تفاهة وانعدام شأن، إلى اتخاذ قراراته الخاصة... كان يقرأ ويعاود قراءة هذا المقطع، ويهمس به لنفسه مرة ثانية أيضاً... وحين يبلغ به الإرهاق كل مبلغ، كان يغلق الكتاب ويتمدد على مقربة منا.

مر زمن طويل وهو يستعيد المقطع بكامله في ذاكرته، وعيناه نصف مغلقتين.. بلهجته الإنكليزية التي كانت أفضل من جميع لهجات أهل بوردو التي أتيج إلي أن أسمعها، كان يستظهره لنا مرات ومرات.

في مغامرة مونموث حينما تتكشف السخرية المريرة لطفلية البشر البائسة ولطبيعتهم المأساوية أمام الأبدية كان باريتون بدوره يقع تحت رحمة دوار عنيف، ولما لم يعد يمكس بقدرنا اليومي إلا بخيط واهٍ فقد انتهى من الوجود.. ومنذ تلك اللحظة، يمكنني القول، لم يعد باريتون واحداً منا، لم يعد بوسعه ذلك..

في نهاية تلك الأمسية ذاتها. طلب مني اللحاق به في حجرة إدارته.. كنت أتوقع بالتأكيد، ونحن على ما نحن عليه أن يفضي إلي بقرار خطير، طردي فوراً على سبيل المثال... إيه حسناً! لا شيء من ذلك. فالقرار الذي اتخذته كان على العكس من ذلك، مؤاتياً جداً بالنسبة إلي. والواقع أنه نادراً ما كان يحدث لي أن أفاجأ بأقدار مؤاتية بحيث لا أستطيع أن أمنع نفسي من

ذرف بضع دمعات. كان باريتون يريد أن يعتبر هذه الشهادة عن انفعالي على أنها حزن ألم بي، وأراد هو بدوره أن يواسيني...

«هل سيخالجك الشك بكلامي يا فرديناند إذا ما أكدت لك بأنني قد احتجت إلى قدر أكبر وأسمى من الشجاعة كي أقرر مغادرة هذا المشفى؟... أنا الذي تعرف أنت عاداتي المتأصلة... أنا العجوز في المحصلة، والذي لم تكن مسيرة عمله كلها، سوى مراجعة طويلة، دؤوبة جداً ودقيقة جداً لمقدار من المكر الشرير البطيء والسريع.. كيف توصلت، خلال بضعة أشهر، وهل يمكن تصديق ذلك، إلى أن أتخلى عن كل شيء؟.. وها أنا ذا، جسداً وروحاً في حالة من الانفصال التام، ومن النبيل... يا فرديناند... هورا.. مثلما تقول بالإنكليزية.. لم يعد ماضيّ بالتأكيد، يعني لي أي شيء! سأولد من جديد يافرديناند بكل بساطة.. أنا أرحل! أوه، إن دموعك أيها الصديق الطيب لن يسعها أن تخفف من القرف العميق الذي أستشعره لكل ما يشدني إلى هذا المنزل طوال عدد كبير من السنين الخاوية من المعنى، هذا كثير جداً! حسبي يا فرديناند.. أنا راحل أقول لك! أنا أفر! أولي الأدبار! من المؤكد إنني أتمزق! أعلم ذلك! إنني أنزف! أرى ذلك! إيه حسناً يا فرديناند، ها أنذا أتخلى عن عالمي مجاناً، بلا ثمن، أي ثمن يا فرديناند! أنت لن تجعلني أعود على أعقابى! هل تسمعني؟ حتى لو تركت عيناً من عيني تسقط هنا في مكان ما وسط هذا الوحل. فلن اعود لألتقطها! إذن! هذا كل ما اقله لك، فهل ترتاب الآن بإخلاصي؟

لم أعد أرتاب بشيء على الإطلاق، كان باريتون قادراً بلا ريب، على فعل أي شيء.. وارتأيت فوق ذلك، بأنه كان من المحتم أن أعارض الموقف الذي وضع نفسه به، تركت له مهلة، ثم حاولت مع ذلك، قليلاً تنبيهه. عن

قراره. كنت أجازف في محاولة أخيرة كي أعيده إلينا... عبر حجج وذرائع مقابلة... أدليت بها برقة وتهذيب.

«دعك من هذا يا فرديناند، لا تأمل بأن تراني متراجعاً عن قراري. إنه قرار نهائي لا رجعة عنه أقول لك! سأكون سعيداً جداً إن لم تعد تحدثني عن ذلك... للمرة الأخيرة يا فرديناند، هل تريد أن تجعلني سعيداً؟ ففي مثل عمري تغدو النداءات الباطنية نادرة... أليس كذلك؟ ولكنها تستعصي على التعديل.

تكلم كانت أقواله بالضبط، أقواله الأخيرة تقريباً التي نطق بها «ربما، يا عزيزي السيد باريتون، تجرأتُ مع ذلك على مقاطعته، ربما كانت هذه الأنواع من العطلات المرتجلة التي تستعد للقيام بها لا تشكل بالضبط سوى حدث روائي إلى حد ما... تحول مؤات، استراحة طيبة، خلال مسيرة عملك الشاقة بالتأكيد! ولعلك بعد أن تجرب حياة أخرى... أحفل بالمتعة، وأقل منهجية، من تلك التي تعيشها هنا، لعلك ستعود إلينا بكل بساطة، سعيداً بسفرك، سئماً مما صادفت من أمور غير متوقعة؟ ستعود حينئذٍ، على نحو طبيعي جداً إلى موقعك على رأس عملنا... فخوراً بخبراتك الجديدة... متجديداً في المحصلة، متسامحاً كلياً من دون شك، ومتقبلاً حينذاك للرتابة اليومية في عملنا الروتيني.. شائخاً في النهاية... إذا سمحت لي مع ذلك بالتعبير على هذا النحو يا سيد باريتون؟

- أي إطراء هذا يا فرديناند! ها أنت قد وجدت الوسيلة إلى ملامسة غروري الذكري، الحساس المتطلب أيضاً... لا يا فرديناند! كل البراعة التي تظهرها لن يسعها، في أية لحظة من اللحظات أن تلتف كل ما ظل عدائياً ومؤملاً بنحو شنيع، في أعماق إرادتي. وفوق ذلك يا فرديناند، فإن زمن

التردد، والعودة إلى حيث كنت، قد ولى... أعترف لك يا فرديناند، وأصرح: أمام المأى بأنني خاوا! مخبول! مهزوم أمام أربعين عاماً من الحقرات. الحاذقة... هذا كثير جداً... ما أريد أن أجربه. هل ترغب في معرفته؟ يمكنني أن أبوح لك به. يا صديقي الأوفى. أنت الذي أردت فعلاً أن تحمل، بنزاهة وحب نصيباً من آلام عجز مدحور... أريد يا فرديناند أن أذهب لأضيع روعي مثلما يضيع كلبه الأجرى، كلبه العفن، بعيداً. رفيقك الذي يثير نفورك قبل أن يموت... أخيراً، وحيداً... مطمئناً..

- ولكن يا عزيزي السيد باريتون، إن هذا القنوط الشديد الذي كشفت لي فجأة عن دواعيه القاسية لم يكن قط بادياً لي، وهذا ما يدهشني، في أية لحظة من اللحظات التي كنت استمع إليك فيها. على العكس من ذلك تماماً، فما تزال ملاحظاتك اليومية تبدو لي اليوم حصيفة جداً... وجميع مبادراتك مرحة ومثمرة.. ومداخلتك الطبية حاذقة جداً ومنهجية.. عبثاً أبحث في مجرى نشاطاتك اليومية عن أدنى إشارة إلى الوهن أو الانهيار... ولكنني في الحقيقة لم ألحظ أي شيء من ذلك..»

غير أن باريتون للمرة الأولى منذ تعرفت عليه لم يكن يشعر بأية سعادة من الاستماع إلى مجاملاتي. وقد نهاني بلطف عن مواصلة إطرائه، والثناء عليه.

«لا، يا عزيزي فرديناند، أؤكد لك.. هذه الشهادات الخالصة عن صداقتك تلتف بالتأكيد، وعلى نحو غير متوقع اللحظات الأخيرة من وجودي هنا، غير أن كل عنايتك هذه لن يسعها أن تجعلني متسامحاً مع ذكرى ماض يرهقني ويضنيني، تسيل به هذه الأماكن.. والتي أريد بأي ثمن وضمن أي شروط أن أبتعد عنها.

- ولكن هذا المشفى أيضاً، يا سيد باريتون، ما الذي سنفعل به بعد الآن؟ هل فكرت بذلك؟

- نعم، بالتأكيد، فكرت به يا فرديناند، ستتولى أنت إدارته طوال فترة غيابي... وهذا كل شيء.. ألم تعقد دائماً علاقات حسنة مع المرضى.. إدارتك ستكون مقبولة.. وكل شيء سيسير على أحسن وجه. سترى ذلك، يا فرديناند. أما بارابين، فما دام أنه لا يطبق المحادثة والحوار، فسيهتم بالأمر الميكانيكية، بالأجهزة والمخابر... إنه يجيد ذلك! على هذا النحو ستتظم كافة الأمور..

الواقع أنه كان قد غدا شخصاً آخر يصعب التعرف عليه. «ولكن ألا تخشى البتة، يا سيد باريتون. من أن يثير رحيلك تعليقات مأكرة من قبل منافسينا في الجوار؟ من باسي على سبيل المثال؟ أو من مونترو؟.. أو من غارغان ليفري؟.. من كل من يحيطون بنا؟.. وعيونهم تراقبنا، من الزملاء المخادعين دون كلل.. أي معنى سيعطونه لاعتزالك النبيل والإرادي؟ كيف سيفسونه؟ هروب من الواجب؟ طيش؟ هزيمة؟ إفلاس؟ من يعلم؟...»

هذا الاحتمال جعله، من دون شك يفكر طويلاً وبعناء شديد، كان ما يزال مضطرباً، هناك. أمامي، شاحباً وهو يفكر بذلك...

إيمي، ابنته، مخلوقنا البريء، كانت ستعاني، في ذلك كله مصيراً قاسياً إلى حد كبير، لقد عهد برعايتها إلى عمّة من عماتها، لا أحد يعرفها في الحقيقة، في الريف. وهكذا فإن كافة الأمور الشخصية قد سويت ولم يبق لنا، لي ولبارابين إلا بأن نبذل جهودنا لإدارة جميع مصالحه وأمواله. لنُدع القارب إذن يجري دون قبطان.

كان بإمكانني أن أسمح لنفسي بعد هذه المسارات الحميمة، كما بدا لي، أن أسأل معلمنا عن الجهة التي ينوي الانطلاق إليها في مغامرته...

«إلى إنكلترا! يا فرديناند» أجابني دون أن يرف جفنه.

كل ما حدث لنا خلال زمن قصير جداً. بدا لي بالتأكيد عسيراً على التمثل والاستيعاب. ولكن كان جديراً بنا مع ذلك أن نتكيف مع هذا القدر الجديد دونما إبطاء..

في الغد ساعدناه، بارابين وأنا على إعداد متاعه. جواز السفر مع كافة الأوراق والتأشيرات أثارت دهشته قليلاً. لم يكن قد امتلك سابقاً جواز سفر... ترنح مرة أخيرة إزاء مسألة الياقات القاسية أو الطرية التي كان عليه أن يرتديها خلال الرحلة، وكم ياقة من كل نوع؟ ظلت هذه المعضلة بين أخذ ورد، حتى ساعة انطلاق القطار. قفزنا ثلاثتنا إلى الترام الأخير المتجه إلى باريس، لم يكن باريتون يحمل سوى حقيبة خفيفة، عازماً أن يظل في كل مكان يذهب إليه، وفي جميع الظروف، متحركاً بحرية، خفيفاً للغاية.

على الرصيف، أثار الارتفاع النبيل لدرجات سلم القطارات العالمية انفعاله. كان متردداً في تسلق تلك الدرجات المهيبة، استغرق في التأمل أمام الحافلة كما لو أنه أمام أحد الأوابد، ساعدناه بعض المساعدة، ما أن استقر في الدرجة الثانية حتى ألقى إلينا بملاحظته الأخيرة، ملاحظة مقارنة، وعملية وباسمة «ركاب الدرجة الأولى ليسوا أفضل».

مددنا له أيدينا، لقد حانت ساعة الرحيل، صفر القطار مؤذناً بالانطلاق، واهتز هيكله بقوة، مصدرراً قعقة كارثية، كان وداعنا جافاً دونما حرارة. إلى اللقاء، يا أولادي!» كان لديه الوقت ليقول لنا ذلك بعد أن انفصلت يده عن أيدينا المرفوعة.

كانت يده تتحرك هناك وسط الدخان، ممدودة في قلب الضجيج، في ظلمة الليل عبر القضبان، بعيدة أكثر، بيضاء.



« لم أشعر بأسف على رحيله، ولكن ذلك الرحيل خلق فراغاً مهيباً داخل المشفى.

الطريقة التي رحل بها جعلتنا بادئ بدء حزينين، على الرغم منا تقريباً، لم تكن طبيعية تلك الطريقة التي رحل بها. كنا نتساءل عما يمكن أن يحدث لنا بعد هذا الحدث.

غير أنه لم يكن لدينا الوقت لتتسع طويلاً، ولا لنشعر بالضجر أيضاً، فلم تكد تنقضي أيام معدودة بعد مرافقة باريتون إلى المحطة حتى أخبروني بأن ثمة من جاء يزورني في المكتب، لي أنا بوجه خاص، الأب بروتست.

أخبرته حينئذٍ بأخبار، وأخبار كثيرة... والطريقة الفريدة، بوجه خاص التي كان قد تركنا فيها باريتون جميعاً، كي يذهب ليتجول في بلاد الشمال. أبدى بروتست دهشة عظيمة حين أخبرته بذلك، وعندما فهم في النهاية، لم يكن يتبين في هذا التغيير سوى الفائدة التي كان يمكنني أن أجنيها من مثل هذا الوضع. «هذه الثقة من مديرك تبدو لي أرفع تعبير عن ترقيتك يا عزيزي الدكتور!» كان يثرثر بلا نهاية.

حاولت عبثاً تهدئته، وقد اجتاحتته الحميا. لم يعد يكف عن عبارات المجاملة، وعن التنبؤ لي بأعظم مستقبل. وبمسيرة طبية مزدهرة. مثلما كان يقول. لم يعد بوسعي مقاطعته.

بمزيد من العناء عدنا مع ذلك، إلى الأمور الجدية، إلى تلك المدينة تولوز بالتحديد، التي جاء هو منها، تركته بالطبع يروي لي بدوره، ما كان

يعرفه، وتظاهرت أنا كذلك بالدهشة، والذهول، حين أخبرني بالحادث الذي وقع للعجوز.

«كيف؟ كيف؟ قاطعته، هل ماتت؟.. ولكن متى حدث ذلك هيا؟»

استطرداً في الحديث كان عليه أن يبوح لي بما يعرفه.

دون أن يظهر لي قطعاً بأن روبنسون كان هو الذي دفع العجوز فوق درجها الصغير، لم يمنع نفسه مع ذلك من أن يطرح هذا الافتراض... لم يكن لديها الوقت لتقول أوف قبل أن تلفظ أنفاسها كما يبدو... هذا ما فهمته...

كان ذلك جميلاً، ومعداً بعناية... ففي المرة الثانية التي يكرر فيها روبنسون المحاولة، لم يخطئ العجوز.

كان روبنسون، لحسن الحظ، يُنظر إليه في الحي في تولوز على أنه أعمى كلياً. لذا فإنهم لن يعتبروا ما جرى أكثر من حادث، مأساوي بالتأكيد، ولكن من الممكن مع ذلك تأويله كذلك بعد إمعان النظر قليلاً في كل شيء، في الظروف، وفي عمر العجوز. وفي أن ما حدث كان في نهاية النهار. حين تكون العجوز متعبة... لم أحرص في تلك اللحظة على معرفة المزيد، كنت قد تلقيت ما يكفي ويزيد من الأسرار.

رغم ذلك، فقد لاقيت عنناً في تغيير دقة الحديث. فالأب بروتيست قد استحوذت عليه حكايته، كان يعود إليها أيضاً ودائماً، أملاً بلا ريب في أن يخترق أسواري، أن يعرضني للشبهة. كان الوقت ظهراً... كان يمكنه أن يسرع إلى غايته... ولكنه عدل عن ذلك، واكتفى بأن يحدثني عن روبنسون، وعن صحته، وعن عينيه... في هذا الصدد، كان روبنسون يتحسن باطراد... ولكن معنوياته هي التي كانت دائماً سيئة، معنوياته بوجه القطع. لم تكن تسير على ما

يرام، وهذا على الرغم من العناية، ومن الحنان الذي تغدقه عليه المرأتان باستمرار. ولكنه بالمقابل، لم يكن يكف عن الشكوى، من مصيره ومن حياته.

لم أتفاجأ لدى سماعي كل ما يقوله الخوري، فقد كنت أعرف روبنسون. وما كان يتمتع به من سوداوية وجود، ولكنني كنت أرتاب بالأب كثيراً جداً.. لم أكن أنبس بكلمة أثناء حديثه لي. لم يحصل إذن على أية فائدة مما بذله لي من أسرار.

«صديقك. يا دكتور، على الرغم من أنه يعيش الآن حياة رغدة، سهلة، وفضلاً عن ذلك احتمالات زواج سعيد بعد وقت قريب، خيب جميع آمالنا. ينبغي أن أعترف لك. ترى، ألم يعاوده ذلك الميل المشؤوم إلى الأعمال الطائشة، ذلك الميل الفاسد الذي تعهده أنت فيه في أوقات أخرى؟ ما الذي تراه أنت في هذه الحالات. يا عزيزي الدكتور؟»

لم يكن روبنسون يفكر هناك، إذا ما فهمت جيداً إلا بأن يترك كل شيء ويولي الفرار، كانت خطيبته وأمها مغتاظتين من ذلك في البداية، ثم بدأتا تشعران بحزن ثقيل لا حد له... ذلك ما جاء ليفضي به إلي الأب بروتيست. كل ذلك كان مكدراً بالتأكيد. قررت من جانبي بأن أصمت، ولا أتدخل، بأي ثمن، في الشؤون الصغيرة لتلك العائلة. محادثة مجهضة، غادرنا بعضنا أنا والأب عند باب الترام. ولدى عودتي إلى المشفى لم يكن ذهني هادئاً مطمئناً. بعد وقت قصير جداً من هذه الزيارة تلقينا من إنكلترا الأخبار الأولى من باريتون، بضع بطاقات بريدية، يتمنى لنا فيها جميعاً «صحة جيدة، وحظاً طيباً». كتب لنا أيضاً بضعة أسطر ضئيلة الأهمية.

علمنا أنه مر بالنرويج، وبعد بضعة أسابيع وصلتنا برقية يطمئننا فيها قليلاً «عبوراً سعيداً» إلى كوبنهاغن.

مثلما توقعنا فإن غياب المعلم أثار تعليقات خبيثة جداً في فنيه نفسها وفيما حولها. كان من الأفضل من أجل مستقبل المشفى بأن لا ننلج من الآن فصاعداً، حول أسباب هذا الغياب إلا بالحد الأدنى من التفسيرات، أمام مرضانا، مثلما أمام زملائنا في الجوار.

مرت شهور أيضاً، شهور من الحذر الشديد، كدرة، صامتة، انتهينا إلى أن نتحاشى كلياً استعادة ذكرى باريتون ذاتها فيما بيننا. كانت ذكراه، بالإضافة إلى ذلك، تثير فينا جميعاً شيئاً من الخجل.

ثم عاد الصيف، لم يكن بإمكاننا أن نظل طوال الوقت في الحديقة لمراقبة المرضى. ولكي نثبت لأنفسنا بأننا كنا، على الرغم من كل شيء أحراراً إلى حد ما، كنا نغامر في الذهاب إلى ضفة السين. مسألة خروج من فوقعتنا.

بعد ردم الضفة الأخرى يبدأ سهل جانفييه. امتداد بهي جداً، رمادي وأبيض، حيث المداخن ترسم بلطف وسط الغبار والضباب، وقريباً جداً من مرسى السفن تقوم حانة البحارة، تحرس مدخل القناة، فيما يندفع التيار الأصفر نحو هويس القناة.

كنا نرنو بأبصارنا إلى ذلك المشهد من على طول ساعات. وغير بعيد عن ذلك يمتد نوع من مستنقع كبير أيضاً تصل رائحته المتكئة حتى طريق السيارات. اعتاد عليها الجميع. لم يعد لهذا الوحل أي لون، لفرط ما شاخ وتعب بسبب الفيضانات، كان يبدو أحياناً في أمسيات الصيف لطيف المنظر، حينما

كانت السماء الوردية تتحول إلى مشاعر رقيقة. كنا نذهب هناك إلى الجسر، لنستمع إلى ألحان الأوكورديونات الصادرة من القوارب، فيما هي تنتظر أمام البوابة، حين ينتهي الليل إلى المرور فوق النهر، ولا سيما تلك القوارب القادمة من بلجيكا والتي ترتدي لوناً يذهب من الأخضر إلى الأصفر، تجف فوق سطحها ثياب داخلية نسائية مغسولة مزدانة بالخيوط، تلعب بها الريح وتتفخها من الداخل مع كل هبة.

كنت أذهب غالباً، إلى حانة البحارة. وحيداً في الساعة الميته التي تعقب الغداء. حينما تكون هرة المعلم ترقد وادعة بين جدران أربعة، كما لو أنها سجينه داخل سماء صغيرة من الطلاء الخزفي الأزرق، لها وحدها فقط.

هناك، كنت أنا أيضاً، أهوم في النعاس، في بداية ما بعد الظهر؟ أنتظر، مهجوراً تماماً، أن تمضي تلك الساعات من النهار.

رأيت ذات يوم شخصاً مقبلاً من بعيد، كان يصعد الطريق، استبنت بي الحيرة طويلاً لدى النظر إليه، وما كاد يصل الجسر حتى عرفته، لقد كان روبنسوني ذاته. ما من خطأ محتمل! «جاء إلى هنا لبحث عني! قلت لنفسني على الفور. لا بد أن الخوري قد أعطاه عنواني!... ينبغي أن أتخلص منه سريعاً».

كنت أجد من الفظاعة أن يزعجني أحد في تلك اللحظة التي بدأت أرمم فيها أناي الصغير، كنت أرتاب بما تأتيني به الدروب وقد صدق ظني. ها هو روبنسون إذن، قد وصل قريباً جداً من الحانة. وحين خرجت إليه بدا عليه أنه تفاجأ برويتي. «من أين أتيت أيضاً، سألته هكذا بخشونة- من الغارين... أجنبي

- حسناً، هذا جيد، هل أكلت؟ سألته. لم يكن يبدو عليه بالمرّة أنه قد أكل، ولكنه لم يكن يريد أن يبدو عليه الإنهاك من الجوع لدى وصوله. «ها أنت ذا ما تزال تتجول إذن؟» أضفت، لأنني لم أستطع أن أقول له الآن، بأنني كنت غير مسرور على الإطلاق برؤيته ثانية. والواقع أنه كان قد كدرني إلى أبعد حد.

وصل بارابين أيضاً من ناحية القناة كي يلقاني. كان مجيئه في الوقت المناسب. كان بارابين متعباً لكونه أمضى وقتاً طويلاً في الحراسة داخل المشفى. والحق أنني كنت أتصرف على هواي فيما يخص الخدمة في المشفى. في البداية، وفيما يتعلق بالوضع كنا سنفعل أي شيء أنا وبارابين كي نعرف بالضبط متى سيعود باريتون. كنا نأمل بأنه سينتهي عما قريب من تجواله كي يعاود تجارته، ويهتم بها بنفسه. كان ذلك أكثر مما نتحمل. لم يكن لدينا أي طموح، لا أنا ولا بارابين، ولم تكن نبالي باحتمالات المستقبل، كان خطأ منا، مع ذلك.

ينبغي التعامل بإنصاف مع بارابين، ذلك أنه لم يطرح قط أي سؤال حول الوكالة التجارية للمشفى، ولا حول الطريقة التي أتصرف فيها مع الزبائن، كنت أخبره فقط، مع ذلك، رغماً عنه في الحقيقة. كنت أتصرف، إذن، وحدي. أما بصدد حالة روبنسون فقد كان من المهم أن أطلع عليه.

«حدثتك سابقاً عن روبنسون، أليس كذلك؟ سألته على نحو تمهيدي.

أنت تعرف جيداً صديقي في الحرب؟ هل تذكرته؟»

كان قد استمع إليّ بالطبع مئة مرة عن قصص الحرب، وعن حكايات

إفريقيا أيضاً، ومئة مرة بطريقة مختلفة. كانت تلك طريقتي.

«إيه حسناً، تابعت كلامي.. ها هو روبنسون الآن، جاء بعظمه ولحمه من تولوز كي يزورنا... سنتغذى سوياً في المشفى.» والواقع أنني حين تحدثت على هذا النحو باسم المشفى. شعرت ببعض الكدر. ذلك نوع من إذاعة الإسرار كنت قد ارتكبتها، كان علي مراعاة للظرف أن أملك سلطة مرنة، لطيفة، تجعلني غير مرئي تماماً. ثم إن روبنسون نفسه لم يسهل علي الأمور، فعلى الطريق الذي كان يقودنا إلى البلدة، كان يبدو فضولياً جداً، وقلقاً، ولا سيما حول موضوع بارابين الذي كان وجهه المتطاول والشاحب بالقرب منا يشغل باله. لقد اعتقد في البداية بأن بارابين كان أحد المجانين، ومنذ أن عرف أين كنا نقيم في فينيه صار يرى مجانين في كل مكان. وقد طمأنته وهدأت مخاوفه.

- وأنت سألته، هل عثرت، على الأقل، على عمل ما منذ أن عدت إلى

هنا؟

- سأبحث عن عمل.. اكتفى بهذا القدر في رده علي

- وعينك، هل شفيتا تماماً؟ هل ترى جيداً بهما الآن.

- نعم، أنا أرى بهما مثلما في السابق...

- إذن هل أنت مسرور؟ قلت له.

لا، لم يكن مسروراً، كان عليه أن يفعل أي شيء آخر سوى أن يكون

مسروراً. تجنبت التحدث إليه عن ماديلون حالياً. كان ذلك موضوعاً حساساً

جداً بيننا. قضينا وقتاً طويلاً أمام طاولة الشراب، وانتهزت الفرصة كي أطلعته

على كثير من الأشياء في المشفى، وعلى تفاصيل أخرى أيضاً. لم أستطع أن

أمنع نفسي من الثرثرة خبط عشواء، لست مختلفاً كثيراً في المحصلة عن

باريتون. انتهى العشاء، بجو من المودة، وبعد العشاء، لم أستطع مع ذلك، إعادة روبنسون، في الحال التي هو فيها، إلى الشارع، قررت على الفور أن أهيئ له في صالة الطعام سريراً صغيراً بانتظار الغد، لم يبد بارابين أي رأي على الإطلاق «حسناً يا ليون! قلت له. هذا مكان تبيت فيه، ما دمت لم تجد بعد مكاناً تأوي إليه...

- شكراً رد علي ببساطة، ومنذ تلك اللحظة، كان يذهب كل صباح عبر الترام إلى باريس زاعماً أنه يبحث عن وظيفة وكيل تجاري.

كان قد لاقى الأمرين في المعمل، كما كان يقول، وهو يود أن يعمل «وكيلاً تجارياً». لعله كان يواجه صعوبة في العثور على تمثيل من هذا النوع. ينبغي أن يكون المرء منصفاً، ولكنه لم يعثر على الإطلاق على أي عمل من أي نوع.

ذات مساء عاد من باريس أبكر من المعتاد. كنت ما أزال في الحديقة أراقب حواف الحوض الكبير. جاء إلي ليقول لي كلمتين.

«اصغ إلي! بدأ كلامه.

- أنا أصغي إليك. أجبته.

- ألا يمكنك أن تدبر لي وظيفة هنا، بالذات. لم أجد أي شيء في أي

مكان آخر.

- هل بحثت جيداً؟

- أجل بحثت جيداً.

- تريد وظيفة في الملجأ؟ ولكن ماذا ستعمل هنا؟ ألم تجد إذن عملاً

صغيراً في باريس؟ هل تريد أن يسعى من أجلك بارابين لدى أشخاص يعرفهم كي يؤمنوا لك عملاً.

كان ذلك مزعجاً له، حين اقترحت عليه التوسط لإيجاد عمل.

- «ليس الأمر أنني لم أجد عملاً. تابع حينئذٍ. ربما سأجد... عملاً صغيراً.. حسناً، ولكنك ستفهمني.. ينبغي حتماً بأن أظهار بأنني مريض عقلياً... من الملح، ومن الضروري أن أبدو مختلفاً عقلياً.

- حسن. قلت له حينئذٍ، لا تنفوه أمامي بالمزيد عن ذلك.

- بلى، بلى، يا فرديناند، على العكس، ينبغي أن أقول لك المزيد عن ذلك، كان مصرأً. أنت تفهمني جيداً... ولكنك كما أعرفك منذ البداية، بحاجة إلى وقت طويل كي تفهم وكي تقرر...

- هيا إذن، قلت له. مستسلماً، تحدث..

- إن لم أظهار بأنني مجنون، فسوف تسوء أحوالي، أراهنك على ذلك... ستتأزم أموري.. إنها قادرة على إيداعي في السجن.. أنت تفهمني الآن..

- تقصد مادلين أليس كذلك؟

- نعم بالتأكيد، إنها هي!

- هذا لطيف!

- يمكنك أن تقول ذلك..

- أنتما متخاصمان كلياً الآن؟

- كما ترى..

- تعال من هنا، إذا كنت تود أن أقدم لي تفاصيل! قاطعته حينئذٍ، ثم انتحيت به جانباً. كان لابد من الاحتراس أكثر بسبب المجانين.. إذ يمكنهم أن يفهموا أيضاً أموراً، وأن يغطوا بها على نحو مضخم أيضاً...»

صعدنا إلى إحدى غرف المعزل، ولما خلونا فيها لم يستغرق روبنسون وقتاً طويلاً ليعيد أمامي تمثيل خطته المدبرة، للقضاء على العجوز لاسيما أنني كنت متثبّتا من قدراته، وكان الأب بروتيست قد تركني أفترض ما تبقى. في المحاولة الثانية لم يخطئ روبنسون العجوز. لم يعد من الممكن القول بأنه ارتبك أيضاً مرة أخرى. لا، على الإطلاق، ذلك مؤكد.

- أنت تفهم، صارت العجوز تضايقني أكثر فأكثر... وعلى الأخص منذ اللحظة التي بدأت تتحسن فيها حالة عيني، أي حينما بدأت أستطيع السير وحدي في الشارع... رأيت الأشياء من جديد بدءاً من تلك اللحظة.. ورأيت العجوز ثانية أيضاً.. صرت أرى على نحو أفضل منها. كانت هناك أمامي طوال الوقت! كما لو كانت تسد طريق حياتي... كنت أعتقد بأنها كانت تفعل ذلك عن عمد، بأن تكون هناك... لا شيء إلا لكي تسم حياتي... لا يمكن تفسير ذلك على نحو آخر! وفي المنزل الذي كنا فيه جميعاً، أنت تعرف المنزل جيداً، لم يكن من السهل أن لا نتشاجر. لقد رأيت أنت كم كان صغيراً!

- ودرجات المدفن، لم تكن متماسكة، أليس كذلك؟»

كنت قد لاحظت بنفسني كم كان الدرج خطراً، حينما قمت بزيارتي لأول مرة، برفقة ماديلون، فقد كانت الدرجات تهتز تحت أقدامنا وتتداعى. «نعم، بالنسبة إلى الدرج كان متداعياً كلياً تقريباً». وافقني، بكل صراحة.

- والأشخاص الذين كانوا هناك؟ سألته أيضاً، الجيران، الخوارنة، الصحفيون... ألم يدلوا بملاحظات صغيرة، حينما حدث ذلك؟.

- لا، صدقتي.. ومن ثم.. لم يكونوا يعتقدون بأنني أنا الجاني... كانوا يعتبرونني جباناً رعيدياً، أعمى.. هل تفهم؟.

- أخيراً، أنت تعتبر نفسك سعيداً إذن، لأن الأمور لم تجر خلاف ذلك؟.. وماديلون؟ ما الذي فعلته في هذه الخدعة. هل شاركت فيها أيضاً.
- لا على الإطلاق، ولكن رغباً عنها مع ذلك ودون أن تدري. ما دام أنه كان علينا، كما تعلم، أن نعود إلى المدفن كلانا نحن الاثنين، بعد أن تخرج منه العجوز، على هذا النحو رتبت الخطة. كان علينا أن نكون في داخله كلانا أنا وماديلون.

- لماذا إذن بعد ذلك تعثرت علاقة حبكما؟

- هذا الأمر، أنت تعلم، من الصعب جداً شرحه..

- ألم تعد تريدك؟

- ولكن بلى، على العكس. إنها تريدني فعلاً، حتى أنها ظلت مصرة بقوة على موضوع الزواج.. أمها أيضاً كانت تريد ذلك وأكثر من السابق، تريد أن يتم الزواج بسرعة، بسبب أن مومياءات الأم هنروي قد آلت إلينا، وصار لدينا ما يكفل لنا العيش ثلاثتنا جميعاً باطمئنان منذ الآن .

- ما الذي حدث بينكما إذن؟

- إيه حسناً، أريد منهما أن تتركانني كي أذهب بسلام... الأم وابنتها..

- اسمع يا ليون! أوقفته فوراً لدى سماعي منه تلك الكلمات.. اصغ إلي... أظالمك هذه لا يمكن أخذها مأخذ الجد أيضاً. ضع نفسك مكان ماديلون وأمها، هل ستكون مسروراً لو كنت في مكانهما؟ كيف؟ حينما وصلت إلى هناك لم يكن في قدميك حذاء، كان وضعك مهلهلاً للغاية، ولم تكن تكف عن الدممة والاحتجاج طوال النهارات بأن العجوز تسرق نقودك، وكذا وكذا... ثم اختفت العجوز، أنت أخفيتها بالأحرى.. وبدأت من جديد

تبدى الاستياء مرة أخرى، وتقطب وجهك. ضع نفسك مكان هاتين المرأتين.
ضع نفسك ولو قليلاً! هذا لا يطاق! لقد كنت تستحق مئة مرة أن تركلاك. أود
كثيراً أن أقول لك ذلك!»

هذا ماقلته لروبنسون في تلك اللحظة.

«هذا ممكن، أجبني حينئذٍ سريعاً، ولكن من العبث كونك طبيياً، ومتقفاً
وكل شيء، فأنت لا تفهم طبيعتي...»

- اصمت يا ليون، قلت في النهاية، اصمت أيها التعس الصغير، أنت
وطبيعتك. أنت تتحدث عن نفسك كمريض! من المؤسف أن باريتون قد رحل
الآن إلى أربع جهات الأرض، وإلا لكان عالجك مما أنت فيه، سيكون ذلك
أفضل ما يمكن عمله من أجلك. بأن يتم عزلك في البداية! هل تسمعني! أن
تعزل، وسيهتم باريتون حينئذٍ بطبيعتك.

- لو كنت تحمل في داخلك ما أحمل، لو كنت مررت أنت بما مررت به،
عاند روبنسون وهو يسمعني، لكنت أنت مريضاً من دون شك! أراهنك على ذلك،
بل وربما أسوأ مني أيضاً، خائراً مثلما أعرفك!..»

بدأ روبنسون الآن يهاجمني بشدة كما لو كان يملك الحق بذلك.

كنت أنظر إليه وهو يكيل لي اللوم والتوبيخ. كنت معتاداً على سوء
المعاملة من قبل المرضى. لم يعد يضايقني ذلك. كان قد هزل هزلاً شديداً
منذ وصوله إلى تولوز. ثمة شيء ما لم أكن أعرفه بعد كان قد علا وجهه،
حتى ليبدو كما لو أن ثمة صورة فوق ملامحه، يحيط بها النسيان والصمت.
في حكايات تولوز كان ما يزال ثمة شيء آخر، أقل خطورة لم يستطع
أن يهضمه أو يتمثله، ولكنه حين كان يتذكره، يعاوده مع ذلك سخط شديد.

ذلك أنه كان مضطراً إلى رشوة جميع المتاجرين من حوله دون أي فائدة. حين استعاد المدفن، لم يكن مقتنعاً بأن عليه أن يقدم عمولات، ذات اليمين، وذات اليسار، للخوري، ولمؤجرة الكراسي، ودار العمدة، وللكاهن ولأشخاص آخرين أيضاً، وكل هذا دون نتيجة في المحصلة. كان ذلك يبلبله حين يعود إلى الحديث عنه. كان يسمي هذه الأساليب بالسرقة.

«وإذن، هل تزوجتما في نهاية المطاف؟ سألته كي أستخلص منه شيئاً.

- ولكن لا، أقول لك، لم أعد أريد ذلك.

- ولكنها ليست سيئة مع ذلك، الصغيرة ماديلون؟ يمكنك أن تقول

العكس؟

- ليست هذه هي المسألة..

- ولكن بلى بالتأكيد، تلك هي المسألة، ما دمتما حران مثلما قلت لي...

وإذا ما رغبتما بمغادرة تولوز، يمكنكما فعلاً أن تتركا القبو بعهدة أمها، خلال زمن، ثم تعودان فيما بعد..

- بصدد بنية جسدها يمكنك قول ذلك، استأنف روبنسون، إنها فعلاً

لطيفة، أوافق على ذلك، ولكن تخيل أنه حينما ارتد إلي بصري للمرة الأولى،

كما لو أن ذلك حدث عن عمد، كانت هي أول من وقع عليه نظري.. هل

تتخيل.. في غمرة الضوء! ولم يمض شهران تقريباً حتى سقطت العجوز

ميتة، لقد عاد إلي نظري فجأة ليقع أول ما يقع على ماديلون، وفيما كنت

أحاول رؤية وجهها. لمع شعاع ضوء في المحصلة. هل تفهمني؟

- لم تكن مقبولة؟

- بلى كانت مقبولة، ولكن ليس هذا ما أعنيه.

- وقد وليت الفرار مع ذلك...

- نعم.. ولكنني أريد أن اشرح لك ما دمت تريد أن تفهم، لقد كانت هي التي توددت إلي في البداية، إذ وجدتني مسلياً.. وأتمتع بحيوية جمّة... وأنني محبب جداً.. مظاهر خادعة.. بهرجات...

- ربما كان الندم هو الذي كان يقلقك.

- الندم؟

- لا أدري أنا.

- سمه ما شئت، ولكن لم أكن على ما يرام. هذا كل شيء. أعتقد على كل حال، بأن ذلك لم يكن نمواً.

- كنت مريضاً إذن؟

- ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو، بالأحرى. مريض.. نعم مريض، منذ ساعة على الأقل وأنا أحاول أن أجعلك تقول بأنني مريض...

- حسناً! هذا جيد، سأقول بأنك مريض، ما دمت تعتقد بأن ذلك هو الأسلم.

- ستفعل حسناً، كان ما يزال يلح، لأنني لا أضمن أي شيء من جانبها... إنها قادرة فعلاً أن تبوح بكل شيء قبل أن يمر وقت طويل.

كان ذلك أشبه بنوع من نصيحة يقدمها لي، كما يبدو. لم أكن أريد نصيحتة، لم أكن أريد قط هذا النوع من النصائح بسبب التعقيدات التي كانت ستجرها من جديد.

- هل تعتقد أنت بأنها ستعترف؟ سألته أيضاً كي أتأكد... ولكنها كانت تبدو في نهاية المطاف متواطئة بعض التواطؤ؟ وهذا سيجعلها تفكر لحظة قبل أن تبدأ بإسالة لعبها.

- تفكر؟ قفز من مكانه حينئذٍ وهو يستمع إلي. يبدو بوضوح بأنك لا تعرفها... «جعله ذلك يمزح وهو يستمع إلي». ولكنها لن تتردد لحظة واحدة!.. مثلما أقول لك. لو كنت قد خالطتها مثلي فلن ترتاب بذلك! إنها عاشقة مولهه، أكرر لك، أنت لم تخالط إذن عشاقاً على الإطلاق؟ فحينما تكون المرأة مولهه، تكون مجنونة، هذا بسيط كل البساطة! مجنونة! وهي مولهه بي ومجنونة بي... هل تدرك ذلك، الأمر بسيط جداً! لن يوقفها هذا عند حد! على العكس... لم يكن بوسعي أن أقول بأن ما يفوه به كان يدهشني مع ذلك بعض الدهشة، بأن ماديلون وصلت خلال بضعة شهور إلى هذه الدرجة من الوله المجنون، ذلك لأنني كنت مع ذلك أعرفها معرفة يسيرة جداً... كان لدي فكرة بشأنها، ولكنني غير قادر على قولها.

بحسب الطريقة التي كانت تتدبر فيها أمورها في تولوز، ومثلما سمعتها حين كنت خلف أشجار الحور يوم القارب، كان من الصعب أن أتصور بأنها استطاعت أن تغير سلوكها إلى هذا الحد خلال وقت يسير... كانت تبدو لي على جانب من الشطارة، أكثر مما هي مأساوية. متحلبة بلطف ومكتفية بأن تتزوج، مع بعض قصص صغيرة، وشيء من التصنع والخداع، ما أمكنها ذلك، غير أنه في اللحظة التي كنا نتحدث فيها، لم يكن لدي ما أقوله. لم يكن علي إلا أن أدع الأمور تجري في أعنتها «طيب! حسناً! هذا مفهوم!، قلت مستخلصاً، وأنها إذن؟ لا بد من أن تثير بعض الضجة أيضاً، حينما تدرك بأنك قد وليت منهم فراراً.

- صدقت، لقد كانت تكرر أيضاً طوال النهار بأن لدي طباع خنزير، لاحظ ذلك. في تلك اللحظة التي كنت فيها بحاجة إلى أن يكلمني أحد بلطف..

أية موسيقا! لم يعد من الممكن في المحصلة أن يستمر وجودي مع الأم أيضاً، بحيث أنني عرضت على ماديلون أن أترك القبو لهما وحدهما، بينما أقوم أنا في المقابل، بجولة، برحلة وحدي، لأرى بعض نواحي البلاد..

«ستذهب معي، اعترضت حينئذٍ... أنا خطيبتك، أليس كذلك؟ ستذهب معي يا ليون... أو لن تذهب أبداً!... كانت تلح منذ البداية. أنت لم تتعاف بعد بما فيه الكفاية...»

- بلى، لقد تعافيت، وسأذهب وحدي! كنت أجيبها... ثم لم تنته من ذلك أبداً.

«ما من امرأة إلا وترافق زوجها! كانت الأم تقول لي.. ليس أمامكما إلا أن تتزوجا» كانت تؤيد ابنتها كي تستثيرني.

«لدى سماعي هذه المماحكات كنت أعاني الأمرين. أنت تعرفني! كأنني كنت في حاجة إلى امرأة للذهاب إلى الحرب، أو للخروج من الحرب... وفي أفريقيا هل كان لدي نساء؟ وفي أمريكا، هل كان لدي امرأة؟ ومع ذلك، فحين كنت أسمعها يتحدثان على هذا المنوال في الموضوع ذاته، طوال ساعات كان يجتاحني ألم شديد، ينشب في بطني! المغص! أنا أعلم لأي شيء تصلح النساء في المحصلة! وأنت أيضاً، أليس كذلك؟ لا شيء على الإطلاق. وفي ذات مساء كانت الأم وابنتها قد أفقدتاني صبري بذلك الخليط المشوش من الأضاليل، وحينئذٍ قنفت في وجه الأم رشقة من الشتائم تحمل كل ما كان يخطر لي من أفكار عنها «هست أنت سوى عجوز بلهاء، قلت لها... أنت أيضاً أكثر غباء من الأم هنروي... لو كنتِ عرفتِ عدداً قليلاً من الأشخاص والبلدان الذين عرفتهم أنا لما انبريت سريعاً إلى إسداء النصائح ذات اليمين وذات الشمال. هل تحسبين أنك

بالتقاطك فضلات الشحم في زوايا كنيستك المقززة، في الليل والنهار، ستفهمين الحياة، اخرجي إذن قليلاً، أنت أيضاً، فهذا سيفيدك! اذهبي إذن وتجولي قليلاً أيتها العجوز القذرة، سينعشك ذلك، سيكون لديك القليل من الوقت لتتلي صلواتك، وستخف ننانة رائحتك أيتها البقرة!...»

«على هذا الغرار عاملتُ الأم، أؤكد لك بأنني ومنذ زمن طويل قد تعبت من شتمها، وأنها كانت، بكل قذارة في حاجة إلى ذلك الشتم، على الأكثر... بالإضافة إلى أن ذلك كان، بالأحرى، يريحني كلياً... كما لو أنه يحررني مما كنت أعانيه. وبدا لي أن تلك الجنة الفتنة لم تكن تنتظر سوى هذه اللحظة التي كشفت فيها عن شعوري تجاهها، كي تنقض علي، بدورها بكل النعوت القذرة التي تعرفها، سألت بها مع لعبها حينئذٍ، وحتى أكثر مما كان يلزم منها، لقد أوسعتني قذفاً وشتماً... «لص! تنبل! نذل! فاجر! ليس لديك حتى مهنة، ستتقضي سنة عما قريب وأنا أطعمك، أنا وابنتي! أنت لاتصلح لشيء! قواد!...» هل تسمع ذلك؟!.. مشاحنات عائلية حقيقية... ثم كأنما قد فكرت لحظة، وقالت بصوت خفيض أولاً، ثم صاحت من أعماق قلبها «قاتل... قاتل» فنتلجت أطرافي قليلاً بسبب ذلك.

«حين سمعت البنيت ذلك داخلها الخوف من أن أنقض على أمها فألقت بنفسها بيننا، وأغلقت فم أمها بيدها، وقد فعلت خيراً. كانتا إذن على اتفاق في الرأي فيما بينهما، الجثنان العفنتان كلتاهما، قلت هذا لنفسي، كان ذلك جلياً، وأخيراً خرجت لا ألوي على شيء. لم تكن تلك اللحظة لحظة عنف، ثم لم أكن أبالي على أي حال باتفاقهما في الرأي... هل يمكنك الاعتقاد بأنهما بعد أن تهدأ ثائرتهما ستتركانني هادئاً؟ أنت تتصور ذلك! ولكن لا، هذا يعني أنك

لا تعرفهما... لقد أرجأت الفتاة ذلك، ولكن ناراً كانت تشتعل في قلبها ومن ثم في إستها... وقد عاودتها النار من جديد.

«أنا أحبك يا ليون، أنت ترى جيداً بأنني أحبك، يا ليون...» «لم تكن تعرف سوى هذه العبارة.. أنا أحبك» كما لو أنها كانت جواباً شافياً على كل شيء.

«أما تزالين تحبينه؟ تجيب أمها، حين تسمعها، ولكن ألا تترين إذن بأنه ليس أكثر من سوقي داعر؟ أتفه من أي شيء، الآن وقد استرد نظره بفضلنا، سيسبب لك التعاسة يا ابنتي. أقسم لك على ذلك، أنا أمك..» بكى الجميع في نهاية هذه المشاحنة، وحتى أنا، لأنني لم أكن راغباً في المزيد من الخصام مع هاتين البغيتين وفي إزعاج نفسي أكثر مما ينبغي رغم كل شيء... خرجت إذن، ولكن نفسي حدثتني بأن من الخير لي أن تدوم هذه الخصومة زمناً طويلاً. وقد جرت ذبولها أسابيع حافلة بالشجار، لسبب أو لآخر، كنا نترصد بعضنا بعضاً طوال أيام، وليال على الأخص.

«لم يكن بوسعنا اتخاذ قرار بالانفصال عن بعضنا بعضاً، ولكن القلب لم يعد صاقياً، كان ما يزال هناك على الأخص، مخاوف تشدنا إلى بعضنا معاً.

«أنت تحب إذن امرأة أخرى؟ كانت ماديلون تسألني من وقت إلى آخر. «ولكن لا، بالتأكيد.. كنت أحاول طمأننتها ولكن لا.. كان من الواضح أنها لا تصدقني، ففي رأيها، أن المرء لابد له أن يحب شخصاً ما في حياته، وأن عليه أن يستمر على حبه إلى الأبد.

«قولي لي، كنت أحببها، ما الذي يمكنني أن أفعله بامرأة أخرى؟ ولكنها كانت مهووسة بالحب، ما عدت أعرف ما الذي أقوله لها كي أهدئها. كانت

تبحث عن عبارات ما سمعت بها قط في السابق.. لم أكن أعتقد أبداً أنها تخفي في رأسها مثل هذه الأشياء.

«لقد حطمت قلبي، يا ليون، كانت تتهمني، جادة كل الجد، تريد أن ترحل، كانت تهددني، ارحل! ولكنني أحذرك بأني سأموت من الحزن، يا ليون!..» سأكون أنا سبب موتها؟ ما الذي يعنيه كل ذلك، قل لي، أنا أسألك! «ولكنك لن تموتي أبداً! كنت أؤكد لها. أنا لم آخذ منك شيئاً على الإطلاق، كما أننا لم ننجب أطفالاً، هيا! فكري! هل نقلت إليك عدوى أي مرض؟ لا؟ إذن؟ أريد فقط أن أذهب، وهذا كل شيء! كمن يذهب في عطلة. هذا بسيط مع ذلك.. حاولي أن تكوني عاقلة..» وكلما حاولت أكثر أن أجعلها تفهم وجهة نظري، كلما كان اقتناعها أقل، وفي نهاية المطاف لم تعد تفهم على الإطلاق، كانت تغدو ساخطة لفكرة أن بإمكانني أن أفخذ فعلاً ما كنت أقوله. وأن نيتي في الذهاب كانت حقيقية وبسيطة ومخلصة.

«كانت تعتقد بالإضافة إلى ذلك بأنك أنت من يدفعني إلى الفرار منها... من الواضح أنها حين لم تقلح في استبقائي من خلال اتهام مشاعري والتشكيك بها، حاولت أن تمسكني بطريقة أخرى.

«لا تعتقد يا ليون، قالت لي حينئذٍ، بأني أتمسك بك من أجل أعمال المدفن... فالنقود عندي سيان في الواقع، كما تعلم.. ما أريده يا ليون، هو أن أبقى معك.. أن أكون سعيدة.. هذا كل شيء... ذلك أمر طبيعي... لا أريد أن تتركني... من غير المقبول أن يتفارق اثنان بعد أن أحبا بعضهما مثلما كنا نحب بعضنا... أقسم لي على الأقل بأنك لن تغيب وقتاً طويلاً..»

«وعلى هذا النحو، بعد ذلك، استمرت أزمته أسابيع. يمكن القول بأنها كانت مدلهة ومضجرة للغاية... كانت تعود كل مساء إلى لوثة حبها، لم تكن تمنع، على كل حال، في أن نترك المدفن معاً في حراسة أمها، بشرط أن نتمكن كلانا من العثور على عمل في باريس.. دائماً معاً... كأننا نشكل رقماً واحداً! كانت تريد أن تفهم أي شيء ما عدا أن اذهب أنا بسبيلي، وتذهب هي بسبيلها، لم يكن ثمة حيلة بشأن ذلك.. وهكذا فكما كانت تبدو متمسكة بي، كلما كانت تجعلني مريضاً، حتماً!

«كان من العبث محاولة جعلها تتعقل، كنت أدرك ذلك لفرط ما أضعت من الوقت في إقناعها، وكان ذلك يجعلها بالأحرى أشد غرابة أيضاً، وجدت نفسي مضطراً إلى أن أبدأ بابتكار أساليب جديدة كي أتملص من حبها، مثلما كانت تزعم... من هنا خطرت لي الفكرة بأن أثير خوفها من خلال الزعم بأنني كنت أعدو مجنوناً بين حين وآخر. وإن ذلك كان يأتيني على هيئة نوبات.. دون سابق إنذار... كانت تنتظر إلي بطرف عينها نظرة شزراء، دون أن تكون واثقة تماماً من أن ذلك محض كذب أيضاً وذلك بسبب ما كنت قد رويته لها سابقاً من مغامرات، ومن ثم لأن الحرب قد تركت آثارها علي، وبسبب المكيدة الأخيرة على الأخص مع الأم هنروي، وبسبب طريقي الغربية أيضاً في التحول عنها فجأة، وهو ما حملها على التفكير مع ذلك.

«خلال أكثر من أسبوع ظلت تفكر، وتركتني هادئاً تماماً. كان لا بد لها من أن تفضي إلى أمها بكلمتين اثنتين عن نوبات جنوني المزعومة... وأقلعت كلتاها تقريباً عن ملازمتي... «لقد انطلت عليهما الخدعة، كنت أقول لنفسي، لقد نجحت، وها أنا ذا حر..» وتخيلت نفسي أنسل هادئاً مطمئناً باتجاه باريس دون

أن أثير الظنون! ولكن مهلاً! كنت أرغب بأن أفعل ذلك بمهارة فائقة... أن أتقن الدور تماماً... كنت أعتقد بأنني قد وجدت وسيلة بارعة كي أثبت لهما مرة واحدة وإلى الأبد بأن ذلك كان حقيقياً فعلاً، وبأنني كنت مجنوناً جنوناً مطبقاً في كل ساعة من الليل والنهار... «تحسسي! قلت لماديلون ذات مساء تحسسي الورم هنا خلف رأسي! ألا تحسین بالجرح فوقه، إنه ورم ضخم أليس كذلك؟..»

«حينما جست بيدها الانتفاخ خلف رأسي أثار ذلك شعورها على حد أعجز عن وصفه لك... ولكنه زادها تهيجاً أيضاً، ولم يثر نفورها على الإطلاق...» «ها هنا كنت قد جرحت في الفلاندر، وقد ثقب عظم جمجمتي حينذاك.. جعلت أؤكد لها...»

«آه! يا ليون! قفزت حينئذ من مكانها وهي تتلمس الانتفاخ، سامحني، يا ليوني! لقد ارتبت بك حتى الآن، ولكنني أسألك العفو من أعماق قلبي! أنا أدرك الآن بأنني كنت دنيئة معك! أجل! أجل! يا ليون، كنت كريهة! لن أعود خبيثة معك في أي يوم من الأيام! أقسم لك! أستغفرك يا ليون! الآن حالاً لن تمنعني من أن أطلب مغفرتك، قل؟ سأعيد إليك سعادتك! سأعتني بك جيداً، هيا! منذ اليوم! سأكون صبورة دوماً معك! سأكون لطيفة جداً، سوف ترى يا ليون، سأنتفهمك إلى أبعد حد، بحيث لن تستطيع أن تستغني عني، وسأعطيك من جديد قلبي كله، إنني ملك لك! كل حياتي يا ليون أقدمها لك! ولكن قل لي بأنك قد غفرت لي على الأقل، قل يا ليون...»

«لم أقل شيئاً من جانبي، أي شيء.. إنها هي التي قالت كل شيء، حينئذ، كان من السهل عليها أن تجيب نفسها بنفسها... كيف كان علي إذن أن أتصرف كي أوقفها؟»

«ما أن لامست جرحي وانتفاخي، حتى جعلها ذلك كما لو أنها ذابت حياً دفعة واحدة... كانت تريد من جديد أن تأخذ رأسي بين ذراعيها ولا تتركه قط، وأن تجعلني سعيداً إلى أبد الأبدين، سواء أردت أم لم أرد... وبدءاً من هذا المشهد لم يعد لأمها الحق في أن توجه إلي أية شتيمة.. لم تعد ماديلون تتيح لها النطق بكلمة واحدة. لو رأيتها... لما تعرفت عليها في تلك اللحظات، كان تريد أن تحميني من كل سوء.

«كان لابد من إنهاء ذلك، كنت أفضل بالتأكيد أن نفارق بعضنا كأصدقاء متحابين... ولكن لم يعد ثمة فائدة من المحاولة... كانت متشبثة أكثر بحبها، شديدة العناد، وذات صباح بينما كانت هي وأمها خارجتين في أعمال لهما، فعلتُ مثلما فعلتَ أنت، جمعتُ أشياء في صرة صغيرة، وانسللت بهدوء.. لا يسعك أن تقول بعد كل هذا بأنني لست صبوراً بما يكفي؟ أكرر لك مرة أخرى بأنه لم يعد بمقدوري أن أفعل أي شيء. ها قد عرفت الآن كل شيء.. وحينما أقول لك بأن هذه الصغيرة قادرة على فعل كل ما يخطر لها، ويمكنها بكل بساطة أن تأتي بين لحظة وأخرى لتطارطني هنا، فلا يحق لك إذن أن تجيبني بأن لدي رؤى وأوهاماً. أنا أعلم ما أقول! أعرفها جيداً! وسأكون أكثر اطمئناناً، في رأيي إن وجدّتي محبوساً مع المجانين... سأكون هكذا مرتاحاً أكثر حين أتصرف كمجنون لا يفقه شيئاً.. ذلك ما احتاج إليه، مع هذه الصغيرة.. أن لا أفقه شيئاً...

لو أن روبنسون كان قد روى لي ما رواه قبل شهرين أو ثلاثة لكان ذلك قد أثار اهتمامي، ولكنني كنت كمن شاخ دفعة واحدة.

والواقع أنني كنت قد غدوت أكثر فأكثر على غرار باريتون، غير أبيه بأي شيء. كل ما رواه لي روبنسون عن مغامرته في تولوز لم يعد يشكل بالنسبة إلي أي شيء على الإطلاق. كنت أحاول عبثاً أن أتحمس لحالته ولكن حالته كانت تفوح بروائح العفونة، عبثاً أقول، وأزعم، فالعالم قد غادرنا بلا ريب، قبل أن نرحل عنه نهائياً.

كل الأشياء التي تعلققت بها، يأتي عليك يوم تقرر فيه أن تتحدث عنها أقل فأقل، وتجد صعوبة كبيرة حين تضطر إلى الحديث عنها. تكفي أن تتحدث دائماً بأناة.. تختصر.. تعزف عن الحديث... منذ ثلاثين سنة وأنت تتحدث... لم تعد تحرص على أن تكون على حق... تبارحك الرغبة بالاحتفاظ حتى بالمكان الصغير الذي كنت قد احتفظت به لنفسك وسط المسرات.. تتقزز... يكفيك منذ الآن أن تأكل القليل من الطعام، وأن تؤمن القليل من الدفء والنوم ما وسعك ذلك، وأنت تسير على درب اللاشيء... سيتعين عليك من أجل أن تستعيد الاهتمام أن تعثر على تكشيرات جديدة. وترسمها على وجهك أمام الآخرين... غير أنك لا تعود تملك تغيير قاموس كلماتك.. تغمغم.. تبحث طويلاً عن تعابير وعن اعتذارات كي تظل هناك مع أصحابك. ولكن الموت هناك أيضاً، تفوح رائحته، على مقربة منك طوال الوقت، أقل غموضاً من لعبة بيلوت. ما يبقى نيفيساً لديك هو أجزائك الصغيرة حسب، كأن تذهب لرؤية عمك العجوز في مقبرة غابة كولومب، لأنك لم تجد الوقت لرؤيته حين كان ما يزال على قيد الحياة والذي انطفأت أغنيته الصغيرة إلى الأبد ذات مساء من أماسي شباط. ذلك كل ما احتفظت به من الحياة، هذا الأسف الصغير البالغ القسوة. أما الباقي فقد تقيأته كثيراً أو قليلاً

على امتداد الدرب، بكثير من الجهود ومن الألم. فأنت لم تعد سوى مرآة قديمة تعكس الذكريات في ركن من أركان أحد الشوارع حيث لم يعد يعبر أحد تقريباً.

وما دمت تسأم، فإن ما هو أقل إملالاً بالنسبة إليك، هو أن تجعل الملل عادة من عاداتك المنتظمة. هكذا كنت أحرص على أن ينام الجميع في الساعة العاشرة، داخل المشفى وكنت أنا من يطفئ الكهرباء، وكانت الأمور تسير وحدها.

فوق كل ذلك، لم نكن أنا وبارابين نشطح بعيداً في الخيال. كنا مهتمين بما يكفي بنظام باريتون «القاصرون عقلياً إلى السينما» أما بصدد التوفيرات المالية فلم يعد المشفى يحقق الكثير. وحين كنا نبذّر المال أحياناً، كنا نقول لأنفسنا بأن ذلك ربما سيجعل المعلم يعود من رحلته، ما دام هذا يثير قلقه.

اشترينا أوكورديوناً من أجل أن يتمكن روبنسون من ترقيص المرضى في الحديقة خلال الصيف، كان من الصعب الاهتمام بالمرضى في فينيه طيلة الليل والنهار، لم يكن بوسعنا أن نرسلهم طوال الوقت إلى الكنيسة فقد كان ذلك يصيبهم بكثير من الضجر.

من تولوز لم نعد نتلقى أية أخبار، كما أن الأب بروتيست لم يعد على الإطلاق لرؤيتي. وقد انتظمت الحياة في المشفى على نحو رتيب منكم، ولكننا من الناحية المعنوية، لم نكن على ما يرام. ثمة الكثير من الأشباح هنا وهناك.

مرت شهور أيضاً، استعاد روبنسون خلالها سيماءه، وفي الفصح هاج مجانينا وماجوا قليلاً كان ثمة نساء متبرجات بأبهي زيناتهن يعبرن ويعاودن العبور أمام حديقتنا. ربيع مبكر.

في تارابو كان الملاك الفني قد تجدد عدداً من المرات منذ كنت أؤدي دوري الصامت، وغادرت الإنكليزيات الصغيريات إلى مكان قصي جداً، حسبما علمت، إلى استراليا.. ولن أراهن قط مرة أخرى. أما كواليس المسرح، فمذ قصتي مع تانيا، أغلقت في وجهي. ولم أعد ألح على دخولها.

بدأنا كتابة رسائل إلى أماكن متفرقة، وعلى الأخص إلى قنصليات بلدان الشمال كي نحصل على بضع إشارات حول المعابر المحتملة لباريتون، ولكننا لم نتلق من هناك أي جواب شاف.

كان بارابين ينجز بهدوء وصمت عمله التقني، إلى جانبي. منذ أربعة وعشرين شهراً. لم يتفوه تقريباً بأكثر من عشرين جملة. كنت مضطراً إلى أن أتصرف وحدي تقريباً في الأمور الصغيرة المادية والإدارية التي كان يتطلبها الوضع اليومي. وقد حدث لي أن وقعت في بعض الهفوات. ولم يوجه لي بارابين أي لوم إطلاقاً. توافقنا معاً مستعينين باللا اكتراث، إضافة إلى ذلك كان في صندوقنا أموال سائلة إلى درجة كافية تكفل الجانب المادي من مؤسستنا. فبعد تسديد حسابات المومنين والإيجار كان يبقى معنا ما نعيش به في بحبوحة. وكانت نفقة ايمي تدفع بالطبع إلى عمتها بانتظام.

كنت أجد رونسون أقل قلقاً بكثير مما كان عليه حين قدم إلينا. وقد استعاد بشاشته وثلاثة كيلو غرامات من وزنه. بدا لنا في المحصلة أنه ما دام هناك مجانيين صغار لدى العائلات فستكون هذه العائلات مسرورة في العثور علينا بسهولة، على مقربة من العاصمة، كانت حديقتنا هي الوحيدة التي تستحق الزيارة. كانوا يقصدونها من باريس للإعجاب بأحواض الأزهار وبأجمات الورود في أيام الصيف اللطيفة.

في أحد من آحاد حزيران، خيل إلي أنني تعرفت على ماديلون، لأول مرة، وسط جمع من المنتزهين... كانت ساكنة لا تبدي حراكاً أمام سورنا المشبك. لم أرغب في البداية في أن أخبر روبنسون بهذا الظهور المفاجئ لماديلون. كي لا أفزعه. ومع ذلك فبعد أن فكرت ملياً أوصيته بعد بضعة أيام بأن لا يبعد من الآن، في هذا الوقت على الأقل خلال نزهاته الغامضة في الجوار، والتي كان قد اعتاد عليها. أفلقتة هذه النصيحة، غير أنه لم يصر على أن يعرف أكثر من ذلك.

في أواخر تموز، تلقينا من باريتون بضع بطاقات بريدية من فنلندا هذه المرة.. وقد سرنا ذلك، ولكنه لم يتحدث لنا مطلقاً عن عودته. كان فقط يتمنى لنا مرة أخرى «حظاً سعيداً» وألف شيء ودي، شهران مرا، وشهران آخران تساقط فيهما غبار الصيف فوق الطريق، وفي عيد جميع القديسين أثار أحد مجانيننا صخباً أمام المستشفى. هذا المريض الذي كان في السابق وادعاً تماماً ولائق التصرف لم يكن يحتمل التمجيد الجنازري لعيد القديسين، ولم نستطع أن نمنعه في الوقت المناسب من الصراخ من نافذته بأنه لا يريد أبداً أن يموت... لم يكف المنتزهون عن أن يعتبروا ذلك مضحكاً. وفي اللحظة التي حدث فيها ذلك الهجوم المباغت داخلني من جديد إحساس مزعج جداً ولكن على نحو أكثر وضوحاً من المرة الأولى بالتعرف على ماديلون في الصف الأول من مجموعة من المنتزهين في المكان ذاته من سياج الحديقة.

في غضون الليلة التي تلت ذلك استبد بي القلق، حاولت أن أتناسى ما رأيته ولكن كل جهودي لتناسي ذلك ظلت دون جدوى. كان من الأفضل لي أن أكف عن محاولة النوم.

منذ زمن طويل لم أعد إلى رانسي، وما دمت قد غدوت فريسة للكوابيس فقد تساءلت إن لم يكن من المفيد الذهاب في جولة إلى تلك الأنحاء التي جاءتني منها جميع التعاسات العاجلة والأجلة.. كنت قد خلّفت فيها كوابيس كثيرة، وإذا ما واجهتها الآن فسيمكنني أن أعتبر ذلك عند اللزوم نوعاً من التطهر... للوصول إلى رانسي كان الطريق الأقصر انطلاقاً من فينيه هو السير بمحاذاة الرصيف الواصل إلى جسر جانفبيه الممتد فوق السين. كان الضباب البطيء الحركة، المتصاعد من النهر يتمزق عند مستوى الماء مزقاً، متسارعة، عابرة مندفعة مترنحة لتسقط في الجهة الأخرى من الحاجز فوق سرج زيتية. مصنع الجرارات الضخم الذي يقع إلى اليسار كان يختفي وسط قطعة كبيرة من الليل. كانت نوافذه مضاءة بأشعة حريق كالح يشتعل داخل الأفران ولا يتوقف أبداً. بعد تجاوز المصنع يجد المرء نفسه وحيداً على الرصيف... ولكن لم يعد ثمة مجال لأن يتوه. فبحسب التعب الذي قد ألم به يدرك أنه وصل.

يكفي حينئذ أن تستدير إلى اليسار نحو شارع بورنير الذي لا يمتد طويلاً. وليس من العسير بعد ذلك أن تهتدي إلى طريقك بسبب القنديل الأخضر والأحمر الذي يضيء طريق العبور ولا ينطفئ أبداً. حتى في دجنة الليل سأذهب ربما، وعيونني مغلقة إلى منزل آل هنروي. فقد كنت قد ترددت عليه مرات ومرات، فيما مضى. غير أنني في ذلك المساء وحينما وصلت أمام بابهم بدأت أفكر بدلاً من أن أتقدم.

كانت الابنة هنروي تسكن الآن وحدها في المنزل. كنت أفكر بها. الجميع ماتوا. لا بد أنها قد عرفت أو أنها ترتاب على الأقل، بالطريقة التي

انتهت فيها عجوزتها في تولوز. ترى ما الأثر الذي أمكن أن يخلفه فيها موت العجوز؟

كان المصباح الغازي فوق الرصيف يغمر بالبياض طنف الباب الزجاجي على غرار ثلج متراكم فوق الدرج، بقيت هناك في ركن الشارع أنظر فقط، وقتاً طويلاً. سيكون بمقدوري التقدم لقرع الباب، كانت ستفتح لي، بالتأكيد. لم يكن بيننا على أي حال أي خصام. وفي المكان الذي كنت أقف فيه كان البرد قارساً جداً.

كان الشارع ما يزال ينتهي بمستنقع موحل مثلما كان على أيامي. كانوا قد وعدوا بأعمال في الشارع، ولكنهم لم يباشروا بها. ما من أحد كان يمر من هناك. ليس الأمر أنني كنت خائفاً منها، من الابنة هنروي لا، غير أنني فجأة لم يعد لدي رغبة برويتها ثانية. كنت مخطئاً بالسعي إلى رؤيتها من جديد. هناك، أمام منزلها اكتشفت فجأة بأنه لم يعد لديها أي شيء تخبرني به. سيكون من المضجر أن أستمع إليها وهي تتحدث. هذا كل شيء. ذلك ما غدا كل منا بالنسبة إلى الآخر.

كنت قد أوغلت في الليل أبعد مما أوغلت هي، بل وأبعد حتى من العجوز هنروي التي ماتت. لم نعد الآن معاً لقد غادرنا بعضنا نهائياً. ليس فقط عبر الموت بل وعبر الحياة أيضاً. حدث ذلك بسبب قوة الأشياء، كل واحد لذاته، هذا ما كنت أقوله لنفسي، ثم غادرت مكاني عائداً إلى فينيه.

لم يكن لدى الابنة هنري الآن ما يكفي من المعرفة كي تكون في موازاتي على الدرب. بصدد طبيعتها، نعم! ذلك ممكن، كان لديها ذلك الطبع... ولكنها كانت تنفر إلى المعرفة. كانت تلك هي العقدة... ما من معرفة لديها.

مهمة جداً هي المعرفة. لم يعد إذن بإمكانها أن تفهمني، ولا أن تفهم ما الذي جرى حولنا، إنها قاسية وعنيدة بقدر ما وسعها العناد.. ولكن هذا لا يكفي. لا بد أيضاً من القلب ومن المعرفة كي يذهب المرء أبعد من الآخرين.. عبر شارع سانزيون سلكت طريقي كي أنعطف نحو السين ثم عبر جادة فاسو. كنت قد هدأت من قلقي، وغدوت مسروراً تقريباً، لأنني أدركت عبث الإصرار على رؤية الابنة هنروي. لقد توصلت إلى فقد تلك الشريرة القاسية عبر الطريق.. كنت قد تفاهمت في السابق مع تلك المرأة الابنة... خلال فترة طويلة... ولكنها الآن لم تكن قد هبطت بما يكفي بالقياس إلي، لم يكن بوسعها أن تهبط لتلحق بي. لم يكن لديها المعرفة ولا القوة. لا يصعد المرء في الحياة بل يهبط. لم يعد بوسعها. لم تعد تستطيع الهبوط إلى حيث كنت.. كان ثمة الكثير من الليل حولي بالقياس إليها.

لدى مروري أمام المبنى الذي كانت عمه ببيرت حارسة لمدخله كنت سأدخل ربما إليه أيضاً كي أرى فقط أولئك الذين كانوا يشغلون الآن مسكنها، هناك حيث اعتنيت ببيبرت، ومن أمام بابه كنت قد غادرت ذلك الحي. ربما كانت ما تزال صورة ببيرت بلباس التلميذ معلقة فوق السرير. ولكن الأوان كان قد فات لإيقاظ العالم. وهكذا مررت به دون أن ألفت نظر أحد.

أبعد قليلاً في قرية ليبرتي وجدت مخزن بيزين ما يزال مضاء. لم أكن أتوقع ذلك ولكن لم يكن سوى ثمة مصباح في واجهة المخزن، كان بيزين يعرف كافة الأشياء والأخبار عن الحي، لفرط ما كان يجلس في الحانات، ويعرف كل شيء، من سوق البراغيث حتى بوابة مايو.

سيكون بمقدور بيزين أن يروي لي حكايات فيما لو كان مستيقظاً. دفعت بابه ففرع جرسه، ولكن ما من أحد أجابني. كنت أعلم أنه نائم في

خلفية المخزن داخل صالة طعامه إن صح القول. هناك بالضبط كان بيزين وسط الظلّة. رأسه فوق الطاولة بين ذراعيه، جالساً على نحو مائل بالقرب من عشائه البارد الذي كان ينتظره، من العدى، كان عليه أن يبدأ الطعام حين عاد، ولكن النعاس استولى عليه في الحال. كان يشخر شخيراً عالياً، لقد شرب أيضاً، حتى الثمالة.

لقد وجدت بيزين دائماً فتى طيباً، ليس أكثر دناءة من الآخرين، لين الجانب، سهل الإرضاء، لم أشأ إيقاظه من نومه بدافع الفضول، من أجل أسئلتي الصغيرة، رحلت عنه إذن بعد أن أغلقت مفتاح الغاز في المخزن. لم يكن يجيد حماية نفسه، بالتأكيد في نوع التجارة التي كان يزاولها، ولكنه على الأقل لم يكن يجد صعوبة في النوم العميق.

عدت حزيناً مع ذلك إلى فينيه، وأنا أفكر بأن كل هؤلاء الأشخاص، والبيوت، والأشياء، الغارقين في القذارة والكآبة لم يعودوا يحركون بي على الإطلاق أي خلجة، مثلما في السابق، ومهما كان بإمكانني أن أكون بارعاً فإنني لم أعد أملك ربما ما يكفي من القوة أيضاً، وهذا ما كنت أشعر به، كي أذهب بعيداً أيضاً، هكذا، وحيداً.



« بخصوص وجبات الطعام. حافظنا في فينيه على العادات التي كانت سارية أيام باريتون. كنا نلتقي جميعاً على المائدة، غير أننا آثرنا الآن أن يكون ذلك في صالة البليارد الواقعة فوق مسكن حاجبة المشفى. كانت هذه الصالة أكثر ألفة من تلك الصالة الحقيقية التي ما تزال تهيم فيها ذكريات غير سارة لحواراتنا بالإنكليزية، ومن ثم فقد كانت صالة الطعام غاصة بكثير من قطع الأثاث الفاخر جداً من طراز «١٩٠٠» مع زجاج نوافذ من الأوبال المتغير الألوان.

في صالة البليارد، كان بوسعنا أن نرى كل ما كان يجري في الشارع، وكان ذلك مفيداً بالتأكيد. أما بصدد المدعويين فكنا نستقبل أحياناً على العشاء أطباء من الجوار، من هنا وهناك، بالإضافة إلى ضيف تقليدي مألوف هو غوستاف، عنصر شرطة التهريب. يمكن القول إنه كان ضيفاً يومياً مواظباً. تعارفنا هكذا عبر النافذة، حين كنا نشاهده يقوم بعمله يوم الأحد، عند تقاطع الطرق في مدخل البلدة. كان يلاقي كثيراً من العنت مع ازدحام السيارات. تبادلنا في البداية بضع كلمات، ومن ثم غدونا من أحد إلى أحد. متعارفين على بعضنا تماماً. وقد أتاحت لي الفرصة لأعالج ابنتيه في المدينة، واحدة بعد الأخرى. من الحصبة، ومن النكاف. كان غوستاف ماندامور، هكذا كان يدعى، مخلصاً لنا. غير أن المحادثة معه كانت متعبة قليلاً، لأنه كان يجد صعوبة مع الكلمات. كان يجد الكثير من الكلمات، ولكن لم يكن يخرجها، بل تظل بالأحرى محبوسة داخل فمه، تثير ضجة مسموعة.

على هذا النحو دعاه روبنسون أول من دعاه إلى صالة البلياردو، على سبيل المزاح، كما أعتقد، ومنذ ذلك الحين كان غوستاف يعود إلينا في الساعة ذاتها من كل مساء، في الساعة الثامنة. كان يجد نفسه مرتاحاً معنا، أفضل مما في المقهى، كما كان يقول، وذلك بسبب النقاشات السياسية التي كانت تثور غالباً بين رواد المقهى. لم يكن يطبق أي نقاش في السياسة على الإطلاق، ففي حالة غوستاف كانت السياسة موضوعاً حساساً جداً. لذا فقد كان يشعر بالضجر بسببها في المقهى. لم يكن من حيث المبدأ يحب الحديث في السياسة، ولا سيما حين يكون قد شرب قليلاً.

حينما كنا نفكر، أنا وبارابين، في كيفية الخروج من الوضع الذي كنا فيه، والذي آل إلينا بعد رحيل باريتون، لم نكن نشكو أبداً. ذلك سيكون خطأ كبيراً منا، لأننا في المحصلة كنا قد أصبنا نوعاً من حظ خارق، وحصلنا على كل ما كان يلزمنا، على سعيد التقدير والاعتبار، مثلما على سعيد الرفاه المادي.

كنت، أنا فقط في ريب من أن تلك المعجزة يمكن أن تدوم، ربما كان ذلك بسبب ماضيّ الدبق والموحد والذي كان يلوح أمامي دائماً. في بداية عملي في فينيه، تلقيت ثلاث رسائل مغفلة التوقيع بدت لي مريبة ومتوعدة إلى أبعد حد. وبعد ذلك تلقيت عدداً آخر من الرسائل مفعمة بالحدق والضغينة. من الصحيح أننا كنا نتلقى غالباً في فينيه رسائل مجهولة المصدر، لم نكن نعيدها في العادة أي اهتمام، كانت صادرة، في الأغلب الأعم عن مرضى سابقين كانوا يحسون بالاضطهاد داخل المشفى.

ولكن هذه الرسائل وصيغها كانت تقلقني مزيداً من القلق. لم تكن تشبه الرسائل الأخرى، كانت التهم التي تتضمنها محددة جداً، ومن ثم فلم تكن

تتعلق بأحد إطلاقاً إلا بي وبروبنسون. تلك الرسائل باختصار، كانت تتهمنا بأننا نقيم فيما بيننا علاقة زوجية، وكان هذا الزبل افتراضاً مزعوماً. لم أر من الضروري في البداية، أن أحدث بذلك إلى روبنسون، ثم قررت مع ذلك أن أخبره، لأنني ما عدت أنتهي من تلقي رسائل جديدة من الطراز ذاته. بحثنا حينئذٍ معاً عن كان يمكنه أن يرسل هذه الرسائل، أحصينا جميع الأشخاص المحتملين بين معارفنا المشتركين، فلم نجد أحداً. بالإضافة إلى ذلك فإن اتهامنا بالشذوذ الجنسي كان واهياً، فأنا لم أكن من هذا النوع، ثم إن روبنسون لم يكن ببساطة يبالي بالأمر الجنسية، لا من هذا الجانب ولا من الجانب الآخر، وإذا ما كان ثمة شيء يشغله، فإنه لم يكن بالتأكيد قصص العلاقة الجنسية. ينبغي على كل حال أن يكون مرد ذلك إلى الغيرة التي تدفع صاحبها إلى تصور مثل هذه الدناءات القذرة.

خلاصة الأمر، فنحن لم نكن نعرف أحداً آخر سوى ماديلون يمكنه أن يلاحقنا حتى فينيه بهذه الافتراءات. كان الأمر سيان عندي أن تواصل كتابة هذه الأشياء، ولكنني كنت أخشى أن يستبد بها الحق من عدم ردنا عليها بأي شيء، فتأتي لتلاحقنا هي ذاتها بشخصها، ذات يوم وتثير فضيحة داخل المشفى. كان علي أن أتوقع الأسوأ.

أمضينا، على هذا النحو، بضعة أسابيع، كنا ننتفض خلالها مع كل قرعة جرس، كنت أتوقع زيارة من ماديلون، أو أسوأ من ذلك أيضاً، زيارة من المحكمة.

في كل مرة كان المخبر ماندامور يصل فيها للعب الورق أبكر قليلاً من المعتاد، كنت أسأل نفسي إن لم يكن يحمل لنا تحت نطاقه استدعاء إلى مركز الشرطة. غير أن ماندامور كان في تلك الفترة لطيفاً غاية اللطف ومريحاً

جداً. وفيما بعد فقط، بدأ يتغير تغيراً ملحوظاً، كان ما يزال في تلك الفترة يخسر تقريباً كل يوم في كافة مبارياته في لعب الورق، دون أن يستاء أو يغضب. وإذا ما تغير طبيعه فإن ذلك كان عائداً إلى خطأ منا. في ذات مساء، سألته مستفسراً لماذا لم يكن يفوز إطلاقاً في ألعاب الورق؟ لم يكن لي الحق في الواقع، بأن أسأل ماندامور عن ذلك، لمجرد الرغبة فقط في معرفة سبب خسارته؟ وكيف؟ لا سيما أننا لم نكن نلعب من أجل المال، وفيما نحن نتناقش حول سوء حظه، اقتربت منه، وتفحصته ملياً. لاحظت بأنه كان مصاباً بقصر بصر الشيخوخة على نحو بالغ. والواقع أنه وسط الإضاءة التي كانت تغمرنا، لم يكن يميز إلا بصعوبة ورق السباتي عن الديناري.

بدأت في معالجة عاهته، مقدماً له نظارات جميلة، سر في البداية سروراً عظيماً وهو يحاول تجربتها، ولكن سروره لم يدم طويلاً، بدأ يلعب بصورة أفضل بفضل نظاراته، ويخسر في اللعب أقل مما في السابق، ثم عزم على أن لا يخسر قط مرة أخرى، ولكن ذلك لم يكن ممكناً، حينئذ بدأ يغش في اللعب، وحين راح يخسر على الرغم من محاولات غشه جعل بيدي استيائه منا ساعات بكاملها، لقد غدا باختصار شخصاً لا يطاق.

كنت حزيناُ لذلك. كان غوستاف يغتاز دون أدنى سبب وجيه. إضافة إلى ذلك. كان يسعى إلى أغاظتنا بدوره، إلى إثارة قلقنا وهو اجسنا أيضاً. كان ينتقم بطريقته حين يخسر.. ومع أننا لم نكن نلعب من أجل المال، وقد كررت ذلك على مسامعه، بل من أجل التسلية ونشوة الفوز فقط، غير أنه كان ساخطاً رغم ذلك. وهكذا ففي ذات مساء لم يحالفه الحظ فيه توجه إلينا بالكلام فيما هو منصرف «أيها السادة، سأقول لكم أن تكونوا على حذر!.. مع الأشخاص

الذين تخالطونهم. لو كنت أنا مكانكم لأخذت حذري... ثمّة فتاة سمراء تمر منذ أيام من أمام مشفاكم وغالباً جداً، في رأيي... ما يكون لها أسبابها... إنها ساخطة من أحدكم، وأنا أوضح لكم بأنني لن أكون متفاجئاً قط..» هكذا قدفنا ماندامور بذلك الأمر الخبيث قبل أن ينصرف. والواقع أنه لم يخطئ هدفه الصغير. ومع ذلك فقد تابعت في اللحظة ذاتها «حسن . شكراً غوستاف . أحبته بكل هدوء .. أنا لا أرى من يمكن أن تكونه السمراء الصغيرة التي حدثتنا عنها؟ ما من امرأة بين مريضاتنا القديمات قد شككت حسب علمي، من الرعاية التي نقدمها. لاشك أن الأمر يتعلّق بفتاة ضالة بانسة... سنعثر عليها بالتأكيد.. أخيراً أنت على حق... من الأفضل دائماً أن نعرف...نشكرك مرة أخرى ياغوستاف لأنك نبهتتنا...ومساءً سعيداً!«.

لم يعد بمقدور روبنسون فجأة أن ينهض عن كرسيه. وما أن خرج المخبر حتى تفحصنا المعلومات التي كان قد قدّمها لنا من كافة النواحي. كان من الممكن رغم كل شيء أن تكون امرأة أخرى غير ماديلون... فقد كان هناك أخريات يجئن هكذا، يتسكعن تحت نوافذ المشفى... ولكن كان لدينا حدس قوي مع ذلك بأن تلك الفتاة هي ماديلون، وكان هذا الشك كافياً كي يملأ نفوسنا بالهلع. إن كانت هي. فما الذي تنويه مجدداً؟ومن ثم فعلى أي شيء تعتمد في عيشها منذ عدة شهور في باريس؟ وإذا ما كانت خليقة أن تأتي إلينا بشخصها، فقد كان علينا أن ننتبه، وأن نتخذ استعداداتنا في الحال.

«اسمع ياروبنسون قلت جازماً حينئذ. هذه هي اللحظة قطعاً، ولن تتكرر ثانية.. ما الذي تبغي أن تفعله؟ هل ترغب في العودة معها إلى تولوز؟

- لا! أقول لك، لا ولا« كان هذا جوابه وكان حاسماً..

- حسناً! قلت حينئذ، ولكن في هذه الحالة إن كنت حقاً لا تريد العودة معها فمن الأفضل في رأيي أن ترحل لتكسب رزقك خلال فترة من الزمن على الأقل خارج البلاد.. بهذه الطريقة ستتخلص منها بالتأكيد، فهي لن تذهب لتتبعك إلى هناك، أليس كذلك؟ أنت ما تزال شاباً.. وها قد غدوت قوياً.. ومرتاحاً.. سأعطيك بعض المال، وإذن سفراً سعيداً... هذا هو رأيي! ثم إنك تعلم بأن وضعك هنا ليس وضعاً مناسباً.. ولا يمكنه أن يدوم طويلاً؟...»
لو أنه أصغى إلي، لو إنه رحل في تلك اللحظة، لكانت الأمور قد صلحت، ولكان قد أراحني، ولكنه لم يوافق.

«أنت لا تبالي بي يا فرديناند! أجابني روبنسون، ليس لطيفاً أن أرحل وأنا في هذا العمر... انظر إلي جيداً، هيا» لم يعد يريد أن يرحل كان متعباً من السفر والتجوال.

«لا أريد أن أذهب أبعد ... كان روبنسون يكرر .. عبثاً كل ما تقول.. عبثاً كل ما تفعل.. سوف لن أذهب أبداً.

هكذا كان يرد على صداقتي. ومع ذلك فقد أصررت على رأيي..

- وإذا ما وشت بك ماديلون. افرض، بشأن قضية الأم هنروي؟ أنت نفسك من قال لي بأنها قادرة على ذلك..

- تعساً لي حينذاك! أجابني، لتفعل ما تشاء...»

كانت جديدة هذه النبوة التي يتكلم بها. لأن التسليم بالقدر لم يكن من طبعه في السابق..

«على الأقل، اذهب وابتحث لك عن عمل صغير في مكان مجاور، في مصنع مثلاً. لن تكون بذلك مضطراً إلى البقاء معنا كل الوقت.. وإذا جاءوا للبحث عنك فسيكون لدينا الوقت لإخطارك. كان بارابين من رأيي كلياً، بصدد

هذا الموضوع حتى لقد تحدث معنا قليلاً بشأن الظرف الراهن. لا شك إذن بأن ما كان يحدث بيننا، بدا له خطيراً كل الخطورة، ويتطلب حلاً عاجلاً. كان لا بد لنا إذن من أن نبذل جهدنا في تدبير عمل لروبنسون، وفي إخفاؤه عن الأعين، كان من بين الأشخاص الذين تربطنا بهم صلات وثيقة أحد الصناعيين في المحيط المجاور، صانع مركبات كان يشعر تجاهنا ببعض العرفان نتيجة خدمات صغيرة حساسة جداً قدمناها له في ظروف حرجة، وقد قبل أن يجرب روبنسون في الرسم باليد على صناديق المركبات. كان العمل دقيقاً، وليس شاقاً، ومرتفع الأجر.

«ليون قلت له، في صباح اليوم الذي بدأ فيه العمل. لا تكن كسولاً في عمك الجديد، لا تلتفت إليك الأنظار بأفكارك الخائبة.. عليك أن تصل في الوقت المحدد.. لا تذهب قبل الآخرين.. قل صباح الخير لكل من حولك... تماسك جيداً في النهاية... أنت تعمل في مشغل لائق، وقد أوصينا بك مدير المشغل.»

ولكن ها هو ذا قد لفت إليه الأنظار مع ذلك توأ، فقد رآه مراقب العمل في مشغل مجاور، يخرج من المكتب الخاص برب العمل كان هذا كافياً، تقرير، نفس خبيثة، طرد.

عاد إلينا روبنسون إذن، مرة أخرى، ودون عمل، بعد أيام معدودات، أي قدر!

ثم إنه عاد يسعل تقريباً في اليوم ذاته، فحصنا صدره بالسماعة، سمعنا سلسلة طويلة من الخرخرات صادرة من أعلى رئته اليمنى، لم يعد أمامه سوى أن يلازم الغرفة.

في مساء أحد أيام السبت، قبل العشاء بالضبط، حدث أن طلب أحد الأشخاص حضوري شخصياً إلى صالة الدخول.

أخبرني بأن هناك امرأة تنتظرني.

كانت هي، بقبعة صغيرة، وقفازين. تذكرتها جيداً، ما من حاجة إلى

مقدمات، لقد جاءت في الوقت المناسب، عاملتها بكل خشونة.

«ماديلون أوقفنتها عن الكلام، إذا كنت ترغبين برؤية ليون من جديد،

أود أن أنبهك فوراً بأنه لا فائدة من الإلحاح. يمكنك أن تعودي من حيث

جئت. إنه مريض في رئتيه وفي رأسه... وحالته خطيرة جداً فوق ذلك...

لايمكنك رؤيته، فضلاً عن ذلك فليس لديه ما يقوله لك.

- ولا حتى لي، ردت بلجاجة.

- لا، ولا حتى لك.. على الأخص لك أنت... أضفت.

كنت أعتقد أنها كانت ستقفز من مكانها، لا، كانت تميل برأسها فقط،

أمامي، من اليمين إلى اليسار، شفاهها مضغوطة، وعيناها تسعيان للعثور

علي، حيثما كانت قد تركتني داخل ذكرياتها، لم أعد هناك، لقد غيرت

موضعي، أنا أيضاً داخل ذكرياتها. في الحالة التي كنا فيها، فإن رجلاً قوياً

كان سيبحث في قلبي الخوف، أما هي فليس ثمة ما أخشاه منها، كانت أقل قوة

مني، كما يقال. منذ زمن طويل كان ثمة رغبة قوية تستحوذ علي بأن أوجه

صفعة قوية إلى رأس تملكه الغضب، كي أرى كيف تتحول الرؤوس في مثل

تلك الحالات. أو بتقديم شيك بمبلغ كبير، هذا ما يلزم لرؤية جميع الأهواء

الغاضبة التي تتذبذب داخل رأس من الرؤوس، وهي تتغير بضربة واحدة،

ذلك أشبه بمناوراة سفينة شراعية فوق بحر مضطرب، كل ما في الكائن

البشري ينحني أمام ربح جديدة، كنت أرغب في أن أرى ذلك.

منذ عشرين عاماً على الأقل، تلاحقني هذه الرغبة، وسط الشارع، في

المقهى، في كل مكان، حيث يتخاصم أناس أكثر أو أقل عدوانية، وسخفاً،

وتشديقاً، ولكنني ما كنت لأجرؤ على الإطلاق خوفاً من الضربات التي ستهال علي، وعلى الأخص من الخجل الذي سيعتريني بسبب تلك الضربات. ولكن الفرصة، لاحت الآن، هذه المرة، وكانت رائعة.. «هل ستصرفين؟» قلت لها. لا لشيء إلا لكي أستثيرها أكثر أيضاً، وأهينها.

لم تعد تعرفني وأنا أتحدث إليها على هذا النحو، ابتسمت ابتسامة كريهة إلى أبعد الحدود، كما لو أنها كانت تجدني مضحكاً وتافهاً لا يُعتد بكلامي... «فلاك! فلاك» وجهت إليها صفتين لا يتحملهما حمار.

تمددت في الحال على الديوان الوردى الكبير في الجهة المقابلة قرب الحائط، ورأسها بين يديها، كانت تتنفس أنفاساً سريعة متلاحقة، وتئن مثل كلب صغير ضرب بشدة. ثم كما لو أنها فكرت، نهضت فجأة بخفة متناهية، واجتازت الباب، حتى دون أن تدير وجهها، لم أر أي شيء، كل ما سلف لا يجدي شيئاً. ولا بد من البدء من جديد.



« عبتاً كل ما فعلناه، كانت أشد دهاء منا كلنا مجتمعين، والدليل على ذلك أنها التقت من جديد بروبنسونها، ومثلما كانت ترغب أيضاً... كان بارابين أول من رآهما سوياً، على رصيف أحد المقاهي مقابل محطة الشرق. كنت أرتاب بأنهما كانا يلتقيان معاً، ولكنني لم أعد أرغب البتة بأن أبدو مهتماً بعلاقاتهما. لم يكن ذلك يعني في شيء في المحصلة.. فضلاً عن ذلك، فإن روبنسون كان يفي بالتزاماته تجاه المشفى، ويؤدي خدماته بنحو لا بأس به تجاه المرضى المفلوجين، وهو عمل شاق إلى أبعد الحدود، كان ينظف أوساخهم، ويجفف سوائلهم، ويغير ثيابهم الداخلية، ويساعدهم في تناول طعامهم، لم يكن لنا أن نطلب منه المزيد.

ولذا ما كان يستفيد من فترات ما بعد الظهر التي كنت أرسله فيها إلى باريس لأداء بعض المهمات، كي يلتقي بماديلونه، فقد كان ذلك شأنه. المهم في الأمر أننا ما عدنا البتة نرى ماديلون في فينيه سورلاسين، منذ الصفحة، ولكنني كنت أتصور بأنهما كانا يتناولاني في حديثهما، بلا شك خلال لقاءاتهما القذرة. لم أعد أحدث روبنسون أيضاً عن تولوز كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

سنة أشهر مرت على هذا المنوال، حلوة مرة! ثم إن شاغراً طراً في ملاك الممرضات، وصرنا جميعاً على حين فجأة، في حاجة ماسة إلى ممرضة ذات خبرة في العلاج الفيزيائي وتديلوك العضلات كانت ممرضتنا قد رحلت كي تتزوج دون أن نخطرنا برحيلها.

تقدم عدد كبير من الفتيات الحسنات لهذه الوظيفة، وحرنا في اختيار واحدة من بين عدد من المخلوقات القوية من جميع الجنسيات اللواتي توافدن على فينيه، منذ ظهور إعلاننا. ثم وقع اختيارنا في نهاية المطاف على سلوفاكية تدعى صوفي بدا لنا لحمها المرن والبض، وطريقتها في المشي والحركة لا تقاومان، ينبغي الاعتراف بذلك، صحة سماوية!

لم تكن هذه الصوفي تعرف سوى قليل من الكلمات باللغة الفرنسية وتأهبت أنا من جانبي، وكان ذلك أدنى ما تتطلبه الكياسة، لإعطائها دروساً دون تأخير، أحسست لدى الاحتكاك بها عن قرب بتجدد الميل داخل نفسي إلى التعليم. كان باريتون، مع ذلك يفعل كل شيء كي ينفرنى من هذا العمل. ولكن أي شباب! أية حيوية! أية عضلات! أية رقة! كانت صوفي فطنة سريعة الاستجابة! مدهشة إلى أبعد حدود الإدهاش! لم يكن يقلل من ذلك الجمال أي من تلك الاحتشامات المصطنعة أو الحقيقية التي تعرقل الحوارات الغربية جداً، بالنسبة إلي وباختصار شديد، لم أكف لحظة عن الإعجاب بها، من عضلة إلى عضلة، ثم عبر مجموعات العضلات، كنت أتابع الجسد دون توقف وانقطاع.. عبر المنحدرات العضلية، عبر المناطق البارزة والغائرة.. ذلك العنفوان المتناغم والمنفلت في الوقت نفسه، والموزع على هيئة حزم هاربة أو مذعنة للجس بنحو متناوب، تحت الجلد المخملي المتوتر، والمسترخي، والمعجز...

أوان تلك الأفراس الحية، تلك الهارمونييات العظيمة، الفيزيولوجية آت عما قريب... الجسد، إله معبود قلبه يداي الخجلتان... يدا رجل عفيف... ذلك الكاهن المجهول... إننّ مسبق بالموت وبالكلمات... ألكم من البهارج المزيفة والمننتة! تلطخ الجسد بوسخ كثيف من الرموز، تزينه حتى النهاية، بالتغطوات الفنية التي يجني منها التاجر المتميز نصيبه من الربح.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث! تجارة

رائجة. استثمار للإثارة عبر استحضار ذكرى الجسد. بوسعنا أن نملك ذكريات عن الجسد، بوسعنا أن نشترىها، وذكريات جميلة وزاهية للغاية. لقد غدت الحياة أكثر قسوةً وتعقيداً مع تلك الأشكال الجسدية الأنثوية المعروضة في كل مكان. مغامرة فظيعة. ليس ثمة ما هو أكثر بعثاً لليأس والقنوط! وإلى جانب تلك الرذيلة لعرض صورة الجسد الخالي من العيوب لا يمثل الكوكابين سوى تسلية لنظار المحطات.

نعود إلى صوفيانا! لقد كان حضورها المجرد يشبه تهوراً في مشفانا الكالغ والهلع والمريب.

بعد مرور بعض الوقت من الحياة المشتركة، شعرنا بسعادة غامرة بالتأكد من أن نعد صوفي من بين ممرضاتنا... ولكننا لم نستطع أن نمنع أنفسنا من التخوف من أن تبدأ ذات يوم، في إفساد مجموع احتياطاتنا اللامتناهية، أو أن تحيط علماً بنحو مفاجئ، ذات صباح بكل واقعا المزري. كانت صوفي ما تزال تجهل تماماً حالة الإهمال العفن التي كنا منغمسين فيها! مجموعة من المحبطين الفاشلين! كنا معجبين أشد الإعجاب بها، متفجرة بالحياة بالقرب منا، وهي تنهض ببساطة حسب، أو تأتي إلى طاولتنا، أو تذهب أيضاً... كانت تفتن عقولنا..

وفي كل مرة كانت تقوم فيها بتلك الحركات البسيطة للغاية، كنا نحس بالدهشة والفرح. كنا نرتقي عالياً بشاعريتنا، بسبب إعجابنا فقط بكونها جميلة للغاية وأشد عفوية منا. كان إيقاع حياتها ينبجس من منابع غير منابعنا. كانت منابعنا زاحفة ومستكينة على الدوام، يسح منها اللعاب.

تلك القوة الجذلي، المتميزة، والعذبة في آن معاً والتي تمور فيها من جمة شعرها إلى عرقوبها كانت تهيج اضطرابنا، وتثير قلقنا على نحو فتان، أجل! كانت تقلقنا فعلاً، تلك هي الكلمة المناسبة.

إذا كانت غريزتنا تتعم بالفرح فإن معرفتنا الفظة بأشياء هذا العالم كانت، بالأحرى تعكره. فالمعرفة دوماً تبيض هناك في الأعماق المدعورة، تلوذ داخل كهف الوجود، خاضعة للأسوأ عادة، بفعل التجربة.

كانت صوفي تمتلك تلك المشية المجنحة، المرنة والمحكمة، مثلما نعهدها غالباً جداً لدى النساء الأمريكيات، مشية الكائنات المستقبلية العظيمة التي تنزع حياتها الطموحة والخفيفة نحو سبل جديدة للمغامرات. ثلاثة صوارٍ من الجذل، على الدرب نحو اللانهائي.

بارابين نفسه الذي لم يكن مع ذلك من ذوي النفوس الشاعرية التي تأبه لموضوعات الجاذبية تلك، كان يبتسم لنفسه كلما ظهرت صوفي أمامه. كان تأملها وحده، ينعش الروح، ولا سيما روحي، التي ظلت تواقّة مثلثفة.

من أجل أن أباغت صوفي، وأجردها بعضاً من ذلك البهاء، من ذلك النوع من السطوة والسحر الذي تمارسه علي، لكي أنزلها من عليائها في المحصلة، وأونسنها قليلاً لتطابق مقاييسنا الهابطة والذنيئة دخلت إلى حجرتها فيما كانت نائمة.

كان مشهد صوفي حينئذٍ مغايراً تماماً، أليفاً ومدهشاً مع ذلك، ومطمئناً أيضاً، كانت راقدة في السرير، دونما استعراض، ودونما أغطية. الفخذان ملتحمان، اللحم رطب ومنبسط. كانت تعبر عن ذاتها إزاء التعب. كانت صوفي تتمسك بضراوة بجمال النوم في أعماق جسدها، كانت تصدر شخيراً.. تلك هي اللحظة الوحيدة التي أجدها في متناول يدي. لم يعد ثمة سحر ولا رقى، لم يعد ثمة هزل. لا شيء سوى الجد. كانت تكذب في الاتجاه المعاكس للوجود، وفي امتصاص الحياة منه أيضاً.. كانت منهومة في تلك اللحظات، ثمة كذلك لفرط ما تسترد من تلك الحياة.. خليك أن تراها خلال تلك

الغفوات.. منتفخة تماماً، وتحت جلدنا الوردي لا تكف أعضاؤها عن الانتشاء. كانت طريفة حينئذٍ ومضحكة شأنها شأن جميع الناس. كانت تمثل من السعادة خلال لحظات أيضاً، ومن ثم فإن ضوء النهار بدا يسقط فوقها، وكما لو بعد انقشاع غيمة ثقيلة، كانت ستستعيد انطلاقتها، ظافرة، طليقة.

كان بوسعي أن أغمر بالقبل كل ذلك الجمال، كان من الممتع إلى أبعد حد أن ألمس بيدي كل شيء في تلك اللحظات حيث تغدو المادة هي الحياة، أن أعلو ذلك السهل المنبسط اللانهائي الذي يفتح أمام الرجال، أن أقول: أوف، وأرتع فوقه ما وسعني الرتع، كان ذلك أشبهه بصحراء شاسعة.

فيما بيننا، كأصدقاء، أكثر مما كأرباب عمل وعمال، كنت أنا، كما أعتقد، أقرب المقربين إليها. ولكنها كانت تخدعني بانتظام، يمكنني قول ذلك، مع ممرض في جناح المجانين، وهو عامل إطفاء قديم. زاعمة أن ذلك من أجل صالحي مثلما كانت توضح لي، من أجل أن لا تتقل علي وترهقني، بسبب الجهود الفكرية التي أبدلها خلال العمل، والتي لم تكن تتسجم تماماً مع نوبات طبعها المندفع. من أجل راحتي كلياً إذن، كانت تجعلني مخدوعاً وجاهلاً في الأمور الصحية.

كل ذلك لم يكن يخلف لدي قطعاً سوى البهجة الخالصة، ولكن قصة ماديلون ظلت مستقرة في وعيي، وقد انتهيت ذات يوم إلى أن أحدث صوفي عنها كي أرى ما الذي ستقوله، كان ذلك يحررني قليلاً من الحديث عن مناعبي وضجري. لقد طفح الكيل.. حقاً، بسبب النزاعات التي لا تنتهي بينها وبين روبنسون والأحقاد الناجمة عن حبهما التعس.

وافقتني صوفي على رأيي بهذا الصدد كل الموافقة.

بوصفنا أصدقاء، أنا وروبسون، كانت صوفي ترى بأنه يتوجب علينا جميعاً أن نتصالح، بكل بساطة، وبكل رفق وفي أسرع وقت ممكن. كانت تلك نصيحة خالصة تنبع من قلبها الطيب، لديهم الكثير من القلوب الطيبة في آسيا الوسطى، ولكنها فقط، لم تكن عليمة كل العلم بأمزجة الناس هنا وبرود أفعالهم، كانت تتصحني بأصدق النوايا في العالم ولكن بعكس الصواب تماماً. وقد تبينت هي فيما بعد بأنها كانت على خطأ... ولكن في وقت متأخر جداً..

«عليك أن تلتقي من جديد بماديلون، كانت صوفي تشير علي، لا شك أنها فتاة لطيفة، في الحقيقة، حسب رأيها، كل ما في الأمر أنك أترتها، وكنت فظاً للغاية، ومنفراً معها... والآن أنت تدين لها باعتذار، وحتى بهدية جميلة كي تجعلها تنسى...» هكذا تعالج الأمور في بلدها. كانت المساعي التي نصحتني باتخاذها غاية في اللطف والكياسة، ولكنها غير عملية.

اتبعت نصائحها، لا سيما أنني كنت أستشف في نهاية كل ذلك المواقف المصطنعة، وتلك التقاربات الدبلوماسية لعبة صغيرة ممكنة ستكون مسلية للغاية، كما أنها تدخل بعض التجديد! كانت صداقتي تغدو، تحت ضغط الأحداث، والعمر، صداقة جنسية على نحو متكتم، خيانة، كانت صوفي تساعدني دون أن تريد ذلك على أن أخون في تلك اللحظات، كانت أقل فضولاً بكثير من أن تحب المخاطر. طبيعة ممتازة، وغير بروتستانتية بالمرّة، لم تكن تسعى إلى أن تقلل من فرص الحياة التي لا ترتاب بها من حيث المبدأ. نمطي المفضل تماماً. كانت تذهب لأجد من ذلك أيضاً، كانت تفهم ضرورة تغيير أوضاع الوصال من الخلف، ومن الأمام وكانت اختياراً ممتعة جداً.

رغبت صوفي، وكنت أجد ذلك طبيعياً، في أن أتمكن من إعطائها بعض التفاصيل عن مظهر ماديلون، كانت تخشى أن تبدو خرقاء، في الأمور

الخاصة أمام فرنسية، ولاسيما بسبب الشهرة الفنية والجمالية التي شاعت عن الفرنسيات في الخارج. أما بالنسبة إلى تحمل وجود روبنسون في الوقت ذاته، فقد رضيتُ بذلك من أجل أن تسعدني. لم يكن روبنسون يزعجها على الإطلاق، كما قالت لي. خلاصة الكلام، أننا كنا على اتفاق في الرأي، وذلك هو الأمر المهم.

انتظرت بعض الوقت، حتى تلوح فرصة ألقى خلالها بكلمتين في إذن روبنسون عن خطتي في مصالحة شاملة، وفي ذات صباح، كان روبنسون يعيد نسخ الملاحظات الطبية على الدفتر الكبير في مكتب أمانة الصندوق، كانت اللحظة مواتية لطرح مبادرتي. قاطعته لأسأله بكل بساطة عما يتصوره من مساع يقوم بها لدى ماديلون من أجل تناسي الشجار العنيف الذي حدث فيما بيننا في الماضي القريب، وما إذا كان ممكناً في المناسبة نفسها أن أقدم صديقتي الجديدة صوفي إليها؟ وسألته أخيراً، إن لم يكن يعتقد بأن اللحظة قد حانت كي نوضح مواقفنا جميعاً مرة واحدة في جو من المودة.

تردد قليلاً، في البداية، لاحظت ذلك بوضوح، ثم أجبني، ولكن من دون حماس، بأنه لا يرى في ذلك ضرراً. كنت أعتقد، في الواقع، بأن ماديلون كانت قد أفضت إليه بأنني سأحاول رؤيتها ثانية عما قريب، بذريعة أو بأخرى. وبصدد الصفحة التي تلقتها مني في اليوم الذي جاءت فيه إلى فينيه لم أنبس بكلمة حولها.

لم يعد بوسعي المجازفة بأن يتناول علي روبنسون الآن، أو أن يعاملني بفضاظة أمام الملأ. فعلى الرغم من كوننا أصدقاء ومنذ زمن طويل في ذلك المشفى، فقد كان مع ذلك تحت أمرتي، السلطة أولاً.

تم إنجاز هذا النوع من مسعى المصالحة في شهر كانون الثاني. قررنا أن نلتقي جميعاً في باريس يوم أحد. لأن ذلك كان ملائماً أكثر، وأن نذهب سوياً إلى السينما، وأن نمضي لحظة، في البداية وسط أفراح عيد الباتينبول، إن لم يكن الجو شديد البرد في الخارج. كان قد وعد باصطحابها إلى عيد الباتينبول، وكانت هي مشغوفة بالأعياد الشعبية الجواله، كما أخبرتني سابقاً. كان ذلك في أوانه، فللمرة الأولى كنا نرى بعضنا من جديد، وسيكون ذلك أفضل إن حدث ذلك اللقاء بمناسبة عيد.



« يمكنني القول بأننا متعنا أنظارنا بالعيد، ومتعنا رؤوسنا أيضاً، بم
وبوم، ثم بوم أيضاً، سأدور بك! وسأهيجك وسأدوخك! وها نحن جميعاً في
غمرة العيد، مع الأضواء، ومع الضوضاء، ومع كل شيء، وإلى الأمام نحو
الرشاقة والبراعة. نحو الجسارة، نحو الهزل والمجون! زيم! كل واحد يسعى
إلى أن يبدو على سجيته، وأن يتظاهر بالحيوية والنشاط، متحفظاً قليلاً مع
ذلك، كي يظهر للناس بأنه معتاد على مثل هذه التسلّيات في أماكن أخرى
أكثر كلفة، أماكن «غالية» كما يقال بالإنكليزية.

اتخذنا سمت الماكرين، والمزاحين المرحين، على الرغم من الريح
الشمالية الباردة، والمزعجة أيضاً، وذلك الخوف القابض للنفس بأننا أسرفنا
أيما إسراف في اللهو، وأنا سنندم على ذلك غداً، وربما أيضاً طوال الأسبوع.

أصوات الموسيقى تصعد من ميدان الفروسية. لم يفلح الميدان في تقيؤ
فالس، فالس فاوست، ولكنه بذل كل ما في وسعه، كان الفالس يهبط ويرتفع
حول السقف المدور الذي يدوم بآلاف الفطائر الضوئية الصادرة من
المصابيح. لم يكن ذلك مريحاً. وكان الأورغ يتألم وهو يطلق الموسيقى من
جوفه.

في ميدان الرمي، كانت ماديلون بقبعتها المرفوعة فوق جبينها أبرعنا
جميعاً «انظر! كانت تقول لروبنسون، أنا لا أرتجف، رغم أنني شربت
كثيراً». خرجنا إذن من المطعم «قدح آخر» تناولت ماديلون زجاجة الشمبانيا،

راحتها حينئذٍ بأنها لن تلتحق بي في ميدان سباق السيارات «أتحداك» أجابتي بمرح، .. هوب! كنت مسروراً لأنها قبلت رهاني، كان ذلك وسيلة كي أتقرب منها، لم تكن صوفي غيورة. كان لديها أسبابها.

صعد روبنسون في سيارة إذن خلف ماديلون، مثل رزمة، وصعدت أنا في سيارة أخرى أمام صوفي. وبدأنا سلسلة من الصدمات الفريدة.. سأبعجك! وسأوقفك.. ولكنني رأيت فوراً بأن ماديلون لم تكن ترغب في هذا التدافع، ولم يكن ليون يحب ذلك أيضاً.. يمكن القول بأنه لم يكن على ما يرام... وفيما كنا نتعلق بالدرابزين، ونحن ندور في الحلبة شرع بعض صغار البحارة في جسننا بأيديهم بعنف، رجالاً ونساءً، كنا نرتعش، ندافع عن أنفسنا، نمزح، ثم وصل من كل مكان جاسون، ومع الموسيقى أيضاً ومع الحماس والإيقاع. كنا نتلقى في ذلك النوع من البراميل ذات العجلات الصغيرة رجات عنيفة، بحيث أننا في كل مرة نصطدم فيها كانت عيوننا تخرج من محاجرنا، وأي فرح! وأي عنف مع الهزل والضحك.. سائر أوكورديون الأفراح! كنت أريد أن أتصالح مع ماديلون قبل أن تغادر العيد. كنت مصراً على ذلك، ولكنها لم تكن تستجيب على الإطلاق لمبادراتي، على نحو إيجابي، كانت تبدي نفوراً مني، وتحافظ على مسافة بينها وبينني. ظللت متردداً، وعاودها مزاجها السوداوي، وغيرت أيضاً من مظهرها ومن كل شيء.

لاحظت أنها كانت شاردة بالقرب من صوفي، متكررة.. كانت حفاوة صوفي تسعدها بنحو ملحوظ، ولكنها كانت تفكر الآن في أمور فائقة الأهمية، كان ذلك يقلقني. غير أنها كانت تبسم. كنا في العيد، ولا وقت للتباكي، علينا أن نعيد.

كانت قد وجدت عملاً عند إحدى قريباتها، مثلما أفضت إلى صوفي، في شارع روشيه، في محل لصنع المشدات.. كنا نميل إلى تصديقها. لم يكن من الصعب أن أدرك منذ تلك اللحظة، بأن المصالحة آلت إلى الإخفاق، وأن تدبيري كان فاشلاً.

كان من الخطأ السعي إلى رؤيتها ثانية. لم تكن صوفي تدرك الموقف بعد، لم تشعر بأننا كنا بذهابنا لرؤيتها من جديد قد عقدنا الأمور... كان على روبنسون أن يخبرني، أن ينبهني إلى أنها كانت متصلة جداً في هذا الموضوع.. كانت تلك خسارة.. حسناً! تزم! تزم! وإلى الإمام مع ذلك، وإلى الأمام دائماً نحو «الكاتربلر» مثلما كانوا يسمون ميدان السباق! كنت أنا من أقترح ذلك.. كنت أنا من يدفع النقود، من أجل التقرب مرة أخرى من ماديلون، ولكنها كانت تتسل على الدوام. محاولة أن تتجنبني، كانت تنتهز فرصة الازدحام كي تذهب إلى رصيف آخر، أمام روبنسون، ومعه.. كنت مخدوعاً، ثمة أمواج ودوامات من الظلمة غشت عيوننا.. لا شيء يمكن عمله، هذا ما خلصت إليه. وكانت صوفي ترى رأيي في النهاية.. وأدركت بأنني كنت في كل ذلك ضحية لمخيلتي العجيبة.. «أنت ترى، بأنها مستاءة! أعتقد بأننا نفعل خيراً بتركهما هادئين الآن... يمكننا ربما أن نقوم بجولة في الشابانية قبل أن نعود...» كان هذا الاقتراح يروق لصوفي، لأنها كانت قد سمعت الكثير عن الشابانية حينما كانت ما تزال في براغ، وهي لم تكن تطلب أكثر من أن تجرب الدخول إلى الشابانية الآن كي تتمكن من أن تحكم عليه بنفسها. ولكننا قدرنا بأن ذلك سيكلفنا أكثر مما بحوزتنا من مال، كان علينا إذن أن نعود إلى الاهتمام بالعيد.

حينما كنا وسط الكاتربلر كان روبنسون بلا شك قد أثار نزاعاً مع ماديلون، فقد نزل الاثنان من سيارة السباق مستاعين كلياً. كان مزاجها في ذلك المساء فاسداً بالتأكيد. اقترحت من أجل تهدئتهما وإصلاح الأمور لعبة مسلية تشغلها عن بعضهما، مسابقة لصيد أعناق الزجاجات. قطبت ماديلون جببها في البداية ثم التحقت بنا مع ذلك، أصابت بحلققتها الهدف، أدخلتها في عنق الزجاجة مع قرعة الجرس، كليك! وفازت باللعبة. أصيب البائع بالدهشة وسلمها الجائزة «نصف زجاجة... غراندوق دوما لفوازون».. وعلى الرغم من براعتها في اللعبة فإنها لم تكن مع ذلك راضية... «لن أشرب الزجاجة..» أعلنت لنا على الفور.. «هذا الشراب رديء...» كان روبنسون هو الذي فتح الزجاجة كي يشرب منها هوب! وضعها على فمه على طريقة نفخ البوق. كان منظره مضحكاً، لأنه لم يشرب منها قطرة تقريباً.

مررنا بعد ذلك أمام عرس الدمى المصنوعة من الزنك، دحرجنا نحوها جميعاً كرات صلبة. والواقع أنني كنت عديم المهارة، هنأت روبنسون على براعته، ولكن ذلك لم يجعله يبتسم. يمكن القول بأننا كنا نجرهما جراً إلى سخرة حقيقية.. ما من وسيلة لاستئثارتهما. لإقناعهما «نحن في العيد» كنت أصبح بهما، ثم أعيتني الحيل في النهاية.

كان سيان بالنسبة إليهما كل ما أفعله لإثارتها. وما أردده من تلك الأشياء داخل آذانها. لم يكونا يسمعانني «أين الشباب إذن؟ كنت أسألها، ما الذي نفعل به... الشباب؟ ماذا أقول إذن، أنا الذي يكبركما بعشر سنوات؟ هيا يا حلوتي..» كانا ينظران إلي حينئذ. ماديلون وهو، كما لو كانا يقفان أمام شخص مصاب بالتسمم، مهذار، كأن كلامي لم يعد يستحق عناء الرد عليه.

كما لو لم يعد ثمة أهمية حتى لأن يردّا علي بكلمة، كما لو أنني لم أعد افهم بالتأكيد، مهما حاولا أن يشرحا لي الأمر. ربما كانا على حق؟ قلت لنفسي حينئذٍ ونظرت بقلق إلى كل من يحيط بنا من الناس الآخرين.

ولكن أولئك الناس كانوا يفعلون كل شيء، كي يتسلوا، لم يأت هؤلاء الناس إلى هنا مثنا، كي يهدوا أحزانهم الصغيرة، لا شيء من ذلك، كانوا يأخذون من العيد. بفرنك واحد هنا... بخمسين سنتياً هناك.. الكثير من الضوء.. من الكلام المعسول، من الموسيقى، من حب اللوز المسكر.. كانوا يتحركون على غرار نباب، ومعهم يرقاتهم الصغيرة بين أذرعهم، أطفال كابون باهتون، يتلاشون لفرط شحوبهم وسط انهمار الأضواء الساطعة. قليل من اللون الوردي فقط بقي لهم حول أنوفهم في مكان الزكام والعناقات.

بين جميع منصات الرمي تعرفت جيداً على الفور على «مركز الأمم».. ذكرى لم ألاحظها لدى الآخرين، ها قد مرت خمس عشرة سنة... قلت لنفسي إنها ذكرى لي فقط، انقضت خمس عشرة سنة... فقدت خلالها رفاقاً على الدرب.. كنت أحسب بأن «مركز الأمم» لن يخرج قط من الوحل الذي كان يحيط به في سانت كلود، ولكنه خضع لكثير من التغيير، واصبح الآن جديداً تقريباً في المحصلة، مع موسيقا مصاحبة ومع كل شيء. كان هذا واضحاً للعيان، كانت التعرفة فرنكين اثنتين. مررنا به على عجل. كنت أشعر ببرد شديد، ولذلك لم أحاول الرمي، كان من الأفضل أن نمشي، ليس لأن النقود كانت تنقصنا. فقد كانت جيبي ملى بالنقود التي ترن بصوت مسموع.. تلكم هي موسيقا الجيب الصغيرة.

كنت أحاول أي شيء، في تلك اللحظة كي أغير الأفكار، ولكن ما من أحد تراجع عن موقفه وأفكاره. لو أن بارابين كان معنا، لكان الوضع أسوأ من دون شك. كان بارابين حزيناً منذ جاء إلى هذا العالم، وقد بقي لحسن الحظ، يحرس المشفى. شعرت بندم بالغ على مجيئي. كانت ماديلون قد بدأت بالضحك مع ذلك، ولكن ضحكها لم يكن قط مسلياً. أما روبنسون فكان يضحك هازئاً بالقرب منها لكي لا يفعل أي شيء آخر.. وانخرطت صوفي فجأة في إلقاء النكات.. وكان ذلك طفاح الكأس..

حين مررنا من أمام كوخ التصوير الفوتوغرافي.. رأنا المصور مترددين. لم نكن عازمين على الدخول لالتقاط صورة، ما عدا صوفي ربما، ولكننا وقفنا أخيراً أمام آله بعد ترددنا أمام بابه، خضعنا لإيعازاته البطيئة، ونحن نقف فوق جسر كرتوني، من صنعه هو، يمثل سفينة، سفينة لايبيل فرانس، لبثنا على هذا النحو لحظة طويلة وعيوننا اليمنى تنظر إلى الأمام تتحدى المستقبل. كان زبائن آخرون ينتظرون نافذي الصبر نزولنا عن الجسر، وقد انتقموا لانتظارهم الطويل بتعليقاتهم الساخرة وبملء صوتهم، بأننا كنا قبيحين جداً.

لقد استغلوا فرصة عدم قدرتنا على الحركة أمام المصور. ولكن ماديلون التي لم تكن تهاب أحداً، شتمتهم بالمقابل بلهجة جنوبية أصيلة. كان موقفها ذاك متوقِعاً.

كنا مدهوشين، جميعاً.. صورة لكل منا، لم نعد قبيحين مثلما كنا من قبل، كان المطر يخترق سقف كوخ المصور، وقد كالت أرجلنا من التعب وتجمدت، وهاجمتنا الريح فيما نحن في وضعية التصوير، من الثقوب

المنتشرة في كل مكان من جدران الكوخ، حتى كانت أن تنتزع معاطفنا عن أجسادنا.

ينبغي العودة إلى التسكع من جديد، بين الأكوخ. لم أكن أجرؤ على اقتراح العودة إلى فينيه فقد كان الوقت مبكراً جداً. كان الأورغ الذي يضج بمشاعر محتدمة قد اغتتم فرصة ارتعاشنا من البرد كي يجعلنا نرتعد أكثر أيضاً مستثيراً أعصابنا. كان يهزأ باندهار العالم بأكمله، عاوياً بحدة. معلناً الهزيمة من بين زماراته المفضضة. وسيتلاشى لحنه وسط ظلمة الليل، غير بعيد، عبر الشوارع العبة برائحة البول والمنحدرة من التلال.

كانت الخادمت البريتانيات يسعلن أكثر مما في الشتاء المنصرم. هذا صحيح، حينما كن يصلن إلى باريس. كانت أفخاذهن المرمرية الخضراء والزرقاء تزين، ما أمكنهن ذلك، ظهور الخيول الخشبية التي يمتطينها، فتيان "أوفيرنييه" الذين يدفعون عنهن أجره تلك التسليات والحزرون جداً، لم يكونوا يطوؤون إلا مع الأكياس الواقية من الزهري، لم يكونوا راغبين بالتقاط العدوى مرة ثانية. كانت الخادمت يتثنين وهن ينتظرن الحب وسط القرعة الشجية بقبح، المنبعثة من ساحة الألعاب. كن يشعرن بشيء من الألم في بطونهن، ولكنهن كن يتغجن مع ذلك وسط ذلك الزمهرير. تلك هي اللحظة الثمينة، لحظة اختبار شبابهن الغض على الغاوي المنشود الذي لعله يكون كامناً هنا وسط هذا الحشد المرتعد من البلهي. لم يتجرأ بعد ربما على اقتحام الحب.. كل شيء يحدث مع ذلك كما في السينما، بما في ذلك السعادة. لعله يحبك حب العباد من نظرة واحدة، ذلك الفتى، ابن مالك العقارات، ولا يتخلى عنك قط. هذا ممكن، هذا يكفي. وفوق ذلك فهو لطيف، وفوق ذلك فهو جميل، وفوق ذلك فهو غني.

في الكشك المجاور، قريباً من المترو تقف البائعة، غير عابئة بالمستقبل، تحك ملتحماتها الملتهبة الرمداء، وتخرج بتآن القيح بأظافرها. كانت تلك متعة، غريبة ومجانية، منذ سنين ست، وعينها ملتهبة على تلك الصورة، تتأكلها أكثر فأكثر.

المتزهون زرافات، يتجمعون بسبب البرد القارس، يلتحمون حول اليانصيب. دون أن يحالفهم التوفيق. يخبون بسرعة، ويقفزون كي يدفؤوا وسط كتلة الجمهور الذي يواجههم. أمام العجل ذي الرأسين.

طال بنا التسكع والتجوال حتى بلغنا نهاية العيد.. وسط الفراغ الهائل الذي تغشيه الظلمة الداكنة حيث تذهب العائلات للتبول... نصف دورة إذن! وسعود سيراً على أقدامنا، أكلنا بعض حبات الكستناء، كان طعمها رديئاً، وقد ظهرت في داخلها سرف ديدان، كانت ماديلون هي التي اكتشفتها، كما لو أنها متعمدة. ومنذ تلك اللحظة لم تعد الأمور تسير على ما يرام فيما بيننا. كنا ما نزال نتمالك أنفسنا قليلاً حتى ذلك الوقت، ولكن الكستناء تلك جعلت ماديلون ساخطة كل السخطة.

حين توجهت نحو الساقية كي تبصق الكستناء المتعفن صاح بها روبنسون، كما لو أنه يريد أن يمنعها من ذلك. لا أدري ما الذي قاله لها ولا ما الذي انتابه، ولكن تلك الطريقة ببصق الكستناء لم تكن تروق أبداً لليون، وسألها بخرق بالغ هل وجدت داخلها شيئاً؟ لم يكن ذلك سؤالاً يطرح عليها... وها هي ذي صوفي تحاول التدخل في حوارهما الساخن، لم تكن تفهم لماذا يتخاصمان، كانت تريد أن تعرف.

تضايقا إذن أكثر، حين قاطعتهما صوفي، الغربية عنهما. وفي تلك اللحظة بالذات مر من بيننا رهط من الصياحين، شنتوا شملنا. كانوا يصطادون المومسات، في الواقع، ولكن بطريقة مهووسة، مزامير وصرخات، جميع أنواع الصرخات المذعورة، وحين تمكنا من الالتئام كان النزاع ما يزال ناشباً بين روبنسون وبينها.

«تلك هي اللحظة المناسبة للعودة، كنت أفكر بيني وبين نفسي. إذا ما تركناهما معاً دقائق أخرى فسيثيرون فضيحة وسط العيد. كفانا متاعب من أجل هذا اليوم» لقد أخفق كل شيء. كان علينا أن نعترف.. «هل تريد أن نرحل؟» اقترحت على روبنسون، نظر إلي حينئذٍ وكأنه تفاجأ بسؤالي. ومع ذلك فقد بدا لي أن هذا القرار هو الأكثر حكمة «ألم تكتفوا إذن من التجول في العيد» قلت مضيفاً.. أشار إلي حينئذٍ بأن من الأفضل أن أسأل ماديلون في البداية عن رأيها. ولكنني لم أكن أجد ذلك حكيماً جداً..

«ولكننا، سنصطحب ماديلون معنا! انتهيت إلى القول.

- نصطحبها؟ إلى أين تريد أن نصطحبها إذن؟ أجاب روبنسون.

- ولكن إلى فينيه، هيا» رددت عليه.

كانت تلك هفوة مني... هفوة أخرى... ولكن لم يعد بوسعي التراجع، فقد قلتها.

«لدينا غرفة فارغة من أجلها، هناك في فينيه... أضفت. ليست الغرف هي التي تنقصنا، هيا! يمكننا بالإضافة إلى ذلك أن نصنع وجبة حساء صغيرة كلنا معاً، قبل أن نذهب إلى النوم... سيكون هذا أكثر بهجة من هنا بالتأكيد، حيث نكاد نتجمد تماماً منذ ساعتين. لن يكون ذلك صعباً..» لم تجب ماديلون بشيء

على اقتراحاتي. لا بل إنها لم تكن تنتظر إلي وأنا أتكلم، ولكنها لم تكن تضيع مع ذلك كلمة واحدة مما كنت أقوله. وأخيراً فكل ما قيل، قد قيل، ولا مجال للتراجع عنه. حينما انتحيت جانباً، اقتربت مني بهدوء لتسألني ما إذا كانت هذه حيلة خبيثة أخرى أريد أن ألعبها معها أيضاً بدعوتي لها إلى فينيه.

لم أجب بشيء. ليس بالوسع محاكمة الأمور مع امرأة غيورة مثلما كانت ماديلون. ربما سأقدم لها أيضاً ذرائع وحكايات لن تخلص منها قط ثم إنني لم أكن أعرف على وجه الدقة ممن ومم كانت تغار... من الصعوبة غالباً فهم تلك المشاعر التي تتبع من الغيرة. كنت أتصور أنها في المحصلة تغار من كل شيء. لم تعد صوفي تعرف كيف تتصرف، ولكنها استمرت على إصرارها في أن تظل لطيفة غاية اللطف، كانت أيضاً قد أخذت ماديلون من ذراعها، ولكن ماديلون كانت أشد غضباً وإصراراً على موقفها الساخط من أن تستجيب لمثل تلك الملاحظات. اندسنا بصعوبة بالغة وسط حشد من الناس ينتظرون "الترام". كنا في ساحة كليشي، وفي اللحظة التي كنا سنصعد فيها إلى "الترام"، أفرغت غيمة حملتها فوق الساحة، وانهمر المطر شلالات، وفاضت السماء بالطوفان.

وخلال لحظة، اندفعت جميع السيارات بسرعة خاطفة لا تلوي على شيء. «أنت لن تعرضني للإهانة من جديد أمام الناس؟ قل يا ليون؟» كنت أسمع ماديلون تعاود سؤاله بصوت خفيض على مقربة منا. لم تكن الأمور على ما يرام. «لقد سئمت، أليس كذلك من رؤيتي؟ .. قل إذن بأنك سئمت؟ كانت ماديلون تواصل كلامها. قل ذلك إذن؟ أنت لا تريد أن تراني مع ذلك.. ولكنك تفضل أن تكون معهما لوحدهم، أليس كذلك؟ أنتم تنامون كلكم معاً.

أراهن على ذلك، حينما لا أكون هنا؟.. قل إذن بأنك تحب أن تكون معهما أكثر مما تحب أن تكون معي... قلها، حتى أسمعها منك...» وبعد ذلك ظلت صامته دون أن تتطرق بكلمة. وقد انغلق وجهها على تكشيرة حول أنفها الذي كان يرفعها نحو فمها، ثم يجذبها ثانية. كنا ننتظر فوق الرصيف؟ «أنت ترى كيف يعاملني صديقاك؟.. قل يا ليون؟..»

ولكن ليون نفسه، لا بد من إنصافه، لم يكن يرد عليها بشيء. لم يكن يستثيرها، كان ينظر إلى الجهة الأخرى، نحو الواجهات، والشارع والسيارات. كانت تلك الساعات عصيبة على ليون. ولما لم تر ماديلون بأن تلك الأنواع من التهديد قد تركت أي أثر على روبنسون فقد لاحقته بطريقة أخرى، ومن ثم فقد بدأت تحدثه من جديد برقة ولين.

«أنا أحبك بقوة، يا ليوني، قل بأنك تنتظرنني، بأنك تحبني أليس كذلك؟ أنت تعرف على الأقل ما فعلته من أجلك؟ لم يكن ربما من الضروري أن أجيء معك اليوم؟ أنت تحبني مع ذلك قليلاً جداً يا ليون؟ ليس من الممكن بأن لا تحبني على الإطلاق... أنت تمتلك قلباً، قل يا ليون، تمتلك قليلاً من القلب مع ذلك؟... لماذا إذن تستخف بحبي؟ لقد صنعنا حلاً جميلاً كلانا معاً.. لكم أنت قاسٍ معي رغم ذلك... لقد ازدريت حلمي يا ليون.. لقد دنسته... يمكنك أن تقول بأنك حطمت المثال الذي صنعه.. هل تريد إذن أن لا أعود أو من بالحب، قل؟ والآن، أنت ترغب في أن أنصرف عنك إلى الأبد إذن؟ هل هذا ما تريده فعلاً؟..» وفيما كانت تسأله هكذا كانت قطرات المطر تتساقط فوقنا عبر مظلة المقهى.

كانت ماديلون بالتأكيد مثلما وصفها لي سابقاً. لم يكن قد اختلق أي شيء فيما يتعلق بشخصيتها الحقيقية. لم أستطع أن أتخيل بأنها كانت قد توصلت بهذه السرعة إلى مثل هذه الحرارة العاطفية. كان الأمر على هذا النحو فعلاً.

لما كانت السيارات وسائر حركة المرور تثير ضجة حولنا، فقد اغتمت الفرصة كي أهمس مع ذلك بكلمة صغيرة في أذن روبنسون حول الوضع الذي كنا فيه، بأن نخلص منه الآن. وبنتهي من كل ذلك بأقصى سرعة، مادامت محاولتنا قد فشلت، وبنسحب بهدوء قبل أن تسوء الأمور أكثر ويستحکم العداء بينهما حتى الموت... كنت أخشى ذلك «هل تريد أن أجد لك عذراً، همست له، وأن ينسحب كل منا إلى جهته...»

- لا تفعل ذلك على الأخص، أجايني روبسون، لا تفعل ذلك. ستكون قادرة على أن تفجر أزمة هنا، ولن يكون بإمكاننا إيقافها!« ولم أصر على موقفي. ربما كان مما يسعد روبنسون في النهاية أن يتعرض للشتم علناً. ثم إنه كان يعرفها أفضل مني. لما أن توقف وابل المطر، وجدنا سيارة تاكسي فاندفعنا إليها، وها نحن نجلس، بعضنا إلى جانب بعض، لم يتقوه أحد بكلمة، في البداية. كان غم ثقيل يخيم بيننا، ومن ثم فقد كنت قد ارتكبت ما يكفي من الهفوات، لذا كان بوسعي الانتظار قليلاً قبل أن أعاود الحديث.

جلسنا أنا وليون في المقعد الأمامي، وشغلت المرأتان المقعد الخلفي. إنها أمسيات العيد، كان شارع أرجنتيال مزدحماً، ولا سيما عند مدخله، وبعد ذلك كان ما يزال أمامنا ساعة كاملة حتى نصل إلى فينيه بسبب زحام السيارات، لم يكن من السهل البقاء ساعة دون التقوه، بكلمة، ونحن ننظر إلى

بعضنا، وجهاً لوجه، وعلى الأخص حين يعم الظلام، ونكون قلقين قليلاً، بعضنا، بسبب البعض الآخر.

لو أننا بقينا هكذا ، صامتين مغناظين.. كل واحد منا في حاله لما حدث شيء. ما زال هذا رأيي إلى اليوم، حينما أفكر بما حدث. حاصل الكلام، أنني أنا من وصل حبل الحديث من جديد، واستؤنف النزاع حينئذ على الفور، وبنحو صاخب. مع الكلمات لا يرتاب المرء إطلاقاً بما يكفي. لا تبدو الكلمات شيئاً ذا بال، وهي لا تشف عن أخطار بالتأكيد. إنها بالأحرى رياح خفيفة، أصوات صغيرة من الفم، لا ساخنة ولا باردة، تستولي عليها الأذن ما إن تقال. يستولي عليها مثل الدماغ، ذلك الملل الهائل الرمادي الرخو الذي يغلف الدماغ، ما كنا نرتاب بالكلمات حتى وقع البلاء.

كلمات، ثمة بعض منها ما يختفي بين كلمات أخرى، مثل الحصى الصغيرة، لا يتعرف عليها المرء بنحو خاص، وبعد ذلك تجعلك ترتعد طوال حياتك، بكل كيائك، بضعفك وقوتك، إنه الهول حينئذ. جرف كاسح، وتظل هناك مثل مشنوق.. فوق لجة الانفعالات.. فما حدث كان عاصفة، أقوى بكثير منك، هي من العنف بحيث لن تصدق إطلاقاً بأن من الممكن أن يحدث مثل ذلك البركان داخل مشاعرك.. وإذن، فنحن لم نكن نرتاب مطلقاً، بما يكفي، بالكلمات. ذلك ما استخلصته. ولكن بداية إليكم ما حدث.. كان التاكسي يتبع الترام بسبب الترميمات.. «ررون، ررون..» كان يهدر.. قناة صغيرة كل مئة متر. لم يكن يكفيني هذا الترام الذي يسير أمامنا، بثرثرته وصيبيانيته. كان صبري ينفد. لم أعد أطيق تلك المشية البطيئة التي هي أشبه بمشية الجنازة، ولا هذا الغموض الذي يسود في كل مكان.. كنت أتعجل كسر هذا الصمت كي أعرف ما الذي كان

يمكن أن يجري في الخلف، كنت أراقب، أو بالأحرى، أحاول أن أراقب، ما دمت لم أعد أراها تقريباً، في الزاوية اليسرى، في خلفية التاكسي، ماديلون، كانت تدير وجهها يوماً نحو الخارج، نحو مشهد الطبيعة، نحو الليل، في الحقيقة.. كنت ألاحظ بغيبض بأنها كانت ما تزال على عنادها. وكنت أنا، من جانبي. مزعج حقاً. سألتها، كي أجعلها فقط تدير رأسها نحوي:

«قولي لي إذن يا ماديلون!، ربما يكون لديك مشروع للتسلية تتحرجين من أن تقضي به إلينا؟ هل ترغبين أن نتوقف في مكان ما قبل العودة، قولي ذلك، وفوراً؟!..»

- تسلية! تسلية. أجابتي كما لو أنني أهنتها. «أنتم لا تفكرون أبداً إلا بهذا! بالتسلية!..» وفجأة، نفثت من صدرها مجموعة من التهديدات، عميقة جداً، نادراً ما سمعت تهديدات بهذا القدر من الشجى والتأثير في النفس.

«أنا أفعل ما أستطيع! أحببتها، إنه الأحد!

- وأنت يا ليون؟ سألته حينئذ. هل تفعل كل ما يمكنك فعله، قل؟» كان سؤالها مباشراً.

- صدقيني! أجابها ليون:

كنت أنظر إليهما كلا الاثنين حينما كنا نمر أمام المصابيح، لمحت نيران الغضب وهي تفور.. كانت ماديلون حينئذ منحنية، كأنها تهم بعناقه، يمكن القول قطعاً بأننا في ذلك المساء لم نفوت أية هفوة لم نرتكبها.

كان التاكسي يمضي بنا من جديد ببطء متناه، بسبب الشاحنات الكبيرة المصطفة في كل مكان أمامنا.. كان روبنسون متضايقاً من ذلك العناق الذي همت به ماديلون، فدفعها عنه بخشونة. لا بد من قول ذلك، من المؤكد أن حركته تلك لم تكن لطيفة، لا سيما أن ذلك قد حدث أمامنا نحن الآخرين.

«ما الذي فعلته أيضاً لليون كي يغدو خبيثاً بهذا القدر؟ هل تجرؤ على أن تقوله لي حالاً؟.. أية أشياء قد رويتها له أيضاً..». شرعت تتحدث إلي بهذه الصورة.

- ولكن لا شيء على الإطلاق، أحببتها. لم أحدثه قط بأي شيء! لست مهتماً بخلافاتكما..».

بالتأكيد، كان ذلك صحيحاً، لم أحدث إلى ليون بأي شيء يتصل بهما من قريب أو بعيد.. كان حراً. كان ذلك شأنه، أن يبقى معها أو أن يفصل عنها. لم يكن ذلك يعني. ولكن ليس ثمة حاجة لمحاولة إقناعها. فهي لم تعد تدرك شيئاً، وعدنا كرة أخرى إلى مواجهة الصمت، داخل التاكسي، ولكن الجو ظل ملبداً تماماً بالشتائم، بحيث لم يكن ممكناً أن يصمد طويلاً. كانت ماديلون تكلمني هذه المرة بصوت من تلك الأصوات الهادئة التي لم أعدها تتحدث بها سابقاً. صوت رتيب على غرار شخص مصمم كلياً، لم يعد بوسعي أن أتبين حركاتها، وهي تغوص في جلستها، في زاوية المقعد الخلفي. كان ذلك يضايقني كثيراً.

كانت صوفي، في أثناء ذلك تمسك بيدي.. لم تعد صوفي فجأة تعرف أين تنفس، الفتاة المسكينة.

بينما كنا نتجاوز شارع سانت أوين بدأت ماديلون تجأ من جديد بالشكوى والتظلم تجاه ليون، وعلى نحو جنوني مسعور، طارحة عليه الآن أسئلة لا نهاية لها، وبصوت عال، حول عاطفته نحوها ووفائه لها. كان ذلك مربكاً كل الإرباك لي ولصوفي، ولكنها كانت من الاحتداد إلى درجة أنه كان سيان لديها أن نسمع ما تقوله، على العكس تماماً. لم يكن من الذكاء من

جانبى أيضاً إدخالها معنا فى هذه اللعبة، فقد كان ذلك يتيح لصوتها أن ىرن رنياً، ويفتح شهيتها، انسباقاً مع طبيعتها لأن تعنفنا بكل قسوة. كان التاكسى أيضاً مبادرة خرقاء أخرى من جانبى.

ليون نفسه، لم يعد يصدر عنه أى رد فعل. فى البداية، كان مرهقاً من الأمسية التى كنا قد أمضيناها سوياً. ومن ثم فقد كان يعوزه النوم دائماً، كان ذلك مرضه.

«اهدئا، هيا! وجدت الفرصة لأن أجعل ماديلون تسمعنى، ستفاهما كلاكما لدى وصولنا.. لديكما كثير من الوقت.

- لدى وصولنا! لدى وصولنا! أجابتنى حينئذ بنبرة لا يمكن لأحد أن يتخيلها. لدى وصولنا؟ ولكننا لن نصل أبداً أقول لك! تابعت كلامها. أنا فتاة شريفة!.. أنا أشرف منكم جميعاً!.. يا عصابة للخنازير.. تحاولون عبثاً أن تسخروا منى. أنتم لستم أهلاً لأن تفهموننى! أنتم أشد نتانة من أن تكونوا قادرين على فهمى! كل ما هو شريف، وكل ما هو جميل لا يمكنكم أن تفهموه.

كانت تهاجمنا أخيراً فى كرامتنا، واستمرت على هذا النحو. كنت عبثاً أتمالك نفسى داخل مقعدي، وبأقصى ما أستطيع، محاولاً أن لا أصدر نفساً واحداً عالياً، كى لا أزيد من هياجها، ومع كل تغير فى سرعة التاكسى كانت تتطلق من جديد فى ثورة غضب عارمة، كان أى شيء كافياً فى تلك اللحظات كى يصدر عنها ما هو أسوأ، كما لو أنها كانت تستمتع بجعلنا نعاء، لم يعد بإمكانها أن تمنع نفسها من الذهاب فوراً إلى أقصى حدود طبيعتها.

«لا تعتقدوا بأن الأمر سيمر بسلام على هذا النحو! كانت تواصل تهديدنا. وأنه سيكون بإمكانكم أن تتخلصوا منى بهدوء! آه، لا، إذن، أحب أن

أقول لكم ذلك في الحال! لا، لن تسير الأمور كما تشتبهون! أنتم جميعاً قذرون أو غاد.. لقد سببتم لي التعاسة! أريد أن أوظفكم، أيها القذرون المقززون!..».

وفجأة، انقضت على روبنسون، وأمسكته من معطفه وجعلت تهزه بكلا ذراعيها. لم يفعل هو شيئاً كي يحرر نفسه منها. وما كنت لأتدخل لتخليصه. يمكنني الاعتقاد بأن ذلك كان يسعده، بأن يراها محتمة أكثر تجاهه. كان يضحك هازئاً. لم يكن ذلك طبيعياً. كان يرتعش فيما هي ماضية في شتمه مثل دمية متحركة أنه إلى الأسفل، وعنقه مرتخ تماماً.

في اللحظة التي كنت سأقوم خلالها بحركة تحذير صغيرة كي أوقف هذه الفظايات! تحفرت هي للمقاومة، ثم بصقت البصقة في وجهي هذه المرة، أخرجت كل ما كان متركماً في قلبها منذ زمن طويل. كان ذلك دوري، يمكنني القول، وأمام الجميع: «ابق هادئاً إذن أيها الشبق! على هذا النحو بدأت الهجوم. ليس من شأنك أن تتدخل بيني وبين ليون! عنترياتك، أيها السيد، لم تعد تخيفني، أنت تسمعي؟ أليس كذلك؟ لم تعد تخيفني! إذا ما رفعت يدك علي مرة واحدة في يوم من الأيام، فستعلمك ماديلون كيف ينبغي عليك أن تتصرف في الحياة!.. تخدع رفاقك من وراء ظهورهم وبعد ذلك تصفع نساءهم!.. أية وقاحة هذه! ألا تستحي من نفسك إذن!» حين سمع ليون هذه الحقائق، بدا كما لو أنه صحا قليلاً، لم يعد يضحك بهزاء. تساءلت خلال لحظة قصيرة إذا ما كنا سنتحدى بعضنا، سنوسع بعضنا ضرباً ولكمأ. ولكن لم يكن المكان متسعاً للقتال، ونحن أربعة داخل التاكسي. كان ذلك يطمئنني. فالمكان كان ضيقاً جداً.

كنا ننطلق على الأخص، بسرعة كافية الآن فوق بلاط الشوارع المحاذية للسين، وكان الاهتزاز أكثر مما يسمح لنا بالحركة.

«هلم يا ليون.. توجهت إليه امرأة! هلم معي. أسألك للمرة الأخيرة!!»
هل تسمعني.. هيا؟ دعهم وشأنهم. ألا تسمع ما أقوله لك؟»
كوميديا حقيقية.

أوقف التاكسي، هيا يا ليون! أوقفه أم سأوقفه أنا بنفسي!»
ولكن ليون لم يكن يتحرك من مقعده، كأنه مشدود بلولب
«ألا تريد أن تأتي إذن؟ بدأت من جديد. لا تريد أن تأتي؟!»
كانت قد نيهتني إلى أنه فيما يتعلق بي. من الأفضل لي أن ألبث هادئاً
مطمئناً. «ألا تأتي!» كانت تكرر دعوتها له. وواصل التاكسي سرعته، بعد أن
غدت الطريق حرة أمامه الآن، وكنا ما نزال مشعثين، على غرار طرود ملقاة
هنا وهناك.

«حسن، استخلصت أخيراً، ما دام لم يجبها بأي شيء. هذا جيد. أنت
نفسك من يريد ذلك! غداً، أنت تسمعني، وليس الغد ببعيد سأذهب إلى مفوض
البوليس، وسأشرح له، للمفوض كيف سقطت الأم هنروي عن الدرج! أنت
تسمعني، الآن، قل يا ليون؟ أنت مسرور؟ أنت تتظاهر بالصمم؟ إما أن تأتي
معي على الفور أو سأذهب لأرى المفوض غداً! هل تريد إذن أن تأتي معي
أم لا؟.. أوضح موقفك..» كان ذلك تهديداً واضحاً لا لبس فيه.
قرر ليون مع ذلك أن يجيبها بشيء ما في تلك اللحظة.

«ولكنك كنت ضالعة أيضاً، قولي إذن، ليس لديك ما تقولينه..» حينما
سمعت ذلك. لم تهدأ على الإطلاق، على العكس تماماً.. «لا يهمني على الإطلاق
أن أكون ضالعة معك! هل تريد أن تقول بأننا سنذهب كلانا إلى السجن؟.. وأنتي
شريكة معك؟ هل هذا ما تريد قوله؟ ولكنني لا أطلب أفضل من ذلك...»

ثم بدأت فجأة تضحك هازئة، مثل امرأة هستيرية. كما لو أنها ما
ابتهجت يوماً قط مثلما ابتهجت الآن لدى سماعها ذلك.

«ولكنني لا أطلب أفضل من ذلك، أكرر لك، ولكن ذلك يعجبني، أن
أدخل السجن، أقول لك ذلك! لا تحسب بأنني سأنهار بسبب السجن! سأذهب
بكل طيب خاطر، إلى السجن، ولكنك ستذهب أنت أيضاً حينئذ، قل يا
وغدي؟.. لن تسخر مني طويلاً على الأقل!.. أنا لك، حسناً، ولكنك أنت لي!
ولن تملك إلا أن تبقى معي هناك! أنا أعرف حباً واحداً، أيها السيد! لست
مومساً!..»

كانت تتحدثانا أنا وصوفي في الوقت ذاته، وهي تقول ذلك.
على الرغم من كل هذا كانت التاكسي ما تزال تسير بنا، وكان ليون ما
يزال على قراره بعدم إيقاف التاكسي.

«لن تأتي إذن؟ هل تفضل الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقة؟ حسناً!..
أنت لا تبالي بأن أشي بك؟!.. وبأنني أحبك؟!.. لا تبالي أيضاً أليس كذلك؟!..
لا تبالي بمستقبلي؟. لا تبالي بكل شيء، منذ البداية أليس كذلك؟ قل ذلك؟

- نعم، بمعنى من المعاني، أجابها ليون هذه المرة.. أنت على حق.. أنا
لا أبالي؟! ولكن ليس بك أنت أكثر مما بأي امرأة أخرى. لا تأخذي ذلك
على أنه إهانة على الأخص!.. أنت لطيفة في النهاية.. ولكن لم يعد لدي
رغبة بأن يحبني أحد.. فهذا يقززني!..»

لم تكن تتوقع أن يقول لها ما قاله. في وجهها تماماً، هنا، ولفرط ما
فوجئت بذلك لم تعد تعرف تماماً من أين ستستأنف السباب الذي بدأته. كانت
مبلبة إلى حد ما، ولكنها استأنفت مع ذلك. «آه هذا يقززك!.. كيف يقززك
ذلك!.. وماذا تعني؟!.. أشرح إذن أيها الجاحد القذر..»

- لا! لست أنت من يقززني، بل كل شيء، أجابها، ليس لدي رغبة..
ينبغي أن لا تحقدي علي من أجل ذلك..

- كيف، ما الذي تقوله؟ أعده مرة أخرى؟.. أنا وكل شيء؟». كانت تحاول أن تفهم. «أنا وكل شيء؟ اشرح ذلك إذن؟ ما الذي يعنيه هذا؟.. أنا وكل شيء؟.. لا تتكلم بالصينية!.. قل لي ذلك بالفرنسية. قل لي أمامهما. لماذا أقززك أنا الآن؟ ألا تنتهيح إذن مثل الآخرين، قل أيها الوغد الضخم... هه؟ أتحرو على أن نقول هنا؟.. أمام الجميع بأنك لا تستطيع....؟».

على الرغم من فورة غضبها فإن طريقتها في الدفاع عن نفسها، بملاحظاتها تلك، كانت تبعث على الضحك، ولكن لم يكن لدي الوقت للضحك ولا المزاح فقد أعادت الكرة موجهة هجومها نحوي «وهو. هذا الجالس بجانبك إذن، قالت ذلك مشيرة إلي، ألم يكن يحاول أن يستمتع بي في كل مرة استطاع فيها أن يمسكني في زاوية من الزوايا، هذا الوغد، هذا الممتلق. فليجرو إذن وليقل لي العكس؟.. قولوا إذن جميعكم بأنكم تريدون أن تبدلوا.. اعترفوا بذلك، وأن هذه اللعبة الجديدة هي ما يلزمكم! لعبة الجنس الجماعي، يا عصابة الفاسدين المنحطين! يا عصابة الخنازير! لماذا تبحثون عن الأعدار؟ لستم سوى سئمين متقززين، وهذا كل شيء! لم يعد لديكم الشجاعة لتعترفوا بردائلكم، إنها تخيفكم، ردائلكم!».

في تلك اللحظة، فإن روبنسون هو الذي أخذ على عاتقه مهمة الرد عليها، وبلغ به الغضب أيضاً كل مبلغ، وراح يزقق هو أيضاً ليس أقل منها.
«ولكن بلي، رد عليها. لدي الشجاعة، تماماً مثلما لديك!.. وإذا شئت أن تعرفي كل شيء.. كل شيء بالتأكيد.. حسناً فإن ما ينفرنني! وما يقززني الآن

هو كل شيء، وليس فقط أنت!.. بل كل شيء!.. والحب على الأخص. حبك أنت مثلما حب الآخرين.. أولئك الذين يملكون عواطف كالتى تملكينها، هل ترغبين أن أقول لك ما الذي يشبه كل هذا؟ إنه يشبه ممارسة الحب في المراهيض؟ هل تفهميني الآن؟ وكل العواطف التى تبحثين عنها كي أبقي لازقاً بك تبدو لي إهانات إن شئت أن تعرفي.. ومع ذلك لا يخطر لك على بال بأنك كريهة ومنفرة لأنك لا تدركين ذلك، ولا يخطر لك أيضاً بأنك مثيرة للفتنة! كفاك تكرار ما يردده الآخرون وأنت تجدين ذلك طبيعياً.. لأن الآخرين يحدثونك بأنه ليس هناك ما هو أفضل من الحب. وأن الحب يزهر ويثمر مع كل البشر، وفي كل الأوقات.. حسناً، لقد سئمت أنا من حب البشر قاطبة!.. هل تسمعينني؟ إنه آخر ما أهتم به.. حبهم المقرف!.. لقد جافيت الصواب!.. وصلت متأخرة! لم يعد يثمر كل ما تفعليه! هذا كل شيء!.. ومن أجل ذلك تثورين غاضبة. هل تصرين مع ذلك على ممارسة الحب وسط كل ما يجري؟.. وسط كل ما ترينه؟ أم أنك لا ترين شيئاً من ذلك؟ أنا أرى بالأحرى بأن الأمور لديك سواء!.. تتظاهرين بأنك عاطفية في حين أنك فظة أكثر من أية امرأة أخرى.. هل تريدان أن تأكلي لحمًا متعفنًا؟ مع صلصتك من الحب والرقعة؟.. هل هذا ينجح إذن؟.. ليس بالنسبة إلي!.. إذا كنت لاتشمين شيئاً فنعمر الأمر بالنسبة إليك! ذلك لأنك قد أغلقت أنفك! ينبغي أن تكوني مصابة بالخبل حتى لا يقرزك ذلك. حسناً، فإن ما بيني وبينك، الحياة بكاملها. ألا يكفيك ذلك.»

- ولكن كل ما لدي نظيف. ردت معاندة.. يمكن للمرء أن يكون فقيراً ونظيفاً مع ذلك. متى رأيت بأن ما لدي لم يكن نظيفاً؟ هذا ما أردت أن تقول

كي تحقرني. إن لدي خلفية نظيفة، يا سيد!.. لا تستطيع ربما أن تقول ذلك عن خلفيتك!.. ولا عن قدميك أيضاً.

- ولكنني لم أقل ذلك مطلقاً يا ماديلون! لم أقل شيئاً كهذا على الإطلاق! بأن ما لديك ليس نظيفاً؟ أنت ترين جيداً بأنك لا تفهمين أي شيء!«
ذلك كل ما وجده من جواب كي يهدئها.

«أنت تزعم بأنك لم تقل أي شيء إذن؟ لم تقل أي شيء؟ اسمعوا الآن هذا الذي جعلني أشد انحطاطاً من الأرض، ثم يزعم أيضاً بأنه لم يقل شيئاً. ولكن ينبغي قتله كي لا يعود بمقدوره أن يكذب مزيداً من الكذب!.. السجن ليس كافياً لخنزير مثله. قواد قدر متعفن! لا، ليس هذا كافياً!.. حبل المشنقة هو ما يلزمه!..»

لم تعد تريد أن تهدأ. وما عدنا نفهم شيئاً مما يدور بينهما من شجار داخل التاكسي، لم نسمع سوى كلمتين ضخمتين تترددان وسط الضجة التي كانت تثيرها السيارة، من جراء اصطكاك الدواليب بالمطر، وبالريح التي كانت تنقض على الأبواب والنوافذ عاصفة مزوبعة.. تهديد ووعيد كان يحوم بيننا، ويمسك بتلابيبنا. «هذا دنيء» رددتها مرات عدة. لم تعد تستطيع أن تقول شيئاً آخر.. «هذا دنيء». ثم جربت اللعبة الكبيرة: «هل تأتي؟ قالت له، هل تأتي يا ليون؟ واحد؟ هل تأتي معي؟ اثنان؟.. انتظرت قليلاً «ثلاثة؟» أن تأتي إذن؟.. لا! أجابها ليون دون أن يتحرك قيد أنملة. افعلي ما تشائين!»
أضاف أيضاً، كان ذلك جوابه.

من المؤكد أنها تراجع قليلاً في مقعدها، إلى عمقه تماماً، ولا بد أنها أمسكت بالمسدس بكلتا يديها، لأن النار حينما انطلقت كانت متجهة مباشرة إلى بطنه، والطلقتان معاً تقريباً. مرتان متتاليتان، وعبق التاكسي حينئذ بالدخان اللاذع.

كانت السيارة تتابع سيرها مع ذلك. سقط روبنسون بجسمه علي بنحو جانبي، وجسده يرتج بقوة مغمغماً «هوب! هوب!» لم يكن يتوقف عن الانين «هوب! وهوب» كان السائق قد سمعه بالتأكيد.

أبطأ من سرعته قليلاً في البداية، كي يفهم ما جرى. ثم توقف تماماً في النهاية أمام أحد مصابيح الغار.

ما أن فتح باب السيارة، حتى دفعته ماديلون بعنف وألقت بنفسها خارجاً، وتدحرجت فوق تراب الردم. ثم انسلت وسط ليل الحقول مخوضه في الوحل. عبثاً كنت أناديها، كانت قد ابتعدت.

لم أعد أعرف ما الذي سأقرره بشأن الجريح. أن أذهب به الى باريس؟ ذلك سيكون قراراً عملياً أكثر.. كنا بعيدين جداً عن منزلنا.. وضعناه أنا وصوفي بين المعاطف، حشرناه في الزاوية ذاتها التي استقرت فيها ماديلون كي تطلق النار. «بهدوء» طلبت من السائق، ولكن كان ما يزال يسير بسرعة كبيرة، كان متعجلاً، وكانت الارتجاجات تجعل روبنسون يئن متوجعاً.

لما أن وصلنا أمام المنزل لم يرغب السائق حتى أن يعطينا اسمه. كان قلقاً بسبب المتاعب التي سيجرّها عليه كل ذلك مع البوليس، والشهادات..

كان يزعم أيضاً بأن بقعاً من الدم قد لوثت وسائد سيارته، وهو يريد أن يرحل دون تأخير، ولكنني أخذت رقم السيارة.

كان روبنسون قد تلقى الرصاصتين في بطنه، وربما الثلاثة، لا أدري بالضبط كم عددها.

لقد سددت مباشرة أمامها، كنت قد رأيته. لم تكن الجراح تتزف، وعلى الرغم من أننا وضعناه بيننا أنا وصوفي، وثبتناه جيداً إلا أنه كان يرتج كثيراً

مع ذلك، ويتحرك رأسه في كافة الاتجاهات كان يتكلم. ولكن كان من الصعب فهم ما يقول. لقد غرق في هذيان «هوب، وهوب» واستمر يدندن، سيكون لديه الوقت ليموت ربما قبل أن نصل.

عاد الطريق مبلطاً من جديد، حينما صرنا أمام سورنا المشبك أرسلت الحارسة لتبحث عن بارابين في غرفته، بسرعة، وقد نزل على الفور، واستطعت معه ومع ممرض أن نحمل ليون حتى سريره.

حين جردناه من ملابسه تمكنا من فحصه وجس جدار بطنه. كان الجدار مشدوداً تحت أصابعنا، نابضاً بقوة، وكان كامداً أيضاً في بعض المواقع. عثرت على ثقبين، أحدهما فوق الآخر، ولم أعتز على ثالث، لا بد أن إحدى الرصاصتين قد ضاعت.

لو كنت مكان ليون، لفضلت لنفسى نزيفاً داخلياً. فهذا يغرق البطن بالدماء وتأتي النهاية بسرعة. يمتلأ غشاء البطن وينتهي كل شيء. أما إذا حدث النزيف خارج الغشاء، فستنقش العفونة والعدوى. وهذا يطول.

كان بوسعنا أن نسأل أنفسنا ما الذي سنفعله كي ننتهي من ذلك. كان بطنه ينتفخ، وكان ليون ينظر إلينا، ثابتاً في مكانه لا يريم. كان يئن، ولكن ليس كثيراً، لم يكن ذلك سوى نوع من السكينة. لقد رأيته سابقاً مريضاً جداً في عدة مواضع مختلفة من جسمه، ولكن وضعه هذه المرة كان جديداً تماماً، الأهات، والعينان وكل شيء. لم نعد نمسك به مثلما يقال، كان يمضي بعيداً من دقيقة إلى دقيقة. كان ينضح حبات كبيرة جداً من العرق، كما لو كان يبكي من كل مسام وجهه، ما يزعجك بعض الشيء في تلك اللحظات أن تغدو بمثل هذا البؤس وهذه القسوة التي غدوت عليها. ينقصك كل ما يلزم تقريباً كي تساعد شخصاً على أن يموت.

قلما يعود في داخلك سوى أشياء نافعة للحياة في أيامك المقبلة. الحياة الهائلة، حياتك أنت وحدك، القسوة وانعدام الرحمة. لقد فقدت الثقة على الدرب طرقت الرحمة التي بقيت لديك، إلى قعر جسمك مثل قرص قنر.. دفعت الرحمة إلى نهاية معيك الغليظ مع القذارة . لقد كانت هناك إن شئت القول.

لبثت واقفاً أمام ليون، لم أفلح في الشفقة عليه، وما شعرت يوماً بمثل هذا الضيق. لم يكن ليون يجذني.. كان يعاني من ذلك.. كان يبحث بالتأكيد عن فرديناند آخر، أعظم مني بلا شك، كي يموت، كي يساعده بالأحرى على أن يموت، بهدوء أكثر. كان يبذل جهوداً لكي يعرف ما إذا كان العالم سيحقق يوماً بعض التقدم، كان المسكين يقوم بمراجعة في قرارة نفسه، ترى هل كان الناس سيتغيرون قليلاً نحو الأفضل لو أنه لم يكن خلال حياته التي عاشها جائراً أحياناً تجاههم دون إرادة منه.. ولكن لم يكن هناك سواي، سواي أنا، وحيداً إلى جانبه. فرديناند حقيقي، ينقصه كل ما يجعله إنساناً أكبر من حياته التعيسة، ينقصه الحب تجاه حياة الآخرين. فمن هذا الحب، لم يكن في جعبتي شيء، أو كان لدي منه قليلاً جداً في الحقيقة، بحيث لم يكن ثمة حاجة إلى إظهاره، لم أكن كبيراً كالموت. كنت أصغر بكثير.

لم أكن أملك الفكرة الإنسانية العظيمة. كنت سأشعر، في الواقع، بالحزن تجاه كلب يفتس أمامي بسهولة أكبر مما تجاه روبنسون. ذلك لأن كلباً من الكلاب ليس ماکراً، في حين أن ليون كان ماکراً بعض المكر رغم كل شيء. أنا أيضاً كنت ماکراً. كنا ماکرين.. كل ما تبقى لدي كان قد ذهب على امتداد الدرب، وحتى تلك التكتيشيرات التي ما يزال من الممكن استخدامها أمام الموتى، كنت قد فقدتها. كنت بالتأكيد قد فقدت كل شيء على الطريق، لم أكن أعثر على

أي شيء مما هو بحاجة إليه كي يموت. لا شيء سوى السخريات الخبيثة. كان شعوري أشبه بمنزل لا يذهب إليه أحد إلا في العطلات. فهو لا يكاد يصلح للسكنى. غير أن المحتضر متطلب. فالاحتضار لا يكفي.. لا بد من أن يستمتع في الوقت نفسه وهو يموت. بالفواقات الأخيرة، ينبغي أن يستمتع بها أيضاً وهي تتبثق من درك الحياة الأني، بالبولة التي تملأ للشرابين.

يبكي المحتضرون أيضاً لأنهم لا يستمتعون بما يكفي وهم يموتون، إنهم يتطلبون.. يحتاجون.. تلكم هي كوميديا الشقاء التي نسعى خلالها للعبور من الحياة إلى داخل الموت نفسه.

حينما حققه بارابين بحقنة مورفين استعاد حواسه قليلاً حتى أنه حكى لنا حينئذ أشياء حول ما كان قد حدث له.. «من الأفضل أن ينتهي ذلك على هذا النحو..» قال ذلك ثم استأنف «ليس هذا سيئاً جداً مثلما كنت أعتقد..»، وحينما سأله بارابين، في أي مكان من جسمه كان يتألم بالضبط، كنا نرى بوضوح بأنه كان على عتبة الرحيل، ولكنه أيضاً كان حريصاً، رغم كل شيء على أن يقول لنا أشياء أيضاً. كانت تعوزه القوة وكذلك الوسائل. كان يبكي. وراح يخنق ويضحك بعد ذلك مباشرة، لم يكن مثل مريض عادي. ولم نكن نعرف كيف نتماسك أمامه.

كان كما لو أنه يحاول الآن أن يساعدنا عن أن نعيش نحن الآخرين. كما لو أنه يبحث لنا عن أفراح كي نبقى. كان يمسك بأيدينا كل واحد منا بيد، عانقته. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً سوى ذلك من دون أن أخطئ. انتظرنا، لم يعد يقول شيئاً. وبعد مرور وقت، ساعة ربما لا أكثر، كان النزيف الداخلي هو الذي حسم الموقف، ولكنه كان غزيراً، فائضاً كثيفاً. وذهب به دون تأخير.

بدأ قلبه ينبض بسرعة أكثر فأكثر، بسرعة قصوى. كان قلبه يعدو خلف دمه، منهكاً مستنفداً هناك، صغيراً، في نهاية شرايينه، ليرتعش عند أطراف أصابعه، علاه الشحوب من العنق ثم استولى على الوجه بكامله، ثم انتهى إلى الاختناق. مضى مرة واحدة كما لو كان يستعد للقفز، فيما هو يضغط على يدينا، بذراعيه كليهما.

ثم إنه عاد هناك أمامنا، في الحال تقريباً، متشنجاً، حاملاً كل وطأة الموت.

نهضنا نحن، حررنا أيدينا من يديه، ظلت يداه في الهواء متصلبتين تماماً، منتصبتين، يغشاهما الاصفرار والزرقة تحت ضوء المصباح. داخل الغرفة كان روبنسون يبدو الآن كغريب، يغادر بلداً جار عليه، ولم يعد أحد يجرو على أن يكلمه.



« كان بارابين يحتفظ بصفاء ذهنه، وقد وجد وسيلة كي يرسل أحداً لإحضار رجل من مركز البوليس. كان هذا هو غوستاف بالتحديد غوستافنا، الذي عين حاجباً بعد تركه العمل في مراقبة التهريب. هذه مصيبة أيضاً» قال غوستاف ذلك ما أن دخل إلى الغرفة ورأى مارأى. ثم جلس جانباً كي يسترد أنفاسه قليلاً، ويشرب أيضاً جرعة على طاولة الممرضين التي لم ترفع عنها الأطباق والأقداح بعد. «مادامت تلك جريمة فلا بد من نقله إلى المركز» اقترح غوستاف ثم علق أيضاً، «كان روبنسون فتى لطيفاً. لم يكن ليؤذي ذبابة، أنا أتساءل لماذا قتلتها؟..» ثم عاود الشرب، كان الشراب يؤذيه، ولكنه كان يحب الزجاجاة. ذلكم كان ضعفه.

بحثنا معه عن محمل في المخزن، كان الوقت متأخراً الآن من أجل إيقاف الموظفين المسؤولين، قررنا نحن بأنفسنا نقل الجسد إلى مركز البوليس. كان المركز بعيداً في الجهة الأخرى من البلدة بعد تقاطع السكة الجديدة، في آخر منزل على طرف البلدة.

هكذا بدأنا السير، كان بارابين يحمل من الأمام، وغوستاف ماندامور من الطرف الآخر، ولكنهما لم يكونا يسيران بخط مستقيم تماماً لا هذا ولا ذلك، قادتهما صوفي خلال النزول على الدرج الصغير، لاحظت بأن صوفي لم يكن يبندو عليها التأثير في تلك اللحظة، لقد حدث ما حدث بالقرب منها مع ذلك، وكان من الممكن أن تتلقى إحدى الرصاصات حينما كانت المجنونة الأخرى تطلق النار. ولكن صوفي، مثلما لاحظتها في مواقف أخرى كان

يلزمها الوقت قبل أن يدهما الانفعال والتأثر. لم يكن ذلك عن برود في طبيعتها، مادام أن ذلك قد اجتاحتها مثل إعصار، غير أنه كان يلزمها الوقت... كنت أود أن أتبعهما أنا أيضاً قليلاً، كي أتأكد بأن ذلك قد انتهى كلياً، ولكن بدلاً من أن أتبعهما مع محملهما، كما كان ينبغي لي، رحت أمشي بالأحرى ذات اليمين وذات الشمال على امتداد الطريق ولما أن اجترت في النهاية المدرسة الكبيرة الواقعة على أطراف تقاطع السكة الحديدية انسللت عبر طريق صغير يهبط بين الأسيجة ثم يتجه مباشرة شطر السين.

من فوق الحاجز المشبك رأيتهما يبتعدان بالمحمل، كانا يبدوان كما لو أنهما يختقان وسط غلالات الضباب المنعقدة خلفهما. وعلى الرصيف، كان الماء يدفع بقسوة الزوارق المتراسة في وجه الفيضان، ومن سهل جانبيه كانت نفحات محملة بالصقيع ما تزال تنداح فوق دوامات النهر، فتجعله يتلألاً ما بين القناطر.

هناك، في البعيد كان يترامى البحر. غير أنه ما كان علي الآن أن أذهب بخيالي نحوه، كان لدي الكثير مما يورقني، كنت أحاول عبثاً أن أتلاشى كي لا أعود إلى نفسي. انتهت جرجرة أقدامي، ولكن من يصدق؟.. أوصد العالم أبوابه... عند النهاية التي بلغناها نحن الآخرين! ولكن مثلما في العيد.. فأن تكون حزيناً ليس هذا كل شيء ينبغي أن تمتلك القدرة على البدء بالموسيقا من جديد، أن تذهب للبحث عن مزيد من الحزن... من يصدق؟... كنت أكثر استعداداً أيضاً لتحمل المزيد! ومع ذلك لم أكن قد أوغلت بعيداً في الحياة بقدر ما أوغل روبنسون... لم أكن قد حققت أي نجاح في المحصلة. ولم أمتلك فكرة صلبة واحدة، مثل تلك التي كان قد امتلكها كي يتلقى الضربات، فكرة أضخم أيضاً من رأسي الضخم، أضخم من كل الخوف الذي كان في داخلي، فكرة جميلة، رائعة ومريحة جداً كي أموت. كم سيلزمني من حيوات كي أصنع لنفسي، على هذا النحو، فكرة أقوى من العالم كله؟ كان من

المستحيل علي الوصول إلى ذلك! لقد حبط سعبي في المحصلة، كانت أفكاري تجول في رأسي داخل فراغ. كانت أشبه بشمعات صغيرة متواضعة، وامضة، ترتعش مدى الحياة وسط عالم فطيع كل الفطاعة.

ربما كانت حالي قد صلحت منذ عشرين عاماً، لم أكن لأستطيع القول بأنني لم أحقق بعض النجاح، ولكنني ما كنت لأفكر في النهاية بأنني قد توصلت مثلما توصل روبنسون إلى أن أملاً رأسي بفكرة واحدة، فكرة شديدة البهاء، أقوى من الموت، وأن أتوصل فقط بفكرتي إلى أن أسكب في كل مكان عصارة من الفرح واللامبالاة والشجاعة مثل بطل مفعم بعصارة الحياة.

ستملاً الشجاعة أعطافي حينذاك، ستقيض مني في كل مكان، ولن تعود الحياة ذاتها شيئاً سوى فكرة مطلقة عن الشجاعة التي تحرك كل شيء، البشر والأشياء، من الأرض حتى السماء. ومن الحب سأمتلك الكثير، في الوقت نفسه، بحيث سيبقى الموت حبيساً داخل الحب، وسيكون الموت من الدفء بحيث يربض هناك، مستمتعاً داخل الحب، وينتهي بأن يتسلى بالحب هو أيضاً مع جميع البشر... ذلك ما سيكون جميلاً كل الجمال، ما سيثمر أحسن الثمار! كنت أتسلى وحيداً على الرصيف مفكراً في كل ما ينبغي علي أن أنجزه بشأن الأشياء والبشر كي أتوصل إلى أن أترع نفسي بالقرارات اللانهائية.. علجوم حقيقي مثالي! إنها الحمى في نهاية المطاف.

منذ ساعة على الأقل كان رفيقاي يبحثان عني! لا سيما أنهما لاحظا حينما غادرتهما بأنني لم أكن على ما يرام... كان غوستاف ماندامور هو أول من رأني تحت قنديل الغاز، «هيه دكتور!... ناداني... يمكن القول بأن ماندامور كان له صوت مهيب «من هنا... إنهم يطلبونك في المركز! من أجل شهادتك!» «لا تبدو يا دكتور... أضاف، ولكن في أدني حينئذ، لا تبدو حقاً في حالة جيدة!» رافقتني في الطريق، وهو يسندني بيده كي يساعدي على السير... كان غوستاف يحبني

بالتأكيد، لم أكن أوجه إليه قط ملامة بسبب إفراطه في الشراب. كنت أدرك كل شيء، في حين أن بارابين كان حازماً معه بعض الشيء، كان يردعه من حين إلى آخر عن الشراب، كان غوستاف على استعداد أن يفعل أشياء كثيرة من أجلي، كان معجباً بي أيضاً، كان يقول لي ذلك، لم يكن يعرف السبب، ولا أنا أيضاً، ولكنه كان معجباً بي. كان الوحيد في ذلك.

انعطفنا معاً عبر شارعين أو ثلاثة حتى لاح لنا مصباح المركز، لم يعد بمقدوري أن لا أتماسك، كان التقرير قد أعده غوستاف وهذا ما يقلقه، لم يكن يتجرأ على أن يقول لي ذلك، كان قد جعل الجميع يوقعون بأسمائهم في أسفل التقرير، ولكن تقريره مع ذلك كان ما يزال ينقصه بعض الأمور.

كان لغوستاف رأس ضخّم. من نوع رأسي، كان بوسعي أن أرتدي قبعتي، وهذا كاف، ولكنه كان ينسى بسهولة التفاصيل. لم تكن الأفكار تخطر له ببسر، كان يجد صعوبة فائقة كي يعبر عن نفسه وأكثر من ذلك أيضاً، كي يكتب، وقد ساعده بارابين في كتابة التقرير، ولكن بارابين لم يكن قد رأى أي شيء من فصول الدراما... كان على بارابين أن يبتكر، ولم يكن المفوض يرغب بالابتكار في التقارير، لم يكن يريد سوى الحقيقة مثلما كان يقول.

فيما كنا نصعد درج المفوضية كنت أرتعش، لم يكن بمقدوري أن أروي للمفوض شيئاً ذا بال، كنت مرهقاً للغاية حقاً.

كانوا قد وضعوا جسد روبنسون هناك، أمام صفوف الملفات الضخمة لإدارة الشرطة.

أوراق مطبوعة في كل مكان، حول المقاعد، وأعقاب سكاثر قديمة، «الموت للجناة» ذلك ما كان مكتوباً على الأوراق بوضوح.

«لقد أنهكت نفسك يا دكتور؟» سألني السكرتير، بنحو ودي تماماً، حينما وصلت أخيراً. كنا جميعاً في غاية التعب، رحنا نغمغم بالتناوب.

تم الاتفاق أخيراً على حدود ومسافات الرصاصات، كانت إحدى الرصاصات ما تزال في القناة الفقرية، ولم يعثر عليها، وقد دفن روبنسون معها، جرى البحث عن الرصاصات الأخرى، كانت قد استقرت في داخل التاكسي. كان ذلك مسدساً قوياً.

جاءت صوفي للقائنا، كانت قد بحثت عن معطفي، عانقتني، وضغطت على جسدي بقوة، كما لو أنني كنت سأموت أنا بدوري أو أنني سأطير، «ولكنني لم أمت! كنت أحاول جاهداً أن أكرر لها، لم أمت، هيا يا صوفي» وما كان ممكناً لهذا أن يهدئ من روعها.

شرعنا في نقاش مع السكرتير المفوض حول النقالات والمحامل التي كان السكرتير قد رأى الكثير منها، وحول الجرائم، واللجرائم، والكوارث، كان يود أن يروي لنا تجاربه دفعة واحدة، ولم نعد نجرؤ على المغادرة كي لانغضبه، كان ودوداً جداً. وقد أسعده أن يتحدث للمرة واحدة، مع أناس متقنين، وليس مع سوقة، ولكي لا نزعجه إذن، رحنا نتسكع في أرجاء مركزه. لم يكن لدى بارابين معطف واق من المطر، وكان غوستاف وهو يصغي إلينا يهدد ذكاهه، كان يحتفظ بقمه مغلقاً، وقد مد عنقه الغليظ كما لو أنه كان يجر سيارة، لم أكن قد سمعت بارابين يتحدث بهذا القدر من الكلمات منذ العديد من السنوات، منذ أيام دراستي، والحق يقال، كل ما حدث في هذا اليوم كان قد أتمله.. قررنا العودة إلى المشفى مع ذلك. اصطحبنا ماندامور معنا، أما صوفي التي كانت تحتضنني من وقت إلى آخر والتي كان جسدها مفعماً بقوى من القلق والحنان، وقلبها أيضاً، وكل خلية من جسمها، فكنت أستمد منها شحنة عظيمة من القوة. كنت متضايقاً، لم تكن تلك قوتي، كنت في حاجة إلى قوتي أنا كي أذهب لأموت على نحو رائع ذات يوم، مثلما مات

ليون، لم يكن ثمة وقت أضيعه في العبوس والتجهم، إلى العمل! كنت أقول
لنفسي ولكن الموت لم يكن يأتي.

لم تكن صوفي تود أيضاً أن التقت كي أشاهد الجثة مرة أخرى، خرجت
إذن دون أن أنفتت. «أغلق الباب» كان ذلك مكتوباً. كان بارابين ظمناً، لفرط ما
تكلم من دون شك، لفرط ما تكلم لنفسه، لدى مرورنا أمام حانة القناة، قرعنا بأيدينا
مصراع الشباك فترة قصيرة من الوقت، أعاد ذلك إلى ذاكرتي طريق نوارسور،
خلال الحرب، الضوء الشحيح ذاته فوق الباب، على وشك الانطفاء، جاء المعلم
بنفسه ليفتح لنا الباب، لم يكن يعلم بما جرى، وقد أخبرناه نحن بخبر الدراما التي
حدثت. «دراما الحب» كما كان يسميها غوستاف.

تفتح الحانة أبوابها قبل الفجر تماماً، من أجل ربانة الزوارق. كان هويس
القناة قد بدأ بالدوران ببطء في آخر الليل، كان المشهد مفعماً بالحوية، كانت
الضفاف تتفرج عن النهر بهدوء شديد، ثم تصعد عالياً فوق الماء من الجانبين.
انبثق العمل من قلب العتمة. بدأت نرى كل شيء، بسيطاً جداً، قاسياً جداً، عرائش
الكروم هنا، حباتك الأحطاب المركومة هناك، وفي البعيد، على الطريق، يعود
الرجال من أماكن قصية، يتسربون داخل النهار القدر رزماً صغيرة مرتعدة،
يغسلون وجوههم بضوء النهار، فيما هم يمرون أمام الفجر، إنهم يذهبون بعيداً،
لا يرى سوى وجوههم الشاحبة البسيطة. وما تبقى يلفه الليل البهيم، سيكون عليهم
جميعاً أن يموتوا ذات يوم أيضاً. ترى، كيف سيفعلون ذلك؟.

إنهم يصعدون نحو الجسر، وبعده يتوارون قليلاً قليلاً داخل السهل،
ويأتي بعدهم آخرون دوماً، رجال، يبدون أكثر شحوباً أيضاً، كلما كان النهار
يصعد من جميع الأقطار، ترى بأي شيء يفكرون؟.

كان الخمار يريد أن يعرف كل شيء عن الدراما، عن ظروفها، وقد
روينا له كل شيء.

كان يدعى فودسكال، فتى من الشمال، نظيف جداً وقد روى له غوستاف أيضاً المزيد من التفاصيل.

كان غوستاف لا يفتأ يكرر الحديث عن ظروف الحادث، لم يكن ما يرويه مهماً مع ذلك، كان يضع من جديد بين الكلمات، ولما كان ثملاً، فقد عاود الحديث من جديد، كل ما في الأمر أنه لم يعد لديه ما يقوله آنئذ، أي شيء. كنت سأصغي إليه مع ذلك أيضاً، بكل هدوء، على غرار نعاس ثقيل، ولكن الآخرين احتجوا حينئذٍ على حديثه مما جعله يستشيط غضباً.

ولشدة غضبه، فقد نهض ليصطدم بقوة بمدفأة صغيرة. فانهارت بكاملها، وانقلب كل شيء عالياً سافلاً، الأنبوب وشبكة الجمر، والفحم المشتعل، كان ماندامور قوياً، يعادل أربعة رجال.

رغب بعد ذلك في أن يرينا الرقص الحقيقي فوق النار، فخلع حذاءه وجعل ينط وسط الجمر.

خطر لبارابين أن ماندامور كان يريد منه أن يبعده عن النار مستفيداً من كونه ثملاً.

أبعده بارابين عن النار، وأشعره بالخلج من نفسه. دفعنا ماندامور جميعاً إلى طرف الطاولة، وانهار أخيراً، متعقلاً، وهو يطلق آهات عالية، وروائح ثقيلة، ثم غرق في النوم.

من بعيد أطلقت سفينة الجر صفارتها، اجتاز نداؤها الجسر، وقنطرة أيضاً. ثم أخرى، هويساً آخر، جسراً آخر بعيداً، بعيداً جداً، كانت تدعو إليها قوارب النهر جميعها، والمدينة كلها، والسماء والبرية، ونحن. كانت تقودنا نحوها؛ والسين أيضاً، وكل الأشياء التي لم نعد نتحدث عنها قط.



حسن عودة

- مجاز في الآداب، جامعة دمشق، قسم اللغة العربية، عام ١٩٧٠.
- مدرس للغة العربية وآدابها في مدارس الأونروا خمسة وعشرين عاماً.
- مترجم عن اللغة الفرنسية.
- ترجم خمسة عشر كتاباً، منها :
 - ❖ الصورة - الحركة: للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، وزارة الثقافة.
 - ❖ الصورة - الزمن: للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز - وزارة الثقافة.
 - ❖ حياتي وأفلامي: لمخرج الفرنسي جان رينوار، وزارة الثقافة.
 - ❖ رحلة في أقاصي الليل: رواية للكاتب فرديناند سيلين، وزارة الثقافة.
 - ❖ موت بالتقسيم: رواية للكاتب فرديناند سيلين، قيد الطبع.
 - ❖ الكهانة العربية قبل الإسلام: للمؤرخ الفرنسي من أصل لبناني توفيق فهد، دار قدس.
 - ❖ اللغة والمرأة: بحث في الصوفية وعلم النفس للدكتورة حورية عبد الواحد، دار بدايات.
 - ❖ الهوية غير المكتملة: حوار مع الشاعر أدونيس أجرتة الشاعرة الفرنسية شانتال شواف. دار بدايات.
 - ❖ أحاديث مع والدي: حوار أجرتة نينار أدونيس مع والدها الشاعر أدونيس. قيد الطبع.

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

عن الكاتب والرواية

مات سيلين في عزلة دون أن يحظى في حياته بشهرة أو مال، مات كاتباً ملعوناً بسبب التهمة التي التصقت به بأنه معادٍ للسامية. غير أن هذا الكاتب المعذب الروح، المسافر أبداً في أعماق الليل يركض خلفه الجميع اليوم، لعلمهم يقتنصون خيطاً واحداً من ضوئه وها هوذا الضوء يغمره في كل مكان، وينفض الغبار عن رواياته، ويعترف أعظم الروائيين اليوم بأنه أحد معلمي الرواية الكبار في القرن العشرين.

ترتبط رائعة سيلين «رحلة في أقاصي الليل» بسيرته الذاتية، بوجهيها الواقعي والنفسي، وبتحريته الشخصية في إدراك واقع عصره، والانطلاق منه إلى تأمل وضع البشرية. وأهم ما يميزها هو تلك الروح الهجائية اللاذعة والمرة التي تخللتها إزاء المجتمع الفرنسي وإزاء المتحكمين بمصيره.

تتميز هذه الرواية بثورتها الأسلوبية والجمالية، وقد كتب الكثير عن أسلوب سيلين منذ صدور الرواية عام ١٩٣٢، فصنف فرويد أسلوب سيلين ضمن النزعة العدمية، ورأى برناتوس بأن عدمية سيلين منحازة إلى الفقراء، وأكد ثرونسكي بأن الثورة الحقيقية للثقافة الفرنسية تعيش وتحقق وتتدفق من خلال أسلوب سيلين.

يقول سيلين: إنني أكتب للناس الجالسين في بيوتهم، وحين يقرؤني هؤلاء بصوت خافت يشعرون بأن أحداً يكلمهم، يتحدث إلى أعصابهم وليس إلى أذانهم، لأنني أكتب بحميمية فائقة.

